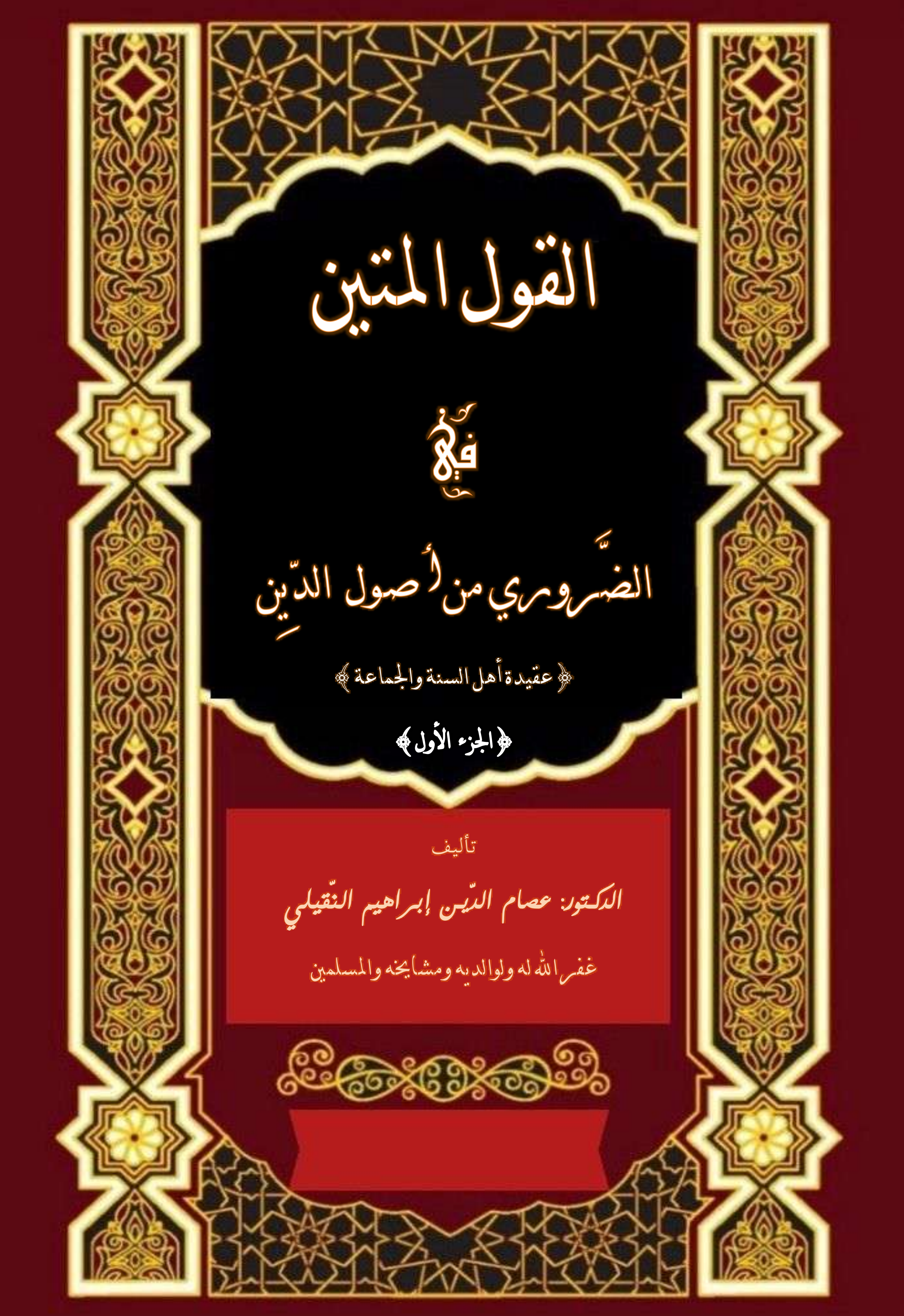

القول المتين
في
الضَّروري من أصول الدِّين
﴿عقيدة أهل السنة والجماعة﴾
﴿الجزء الأول﴾
تأليف
الدكتور: عصام الدِّين إبراهيم النّقيلي
غفر الله له ولوالديه ومشايخه والمسلمين

القول المتين

في

الضَّروري من أصول الدِّين

﴿الجزء الأول﴾

تأليف

الدكتور: عصام الدّين إبراهيم النّقيلي

غفر الله له ولوالديه ولمشايخه

وللمسلمين

آمين


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

يا ناظرًا فيمَا عمدتُ لجمعـــــهِ * عذرًا فإنَّ أخَا البصيرةِ يعــــــذرُ

واعلمْ بأنَّ المرءَ لوْ بلغَ المـــدَى * في العُمرِ لاقَى الموتَ وهوَ مقصِّرُ

فإذا ظفرتَ بزلَّةٍ فافْتحْ لـــــــهَا * بابَ التَّجاوزِ فالتَّجاوزُ أجــــدرُ

ومنَ المحالِ بأن نرَى أحدًا حوَى *كُنهَ الكَمالِ وذَا هوَ المتعــــذِّرُ[1]

---

[1]**عَلَمُ الدِّينِ الْقَاسِمُ بْنُ أَحْمَدَ الأَنْدَلُسِيُّ ، كتاب "أسنى المقاصد وأعذب الموارد."**

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 177].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: 49].



﴿العقيدة﴾

هي:

﴿العلم بالأحكام الشرعية العقديَّة، المكتسبة من الأدلة النَّقليَّة الصحيحة اليقينية والظنيَّة﴾

﴿ورسوخ كل ذلك في القلب، مع الإقرار باللسان، والعمل بمقتضاه بالجوارح﴾[1].

[1] تعريف الدكتور عصام الدين إبراهيم للعقيدة.

اعلم أنَّ العلم الوحيد الذي يشترط في حامله والعالم به، أن يكون عاملا به، وراسخا في قلبه، ومقرا به بلسانه، هو علم العقيدة، ليستحق بذلك أن يوصف بالعالم، فيمكن لفقيه أن يكون غير عامل بفقهه، ويصح أن تطلق عليه فقيه، ولكنَّه غير عامل بما يعلم، وكذا المفسر، وكذا في سائر العلوم، قال تعالى: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ}[البقرة: 146]، فشهد الله لأحبار اليهود بمعرفة الكتاب، كما شهد بأنهم يكتمون الحق، فهم يعلمون ولا يعملون، ومع ذلك شهد لهم بالمعرفة، كذلك قوله تعالى: { وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ * وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ * أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ}[الشعراء: 192 – 197]، فعلماء بني إسرائيل يعلمون أنَّ ما في القرآن من أحكام هو الحق، ويعلمون أنَّ تنزيله حق، ولم يعملوا به، ولم يرسخ في قلوبهم، ومع ذلك سماهم الله علماء؛ لأنهم علموا منهُ الأحكام والتفسير إجمالا، وأنه من الله تعالى، دون تفصيل في عقيدته، فحقَّ عليهم اسم العلماء حتَّى وإن لم يعملوا بما علموا؛ لأنه سبحانه تحدث عن الكتاب إجمالا دون تفصيل، ولكنَّ لو تعلموا العقيدة الصحيحة دون عمل بها، ولا نطق بحقيقتها، ولا إقرار بالقلب، لما سمُّوا علماء، لوجوب رسوخ العقيدة في قلب العالم، والعمل بها، كي يكون عالما بالعقيدة؛ ويحق عليه اسم (عالم)، ولكن لو رسخ علم العقيدة في قلوبهم، لنطق به اللسان، وعملت به الجوارح، وحينها لصاروا مسلمين، ولكنَّهم علموا تفسيره، وحكمه، وأنه حق فقط، دون اعتقاد صادق، ولا عمل به، ولا نطق بحقيقته، فسموا علماء باعتبار أنهم يعلمون أنه حق بإجماله، دون تفصيل في عقيدته، وهذا لا ينطبق على علم العقيدة الصحيحة، فمن لم يعمل بما يعلم منها فهو ليس عالما، وإن لم يقر بعلمه بها بلسانه بها فليس عالما، وإن لم يرسخ كل ذلك في قلبه فليس بعالم، لذلك كان تعريفنا لعلم العقيدة، تعريفا بماهية العقيدة وماهية حاملها.

فإنَّه كان يكفي لنا أن نقول: علم العقيدة هو: {العلم بالأحكام الشرعية العقديَّة، المكتسبة من الأدلة النَّقليَّة الصحيحة اليقينية والظنيَّة} وهو حد جامع مانع في الظاهر، ولكنَّ هذا يفتح الباب لكل أحد حتى من غير المسلمين أن يكون ذو عقيدة سليمة، حيث أنه عالم بالأحكام الشرعية العقدية المكتسبة من الأدلة النقلية اليقينية والظنية، وهذا لا يكون، فلا يكون صاحب العقيدة السليمة إلا مسلما، لذلك اضطررنا أن نقول: ورسوخ كل ذلك في القلب، مع الإقرار باللسان، والعمل بمقتضاه بالجوارح.

﴿بسم الله الرحمن الرَّحيم﴾

وبه نستعين

عن يحيى بن يعمر؛ قال: كان أوَّل من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين فقلنا: لو لقينا أحد من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عمَّا يقول هؤلاء في القدر، فوُفِّق لنا عبد الله بن عمر بن الخطَّاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي فقلت: أبا عبد الرحمن! إنَّه قد ظهر قبلنا ناس يقرؤون القرآن ويتقفَّرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنَّهم يزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف، قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر! لو أنَّ لأحدهم مثل أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه، ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني أبي عمر بن الخطاب، قال: بينما نحن عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبيِّ ﷺ فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلَّا الله وأَنَّ محمَّدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجَّ البيت، إن استطعت إليه سبيلا}، قال: صدقت، قال فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: {أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره}، قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: {أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنَّه يراك}، قال: فأخبرني عن السَّاعة، قال: {ما المسؤول عنها بأعلم من السائل}، قال: فأخبرني عن أمارتها، قال: {أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة

العراة العالة رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان}، قال ثمَّ انطلق، فلبثت مليًّا، ثمَّ قال لي: {يا عمر أتدري من السائل؟} قلت: الله ورسوله أعلم، قال: {فإنَّه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم}[1].



[1] **صحيح مسلم 8.**

﴿ مقدّمة ﴾

يرجى قراءة المقدمة:

الْحَمْدُ للهِ الأَحَدُ الصَّمَدُ الِذي لَمْ يَلَدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُؤًا أَحَدٌ، جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ، نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ، وأَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، جَامِعِ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ.

والصَّلاةُ علَى النَّبيِّ محمَّدٍ الماحِي الذي يَمْحُو اللَّهُ به الكُفْرَ، والحاشِرُ الذي يُحْشَرُ النَّاسُ علَى قَدَمِهِ، والعاقِبُ الذِي ليسَ بعدَه نَبيٌّ[1]، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجهم إلى يوم الدين، وسلم تسليما كثيرا.

﴿ يَا أَيُّهَا الذِّينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونْ ﴾ [آل عمرن: 102].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النّساء: 1].

﴿ يَا أَيُّهَا الذِّينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: 70 – 71].

أمَّا بعد:

فإنَّ أصدق الحديث كتاب الله عزَّ وجل، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

وبعدُ:

فإنّ الله تعالى اصطفى هذه الأمّة على سائر الأمم، فأرسل فيها خير رسله ﷺ وأنزل عليهم خير كتبه، ومكنَّ لهم الدّين، وهداهم الصّراط المستقيم، قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً

[1] روى البخاري بسنده إلى جبير بن مطعم قال: قال رسول الله : إنَّ لي أسماءً، أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب (4896). وللترمذي: والعاقب الذي ليس بعده نبي.

﴿وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: 143]، **والوسط هنا هو الأحسن، قال ابن كثير: والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسبًا... ولمّا جعل الله هذه الأمّة وسطاً خصّها بأكمل الشّرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى:** ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: 78][1].

كذلك جعل الله تعالى هذه الأمة أمّة وسطيّة بين الغلوّ والجحود، وردّهم إلى الحنفيّة السّمحاء ملّة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، بعدما تخبطّ الأسبقون في غيابات الشّرك والبدع والضلالات، قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: 78]، **وقال سبحانه:** ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: 123]، **وهذه الآية هي من أقوم الحجج، على صحة دين وشريعة محمد ﷺ، فانظر كيف يأمر سبحانه خاتم النبيين باتباع ملة إبراهيم، يفهم من هذا أنَّ النبي ﷺ لم يأتي بجديد، بل قال ما قاله إبراهيم من قبله، كما قال تعالى آمرا لنبيه:** ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: 161]، **وهذا الأمر ليس خاصا بالنبي محمد ﷺ فقط، بل هو لكلِّ النبيين سواء من قبل إبراهيم أو بعده فكلهم على ملة واحدة، يقول الحق تبارك وتعالى:**

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

[1] **تفسير ابن كثير.**

فكلهم على عقيدة واحدة ودين واحد مع اختلاف في بعض شرائعهم، يقول الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴾[المائدة: 48]، يفهم من هذا أنَّ الدين عند الأنبياء كلهم واحد، ولكن الاختلاف يكون في الشرائع.

ودين كل الأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ هو الإسلام، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران: 19].

الفرق بين الشريعة والدين:

وليتبين لنا الفرق بين الدين والشريعة وجب علينا تعريف الشريعة، والدين، والإسلام:

الشريعة لغة:

تطلق الشريعة على مورد الشاربة للماء، واشتق من ذلك الشرعة في الدين، كما قال ابن فارس[1].

وتطلق الشريعة على المثل، كما قال الجوهري: ويقال أيضا هذه شرعة هذه، أي مثلها[2].

وتطلق الشريعة على الظاهر المستقيم من المذاهب، كما ذكره الفيروز آبادي[3].

والشريعة اصطلاحا:

تطلق الشريعة ويراد بها: ما شرع الله تعالى لعباده من الأحكام التي جاء بها نبيٌّ من أنبياء الله تعالى.

والشريعة إذا أطلقت، يراد بها الدين كله سواء الأحكام الأصلية العقدية أو الفرعية.

وإن قيدت فإنه يراد بها توحيد جميع الأنبياء في الأصل العقدي، مع التفريق في الأحكام الفرعية، فتقول: هذه شرعة موسى، وهذه شرعة عيسى، وهذه شرعة إبراهيم عليهم السلام.

والدين لغة:

حاء في مختار الصحاح: والدين بالكسر العادة والشأن، ودانه يدينه دينا بالكسر، أذله

---

[1] راجع: كعدم مقاييس اللغة لابن فارس 262/3.

[2] راجع: الصحاح للجوهري 236/3.

[3] راجع: القاموس المحيط للفيروز آبادي 732.

واستعبده فدان...والدين الجزاء والمكافأة، يقال دان يدينه أي جازاه[1]، قال تعالى: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[الصافات: 53]، **قال الطبري: يقول: أإنا لمحاسبون ومجزيُّون بعد مصيرنا عظاما ولحومنا ترابا[2].**

والدين اصطلاحا:

عرَّف ربُّنا سبحانه وتعالى الدِّين بأنه الإسلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامِ﴾[آل عمران: 19].

فإذا أُطلق الدين، أُريد به الإسلام، وإذا قيِّد يراد به الشريعة، فقولك دين النصارى، فأنت تريد شريعتهم لأن الدين عند الله واحد وهو الإسلام.

والإسلام لغة:

هو الانقياد والخضوع والذل؛ يقال: أسلم واستسلم، أي: انقاد[3].

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ﴾[الصافات: 103]، **أي: فلمَّا استسلما لأمر الله تعالى وانقادا له.**

والإسلام شرعا:

يأتي على معنيين:

المعنى الأول: الإسلام الكوني القدري: وهو استسلام جميع الخلائق لأوامر الله تعالى الكونية القدرية.

من ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَ إِلَيْهِ يُرجَعونَ﴾[آل عمران 83].

---

[1] راجع: مختار الصحاح للجوهري مادة دان.

[2] ينظر: تفسير الطبري.

[3] راجع: مختار الصحاح 1952/5، ولسان العرب 293/12.

فكل مخلوق هو مستسلم بالضرورة لله تعالى ومنقاد لأوامره الكونية سواء رضي بذلك أم لم يرضى، فلا مشيئة للمخلوق في الحياة والموت، ولا في غروب الشمس من مغربها وشروقها من مشرقها، وغير ذلك من أمور الربوبية الكونية القدرية.

والقدر لغة:

بفتح الدال وسكونها: هو القضاء والحكم[1]، ويأتي بالتسكين، بمعنى القوّة والغنى والجاه.

والقدر اصطلاحا:

هو حكم الله تعالى النافذ في جميع خلقه برّه وفاجره، مسلم أو كافر، عاقل أو مجنون، فليس لهم الخيرة فيه.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾[فصلت: 11]، قال السعدي: أي: انقادا لأمري، طائعين أو مكرهين، فلا بد من نفوذه[2].

وبهذا الحكم حاجَّ إبراهيم عليه السلام النَّمرود فقال: ﴿قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[البقرة: 258]، فهذا حكم قدري لا مشيئة لأحد فيه.

المعنى الثاني: الإسلام الشرعي: وهو الاستسلام والانقياد لأوامر الله تعالى الشرعية.

وهذا الذي عليه مدار التكليف، والإنسان مخيَّرٌ فيه، فإن ائتمر بما أُمر به فجزاءه الجنة، وإلا فجزاؤه النار.

والإسلام الشرعي: ينقسم إلى قسمين:

إسلام شرعي عام.

وإسلام شرعي خاص.

أمَّا الإسلام الشرعي العام: فهو الدين الذي جاء به جميع الرسل.

---

[1] راجع مقاييس اللغة لابن فارس مادى (ق د ر).

[2] ينظر: تفسير السعدي.

والأدلة على ذلك على قسمين:

– أدلَّة عامة.

– وأدلَّة خاصَّة.

الأول: الأدلَّة العامَّة:

من ذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾[آل عمران: 52].

وقول تعالى: ﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾[المائدة: 44].

وقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران: 85].

الثاني: الأدلة الخاصة:

يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس: 72].

وقال تعالى حاكيا على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾[آل عمران: 67].

وقال أيضا حاكيا على إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[البقرة: 131].

وقال تعالى على لسان إسماعيل وأبيه عليهما السلام: ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾[البقرة: 128].

وقال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾[يوسف: 101].

وقال تعالى: على لسان حواريي عيسى عليه السلام: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ [المائدة: 111].

وقال تعالى على لسان ملكة سبأ: ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [النمل: 44].

وقال تعالى حاكيا عن نبيه محمد ﷺ: ﴿ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ﴾ [الأنعام: 14].

وأما الإسلام الشرعي الخاص:

فهي الشريعة التي جاء بها نبينا محمد ﷺ.

وقد بين النبي ﷺ الإسلام الشرعي بمعناه الخاص، وأنه الشرع الذي جاء به بقوله: {الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البين إنِ استطعت إليه سبيلا}[1].

كما بين النبي ﷺ: أنَّ دين الأنبياء إذا أطلق اللفظ؛ فإنه يعمُّ جميع أديان الأنبياء فقال: {الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد}[2].

يَعنِي: أنَّهم أُخَوةٌ لِأبٍ واحدٍ مِن أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ، وأولادِ عَلَّاتٍ، وهمُ الإخوةُ لِأبٍ واحدٍ مِن أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ.

قال الجوهري: بنو العلات هم أولاد الرجل من نسوة شتى سميت بذلك لأن الذي تزوجها على أولى كانت قبلها ثم عل من الثانية العلل الشرب الثاني يقال له علل بعد نهل وعله يعله إذا سقاه السقية الثانية.

وقال غيره: سموا بذلك لأنهم أولاد ضرائر والعلات الضرائر. وهذا الثاني أظهر[3].

والمعنى أنَّ دينهم واحد، وشرائعهم مختلفة، فيلاحظ ممَّا تقدَّم أنَّ الدِّين لا يتغيَّر وهو الإسلام والمراد به عقيدة التوحيد، وهو دين جميع الأنبياء كما تقدَّم، ولكنَّ الشريعة تتغير، فليست

---

[1] أخرجه مسلم 8.

[2] أخرجه أبو داود (4324) باختلاف يسير، وأخرجه البخاري (3443) مختصراً

[3] الجامع لتفسير ابن قيم الجوزية – المجلد 15 – الصفحة 206.

صلاة اليهود كصلاة النصارى (سابقا) كصلاة المسلمين، وكذلك في بعض من فروع الشريعة، ودليله قوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾[المائدة: 48].

والفرق بين الشريعة، والدين، والإسلام:

يتبين لنا ممَّا سبق، أنَّ الدِّين هو أصل الشرع، والشريعة هي فروع الدين، وتأتي الاختلافات في الشريعة أي: فروع الدين، على حسب سنن الأنبياء المبينة لما في كتبهم، قال ابن كثير في شرح الآية: والسنن مختلفة في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي الفرقان شريعة يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذي لا يقبل الله غيره: التوحيد والإخلاص لله تعالى، الذي جاءت به الرسل، ثم ذكر حديث: {نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد} يعني بذلك التوحيد الذي بعث الله به كل رسول أرسله، وضمنه كل كتاب أرسله[1].

والإسلام: هو الجامع بين الدين والشريعة لكل نبي من الأنبياء، فلا شريعة بلا دين، ولا دين بلا شريعة، فلا يكون العبد موحدا دون العمل بفروع الدين وهو الشريعة، وكذلك لا يكون العبد مسلما من باب أولى إن عمل بفروع الدين دون أصوله وهو التوحيد.

وكل الأنبياء متفقون في الإسلام الشرعي العام وهو الدين، ويتفرقون في الإسلام الشرعي الخاص، وهو الشريعة.

وعودا ببدء؛ فإنَّ فئة من المسلمين زاغوا عن طريق الصَّواب، فأحدثوا من البدع والضّلالات ما أحدثوا، منهم معبد الجهني وكان أوّل من تكلّم بالبصرة في القدر[2]، وهو الذي وضع حجر الأساس لمذهب القدر والاعتزال ثم تبعه غيلان الدّمشقي، وكان النّاس قبل هذا لا يتكلَّمون في القدر، بل كانوا يخشون الكلام حتى في أبسط المسائل العقائديَّة، مثل الآيات المتشابهات، وكانوا يُمِرُّونها كما جاءت إن لم يفهموها، قال الرّبيع بن خثيم رحمه الله: يا عبد الله، ما علَّمك الله في كتابه من علم فاحمد الله، وما استأثر عليك به من علم فكله إلى عالمه،

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: 256هـ)، الطبعة: دائرة المعارف العثمانية.

لا تتكلّف، فإنّ الله يقول لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص: 86]، **وقال الأوزاعي رحمه الله تعالى: كان مكحول والزُّهري يقولان: أمرُّوا هذه الأحاديث كما جاءت ولا تناظروا فيها**[1] **(يعني أحاديث الصِّفات).**

فقد كان للسّلف موقف واضح وصريح من الجدل والخصومات في مسائل الاعتقاد، حتى عدّوا الكلام والتَّمحُّل[2] **فيها من البدع، التي شدّدوا النَّكير على مقترفيها، وقصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع صبيغ بن عسل مشهورة معروفة:**

وفيها: أنَّ صبيغًا قدم المدينة وكانت عنده كتب، فجعل يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر رضي الله عنه فبعث إليه، وقد أعدّ له عراجين النَّخل، فلمَّا دخل عليه جلس، فقال له عمر رضي الله عنه: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال عمر رضي الله عنه: وأنا عبد الله عمر، ثمَّ أهوى إليه فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجَّه، فجعل الدم يسيل على وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي كنت أجد في رأسي[3].

هذا: والمسكين لا نحسبه مبتدعا ولا متأوِّلا، فلم يظهر هذا الأمر في عصرهم بعد، ولكنه كان طالب علم، لا يريد من ذلك إلا العلم فقط، فانظر ماذا كان جزاءه.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: الكلام في الدِّين (يريد أصول الدين، أي العقيدة) أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه، وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم والقدر، وكلّ ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلَّا فيما تحته عمل، (يريد فروع الدين، أي: الشريعة) فأمَّا الكلام في دين الله، وفي الله عزَّ وجلَّ، فالسكوت أحبُّ إليَّ، لأنِّي رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في دين الله إلَّا فيما تحته عمل[4].

---

[1] ((الاعتصام للشاطبي)) (336/2) وانظر ((جامع بيان العلم لابن عبد البر)) (118/2).

[2] تمحَّل الشَّخصُ لبلوغ هدفه :احتال، التمس حيلة، سلك طرقًا ملتوية للوصول إلى الأمرِ – يُنظر معجم اللغة.

[3] ((الشريعة للآجري)) (73) ((سنن الدارمي)) (55/1) ((شرح أصول السنة– اللالكائي)) (634/4) ((عقيدة السلف وأصحاب الحديث للإمام أبي إسماعيل عبد الرحمن بن إسماعيل الصابوني)) (51) ((تفسير ابن كثير)) (390/7) ((الإصابة في تمييز الصحابة)) (458/3).

[4] ((جامع بيان العلم)) (116/2).

وقال أبو عمر بن عبد البرّ رحمه الله تعالى: والذي قاله مالك رحمه الله، عليه جماعة العلماء قديما وحديثا، من أهل الحديث، والفتوى، وإنَّما خالف ذلك أهل البدع: المعتزلة وسائر الفرق، وأمَّا الجماعة فعلى ما قال مالك[1] وذلك فيما لم تكن هناك ضرورة، كردِّ باطل أو خوف من ضلالة أن تعم، فالواجب بيان الحقِّ ودفع الباطل على ما أشار إليه ابن عبد البرِّ رحمه الله[2].

ولكن مع هذا فقد انتشرت أفكار القدريَّة والجبريَّة ومن حذا حَذوهم، ممّا اضطرّ أهل السنّة للردّ علَى هؤلاء بالمناظرة ودحر الشُّبهة بالحجَّة، فلمّا كتب هؤلاء الرّسائل، كتب أهل السنّة للردّ عليهم أوّلا، ثمّ كتبوا الكتب ليبيّنوا للنَّاسِ حقيقة دينهم، وبدأ هذا في حياة التَّابعين، وإن وقعت في زمن النبي ﷺ صور من الكتابة والتّدوين، وابتدأ رسميا بعد ذلك الإمام الزُّهري رحمه الله تعالى، ثم شاع ذلك في النّصف الأوَّل من القرن الثَّاني الهجري كما فعل الإمام مالك في الموطأ، حيث رتَّبت الأحاديث على أبواب تتعلَّق بالتوحيد مثل: باب الإيمان، وباب التوحيد، وباب العلم، وهكذا....

ولعلّ هذا التَّبويب للأحاديث كان النَّواة الأولى في استقلال كلّ باب فيما بعد بالتَّصنيف والبحث.

وممّا أوقد جذوة التّدوين، ما وقع في آخر زمن الصَّحابة من بدع واختلاف في العقيدة، كما في مسألة القدر، ومسألة التشيُّع والغلوّ في آل البيت رضي الله عنهم، وفتنة عبد الله بن سبأ مؤجج الفتنة على عثمان رضي الله عنه، كما وقعت بدعة الخوارج فقد صرَّحوا بالتَّكفير بالذُّنوب، وبعد ذلك نشأ مذهب المعتزلة على يد واصل بن عطاء، وصنَّف (هذا الأخير) في مسائل من العقيدة ما خالف به الصَّحابة والتَّابعين، وخرج على إجماع خير القرون في الاعتقاد، فتصدّى له التّابعون بالردّ عليه والمناظرة في هذه المسائل، ثم بدأ التّصنيف في عقيدة أهل السنَّة حين أصبح ضرورة لابدّ منها لنفي تأويل المبطلين، وردِّ انحراف الغالين، وكان أوّلُ مُدَوَّنٍ في العقيدة هو كتاب (الفقه الأكبر) المنسوب لأبي حنيفة رضي الله عنه، رواه أبو مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، كما رواه حماد بن أبي حنيفة، وقد حدّد فيه مؤلِّفه عقائد

---

[1] السابق.

[2] السابق نفسه – وينظر: ((الشريعة للآجري)) (62).

أهل السنَّة تحديدًا غير منهجي، لكنّه ردّ فيه على المعتزلة، والقدريَّة، والجهميَّة، والشِّيعة، واشتمل على خمسة أبواب: الأوَّل في القدر، والثَّاني والثَّالث في المشيئة، والرَّابع في الردِّ على من يكفِّر بالذَّنب، والخامس في الإيمان، وفيه أحاديث عن الأسماء والصِّفات، والفطرة، وعصمة الأنبياء، ومكانة الصَّحابة، وغير ذلك من مباحث العقيدة[1]. (ينظر الحاشية)

وقد قيل: أنَّ واضعه الإمام مالك بن أنس، وأنه ألّف فيه رسالة، وقيل أيضا: أنه لمّا كثرت الفتن أمر المنصور بوضع كتب لإزالتها والردّ عليها[2].

كما ثبت أن الإمام ابن وهب رحمه الله تعالى وضع كتابا في القدر على طريقة المحدِّثين في جمع الأحاديث وإن كان دون تبويب.

ثمَّ تتابع التَّأليف في علم التَّوحيد ولكن بأسماء مختلفة لهذا العلم، فمن ذلك كتاب الإيمان، لأبي عبيد القاسم بن سلام، وتبعه على هذا كثيرون إلى يوم النَّاس هذا، كما ظهر مصطلح السنَّة للدَّلالة على ما يسلم من الاعتقادات، واشتهر ذلك في زمن الإمام أحمد رضي الله عنه، ومن الكتب المصنَّفة باسم (السنَّة)، كتاب السنَّة لابن أبي شيبة رحمه الله تعالى، والسنَّة للإمام أحمد رضي الله عنه، وغير ذلك، ثم ظهر مصطلح التَّوحيد في مثل كتاب التَّوحيد لابن سريج البغدادي رحمه الله تعالى، وكتاب التَّوحيد لابن خزيمة رحمه الله تعالى، وواكب ذلك ظهور مصطلح أصول الدِّين، ثم ظهر التَّأليف باسم العقيدة في أوائل القرن الخامس الهجري، واستقرَّت حركة التَّصنيف ومنهج التَّأليف، واستقلَّ علم التَّوحيد علما متميِّزا عن غيره بلقب ومنهج مخصوص[3].

---

[1] كتاب الفقه الأكبر المنسوب إلى الأمام أبي حنيفة النعمان رحمه الله، من رواية حماد بن أبي حنيفة، أو من رواية أبي مطيع الحكم بن عبد الله البلخي، كلاهما لا يصح عن أبي حنيفة رحمه الله، مع اشتمالهما على مسائل مخالفة لمذهب أهل السنة والجماعة، كما بينه الدكتور عبد العزيز بن أحمد الحميدي في كتابه: براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة، ص (46– 71) ، لكن الكتاب مشهور عند الحنفية، ومعتمد لدى أكثرهم، وفيه تقرير جيد لبعض الصفات، كالعلو، ولهذا استشهد به ابن قدامة وابن تيمية وابن القيم والذهبي رحمهم الله.

وقد شرحه الدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس في كتاب أسماه: "الشرح الميسر على الفقهين الأبسط والأكبر المنسوبين لأبي حنيفة".

[2] ((اللؤلؤ المنظوم في مبادئ العلوم لمحمد أبي عليان الشافعي)) (237) بتصرف.

[3] علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة لمحمد يسري– 207. موقع: الدرر السنية بتصرف.

ومن أحسن الكتب في علم العقيدة (منهاج السنَّة النبويَّة في نقض كلام الشِّيعة والقدريَّة) و(العقيدة الواسطيَّة) و(الحمويَّة)[1] لابن تيميَّة رضي الله عنه، وسائر كتبه في العقيدة، وكتاب (السنَّة) لعبد الله بن أحمد بن حنبل، و(الاعتصام) للشاطبي، كذلك سائر كتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى؛ ولم يتوقَّف أهل السنّة عن الكتابة في العقيدة إلى الآن لضرورتها، فعلم العقيدة هو العلم الأسمى والأوجب على المسلمين، هذا لأنّ العقيدة السّليمة هي الضّامن الوحيد للنّجاة من الخلود في دار البوار، وأنّ غيرها من العبادات لا يتحقّق نفعها إلّا بتحقيق العقيدة السّليمة، فالواجب على الفطن الحذق، أن يتعلّم ما يلزم تعلّمه من أصول وفورع هذا الدين، كي ينجو النّجاة التامّة يوم لا ينفع مال ولا بنون؛ ولا شكّ أنّ العقيدة الإسلاميّة هي السّبب الوحيد لتحقيق السّعادة الأبديّة، وهي عقيدة واجبة على الأنام، ثابتة الأركان، لا تتغيّر بتغيّر الأماكن والأزمان، ولمّا كان الأمر كذلك، كتب فيه العلماء المؤلّفات كما أشرنا سابقا، فمنها المطوّلات، ومنها المختصرات ومنها المنظومات، فأردت أن أركب مركبهم، وأورد مشربهم، وأحذو حذوهم، وأقتفي أثرهم، وأتشبّه بهم إن لم أكن منهم، كما قيل:

فتشبَّهوا إن لم تكونوا مثلهم * إن التشبُّه بالكرام فلاح[2]

فلا عيب على المقصِّر أن يتشبَّه بأهل الجدِّ والعزمِ، عسى أن يُكتب منهم، فقد روي عن ابن عمر قال: ابْكُوا، فإنْ لمْ تَجِدُوا بُكَاءً فَتَباكَوْا[3]، أي: تشبَّهوا بالباكين، ويكفي طالب العلم نعمةً

---

[1] كان الإمام ابن تيمية غالبا ما يسمي رسائله وإجاباته على الأسئلة بأسماء من سألوه أو مواطنهم، من ذلك التدمرية، فإنَّ السائل من تدمر، والواسطية لأن السائل من واسط، والحموية لأنَّ السائل من حماة. والله أعلم.

[2] البيت لأبي الفتوح يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي (بالفارسية: شهاب الدين سهروردى) ويلقب بشهاب الدين، واشتُهر باسم السهروردي المقتول، وأبو الفتوح فيلسوف إشراقي (صوفي)، شافعي المذهب، ولد في سهرورد الواقعة شمال غربي إيران، وقرأ كتب الدين والحكمة ونشأ في مراغة وسافر إلى حلب وبغداد، حيث كان مقتله بأمر صلاح الدين بعد أن نسب البعض إليهِ فساد المعتقد وظن صلاح الدين أن السهروردي يفتن ابنه بالكفر والخروج عن الدين وكان مقتله في قلعة حلب سنة 586 – للمزيد يُنظر (وفيات الأعيان لابن خلكان – والأعلام للزركلي).

[3] موقوف صحيح، رواه عبدالله بن أبي مليكة في صحيح الترغيب – 3328 – صححه الألباني.

أن يترك أثرًا من بعده، فقد قال ﷺ: {إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عنه عَمَلُهُ إِلَّا مِن ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِن صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو له}[1].

وعلى هذا أردت أن أساهم بكتاب بسيط سهل، يكون تبصرة للمبتدِي، وتذكرة للمنتهِ[2]، يقرّب الأقصى بلفظ موجزِ، ويبسط البذل بوعد منجزِ[3]، وأذكّر بهِ نفسِي، فالعلم صيد والكتابة قيده[4]، وكما قال القرطبي في تفسيره: وعملته تذكرة لنفسي، وذخيرة ليوم رمسي، وعملا صالحا بعد موتي[5].

ولعلّ الله يتقبّله مني ويحشرني في زمرة أهل العلم، هذا؛ وأسأل الله العظيم أن يتقبّله منّي وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلني وقارئه من عباده المخلصين، وأن يغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا وللمسلمين، وصلَّى الله على نبيّنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلَّم، والحمد لله ربّ العالمين.

وكتب

الدكتور: عصام الدّين إبراهيم النقيلي

غفر الله له ولوالديه ومشايخه والمسلمين



---

[1] صحيح أخرجه مسلم عن أبي هريرة **1631**.

[2] مقتبس من ألفية العراقي.

[3] ألفية ابن مالك، إلَّا أنَّ البيت في الألفية على التَّأنيث وهنَا مذكَّرٌ لأنَّ اللَّفظ يقتضي ذلك.

[4] نصف بيت منسوب للإمام مالك ونُسب لسحنون باختلاف وخلل في الوزن في الشطر الأخير، ونسب للشافعي.

قول الإمام مالك أو الشافعي:

العلمُ صيدٌ والكتابة قيــــدُهُ * قيّدْ صيودَك بالحبال الواثقهْ

فمن الحماقة أنْ تصيدَ غزالةً * وتفكَّها بين الخلائق طالقــهْ

قول سحنون:

العلمُ صيدٌ والكتابة قيـــــدُهُ * قيّدْ صيودَك بالحبالِ الموثقهْ

ومن الحماقة أن تصيدَ حمامةً * وتتركها بين الأوانسِ مطلقــهْ

للمزيد يُنظر شبكة الألوكة مقالة: جهود في تصحيح نسبة الشعر – د. عبدالحكيم الأنيس.

[5] تفسير القرطبي المجلد الأوَّل صـ 3.



الباب الأول
التمهيدات

﴿التمهيد الأول﴾

﴿مبادئ علم العقيدة﴾

اعلم أيّها المبارك وفّقني الله وإيّاك لما يحبّ ويرضى أنّ لكلّ فنّ عشرة مبادئ ينبغِي لطالبِ ذلكَ العلمِ أن يدرسهَا، وهذَا كي يتصوَّرَ ذلكَ الفنَّ قبلَ الشُّروعِ فيه، وقد جمعهَا الشيخ أحمدُ بن يحيى[1] رحمه الله تعالى فِي أبيات أربعة وقالَ:

مَـنْ رامَ فنَّـــــا فلْيُقــدّمَ أوَّلَا * علمًا بحدِّهِ وموضوعٍ تـــــلَا

وواضـــعٍ ونِسْبةٍ ومَا استمـــدْ * منهُ وفضلِه وحكمٍ يُعتمـــدْ

واسمٍ ومَا أفادَ والمســـــــائلْ * فتلكَ عشرٌ للمُنَى وســـائلْ

وبعضُهمْ منهَا علَى البعضِ اقتصرْ * ومَنْ يكنْ يدرِي جميعَهَا انتصرْ

المبدأُ الأوّل: الحد (أي التّعريف):

العقيدة لغة:

على وزن فعيلة بمعنى مفعولة، مأخوذة من العقد، وهو ربط الشّيء بإحكام[2].

ومنها قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الأَيْمَانَ﴾ [المائدة: 89].

العقيدة اصطلاحا:

العقيدة في الاصطلاح لها تعريفان، تعريف عام وتعريف خاص:

أولا: التَّعريف العام، فالعقيدة:

الإيمان الجازم، والحكم القاطع الذي لا يتطرَّق إليه الشك لدى المعتقد، بصرف النظر عن نوع الاعتقاد حق هو أو باطل[3].

ويظهر لنا من هذا التّعريف، أنّ العقيدة في التّعريف العام على قسمين:

---

[1] الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى، أبو العباس، المقّري، التّلمساني، المالكي، المؤرخ الأديب المتوفى سنة 1040 هـ، وهو صاحب الكتاب القيم المشهور "نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرطيب".

[2] ينظر: لسان العرب مادَّة عقد.

[3] سلسلة العقيدة الصَّحيحة لـ : "محمد صالح المنجد".

1 – عقيدة صحيحة.

2 – وعقيدة فاسدة.

وعلى هذَا فإنَّه لا تُعتبر العقيدة صحيحة إلّا إذا كانت مطابقة للواقع وموافقة للحقيقة، خلافا لمعنى العقيدة العام؛ فإنّه يحتمل صحّة العقيدة وفسادها، فعقيدة البوذيين تسمى عقيدة، لكنّها غير مطابقة للواقع؛ لأنهم يقولون بوذا ألَّهُ ويقولون بتناسخ الأرواح وينكرون البعث والحساب، وهذا غير مطابق للواقع ومخالف للحقيقة، فعقيدتهم تسمّى عقيدة؛ لأنّهم يؤمنون إيمانا جازما بما يعتقدون، لكنّها غير مطابقة للواقع، فهذا يسمى جهلا مركَّبا.

وأمّا العقيدة الصحيحة، فيجب أن تكون مطابقة للواقع وموافقة للحقيقة، كاعتقاد المسلمين أنّ الله واحد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد، فهذَا اعتقاد موافق للحقيقة ومطابق للواقع، وعلى هذا يكون تعريف العقيدة الصّحيحة هو:

الاعتقاد الجازم المطابق للواقع الذي لا يقبل الشكّ[1].

والعقيدة الصّحيحة هي بدورها على قسمين:

1 – اعتقاد في غير الله تعالى.

2 – اعتقاد في الله تعالى.

– أمّا الاعتقاد في غير الله تعالى: كاعتقادك الجازم أنّ أمّك أرحم النَّاس بك بعد الله تعالى، فهذَا اعتقاد صحيح مطابق للواقع وموافق للحقيقة الملموسة والمحسوسة.

– وأمّا الاعتقاد في الله تعالى: فهو التّعريف الخاص للعقيدة الذي سنتناوله.

ثانيا التَّعريف الخاص للعقيدة هو:

الإيمان الجازم بالله تعالى، وما يجب له في ألوهيته وربوبيّته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرّه، وبكلِّ ما جاءت به النُّصوص الصَّحيحة من أصول الدِّين، وأمور الغيب، وأخباره، وما أجمع عليه السَّلف الصَّالح.

وهذا التعريف يسرده كل أهل العلم، والصحيح أنَّ هذا ليس حدًّا للعقيدة، بل هو موضوعها، ويجوز تعريف العلم بموضوعه، ولكنَّ الحدَّ أولى وأصح، كما يجب أن يكون مطردا منعكسا وموجزا، وهو كما ذكرناه في الباب، فالعقدية هي:

---

[1] مدخل لدراسة العقيدة الإسلاميَّة ص 122 لعثمان جمعة ضميرية بتصرف.

{ العلم بالأحكام الشرعية العقديَّة، المكتسبة من الأدلة النَّقليَّة الصحيحة اليقينية والظنيَّة، ورسوخ كل ذلك في القلب، مع الإقرار باللسان، والعمل بمقتضاه بالجوارح }.

فهذا يعتبر حدًّا، وهو جامع لكل شوارد العقيدة، مانع من دخول غيرها عليها، وكل ذلك بإيجاز، وأمَّا ما يسرده أهل العلم في تعريف العقيدة، فما هو بحد لها، بل هو موضوعها.

وكلُّ أمر ممَّا سبق ذكره في تعريفنا للعقيدة، أو ما ذكره أهل العلم حال تعريف العقيدة بموضوعها، سواء كان دليله ظنيًّا أو يقينيا، فإنِ اعتراه الشكُّ أو الاضطراب لا يسَّمى عقيدة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[الحجرات: 15]، قال الطبري: ثمَّ لم يرتابوا، يقول: ثمَّ لم يشكُّوا في وحدانيَّة الله، ولا في نبوّة نبيِّه ﷺ وألزم نفسه طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، والعمل بما وجب عليه من فرائض الله بغير شكّ منه في وجوب ذلك عليه[1].

فالعقيدة لابدَّ أن يكون مجزوماً بها ومقطوعاً بها، والقلب معقود عليها، سواء أكانت أدلتها ظنية أو يقينية، وهي تخصُّ الأعمال القلبيَّة غالباً من أمور الدِّين مثل: الإيمان، التَّصديق، الخوف، الرَّجاء، ونحو ذلك، ولا ترتبط بالأعمال الظاهرة إلَّا من جهة خاصَّة مثل: اعتقاد تحريم الرِّبا، والعمل بهذا الاعتقاد[2]، أو اعتقاد وجوب الصلاة، والعمل بهذا الاعتقاد...

ويظهر لنا من هذا التَّعريف أنّ موضوع العقيدة الصَّحيحة هو: الإيمان بالله تعالى، وملائكته وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرِّه، إيمانًا جازمًا، خالٍ من شوائب الشكّ والرِّيب[3].

وأشمل التّعريفات، تعريف النبيّ ﷺ لجبريل ﷺ لمّا سأله عن الإيمان، فقال: {أن تؤمنَ باللهِ وملائكتهِ، وكتبهِ، ورسلهِ، واليومِ، الآخرِ، وتؤمنَ بالقدرِ خيرهِ وشرِّهِ}[4].

وكذلك هنا عرَّف النبي ﷺ الإيمان وهو عين العقيدة، بأركانه ليسهل فهمه، ولم يعرِّفه بحدِّه.

---

[1] تفسير الطبري.

[2] سلسلة العقيدة الصَّحيحة لـ : "محمد صالح المنجد" بتصرف.

[3] الشَّوب: هو الخلط – الرَّيْبُ: الظَّنُّ والشكُّ والتُّهمةُ – انظر معجم المعاني.

[4] صحيح مسلم 8.

وعودا ببدء؛ فلقد تكلمنا على الأدلة اليقينية والظنية، ولعلَّ القارئ يظن أنَّ الظنَّ هو الشكَّ، أو أنَّ الظنَّ لا علاقة له باليقين، لذلك وجب علينا إبراز مفهوم أقسام العلم، ومراتب الإدراك إجمالا وشمولا، كي يتيسر لنا فهم معنى الظن فهما سليما، وهو على ما يلي:

مراتب الإدراك:

أولًا: العلم: المعنى اللُّغوي للعلم:

أصل مادة (علم) تدلُّ على أثر بالشَّيء يتميز به عن غيره[1]، فهو من العلامة والأثر[2].

ورجلٌ علَّامةٌ، أي: كثير العلم، والتاء للمبالغة، واستعلمه الخبر فأعلمه إياه[3].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي للعلم:

عرَّف الجرجاني العلم بأنَّه: الاعتقاد الجازم المطابق للواقع[4].

وعرَّفه المناوي بأنَّه: الاعتقاد الجازم الثَّابت المطابق للواقع؛ إذ هو صفةٌ توجب تمييزًا لا يحتمل النَّقيض، أو هو حصول صورة الشَّيء في العقل، والأول أخص[5].

وقيل هو: إدراك الشيء على ما هو به[6].

وقولهم: (الاعتقاد الجازم الثَّابت المطابق للواقع)، يقتضي انطباعًا في العقل بما يكون له أثرٌ وعلامة راسخة، كما أن دلالة أنَّه (صفةٌ توجب تمييزًا لا يحتمل النَّقيض) لبيان أن كلَّ معلوم بعد العلم به ينضبط بدقَّةٍ عالية يتميَّز من خلالها عن غيره من المعلومات، و(حصول صورة الشَّيء في العقل) فإنه بعد التمييز فإنَّ الصورة تتطوَّر إلى اعتقاد قلبيٍّ ثابت جازم، يطابق ذلك الواقع الذي عليه ذلك الأمر، والله تعالى أعلم.

وكما تلاحظ أنَّ الجماعة عرَّفوا العلم؛ بأنَّه الاعتقاد الجازم، والصحيح أن الاعتقاد لا يكون إلا جازما، وإلا فهو ليس اعتقادا، وعليه فلو قالوا؛ العلم هو الاعتقاد المطابق للواقع، لكفى بالمطلوب، هذا من باب، ومن باب آخر، فقد عرَّفوا العلم بركنه لا بحده، وركن العلم هو

---

[1] ينظر: مقاييس اللغة، ابن فارس 109/4.

[2] ينظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض 83/2.

[3] ينظر: لسان العرب، ابن منظور 12/ 417، مختار الصحاح، الرازي ص217.

[4] التعريفات، الجرجاني ص155.

[5] التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص246.

[6] الحدود الأنيقة، السنيكي ص66، ما بين القوسين هو زيادة من كلام المؤلف.

الاعتقاد الجازم أو الثابت كما عرفوه، وهذا ليس حدًّا له، بل تعريفٌ للشيء بركنه، أو بموضوعه وهو جائز، ولكن فيه سلبيات منها: أنَّ هذا التعريف يدل على أنَّ العلم هو العقيدة، والعقيدة هي العلم، وذلك بقولهم: العلم هو الاعتقاد...، والصحيح أنَّ العلم أشمل من العقيدة، فيمكن أن يعتقد الإنسان في شيء بلا علم محيط به، كاعتقادنا بصفات الله تعالى، فنحن لا نعلم أيَّ علم بكيفيَّتها، وهذه السلبية مخلة جدا بتعريف العلم، كما أنَّ تعريفهم للعلم؛ بأنه الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، يوافق تعريف اليقين كما سيأتي، ونحن نحدُّ العلم بحدٍّ نحسبه مطردا منعكسا إن شاء الله تعالى فنقول:

العلم هو: إدراك المعلوم حسًّا أو معنى، مع انتفاء النقيض، أوِ احتمال نقيض مرجوح.

المعنى: قولنا: إدراك المعلوم: الإدراك: سيأتي بيانه في ما يلي، والمعلوم، ما يرادُ علمه، وقولنا حسا أو معنى: أي ملموسا كان أو محسوسا، كعلمنا بوجود القرآن وثبوته، فهذا ملموس لأنه مكتوب عندنا في المصاحف بنفس كتابة عثمان رضي الله عنه، وأما علمنا بأنَّ القرآن كلام الله وكلام الله تعالى هي صفته، فهذا علم محسوس؛ لأنه ما من أحد يعلم كيفية صفات الله تعالى، بل نعلم ثبوتها، وقولنا: مع انتفاء النقيض: وهو الشك؛ لأنَّ العلم لا يكون مشكوكا فيه إذ هو علم؛ فإن كان فيه شك فهو ليس بعلم؛ لأنه يجب التوقف عند الشك حتى يتبيَّن الراجح من المرجوح من المشكوكين، فإنَّ رجح أحدها على الآخر صار الراجح علما وهو الظنَّ، وطُرح المرجوح؛ لأنه وهم، وقولنا: مع احتمال نقيض مرجوح، فهو الوهم الذي تكلمنا عنه، وهو غير معتبر، إذ لا وجود للوهم، فيبقى الراجح وحده، ويتبيَّن لما من هذا، أنَّ انعدام النقيض، أو وجود نقيض مرجوح، لهما نفس القوَّة، حيث أنَّ النقيض المرجوح لا يعتبر موجودا من بابه، فكلاهما يقين.

وبعد أن عرَّفنا العلم بما يسَّر الله تعالى لنا، نبيِّن أقسامه في ما يلي، إن شاء الله تعالى:

أقسام العلم:

ينقسم العلم إلى قسمين: علم ضروري، وعلم نظري:

1 – العلم الضروري:

وهو ما يفيدُ العلمَ بلا استدلالٍ[1]، ويستوي في إدراكه الخاص والعام.

والعلم الضَّروري ويسمى أيضًا (البديهي)[2] وهو ما لا يحتاج في حصوله إلى كسب ونظر وفكر، فيحصل بالاضطرار وبالبداهة، كتصديقنا بأنَّ الكلَّ أعظم من الجزء، وبأنَّ النَّقيضين لا يجتمعان، وأنَّ الواحد نصف الاثنين، والله واحد، وهكذا...

وهو يشمل العلم الحسي والمعنوي السابق ذكره.

2 – العلم النَّظري:

والعلم النَّظريُّ يُفيدُ العلم، لكن مع الاستِدْلالِ على الإفادةِ[3].

كالعلم بوجوب النيَّة في العبادات، والوضوء للصَّلاة، وكالعلم بأنَّ الغسل رافع للجنابة، وكعلمنا بطريقة الوضوء والغسل والصَّلاة، فكلُّ هذَا يحتاج إلى نظر واستدلال.

ولا يشمل العلم النظري العلم الحسي؛ لأنَّ الحسَّ دليل بنفسه، فهو يشمل العلم الضروري فقط.

والعلم النظري له مراتب، وقد سمَّوها بـ: مراتب الإدراك الستَّة، ويمكن أن تدخل بعض هذه المراتب على العلم البديهي؛ لأنَّ هذه المراتب مرتَّبة على حسب قوَّة الأدلَّة، والعلم البديهي لا يحتاج دليلا، فالعلم البديهي يأخذ مرتبة الحقيقة المطلقة، أو اليقين المطلق، فلا دليل على أن الواحد نصف الاثنين إلا أن الواحد نصف الاثنين، فهو يقين مطلق، وقلنا العلم البديهي هو اليقين المطلق؛ لأن من أنواع اليقين ما يحتاج إلى دليل، فهو يقين من باب، وهو ليس بديهيا من باب آخر، فالغسل رافع للجنابة هذا علم يقيني، ولكن لمَّا احتاج إلى استدلال كان علما نضريا، وعليه فعلم اليقين، يدخله العلم البديهي والعلم النضري معا، ليصل بذلك إلى الظنِّ

---

[1] كتاب نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ت الرحيلي – ص197 – الفرق بين العلم الضروري والعلم النظري.

[2] البديهي بهذا المعنى مرادف للضروري المقابل للنظري، وقد يطلق «البديهي» على المقدمات الأولية، راجع شرح الشمسية (ص 12) وشرح المطالع (ص 10) والقواعد الجلية (ص 184).

[3] كتاب نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ت الرحيلي – ص197 –الفرق بين العلم الضروري والعلم النظري.

الراجح، ولا يمكن أن يوصل إليه إلا بعد الترجيح، فيكون الراجح يقينا، كما أنَّ العلم النظري يمكن أن يصل إلى علم اليقين ثم بعد ذلك يرتقي إلى عين اليقين وحق اليقين، وسنبيِّن كل هذا في ما يلي، كما يجب أن يعلم أنَّ الإدراك ومراتبه لنصل به إلى الظنِّ، هو مرادنا في بحثنا هذا، وتعرف الإدراك ومراتبه على يلي:

الإدراك:

الأدراكُ لغةً:

مصدرُ أدركَ[1]، وأدركَ الصبيُّ والفتاةُ: إذَا بلغَا، ويطلقُ الإدراكُ فِي اللُّغةِ ويرادُ بهِ: اللَّحاقُ، يقالُ: مشيتُ حتَّى أدركتهُ، ويرادُ بهِ أيضًا: البلوغُ فِي الحيوانِ والثَّمرِ، كمَا يستعملُ فِي الرُّؤيةِ فيقالُ: أدركتهُ ببصرِي: أيْ رأيتهُ، وقدِ استعملَ الفقهاءُ الإدراكَ بمعنَى: بلوغِ الحلمِ، فيكونُ مساويًا للفظِ البلوغِ بهذَا الإطلاقِ، ويطلقُ بعضُ الفقهاءِ الإدراكَ ويريدونَ بهِ أوانُ النضجِ[2].

الإدراكُ اصطلاحًا:

وصولُ النَّفسِ إلَى المعنَى بتمامهِ[3].

وأقول: هو فهم المعنى على الوجه المراد. (والإدراك والعلم لهما نفس المعنى)

مراتب الإدراك وهو العلم:

المرتبة الأولى: اليقين:

والعلم قد سبق تعريفه، وهو المعبَّر عنه هنا بالإدراك.

وأمَّا اليقين: فهوَ الاعتقادُ الجازمُ المطابقُ للواقعِ[4]، واختلفُوا فِي هلِ اليقينُ يفيدُ العلمَ الضَّرورِي أمِ النَّظرِي، والصحيح أنَّهُ يفيدُ كلاهمَا علَى ما سيأتِي منَ التَّقسيماتِ.

كما أنَّ اليقين من أقسام العلم، وليس هو العلم.

أقسام اليقين:

اليقينُ علَى أربعة أقسامٍ:

---

[1] معجم المعاني.

[2] الموسوعة الفقهية موقع إسلام ويب.

[3] شرح نظم العمريطي.

[4] نزهة النظر لابن حجر العسقلاني.

نذكر منها الثلاثة المشهورة، ونبيِّن الرابع في بابه.

1 – علمُ اليقينِ.

2 – عينُ اليقينِ.

3 – حقُّ اليقينِ.

ويجمعهَا قولهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ اليَقِينِ﴾[التكاثر: 5 – 7].

وقولهُ تعالَى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حقُّ اليَقِينِ﴾[الواقعة: 95].

فالأوَّلُ: هوَ العلمُ بالشَّيءِ عِلمًا جازِمًا وهوَ علمٌ يقينيٌّ: لقولهِ تعالَى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: 14].

قال الطبري: وأيقنتها قلوبهم، وعلموا يقينا أنها من عند الله تعالى فعاندوا بعد تبينهم الحق، ومعرفتهم به[1].

والثَّاني: هيَ الرُّؤيةُ التِي تحقِّقُ درجةً منَ اليقينِ أعلَى منَ علمِ اليقينِ، لقوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾[الأنبياء: 97].

يقول الطبري: فإذا أبصار الذين كفروا قد شخصت عند مجيء الوعد الحقّ بأهواله وقيام الساعة بحقائقها، وهم يقولون: يا ويلنا قد كنا قبل هذا الوقت في الدنيا في غفلة من هذا الذي نرى ونعاين ونزل بنا من عظيم البلاء[2].

وقال ابن كثير: ﴿فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: من شدة ما يشاهدونه من الأمور العظام[3].

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] السابق.

[3] ينظر: تفسير ابن كثير.

وقوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾[السجدة: 12].

قال السعدي: ﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا ﴾ أي: بان لنا الأمر، ورأيناه عيانًا، فصار عين يقين[1].

والثَّالثُ: هوَ الحقيقةُ الملموسةُ، وهوَ بدخولِهم للجحيمِ، حينهَا يتحقَّق مَا علِموهُ يقينًا ومَا رأوهُ يقينا، وهوَ حقُّ اليقينِ، ومنهُ قولهُ تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ﴾[الحاقة: 51].

قال السعدي: ﴿ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴾ أي: أعلى مراتب العلم، فإن أعلى مراتب العلم اليقين وهو العلم الثابت، الذي لا يتزلزل ولا يزول، واليقين مراتبه ثلاثة، كل واحدة أعلى مما قبلها: أولها: علم اليقين، وهو العلم المستفاد من الخبر، ثم عين اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة البصر، ثم حق اليقين، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة[2].

قال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾[الأعراف: 44].

أي وجدُوا مَا وعدهمْ ربُّهمْ حقَّ اليقينِ، وكانُوا قدْ علموهُ فِي دنياهُمْ علمَ اليقينِ، ثمَّ رأوهُ يومَ القيامةِ عينَ اليقينِ، ثمَّ دخلُوا الجنَّةَ فتحقَّقَ اليقينُ.

وأمَّا ابنُ القيِّمِ رحمه الله تعالى، فقدْ عبَّرَ عنْ أقسامِ اليقينِ الثَّلاثةِ بمَا يلِي:

القسم الأولَى: علمُ اليقينِ، وهيَ انكشافُ المعلومِ للقلبِ، بحيثُ يشاهدهُ ولَا يشكُّ فيهِ كانكشافِ المرئيِّ للبصرِ.

القسم الثَّاني: عينُ اليقينِ، أي مشاهدةُ المعلومِ بالأبصارِ.

القسم الثَّالث: حقُّ اليقينِ، وهيَ أعلَى درجاتِ اليقينِ، وهيَ مباشرةُ المعلومِ وإدراكهُ الإدراكَ التَّامَ.

فالأولَى: كعلمكَ بأنَّ في هذَا الوادِي ماءً.

والثَّانيةُ: كرؤيتهِ.

والثَّالثةُ: كالشُّربِ منهُ[3].

---

[1] ينظر: تفسير السعدي.

[2] ينظر: تفسير السعدي.

[3] ينظر: مفتاح دار السعادة لابن القيم.

مثالٌ آخرٌ: إيماننَا الجازمُ بالجنَّةِ والنَّارِ، هذَا علمُ اليقينِ؛ فإذَا أزلفتِ الجنَّةُ يومَ القيامةِ للمتَّقينَ، وشاهدهَا الخلائقُ، وبرّزتِ الجحيمُ للغاوينَ، ورآهَا الخلائقُ، فذلكَ عينُ اليقينِ، فإذَا أُدخلَ أهلُ الجنَّةِ الجنَّةَ وأهلُ النَّارِ النَّارَ، فذلكَ حينئذٍ حقُّ اليقينِ[1].

ومنْ خلالِ مَا تقدَّمَ يتَّضحُ أنَّ اليقينَ هوَ درجةٌ منَ العلمِ أعلَى وأسمَى منَ المعرفةِ والدِّرايةِ، فهوَ في أعلَى حدودِ العلمِ[2].

كما علمنا بهذا أنَّ اليقين درجة من درجات العلم وما هو بالعلم كما يعبر عنه البعض، وأنَّ اليقين بذاته على أقسام متفاوتة كما سبق وبينَّا.

وممَّا ينبغِي أنْ يُعلمَ أنَّ اليقينَ يقوَى ويضعفُ ويزدادُ وينقصُ، فهوَ درجاتٌ متفاوتةٌ، قالَ ابنُ تيميَّةَ رحمهُ تعالَى: للمؤمنينَ العارفينَ باللهِ المحبِّينَ لهُ منْ مقاماتِ القربِ ومنازلِ اليقينِ مَا لَا تكادُ تحيطُ بِهِ العبارةُ، ولَا يعرفهُ حقَّ المعرفةِ إلَّا منْ أدركهُ ونالهُ[3].

وقالَ عنِ اليقينِ فِي موضعٍ آخرَ: لهُ درجاتٌ متفاوتةٌ[4].

وقالَ الشيخُ محمَّدٌ بنُ عبدِ الوهَّابِ: اليقينُ يضعفُ ويقوَى[5].

والسؤالُ هو: أيُّ أنواعِ اليقينِ الذِي يقوَى ويضعفُ؟

الجواب: لا يكونُ إلَّا علمُ اليقينِ، ويستحيلُ أنْ يكونَ حقَّ اليقينِ لأنَّهُ كمَا أسلفنَا أنَّ فِي مرتبةِ حقِّ اليقينِ قدْ تحقَّق الأمرُ وانتهَى، فلَا مجالَ للزيادةِ فيهِ ولَا النقصانِ، وكذلكَ عينُ اليقينُ، فلَا أيقنَ منَ العينِ لاستيعابِ الحقيقةِ، فإن نقص اليقين من عين اليقين فلا يكون إلَّا وهمًا، وهذا لا يكون في علم اليقين فضلا على عين اليقين، ولكنَّه يتحقق فيما يقابل الظن، وهو قسم رابع من أقسام اليقين كما أشرنا لذكره سابقا، وكما سيأتي في ما يلي:

---

[1] ينظر: مدارج السالكين لابن القيم.

[2] ينظر: الزركشيّ، البرهان في علوم القرآن ج 1، ص 408.

[3] مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

[4] الاستقامة لابن تيمية.

[5] كتاب التوحيد للشيخ المجدد الإمام محمد بن عبد الوهّاب.

المرتبة الثانية: الظنُّ:

الظن لغة:

الظن مصدر ظنَّ، أي: علمَ الشيء بعد تخمين، والظنُّ كلمة أغلبية مشتركة لها أصل تعود إليه، وتحمل على غيره على حسب السياق، وما يقابلها من أفراد هو استثناء، والأصل في الكلام أن يبنى على الأصل ولا يُرجع للاستثناء إلا بقرينة، ومن ذلك قاعدة: كل ظنٍّ في القرآن فهو يقين، فهذا هو الأصل أنَّ كل ظن في القرآن أو في لغة العرب هو يقين، إلَّا أن يدخل الاستثناء، ويكون الاستثناء بأدوات الاستثناء وهي: إلَّا، حاشا، غير، سوى، بيد، خلا، عدا، ليس، لا يكون.

أو الاستثناء بأسلوب الاستثناء: وهو أن يلحق الأصل المراد دليل يبيِّنُ أنَّ معنى الأصل ليس هو المراد، بل المراد معنى آخر واضح، كقوله تعالى: ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32]**، فالأصل المعروف أنَّ الظن في القرآن هو يقين، ولكن هنا خاصة كان الاستثناء، وهو بإلحاق ما يدل على أن المراد ليس المعنى المعهود للظن، بل المراد معنى آخر وكان ذلك بقوله: {وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ} وهو استثناء من المعنى الأصلي.**

أو يكون بتقديم بما يُبيِّن أنَّ اللفظ الآتي ليس معناه المعهود هو المراد، بل معنى آخر من ذلك قوله تعالى في نفس الآية: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية: 32]**، فقدم سبحانه ما يُبيِّن أنَّ معنى الظن المعهود ليس هو المراد هنا، ومعنى الظن هاهنا خاصَّة، ليس اليقين، ولا التقدير ثمَّ الترجيح، ولا الشك، بل المراد هو: التوهُّم، والتكهن، وبه قال البغوي، وابن كثير[1].**

فلو تلاحظ أنَّ أصل كلمة الظن تعني اليقين، ولكنَّها حملت على الشك تارة، وحملت على الوهم أخرى، وهذا معلوم ومعمول به في لغة العرب، ولاكن لا يكون هذا إلا بقرينة، فإن أطلق الظن فالمراد به هو اليقين، ولا يجوز لغة ولا شرعا حمل الكلام على غير أصله بلا قرينة،

---

[1] **ينظر: المتن الحبير في أصول وكليات وقواعد التفسير للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي ص 38 – 39.**

فيستحيل أن يكون الظن شكا ولا وهما، لأن أصل الظن هو اليقين، ونخرج بهذا أنَّ الظنَّ لغة هو اليقين الذي ثبت بعد الترجيح، أو تقول هو: اليقين الذي ثبت له ضد مرجوح.

وعند تعريف الوهم سيتبين لك أنَّ الضد المرجوح معدوم، أي: لا وجود له، فلا يبقى إلا الراجح، وبذلك كان الظن يقينا كما سيأتي.

الظن اصطلاحا:

عرَّفه الجرجاني بقوله: هو الاعتقاد الرَّاجح مع احتمال النَّقيض، ويستعمل في اليقين والشَّك، وقيل: الظَّن أحد طرفي الشَّك بصفة الرُّجحان[1].

ونحن نقول قولا أبين من ذلك حيث نعرفه بكنهه فنقول: هو تجويز أمرين أحدهما أرجح من الآخر، فالرَّاجح منهما هو الظنُّ، والمرجوح هو الوهم.

وإن كان المرجوح وهما، والوهم لا أثر له، فلا يبقى إلا الراجح، فلا يكون الراجح إلا يقينا.

أو تقول: هو الاعتقاد الراجح مع احتمال نقيض مرجوح.

والمرجوح وهم، ولا أثر ولا وجود للوهم فلا يبقى إلا اليقين.

ولاحظ أنَّ كلَّ من عرَّف الظنَّ عرفه بأنه؛ اعتقاد راجح، والاعتقاد لا يكون إلا يقينا كما أشرنا لذلك في الباب، على حسب درجات اليقين السابق ذكرها، فاليقين يزيد وينقص.

لكن يجب أن يُعلم؛ أنَّ الظَّنَّ لَا يُفيدُ العلمَ (أيِ اليقينَ) قبلَ التَّرجيحِ، فإنْ رُجِّحَ الظنُّ أصبح قسمًا منْ أقسامِ اليقينِ ويفيدُ حينهَا العلمَ وهو أدنى أقسام اليقين ويمكن تسميته ظن اليقين، منهُ قولهُ تعالَى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ * وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ * وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ﴾[القيامة: 26 – 28].

قالَ ابنُ كثيرٍ: فهنَا لمَا بلغتِ الرُّوحُ إلَى التَّراقِي وهيَ جمعُ ترْقوةٍ وهيَ العظامُ التِي بينَ ثغرةِ النَّحرِ والعاتقِ[2]. انتهى.

وقال الطَّبري: {وظنَّ أنَّهُ الفراقُ} يقولُ تعالَى ذكرهُ: و(أيقنَ) الذِي قدْ نزلَ بهِ أنَّهُ فراقُ الدُّنيَا والأهلِ والمالِ والولدِ[3].

---

[1] التعريفات للجرجاني.

[2] ينظر: تفسير ابن كثير.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

أي: جوَّزَ المحتظرُ حينهَا أمرينِ، وهوَ أنَّهُ سيموتُ أوْ أنَّه لَنْ يموتَ ساعتهَا، ثمَّ رجَّحَ أنَّهُ الفراقُ، بعد ما تبين له ذلك بدليل فحينها استيقن.

وعنِ الزَّركشِي قالَ: وكلُّ ظنٍّ يتَّصلُ بهِ "إنَّ" المشدَّدةُ فهوَ يقينٌ، كقولهِ تعالَى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيهْ﴾[الحاقة: 20][1].

وأقول أنَّ الظنَّ إذا أُطلق أُريد به اليقين، وإن قيِّد فهو على ما قيد به.

قال الطبري: عن ابن عباس، قوله: ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ يقول: أيقنت.

وعن عن قتادة ﴿ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾: ظنّ ظنا يقينا، فنفعه الله بظنه[2].

وقال السعدي: أي: أيقنت فالظن هنا بمعنى اليقين[3].

وقال البغوي: ﴿ إِنِّي ظَنَنَتُ ﴾، علمت وأيقنت[4].

وقال ابن كثير: أي: قد كنت موقنا في الدنيا أن هذا اليوم كائن لا محالة، كما قال: ﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾[البقرة: 46][5].

وقال القرطبي: إني ظننت أي أيقنت وعلمت[6].

ونخرجُ بهذَا أنَّ الظَّنَّ الرَّاجحَ يفيدُ العلمَ، وهوَ جزءٌ منَ اليقينِ إن رُجِّحَ، وهو من جنس العلم النظري.

وأمَّا الصلة بين الظن واليقين تحسن الإشارة إليها في هذا الموضع:

فإنَّ إطلاق الظن في كلام العرب على معنى اليقين كثير، وقد ورد ذلك في كتاب الله تعالى،

---

[1] الإتقان في علوم القران للسيوطي.

[2] تفسير الطبري.

[3] تفسير السعدي.

[4] تفسير البغوي.

[5] تفسير ابن كثير.

[6] تفسير القرطبي.

والعرب تطلق الظن بمعنى اليقين ومعنى الشك[1] أيضًا (مقيَّدا)، فغالب الظن يطلق والمراد به اليقين، وأما اليقين فلا يطلق على الظن.

والعلم والظن يشتركان في كون كل واحد منهما اعتقاد راجح، إلا أنّ العلم راجح مانع من النقيض، والظن راجح غير مانع من النقيض المرجوح، فلمّا اشتبها من هذا الوجه؛ صح إطلاق اسم أحدهما على الآخر[2]، فخرجنا بهذا أنَّ الظنَّ هو العلم، والعلم شامل لليقين.

فالعرب تستعمل الظن في موضع العلم فيما كان من علم أُدرك من جهة الخبر، أو من غير وجه المشاهدة والمعاينة أو التحقيق، فأما ما كان من علم أُدرك من وجه المشاهدة والمعاينة أو التحقيق فإنها لا تستعمل فيه الظن؛ لأنه علم ضروري، وعلى هذا فإنَّهم يستعملون الظن كجزء من علم اليقين في أدنى درجاته، ولا يدخل في عين اليقين ولا حق اليقين، ومع ذلك فلا يكون الظن بمعنى علم اليقين إلَّا بعد الترجيح، وهو بذلك من جنس العلم النظري، أي: اليقين النظري، أمَّا العلم الضروري، أي: اليقين الضروري، فالظن ليس من جنسه ولا يُدعى العلم الضروري بالظنِّ، ولعلَّ العلم الضروري يأتي بمعنى الظنِّ أيضا، فيرى الإنسان النَّار فيظن أنَّها حارقة أو مُدفئة، ثمَّ يُرجِّح من دفئها أنها حارقة، ولاكن هذا مستبعد وهو من باب أرأيت، ولا يصل إلى هذه الدرجة من ترجيح العلم الضروري إلا بليد الذهن، وهذا الجنس من البشر لا يقاس عليهم، بل يؤخذ الأمر من العقل السوي لا البليد، ولكن مع هذا، فهذا علم ظنيٌّ يصدق أن يطلق عليه بأنه علم ضروري، بل قد يصل الظن إلى عين اليقين وعين اليقين عينان، عين القلب، والعين البصيرة، ومرادنا هو عين القلب، ودليلنا قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: 46]، قال السعدي: أي: هذا العمى الضار في الدين، عمى القلب عن الحق، حتى لا يشاهده كما لا يشاهد الأعمى المرئيات، وأما عمى البصر، فغايته بالغة، ومنفعة دنيوية[3].

[1] دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص 17.

[2] مفاتيح الغيب، الرازي 3/ 47.

[3] تفسير السعدي.

وقال الطبري: يقول: فإنها لا تعمى أبصارهم أن يبصروا بها الأشخاص ويروها، بل يبصرون ذلك بأبصارهم؛ ولكن تعمى قلوبهم التي في صدورهم عن أنصار الحق ومعرفته[1].

وهي عين القلب البصيرة فيظن بعد الترجيح ظنًّا شديدا لا يشوبه أدنى شكٌّ حتَّى يرى بعيني قلبه الحقيقة، فيرى وعد الله تعالى ووعيده، وهو معنى قوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾[التكاثر: 5 – 6]، قال القرطبي: لو تعلمون علم اليقين: أي: لو تعلمون اليوم في الدنيا علم اليقين فيما أمامكم، مما وصفت: لترون الجحيم بعيون قلوبكم؛ فإن علم اليقين يريك الجحيم بعين فؤادك[2].

وفهمنا من هذا أنَّ الظنَّ الراجح هو جزء من علم اليقين، وعلم القين يمكن أن يرتقي إلى عين اليقين القلبية لا العين البصيرة.

مثال آخر: رجل رأى نورا من بعيد، فلم يدري أهو نار تشتعل، أو ماء نهر يبرق في ضوء القمر، ثم رجح أنه نار تشتعل بدلالة الدخان، فصار حينها ماء النهر البراق تحت ضوء القمر وهما، والوهم مطروح، فلم يبقى إلا النار فهي يقين، فهذا ظن راجح، ثم لما اقترب من النور وجده نار حقيقة كما رجَّح، فهنا اقترن الظن الراجح مع عين اليقين، فذا لمسها فأحرقته، حينها اقترن الظنُّ الراجح مع عين اليقين وحق اليقين.

وقد قدَّمنا كل هذا ليتبيَّن لنا قوة الظن.

وعلى هذا فالظنُّ يصلح للاستدلال ما يصلح له القين عمومًا.

وأما حق اليقين فلا يجوز عقلا أن يدخله الظن والترجيح، إذ هو محقق، ونخرج من هذا بقول وسط، أنَّ الظنَّ هو من علم اليقين، وعليه؛ فعلم اليقين على قسمين:

الأوَّل:

علم يقيني مدرك بغير ضد مرجوح.

الثاني:

علم يقيني مدرك مع احتمال ضد مرجوح.

---

[1] تفسير الطبري.

[2] ينظر: تفسير القرطبي.

وبما أنَّ المرجوح وهم، والوهم معدوم، أي: لا أثر له، فيبقى الظنّ وحده فيكون بعد ذلك له نفس قوَّة علم اليقين المدرك بغير ضد مرجوح.

وبهذا يتبيَّن سبب جواز تخصيص أو تقييد أو نسخ[1] العلم اليقيني بالعلم الظني؛ لأنهما لهما نفس القوَّة.

وقد كان مرادنا من هذا المبحث هو إبراز مفهوم الظن وبيان حقيقته، ولتعم الفائدة.

والآن حريٌّ بنا أن نتمم بقية مراتب الإدراك، فبمعرفة الشك والوهم والجهل بأقسامه، ليزداد الظنُّ بيانا، ويعلم بذلك أنَّ حجية العلم الظني هي نفسها حجية العلم اليقيني، وبقية المراتب على ما يلي:

المرتبة الثالثة: الشَّكُّ:

الشك لغة:

قال ابن فارس رحمه الله تعالى: الشين والكاف أصل واحد مشتق بعضه من بعض وهو يدل على التداخل من ذلك قولهم شككته بالرمح وذلك إذا طعنته فداخل السنان جسمه[2].

والمراد هو: اختلاط الشيء بالشيء.

وفي الاصطلاح:

قال الراغب في المفردات: الشك اعتدال النقيضين عند الانسان وتساويهما، وذلك قد يكون لوجود أمارتين متساويتين عند النقيضين أو لعدم الأمارة فيهما، والشك ربما كان في الشيء هل هو موجود أو غير موجود؟ وربما كان في جنسه، من أي جنس هو؟ وربما كان في بعض صفاته، وربما كان في الغرض الذي لأجله أوجد[3].

أو تقول: الشك هوَ إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالٍ ضدٍّ مساوٍ[4].

ونحن نعرف الشك بكنهه فنقول: هوَ تجويزُ أمرينِ لَا أحدَ فيهمَا أرجحُ منَ الآخرِ، ولَا مزيَّةَ لأحدهمَا علَى الآخرِ، أيِ استوَى طرفاهُ.

---

[1] ينظر: كتاب المنة في بيان مفهوم السنة386 إلى 391.

[2] المقاييس لابن فارس 3/ 173.

[3] مفردات القرآن للراغب الأصفهاني 262.

[4] ينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

والشك ضرب من الجهل وهو أخص منه؛ لأن الجهل قد يكون عدم العلم بالنقيضين رأسا، فكل شك جهل وليس كل جهل شكا[1].

المرتبة الرابعة: الوهمُ:

الوهم لغة: قال ابن فارس: الواو والهاء والميم: كلمات لا تنقاس، بل أفراد، منها الوهم: وهو البعير العظيم، والوهم: الطريق،...[2].

الوهم اصطلاحا:

صورة ذهنيَّة مركَّبة ليس لها ما يُطابقها في الواقع، ويعرف أيضاً على أنّه إيمان الشخص بمعتقد خاطئ بشكل قوي، رغماً أنّه لا يوجد أدلة على وجوده أصلاً[3].

ومن التعريفات المنطقية للوهم أنه: إدراكُ الشَّيءِ معَ احتمالِ ضدٍّ راجحٍ[4]، وهوَ مرجوحُ الظَّنِّ، وهو مطروح من كل الوجوه.

أنواع الوهم:

للوهم أربعة أنواع:

الأول: الوهم البصري:

وهو من أشهر أنواع الوهم، ويكون عبر تكوين صور خادعة ومضلّلة، تجعل الناظر يرى الصور المرئية على غير حقيقتها، كمن نظر في النافذة فرأى المطر يهطل بعين اليقين، فلما ذهب ليغلق النافذة لم يجد مطرا، فيقول وهمت أني رأيت مطرا، وبهذا التقسيم يمكن أن يكون الوهم نقيض الظن، وهو على ما قلنا من جنس علم اليقين، ويمكن أن يكون تقيض عين اليقين؛ لأنه نظر فرأى المطر يقينا ثم لما ذهب ليغلق النافذة تبيَّن ألَّا مطر فكان وهما، بهذا تحدد القاعدة بأن الوهم نقيض العلم، علم اليقين ليشمل الظن، وعين اليقين.

---

[1] مفردات القرآن للراغب الأصفهاني 262.

[2] معجم مقاييس اللغة – أبو الحسين أحمد بن فارس زكريا – ج 6 – الصفحة 149.

[3] ينظر: وهم الحب لمحمد بن عبد العزيز المنسر (كتاب شريعة موضوعه الحب).

[4] مفاتيح الغيب، الرازي 3/ 47، وينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

الثاني: الوهم السمعي:

وهو ما يرتبط بحاسة السمع، بأن يجعل الشخص يسمع أصواتاً غير موجودة، كمن سمع من يناديه فلما فتح الباب لم يجد أحدا، فيقول وهمت أنِّي سمعت من يناديني، والوهم السمعي كذلك يمكن أن يكون نقيض علم اليقين؛ لأنَّه سمع يقينا أنَّ هنالك من نادى باسمه فلما فتح الباب لم يكن أحد يناديه، فلمَّا سأل هل ناداني أحد، قيل له لم يناديك أحد، فبعدم رؤية أحد في الباب، وسؤال الحضور الذين نفوا سماع المنادي، أصبح السمع وهما، وجواب الحضور، وعدم رؤية أحد في الباب علما يقينيًّا.

الثالث: الوهم اللمسي:

وهذا يرتبط بحاسة اللمس، حيث يشعر الشخص بأوهام حيال ما يقوم بلمسه، كمن أحس بأحد قد وضع يده على كتفه فلما التفت لم يجد شيئا فقال: وهمت أن أحدا لمسني، وهو أيضا نقيض لليقين، حيث أنه التفت ولم يجد أحدا قد لمسه.

الرابع: الوهم العلمي، أو الذهني، أو المعنوي:

وهذا يرتبط بالمعنى، فكل ما سبق يعتبر مع أنه ذهنيٌّ، إلا أنه مادي، وهو البصر والسمع واللمس وحتى الشم، لكن من الأوهام ما تكون معنوية، بأن يستيقن أو يظن ظنًّا خاطئا غير مطابق للواقع، وهو ما يسمى بالوهم الظني أو العلمي، مثاله: قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]**، هذه الآية في مرتبة علم اليقين أو حتى تقول ظنيَّة، معناها كما قال الطبري وكل أهل السنَّة: الرحمن على عرشه ارتفع وعلا.**

فيأتي آخر، فيحلل تحليلا غير منطقي، فيقول: الرحمن خالق العرش ولا يحتوي الرحمن شيء فلا يجوز أن يستوي على عرشه لأن عرشه خلق من خلقه، وعليه فإنَّ الرحمن على العرش استولى.

فهذه النتيجة العلمية التي خرج بها المحلِّل هي ما تسمى بالوهم: لأنها نقيض علم اليقين الذي من جنسه الظن كما سبق وأشرنا.

وهذا التحليل السابق هو ما يسمى بالتأويل الفاسد، التي لطالما تحدثنا عليه في كتابتنا وسنتحدث عنه إن شاء الله تعالى، وعليه فالتأويل الفاسد هو: تحريف معنوية، وهو: وهم علمي، نقيض لعلم اليقين.

وكما يُقابل الظنَّ الوهم، يقابل العلم الجهل، وهو على قسمين:

1: الجهل البسيط.

2: الجهل المركب.

المرتبة الخامسة من مراتب الإدراك: الجهل البسيط:

الجهل البسيط لغة:

الجهل البسيط مركب إضافي، فوجب من تعريفه تعريف جزئيه وعليه:

فالجهل لغة:

الجهل يحمل على معنيين:

الأول: عدم إدراك شيء محدد أو كل شيء، فتقول: فلان جاهل بالفقه، عالم بالحديث، أو تقول: جاهل بكل العلم.

والثاني: السفه، تقول جهل فلان أي سفه وكفر، ويطبق الجهل أيضا على الأحمق، وعلى القدر إذا اشتدَّ غليانها.

الجهل اصطلاحا:

هو عدمُ إدراكِ الشَّيء بالكلِّيَّةِ، وقد يكون جاهلا في شيء وعالما بآخر.

ويمكن للجهل أن يكون له نفس المعنى اللغوي.

البسيط لغة:

من البسط، والبساطة وهي السهولة، تقول: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ بَسِيطَةٌ: سَهْلَةٌ لا تَعْقِيدَ فيها، ورجل بَسيطٌ في كَلامِهِ.

الجهل البسيط:

هو عدمُ إدراكِ الشَّيء بالكلِّيَّةِ[1]، مع التسليم بذلك.

---

[1] ينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

وهو تعبير أُطلق على من يسلِّم بجهله، مثال: تقول لشخص: عرِّف لي علم الحديث، فيقول لا أدري، فذا جاهل جهلا بسيطا، وهو محمود من كل النواحي:

الناحية الأولى: تواضع المتكلم حينما اعترف بعدم علمه.

الناحية الثانية: صدق المتكلم.

الناحية الثالثة: تأهب المتكلم لقبول العلم الذي هو جاهل به، ودليله هو اعترافه بعدم علمه، وعليه: فهذا النوع من الجهل محمود وأقله محامده أنَّه لا ضرر فيه على غيره.

المرتبة السادسة: الجهلُ المركَّبُ:

كنَّا قد عرفنا الجهل لغة واصطلاحا، وهنا نعرف معنى التركيب:

التركيب لغة:

التركيب: وضع الشيء على الشيء، يقال: ركب الشيء: إذا وضع بعضه على بعض وضمه إلى غيره فصار شيئا واحدا في المنظر، وتركب الشيء من كذا وكذا، أي: تألف، وركب الدواء ونحوه: ألفه من مواد مختلفة[1].

الجهل المركب اصطلاحا:

هوَ إدراكُ الشَّيءِ علَى خلافِ مَا هوَ عليه[2].

وهوَ شرُّ مَا فِي البابِ، بحيثُ رُكِّبَ علَى صاحبِهِ العديدُ منَ الأمورِ:

أوَّلُهَا: أنَّهُ جاهلٌ بالشَّيءِ.

الثَّاني: أنَّهُ جاهلٌ بأنَّهُ جاهلٌ.

الثَّالثُ: أنَّهُ مدركٌ لشَّيءٍ ما.

الرابع: أنَّ هذا الشيء الذي أدركه هو علَى خلافِ الحقيقة والواقع.

فرُكِّبَ عليهِ جهلانِ وإدراك مخالفٌ للحقيقةِ، لذلكَ سمِّيَ جهلًا مركَّبًا.

وفيهِ كتَبَ أحدهمْ بيتينِ بشكلِ طُرافةٍ حيثُ قالَ:

قالَ حمارُ الحكيمِ تومَا:

لوْ أنصفَ الدَّهرُ لكنتُ أركَبُ – لأنَّنِي – * جاهلٌ بسيطُ وصاحبِي جاهلٌ مركَّبُ

---

[1] موقع: الجمهرة: معلمة المفردات المحتوى الإسلامي.

[2] ينظر حاشية كتاب "زينة النواظر وتحفة الخواطر" لابن عطاء الله السكندري.

ونحنُ لَا نقولُ لوْ أنصفَ الدَّهرُ فالدَّهرُ هوَ اللهُ تعالَى كمَا نصَّ علَى ذلكَ الحديثُ حيثُ قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فِي مَا يخبرُ بهِ عنْ ربِّهِ: {يؤذينِي ابنُ آدمَ يسبُّ الدَّهرَ وأنَا الدَّهرُ...}[1].

ولكنَّنَا نقولُ لو أنصفَ القومُ لكنتُ أركبُ، وما كتبناهَا إلَّا للأمانةِ العلميَّةِ.

وتومَا هذَا كانَ رجلًا يدَّعِي الحكمةَ، وهوَ فِي أصلهِ جاهلٌ جهلًا مركَّبًا، ومنْ حكمهِ أنَّهُ أفتَى يومًا النَّاسَ وقالَ: تصدَّقُوا ببناتكمْ علَى شبابِ المسلمينَ، وهوَ لَا يدرِي أنَّ النِّكاحَ لهُ شروطٌ يصحُّ بهَا العقدُ، وإنِ اختلَّتِ الشُّروطُ فهوَ زنًا.

فقالَ: المحبِّيُ فِي ذلكَ:

تصدَّقَ بالبناتِ علَى البنينِ * يريدُ بذلك جنَّةَ النَّعيمِ[2]

وقلت:

قال حمار يُركــبُ * لو أنصفوا سأركـــبُ * هذا علَيْ مُستركـبُ * أفٍّ له ذا الجاهـــلُ

جهلي بسيط أعلـمُ * أعلم بِني لا أعلـــمُ * مِن ذا الذي لا يعلمُ * مركَّبٌ لا أحمـــلُ

إذْ يصَّدَّق بالبنـــاتْ * على الرِّجال الشاهيـاتْ * قصد علوِّ الدرجـاتْ * في جنَّةٍ قد يحصـلُ

وتومَا هذَا كانَ أبوهُ طبيبًا، وبعدَ وفاتهِ ورثَ كتبَ أبيهِ وبدأَ يشتغلُ بهَا، وكانَ يقرأُ: الحبَّةُ السَّوداءُ شفاءٌ منْ كلِّ داءٍ، غيرَ أنَّ النُّسخةَ التِي كانَ يقرأُ منهَا فيهَا خطأٌ املائيٌ بسيطٌ، حيثُ استُبدِلَتْ كلمةُ الحبَّةُ بـ"الحيَّةِ" فقرأهَا "الحيَّةُ السَّوداءُ شفاءٌ منْ كلِّ داءٍ، وقيلَ أنَّهُ كانَ يبحثُ عن حيَّةٍ سوداءَ فلدغتهُ وماتَ، وفِي روايةٍ قيلَ أنَّهُ تسبَّبَ بموتِ خلقٍ كثيرٍ.

وقد قال أبو حيَّان النحوي:

يظنُّ الغَمرُ أنَّ الكتب تهدي * أخا فهمٍ لإدراكِ العلـــــومِ

ومَا يدرِي الجهولُ بأنَّ فيـــهَا * غوامضَ حيَّرتْ عقلَ الفهـيمِ

إذَا رُمتَ العلومَ بغيرِ شيـــخ * ضللتَ عنِ الصِّراطِ المستقيمِ

وتلتبسُ الأمورُ عليكَ حـــتَّى * تكونَ أضلُّ منْ تومَا الحكـيمِ[3]

---

[1] متفق عليه: أخرجه البخاري (7491)، ومسلم (2246).

[2] خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

[3] الآداب الشرعية لابن مفلح (2/ 152).

ومن أمثلة الجهل المركَّب: أن تنظر إلى الشمس مثلا وتسأل ما هذا، فيقول لك هي بحر، أو شجرة، أو أي شيء على غير حقيقة الشمس.

وهذه تسمى مراتب الإدراك الستة، أعلاه العلم بأقسامه وهي: حق اليقين، ثمَّ عين اليقين، ثمَّ علم اليقين، ثم الظن الراجح، أو ظن اليقين، ثم شك، ثمَّ الوهم، ثم الجهل البسيط، فالمركب.

إلَّا أنَّ الجهل المركَّب رأيت أنه على أربعة أقسام:

1 – جهل مركب قطعي:

وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا قطعيًّا.

فهو متيقن يقينا لا يشوبه مثقال ذرة من شك فيما هو خلاف الواقع، مثل الكهنة من عباد البقر، فهم يدركون أنَّ آلهتهم بقرة، وهم يعبدونها، فهم أدركوا العبوديَّة على خلاف ماهي عليها، إدراكا جازما حتى عبدوا بقرة، هذا بما أنَّهم كهنة.

فهم ما عبدوا البقر أو النجوم أو غيرها، إلا باعتقاد جازم عندهم، ولاحظ أنَّ هذا الاعتقاد الجازم مخالف للواقع، فهو جهل مركب تركيبا قطعيا.

2 – جهل مركب ظنيّ:

وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا ظنيًّا.

وهو إدراك خاطئٌ جاء بعد تدبُّر واستدلال كبعض علماء أهل الكتاب، فإنَّهم قد تساءلوا وسألوا أهل الشرائع عن شرائعهم ثمَّ رُجِّح عندهم أنَّ أوثانهم وصلبانهم المعوجَّة وعبادتها هي الحقُّ، وباقي الشرائع عندهم مرجوحة، فإن كان المرجوح هو الحقُّ الأصلي فلا يكون هذا النوع من الجهل إلَّا الوهم بعينه، فالوهم مرجوح الظن، فمتبِّع الوهم هو جاهل مركب من جنس إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا ظنيًّا.

وإن كان هذا الجهل المركب الظني مرجوحه ليس الحق، فيكون وهما أصالة، ومرجوحه باطل من جهة أنَّهم رجحوا بين باطلين، فالرَّاجح والمرجوح على خلاف الحق.

والظن الصحيح هو واليقين الصحيح، عكس إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا يقينيًّا، ولكن هذا الأخير أي اليقين، ليس له ضدٌّ مرجوح ولا شكٌّ في غيره.

وعليه فالجاهل جهلا مركبا تركيبا ظنيا، هو متبِّع للوهم في الحقيقة؛ لأنَّه ترك الراجح واتبع المرجوح، ومن هؤلاء أهل التأويل الفاسد من أهل الكلام، ومنهم من رجح بين باطلين فكان راجحه وههما، ورجوحه باطل.

3 – جهل مركب شكِّي:

وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا شكيًّا.

فهو مدرك لعديد من الأمور وكل هذه الأمور هي على خلاف الحق، أو لا حقَّ بينها، أو بينها حق لا يعلمه، ومع ذلك فهو لا يدري أين الحق فيها، فهو متذبذب بينها، كحال عبَّاد الكواكب، كلَّ يوم يعبد كوكبا ويظنُّ فيه الخير، وهي كلها على خلاف الحق.

أو كالذي لا يعلم أينا الحق أفي الإسلام أم في دين اليهود والنصارى، فهو متذبذب بينهم، فهذا إنِ اتبع شيئا فيتبعه وهو شاك فيه، فهو فضلا على أنه اتبع غير الحق مع ذلك فهو شاك فيه، وهذا النوع حتى وإنِ اتبع الحق فلا ينفعه لشكه فيه.

وهذا إنَّ ترجَّح له أمر بينها أصبح هذا الجهل المركب هو: إدراك للشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا ظنيا، وهو عين الوهم إن كان مرجوحه هو الحق، وإن لم يكن مرجوحه هو الحق، فهو بين وهم وضلال، وهو ما نسميه جهلا مركبا وهميا، فإن لم يكن له ضد مرجوح فهو إدراك للشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا يقينيا.

4 – جهل مركب وهمي:

وهو إدراك الشيء على خلاف ما هو عليه إدراكا وهميا.

وهو إدراك مرجوح باطل من ظن راجح باطل.

فهو بين أمرين باطلين، ففكر ثم قدر ثم رجح أحدهما، فكان الراجح وهما، والمرجوح باطل.



وبعد ما تبيّن لنا معنى العقيدة، ومعنى العلم، واليقين بأقسامه، والظن، والشك، والوهم، والجهل بأقسامه، وجب علينا أن نعرف معنى الإيمان الذي كثُر تداوله مقترنًا بلفظ العقيدة.

الإيمان لغة هو:

مصدر آمن يؤمن إيماناً فهو مؤمن[1]، وأصل آمن أأمن بهمزتين لُيِّنت الثَّانية[2]، وهو من الأمن ضدّ الخوف[3].

قال الرَّاغب: أصل الأمن طمأنينة النَّفس وزوال الخوف[4].

وقال شيخ الإسلام: فإن اشتقاقه من الأمن الذي هو القرار والطمأنينة، وذلك إنَّما يحصل إذا استقرَّ في القلب التَّصديق والانقياد[5] وقد عُرِّفَ الإيمان بعدَّة تعريفات: فقيل: هو التَّصديق، وقيل: هو الثِّقة، وقيل: هو الطمأنينة، وقيل: هو الإقرار[6].

الإيمان اصطلاحًا (شرعًا):

هو: {التَّصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التَّام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه وحده العبادة، واطمئنان القلب بذلك اطمئناناً تُرى آثاره في جوارح الإنسان وسلوكه، والتزامه بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه، وأن محمَّدًا ﷺ عبد الله ورسوله، وخاتم النَّبيين، وقبول جميع ما أخبر به ﷺ عن ربِّه جلَّ وعلا وعن دين الإسلام؛ من الأمور الغيبيَّة، والأحكام الشرعيَّة، وبجميع مفردات الدِّين، والانقياد له ﷺ بالطَّاعة المطلقة فيما أمر به، والكفِّ عمَّا نهى عنه وزجر؛ ظاهراً وباطناً، وإظهار الخضوع والطمأنينة لكل ذلك}.

والتَّصديق الجازم المقصود منه هو: اليقين، واليقين هو أعلى درجات الإدراك، وهو الذي يقتضي حصول أعلى درجات العلم.

وملخّص تعريف الإيمان: هو جميع الطاعات الباطنة والظاهرة لله تعالى ورسوله ﷺ.

---

[1] ((الصحاح)) للجوهري (2071/5).

[2] ((تهذيب اللغة)) للأزهري (513/15).

[3] ((الصحاح)) للجوهري (2071/5)، و((القاموس المحيط)) للفيروزآبادي (ص1518).

[4] ((المفردات)) (ص35).

[5] ((الصارم المسلول)) (ص371).

[6] ينظر: كتاب زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه لعبد الرزاق البدر- (ص17).

ومعنى الطاعات الباطنة: أي: أعمال القلب، كتصديق القلب وإقراره...

والظاهرة: أي: أفعال البدن من الواجبات والمندوبات، ليدخل فيها اللسان...

أي: يجب أن يتبع الإقرار بالقلب: القول باللِّسان، والعمل بالجوارح والأركان، ولا يجزئ واحد من الثَّلاث إلَّا بالآخر؛ لأنَّ أعمال الجوارح داخلة في مسمَّى الإيمان، وجزء منه.

فمسمَّى الإيمان عند أهل السنَّة والجماعة؛ كما أجمع عليه أئمتهم وعلماؤهم، هو: تصديق بالجنان، وقول باللِّسان، وعمل بالجوارح والأركان؛ يزيد بالطَّاعة، وينقص بالمعصية[1].

فلو قارنَّا بين تعريف العقيدة الاصطلاحي وتعريف الإيمان الاصطلاحي، لوجدنا أنَّ كلاهما يصبُّ في معنًى واحد، فالعقيدة هي: الإيمان الجازم بالله تعالى، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته...

والإيمان هو: هو التَّصديق الجازم، والإقرار الكامل، والاعتراف التام؛ بوجود الله تعالى وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته...

فلو قيل لك: عرِّف لنا العقيدة، فقلت هي: الإيمان، لصدقت في ذلك وكان تعريفك جامعاً مانعاً، ويبقى لك تعريف الإيمان.

وخرجنا من هذَا أنَّ للعقيدة في الاصطلاح تعريفان:

الأول: تعريف عام.

والثاني: تعريف خاص.

فأمّا التَّعريف العام فهو على قسمين:

أ – عقيدة صحيحة.

ب – وعقيدة فاسدة.

وأمّا العقيدة الصّحيحة فهي على قسمين:

1 – عقيدة في غير الله تعالى.

2 – وعقيدة في الله تعالى.

وتعريف العقيدة في الله تعالى هو: التعريف الخاص للعقيدة كما سبق ذكره.

---

[1] الإيمان حقيقته خوارمه نواقضه عند أهل السنة عبد الله بن عبدالحميد الأثري – ص13 – بتصرف.

وقد ذكره الله تعالى في كتابه موضحا إيَّاه توضيحا لا يحتاج شرحا وذلك في قوله تعالى:

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾[الكهف: 14].

قال الطنطاوي رحمه الله تعالى: ثم حكى سبحانه جانبا من مظاهر هدايته لهم فقال: {وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ}.

وأصل الربط: الشد، يقال: ربطت الدابة، أي: شددتها برباط، والمراد به هنا: ما غرسه الله تعالى في قلوبهم من قوة، وثبات على الحق...[1].

وأقول: أنَّ هذه الآية لخصَّت عقيدة التوحيد مع إيجازها، فقوله تعالى: {وَرَبَطْنَا على قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُواْ}، أي: عقدنا على قلوبهم، أنَّ ربهم ربَّ السموات والأرض، وأنَّ غيره لا يستحق العبادة؛ فإنهم يعبدون الله تعالى وحده في جميع أنواع العبادات، وعلى رأسها الدعاء لله وحده، فإن ثبت هذا في القلب ثبت في غيره، لقول النبي ﷺ: {إنَّ الدُّعاء هو العبادة}، ثم قرأ: ﴿ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[غافر: 60][2].

والعبادة هي: كلُّ ما يُتقرَّب به من الله تعالى، فلا تصح لغيره.

فالذي اسقرَّت نفسه على دعاء الله تعالى وحده في كل شيء، فقد وقرت العقيدة في قلبه، وهو في عين التوحيد.

ومن ذلك عن ثابت البناني، أن رسول الله ﷺ قال: {ليسأل أحدكم ربَّهُ حاجتهُ حتَّى يسألهُ الملحَ، وحتَّى يسألهُ شسعَ نعلهِ إذا انقطعَ}[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سَلُوا اللَّهَ كُلَّ شَيءٍ حَتَّى الشِّسعَ، فَإِنَّ اللَّهَ إِن لَمْ يُيَسِّرهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ[4].

---

[1] ينظر: الوسيط للطنطاوي.

[2] رواه "أحمد" في "المسند" (18352)، و"البخاري" في "الأدب المفرد" (714).

[3] الترمذي 3604.

[4] أخرجه أبو يعلى (44/8) وابن السني في "عمل اليوم والليلة" (349) ، ورواه البيهقي في "شعب الإيمان" (42/2) من طريق آخر.=

وعن عائشة رضي الله عنها أيضا، قال رسول الله ﷺ: {إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُم فَلْيُكثِر، فَإِنَّمَا يَسأَلُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ}[1].

وختاما فالعقيدة هي:

﴿ العلم بالأحكام الشرعية العقديَّة، المكتسبة من الأدلة النَّقليَّة الصحيحة اليقينية والظنيَّة، ورسوخ كل ذلك في القلب، مع الإقرار باللسان، والعمل بمقتضاه بالجوارح ﴾.

المبدأ الثَّاني: الموضوع:

موضوع علم العقيدة: هو: أصول الإيمان الستَّة، وكلّ أصل من هذه الأصول له موضوعه الخَّاص مع اتِّصاله بما قبله وما بعده وما لها من فروع، وهي:

1 – الإيمان بالله.

2 – الإيمان بالملائكة

3 – الإيمان بالكتب

4 – الإيمان بالرُّسل

5 – الإيمان باليوم الآخر

6 – الإيمان بالقدر خيره وشرِّه.

وقد يقال إنَّ موضوع علم التَّوحيد (العقيدة) يدور على محاور ثلاثة، وذلك على النَّحو التَّالي:

1 – ذات الله تعالى أو الإلهيَّات: والبحث في ذات الله تعالى من حيثيات ثلاث، ما يتَّصف به تعالى، وما يتنزَّه عنه، وحقُّه على عباده.

2 – ذوات الرُّسل الكرام أو النبوَّات: والبحث فيها من الحيثيَّات التَّالية: ما يلزم ويجب عليهم، ما يجوز في حقِّهم، ما يستحيل في حقهم، ما يجب على أتباعهم.

= وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (150/10) : رجاله رجال الصحيح.

قال الألباني في "السلسلة الضعيفة" (1363): وهذا سند موقوف جيد رجاله كلهم ثقات رجال مسلم.

[1] رواه ابن حبان (2403) والطبراني في "الأوسط" (301/2) وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (150/10) : رجاله رجال الصحيح . وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (1325).

3 – السَّمعيَّات أو الغيبيَّات: وهو ما يتوقَّف الإيمان به على مجرَّد ورود السَّمع أو الوحي به، وليس للعقل في إثباتها أو نفيها مدخل، كأشراط السَّاعة وتفاصيل البعث... والبحث في السَّمعيات أو مسائل الغيب يكون من حيث اعتقادها، وهو يقوم على دعامتين:

الأولى: الإقرار بها مع التَّصديق، ويقابله الجحود والإنكار لها.

الثانية: الإمرار لها مع إثبات معناها، ويقابله الخوض في الكنه[1] والحقيقة، ومحاولة التصوُّر والتوهُّم بالعقل بعيدًا عن النَّقل، وهذا ممنوع.

وضابط السَّمعيات: أنَّ العقل لا يمنعها ولا يحيلها، ولا يقدر على ذلك، ولا يقدر أن يوجبها ولا يحار في ذلك، (لأنَّ التسليم يمنع الحيرة في الأمر المسموع) فمتى ما صحَّ النَّقل عن الله عزَّ وجلَّ ورسوله ﷺ فإنَّ الواجب اعتقاد ذلك والإقرار به، ودفع كل تعارض موهوم بين شرع الله تعالى وهو الوحي وبين خلقه وهو العقل، والقاعدة الذهبيَّة هي: لا يتعارض وحي صحيح مع عقل صريح عند التَّحقيق[2].

ويتبع ذلك كلّه الردّ على أهل الأهواء والبدع وسائر الملل الضالة والنِّحل[3]، والموقف منهم.

المبدأ الثَّالث: الواضع:

واضع علم العقيدة هو الله سبحانه وتعالى، لقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19]، وقد بيَّن سبحانه أركان الإيمان في كتابه العزيز بيانًا واضحًا وقال: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: 177].

---

[1] الكُنْهُ: جوهرُ الشيءِ وحقيقتُه وكُنْهُ الشيءِ: غايتُه ونِهَايتُه – يُنظر معاجم اللغة.

[2] علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة لمحمد يسري – بتصرف – ص155.

[3] النِّحلة: النِّسبة والدعوة الباطلة، يقال: نحلة القول: أي أضاف إليه قولا قاله غيره وادعاه عليه – ينظر مختار الصحاح ص 559.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: 21].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49].

وقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38].

وقوله جلَّ علا: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: 3].

وقوه جلَّ جلاله: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾ [الرعد: 26].

فقد ذكر في الآية الأولى خمسة الأعمال القلبية وذلك في قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾.

وكذلك في بقية الآيات ذكر الركن السادس وهو الإيمان بالقدر وذلك في قوله سبحانه: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾.

ثم ذكر سبحانه أعمالا تشترك فيها أعمال القلب وأعمال الجوارح وذلك في قوله تعالى:

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾

وإعطاء المال وإن كان من عمل الجوارح إلا إنه من أعمال القلب أيضا وذلك لحب الناس للمال وهو في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، **ويشهد له قوله تعالى:** ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ﴾ [آل عمران: 92].

ثمَّ ذكر بعد ذلك أعمال الجوارح التي لا تثبت أعمال القلوب إلا بها، فقال تعالى: ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾

كذلك ذكر سبحانه قول اللسان فقال جلَّ من قائل: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

فيالها من آيات مبهرات، غاية في البيان مع إيجازها، تنطق بالمعاني مع بديعها، فسبحان منزِّل الكتاب.

فما سبق من الآيات جمعت أركان العقيدة الستة، مع بيان أنها ليست للقلب وحسب، بل للقلب وللسان والجوارح، وأن أحد الستة أو جلها لا يغني عن كلها.

ففي الآية الأولى ذكر الله تعالى خمسة أركان وهي:

1 – الإيمان بالله جلَّ جلاله.

2 – الإيمان باليوم الآخر.

3 – الإيمان بالملائكة.

4 – الإيمان بالكتاب.

5 – الإيمان بالنبيِّين.

وفي بقية ذكر الله تعالى الرُّكن السَّادس:

6 – وهو الإيمان بالقدر.

وقد وصف الله تعالى غير المؤمنين بالكفر، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136]، وحرف (الواو) في الآية ليس للتَّرتيب ولا للمعيَّة، بل هي للتَّنويع، فـ (الواو) هاهنا نائب عن الحرف (أو)، فقد ذهب جماعة من النُّحاة إلى أنَّ (الواو) قد تخرج عن معناها الأصلي في الاستعمال وهو الدَّلالة على مطلق الجمع، إلى جملة من الاستعمالات الأخرى؛ أشهرها: أن تستعمل بمعنى حرف العطف (أو)، وذلك في ثلاثة مواضع:

أحدهما: أن تكون بمعنَى الحرف (أو) في التَّقسيم.

والثَّاني: أن تكون بمعنى الحرف (أو) في الإباحة

والثَّالث: أن تكون بمعنى الحرف (أو) في التَّخيير[1].

ومن الدَّلالات على أنَّ الحرف (واو) ينوب الحرف (أو) الآية السَّابقة، وهو أنَّ من يكفر باللهِ أو يكفر بملائكتهِ، أو يكفر بكتبه، إلى آخر ما ذكر سبحانه فقد كفر بكل المذكورات جميعا؛

---

[1] انظر: شرح التسهيل 3/ 348، والمغني ص 343 – بتصرف.

وفي الكفر بملائكته وكتبه ورسله تقسيم أيضًا، حيث أنَّ من يكفر بأحد من ملائكته فقد كفر بكل الملائكة، وكذلك الحال مع كتبه وسله سبحانه، وبالتَّالي فقد كفر بكلِّ الأركان السَّابقة.

ودليل أنَّ الإيمان لا يتجزَّأ بمعنى أن تؤمن ببعض وتكفر ببعض، هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[النساء: 150]، فقد بيَّن سبحانه أنَّ الأمر ليس للخيرة، بل هو للوجوب، والإيمان واجب بكل ما أمر الله تعالى به وما أمر به أنبياؤه، وأن الإيمان ببعض لا يغني عن الكل، وأنَّ الكفر بالبعض كفر بالكل.

ويتبيَّنُ لك بعد ما سبق أنَّ واضع علم العقيدة هو الله تعالى، وأمَّا ما أُجْمِلَ منه فقد بيَّنه رسوله ﷺ لقوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[النحل: 44]، ومن ذلك حديث أبي واقد اللَّيثي: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ لمَّا خرَجَ إلى خَيْبرَ مرَّ بشجَرةٍ للمشركينَ يُقالُ لها: ذاتُ أَنْواطٍ، يعلِّقونَ عليها أسلِحتَهم، فقالوا: يا رسولَ اللهِ، اجعَلْ لنا ذاتَ أَنْواطٍ، كما لهم ذاتُ أَنْواطٍ، فقال النبيُّ ﷺ: {سُبْحانَ اللهِ، هذا كما قال قومُ موسى: ﴿ اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾[الأعراف: 138]، والذي نَفْسي بيَدِه، لتركَبُنَّ سُنَّةَ مَن كان قبلَكم}[1]، وهنا قد بيَّن الرَّسول ﷺ أنَّ ما طلبوه هو شرك بالله تعالى، حيث اعتقدوا النَّفع والضرَّ في شجرة يظنون أنَّها تجلب النَّصر لهم إذا ما علَّقوا عليها أسلحتهم، ومن جهة أخرَى يُبيِّنُ صلَّى الله عليه وسلَّم معاني توحيد الربوبيَّة ويُبيِّنُ القضاء والقدر، فعنِ ابنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: {يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ}[2].

[1] أخرجه الترمذي 2180 وصححه الألباني.

[2] أخرجه الترمذي 2516.

المبدأ الرَّابع: النِّسبة:

ينتسِبُ علم العقيدة إلى العلوم الشرعيَّة، وهو أساسُها، ورأس أمرها، عمودها، وذروة سنامها، فلا يقبل الله تعالى من عبد صرفا ولا عدلا، إلّا إن كان مؤمنًا بالله تعالى وما أمر أن يؤمن به من ملائكة، وكتب، ورسل، ويوم الآخر، والقدر، لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الزمر: 65]، قال الطبري: يقول: لئن أشركت بالله شيئا يا محمد، ليبطلنّ عملك، ولا تنال به ثوابا، ولا تدرك جزاء إلا جزاء من أشرك بالله[1].

فإن كان هذا الوعيد لرسول الله ﷺ وهو سيد ولد آدم فما بالك بمن دونه.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 88].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[المائدة: 5]، قال ابن عباس: خسر الثَّواب[2].

المبدأ الخامس: الاستمداد:

أي: من أين يستمدُّ علم العقيدة أدلَّته؟ يستمدُّ علمُ العقيدةِ أدلَّتهُ من الكتابِ والسُّنَّةِ فقط، فلَا مجالَ للعقلِ ولا للاجتهادِ فيه أبدًا، فعلم العقيدة علم توقيفيٌّ، هذا لأنَّ العقل لا يمكن له إدراك ما يستحقُّه الله تعالى من صفات الجلال ونعوت الكمال فوجب بانعدام كمال العقل الوقوف على النصِّ، وأحسن ما قيل في ذلك، أنَّ العقل يستحيل عليه اكتشاف الغيبيَّات بلا سبب ومسبِّبٍ، لذلك أرسل الله تعالى الرُّسل وأنزل الكتب، فيحرم التكلُّم عن الغيبيَّات عامَّةً بلا علم، فما بالك بمن يتكلَّم عن ذات الله تعالى بلا علم، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[الإسراء: 36].

قال الطَّبري: ... فقال بعضهم: معناه: ولا تقل ما ليس لك به علم[3].

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] ينظر: تفسير البغوي.

[3] تفسير الطَّبري.

فهنا كان النَّهي عن الكلام بلا إدراك مطلقًا.

ثمَّ شدَّد سبحانه في مواضع أخرى بقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: 33].

ففي هذه الآية ذكر الله تعالى أصول المحرَّمات فبدأ بأقلِّها حرمة فقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ وهذه تشتمل على الزِّنا واللُّواط والخمر، وما شابهها من الفواحش، ثم ارتقى الخطاب درجة إلى ما هو أشدُّ خطراً وأعظم ضرراً وهو وأقبح أثراً، وهو الإثم والظلم فقال تعالى: ﴿وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وذلك لأن ضرر البغي متعدٍّ إلى الغير وأثره أعظم من أثر الفواحش، لأن أثر الفواحش قاصر، ثم ارتقى الخطاب درجة إلى ما هو أشدُّ خطرا وأعظم ضررا وأقبح أثرا، وهو الشِّرك بالله تعالى، فقال تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، والشِّرك بالله من الأعظم الذُّنوب، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، **وقال تعالى محذِّرًا من خطر الشِّرك:** ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]، **وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنزلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، والسلطان هو الحجة، ومن المعلوم أنَّه ليس للشرك سلطان، وعليه لماذا ذكر الله السلطان في الشرك؟ وهل من كان له حجة جاز شركه؟ الجواب ليس في الشرك سلطان، وأما سبب ذكره سبحانه للسلطان مع عدم وجوده فهو للتشنيع، وهو من علوم أصول التفسير من باب أساليب القرآن قاعدة: ذكر القيد غير المراد للتشنيع، فإن (السلطان) في الآية قيد للشرك، وهذا القيد غير مراد؛ لأنه كما أسلفنا ليس للشرك برهان ولا حجة، فذكره غير مراد، وسبب ذكره هو للتشنيع، كقوله تعالى أيضا:** ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117]، **ومن المعلوم أنَّ من دعا مع الله إله آخر فهو مشرك كافر؛ وأنه ليس له برهان، وإنما قيَّد الله تعالى دعاء غيره بالبرهان بيانا لشناعة فعل الشرك.**

أرأيت كلَّ هذا الهولِ العظيم المترتِّب على الإشراك بالله تعالى؟ ومع هذا فقد ارتقى الخطاب في آخر الآية درجة إلى ما هو أشد خطرا وأعظم ضررا وأقبح أثراً من الشِّرك، وهو القول على الله تعالى بغير علم، فقال تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[1]، فختم الله تعالى الآية به، وهذا دليل أيضاً على عظَمِ هذَا الجرم، ومن المعلوم أنَّ العرب كانوا يتركون أشدَّ ما في الخطاب إلى آخره، وها هو أفصح العرب محمد رسول الله ﷺ يقول نصاحًا ومرشدًا لرجل أصابته هموم وديون: {... قل إذا أصبحتَ وإذا أمسيتَ: اللَّهمَّ إنِّي أعوذُ بِك منَ الهمِّ والحزنِ وأعوذُ بِك منَ العجزِ والكسلِ وأعوذُ بِك منَ الجبنِ والبخلِ وأعوذُ بِك من غلبةِ الدَّينِ وقَهرِ الرِّجالِ...}[2]، فجعل ﷺ قهر الرِّجال آخر الكلام والدُّعاء؛ لأنَّه أشد ما في الباب، فالقائل على الله تعالى بلا علم أعظم ذنبًا من المشرك، فالشِّرك بالله هو ما عرَّفه رسول الله ﷺ حين سئلَ عن أيِّ ذنب أعظم فقال: {أن تَجعلَ للهِ ندًّا وهوَ خلقَك}[3]، فإن كان المشرك قد جعل لله تعالى ندًّا وهو خلقهُ، فإنَّ القائل على الله تعالى بلا علم قد جعل نفسه ندًّا لله تعالى، فالمشرك عظَّم شيئا فجعله ندا لله تعالى، وأما القائل على الله تعالى بلا علم قد جعل نفسه هو ندا لله تعالى، والفرق بينهما شاسع، هذَا لأنَّ خطاب الله تعالى للمكلَّفين هو طلب على وجه الاستعلاء، وهو ما يسمَّى بالأمر والحكم، وهذا الخطاب يدور على خمسة أحكام لا سادس لها، فإن كان طلبهُ سبحانه طلبَ فعلٍ، فإمَّا أن يكون على وجه الوجوب، أو أن يكون على وجه الاستحباب، وإن كان طلبه سبحانه طلب تركٍ، فإمَّا أن يكون على وجه التَّحريم أو أن يكون على وجه الكراهة، فهذه أربعة أحكام، وما سكت عنه الشَّارع فهو مباح، هذا لأنَّ الشَّارِع لا يسكت على باطل، وبهذا تمَّت أحكام التكليف الخمسة، فالقائل على الله تعالى بلا علمٍ في فروعِ الشَّريعة وأصوها، فهو يدور ولابدَّ على هذه الأحكام الخمسة، فلا يخلو أن يحرِّم حلالًا، أو يحلِّل حرامًا، أو يُبيح مكروهًا أو حرامًا، وهذهِ أفعال الربِّ سبحانه وتعالى، وهي من خصائص الرُّبوبيَّة، ويدلُّ على ذلك حديث عدي بن حاتم الطّائي قال: أتيت رسولَ الله ﷺ وفي عُنُقي صليبٌ من ذهب، فقال: {يا عديّ، اطرح هذا الوثنَ من عنقك} قال:

---

[1] القول على الله بغير علم هو أعظم المحرَّمات – مقالات الألوكة – سعيد مصطفى دياب – بتصرف.
[2] أخرجه أبو داود (1555)، والبيهقي في ((الدعوات الكبير)) (305).
[3] البخاري 6811، ومسلم 86.

فطرحته، وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة، فقرأ هذه الآية: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ}، قال: قلت: يا رسول الله، إنا لسنا نعبدُهم! فقال: {أليس يحرِّمون ما أحلَّ الله فتحرِّمونه، ويحلُّون ما حرَّم الله فتحلُّونه؟} قال: قلت: بلى! قال: {فتلك عبادتهم}[1]، قال الشنقيطي: اعلموا أيها الإخوان: أنَّ الإشراك بالله في حكمه والإشراك به في عبادته كلّها بمعنى واحد لا فرق بينهما ألبتّة[2]، (انتهى) وكلُّ هذا في حقِّ مِن اتَّبع من حكم بغير حكم الله تعالى بعلم أو بلا علم، فما بالك بالحاكم نفسه، فقد نصَّب نفسه ربًّا من دون الله تعالى، فهذَا حال القائل على الله تعالى بلا علمٍ، وهذا الفعلُ يزداد شناعة وبشاعة في حقِّ القائل على الله تعالى بلا علم في ذات الله تعالى وصفاته والخوض في قضائه وقدره سبحانه، وفي أصول الدين عموما، وختاما فالقائل على الله تعالى بغير علم آثم ولو أصاب في قوله، وهذا لأنَّه حكم بحكمه هو لا بحكم الله تعالى، فوافق حكمه حكم الله تعالى، فقد نصَّب نفسه مشرعا من دون الله فمقامه في مقام فرعون وأشباهه، فالحرص الحرص من القول على الله تعالى بغير العلم، واعلم أنَّ كلمة لا أدري لمن لا يدري كنز أهل العلم.

وأخيرا فالأشياء التي يدركها العقل البشري المحدود محدودة بحدود العقل القاصر، فانجرَّ عن كلِّ هذَا أن لابدَّ بالوقوف في أمور العقيدة على الكتابِ والسنَّة الصَّحيحة ظنيَّة كانت أم يقينية فالمهم هو الصحَّة فقط، ولا محلَّ للعقل فيها إلَّا محلَّ الفهم وتعزيز الأدلَّة، كالاستعمال العقل في بيان أنَّ العقيدة الصَّحيحة فطريَّة وأنَّ الإنسان مجبول على العقيدة الصَّحيحة، وغير ذلك ممَّا سيأتي في مصادر تلقِّي العقيدة الصَّحيحة.

المبدأ السَّادس: فضل علم العقيدة:

علم العقيدة هو أفضل العلوم الشَّرعيَّة على الإطلاق لتعلُّقه بتوحيد الله تعالى وعبادته على الوجه الصَّحيح، الذي من أجله أرسل الله تعالى الرُّسل وأنزل الكتب.

وتظهر فضائل العقيدة الصَّحيحة من خلال الأمور الآتية:

---

[1] الحديث أخرجه الترمذي ج5/ص278ح 3095, والطبراني ج17/ص92 – ح218, والبيهقي في الكبرى ج10/ص116 – ح20137, من طريق عبد السَّلَامِ بن حَرْبٍ عن غُطَيْفِ بن أَعْيَنَ عن مُصْعَبِ بن سَعْدٍ, قال شيخ الإسلام ج7/ص67:" وهو حديث حسن طويل"، وحسنه الألباني.

[2] ينظر: أضواء البيان.

1 – أنَّ العقيدة الصَّحيحة هي الأساس في قَبول العمل الصَّالح عند الله عزَّ وجلَّ، والذي به تكون النَّجاة في الآخرة والفوز بالجنَّة بعد رحمه الله جلَّ وعلا:

كما قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[الكهف: 110]، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ العمل لا يقبل عند الله تعالى إذا كان صاحبه على عقيدة شركية؛ لأن الشرك يبطل العمل كما تقدم وأشرنا، وبالتَّالي يكون جزاءه الخسران المبين يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[المائدة: 5].

ومعنى (حَبِطَ) في الآية الكريمة أي: بُطلان ذلك العمل وذهاب ثوابه.

2 – أنَّها الأصل في دعوة الرُّسل عليهم الصَّلاة والسَّلام:

فما من رسول بعثه الله تعالى في قومه إلَّا وَدَعاهم إلى العقيدة الصَّحيحة أوَّل ما دعاهم إليه، وكان الاهتمام بها أشدّ الاهتمام، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[النَّحل: 36]، والطَّاغوت: قال الإمام مالك رحمه الله تعالى: هو كل ما يعبد من دون الله عز وجل[1]، اهـ. وتعريف الإمام مالك يُقيَّدُ بمن عُبِدَ من دون الله وهو راضٍ، ليخرج بهذا القيد من عُبِدَ وهو غير راضٍ مثل المسيح ابن مريم والملائكة عليهم الصَّلاة والسَّلام، فإنَّهم عُبدوا من دون الله تعالى وهم غير راضين بذلك، بل إنَّهم براء ممَّن عبدهم ومن عبادتهم.

3 – أنَّ العقيدة ضروريَّة للإنسان أكثر من أيِّ ضرورة:

إذ بدونها لا يعرف الإنسان الإجابة الحقيقيَّة الصَّحيحة عن أسئلة البشر الكبرى، ك: من أين جئت؟ ولماذا خُلقت؟ وإلى أين سأذهب بعد الموت؟

فكانت نتيجة إهمال العقيدة الصَّحيحة ما نراه من البؤس والشَّقاء وانتشار الأمراض النَّفسيَّة وحالات الانتحار، وكذلك انشار مظاهر الإلحاد في العالم الإسلامي.

---

[1] تفسير ابن كثير المجلد الأوَّل ص 466.

فإنَّ العقيدة الصَّحيحة هي وحدها التي تجيب عن تلك الأسئلة الكبرى التي احتار البشر في الإجابة عنها، كما أنَّ العقيدة الصَّحيحة تملؤ القلب يقيناً وطُمأنينة وسكوناً وأمناً، فصاحب العقيدة السَّليمة يعلم يقيناً أنَّ قدر الله تعالى نافذ فيه لامحالة، وأنَّ رزقه واصل إليه، وأنَّ ما أخطأه ما كان ليصيبه، وأنَّ ما أصابه ما كان ليخطئه، فتجده مرتاح البال مطمئنًّا مستبشراً، فها هو الصَّحابيُّ الجليل عبادة بن الصَّامت يعِظُ ابنه، قال: يا بُنَيَّ، إنَّك لن تَجِدَ طَعمَ حقيقةِ الإيمانِ حتى تعلَمَ أنَّ ما أصابَك لم يكُنْ لِيُخْطِئَك، وما أخطَأَك لم يكُنْ لِيُصيبَك، سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: {إنَّ أوَّلَ ما خلَقَ اللهُ القَلَمُ، فقال له: اكتُبْ، قال: ربِّ، وماذا أكتُبُ؟ قال: اكتُبْ مقاديرَ كُلِّ شيءٍ حتى تقومَ السَّاعةُ}، يا بُنَيَّ، إنِّي سَمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: {مَن ماتَ على غيرِ هذا، فليس مِنِّي}[1].

4 – أنَّ العقيدة الصَّحيحة هي السَّبب الرَّئيس في حصول الأمن والهداية في الدُّنيا والآخرة:

كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الانعام: 82]، أي: لم يخلطوا إيمانهم بشرك، قال ابن كثير: لما نزلت ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ قال أصحابه: وأيُّنَا لم يظلم نفسه؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13][2]، وقال السعدي: الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصِّراط المستقيم، فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقا، لا بشرك، ولا بمعاص، حصل لهم الأمن التَّام، والهداية التامَّة، وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشِّرك وحده، ولكنَّهم يعملون السيِّئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن وإن لم يحصل لهم كمالها، ومفهوم الآية الكريمة، أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضَّلال والشَّقاء، لذلك فإنَّ كثرة الشرِّ والفساد والفتن، هو نتيجةُ الجهل بالعقيدة الصَّحيحة والإعراض عن تعلُّمها والاقتداء بتعاليمها[3].

5 – ومن فضائل العقيدة الصَّحيحة أنَّها من أسبابِ فتح البركات منَ السَّماء والأرض:

---

[1] أخرجه أبو داود (4700) مختصراً بنحوه، والترمذي (2155) باختلاف يسير، وأحمد (22705) واللفظ له، وصححه الأرناؤوط.

[2] تفسير ابن كثير.

[3] ينظر: تفسير السعدي.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الأعراف: 96].

قال القرطبي: آمنوا أي صدَّقوا واتَّقوا أيِ الشِّرك لفتحنا عليهم بركات من السَّماء والأرض يعني المطر والنَّبات[1].

المبدأ السَّابع: الحكم، أي: حكم تعلُّم وتعليم علم العقيدة:

تعلُّم علم العقيدة على قسمين:

- قسم فرض عين.
- وقسم فرض كفاية.

فالقاعدة تقول: (العلم تابع للمعلوم)، فالعلم الذي يُتوصَّل به إلى إقامة الفرض يكون فرضاً، والعلم الذي يُتوصل به إلى إقامة المندوب يكون مندوباً، والعقيدة منها فرض عين ومنها فرض كفاية، فبناء على هذه القاعدة يكون تعلُّم علم العقيدة منه فرض عين ومنه فرض الكفاية، وبه كذلك العلم الذي يُتوصَّل به إلى تعلم علم العقيدة فمنه فرض عين، ومنه فرض كفاية.

- فأمَّا فرض العين: فهو ما لا يصحُّ الإيمان إلَّا به، كالإيمان بأركان الإيمان الستَّةِ على وجه مجملٍ، وفهم معنى التَّوحيد بأصوله، وفهم معنى الشِّرك وأنواعه.
- وأمَّا فرض الكفاية: هو ما زاد على ما سبق من التَّفصيلات بأدلَّتها، ومعرف الفرق الضَّالة والمخالفين، وكيفية الردِّ عليهم، فكلَّما ازداد المؤمن علماً بالعقيدة الصَّحيحة ازداد إيماناً.

وأمَّا حكم تعليم علم العقيدة: فهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين.

يقول الإسنوي رحمه الله تعالى: سُمِّيَ فرض كفاية؛ لأنَّ قيام بعض المكلَّفين به يكفي للوصول إلى مقصد الشَّارع في وجود الفعل، ويكفي في سقوط الإثم عن الباقين[2].

المبدأ الثَّامن: الاسم:

لعلم العقيدة أسماء كثيرة، وإنَّ كثرة الأسماء تدلُّ على شرف المسمَّى.

ولكنَّ أسماء علم العقيدة منها المحمود ومنها المردود.

---

[1] تفسير القرطبي.

[2] التمهيد للإسنوي ص74.

القسم الأول: الأسماء المحمودة لعلم العقيدة:

1 – العقيدة:

ومرَّت كلمة عقيدة بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهي دور الموسوعيَّة في المعنى وعدم الاختصاص، وهو المعنى اللُّغوي، فهي في اللُّغة تطلق ويراد بها:

العزم المؤكَّد، والجمع، والنيَّة، والتَّوثيق للعقود، وما يدين به الإنسان سواء كان حقا أو باطلا.

المرحلة الثَّانية: وهي دور الفعل القلبي، وفيه تبرز العقيدة كمعنى يقوم بقلب العبد، وهو أخص من المرحلة التي قبله، ويعبر عنه بالمعنى المصدري وهو بهذا الاعتبار: الإيمان الذي لا يحتمل النَّقيض...

المرحلة الثَّالثة: وهي الدور الذي نضجت فيه العقيدة، وأصبحت علما ولقبا على قضايا معينة، وهو دور الاستقرار[1].

ومن المؤلَّفات التي حملت اسم العقيدة أو الاعتقاد: كتاب: عقيدة السَّلف وأصحاب الحديث، للصابوني (ت: 449هـ)، و: شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة، للالكائي (ت: 418هـ)، و:الاعتقاد، للبيهقي (ت: 458هـ)[2]...

2 – التَّوحيد:

وقد مرَّت كلمة (توحيد) بنفس الأطوار التي مرَّت بها كلمة عقيدة، فهي في الدَّور اللُّغوي مشتقَّة من وحَّد يوحِّد توحيداً، فهي مصدر للفعل وحَّدَ بمعنى جعله واحداً، ثمَّ نُقِل عن هذا المعنى إلى معنى الفرد المتميز عن غيره، لأن كون الله تعالى واحداً ليس بجعل جاعل، وعلى هذا فالواحد هو المنفرد بخصائصه عمَّا سواه، ومن هذا المعنى قولهم: واحد زمانه أي: فرداً فيه إمَّا علما أو عقلا وكرماً ونحو ذلك.

وفي الدَّور المصدري، أو في طور اعتباره فعلا من أفعال القلب: هو إفراد الله تعالى بالربوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصِّفات...

---

[1] المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لإبراهيم البريكان – بتصرف – ص 8.

[2] مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر بن عبد الكريم العقل – ص10.

وفي الدَّور الأخير وهو دور الاستقلال صارت فيه كلمة التَّوحيد تدلُّ على العلم المسمَّى بالعقيدة[1].

ومن المؤلَّفات في العقيدة والتي حملت اسم التَّوحيد:

كتاب: التَّوحيد في الجامع الصَّحيح، للبخاري، (ت: 256هـ) وكتاب: التَّوحيد وإثبات صفات الرَّب، لابن خزيمة (ت: 311هـ)، وكتاب: اعتقاد التَّوحيد، لأبي عبدالله محمد بن خفيف (ت: 371هـ)، وكتاب: التوحيد، لابن منده (ت: 359هـ)، وكتاب: التوحيد، للإمام محمد بن عبدالوهاب (ت: 1115هـ)[2]...

3 – السنَّة:

أمَّا السنَّة فقد تعدَّدت معانيها بحسب الاصطلاحات، فكلُّ أهل علمٍ إسلاميٍّ اصطلحوا على دلالة متناسبة وطبيعة هذه العلوم.

فعلماء الحديث السنُّة عندهم: ما أضيف إلى النبيِّ ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف، أو سيرة بعد البعثة.

وعند بعض علماء أصول الفقه: هي ما أمر به الشَّارع لا على سبيل الإلزام...

وعند بعض الفروعيين: هو ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه.

وقد أبطلنا كلا التعرفين الأخيرين في كتابنا: المنة في بيان مفهوم السنة، وبينَّا فيه أنَّ السنة حكم جامع فيه الواجب والمندوب ونهي التحريم والكراهة، ولا يجوز نسبة المندوب إليها دون غيره من الأحكام، فمن شاء التفصيل ينظر فيما ذكرنا كتابنا: المنة في بيان مفهوم السنة.

وعند علماء العقيدة الصَّحيحة: أنَّ السنَّة من مصادر تلقِّي العقيدة الصَّحيحة وطريق من طرق إثباتها، ولذا جعل بعض السَّلف السنَّة هي الاتِّباع، وجعلها بعضهم الإسلام، وقال بعضهم السنة، الدين، وهذه الأقوال غير متنافرة؛ لأن الإسلام هو تعبير عن العقيدة الصَّحيحة، والاتِّباع يعبر عن طريق التلقِّي ومنهجه، فإنَّ تمَّ ذلك فهو الدين كله.

فصار معنى السنة هو: اتِّباع العقيدة الصَّحيحة الثَّابتة بالكتاب والسنَّة، أو تقول: السنَّة هي اتباع الدين الصحيح، و تقول: السنة هي الدين الذي شرعه الله تعالى لعباده.

---

[1] المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لإبراهيم البريكان – بتصرف – ص 10.

[2] مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر بن عبد الكريم العقل – ص10.

وممَّن استعمل هذا اللَّفظ في هذا المعنى الإمام أحمد بن حنبل (ت: **241** هـ) في كتابه: السنَّة، فقد ضمَّنه العقيدة الصَّحيحةَ الثَّابتة بنقل العدول عن الرَّسول ﷺ وأصحابه، وكذا فعل عبد الله بن الإمام أحمد (ت: **290** هـ) في كتابه: السنَّة، ومنه أيضا كتاب: السنَّة: لابن أبي عاصم (ت: **287** هـ)[1]، ولم يشترط أحد منهم أن تكون النصوص يقينية، بل غالبها ظنية.

4 – أصول الدِّين:

وهو مركَّب من مضاف ومضاف إليه، فهو مركب إضافي، ولا يمكن منطقيًّا أن نتوصَّل إلى معنى المركَّب إلَّا عن طريق تحليل أجزائه المركَّب منها، وهي (أصول) و (دين).

الأصول لغة: الأصول: جمع أصل وهو: ما يبنى عليه غيره كأساس المنزل.

واصطلاحا: ما له فرع ...

والدِّين لغة: هو الذُّل والخضوع.

وشرعا: هو امتثال المأمور واجتناب المحظور، أو طاعة الله ورسوله ﷺ.

فيكون المعنى المركب (أصول الدين) هو: المبادئ العامَّة والقواعد الكليَّة الكبرى التي بها تتحقَّق طاعة الله ورسوله ﷺ والاستسلام لأمره ونهيه.

وهذا المعنى لا يراد به إلَّا علم العقيدة والتوحيد[2].

وقد ألَّف بعض العلماء كتباً في الاعتقاد تحمل اسم أصول الدِّين، ومن ذلك: كتاب: أصول الدِّين، للبغدادي (ت: **429**هـ)، و:الشَّرح والإبانة عن أصول الدِّيانة، لابن بطة (ت: **378**هـ)، و:الإبانة عن أصول الدِّيانة، للأشعري (ت: **324**هـ)[3]، وكتابنا هذا...

5 – الفقه الأكبر:

والفقه في اللُّغة هو: الفهم، وأضيف إلى الأكبر لإخراج الفقه الأصغر وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المكتسبة من أدلتها التفصيلية، وهو اصطلاحٌ عرف في القرن الثَّاني الهجري حيث سمَّى الإمام أبو حنيفة النُّعمان بن ثابت (ت: **150** هـ) كتابه الذي جمع فيه جملة

---

[1] المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لإبراهيم البريكان – بتصرف – ص 12.

[2] السابق بتصرف.

[3] مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر بن عبد الكريم العقل – ص10.

اعتقادات السَّلف (الفقه الأكبر) إشارة إلى أنَّه أعظم ما في شريعة الإسلام ولا يتحقَّق هذا اللَّقب إلَّا على علم العقيدة[1].

6 – الشَّريعة:

أطلقتِ الشَّريعة بإطلاق أخصُّ كما قال ابن تيميَّة رحمه الله تعالى على: العقائد التي يعتقدها أهل السنَّة منَ الإيمان، مثل اعتقادهم أن الإيمان قول وعمل، وأن الله موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله ﷺ وأنَّ القرآن كلام الله غير مخلوق ... إلخ[2].

والشَّريعة هنا كالسنَّة، فقد يراد بها ما سنَّه الله تعالى وشرعه من العقائد، وقد يراد بها ما سنَّه وشرعه من العمل، وقد يراد بها كلاهما.

وقد ألَّف بعض العلماء كتباً في الاعتقاد تحمل اسم الشَّريعة، ومن أولها: الشَّريعة، لأبي بكر الآجري رحمه الله تعالى (ت: 360 هـ)، و: الإبانة عن شريعة الفرقة النَّاجية ومجانبة الفرق المذمومة، لابن بطة الحنبلي رحمه الله تعالى (ت: 387 هـ)[3]...

7 – الإيمان:

صنَّف السَّلف كتبا باسم الإيمان بحثت قضايا التَّوحيد ومسائل الاعتقاد جميعا ومن أولها:

كتاب: الإيمان ومعالمه وسننه واستكمال درجاته، للإمام أبي عبيد القاسم بن سلام البغدادي رحمه الله تعالى (ت: 224 هـ).

وكتاب: الإيمان، للحافظ أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي شبة العبسي رحمه الله تعالى (ت: 235 هـ).

وكتاب: الإيمان، للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده رحمه الله تعالى (ت: 395 هـ)[4]...

---

[1] المدخل لدراسة العقيدة الإسلامية لإبراهيم البريكان – ص 13 – بتصرف.

[2] مجوع الفتاوى.

[3] علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة لمحمد يسري – ص 136.

[4] علم العقيدة عند أهل السنة والجماعة لمحمد يسري – ص 130.

القسم الثاني: الأسماء المذمومة لعلم العقيدة:

1 – الفلسفة:

أوَّلاً: مفهوم الفلسفة:

أ – منشأ هذه الكلمة:

الفلسفة هي كلمة معرَّبة عن اليونانيَّة، فهي لفظ يوناني نشأ أوَّل ما نشأ في بلاد اليونان[1].

ب – أصلها الوضعي:

وسبب تسميتها بذلك: لفظ (الفلسفة) مركَّب من كلمتين يونانيتين هما:

– (فيلو)، أو (فيلا) و معناهما: المحبَّة، أو الإيثار.

– (سوفيس)، أو (سوفيا) ومعناهما: الحكمة.

ج – تعريف الفلسفة الوضعي الأصلي:

من خلال ما مضى يتبيَّن لنا أنَّ الفلسفة باعتبار الوضع الأصلي تعرف بـ: (محبَّة الحكمة، أو إيثار الحكمة).

ويعرَّفُ الفيلسوف بأنَّه: محب الحكمة، أو المؤثر للحكمة[2].

د – تطوُّر دلالة كلمة (الفلسفة):

مرَّ مصطلح (الفلسفة) بعدَّة أطوار وعلى هذا فإنَّ تعريف (الفلسفة) يختلف باختلاف الأطوار، كما أنَّه يختلف باختلاف الفلاسفة الذين وضعوا لها حدوداً وتعريفات.

هـ – نماذج من تعريفات الفلسفة عند الفلاسفة:

للفلسفة عند الفلاسفة تعريفات عديدة وقد تكون في مجملها متقاربة فمن تلك التعريفات ما يلي:

– البحث عن الحقيقة.

– حب المعرفة.

---

[1] ينظر المدرسة الفلسفية في الإسلام بين المشائية و الإشراقيه. أ. د محمد إبراهيم الفيومي ضمن أبحاث ندوة (نحو فلسفة إسلامية معاصرة) ص75، والموسوعة الميسرة في الأديان أو الأحزاب والمذاهب المعاصرة 2/ 1108 – 1109.

[2] السابق.

– وعرَّفها الكندي بقوله: هي علم الأشياء بحقائقها بقدر طاقة الإنسان.

– وعرَّفها في موضع آخر بقوله: هي علم الحقِّ الأول الذي هو علَّة كلِّ حقٍّ.

– وعرَّفها الفارابي بقوله: إنَّها العلم بالموجودات بما هي موجودة.

– وعرَّفها أيضاً بقوله: علم بمقدار الطاقة الإنسيَّة.

– وعرَّفها كذلك بالعلم الوحيد الجامع الذي يضع أمامنا صورة شاملة للكون.

– وعرَّفها أيضاً بقوله: هي العلم الذي يعطي الموجودات معقوليَّة ببراهين عقليَّة.

– وعرَّفها ابن سينا بقوله: الحكمة: استكمال النَّفس الإنسانيَّة بتصوُّر الأمور والتَّصديق بالحقائق النظريَّة والعلميَّة على قدر الطَّاقة الإنسانيَّة[1].

و – تعريف الفلسفة عند الإطلاق، وفي الاصطلاح العام:

فكما مرَّ معنا أنَّ الفلسفة مرَّت بأطوار، ولعلَّ آخر أطوارها هو ما استقرَّ عليه أمر الفلسفة؛ حيث صارت تطلق على آراء محدَّدة، ونظرات خاصَّة للكون، والوحي، والنبوَّات، والإلهيَّات، ونحو ذلك.

وصارت تُعنى بالعقل وتُقدِّمه على النَّقل، بل أصبح العقل عند الفلاسفة إلهاً ومصدراً للتلقِّي.

وعلى هذا فإنَّه يمكن تعريف الفلسفة عند الإطلاق فيقال:

هي: النَّظر العقلي المتحرِّر من كلِّ قيد وسلطة تفرض عليه من الخارِج، بحيث يكون العقل حاكماً على الوحي، والعرف، ونحو ذلك[2].

ثانيا: افتراق الفلاسفة:

الفلسفة تقوم على الأوهام والخيال والشك؛ لأنَّها لا ترتكز على وحي معصوم، وإنَّما تقوم على نتاج العقولِ، والعقول مهما بلغت فلن تستقلَّ بمعرفة الشَّرائع، وحقائق الكون، وصحَّة النَّظر بكلِّ حال.

ولهذا فإنَّ الاختلاف، والافتراق، والاضطراب دأب الفلاسفة.

---

[1] ينظر المدرسة الفلسفية في الإسلام ص124 – 125.

[2] ينظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة 1109/2.

المؤلف: الندوة العالمية للشباب الإسلامي

إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني

ومن الأمور التي يتَّضح من خلالها افتراق الفلاسفة ما يلي:

أ – أنَّ آراء الفلسفة فرديَّة ليس لها معيار ثابت:

فهي تختلف باختلاف الفيلسوف، وبيئته، وثقافته، ورؤيته وزاوية بحثه؛ فالمادِّي منهم يبحث في الحقيقة الماديَّة، والفيلسوف الميتافيزيقي يبحث في الحقيقة الميتافيزيقيَّة، وهكذا...

والميتافيزيقيَّة أو الما ورائيات، أو ما وراء الطبيعة: هو فرع من الفلسفة يدرس جوهر الأشياء، ليشمل ذلك أسئلة الوجود والصيرورة والكينونة والواقع[1]، ولا دليل عندهم في أحكامهم إلا الواجب عقلا أو المستحسن عقلا أو الممنوع عقلا وهكذا...

ب – أنَّ الحقيقة في أدوار الفلسفة غير ثابتة:

فلكلُّ فيلسوف وجهته، وكلُّ فيلسوف يناقض غيره.

ثمَّ إنَّ ثقافة الفيلسوف وبيئته وأستاذه، وتيَّارات مجتمعه، كلُّ أولئك لهم تأثيرهم في رؤية الفيلسوف وصنع عقليَّته.

ج – كثرة اضطراب الفلاسفة وشكِّهم:

يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى في معرض حديث له عن الفلاسفة والمتكلمين:

أنَّك تجدهم أعظم النَّاس شكًّا واضطراباً، وأضعف النَّاس علماً وبياناً، وهذا أمر يجدونه في أنفسهم، ويشهده النَّاس منهم، وشواهد ذلك أعظم من أن نذكرها، وإنَّما فضيلة أحدهم باقتداره على الاعتراض، والقدح، والجدل ومن المعلوم أن الاعتراض والقدح ليس بعلم ولا فيه منفعة، وأحسن أحوال صاحبه أن يكون بمنزلة العامي؛ (ولا يصل إلى ذلك) وإنَّما العلم في جواب السُّؤال؛ ولهذا تجد غالب حُجَجِهم تتكافأ؛ إذ كلٌّ منهم يقدح في أدلَّة الآخر[2].

ثالثا: معتقد بعض الفلاسفة المنتسبين للإسلام، ورأي أهل العلم فيهم:

معتقد الفارابي وابن سينا:

معتقدهم هو معتقد الفلاسفة الأوائل؛ فهم يسلكون في تقرير العقيدة، وبحث الأمور الإلهية مسلك قدماء الفلاسفة؛ فالمنهج الذي يسيرون عليه في ذلك منهج عقلي لا يرجعون فيه إلى

---

[1] الميتافيزيقيَّة أو الميتافيزيقيا: موسوعة ستانفور للفلسفة.
Metaphysics - sit :Stanford Encyclopedia of Philosophy

[2] نقض المنطق لابن تيمية ص25.

ما جاء به الرَّسول ﷺ ولا يعرفون من العلوم الكليَّة ولا العلوم الإلهيَّة إلَّا ما يعرفه الفلاسفة المتقدِّمون مع زيادات تلقَّوها عن بعض أهل الكلام، أو أهل الملَّة[1].

ويرى ابن تيميَّة رحمه الله تعالى أن الفارابي، وابن سينا، وغيرهم من الفلاسفة المنتسبين إلى الإسلام: أنَّهم وإن كانوا قد توسَّعوا في مباحث الفلسفة، وتكلَّموا في الإلهيَّات والنبوَّات والمعاد بما لا يوجد عند الفلاسفة المتقدِّمين، وكان كلامهم أجود وأقرب إلى الحق من كلام سلفهم إلا أنَّهم مزجوا الحقَّ الذي أخذوه من الدِّين بالباطل الذي بنوه على أصولهم الفلسفيَّة الفاسدة، وحاولوا التَّوفيق بين الدِّين والفلسفة، ولكن على حساب الدِّين؛ فهم يعمدون إلى النُّصوص، فيؤوِّلونها بتأويلات بعيدة ومتكلِّفة حتَّى تتلاءم مع قواعدهم الفلسفيَّة، فيقولون مثلاً: إن صفات الله تعالى التي جاء بها القرآن، ونطقت بها السنَّة ليست إلَّا تعبيرات عن ذات واحدة. (ومرادهم بالتعبيرات، أي: أنَّها لا وجود لها، إلا إنها ذكرت للتعبير عن الله تعالى)

ويقولون: إنَّ العرش هو: الفلك التَّاسع، والكرسي هو: الفلك الثَّامن، والملائكة هم: النُّفوس والقوى التي في الأجسام، وما يحدث من العالم من خوارق العادات حتى معجزات الأنبياء إنَّما سببه عندهم قوَّة فلكيَّة، أو طبيعية، أو نفسانيَّة إلى غير ذلك من الأمور التي وجدوها في الفلسفة فتمحَّلوا لها نصوصاً من الدِّين[2].

هذا وقد بين علماء الإسلام ضلال الفلاسفة، وانحرافهم عن سواء الصراط:

يقول ابن تيميَّة رحمه الله تعالى: حدَّثني ابن الشَّيخ الخضيري[3] عن والده الشَّيخ الخضيري شيخ الحنفيَّة في زمنه قال: كان فقهاء بخارى يقولون: إنَّ ابن سينا كان كافراً ذكيًّا[4].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى عن ابن سينا: فالرَّجل معطِّلٌ مشركٌ جاحدٌ للنبوَّات والمعاد، ولا مبدأ عنده ولا معاد، ولا رسول ولا كتاب[5].

---

[1] ينظر باعث النهضة الإسلامية – ابن تيمية السلفي – نقد لمسالك المتكلمين، والفلاسفة في الإلهيات للشيخ د. محمد خليل هراس ص 39–40.

[2] انظر المرجع السابق، ومنهاج السنة لابن تيمية 96/1، وتفسير سورة الإخلاص لابن تيمية ص84.

[3] قال الشيخ البحاثة سليمان الصنيع –رحمه الله– في حاشية كتاب نقض المنطق ص181:(الصواب الحصيري بالحاء والصاد نسبة إلى محلة يعمل فيها الحصير). يعني اسمه: الحُصري، وليس الخُضيري.

[4] نقض المنطق لابن تيمية ص181.

[5] إغاثة اللهفان في مصائد الشيطان لابن القيم ص620.

وقال الذهبي رحمه الله تعالى: عن ابن سينا: وما أعلم روى شيئاً من العلم، ولو روى لما حلَّت الرِّواية عنه لأنَّه فلسفيُّ النِّحلة ضال[1].

وقال عنه ابن كثير رحمه الله تعالى: وقد حصر الغزالي كلامه في (مقاصد الفلاسفة) ثم ردَّ عليه في (تهافت الفلاسفة) في عشرين مجلساً، وكفَّره في ثلاث منها، وهي قوله بقدم العالم، وعدم المعاد الجثماني، وأن الله لا يعلم الجزئيَّات، وبدّعه في البواقي[2].

2 – علم الكلام:

وأمَّا علم الكلام: فهو علم نشأ في البيئة الإسلاميَّة يهدف (بحسب دعوى أصحابه) إلى مقاومة ملاحدة الفلاسفة، ويعتني بنصرة العقائد الإسلاميَّة، وفق طرائق ومناهج الفلسفة العقليَّة، قال ابن خلدون في مقدِّمته: والمتكلِّمون إنَّما دعاهم إلى ذلك، (أي: علم الكلام) كلام أهل الإلحاد في معارضة العقائد السلفيَّة بالبدع النظريَّة، فاحتاجوا إلى الردِّ عليهم من جنس معارضتهم، واستدعى ذلك الحجج النظريَّة، ومحاذاة العقائد السلفيَّة بها[3].

ولو أنَّ الأمر كان كما يقول ابن خلدون، لشكرناهم على ذلك، ولكنَّهم سلكوا نفس طريق الفلاسفة في تقرير عقائد المسلمين فضلُّوا وأضلُّوا كما سيأتي...

فقد وقع المتكلِّمون في نفس الآفة التي وقع فيها الفلاسفة، فاعتبروا القياس المنطقي قطعيَّات عقليَّة ردُّوا بها نصوص الشَّرع، فأنكرت المعتزلة صفات الله تعالى، والقدر، وخلَّدوا مرتكب الكبيرة في النَّار، وقالوا بخلق القرآن، وكلُّ هذا بنوه على مقدمات رأوها قطعيَّة.

وأدخلوا من منطلق الفلسفة والمنطق، ما يسمى بالخبر المتواتر الذي يقبل في العقائد ولا يقبل غيره، ووضعوا له شروطا لا يقبلها المنطق الذي يستشهدون به، وللمزيد: ينظر كتابنا: المنة في بيان مفهوم السنة، فقد كفَّينا من الأدلة لدحض آرائهم وشروطهم الفاسدة في المتواتر.

كما أنَّ نفس الآفة وقع فيها الأشاعرة، خاصَّة في نسختها الرازيّة التي استقرّ عليها المذهب، وهو يُصرِّح بتقديم العقل باعتباره قطعيًّا على الدلائل النقليَّة التي تفيد الظنَّ[4].

---

[1] ميزان الاعتدال للذهبي 539/1.

[2] البداية والنهاية لابن كثير 46/12.

[3] مقدمة ابن خلدون ص 654.

[4] ينظر: تفسير الرازي 298/2.

وهو ما يقطع بصحة وسلامة منهج السلف، الذين ردوا على أهل البدع، ولم يلجؤوا للمنطق، ولا دخلوا في علم الكلام، وإنما حاججوهم بدلائل الكتاب والسنة، والأدلة العقلية المأخوذة منهما، والموافقة للفطر السليمة.

وقد ناظر أحمد بن حنبل المعتزلة والجهمية في خلق القرآن، وناظر الشافعي حفصًا الفرد فقطعه وكفره ولم يستدل بشيء من المنطق، ورد الدارمي على بشر المريسي، وصنف أئمة السلف في الرد عليهم دون الحاجة إلى الخوض في علم الكلام، ومتاهاته التي يَضل فيها العقلاء[1].

وما تمَّ ذكره من علم الفلسفة والكلام تسمَّى بالعلوم العقليَّة، وهذه العلوم في الأصل هي ثلاثة فثالثها هو علم المنطق، وهو مكمِّلٌ لما سبق من العلوم، وهو من صنفهم، فبتعريف علم المنطق الذي لا يعتبره أغلب العلماء علما مثله مثل الفلسفة والكلام، ستلاحظ أنَّهم يصبُّون في مشكاة واحدةٍ.

3 – علم المنطق:

أمَّا علم المنطق فهو: صناعة تستخدم في ترتيب طرائق التَّفكير، أو كما عرَّفه أصحابه: آلة قانونيَّة تعصم مراعاتها الذِّهن عن الخطأِ في التفكير[2]، فهو آلة لضبط غيره من العلوم عند أصحابه، وليس علمًا يراد لذاته، وهو علم أجنبي، وضعه فلاسفة اليونان، وقد أفتى كثير من علماء السلف والخلف بتحريم تعلمه؛ لأنَّه مدخل للفلسفة، ولابن الصَّلاح في ذلك فتوى مشهورة[3]، وجمع السُّيوطي في ذلك كتابًا سماه (صون المنطق) انتصر فيه للقول بتحريم تعلم المنطق، وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: ولهذا ما زال علماء المسلمين وأئمَّة الدِّين يذمُّونه، ويذمُّون أهله، وينهون عنه وعن أهله[4].

ولو تلاحظُ في تعريفهم لهذا العلم قال: آلة قانونيَّة تعصم مراعاتها الذِّهن عن الخطأِ في التَّفكير، فهم وضعوا قوانين عقليَّة نسبوا لها العصمة وقاسوا عليها نصوص الشَّرع، فإن وافقت

---

[1] موقع السلف من علم الكلام – مقالة (147) بتصرف.

[2] التعريفات، للجرجاني، ص 232.

[3] فتاوى ابن الصلاح، رقم 55.

[4] مجموع الفتاوى 7/9.

ذلك القانون فهي سليمة عندهم، وإلَّا أوَّلوها بما يوافق ذلك القانون، فحال علم المنطق كحال علم الكلام والفلسفة، بل إنَّ الغالب يُسمِّي ثلاثتهم بمسمًّى واحد، هذا إن كان استخدام علم المنطق في الإلهيَّات والنُّبوَّات وإثبات العقائد، أمَّا إن كان استعماله في أمور الطَّبيعة والرِّياضيَّات فلا إشكال فيه، وبهذَا قال ابن تيميَّة في كتاب الردِّ على المنطقيِّين: ... ونحن لم نقدح فيما عُلم من الأمور الطبيعية والرياضية...[1].اهـ

وكذلك نقول في علم الفلسفة والكلام، فإن استعمل في علوم دنياوية فلا بأس بذلك، بل ولو استعمل كما أرادوا أول مرة وهو الرد على الملحدين من جنس علمهم بشرط أن يحد علم الكلام والفلسفة بحدود الشرع لا يتعدَّاها فيا حيَّهل[2] بذلك.

اتِّفاق السَّلف على منع علم المنطق وذمِّه:

فأمَّا استخدامه في الإلهيات والنبوَّات وإثبات العقائد؛ فهذا الذي اتَّفق السَّلف على المنع منه وذمّه، وأقوالهم في ذلك مشهورة، كقول مالك رحمه الله تعالى: من طلب الدِّين بالكلام تزندق[3]، ومثله عن أبي يوسف القاضي[4]، وإنكار الشَّافعي على أهل الكلام مشهور وشديد، قال رحمه الله تعالى: حكمي في أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنَّة وأخذ في الكلام[5]، وفي كتاب "صون المنطق" للسُّيوطي المشار إليه آنفًا جملة من الآثار عن أئمة السلف فالإنكار على هؤلاء.

وأقول: أنه لو حُدِّدت هذه العلوم بحدود الشرع لا تتعدَّاها فلا بأس بها في مناظرة الملحدين؛ لأنه من جنس علمهم، ومناظرة الخصم بعلمه من أقوى المناظرات، وكذلك أخبر سبحانه عن إبراهيم فقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا

---

[1] الرد على المنطقيين ص 311.

[2] حيَّهل، أو حيَّهلا، كلمة تقولها العرب بمعنى: مرحبا، وأصلها مركب من كلمتين: وهما: حيَّ بمعنى هلمَّ، كقول المؤذن حيَّ الصلاة، والكلمة الأخر: هلا، بمعنى، للحث والاستعجال، كما قال الشاعر:

وهَيَّجَ الحيَّ مِنْ دَارٍ فَظَلَّ لهم * يومٌ كَثِيرٌ تَنَادِيه وحيَّهَلُه

[3] ذم الكلام، للهروي 5 /71.

[4] الموضع السابق 5 /202.

[5] أحاديث في ذم الكلام، للقادري ص 98.

جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: 57 – 79]، **فإنَّ أبانا إبراهيم عليه الصلاة والسلام، يعلم أنَّ الكواكب ليست آلهة، وهو لا يبحث عن إله، ولكنَّه من باب المناظرة كما قال ذلك المفسرون، قال السعدي: وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات، هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها، وأمَّا من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل[1]. اهـ**

وعليه؛ فإبراهيم هنا في مقام المناظرة لا مقام الناظر، والفرق بينهما أنَّ الناظر يبحث عن دليل، والمناظر له دليل يدافع به عن اعتقاده.

قال ابن كثير: والحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كان في هذا المقام مناظرا لقومه، مبيِّنا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية، التي هي على صورة الملائكة السماوية، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر، وغير ذلك مما يحتاجون إليه.

وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة، وهي: القمر، وعطارد، والزهرة، والشمس، والمريخ، والمشترى، وزحل، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس، ثم القمر، ثم الزهرة.

فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة، لما له في ذلك من الحكم العظيمة، وهي تطلع من المشرق، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن

---

[1] **ينظر تفسير السعدي.**

الأبصار فيه، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال، ومثل هذه لا تصلح للإلهية، ثم انتقل إلى القمر، فبين فيه مثل ما بين في النجم.

ثم انتقل إلى الشمس كذلك، فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار، وتحقق ذلك بالدليل القاطع {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُون} أي: أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن، فإن كانت آلهة، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين} أي: إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه...وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرا في هذا المقام، وهو الذي قال الله في حقه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾[الأنبياء: 51 – 52]...[1].

ويتبيَّن لنا ممَّا سبق أنَّ إبراهيم قدساير قومه فيما يعبدون، لا ناظرا باحثا عن دليل لألوهية ما كانوا يعبدون من دون الله تعالى، بل مناظرا لهم، وهو بإقامة الدليل عليهم من جنس علمهم وعملهم، حتَّى مرَّ معهم بأطوار عبادتهم للكواكب، حتى بلغ أكبرها وهي الشمس، فلمَّا غابت الشمس ولم يعد لها وجود، أقام حينها الحجَّة على قومه فقال: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}، فإن كانت هذه العلوم الثلاثة وهي: الفلسفة والمنطق والكلام، محدودة بحدود الشرع، موضوعة لمناظرة الملحدين من أصحاب هذ العلوم، حيث يردُّ عليهم بجنس علهم، دون تعدي حدود الشرع فلا بأس بذلك، وقصَّة إبراهيم مع قومه خير دليل على ذلك، ولكنَّها إن لم تحد بحدود الشرع، ويُترك العقل حاكما فيها كما حدث، فقد ترتب على استخدام الفلاسفة للمنطق الأرسطي في الإلهيَّات، انحرافات عن الدِّين الذي جاء به الأنبياء والمرسلون، ولم يكن الفلاسفة الأوائل يضعون الشَّرع نَصب أعينهم أصلًا، وكذا حال المتفلسفة المنتسبين للإسلام، قد يصبغون مقالاتهم بالإسلام تارة، وإن كانوا في حقيقتهم ملاحدة، لا يؤمنون بالخلق ولا بالبعث، ولا يؤمنون بعلم الله تعالى ولا بسائر صفاته سبحانه، ولا بالنبوَّات.

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

وكذلك البدع الكبرى في التصوُّف كوحدة الوجود، والحلول، والاتحاد، ودعوى اكتساب النبوَّة عند بعضهم ونحوهما، فقد نشأت عن اختلاط التصوُّف بالفلسفة، وهي أخطر وأسوء درجات التصوف.

4 – التصوُّف:

تطلق كلمة "تصوُّف" على العقيدة عند بعض المتصوِّفة والفلاسفة، والمستشرقين ومن نحا نحوهم، وهو إطلاق مبتدع لأنَّه ينبني على اعتبار شطحات المتصوِّفة ومزاعمهم وخرافاتهم في العقيدة.

واسم التصوَّف انبنا على ثلاثة حروف، وكل حرف له معنى وهي: الصاد، والواو، والفاء، يجمعها لفظ: صوف، وليس المراد منه أنهم يلبسون الصوف زهدا كان أو غير ذلك، بل الصاد بمعنى صفاء، والواو بمعنى وفاء، والفاء بمعنى فناء، فهي مراتب يمر بها السالك، وكان التصوف في أول ما كان منهجا تعبُّديًّا زهديا صحيحا، فهمُ العباد الذي لطالما مدحهم أهل العلم، وهذا في أول الأمر، ولا شكَّ أنَّ الذكر من أقوى أسباب الكرامات، ولكنَّهم تأثروا بالفلاسفة والمناطقة فانحرفوا، وقالوا بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وأنهم من ذات الله تعالى، وعليه فالمريد السالك يسلك في طريقه كي يعود إلى أصله الإلهي فإذا ما سلك ووصل يصبح اسمه العارف؛ لأنه عرف السر المخفي، وهو أنه من الله تعالى فهو الله والله هو، لذلك قال أحد أغبيائهم: سبحانك سبحاني سبحانك ما أعظم شاني، وقال الآخر: ليس تحت الجبة إلا الله، وغير ذلك من الكفر البواح المنبثق من أصل جهل مركَّب تركيبا يقينيًّا يستحيل إصلاحه غالبا، وكان السبب الرئيس هو ترك السنَّة والاتجاه إلى الفلسفة والكلام والمنطق.

5 – ما وراء الطَّبيعة:

وهي: الميتافيزيقيا التي عرَّفناها سابقًا وهي فرع من الفلسفة، والصَّحيح أنَّ كلَّ ما ذُكر هو نتاجٌ لعلم الفلسفة.

ويُطلق هؤلاء على ما يؤمنون به ويعتنقونه من مبادئ وأفكار (عقائد) وإن كانت باطلة أو لا تستند إلى دليل عقلي ولا نقلي، فإن للعقيدة مفهوماً صحيحاً هو الحقُّ، وهو عقيدة أهل السنَّة

والجماعة المستمدَّة من الكتاب والسنَّة الثَّابتة، وإجماع السَّلف الصالح[1]، وما كان على غير ما ذكر فهو باطل.

المبدأ التَّاسع: الفائدة:

تتمثَّل فوائد دراسة علم العقيدة في ما يلي:

1 – إخلاص النيَّة والعبادة لله تعالى وحده؛ لأنَّه الخالق المعبود لا شريك له، فوجب أن يكون القصد والعبادة له وحده.

2 – تحرير العقل والفكر من التخبُّط الفوضوي النَّاشئ عن خلوِّ القلب من هذه العقيدة؛ لأنَّ مَن خلا قلبُه منها إمَّا فارغ القلب من كل عقيدة، وعابد للمادة الحسيَّة فقط، وإمَّا متخبِّط في ضلالات العقائد والخرافات.

3 – الرَّاحة النفسيَّة والفكريَّة، فلا قلق في النَّفس ولا اضطراب في الفكر؛ لأنَّ هذه العقيدة تصل المؤمن بخالقه، فيرضى به ربًّا مدبرًا وحاكمًا مشرِّعًا؛ فيطمئن قلبه بقضائه وقدره، وينشرح صدره للإسلام، فلا يبغي عنه بديلاً.

4 – أنَّه بها تتوحَّد صفوف المسلمين والدُّعاة، وعليها تجتمع كلمتهم، وبدونها تتفكَّك؛ ذلك أنَّها عقيدة الكتاب والسنَّة، والجيل الأوَّل من الصحابة، وكلُّ تجمُّع على غيرها مصيرُه الفشل والتفكُّك.

5 – أنَّها تجعل المسلم يعظِّم نصوص الكتاب والسنَّة الصحيحة، وتعصمهُ من ردِّ معانيها أو التَّلاعب في تفسيرها بما يوافق الهوى.

6 – من فوائد تعلُّم العقيدة؛ أنَّها تربط المسلمَ بالصحابة ومن تبعهم، فتزيده عزَّة وإيمانًا وافتخارًا بهم، فهم سادة الأولياء وأئمَّة الأتقياء[2].

كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنه: إن الله نظر في قلوبِ العباد فوجدَ قلبَ محمدٍ ﷺ خيرَ قلوبِ العباد؛ فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد

---

[1] مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة لناصر بن عبد الكريم العقل – بتصرف – ص11.

[2] أهميَّة دراسة العقيدة – مقالة: الألوكة – أبو البراء محمد بن عبد المنعم – بتصرف.

قلبِ محمدٍ ﷺ، فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوبِ العباد؛ فجعلهم وزراء نبيِّه ﷺ، يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئًا فهو عند الله سيِّئ[1].

وكما قال ابن عمر: مَن كان مستنًّا، فليستنَّ بِمَن قد مات، فإن الحيَّ لا تؤمنُ عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمَّد ﷺ كانوا أفضلَ هذه الأمَّة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقَها علمًا، وأقلَّها تكلفًا، اختارهم الله لصحبةِ نبيِّه ولإقامة دينه، فاعرِفوا لهم فضلَهم، واتَّبِعوهم على أثرِهم، وتمسَّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسِيرهم؛ فإنَّهم كانوا على الهدى المستقيم والله ربِّ الكعبة[2].

7 – كما أنَّ تعلُّم علم العقيدة الصَّحيحة أساس لتعلُّم سائر العلوم الشَّرعيَّة، فمن كان علمه في العقيدة ناقص، فلا شكَّ أنَّ استنباطاته الفقهيَّة فيها خلل، هذَا لأنَّ الأساس من أصله فيه خلل، والله تعالى يقول: ﴿أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ [التوبة: 109].

فما من فرع طيِّب إلَّا ولهُ أصل طيِّب، والعقيدة أصل الدِّين وأصل العلوم الشَّرعيَّة وأساسها، فكلَّما تمكَّن الطَّالب من علم العقيدة الصَّحيحة ورسخ فيهَا، كلَّما كان ما بعده أهون عليه، كما أنَّه لا يخشى الزَّيغ في أحكامهِ فهو على صراط مستقيم، فقد ﴿أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: 109].

8 – أيضاً بعلمِ العقيدةِ تعلمُ أنَّ الإيمانَ باللهِ تعالى وحدهُ دونَ الإيمانِ ببقيَّةِ الأركانِ لا يُدخلكَ في زمرةِ المؤمنينَ ولا المسلمينَ، فأركانُ الإيمان السِّتَّة كالعقدِ، ولا يكونُ العقدُ عقدًا حتى يكونَ متصِّلًا ببعضهِ، وكذلكَ حالُ أركانِ الإيمانِ السِّتةِ، فلا يعتبرُ الإيمانُ إيمانًا حتَّى يؤمنَ المرءُ بكلِّ أركانهِ.

9 – وبتعلُّمِ علمِ العقيدةِ تتعرَّفُ على اللهِ تعالى بأسمائهِ وصفاتهِ، ومن ذلكَ لمَّا تعلمُ أنَّ اللهَ هوَ الرَّازقُ فلن تخافَ فقدانَ رزقٍ بعدهَا، وإذَا علمتَ أنَّ اللهَ هوَ الشَّافي، فلن تعتقدَ بعدها أنَّ

---

[1] حسن: مسلم في المقدمة، وأحمد (3600)، وصححه الشيخ أحمد شاكر، وحسَّن إسناده الألباني؛ انظر: السلسلة الضعيفة (110/2)، وحسَّنه محققو المسند (84/6 – 85).

[2] الحلية لأبي نعيم (305/1)، وثبت أيضًا عن ابن مسعود؛ انظر: جامع الأحاديث (80) – للمزيد في فضل الصحابة ينظر: الأربعون في فضل الصحابة وخير القرون للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي.

الدواءَ يعالجُ بنفسهِ، بل ستعلمُ أنَّ اللهَ هو الشَّافي وما الدَّواءُ إلَّا سببٌ نفذَ في بعضهِ أمر الله الكوني.

10 – وبتعلُّمِ علمِ العقيدةِ، يتجنَّبُ المسلمُ أهلَ البدعِ وبدعِهم؛ لأنَّه سيعلمُ معنى البدعةِ وما ينجرُّ عنها من الخسرانِ، وبعلمِ العقيدةِ يتعرَّفُ المسلمُ على أهلِ الحقِّ ويتَّبِعهم؛ لأنَّه رأى الحقَّ فيهم.

11 – ومن ذلك أيضا: قبولُ العملِ، لقولهِ تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 98] .

فهنا اشترط سبحانهُ الإيمان لقبولِ العمَلِ حيثُ قال: {وهُوَ مؤْمِنٌ} ووعدهُ بذلكَ حياةً طيِّبَةً في الدُّنيَا وجزاءً وفيرًا في الآخرةِ.

وهذَا غيضٌ منْ فيضٍ من فوائد تعلم العقيدة السليمة؛ لأنَّ فوائدها وثمراتها لا تنتهي.

المبدأُ العاشرُ: مسائله:

مسائلُ علمِ العقيدةِ: لعلمِ العقيدةِ أركانٌ ومسائلٌ، أمَّا الأركانُ فهي الأركانُ السِّتَّةُ التي سبقَ ذكرهَا، وهيَ: الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره.

وأمَّا المسائلُ فهيَ جزئيَّاتُ تلكَ الأركانِ، ومن أهمِّها:

1 – الإيمان.

2 – التَّوحيد.

3 – إثبات وجود الله تعالى.

4 – توحيد الربوبيَّة،.

5 – توحيد الألوهيَّة.

6 – الأسماء والصِّفات.

7 – وظائفُ الملائكة.

8 – اتِّباع الرّسل عليهم الصلاة والسلام.

9 – توقير الرّسول ﷺ.

10 – كيفيَّة تلقِّي الوحي.

11 – حقوق الرَّسول ﷺ.

12 – معجزاتُ الرُّسلِ عليهم الصلاة والسلام.

13 – عدم التمييز بين الرسل إلا بما ميَّز الله تعالى بعضهم.

14 – الاعتقاد في الصَّحابة.

15 – الموت، وحياة البرزخ، والميزان، والصِّراط، والنَّار، والقنطرة، والجنَّة...

16 – مراتب القدر.

17 – الكفر وأنواعه.

18 – الولاء والبراء.

19 – نواقض الإسلام.

20 – التوسل.

21 – الاستغاثة.

22 – الشفاعة.

وغيرها... وكل ما سبق وما يدخل تحته من فروع.



﴿التمهيد الثاني﴾

﴿مدخل إلى علم العقيدة﴾

وفيه ستة مباحث:

1 – ميزات العقيدة الصَّحيحة

2 – العقيدة الصَّحيحة فطريَّة

3 – أصول أهل السنَّة في إثبات مسائل العقيدة

4 – أسباب الانحراف عن العقيدة الصَّحيحة

5 – وسائل الوقاية من الانحراف عن العقيدة الصَّحيحة

6 – مصادر تلقِّي العقيدة الصَّحيحة



﴿المبحث الأول﴾

﴿ميزات العقيدة الصحيحة﴾

تتميز العقيدة الإسلامية الصحيحة عن عقائد الأديان الباطلة، والطَّوائف المبتدعة بمزايا كثيرة يصعب حصرها، من ذلك:

1 – أنَّها عقيدة واضحة سهلة بعيدة عن التعقيدات، لا غموض فيها، وليس فيها جانب احتكره رجال الدين، يفهمونه دون غيرهم، بل هي بسيطة يمكن للأمي أن يفهمها بكل بساطة؛ لأنها عقيدة فطرية تجري في الإنسان مجرى الدم.

2– أنها عقيدة فطرية، فُطر الناس عليها وجبلوا، فلولا العوامل الخارجية الداخل على فطرة الإنسان، لوجدته في أصل التوحيد فطرةً وجبلةً، وإن تكلم على علم العقيدة تكلم فيها بسليقة.

3 – أنها عقيدة ثابتة لا تتغير ولا تتطوَّر بتعاقب الأجيال، فهي صالحة لكل زمان ومكان، ولا مجال فيها للزيادة أو النقصان، ولا تقبل التحريف بأي نوعٍ من أنواعه، وأما غيرها من العقائد فقد زيد فيها وأنقص منها على حسب الأهواء والعوامل، وقد حاول المبتدعة من المسلمين، أن يغيروا ما في عقيدة التوحيد ولم يستطيعوا، فذهبوا إلى البُهل والمغفَّلين يدرسونهم عقيدتهم المنحرفة، وما استقرَّ لهم الأمر ولو دام أجيالا حتى يسقط من أعلى بنيانه، وتأبى العقيدة السليمة إلا أن تكون مهيمنة في المشهد الديني، وإمَّا إن ذهبت العقيدة السليمة بالكليَّة، فحينها ينفخ صاحب الصور ﷺ في صوره.

4 – ومن ميزاتها: أنها تقيم البراهين الساطعة، والحجج الباهرة على كل مسألة فيها، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ [الأنعام: 149].

5 – ومن مزاياها، أنها عقيدة وسطية لا تطرف فيها، والتطرف، هو أخذ طرفي النقيض، إمَّا تساهل إلى حد الانحلال والتفريط، أو تشدد إلى حد الإفراط، ولا تكلُّف فيها ولا غلو[1].



[1] العقيدة أكاديمية زاد الجزء الأول 14 – 15 بتصرف.

﴿ المبحث الثاني ﴾

﴿ العقيدة الصحيحة فطرية وعقلية ﴾

وقولنا أنَّ العقيدة الصحيحة فطرية وعقلية: أي أنَّ الأصل في بني آدم كلُّهم على عقيدة التوحيد، وأنَّ الإنسان منذ أن خلقه الله تعالى وأوجده على البسيطة رسَّخ فيه العقيدة الصحيحة كرامة من الله تعالى وفضلا على عباده، فعرَّفهم التوحيد، والفزع إلى الله في كل شيء، ومحبَّته، وقد دلَّ على هذا الكلام الكثير من الأدلَّة من ذلك:

قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾[الروم: 30].

والحنيف: هو المائل إلى الحق، والمراد هنا هو الإسلام وأركانه، كما فسر ذلك أئمَّة السلف.

والفطرة: هي الطبع السوي، والجبلة المستقيمة.

أو تقول: الفطرة هي: طبع محدد مزروع في الإنسان، كفطرة الرضيع على الرضاع من ثدي أمه، فمن أين علمَ هذا أنَّ في ثديي أمِّه حليب؟ وإن علم ذلك، فمن أين علم أنَّ الحليب طعام؟ فالناس مفطورون على التوحيد فطرة الرضيع على الرضاع بلا أدنى فرق، وفي كل فروع العقيدة، كما حدث لبعض من ينكرون أنَّ الله تعالى في السماء، فتعثَّرت قدمه فقال يالله ونظر إلى السماء، فقيل له لما نظرت إلى السماء؟ فكأني به يقول: نعم هي الفطرة.

ومن ذلك أيضا: قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ﴾[الأعراف: 172].

كذلك ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟[1]

والجدعاء هي البهيمة مقطوعة الأطراف، ويقابلها الجمعاء: هي مكتملة الأطراف.

وعند مسلم عن عياض المشاجعي: أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته في ما يروي عن ربه تعالى: ... وإنِّي خلقتُ عبادِي حُنفاءَ كُلَّهم، وَإنَّهم أتتهمُ الشَّياطينُ فاجتالتهم عن دينهم،

---

[1] **البخاري 1385، مسلم 2657.**

وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سُلطانا...[1].

وعليه: فإن هذا الأمر فطري في النفوس، فالإقرار بوجود الله فطري، وتوحيده في ربوبيته وألوهيته فطري، وإثبات ما أثبته ونفي ما نفاه والفزع إليه في كل الأحوال فطري.

فهو أمر مفروض على الذهن فرضا، ومزروع في الأنفس زرعا، بحيث لا نحتاج فيه إلى استدلال ونظر، فبمجرد التصور لهذا الكون لا بد أنه مخلوق، ولا بد للمخلوق من خالق، كما لابد للضربة من ضارب، وللفعل من فاعل، فالمخلوق لابد له من خالق، وأنَّ خالق هذا الكون الشاسع لابدَّ أنه شديد القوى، ومن مكَّن لنا كل هذا فلابدَّ أنه رحيم، ومن اشتمل فيه هاذين الوصفين كان أهلا ليعبد وحده دون سواه، وأن يُتوكَّل عليه في كل شيء هذا لأنه قادر، وهذا ما يسمى بدليل الفطرة.

وهذا الدليل يعرفه الأعرابي القديم، ويعرفه الإنسان الحديث، فالأعرابي القديم، سُئل عن دليل وجود الله تعالى فقال: البعرة تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدل على اللطيف الخبير.

يريد الأعرابي أنَّ الأمر لا يحتاج إلى دليل، فمتى غاب سبحانه حتى يستدلَّ على وجوده، ومتى كان له ندٌّ يملك كما يملك كي يُدعى ويُرجى غيره، ومتى وجد إله معه كي يُعبد غيره؟

وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35].

قال ابن كثير: هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية، فقال تعالى {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ} أي: أوجدوا من غير موجد؟ أم هم أوجدوا أنفسهم؟ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا[2].

وقال البغوي: قال ابن عباس: ومعناه: أخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق؟[3]

وقال السعدي: وهذا استدلال عليهم، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق، أو الخروج عن موجب العقل والدين، وبيان ذلك: أنهم منكرون لتوحيد الله، مكذبون لرسوله، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم.

---

[1] مسلم 2856.

[2] ينظر: تفسير ابن كثير.

[3] ينظر: تفسير البغوي.

وقد تقرر في العقل مع الشرع، أن الأمر لا يخلو من أحد ثلاثة أمور:

1 – إما أنهم خلقوا من غير شيء، أي: لا خالق خلقهم، بل وجدوا من غير إيجاد ولا موجد، وهذا عين المحال.

2 – أم هم الخالقون لأنفسهم، وهذا أيضا محال، فإنه لا يتصور أن يوجدوا أنفسهم، فكيف للمعدوم أن يوجد نفسه وهو بنفسه معدوم، فهذا يستحيل عقلا.

فإذا بطل هذان الأمران، وبان استحالتهما، تعين القسم الثالث:

3 – وهو أن الله الذي خلقهم، وإذا تعين ذلك، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده، الذي لا تنبغي العبادة ولا تصلح إلا له تعالى[1].

ونخرج بهذا أنَّ العقيدة السليمة، موافقة للعقل السوي، وهي فطرة في الإنسان، لا ينكرها إلا مكابر أو خسيس عقل، مطعون الفطرة، ولا تطعن الفطرة عند الرجل البالغ إلا لخسة عقله.



[1] ينظر: تفسير السعدي بتصرف.

﴿ المبحث الثالث ﴾

﴿ أصول أهل السنَّة في إثبات العقيدة ﴾

إنَّ أهل السنَّة لهم أصول في إثبات مسائل العقيدة، يتميَّزون بها عن أهل البدع والضلال، وهي على ما يلي:

1 – التسليم التَّام لنصوص الوحيين.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب: 36].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور: 51].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65].

2 – جمع النصوص الواردة في الباب الواحد، وإعمالها جميعا.

وهذا على خلاف أهل البدع والضلال، فأغلبهم ينظرون إلا نصٍّ واحد، ويعارضونه بنصوص أخرى ويتَّبعون ما تشابه منه، ولو أنَّهم جمعوا كل النصوص في المسألة الواحدة لا زال التشابه، ولتبيَّن أنَّ كل نصوص العقيدة محكمة.

وقد حذَّر النبي ﷺ من هذا بقوله: {أَمَا إِنَّهُ لَمْ تَهْلَكِ الأُمَمُ قَبلَكُمْ حتى وقَعُوا في مِثلِ هذا، يَضْرِبُونَ القُرآنَ بَعضَهُ بِبَعضٍ، ما كان من حَلالٌ فأَحِلُّوهُ، وما كان من حَرامٍ فَحَرِّمُوهُ، وما كان من مَتشابِهٍ فآمِنوا بِهِ}[1].

ويتفرَّع من هذا الأصل فروع وهي:

---

[1] **أخرجه الطبراني في ((الكبير)) (13/ 361) باختلاف يسير، والمستغفري في ((فضائل القرآن)) (1/ 268) بنحوه.**

أ – إثبات ما أثبته الله ورسوله ﷺ ونفي ما نفياه في الكتاب والسنة الصحيحة آحادا كانت أم متواترة، والسكوت عمَّا سكتا عنه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36].

ب – دفع التعارض بين النصوص ممَّا قد يفهمه العقل منها ممَّا هو مخالف للحق والصَّواب، على عكس أهل البدع، فإذا تعارض العقل والنقل عندهم قدَّموا العقل على النقل، وقالوا هذا يستحيل عقلا، وهذا من الضلال المبين، فالعقل محدود وهو مخلوق، فكيف يقدَّم على كلام الخالق.

ج – كذلك أنه من قواعد أهل السنة: أنه يستحيل أن يقع تعارض بين نص صحيح وعقل صريح، فالذي خلق هذا العقل، هو نفسه الذي أنزل الوحي، فإن وجد ما يوهم التعارض، فإمَّا أن يكون النص غير صحيح، وإمَّا أن يكون العقل فاسدا غير صريح.

3 – فهم النصوص الصحيحة على فهم الصحابة الكرام ومن بعدهم من أئِمَة التابعين.

وهذا على خلاف أهل البدع، فقد تركوا فهم الصحابة واتجهوا إلى ما يسمى بحكمة الفلاسفة، بل منهم من طعن في الصحابة كي يفرض رأيه، وعصر الصحابة وما فيه واجب الاتباع، من ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ [البقرة: 137].

وقول النبي ﷺ: {ليأتينَّ على أمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتَّى إن كانَ مِنهم من أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي من يصنعُ ذلِكَ، وإنَّ بَني إسرائيل تفرَّقت على ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً، وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي}[1].

فلا سبيل في فهم نصوص العقيدة إلا سبيل الصحابة، ومن خالفهم فهو ضلال مبين.



[1] التخريج : أخرجه الترمذي (2641) واللفظ له، والطبراني (53/14) (14646)، والحاكم (444).

﴿المبحث الرابع﴾

﴿أسباب الانحراف عن العقيدة الصَّحيحة﴾

من أسباب الانحراف عن العقيدة الصحيحة ما يلي:

1 – العامل التربوي:

فإنَّ التربية السليمة التي تكون على عقيدة سليمة، فلاشكَّ أنَّها سترسخ في قلب المسلم رسوخ الجبال، وأمَّا التربية السيئة على عقيدة فاسدة، فهي تُنشئ مسلما مضطربا.

هذا ولا ينجو المسلم من العقاب على انحرافه، فيقول: والديَّ هما اللذان علَّماني هذا، نعم هذا إن مات قبل البلوغ، ولكنَّ إن أدرك البلوغ فعليه أن يختار الطريق الصحيح، كما اختار الصحابة طريق الحق مع أنه ولدوا وتربوا عن أهالٍ في شرك مبين.

يقول الحق تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: 28]**، وإن كانت الآية قد نزلت في الأفجرين من قريش: بني المغيرة وبني أمية[1]، إلا أنَّها عامَّة، فمن الناس من يُحل أهله وبنيه جهنَّم وبئس القرار، وذلك بتنشئتهم نشأة فاسدة، فيتبعونه في ذلك، فيسوقهم إلى دار البوار والعياذ بالله تعالى من ذلك.**

وعن أبي هريرة: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: {كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة، هل ترى فيها جدعاء؟}[2].

2 – العامل الاجتماعي:

وهذا من أكثر العوامل الداعمة لفساد الفطرة السليمة، فإن معاشرة أهل السوء كمعاشرة النار؛ فإنها إن لم تحرق من بجانبها فإنه يصاب بشررها، فالأذى منها لاحق لامحالة، كذلك حال من يعاشر أهل السوء، فالواجب على المسلم أن يجتنب هؤلاء ولا يتودد إليهم ولا يجالسهم حتى يعودوا إلى الحق.

---

[1] ينظر: تفسير الطبري. وقال ابن كثير بسنده لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: هُمُ الْأَفْجَرَانِ مِنْ قُرَيْشٍ: بَنُو أُمَيَّةَ، وَبَنُو الْمُغِيرَةِ، فَأَمَّا بَنُو الْمُغِيرَةِ فَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَمَّا بَنُو أُمَيَّةَ فَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ يَوْمَ أُحُدٍ. وَكَانَ أَبُو جَهْلٍ يَوْمَ بَدْرٍ، وَأَبُو سُفْيَانَ يَوْمَ أُحُدٍ. وَأَمَّا دَارُ الْبَوَارِ فَهِيَ جَهَنَّمُ.

[2] البخاري **1385**، مسلم **2657**.

يقول الحق تعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ ﴾ [المجادلة: 22].

ويقول النبي ﷺ: {أنا بريءٌ من كلِّ مسلِمٍ يقيمُ بينَ أظْهُرِ المشركينَ}[1].

وإن كان هذا الأثر جاء في قتلى خثعم وهي قبيلة في اليمن فاعتَصَم ناسٌ، أي: مِن خَثعمَ، بالسُّجودِ، أي: لَجَؤوا إلى السُّجودِ والصَّلاةِ لإظهارِ أنَّهم مُسلِمون فتَمتنِعَ السَّرِيَّةُ عن قَتلِهم، فأسرَع فيهم القتلُ، أي: عمَد جيشُ المسلمين إلى قَتلِهم دونَ تَحرٍّ لشَأنِهم؛ فبلَغ ذلك النَّبيَّ ﷺ، فأمَر لهم بنِصْفِ العَقْلِ، أي: بنِصْفِ الدِّيَةِ، قيل: إنَّ أمْرَه صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم بنِصْفِ الدِّيةِ إنَّما كان بعدَ عِلمِه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ بإسلامِهم؛ لأنَّهم أعانوا على أنفُسِهم بمُقامِهم بينَ ظَهرانَيِ الكُفَّارِ، وكانوا كمَن هلَك بجِنايةِ نفسِه وجنايةِ غيرِه، فتَسقُطُ حِصَّةُ جِنايتِه مِن الدِّيةِ، وقال صلَّى اللهُ علَيه وسلَّم: {أنا بَريءٌ من كلِّ مُسلِمٍ}، أي: مِن دَمِه، وقيل: مِن مُوالاتِه، {يُقيمُ بينَ أظهُرِ المشرِكين}، أي: تَكونُ إقامةُ المسلِمِ بأرضِ المشركين ومُساكَنتُهم بشكلٍ دائمٍ.

ومع ذلك فهو حكم عام، فإنَّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

3 – الغزو الفكري:

وهو بما يروِّج له أهل البدع والضلال، حال قيامهم بالتحركات، وسكون أهل الحق، والاكتفاء بمجرَّد الرد عليهم، فالأولى أن يبدأ أهل الحق بالتحرك في نشر العقيدة الصحيحة والفكر السليم.

---

[1] عن جرير بن عبد الله: أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ بعثَ سريَّةً إلى خثعمٍ فاعتصمَ ناسٌ بالسُّجودِ فأسرعَ فيهمُ القتلُ فبلغَ ذلِكَ النبي ﷺ فأمرَ لَهم بنصفِ العقلِ وقالَ: أنا بريءٌ من كلِّ مسلِمٍ يقيمُ بينَ أظْهُرِ المشرِكينَ. قالوا يا رسولَ اللَّهِ ولِمَ قالَ لاَ تراءى ناراهما. صحيح أخرجه الترمذي 1604، وصححه الألباني.

4 – اتِّباع الأهواء:

وهذا من الطوام الكبرى، وهو ممَّا لم يفهمه العامَّة، ولم يفهموا الفرق بين الهوى والشهوة، فاتباع الشهوات يكون في الملذات المحرَّمة، واتباع الأهواء، يكون في العقيدة المنحرفة، فلك أن تقول: أنَّ اتباع الأهواء يكون في أصول الدين، واتباع الشهوات يكون في فروع الدين.

واتباع الشهوات أهون من اتباع الأهواء؛ لأن غالب ضرر الشهوة قاصر كما أنه في الفروع، وأما غالب اتباع الأهواء فهو متعدٍّ وهو في أصول الدين.

من ذلك قوله تعالى: ﴿فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

فالعقيدة إن كانت مخالفة لهوى النفس، فيجب كسر هوى النفس واتباع سبيل الصالحين في العقيدة.

5 – عدم توقير نصوص الشرع:

فإنَّ من عظَّم الشيءَ تعظَّم، وإنَّ من توقير نصوص الشرع الوقوف عليها، وتعلم ما فيها، واتباعها كما هي بلا تأويل ولا تحريف معنوي، وإن من هان الشيء أمامه كان له تاركا لا همَّ له به ولا ورع في قلبه، فمن لم يوقر نصوص الشرع؛ فإنه لا ورع في قلبه، بل قلبه كالحجارة أو أشد قسوة، فأنَّ لهذا أن يرى الحقَّ في نصوص الشرع، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الزمر: 67].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: 145]**، وكل هذا سببه عدم توقير نصوص الشرع.**

6 – الإعراض عن العلم الصحيح:

فإنَّ من أعرض عن العلم الصحيح لا يتعلَّمه واكتفى بما عنده من الوهم، فأنَّ لهذا أن يعلم العقيدة الصحيحة بعد أن ضربت فطرته، وقولنا: العلم الصحيح؛ لأنَّ ليس كل علم ينتسب إلى الشرع صحيح، فمثاله عقائد الأشعرية مع أنهم منتسبون إلى العلم ولكن عقيدتهم ساقطة بكل

معنى الكلمة، من ذلك ما ذكره عبد المجيد الشرنوبي عفا الله عنه في نظم العقدية الشرنوبية الأشعرية قال:

وَوَاجِــبٌ لِرَبِّــنَا الْمَنَّــانِي * سَبْعُ صِفَاتٍ سُمِّيَتْ مَعَانِي

عِلْــمٌ إِرَادَةٌ وَقُــدْرَةٌ بَصَــرْ * سَمْـعٌ كَـلاَمٌ وَحَيَـاةٌ تُعْتَبَـرْ

وَسَبْعَــةٌ قَـدْ لاَزَمَتْـهَا تُدْعَــى * بِمَعْنَوِيَّـةٍ فَأَلْــقِ السَّمْعَــا

كَكَوْنِـهِ حَيًّــا مُرِيــدًا قَــادِرَا * وَفي ثُبُوتِهَا خِلاَفٌ قَدْ جَرَى

وَالْحَقُّ الاِسْتِغْنَــاءُ بِالْمَعَــانِي * عَنْهَـا كَمَـا حُقِّـقَ بِالْبُرْهَـانِ

وَضِدُّهَــا عَلَيْــهِ يَسْتَحِيــلُ * فَإِنَّــهُ الْمُنَــزَّهُ الْجَلِيــلُ

بِكُلِّ أَوْصَافِ الْكَمَالِ قَدْ وُصِفْ * طُوبَى لِمَـنْ لَهُ بِهَذَا يَعْتَرِفْ

وَجَائِـزٌ عَلَيْـهِ فِعْـلُ الْمُمْكِــنِ * وَتَرْكُـهُ إِنْ لَـمْ يَشَـأْ لَمْ يَكُنِ

فقد ذكر في نظمه عشرين صفة لله تعالى فقط، ونفى البقية، وكيف حصروا الصفات في العشرين؟

الجواب: حصروها بالعقل، وأما بقية الصفات فإنها لا توافق العقل، إذا؛ عزلها أولى من إثباتها، مثل اليد، والوجه، والنزول، والاستواء، كل هذه صفات مستحيلة على الله تعالى عندهم.

ولكن النقل يخالف ذلك، فلا صفات الله تعالى ولا أسماؤه لها حصر فالنبي ﷺ يقول: {اللهمّ إني أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علمته أحدًا من خلقِك أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك...}[1].

ومن المعلومِ أنَّ كلَّ الأسماء مقترنة بصفات، كالكريم والرحيم والغني وغيرها، وهذه الأسماء لا حصر لها، كما أثبت ذلك النبي ﷺ، وذلك في قوله: {سميتَ به نفسَك أو أنزلتَه في كتابِك أو علمته أحدًا من خلقِك أو استأثرت به في علمِ الغيبِ عندك}، فالأمر غير محصور، ولا يجوز حصره، وحتى جمع تسع وتسعون اسما من أسماء الله تعالى كما في الحديث: {إنَّ للهِ تعالى تسعةً وتسعين اسمًا مائةً إلا واحدًا، من أحصاها دخل الجنَّةَ}[2]، فمعناه أن من جملة أسماء الله تسعون وتسعون اسما، وليس حصرا فيها، ودليله الحديث السابق.

---

[1] أخرجه أحمد (3712) واللفظ له، وابن حبان (972)، والطبراني (210/10) (10352) باختلاف يسير.

[2] البخاري 2736.

فكيف للأشعرية أن يحصروا صفات الله تعالى في عشرين صفة؟

ونخرج بهذا؛ أنه ليس كل من له علم يعني أنَّ علمه صحيح، بل يجب أن يكون العلم موافقا ومطابقا للواقع المفروض، والمقصود بالواقع المفروض هو الكتاب والسنة، فمن خالفهما فليس له علم وإن ظن أنه عالم.

ثمَّ كما تلاحظ في هذا النظم؛ فإنه يوجب ويمنع ويبيح على الله تعالى، فمن ذا الذي يوجب الأشياء على الله تعالى، ومن ذا الذي يمنع عنه، ومن ذا الذي يبيح له، وذلك في قوله:

وَوَاجِبٌ لِرَبِّنَا الْمَنَّانِي * سَبْعُ صِفَاتٍ سُمِّيَتْ مَعَانِي

فذكر بعدها سبع صفات تسمى صفات المعاني، ولما أتمها ذكر صفات سماها معنوية وقال فيها:

كَكَوْنِهِ حَيًّا مُرِيدًا قَادِرَا * وَفي ثُبُوتِهَا خِلاَفٌ قَدْ جَرَى

لاحظ أنَّ الخلاف عندهم قائم في كونه سبحانه، حيًّا ومريدا وقادرا، أو الخلاف في السبعِ الأُول المعنويَّة، وهي: عِلْـمٌ إِرَادَةٌ وَقُـدْرَةٌ بَصَـرْ * سَمْـعٌ كَـلاَمٌ وَحَيَـاةٌ تُعْتَبَـرْ

فإما أنهم مختلفون في كونه سبحانه حيٌّ مريدٌ قادرٌ، او أنهم مختلفون في كونه سبحانه سميع بصير متكلم إلخ...

كما أنهم في الأول أوجبوا على الله تعالى الواجبات، ثمَّ اختلفوا في صفات لازمة للكمال حتى قال:

وَالْحَقُّ الاِسْتِغْنَاءُ بِالْمَعَانِي * عَنْهَا كَمَا حُقِّقَ بِالْبُرْهَانِ

وعليه: فهنا قد حذف سبع صفات، فبقى من العشرين ثلاثة عشر صفة، (ولله المشتكى).

ثمَّ ذكر المستحيل على الله تعالى فقال:

وَضِدُّهَا عَلَيْهِ يَسْتَحِيلُ * فَإِنَّهُ الْمُنَزَّهُ الْجَلِيلُ

فسيقول القائل نعم هو مستحيل أن يموت الله تعالى أو أن يكون غير قادر.

نقول: نعم، ولكن ليس مستحيلا على الله فهو لا يُسأل عمَّا يفعل، وهو قادر على كل شيء، ولكننا نقول: يستحيل في حق الله تعالى الموت وعدم القدرة وغيرها، لا يستحيل على الله؛ فإنه لا يستحيل على الله شيء...

ثمَّ ذكر بعد ذلك المباحات فقال:

وَجَائِزٌ عَلَيْهِ فِعْلُ الْمُمْكِنِ * وَتَرْكُهُ إِنْ لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنِ

وخلاصة: فإنَّ الأحكام التكليفية التي نزَّلها الله تعالى ليتعبَّدنا بها، أصبحت مفروضة على الله سبحانه وتعالى عمَّا يقولون علوًّا كبيرا، فأصبح القوم يوجبون على الله، ويمنعون عنه، ويبيحون له.

وكذلك علم بعض غلاة الصوفية من حلول واتحاد وغيرها...

وكذلك علم بعض غلاة الشيعة، من قولهم بعصمة الأئمَّة وسب الصحابة وغيرها...

فكل هؤلاء لهم علم، ولكنَّه ليس صحيحا، وعليه: فيجب على الطالب أن يتحر العلم الصحيح، ولا يمكن للعامي أن يعلم هذا إلا إن سمع الشيخ في كل مسألة من مسائل العقيدة أو غيرها من علوم الشرع، يستدل بقوله: قال الله تعالى، قال رسول الله ﷺ، فهذا هو الشيخ المربي الذي يجب أن تتعلم منه، وأما إن سمعته يقول: يستحيل عقلا، وواجب عقلا، وجائز عقلا، ففر منه فرار ريم من قسورة، فهذا شريعته مأخوذة من عقله لا من النقل الصحيح.

7 – تجميد العقل والتقليد الأعمى:

إن سبب التقليد الأعمى هو تعظيم الرجال وتنزيههم بغلوٍّ شديد، حتى يظن السامع، أنَّ شيخه معصوم حقيقة أو حكما، فأما ظنه بأنه معصوم حقيقة، مثل غلاة الشيعة بظنهم العصمة الحقيقية في الأئمَّة، وأما ظنه بأن معصوم حكما، فهو لا يصرح بأنَّ شيخه معصوم، ولكن يستحيل عليه الخطأ، وأنَّ قوله صحيح لا شكَّ فيه، وكل من خالفه فهو على خطأ مهما كان ولو كان صحابيا.

وهذا التقليد، سمِّي بالأعمى؛ لأنَّه يعمي القلب، وهذا التقليد ليس للشيخ فحسب، بل للعادات والتقاليد وما وُرث عن الأجداد، فقد قال تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۗ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 170].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: 51–54].

فيجب على الكيِّس أن يخلع ربقة التقييد والتقليد من رقبته ويتبع الدليل من الكتاب والسنة بفهم الصحابة الكرام لا بفهم فلان أو علّان.

7 – الغلو في الصالحين:

وهو الزيادة في مدحهم، وإعطائهم مكانة فوق مكانتهم، وهذا سواء أشركوا بالله فيهم أم لا، فكل غلوٍّ يعمي القلب، ومن ذلك قوله تعالى فيهم: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: 23].

فعن ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا قال: صَارَتِ الأوْثَانُ الَّتي كَانَتْ في قَوْمِ نُوحٍ في العَرَبِ بَعْدُ؛ أمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بالجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ: أنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ الَّتي كَانُوا يَجْلِسُونَ أنْصَابًا، وسَمُّوهَا بأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حتَّى إذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ[1].

وهو الحال نفسه مع عباد القبور في الوقت الحاضر، ويمكن أن يكون ذلك المقبور ليس صالحا، بل فاسقا، أو ساحرا، من ذلك نادرة من نوادر هذا الأمر أنه كان في منطقة الكاف من جمهورية تونس، في زمن الاستعمار شيخ صوفي من أصول فرنسية، عُرف بترهّبه لكنه اعتنق الإسلام وظهرت عليه الكرامات المزعومة، واسمه "شارل ميزون" (سيدي الميزوني) ولمّا كان جنود فرنسا على أبواب المدينة، استنجد الأهالي بشيخهم المزعوم؛ لأنهم يعتقدون أنّه بإمكانه ببركاته دفع الغزاة دونما حاجة للقتال، فخرج (سيدهم الميزوني) على رأس الأهالي وصعد

[1] البخاري 4920.

(دومة الجندل) مدينة بين المدينة والعراق وبلاد الشام.

(هذيل) قبيلة من قبائل العرب وكذلك مراد وغطيف وهمدان وحمير وذو الكلاع.

(الجوف) اسم واد في اليمن والجوف كل منخفض من الأرض.

(أنصابا) جمع نصب وهو حجر أو صنم ينصب تخليدا لذكرى رجل أو غيره.

(هلك أولئك) مات الذين نصبوا الأنصاب وكانوا يعلمون لماذا نصبت.

(تنسخ العلم) زالت معرفة الناس بأصل نصبها.

على تلّة، وأومأ للجيش الفرنسي أن يتراجع فرجع العسكر هاربا فبُهت الأهالي، وأقاموا له الولائم والحضرات والشطحات، وصاروا بعد ذلك يستشيرونه في كل أمر... بعد مدّة أعاد الجيش الفرنسي تقدُّمه نحو المدينة، فخرج لهم الشيخ، ومن على صهوة جواده من أعلى التلّة أومأ للجيش أن يتقدّم ويدخل بسلام، فما كان من الأهالي إلاّ قبول ما أقدم عليه شيخهم صاحب الكرامات والبصيرة فهم مريدوه وأتباعه، وأوامره يجب أن تطاع، ليتضح فيما بعد أنّ شارل ميزون قد حبك مسرحية باتفاق مع الطرف الفرنسي لتمهيد دخولهم لاحقا! فهو لم يكن راهبا ولا متصوّفا ولا صاحب كرامات، بل كان جاسوسا فرنسيا اعتنق الإسلام للتمويه ونجح في ذلك حتى صار بين الناس شيخا صوفيا معروفا ببركاته تماما كما فعل "نابليون" عندما احتل مصرا، وأراد التأثير على أهلها البسطاء عن طريق اعتناقه للإسلام والتصوّف...

والغريب والعجيب والذي يُبهت ويجعل البهائم تنطق، أنهم إلى الآن يعظمونه، ويقيمون له الذبائح والاحتفالات عند خلوته أو قبره...

فحين يغيب الوعي تنمو الخرافة، ومن هنا نفهم أحد أشهر المقولات التاريخية التي كان يردّدها المستعمر الفرنسي في شمال إفريقيا: (شيخ زاوية أفضل لنا من مائة جنرال عسكري) وقيل في قصة الولي المزعوم أيضا: أنه تونسي مسلم واسمه (قدُّور الميزوني) وأنَّ (برنار روا) جاسوس فرنسي دخل تونس قبل سبعة عشر سنة من الاحتلال، ليدرس العقلية التونسية، فدرس (برنار روا) الذهنية التونسية ووجد أنها خاضعة بشكل كبير لتأثير نخبة من الأولياء الذين يسيطرون على الزوايا الصوفية، التي بلغ تعدادها في القرن التاسع عشر 505 زاوية، فتقرَّب من أوليائهم المزعومين ودعَّهم وأثنى عليهم وحماهم، وكل هذا لخطَّط متقدمة له، يقول الهادي التيمومي في (انتفاضة الفلاحين) لقد عمل فعلا على تدعيم الطرق الدينية والأولياء؛ لأن ذلك في نظره ينمي التخلف لدى التونسيين وكل المظاهر المعادية للعلم والتقدم.

فاستطاع (برنار روا) احتواء وتوظيف (قدور الميزوني) الولي الصالح المزعوم، وهو رأس الزاوية القادرية بجهة الكاف من تونس، والذي يقدر اتباعه ب 681.117 مريدا، ويسيطر على 109 زاوية في المنطقة، كان (برنار روا) يتدخل لدى القنصل الفرنسي ليضغط هذا الأخير على الباي لتحيق امتيازات ومصالح للولي المزعوم قدور الميزوني، من ذلك إعفاء ابنيه محمد

وأحمد من الخدمة العسكرية، ومن الجبايات، وفض كل مشاكله ودعمه بالمال، وقد كانت زاوية سيدهم قدور الميزني تخرق القانون والشرع بشكل واضح، فقد كان حفيده يذهب إلى بيوت الدعارة ويفتعل المشاكل فيأتي برنار (محب الصالحين) فيسحب الشكوى، وكانت الزاوية تستولي على أراضي الناس، وكان برنار روا يتدخل في كل مرة حتى أصبح قدور الميزوني (الولي الصالح) يطرد موظفي الدولة الذين لا يؤمنون بالزاوية، وكان كل هذا تخطيطا من المستعمر الفرنسي، فقد كان يُعِدُّ لأمرين خطيرين: الأول: هو استعمال النخبة المسيطرة على الزوايا حين يدخل الجيش الفرنسي من جهة الكاف، والثانية: المحافظة على هيبة الزوايا وامتلاكها، أي: حتى تفتكها فرنسا فيما بعد.

وبالفعل عندما دخل الجيش الفرنسي في **1881** افتت الزاوية القادرية؛ بأنهم ضيوف يحرم قتالهم.

يقول برنار روا معلقا على دور زاوية الميزوني خلال دخول الجيش الفرنسي، وعندما قدم بعض الأهالي إلي زاوية قدور الميزوني باحثين عن فتوى بالجهاد؛ فإن سيدهم الميزوني أعطاهم الأوامر بالعودة من حيث أتوا، فقال برنار روا: لقد تحرك أصدقاؤنا[1].

فإن كان هو الأول المذكور، فهو ليس مسلما من أصله، وإن كان الثاني فما هو إلا خائن لبلده وخائن لدينه، وفاسد مفسد.

والأعجب من العجب؛ أنَّ الناس إلى الآن لا يزالون يعظمونه ويسمونه بالولي الصالح.

وكل هذا من الغلو، ومن تجميد العقل، والإعراض عن النقل.

8 – دعاة السوء:

وهؤلاء إمَّا أنهم جهلاء، أو أنَّ لهم علم وقصدهم هدم الدين، فلطالما سمعنا بأشباه العلماء، يبيحون الاستغاثة بالأموات، بل الاستعاذة بالنبي ﷺ، بل منهم من أصبح يمدح في البوذيين، بل في بوذا نفسه، ويقول: هو رجل حكيم، وأي: حكمة في رجل لا يؤمن بالله؟

ولم تتوقف فتاويهم المنحرفة عند أصول الدين وحسب، بل بلغت إلى الفروع الواضحة، فكم سمعنا من مفتٍ مزعوم، يفتي بجواز نزع الحجاب، وأن تعري المرأة شعرها، بل منهم من حلل

---

[1] ينظر: انتفاضات الفلاحين في تاريخ تونس المعاصر: مثال **1906**، مؤسسة بيت الحكمة، قرطاج، **1994**. الهادي التيمومي أو الهادي المقدم.

الخمر والزنا، وقد أخبرنا عنهم رسول الله ﷺ حيث سأله حذيفة بن اليمان قال: {كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا في جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بهذا الخَيْرِ، فَهلْ بَعْدَ هذا الخَيْرِ شَرٌّ؟ قالَ: نَعَمْ، فَقُلتُ: هلْ بَعْدَ ذلكَ الشَّرِّ مِن خَيْرٍ؟ قالَ: نَعَمْ وَفِيهِ دَخَنٌ، قُلتُ: وَما دَخَنُهُ؟ قالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بغيرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ منهمْ وَتُنْكِرُ، فَقُلتُ: هلْ بَعْدَ ذلكَ الخَيْرِ مِن شَرٍّ؟ قالَ: نَعَمْ، دُعَاةٌ علَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَن أَجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قالَ: نَعَمْ، قَوْمٌ مِن جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بأَلْسِنَتِنَا، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، فَما تَرَى إنْ أَدْرَكَنِي ذلكَ؟ قالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وإمَامَهُمْ، فَقُلتُ: فإنْ لَمْ تَكُنْ لهمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إمَامٌ؟ قالَ: فَاعْتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، ولو أَنْ تَعَضَّ علَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ علَى ذلكَ}[1].

9 – الكبر:

والكبر هو الذي يدعو صاحبه إلى ردِّ الحقِّ مع علمه أنه حقٌّ، وعدم قبوله ممن جاء به، بسبب احتقاره له، وقد عرَّفه النبي ﷺ وذلك: أن رجلا أتى النبي ﷺ: وكان رجلا جميلا، فقال: يا رسول الله، إني رجل حبب إلي الجمال، وأعطيت منه ما ترى، حتى ما أحب أن يفوقني أحد، إما قال: بشراك نعلي، وإما قال: بشسع نعلي، أفمن الكبر ذلك؟ قال: {لا، ولكن الكبر من بطر الحق، وغمط الناس}[2].

قال ابن القيم: فسر النَّبي ﷺ الكِبْر بضده فقال: الكِبْر بطر الحق وغمص الناس.

فبطر الحق: رده، وجحده، والدفع في صدره كدفع الصائل.

وغمص[3] الناس: احتقارهم، وازدراؤهم، ومتى احتقرهم وازدراهم: دفع حقوقهم وجحدها واستهان بها[4].

---

[1] مسلم 1847 واللفظ له، والبخاري 3606.

[2] أخرجه البخاري في "الأدب المفرد" 556، وابن حبان في "صحيحه" 5467، والحاكم في "المستدرك" 4/181/182، والبيهقي في "شعب الإيمان" 6193، من طريق هشام بن حسان، به.

[3] وجائت كلة غمص في رواية من روايات الحديث، وهي بمعنى كلمة غمط. انظر: ((مشارق الأنوار)) (135/2) والغمط هو: الاحتقار والازدراء، وغمط الحقَّ جحده وأنكره مع علمه به، ينظر: معجم المعاني الجامع مادة غمط.

[4] ((مدارج السالكين)) (318/2).

وكان الكبر سبب هلاك إبليس، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة/ 34].

وهو أيضا السبب في ميل الكثير من الأمم الكافرة عن سبيل الهدى الذي جاء به الرسل عليهم السلام، فقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [يونس: 75].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: 15].

علاج الكبر:

وعلاج الكبر يكون في كسر النفس، واتباع الحق، ولو كان ضدَّ هوى النفس ومراد الشخص، فإذا أذعن[1] العبد بهذا نُزع الكبر من قلبه، قال أبو هريرة: {لَمَّا نَزَلَتْ علَى رَسولِ اللهِ ﷺ: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 284]، قالَ: فاشْتَدَّ ذلكَ علَى أصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فأتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رَسولَ اللهِ، كُلِّفْنا مِنَ الأعْمالِ ما نُطِيقُ، الصَّلاةَ والصِّيامَ والْجِهادَ والصَّدَقَةَ، وقدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِه الآيَةُ ولا نُطِيقُها، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولوا كما قالَ أهْلُ الكِتابَيْنِ مِن قَبْلِكُمْ سَمِعْنا وعَصَيْنا؟ بَلْ قُولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَها القَوْمُ، ذَلَّتْ بها أَلْسِنَتُهُمْ، فأنْزَلَ اللَّهُ في إثْرِها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلكَ نَسَخَها اللَّهُ

---

[1] أذعنَ إلى / أذعنَ بـ / أذعنَ لـ يُذعن ، إذعانًا ، فهو مُذعِن ، والمفعول مُذعَن إليه.
أذعن إليه/ أذعن له: انقاد له وخضع وذلَّ وأسرع في الطاعة.
أذعن المدينُ بالحقِّ: أقرّ به طائعًا غير مُكرَه، واعترف به. – ينظر: معجم المعاني الجامع.

تعالَى، فأنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 286] قالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قالَ: نَعَمْ ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قالَ: نَعَمْ ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ قالَ: نَعَمْ}[1].

فلمَّا رضخوا وأذعنوا، زادهم الله تعالى إيمانا على إيمانهم، وتواضعا على تواضعهم فرضي الله عنهم جميعا، والشاهد هو التسليم لنصوص الشرع ولو كان على حساب النفس وهواها.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: 54].

قال ابن كثير وغيره، معنى أذلة، أي: متواضعون.

والصحيح أنه يريد الذل عينه لا التواضع، قالَ أهلُ اللُّغةِ:

التواضع لمن وَضَعَ نَفْسَهُ وَضْعًا: أذَلَّهَا.

والضَّعَةُ، بفتحِ الضَّادِ وكسرِها: خِلافُ الرِّفْعَةِ في القَدْرِ.

وتَوَاضَعَ الرَّجُلُ: إذا تَذَلَّلَ، وقيل: ذَلَّ وتَخاشَعَ، وهُوَ مُطَاوِعٌ.

وذَلَّ يَذِلُّ ذُلًّا وذِلَّةً ومَذَلَّةً: هانَ فَهُوَ ذَلِيلٌ والجمعُ أَذِلَّةٌ وأذِلَّاءُ[2].

وممّا سبقَ يُعلَمُ أنَّ التواضُعَ صِفةٌ محمودَةٌ تتضمَّنُ نوعًا منَ التَّذلُّلِ وهَضمِ النَّفسِ عن قصدٍ لا بقهرٍ مِن الغيرِ، وهُوَ ضِدُ التكبُّرِ والتَّعالي.

أمَّا الذُّلُّ: فهُوَ صفةُ مَن قُهِرَ وأُهينَ فأصبحَ ذليلًا، قالَ اللهُ عزّ وجلّ على لِسانِ سيّدِنا سُليمانَ عليه وعلى نبيِّنا أفضلُ الصَّلاةِ والسَّلامِ: ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [سورة النمل: 37].

قالَ أبو هِلالٍ العسكريُّ اللُّغويُّ:

---

[1] مسلم 125.

[2] تاج العروس (22/336 – 343) و (29/12 – 17) باختصار.

الفرقُ بينَ التَّواضُعِ والتَّذلُّلِ: أنَّ التَّذَلُّلَ إظهارُ العَجْزِ عَنْ مُقاوَمةِ مَنْ يَتَذَلَّلُ لهُ.
والتَّواضُعُ إظهارُ قُدرةِ مَنْ يتواضعُ لهُ سواءً كانَ ذا قُدرةٍ على المتواضِعِ أو لا، ألا ترى أنّهُ يُقالُ: الملِكُ مُتواضِعٌ لِخَدَمِهِ، أي: يعاملُهُم معاملةَ مَن لهم عليهِ قُدرةٌ، ولا يقالُ يتذلَّلُ لهم، لأن التذلُّلَ إظهارُ العجزِ عن مُقاوَمةِ المتذلَّلِ لهُ، وأنَّهُ قاهِرٌ، وليسَ هذه صفةُ الملِكِ معَ خَدَمِهِ[1].

وأقول: الصحيح أنَّ التواضع للمستعلي إذا تنازل إلى مستوى قرينه، فهو نزل من مستواه إلى مستوى قرينه ولكن لم ينزل تحته.

وأمَّا التذلل: فهو النزول دون مستوى القرين، سواء كان النازل مستعلٍ أم مساويا لقرينه.

وأمَّا من قال: أنَّ التذلل لغير الله لا يجوز، وأنَّ الذل لا يوافق صفة المسلم، نقول: ماذا تقول في قوله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[الإسراء: 24]. فها أثبت الذل للمسلم مع المسلم بغض النظر إن كان هذا المسلم عالٍ أم نازل.

وماذا تقول في السلف وخلفهم لما كانوا يتذللون لبعضهم أو لأهل العلم منهم.

وعليه: فالتذلل هو النزول دون مستوى القرين إجلالا له، ألا ترى أنَّ الشيخ العالم الذي فات شيوخه في العلم ينزل دون مستواهم حال خطابهم ويقبل الجباه والأيدي، مع أنه أعلى منهم في العلم والشهرة؟

والتنازل دون مستوى القرين من أنجع[2] علاجات الكبر، فإنَّ المسلم إذا نزل دون مستوى إخوانه في المعاملات، وجاهد نفسه على ذلك فلن يطول الأمر حتى تصبح نفسه نفس رضيع، لا كبر فيها ولا كره ولا حقد ولا حسد، بل أبيض مثل اللبن الصافي.

ثمَّ يرفعه الله تعالى على الجميع، وذلك من قول النبي ﷺ: {ما تواضعَ أحدٌ للَّهِ إلَّا رفعَهُ اللَّهُ}[3]، فإن؛ كان الكلام على المتواضع لله تعالى، فالمتذلل لوجه الله تعالى من باب أولى.



[1] (الفروق اللغوية؛ لأبي هلال العسكري، صـ249).
[2] نَجَعَ الشيءُ : نَفَعَ وظَهَرَ أثُره – ينظر: معجم المعاني.
[3] أخرجه مسلم (2588).

﴿المبحث الخامس﴾

﴿وسائل الوقاية من الانحراف عن العقيدة الصَّحيحة﴾

1 – التسليم لحكم الله تعالى:

إنَّ الوسيلة الأنجع للوقاية من الانحراف عن مسار العقيدة الصحيحة، أو تصحيحها هو: التسليم لحكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ، وفهم حكم الله تعالى ورسوله ﷺ يكون على فهم الصحابة والتابعين وأتباعهم، وأخذ النصوص على ظاهرها، وما لا يفهم من النصوص فتفسيره تنزيله، وعدم التفريق بين الكتابين، أي: الكتاب والسنة، والنفور من أهل البدع والضلال، وعدم مجالستهم ولا الكلام معهم إلا نصحا إن كان الناصح له علم، وإلا فلا ينصح حتى يتعلم، خشية أن يزيدهم ضلالا على ضلالهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: 51].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65].

وفي هذه الآيات الثلاث دلالة واضحة لوجوب التسليم لله ورسوله ﷺ في كل الأحوال.

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 53].

وفي هذه الآية دليل على وجوب اتباع السبيل الذي أمر الله تعالى به، ولكن ما هو هذا السبيل الذي يجب أن نتَّبعه؟ وكيف نتعرف عليه؟ يبيِّنه الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ۗ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

فيوضح سبحانه وتعالى؛ أنَّ سبيله المراد، هو اتباع المنزول، فقد أمر في الآية الأولى باتباع سبيله، وبينَّ في الآية الثانية ماهية سبيله إجمالا، وهو الكتاب والسنَّة، وما فيهما من تفصيل، وهذا على وجه الوجوب وذلك في قوله تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم} فهذا أمر والأمر يقتضي الوجوب.

وفي الأولى النهي فيها للتحريم، وذلك في قوله تعالى: {وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ} فهذا نهي والنهي للتحريم.

وعليه: فقد علمنا بالآية الأولى لزوم اتباع سبيل الله تعالى الذي بينه نبيُّه ﷺ، وعلمنا في الآية الثانية ماهية ومضمون وجوهر هذا السبيل وهو اتباع المنزول، فيخرج به المعقول والمعروف، إلا ما حدده المنزول به، كمهر الزوجة وغيره للمعروف، وكالاجتهاد فيما ليس فيه نص للمعقول.

2 – الفرار من أئمَّة الجهل:

وأئمَّة الجهل همُ الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: 7]، أي: أكثرهم لهم علم، ولكن هذا العلم هو بالدنيا وأكسابها وشئونها وما فيها، فهم حذاق أذكياء في تحصيلها ووجوه مكاسبها، وهم غافلون عما ينفعهم في الدار الآخرة، كأن أحدهم مغفل لا ذهن له ولا فكرة[1]، أو يعلمون علوما شرعية أخروية؛ ولكنَّها غير صحيحة.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: {تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿هو الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ منه آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ منه ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يقولونَ آمَنَّا به كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7] قالَتْ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ما تَشَابَهَ منه، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ فَاحْذَرُوهُمْ}[2].

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.
[2] مسلم 2665.

مثال المتشابه والمحكم:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48].

ففي الآية دليل على عدم مغفرة الشرك، سواء تاب أم لم يتب، في الدنيا أو يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

وفي هذه الآية تجد أنه يغفر الذنوب جميعا، بتوبة أو بلا توبة، في الدنيا أو يوم القيامة،

فالآيتان مشتبهتان، فالذين في قلوبهم زيغ يتبعون ما تشابه منه، فمنهم من يقول: يغفر كل شيء بتوبة أو بلا توبة، والآخر يقول: لا يغفر الشرك ولو تاب، وآخر يكفر من أذنب، وجنس الآخر يقول إنَّ القرآن متضارب، وغيره...

والصحيح أن الآيتان ليستا مشتبهتان ولا تعارض فيهما ولا تضاد، وأنَّ كلاهما محكمتان، وأن كلًّا من الآيتين يجب أن تردَّا إلى أصل محكم فيزول ما يُرى أن تشابه فيهما، وهو في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ [طه: 82].

وهنا يزال التشابه، ويفهم أنَّ الشرك مغفور قبل الموت بشرط التوبة والإيمان واتباع صراط المستقيم، ودليله الآية المذكورة، وقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا}.

وأمَّا إن لم يتب ومات على ذلك فلا مغفرة له إن مات على ذلك لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ}.

وأما ما دون الشرك فإن تاب في الدنيا فهو أولى بالمغفرة من الشرك إذ هو أدنى منه.

وأمَّا إن لم يتب ومات على ذلك فهو تحت المشيئة إن شاء الله تعالى عذبه وإن شاء غفر له، ودليله قوله تعالى: {وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ} بشرط أن لا يكون في بعض ذنوبه شرك، وإلا فلا مغفرة للشرك.

فلو تلاحظ أنَّ الآيتين المتضاربتين المتشابهتين، صارتا محكمتين لما رددناهما إلى أصل محكم، فالأصل المحكم هو: مغفرة جميع الذنوب بشرط التوبة قبل الموت، واتباع السبيل الصحيح.

وسيأتي مزيد من تفصيل المحكم والمتشابه في الباب نفسه.

3 – طلب العلم الصحيح، من مصدره الصحيح:

لقول النبي ﷺ: {مَن يُرِدِ اللَّهُ به خَيْرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ}[1].

فإنَّه ليس كلُّ علم ينتسب إلى الشريعة صحيح، فمن المتصوِّفة من يقوم بخلوات يقوم بها السحرة، ويظن أنه يعبد الله تعالى.

كما أنَّ من أهل العلم المنتسبين إلى الشريعة الباطل علمهم كثر، وهم على درجات، فأشنعهم الحُذَّاق في المقال، فصيحوا اللسان من المتكلمة، فهؤلاء خطرهم شديد؛ لأن مقالهم يغرر حتى طالب العلم المبتدئ أو حتى المتوسط، ومن ذلك قول النبي ﷺ: {إنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا}[2]، فالكلام المعسول، وقوَّة الخُطَب، وفصاحة اللِّسان، وغيرُهم من أساليبِ البيانِ، وهي أنواعٌ مِن الكلامِ المُنمَّقِ الذي يُؤثِّرُ في النُّفوسِ، وحُكْمُه حُكْمُ الكلامِ باللِّسانِ بحسَبِ ما فيه مِن المعاني؛ فقد يكونُ شرًّا وسُوءًا، وقد يكونُ حِكْمةً وأخلاقًا، فإنَّ الحذَّاق في المقال من أهل البدع يحملون الكلام على غير ما وضع له، من ذلك أهل التأويل الباطل؛ فهو تحريف معنوي في حقيقته، فهم يلوون ألسنتهم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[آل عمران: 78]، كقولهم في آية: ﴿الرَّحمَنُ عَلَى العَرْش استَوى﴾[طه: 5]، استوى تعني استولى، واستدلُّوا على ذلك؛ بأنَّ الله خالق العرش فيستحيل عقلا ان يحتويه مخلوق، ولكنَّ المعنى الصحيح لقوله استوى هو: علا وارتفع، وإن شئتَ قلت، معنى قوله استوى هو: استوى بلا كيف.

ولتفهم طريقة هؤلاء يجب علينا تعريف التأويل الباطل الفاسد ونقيضه:

---

[1] أخرجه البخاري (71)، ومسلم (1037).

[2] البخاري: 5146.

التأويل لغة:

يطلقُ التَّأْويلُ فِي اللُّغةِ علَى عدَّةِ معانٍ:

منهَا تأويلُ الكلامِ تفسيرهُ وبيانُ معناهُ[1].

والمرجعُ، تقولُ: أوَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ ضَالَّتَكَ أي أرْجَعَهَا، وأعَادَهَا إلَيْكَ[2].

والمصيرُ والعاقبةُ: وتلكَ المعانِي موجودةٌ فِي القرآنِ والسنَّةِ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾ [الأعراف: 53]، **أي: عاقبته[3]، وقالَ الرَّسولُ ﷺ فِي دعائهِ لابنِ عبَّاسَ: "اللَّهمَّ فقِّههُ في الدِّينِ وعلِّمهُ التأويلَ"[4]، أي: علمهُ التَّفسيرَ.**

التأويل اصطلاحا:

التَّأويلُ فِي اصطلاحِ السَّلفِ لهُ معنيانِ ممدوحانِ:

1 – أمَّا المعنَيانِ الممدوحانِ: فيُطلقُ التَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرِ والبيانِ وإيضاحِ المعانِي المقصودةُ منَ الكلامِ، فيقالُ: تأويلُ الآيةِ كذَا؛ أيْ معناهَا.

2 – ويطلقُ بمعنَى المآلِ والمرجعِ والعاقبةِ وتحقُّقِ الأمرِ، فيقالُ هذهِ الآيةُ مضَى تأويلهَا، كقولِهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ [يوسف: 100].

التَّأويل في اصطلاح أهلِ الكلامِ ولهُ معنى واحد مذمومٌ:

3 – عندَ الخلفِ من علماء الأصولِ والفقهِ الذِينَ ينتسبونَ لعلمِ الكلامِ:

هوَ صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ لدليل يقترن به[5].

وهو نفسه: استعمال اللفظ في غير ما وضع له، وهو عين تعريف المجاز، مع أنَّ المجاز ليس أصل التأويل الفاسد، ولكنَّه من السُّبل الموصلة إليه، بل هو أحسن مطيَّة يستعملها المحرف والمؤول لبلوغ المعاني التي يردها بهواه.

---

[1] معجم المعاني.

[2] السَّابق.

[3] الطَّبري.

[4] البخاري.

[5] يُنظر: التفسير والمفسرون للذهبي **15/1**.

وهذَا التَّأويلُ مرفوضٌ عندَ السَّلفِ واعتبروهُ تحريفًا باطلاً فِي بابِ الصفاتِ الإلهيةِ، وقد ظهرَ هذَا المعنَى للتَّأويلِ متأخِّرًا عن عصرِ الرَّسولِ ﷺ والصَّحابةِ، بل ظهرَ معَ ظهورِ الفرقِ ودخلُوا منهُ إلَى تحريفِ النُّصوصِ تحريفًا معنويًّا، وكانت لهُ نتائجُ خطيرةٌ؛ إذ كلَّمَا توغَّلُوا فِي تأويلِ المعانِي وتحريفهَا بعدُوا عنِ المعنَى الحقِّ الذِي تهدفُ إليهِ النُّصوصُ[1]، وهو نفس زمن دخول المجاز على نصوص الوحيين.

وخلاصةً أنواعُ التَّأويلِ ثلاثةٌ:

اثنانِ منهَا تأويلاتٌ صحيحةٌ ممدوحةٌ وهيَ:

1 – تأويلُ الأمرِ وقوعهُ.

2 – والتَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرُ.

والنَّوعُ الثَّالثُ منَ التَّأويلِ هوَ التَّأويلُ الباطلُ الفاسدُ وهوَ:

3 – صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ.

وهوَ مَا يُعبَّرُ عنهُ بالتَّحريفِ المعنويِّ.

والتَّحريفُ لغةً:

التَّغييرُ والتَّبديلُ، وتحريفُ الكلامِ عن مواضعهِ: تغييرهُ[2].

واصطلاحًا:

العدولُ باللَّفظِ عن جهتهِ إلَى غيرهَا، أو حمل اللفظ على غير ما وضع له، أو صرف اللفظ من المعني الراجح إلى المعنى المرجوح.

وهوَ علَى ثلاثةِ أنواعٍ:

1 – التَّحريفُ الإملائِيُّ.

2 – والتَّحريفُ اللَّفظِيُّ.

3 – والتَّحريفُ المعنوِيُّ.

---

[1] انظر مجموع الفتاوي 4/68 – 70، وانظر 3/54 –68، 5/82 – 36، 13/277 – 313، والصَّواعق المرسلة 1/175 – 233، وشرح الطَّحاوية 231 – 236.

[2] مختار الصحاح 131.

1) التَّحريفُ الإملائيُّ هوَ: تغييرُ اللَّفظِ كتابةً، وهذَا لَا يكونُ طبعًا إلَّا فِي الكتبِ، ويستحيلُ علَى المعطِّلةِ فعلهُ.

2) وأمَّا التَّحريفُ اللَّفظي فهوَ: تحريفُ الإعرابِ، فيكونُ بالزِّيادة أوِ النُّقصان فِي اللَّفظِ، أو بتغييرِ حركةٍ إعرابيَّةٍ، كقولهم:

وكَلَّمَ اللهَ موسَى تَكْلِيمًا، بنصبِ الهاءِ فِي لفظِ الجلالةِ، والآيةُ فِي حقيقتهَا، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: 164]، وأرادُوا بذلكَ نفيَ صفةِ الكلامِ عنِ اللهِ تعالَى بجعلِ اسمهِ تعالى مفعولًا منصوبًا لَا فاعلًا مرفوعًا، أي أنَّ موسَى هوَ من كلَّمَ اللهَ تعالى، ولم يكلمهُ اللهُ تعالَى، ولمَّا حرَّفهَا بعضُ الجهميَّةِ[1] هذَا التَّحريفَ، قالَ لهُ بعضُ أهلِ التَّوحيدِ: فكيفَ تصنعُ بقولهِ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: 143]، فبهتَ المحرِّفُ.

3) وأمَّا التَّحريفُ المعنويُّ: وهو مرادنا هنا:

فهو صرفُ اللَّفظِ عن معناهُ الصَّحيحِ إلَى غيرهِ معَ بقاءِ صورةِ اللَّفظِ[2].

أو تقولُ: هوَ العدولُ بالمعنَى عن وجهِ حقيقتهِ، وإعطاءِ اللَّفظِ معنَى لفظٍ آخرٍ.

أو حمل اللفظ على غير ما وضع له.

كتأويلهم معنَى "استوَى" بـ "استولَى" فِي قولهِ تعالَى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه:5].

ومعنَى اليدِ بالقدرةِ والنِّعمةِ فِي قولهِ تعالَى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: 64].

فلو تلاحظ أنهم أرادوا باليد هنا النعمة، وليست اليد الحقيقية، واليد الحقيقية مجاز عندهم، فقد صرفوا اللفظ عن معناه الظاهر الحقيقي، وتركت صورة اللفظ كما هي، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: { يُنْفِقُ كَمَا يَشَاءُ} فقالوا لو كان يريد اليد الحقيقية لما ذكر الإنفاق في السياق،

---

[1] الجهمية أو المُعَطِّلَة هي فرقة كلامية تنتسب إلى الإسلام، ظهرت في الربع الأول من القرن الهجري الثاني، على يد مؤسسها الجهم بن صفوان وهو من الجبرية الخالصة، ظهرت بدعته بترمذ، وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بني أمية، ووافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية.

[2] الصَّواعقُ المنزلة **1/201**.

والصحيح أنَّ هذا استخفاف بعقول الناس، وهو عين التأويل الفاسد والتحريف المعنوي، ولا يمكنهم قول ذلك إلا بعد أن يثبتوا أنَّ اليد المذكورة لفظا وخطا هي مجاز وهذا من غلوّهم في استعمال المجاز في نصوص الشرع، وهذا مرفوض ولي في نفي المجاز عن نصوص الشرع كتاب واسمه: (الإيجاز في الحقيقة والمجاز) ننفي فيه المجاز جملة وتفصيلا عن نصوص الشرع بالأدلة النقلية والعقلية، وعودا بدئ؛ فلو قالوا أنَّ اليد المذكورة هي حقيقة لما أمكنهم تأويلها، وكما أنَّ اليد المذكور في الآية تأخذ معنى اليد الحقيقية بلا كيف؛ فإنه سبحانه:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

فقد أثبت سبحانه لنفسه السمع والبصر، وقدَّم بما يُبيِّن أنه ليس كسمعنا أو بصرنا، وذلك في قوله تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، فله سبحانه السمع والبصر المطلقان، وهكذا في سائر الصفات، وأمَّا قوله تعالى {بَلْ يَدَاهُ مَبسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَمَا يَشَاءُ}، فنثبت اليد لله تعالى، ونثبت معنى الإنفاق.

مثال على تناغم التحريف والتأويل:

قالوا في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: 5].

فقد أوَّلوا الاستواء فحملوه على الاستلاء، وكذلك هم حرَّفوا معنى الاستواء تحريفا معنويًّا وحملوه على الاستلاء، وما كان لهم كل هذا التأويل والتحريف، إلَّا أن قالوا استواؤه سبحانه على عرشه استواء مجازي، فلو تُلاحظ أنَّ أصل المدخل لكل هذه الطَّوام هو نسبت المجاز إلى نصوص الشرع.

فكما ترى؛ فإنَّ تعريف التحريف المعنوي، وتعريف التأويل الفاسد، كلاهما واحد، ومعانيها واحدة.

والله تعالى بيَّن في كتابه العزيز كل الفوارق التي بين التفسير والتأويل بمعنى التحريف، وكيفية التصرف في حال التشابه فقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ

تَأْوِيلِهِۦۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[آل عمران: 7].

فقد ذكر سبحانه أنَّ في القرآن آيات محكمات وهنَّ أمُّ الكتاب التي يرجع إليها حال التشابه، وذكر سبحانه أنَّ الذين في قلوبهم مرض لا يرجعون حال التشابه إلى المحكم، بل يقفون على المتشابه يبتغون بذلك تأويله تأويلا فاسدا مما ينجر عنه فتنة في دين المسلمين، ولكنَّ أهل الحق وخاصته، يقولون آمنَّا به كل من عند ربنا، فالحقيقة هي المحكم، فالاستواء على العرش مثبت وهو حقيقة وهو محكم، والاستلاء أو الملك هذا لم يبلغ حتى المتشابه بل هو تحريف، لكنَّ مرضى القلوب تركوا المحكم وبقوا على المتشابه كي يؤولوه على حسب أهوائهم، وهذا ليس جهلا منهم أو بحسن نية، بل طرحوا المحكم وقصدوا المتشابه عمدا ابتغاء تحريفه تحريفا معنويا يوافق أهوائهم، ومرادهم تضليل أتباعهم سواء بقصد أو بغير قصد، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾

ودونك بيان ذلك:

فالمحكمُ لغةً: المانع.

والمحكم اصطلاحا: ما لا يحتمل إلَّا معنى واحدا.

والمتشابه لغة: المتماثل.

والمتشابه اصطلاحا: ما يحتمل أكثر من معنى.

والقرآنُ كُلّهُ مُحكمٌ باعتبار، وكلُّهُ متشابهٌ باعتبارٍ، وبعضهُ مُحكمٌ وبعضهُ مُتشابهٌ باعتبارٍ ثالثٍ[1].

فإذا ذكر المحكم دون المتشابه فهو محكم عام، وكذلك المتشابه إذا ذكر المتشابه دون المحكم فهو متشابه عام، وإذا ذكرا في نفس السياق، فهما المحكم والمتشابه الخاص.

فالقسمة على أربعة:

1 – محكم عام:

2 – محكم خاص:

3 – متشابه عام:

[1] رسالة السعدي أصول وكليَّات من أصول التفسير لا يستغني عنها مفسر القرآن للسعدي.

4 – متشابه خاص:

1 – المحكمُ العامُّ:

إتقانهُ بتمييزِ الصِّدقِ منَ الكذبِ فِي أخبارِهِ، والرُّشدُ منَ الغيِّ فِي أوامرِهِ، ولا يحتاج إلى بيان فيه، لعدم احتمالية أي معنى آخر خارج عن ظاهره، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾[آل عمران: 2]، فهذا اتقان، وتمييز الصدق عن الكذب، كما أنَّه لا يحتاج إلى بيان.

2 – المحكمُ الخاصُّ:

هوَ الفاصلُ بينَ الأمرينِ بحيثُ لَا يشتبهُ أحدهمَا بالآخرِ.

3 – المتشابهُ الخاصُّ:

هوَ مشابهةُ الشَّيءِ لغيرِهِ من وجهٍ، معَ مخالفتهِ لهُ من وجهٍ آخرَ، بحيثُ يشتبهُ علَى بعضِ النَّاسِ أنَّهُ هوَ أو هوَ مثلهُ، وهذا الذي سقط فيه بعض الناس فقاولوا بمجازه، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[الأنعام: 3]، فهذه الآية تتشابه عند البعض، فيقول: الله موجود في السماء، وفي الأرض، فهو في كل المكان، أو أنَّ كل الآية مجاز، فيأتي المحكم الخاص، فيفصل الأمر بقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه: 5]، فيُفهمُ أنَّه سبحانه على عرشه بذاته بدليل إحكام الآية، وهو في كل مكان بعلمه بدليل تشابه الآية، ولكنهم قالوا هو في كل مكان واستواؤه على عرشه مجاز، وهذا من الجهل بالعلم، فالأصل أن يرد المتشابه إلى المحكم، فيتبين لك المتشابه، ولكنهم ردوا المحكم إلى المتشابه فنبذوا المحكم وقصدوا المتشابه.

4 – المتشابهُ العامُّ:

هوَ تماثلُ الكلامِ وتناسبهُ بحيثُ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا، ويشبه بعضه بعضًا في الحسن والفصاحة والبلاغة والإتقان، كتكرار وصف الجنَّة، ورحمة الله تعالى وغيره، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾[النساء: 57].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: 72].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [يونس: 9].

– والمتشابه العام لا ينافي المُحكم العام، بل هو مصدِّق له، ولا يناقض بعضه بعضا.

– وأمَّا المُحكم الخاص؛ فإنَّهُ ضد التشابه الخاص:

فإذا اختلف الإحكام الخاص، والتشابه الخاص؛ فإنَّه يُحمل المتشابه على المحكم.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: 53].

فهذا الآية لها احتمالات، وتناقضات:

أمَّا الاحتمالات فهي: أنَّ الله يغفر الذنوب جميعا، لمن تاب ولمن لم يتب.

أو أنَّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب فقط.

وأمَّا التناقضات: ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: 48].

فهنا نفي مطلق لمغفرة الشرك، فتناقض هذه الآية ما قبلها في إثبات مطلق المغفرة.

فالاحتمال الأوَّل كون الله يغفر جميع الذنوب بالإطلاق والتعميم ممتنع، بدليل الآية الثانية. وعدم مغفرة الشرك ممتنع أيضا بدليل التعميم في الآية الأولى، وكذلك التناقض في كلام الله ورسوله ﷺ ممتنع.

فلم يبقى إلَّا الاحتمال واحد، وهو أنَّ الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب، لكن هذا الترجيح وجب له مستند محكم، لذا تعيَّن أن تُردَّ الآيات المتشابهات إلى أصل محكمٍ، وهو في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾ [طه: 82].

فقيِّدت المغفرة بالتوبة، وهي تحمل الشرك وما دونه.

ومن المتشابهات ما لا تدركه العلوم، منه المتشابه المطلق: وهو المسمى بالمتشابه الحقيقي وهو ما لا يمكن أن يعلمه البشر كحقائق صفات الله عزَّ وجلَّ، فإننا وإن كنَّا نعلم معاني هذه الصفات لكننا لا ندرك حقائقها وكيفيتها، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه: 110].

ومن المتشابه من يدركه البعض دون البعض وهو المتشابه النسبي.

وعليه:

فالمتشابه المطلق: ما لا يمكن حمله على المحكم، ككيفية صفات الله تعالى وغيره...

والمتشابه النسبي: هو ما يعلمه البعض دون البعض، كما مرَّ معنا في حمل المتشابه على المحكم.

فيتبيَّن لنا من هذا؛ أنَّ الأصل أن يردَّ كل متشابه في خطاب الشرع إلى محكمه، وبه سترى أنه كله محكم، والمحكم لا يدخله المجاز البتة، والمتشابه إذا ردَّ إلى المحكم صار محكما، وعليه يستحيل دخول المجاز عليه منطقا وعقلا وعلما.

وأما المتشابه المطلق، كحقائق صفات الله تعالى، مثال الله بصير، هذا معلوم، ولكن كيفية إبصاره أو أحواله لا نعلم منه شيئا، فهو سبحانه يبصر كل شيء، فهو سبحانه، يرى النملة السوداء، على الصخرة الصمَّاء، في الليلة الظلماء، ولكن الكيفية هي متشابه مطلق لا يدركه أحد.

وأرى: أنَّ المتشابه المطلق، هو عين المحكم، وإحكامه بالوقوف عند حدِّه لا يتعدَّاه، فالفهم يقف عند ذلك الحد، وهنا أدركنا غاية الفهم، وهو أنَّ الفهم لن يدرك الكيفية وهو عين العلم والإحكام.

وخرجنا بهذا ألَّا متشابه في كتاب الله تعالى إلا ما أخفاه الله تعالى.

وخرجنا بالمتشابه المطلق أنه عين المحكم؛ لأنَّ إحكامه في الوقوف عند حده، وبه فكل الكتاب محكم، وهذا بأن يرد إليه كل المتشابه فيصبح المتشابه محكما، والمحكم لا يمكن أن يدخله المجاز.

وعليه فمن أقوى وسائل الوقاية من الانحراف عن سبيل العقيدة السليمة، هو: تعلم العلم الشرعي الصحيح، عن علماء ربَّانيين معترف بهم.

4 – عدم الغلو في الدين:

قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: 171].

عن ابن عباس رضي الله عنه: {قالَ لي رسولُ اللَّهِ ﷺ غداةَ العقبةِ وَهوَ على راحلتِه: هاتِ القِطْ لي، فلقطتُ لَهُ حصياتٍ هنَّ حصى الخَذفِ، فلمَّا وضعتُهنَّ في يدِه، قال: بأمثالِ هؤلاءِ، وإيَّاكم والغلوَّ في الدِّين، فإنَّما أَهلَكَ من كان قبلَكمُ الغلوُّ في الدِّينِ}[1].

ومعنى قوله بأمثال هؤلاء، أي: الحصوات التي في يده، أي: ارموا الجمرات بمثل حجم هذه الحصوات، ثمَّ ذيَّل آمرا أمرا للعموم بقوله: {وإيَّاكم والغلوَّ في الدِّين، فإنَّما أَهلَكَ من كان قبلَكمُ الغلوُّ في الدِّينِ}.

فإنَّ سبب هلاك الأمم الغلو في الدين، قال رسول الله ﷺ: {لا تشدِّدوا على أنفسكم فيشدِّد الله عليكم، فإنَّ قومًا شدَّدوا على أنفسهم فشدَّد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصَّوامع والدِّيار؛ رهبانيَّة ابتدعوها ما كتبناها عليهم}[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه، قال: {جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ، يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني}[3].

---

[1] أخرجه النسائي (3057) واللفظ له، وابن ماجه (3029)، وأحمد (3248)، والبيهقي باختلاف يسير 9806.

[2] رواه أبو داود (4904)، وأبو يعلى (365/6) (3694). قال ابن تيمية في ((اقتضاء الصراط المستقيم)) (296/1): له شواهد في الصَّحيح. وقال ابن القيِّم في ((الصَّلاة وحكم تاركها)) (122): تفرَّد به ابن أبي العمياء، وهو شبه مجهول. وجوَّد إسناده ابن مفلح في ((الآداب الشرعية)) (98/2)، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (259/6):رجاله رجال الصَّحيح غير سعيد بن عبد الرَّحمن بن أبي العميا، وهو ثقة. وصحَّح إسناده لبوصيري في ((إتحاف الخيرة المهرة)) (259/4)، وضعَّفه الألباني في ((ضعيف سنن أبي داود)) (4904).

[3] رواه البخاري (5063).

5 – اتخاذ الوسطية منهجا:

وهو عدم التطرف، والتطرف هو: أخذ طرفي النقيض، فلا تشدد بلا حق، ولا تساهل بلا حق، فالمتساهل متطرف، والمتشدد متطرف، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] .

والمراد بالوسط في الآية هم الخيار، أي: الأحسن والأجود، يقول العرب، فلان وسط النسب، أي من خيار الأنساب وأجودها، والآية أيضا تحمل على الوسطية وهو منهجها، قال البغوي: قال الكلبي: يعني أهل دين وسط بين الغلو والتقصير لأنهما مذمومان في الدين[1].

فالآية تحمل المعنيين، وهو من اختلاف التنوع لا التضاد، وعليه فهي تحمل عليهما.



[1] **ينظر: تفسير البغوي.**

﴿المبحث السادس﴾

﴿مصادر تلقِّي العقيدة الصَّحيحة[1]﴾

لا شك أن عقيدة أهل التوحيد لها أصل ومصدر ومستند تستند إليه في أدلتها، وهي ثلاثة مصادر وهي على ما يلي:

الأصل الأول والثاني: القرآن الكريم والسنة النبوية:

والقرآن الكريم: اسم لكلام الله تعالى المنزل على عبده ونبيه محمد ﷺ.

والسنة هي: ما صدر عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، أو صفةٍ خُلُقيَّة، من مبدئِ البعثة حتى وفاته[2].

1 – القرآن الكريم:

القرآن هو المصدر الأول لتلقي العقيدة الصحيحة لأسباب منها:

أ – أننا مأمورون باتباعه أمرا على الوجوب: وذلك في قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: 3].

ب – أنَّ كل ما فيه حق: وذلك في قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: 176].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: 87].

---

[1] **العقيدة أكاديمية زاد المستوى الأول 16 بتصرف شديد.**

[2] **ينظر كتابنا: المنة في بيان مفهوم السنة ابتداء من الصفة 25، والفكر المنهجي عند المحدثين للدكتور همام عبد الرحيم سعيد. ص 27.**

ج – أنَّ القرآن محفوظ بحفظ الله تعالى، فلا يدخله تحريف، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

د – أنه الحكم الواجب اتبّاعه، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [يوسف: 40].

وقوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: 114].

2 – السنة:

إنَّ العناية بالركائز المؤسسة لحجيَّة السنَّة من حيث أنها مصدر رئيسي لتلقي العقيدة الصحيحة أمر في غاية الأهميَّة، لذلك اعتنى علماء المسلمين بهذا الباب اعتناء كبيرا، وصنَّفوا فيها كتبا كثيرة تُثبت حجيَّة السنة وترد على منكريها والمشككين فيها، ومنهم من يُسمُّون أنفسهم بالقرآنيين، فينكرون كل السنَّة ويدَّعون أنَّهم يعملون بالقرآن وحسب، ولا يتلقون العقيدة إلا من القرآن، زعما منهم أنَّ السنة ليست حجة، أو ليست مصدرا، أو كلها ضعيفة، أو يجب التفريق بينها وبين القرآن، والقرآن من هؤلاء براء، وهو عليهم حجَّة وشهيد يوم القيامة، وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن هؤلاء وحذَّر منهم، حيث قال: {ألَا هلْ عسىَ رجلٌ يبلغُهُ الحديثُ عنِّي؛ وهوَ مُتَّكِئٌ علَى أَريكتِه؛ فيقولُ: بينَنا وبينكمْ كتابُ اللهِ، فمَا وجدْنَا فيهِ حلالًا استحلَلْناهُ؛ ومَا وجدْنا فيهِ حرامًا حرَّمْناهُ، وإنَّ مَا حرَّم رسولُ اللهِ كمَا حرَّمَ اللهُ}[1].

لذلك تقدَّم رجال الحديث يذبُّون عن سنَّة رسول الله ﷺ شكوك المشككين، وأراء المكذبين، وكذب الوضَّاعين، وتأويل المبطلين والمعطِّلين، وأسَّسوا أسُسًا لا تخرجُ عن أصول الاستدلال الثلاثة، وهي: الكتاب، والسنة وخصُّوا منها المتواتر، ومرادنا بالمتواتر، ما كان صحيحا واشتهر بين أهل العلم والعامة، لا المتواتر الذي وضع أسسه وشروطه المتكلمة، فلا شيء في علم الحديث اسمه حديث متواتر بتلك الشروط[2]، ثم الإجماع، وهاك تفصيلها:

---

[1] **صحيح الترمذي 2664 وصححه الألباني في الصحيح الجامع 2657.**

[2] **للمزيد: ينظر كتابنا المنة في بيان مفهوم السمة من أول الكتاب إلى آخر باب المتواتر.**

أولا: دلائل القرآن على حجِّية السنة:

وهذه الدلائل على قسمين:

1 – دلائل القرآن: على أصل حجِّية السنَّة:

2 – دلائل القرآن: على دوام حجيَّة السنة بما يعني أنها وحي من الله تعالى:

ويمكن إثبات هذين المعنيين من خمسة طرق، ثلاثة منها تعود إلى المعنى الأول، والبقيَّة تعود إلى المعنى الثاني:

الطريق الأوَّل:

دلائل الأوامر القرآنيَّة العامة بطاعة رسول الله ﷺ، مع إطلاق الطاعة دون تقييد:

والاستدلال بهذا الطريق يبنى على ثلاثة مقامات:

المقام الأول: عموم الخطاب القرآني للأمة:

وهذا أمر معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، وهو أنَّ الله تعالى قد أنزل القرآن حجَّة على جميع هذه الأمَّة، لا على الأفراد الذين عاشوا مع الرسول ﷺ وحسب، وهو مقتضى كون الرسول ﷺ أُرسل للناس كافة، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [سبأ: 28] .

قال ابن كثير، أي: إلا إلى جميع الخلق من المكلفين[1].

المقام الثاني: مجيء الأمر القرآني العام بطاعة الرَّسول ﷺ:

ومن عموميَّات الأمر، الخطاب القرآني الأمر بطاعة رسول الله ﷺ وهو أمر عام لكلِّ مخلوق مكلَّف منه قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: 59]**، فالأمر في هذه الآية موجه إلى كل الناس، إلينا وإلى من قبلنا وإلى من بعدنا، قال ابن حزم رحمه الله تعالى في هذه الآية: الأمة مجمعة على أنَّ هذا الخطاب متوجه إلينا، وإلى كل من يُخلق ويُركَّب روحه في جسده إلى يوم قيامة من الجنَّة والنَّاس[2].**

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم **1/97**.

المقام الثالث: إطلاق لفظ الطَّاعة والاتّباع للرَّسول ﷺ في الآيات:

والمقصود من هذا المقام؛ أنَّ أوامر الله تعالى بطاعة رسوله ﷺ لم تأتي مقيَّدة في نوع من الأمر دون الآخر، أو في مقام دون مقام، بل تجد في سياق الآيات ودلالات ألفاظها ما يؤكد معنى الإطلاق، خاصَّة أنَّ الأمر بطاعة الرسول ﷺ قد تكرَّر كثيرا في القرآن بألفاظ مختلفة، ويؤكد بعضها بعضا؛ كقول الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: 7]، **وقوله تعالى:** ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63]، **وقوله تعالى:** ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: 91]، **وغير ذلك من الدلالات الدامغات، فلو أنَّ الله تعالى أراد أن نتبع نبيَّه ﷺ في شيء دون شيء فلماذا إطلاق الطَّاعة صريحا في تلك الآية؟ ولو كانت أوامر الرسول ﷺ تدلي بالندب فحسب دون الوجوب، فلما كان هذا الإطلاق في الطَّاعة والتأكيد في هذه الآيات وغيرها كثير جدا؟ وقد قال تعالى:** ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]، **والآية جليَّة البيان في نفي الخيرة إطلاقا.**

ولا وجه للتفريق بين من سمع منَ النبيِّ ﷺ مباشرة، وبين من جاءه الخبر عنه؛ لأنَّ المقام هنا في دلالة الآيات على وجوب طاعة الرسول ﷺ طاعة مطلقة وليست في طريقة ثبوت الخبر.

والفرق بين المقام الأوَّل والثاني وهذا المقام؛ أنَّ الأوَّل راجع إلى شمول الخطاب إلى كل الأمَّة، والثَّاني متَّصل بالأول، حيث كان الخطاب بطاعة الرسول ﷺ لكل الأمَّة لا يختص بأحد دون أحد، وجاء المقام الثالث بناء على الأوَّل والثاني، في وجوب طاعة الرسول ﷺ طاعة مطلقة لكل الناس، فالخطاب القرآنيُّ عامٌّ، أمر بعموم طاعة الرَّسول ﷺ طاعة مطلقة[1].

---

[1] للمزيد يُنظر: تثبيت حجيَّة السنة لأحمد بن يوسف السيد **19–23** بتصرف.

الطريق الثاني:

دلالة القرآن على أنَّ السنَّة وحي:

ويمكن الاستدلال على أنَّ السنة وحي من الله تعالى بالعديد من الأوجه في الآيات القرآنيَّة، والمراد بهذا أنَّ من السنة ما هو وحيٌ مباشر، وأنَّ منها ما هو اجتهاد من رسول الله ﷺ، واجتهاده ﷺ إمَّا أن يكون قد أقره الله تعالى، فيعود إلى أصله الأوَّل بعد الإقرار، وهو الوحي، وإمَّا أن يصححه له الله تعالى، وكذلك تعود إلى أصلها الأوَّل بعد التصحيح، وهو الوحي، ونفصل ذلك قبل البدءِ في بيان أوجه دلالة القرآن على أنَّ السنَّة وحي بما يلي:

اجتهاد رسول الله ﷺ:

قلنا اجتهاده ﷺ على ثلاثة أقسام:

الأوَّل: ما أقرّه الله تعالى:

وهو كقوله ﷺ: "لَوْلَا أنْ أشُقَّ علَى أُمَّتي أوْ علَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بالسِّوَاكِ مع كُلِّ صَلَاةٍ"[1].

وهذه السنة المبجَّلة أقرَّها الله تعالى على رسوله ﷺ، وبما أنَّه سبحانه أقرَّها عليه أصبحت تشريعا من الله تعالى، فالإذن بفعل الشيء دليل على الرضا به واستحسانه، فالآذن للمأذون، كالآمر للمأمور.

الثَّاني: ما صحَّحه الله تعالى قبل إقراره:

وهو تصحيحه تعالى لأفعال نبيِّه ﷺ، والمعنى من ذلك؛ أنَّ التَّصحيح دليل على عدم قبول الفعل بذلك الشكل، وهو كلُّه يدلُّ أي: الإقرار وعدمه، على أنَّ الأمر كلُّه وحي من الله تعالى، مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: 67]، قال ابنُ عبَّاسٍ: فلمَّا أسَرُوا الأُسارى، قال رسولُ اللهِ ﷺ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: ما تَرَونَ في هؤلاءِ الأُسارى؟ فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ اللهِ، هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يَهدِيَهم للإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ما ترى يا ابنَ الخطَّابِ؟ قلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فنضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا مِن عَقيلٍ،

---

[1] أخرجه البخاري 887، ومسلم 252.

فيضرِبَ عُنُقَه، وتمكِّنِّي من فلانٍ– نَسيبًا لِعُمَرَ– فأضرِبَ عُنقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ وصناديدُها، فهَوِيَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ جِئتُ (أي عمر)، فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ قاعِدَينِ يَبكيانِ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني من أيِّ شَيءٍ تبكي أنت وصاحِبُك؟! فإن وَجَدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجِدْ بُكاءً تباكَيتُ لِبُكائِكما، فقال رسولُ الله ﷺ: أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك مِن أخْذِهم الفِداءَ، لقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى مِن هذه الشَّجرةِ – شَجرةٍ قريبةٍ مِن نبيِّ اللهِ ﷺ – وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ إلى قَولِه: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا}[1].

أي: تُريدونَ – أيُّها المؤمنونَ – نَيلَ مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلةِ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزِمينَ يَومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يُريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ بإثخانِهم؛ إعزازًا لِدينِه، ونُصرةً لِعبادِه، وإعلاءً لكَلِمتِه سُبحانَه وتعالى[2].

وهذا نهي واضح عمَّا فعله رسول الله ﷺ، ثم صحَّحه له بعد ذلكَ بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[محمد: 4]، قال السعدي: فأنتم بالخيار بين المن عليهم وإطلاقهم بلا مال ولا فداء، وإمَّا أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم[3].

قال الطنطاوي: وقوله سبحانه: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) إرشاد؛ لما يفعلونه بعد ذلك والمن: الإطلاق بغير عوض، يقال: منَّ فلان على فلان إذا أنعم عليه بدون مقابل.

والفداء: ما يقدمه الأسير من أموال أو غيرها لكي يفتدي بها نفسه من الأسر[4].

---

[1] رواه مسلم 1763.

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (271/11)، ((تفسير ابن عطية)) (552/2، 553)، ((تفسير الرازي)) (510/15)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (74/10)، ((تفسير السعدي)) (ص: 326)، ((تفسير ابن عاشور)) (75/10)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (181/5). قال الرازي: (أجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن عَرَض الدُّنيا هاهنا، هو أخْذُ الفِداءِ). ((تفسير الرازي)) (509/15).

[3] ينظر: تفسير السعدي.

[4] ينظر: الوسيط للطنطاوي.

والمعنى أنَّ الرسول ﷺ اجتهد في أخذ الفدية عن أُسارى بدر فنهاه الله تعالى عن ذلك، ثمَّ صحح له ذلك بالآية الثانية، قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْد وَإِمَّا فِدَاءً}[1]، وعلى هذا فإنَّ اجتهاده ﷺ بعد التَّصحيح يُصبح تشريعا من الله تعالى.

الثالث: ما نهاه الله تعالى عن فعله:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84].

وسبب نزول هذه الآية؛ ما رواه ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أُبَيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله – رضي الله عنه – إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: 80]، وسأزيده على السبعين، قال (عمر): إنه منافق، قال فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: 84][2].

وهنا اجتهد رسول الله ﷺ إرضاء للصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أُبَيٍّ بن سلول، حيث مات أبوه وهو رأس المنافقين، فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، فنهاه الله تعالى عن ذلك، فإنَّ الله تعالى ورسوله ﷺ لا يقرّان على باطل، والنَّهي عن الصَّلاة على ابن أُبَيٍّ بن سلول صار تشريعا، فيَحرمُ به الصلاة والدُّعاء على أموات الكفَّار والمنافقين، وبهذا تكون كل اجتهادات رسول الله ﷺ وحي من الله تعالى، فإمَّا أن يقرّها الله تعالى لتكون شرعا، أو يصحّحها له لتصير شرعا أيضا، أو ينهى عنها ليكون النهي شرعا أيضا.

---

[1] تفسير البغوي.

[2] رواه البخاري **4670**.

ونعود إلى؛ دلالة القرآن على أنَّ السنَّة وحي، ونذكر أوجه ذلك:

الوجه الأول: الإخبار بإنزال الحكمة معطوفة على القرآن:

فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز أنَّه أنزل الحكمة على الرسول ﷺ، وفي أكثر تلك المواضع يذكرها مقرونة مع القرآن الكريم، وقد ذهب أكثر أهل التفسير إلى أنَّ الحكمة إذا عطفت على القرآن في الذكر فالمراد بها السنة، قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِ﴾ [الأحزاب: 34]، قال الطبري: واذكرن ما يُقرأ في بيوتكنَّ من آيات كتاب الله والحكمة، ويعني بالحكمة: ما أُوحيَ إلى رسول الله ﷺ من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن، وذلك السنة، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال الهروي[1].

وقال السعدي: والمراد بآيات الله، القرآن، والحكمة، أسراره وسنَّة رسول الله ﷺ[2].

وقال ابن كثير: اعملن بما يُنزل الله تعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة؛ قاله قتادة وغير واحد[3].

وقال البغوي: والحكمة: يعني السنة[4]

وحكموا بذلك لدلالة العطف المقتضي للمغايرة[5]، ولدلالة سياق الآيات.

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] ينظر: تفسير السعدي.

[3] ينظر: تفسير ابن كثير.

[4] تفسير البغوي.

[5] عطف الشيء على الشيء يقتضي مغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه، مع اشتراكهما في الحكم المذكور لهما – يُنظر كتاب: معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، لمحمد حسين الجيزاني ص 381.

وهذه المغايرة على مراتب:

الأولى: أن يكونا متباينين، ليس أحدهما هو الآخر ولا جزؤه، ولا ملازمة بينهما، وهذه أعلى المراتب، كقوله تعالى: {وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ} [البقرة: 98].

والثانية: أن يكون بينهما تلازم، كقوله تعالى: {وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [البقرة: 42]، فإن من لبس الحق بالباطل أخفى من الحق بقدر ما أظهر من الباطل، ومن كتم الحق أقام موضعه باطلاً فلبس الحق بالباطل.

والثالثة: عطف بعض الشيء عليه، كقوله تعالى: {حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى} [البقرة: 238].

الرابعة: عطف الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: {الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: 3، 4]. يُنظر: مجموع الفتاوى=

كما يُبيِّن الأمر التواتر المنبئُ بالقطع من أمور الدين التي لم تذكر في القرآن؛ كتعليمه صفة الصلوات الخمس ومواقيتها والتشهد، والإمامة، وسجود السهو، وغير ذلك...

الوجه الثاني: تكفّل الله تعالى ببيان القرآن عن طريق رسوله ﷺ:

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: 44]، قال القرطبي: "لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ" في هذا الكتاب من الأحكام والوعد والوعيد بقولك وفعلك[1].

ومن المعلوم أنَّ البيان لا يكون إلَّا عن طريق الوحي المعصوم، ليُبلِّغ مراد الله تعالى على الوجه الصحيح، وأنَّه ليس من هوى نفس، وإلَّا فلن يكون البيان على الوجه المراد.

الوجه الثالث: الآيات الدالة على نزول الوحي على النبي ﷺ في ما دون القرآن:

أوَّلا: دلالة الآيات على الإخبار بنزول الملائكة في بدر:

قال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾ [آل عمران: 124]، وفي هذه الآية دلالة واضحة أنَّ ما أخبر به رسول الله ﷺ أصحابه من قبيل الوحي، وأيده الله تعالى بعد ذلك بنزول هذه الآية مصدِّقة له، فهذا من الغيبيَّات الذي لا يُتوصَّلُ إليه إلَّا عن طريق الوحي.

قال ابن عاشور التونسي: والمعنى: إذ تعد المؤمنين بإمداد الله تعالى بالملائكة، فما كان قول النبي ﷺ لهم تلك المقالة إلَّا بوعد أوحاه الله تعالى إليه أن يقوله[2].انتهى

وهذا الوحي خارج عن نطاق القرآن.

ثانيا: دلالة آية تحويل القبلة:

قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144]، وهذه هي القبلة التي يرضاها رسول الله ﷺ، ولكن القبلة السابقة التي

= 7/172 – 178، وشرح العقيدة الطحاويَّة 387 – 388، يُنظر: حاشية الصبَّان على شرح الأشموني على ألفية ابن مالك 1-4 ج3.

[1] ينظر: تفسير القرطبي.

[2] التحرير والتنوير لابن عاشور.

كان يستقبلها رسول الله ﷺ أين أمرها في القرآن؟ وهل كان يستقبل رسول الله ﷺ بيت المقدس من تلقاء نفسه؟ قطعا لا، فقد كان ﷺ يستقبل القبلة السابقة عن طريق الوحي، وهذه دلالة أخرى على أنَّ السنة وحي من الله تعالى.

الطريق الثالث:

دلالة القرآن على أنَّ السنة بيان له:

من المعلوم أنَّ القرآن فيه أوامر مجملة لا يمكن امتثالها إلَّا بمعرفة بيان رسول الله ﷺ فيها؛ كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 43]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: 97]، فهذه أوامر مجملة كلَّ الإجمال ولم يُبيِّن لنا الله تعالى في كتابه عدد الصلوات ولا عدد الركعات ولا كيفيتها ولا تفصيل مواقيتها، ولم يبين لنا كم نطوف بالبيت، ولا كم نسعى بين الصفا والمروى، ولا ذكر المواقيت المكانيَّة، ولا الزمانيَّة تصريحا، ولا رمي الجمرات.

فالنَّاظر في كتاب الله تعالى لا يجد بيانا فيه، ولكن يجد أمرا باتِّباع من له بيان ذلك، وهو رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، قال البغوي: أراد بالذكر الوحي، وكان النبي ﷺ مبينا للوحي، وبيان الكتاب يطلب من السنة[1].

وقد أبدع البغوي في هذا؛ لأنَّ جلَّ المفسِّرين قالوا أن "الذِّكرَ" المراد هنا هو القرآن، لكنَّ البغوي أطلق لفظ الوحي ولم يقيِّده بالقرآن، وبالسياق يتبيَّن أنَّ المراد تنزيل آخر مع القرآن، ولا يكون إلَّا السنة، ومن ذلك قوله ﷺ: "ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ"[2]، فجلُّ المفسرين رأوا أنَّ الذكر في قوله تعالى: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ} هو القرآن خاصة، ولكنَّ السياق يدلُّ على أنَّ الذكر على خلاف القرآن، وأطلقه البغوي بقوله هو: الوحي، ليشمل الكتاب والسنَّة، وهنا الغالب أنَّ الذكر هو السنَّة، ليبنَّ للنَّاس ما نزِّل إليهم أي القرآن، أو يكون: وأنزلنا عليك الذكر أي: القرآن، لتبيِّن للنَّاس من أهل الكتاب ما نزِّل إليهم قبل القرآن من التوراة والإنجيل، أنَّ الدين عند الله الإسلام كي يتَّبعوك، فيُحمل على المعنيين، والمعنى الأوَّل أقرب، وهو مرادنا هاهنا.

---

[1] ينظر: تفسير البغوي.

[2] رواه أبو داود **4604** عن المقدام بن معدي كرب، وصححه الألباني.

الطريق الرابع:

دلالة القرآن على حفظ السنَّة:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر: 9]، تعهَّد الله تعالى بحفظ الذكر، والذكر هو الوحي، فيشمل الكتاب والسنَّة، ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[النجم: 3-4]، ودلالة هذه الآية الكريمة قويٌّ جدا في إثبات حجيَّة السنَّة، وحفظها، فالنطق المذكور في الآية ليس مقيَّدا بشيء، فمطلق النطق من رسول الله ﷺ هو وحي، ويشهد له قول عبد الله بن عمرو وفيه: "فأَوْمأَ ﷺ بأُصبُعِهِ إلى فيه، فقال: اكتُبْ؛ فو الَّذي نفْسي بيدِهِ، ما يَخْرُجُ منه إلَّا حقٌّ"[1].

ومن المعلوم أنَّ هذا الحديث صدر عن كتابة السنة، وليس عن القرآن.

الطريق الخامس:

لزوم حفظ بيان القرآن[2].

قد مرَّ معنا سابقا أنَّ السنَّة مبيِّنة للقرآن، وأنَّه يتعذَّر العمل بجلِّ أوامر القرآن دون الرجوع إلى السنةّ، فإن كان الأمر كذلك فإنَّ تمام حفظ القرآن لا يتحقق إلَّا بحفظ بيانه، لأنَّه إن لم تُحفظ السنة سيظل القرآن في أهم أوامره مجملا، فلزم من حفظ القرآن حفظ بيانه، ولزم من دوام حفظ القرآن دوام حفظ بيانه، إلى أن يرفع الله تعالى القرآن فيُرفع معه بيانه، وما دام القرآن مازال على الأرض محفوظا، فيلزم بالضَّرورة بقاء بيانه معه محفوظا



[1] رواه أبو داود 3646 وصححه الألباني.

[2] للمزيد من البيان ينظر كتاب: تثبيت حجيَّة السنة لأحمد بن يوسف السيد، وكتاب: الترويح والملح في شرح نظم غرامي صحيح لابن فرح، للدكتور: عصام الدين إبراهيم النقيلي.

دلالة السنَّة على حجيَّة السنة:

1 - قوله ﷺ: {ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ، ألا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه، ألا لا يحلُّ لكُم لحمُ الحِمارِ الأهليِّ، ولا كلِّ ذي نابٍ من السَّبُعِ، ولا لُقَطةِ معاهَدٍ، إلَّا أن يستَغني عَنها صاحبُها، ومَن نزل بقومٍ فعليهِم أن يُقْرُوه، فإن لَم يُقْرُوه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاه}[1].

وقوله ﷺ: "ألا إنِّي أوتيتُ الكتابَ ومثلَهُ معهُ" يشهد له قول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: 34]، **ويشهد له قوله تعالى:** ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44]، **وقد حذَّر رسول الله ﷺ من منكري حجيَّة السنَّة، بقوله: {ألا يُوشِكُ رجُلٌ شبعانٌ على أريكتِهِ يقولُ عليكُم بِهذَا القُرآنِ فما وجدتُم فيهِ مِن حَلالٍ فأحلُّوه وما وَجدتُم فيهِ مِن حرامٍ فحرِّمُوه}، ومن المهمِّ أنْ يُعلمَ أنَّه لا فرقَ بين منكر السنة، أو منكر حجيَّة السنَّة، أو منكر وجوب السنة فيما هو منها واجب.**

فالدليل الأوَّل: قوله تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء 80].

فلا طاعة لله تعالى إلَّا بطاعة رسوله ﷺ.

والدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: 63].

فلا يختلف منكر السنة على منكر حجية السنة.

والدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 26].

---

[1] رواه أبو داود **4604**.

وهذه دلالة واضحة على نفي الخيرة فيما قضاه الله تعالى أو قضاه رسوله ﷺ، وعلى هذا فإنَّ من يقول بأنَّ السنَّة كلها مندوبة، فقد عصى أبا القاسم ﷺ، ولا يختلف منكر وجوب السنة فيما هو واجب منها عن منكر حجيَّتها عن منكرها جملة واحدة فكلهم سواء.

ثمَّ ذيَّلَ رسول الله ﷺ في الحديث بعدَّة من التَّحريمات ليس لها أثر في كتاب الله تعالى، تأكيدا منه ﷺ على أنَّ طاعته واجبة وأنَّ سنَّته تحلِّل وتحرم، وتوجب وتندب، فهل من يقول بأنَّ السنَّة كلُّها مندوبة يرى بحلِّية أكل لحم الحمير الأهلية وكلِّ ذي ناب؟ أم يتوقف عندها فيُحرمها؟ فإن قال بحلِّيتها فقد ضل ضلالا بعيدا، وقد استحلَّ محرَّما، وإن توقَّف عندها وحرَّمها بما حرَّم رسول الله ﷺ فقد أقام الحجَّة على نفسه.

2 – قوله ﷺ: {مَنْ أطاعنِي فقدْ أطاعَ اللهَ ومَنْ عصانِي فقدْ عصَى اللهَ}[1].

وهذا بيان على التَّلازم بين طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ، وأنَّه لا سبيل إلى طاعة الله تعالى إلَّا عن طريق طاعة رسوله ﷺ، كما يتبيَّن في هذا المقام أنَّ طاعة الله تعالى تكون في كل شيء، فيما وجب وندب وحرَّم وأباح، فيلزم من التلازم بين طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ انعكاسٌ وظلٌّ يُبيِّن حقيقة الأمر في طاعة رسول الله ﷺ، وأنَّها تشمل ما شملت طاعة الله تعالى.

3 – قوله ﷺ: {...فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاءِ المهديّين الراشدين تمسّكوا بها، وعَضّوا عليها بالنواجذِ...}[2].

ومن المعلوم عند أهل الأصول؛ أنَّ من صيغِ الوجوب لفظ "عليك كذا" كقول الله تعالى: ﴿وِلِله عَلَى ٱلنَّاسِ حَجُّ ٱلۡبَيۡتِ﴾ [آل عمران: 97]، فقوله ﷺ: "عليكم بسنَّتي" من صيغ الوجوب، وتنبئُ بتأكيد الأمر حال ذكر ما هو أدنى من سنَّته ﷺ، ألا وهي سنة الخلفاء المهديين، فإن كان الوجوب قائما باتباع سنة الخلفاء المهديين، فسنَّته ﷺ أولى وأوجب، وكذلك فيه دليل على أنَّ السنة توجب وتندب وتنهى نهي تحريم ونهي كراهة، وإلا فكيف يكون اتباع السنَّة واجب في أوامر مندوبة مستحبَّة، فأنت تأمرني بالفعل على وجه الوجوب، ثمَّ تقول كل الأفعال

---

[1] رواه البخاري **2957**، ومسلم **1835**.

[2] رواه أبو داود **4607** عن عبد الرحمن بن عمرو، وحجر بن حجر واللفظ له، وأحمد **17185**.

مستحبة إن شئت فعلت وإن شئت تركت، فهذا تعارض وتناقض لا يقبل لا باللغة ولا بالشرع ولا بالعقل.

4 – قوله ﷺ: {كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَن أَبَى، قالوا: يا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَن يَأْبَى؟ قالَ: مَن أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَن عَصَانِي فقَدْ أَبَى}[1].

وبه؛ فإنَّ السنَّة حجَّة وإلا فلما العاصي في النار؟ وكذلك إن كانت كل السنة مندوبة، فدخول النار للعاصي ظلم له فكيف يدخل للنار في شيء يجوز تركه؟ وهذا يستحيل شرعا، وبه؛ فإن السنة حجة وهي شاملة لكل أحكام التكليف، لا فرق بينها وبين القرآن في الأحكام.

5 – قوله ﷺ: {أيُّهَا النَّاسُ قدْ فرضَ اللهُ عليكمُ الحجَّ فحجُّوا، فقالَ رجلٌ: أكلَّ عامٍ يَا رسولَ اللهِ؟ فسكتَ حتَّى قالهَا ثلاثًا، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: لوْ قلتُ نعمْ لوجبتْ، ولمَا استطعتمْ، ثمَّ قالَ: ذرونِي مَا تركتكمْ فإنَّمَا هلكَ منْ كانَ قبلكمْ بكثرةِ سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم...}[2].

وهذا الحديث فيه أعلى درجات الدلالة على حجيَّة السنَّة، وأنَّ منها الواجب ومنها ما دون ذلك في قوله ﷺ: {لوْ قلتُ نعمْ لوجبتْ}، أي لفرض عليكم الحج كلَّ عام.



[1] رواه البخاري عن أبي هريرة 7280.

[2] رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه 1337.

دلالة الإجماع على حجيَّة السنَّة:

فقد أجمع المسلمون على وجوب طاعة رسول الله ﷺ ولزوم سنَّته ﷺ[1].

1 – قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لم أسمع أحدا نسبه النَّاس أو نسب نفسه إلى علمٍ يُخالف في أنَّ فرض الله تعالى اتِّباع أمر رسول الله ﷺ والتسليم لحكمه... وأنَّ علينا وعلى من بعدنا وقبلنا في قبول الخبر عن رسول الله ﷺ واحدٌ، لا يختلف في أنَّ الفرض والواجب قبول الخبر عن رسول الله ﷺ...[2].

2 – وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: إنَّ المسلمين كلهم متفقون على وجوب اتِّباعها[3]. يريد السنة.

3 – وقال ابن حزم رحمه الله تعالى: إنَّ جميع أهل الإسلام كانوا على قبول الخبر الواحد الثقة عن النبي ﷺ، يجري على ذلك كل فرقة في علمها؛ كأهل السنة والخوارج والشيعة والقدرية، حتى حدث متكلمو المعتزلة بعد مائة عام من التاريخ، فخالفوا الإجماع في ذلك[4].

4 – وقال ابن عبد البر المالكي رحمه الله تعالى: أجمع أهل العلم من أهل الفقه والأثر في جميع الأمصار فيما علمت على قبول خبر الواحد العدل وإيجاب العمل به[5].

وقال العلائي رحمه الله تعالى: العلماء متفقون في كل عصر على التمسك في إثبات الأحكام بآيات القرآن العظيم وأحاديث السنة[6].

5 – وقال ابن القيم رحمه الله تعالى، في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: 59]، **الناس أجمعوا أنَّ الردَّ إلى الله سبحانه وهو الردُّ إلى كتابه، والرد إلى رسوله ﷺ هو الردُّ إلى نفسه في حياته وإلى سنَّته بعد وفاته ﷺ[7].**

---

[1] مجموع الفتاوى 92-19/82.

[2] جماع العلم للشافعي 3.

[3] مجموع الفتاوى 86-19/85.

[4] الإحكام في أصول الأحكام لابن حزم 113-1/114.

[5] التمهيد لابن عبد البر 1/ 2.

[6] تلقيح المفهوم في تنقيح صيغ العموم للعلائي 397.

[7] إعلام الموقعين لابن القيم 1/39.

الأصل الثالث الإجماع:

الإجماع لغة:

له معنيان: أحدهما: العزم على الأمر والقطع به، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: 71] أي: اعزموا عليه.

والثاني: هو الاتفاق، من قولهم: أجمع القوم على كذا أي: اتفقوا[1].

وفي الاصطلاح:

اختلف علماء الأصول في تعريف الإجماع بناء على اختلافهم في بعض شروطه، ونحن نقتصر على تعريف واحد منهم، فالإجماع هو:

اتِّفاق علماء الأمَّة بعد النبيِّ ﷺ في أيِّ عصر من العصور على أمر من أمور الشرع.

وقال آخرون: "على أمر من الأمور" ليشمل الإجماع على الأمر الشرعي كحل البيع، والإجماع على الأمر العقلي كاتفاقهم على استنباط حكم شرعي لم يكن فيه نص، والإجماع في الأمر اللغوي، كالفاء للتعقيب، والأمر الدنيوي كالحروب والعمران، ولا أرى الإجماع الواجب العمل به إلَّا الإجماع على أمر من أمور الشرع، أمَّا الإجماع اللغوي والدنيوي فيجوز فيه الخلاف، ولا يُعتبر إجماعا.

وعبر آخرون بلفظ "أهل الحل والعقد" بدلًا من المجتهدين، وعبَّر آخرون بلفظ "إجماع المجتهدين" بدلا من العلماء[2]، وأرى لفظ أهل العلم أولى وأصح، لما اشترط أهل البدع في المجتهد من شروط لا يقبلها عقل ولا نقل، فلفظ أهل العلم يفصل المسألة، بشرط أن يكونوا

---

[1] المصباح المنير: 1 ص 150، القاموس المحيط: 3 ص 15.

[2] يُنظر: تيسير التحرير: 3 ص 224. انظر التعريفات: ص 5، الإحكام، الآمدي: 1 ص 180، إرشاد الفحول: ص 71، حاشية العطار على جمع الجوامع: 2 ص 210. كشف الأسرار: 3 ص 946، المستصفى: 1 ص 173، مختصر ابن الحاجب: ص 55، المنهاج للبيضاوي: ص 73، أصول الفقه، أبو النور: 2 ص 178، الحدود في الأصول، الباجي: ص 63، شرح الكوكب الكبير: 2 ص 211، 213. بتصرف.

من أهل العلم لا من أهل البدع، فهؤلاء لا يقبل منهم حديث فضلا على أن يجمعوا على مسألة من مسائل الشرع.

حجيَّة الإجماع:

أجمع أهل المذاهب الصحيحة وأهل الحديث على حجيَّة الإجماع، ولم يُنكره إلَّا أهل البدع ممن لا يُعتدُّ برأيهم، كالمعتزلة والشيعة[1]...

ومن الأدلَّة على حجيَّة الإجماع:

قوله تعالى: قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾[البقرة: 143].

قال السعدي رحمه الله تعالى: وفي الآية دليل على أن إجماع هذه الأمة، حجة قاطعة، وأنهم معصومون عن الخطأ، لإطلاق قوله: {وَسَطًا} فلو قدر اتفاقهم على الخطأ، لم يكونوا وسطا، إلا في بعض الأمور، ولقوله: {لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ} يقتضي أنهم إذا شهدوا على حكم أن الله أحله أو حرمه أو أوجبه، فإنها معصومة في ذلك[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء: 115].

وهذا يوجب اتِّباع سبيل المؤمنين، ويُحرِّمُ مخالفتهم[3].

والمخالف للإجماع أو المنكر لحجِّيته هو متَّبع لغير سبيل المؤمنين.

ومن الأدلَّة قول النبيِّ ﷺ: {إنَّ اللَّهَ قد أجارَ أمَّتي أن تجتمِعَ علَى ضلالةٍ}[4].

وفي رواية: {إنَّ الله لا يجمعُ أمَّتي – أو قالَ : أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ – علَى ضلالةٍ ويدُ اللَّهِ معَ الجماعةِ ومَن شذَّ شذَّ إلى النَّارِ}[5].

---

[1] يُنظر: مجموع الفتاوي 341/11.

[2] تفسير السعدي 71.

[3] يُنظر: أحكام القرآن للشافعي 40/1، وروضة الناظر 442/2.

[4] حسنه الألباني في تخريج كتاب السنَّة 83.

[5] رواه الترمذي وصحَّحه 2167 من غير لفظة "ومن شذَّ".

وفي هذا الحديثِ يقولُ الرَّسولُ ﷺ: {إنَّ اللهَ لا يجمَعُ أُمَّتي– أو قال: أمَّةَ محمَّدٍ ﷺ – على ضلالَةٍ}، أي: لا تكونُ الأمَّةُ كلُّها مجتمِعةً على الزَّيغِ والميْلِ عن الحقِّ في قوْلٍ أو فعْلٍ أو اعتِقادٍ، بما يُخالِفُ ما علَّمه النَّبيُّ ﷺ لأمَّتِه، وذكَره اللهُ تعالى في كِتابِه، وأجمَعَ عليه الصَّحابة، {ويَدُ اللهِ مع الجماعَةِ}؛ أي: مؤيِّدٌ لها وعاصمها، وهذا دليل قاطع على حجيَّة الإجماع الصحيح.

وقوله ﷺ: {عليكمْ بالجماعةِ وإيَّاكمْ والفرقةَ، فإنَّ الشيطانَ معَ الواحدِ وهوَ من الاثنينِ أبعدُ، ومنْ أرادَ بحبوحةَ الجنَّةِ فليلزمِ الجماعة}[1].

والجماعة جماعتان، إمَّا جماعة أبدان أو جماعة أقوال، فأمَّا جماعة الأبدان فهذا متعذِّر؛ لاستحالة ملازمة جماعة متفرِّقين، كما أنَّ اجتماع الأبدان يشمل الكفار والمسلمين، فليس في لزوم الأبدان معنى معتبر، فدلَّ ذلك على أنَّ المراد هو اجتماع الأقوال.

ومن ذلك مارواه أنس رضي الله عنه قال: {مُرَّ بجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا، فَقالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا، فَقالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، قالَ عُمَرُ: فِدًى لكَ أَبِي وَأُمِّي، مُرَّ بجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرٌ، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَمُرَّ بجَنَازَةٍ، فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرٌّ، فَقُلْتَ: وَجَبَتْ، وَجَبَتْ، وَجَبَتْ؟ فَقالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: مَن أَثْنَيْتُمْ عليه خَيْرًا وَجَبَتْ له الجَنَّةُ، وَمَن أَثْنَيْتُمْ عليه شَرًّا وَجَبَتْ له النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ في الأرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ في الأرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ في الأرْضِ}[2].

وفي هذا الحديث شهد الرسول ﷺ للأول بالجنَّة وللثاني بالنَّار، وهذا لمَّا أجمع الصحابة على الشهادة في حق كل واحد منها، فإن كان الأمر كذلك، فالشهادات على الأحكام الفرعيَّة أولى بالقبول مما سبق.

قال الشافعي:

إذا كانت جماعتهم (أي: المسلمين) متفرقة في البلدان، فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان قوم متفرِّقين، وقد وُجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار،

---

[1] صحيح: رواه الترمذي 2165، والنسائي في الكبرى 9175، وأحمد 177، عن عمر، وصححه الألباني.

[2] أخرجه البخاري (1367)، ومسلم (949)

فلم يكن في لزوم الأبدان معنى؛ لأنَّه لا يمكن؛ ولأنَّ اجتماع الأبدان لا يصنع شيئا فلم يكن للزوم جماعتهم معنى، إلَّا ما على جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما.

ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين، فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أُمرَ بلزومها، وإنَّما تكون الغفلة في الفرقة، فأمَّا الجماعة فلا يُمكن فيها كافَّةً غفلة عن معنى كتاب، ولا سنَّة ولا قياس[1].



[1] **الرسالة للشافعي 473.**


الباب الثاني
أصول العقيدة

﴿الباب الثاني﴾

﴿أصول العقيدة﴾

أولا لابد لكل علم أو عبادة من أركان وأصول كي تقوم عليها، وإلا فهي لا أساس لها، والأركان مفردها ركن، وهي أصول الشيء وأسسه، وهو الجانب الأقوى، كما قال تعالى على لسان لوط عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: 80]، **والمراد بالركن هنا هو العشيرة التي تمنعه منهم، هذا على ما قرره أهل التفسير، والعشيرة هي أصل الرجل الذي يرجع إليه وسنده وقت المصائب، فهي أساس له وركيزته التي يرتكز عليها، وعليه فالأركان هي الركائز والأسس والأصول الأساسية التي يقوم عليها الشيء، كأركان الإسلام الخمسة التي يقوم بها الإسلام فهي أصول الإسلام، فإن اختلت واحدة عمدا، سقط كل الإسلام، وكذلك فإن للعقيدة ستة أصول تقوم عليها، فإن اختلت واحدة سقطت كل العقيدة، فينبغي على المؤمن أن يعتني بكل أركان العقيدة عناية تامة وهي على ما يلي:**

1 – الإيمان بالله.

2 – الإيمان بالملائكة.

3 – الإيمان بالكتب.

4 – الإيمان بالرسل.

5 – الإيمان باليوم الآخر.

6 – الإيمان بالقدر خيره وشره.

ودونك تفصيل ذلك:



﴿الفصل الأول﴾

﴿الإيمان بالله تعالى﴾

والإيمان بالله تعالى هو أصل أصول الإيمان وأعظمها شأنا، وهو على خمسة مباحث:

1 – تعريف اسم "الله" تعالى.

2 – الإيمان بوجود الله تعالى

3 – تعريف التوحيد.

4 – أقسام التوحيد.

5 – نواقض التوحيد.

وقد سبق وعرفنا الإيمان، ويبقى لنا تعريف اسم "الله" تعالى، وما تعلق بالله تعالى.



﴿المبحث الأول﴾

﴿تعريف اسم الله تعالى﴾

لفظ الجلالة "الله"، هو علم على الذات، فهو الدال على جميع الأسماء الحسنى، والصفات العليا، ولهذا تُضاف كل الأسماء الحسنى إلى اسم الله تعالى، كقول تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[الأعراف: 180]، وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾[طه: 8]، ويقال: الرحمن، الرحيم، القدير، العليم، كلها من أسماء الله تعالى، ولا يقال: "الله" من أسماء الرحمن، ولا من أسماء العليم، بل العكس.

لذلك يصفه البعض بـ: الفرد الجامع، أي: أنه وحده يجمع كل الأسماء وما فيها من صفات.

لفظ الجلالة "الله" لغة واصطلاحا:

قيل في لفظ الجلالة "الله"؛ أنه اسم مشتق، أصله "الإله"، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لامًا واحدةً مشددةً مفخمة "الله".

وروي عن سيبويه أنه اسم مشتق، فكان في الأصل "إلاه" مثل "فعال"، فأدخل الألف واللام بدلاً من الهمزة؛ مثل: الناس، أصله: إناس[1]، وقال غيره: أصله في الكلام "إله"، وهو مشتق من أله الرجل يأله إليه، إذا فزع إليه من أمر نزل به، فآلهه؛ أي: أجاره وآمنه، فسمي إلاهًا لأن الكلَّ يفزع إليه عند الشدائد، كما يسمى الرجل إمامًا إذا أمَّ الناس فأتمُّوا به.

ثم إنه لما كان اسمًا لعظيم ليس كمثله شيء، أرادوا تفخيمه بالتعريف الذي هو الألف واللام؛ لأنهم أفردوه بهذا الاسم دون غيره، فقالوا: الإله، واستثقلوا الهمزة في كلمة يكثر استعمالهم إياها، وللهمزة في وسط الكلام ضغطة شديدة، فحذفوها فصار الاسم كما نزل به القرآن،

---

[1] ينظر: الكتاب، لسيبويه، تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت (2/ 195)، وينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: محمود حسن، دار الفكر، الطبعة الجديدة، 1414هـ/ 1994م (1/ 29)، وتفسير البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (1/ 2)، وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384هـ/ 1964م، (1/ 102)، والجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي، تحقيق: فخر الدين ومحمد نديم، بيروت، 1983م (1/ 33)، والخصائص، لابن جني (3/ 150).

وقال الكسائي والفراء: أصله الإله، حذفوا الهمزة، وأدغموا اللام الأولى في الثانية، وعلى هذا؛ فالصحيح أنه مشتق من أله[1].

وأرادوا بالاشتقاق: المجازي، وهو ملاحظة المعاني وتقاربها، لا الحقيقي؛ لما فيه من الإيهام؛ وهو أسبقية المشتق منه على المشتق، وأسماء الله كلها أصلية، وقالوا: إن اسمه تعالى "الله" دال على صفة له سبحانه، وهي الإلهية أو الألوهية، كسائر أسمائه الحسنى؛ كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها، وهي قديمة، وهم لا يعنون بالاشتقاق إلا الملاقاة التامة للمصدر في اللفظ والمعنى، لا أنها متولدة عنها تولد الفرع من الأصل، حتى النحاة عندما يسمون المصدر والمشتق منه أصلاً وفرعًا إنما يعنون أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادةً، لا أن أحدهما متولد من الآخر، ويؤكد ابن جرير الطبري (ت 310هـ) في تفسيره أصل الاشتقاق، فيقول: وأما تأويل "الله" فإنه على معنى ما روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، قال: "هو الذي يُؤلِّهه كل شيء، ويعبده كل خلق"، وقال: "الله" ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، ومع تعدد الأقوال الواردة في الاشتقاق من أله، ووله، ولاه، فإن حجج الاشتقاق لهذا الاسم العظيم "الله" ثلاثة:

الأولى: كونه صفة خالصة في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾[الأنعام: 3]، وما دام صفةً خالصة فقد امتنع أن يكون اسمَ عَلَمٍ.

---

[1] ينظر: الأسماء والصفات، للبيهقي، تحقيق: عبدالله بن محمد الحاشدي، مكتبة السوادي، جدة، الطبعة الأولى، (1/ 58)، ومعارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، لحافظ بن أحمد حكمي، تحقيق عمر بن محمود أبو عمر دار ابن القيم، الدمام، الطبعة الأولى،1410هـ/ 1990م (1/ 67)، وأيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لجابر أبي بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الخامسة، 1424هـ/ 2003م (1/ 11)، والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبدالشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1413هـ/ 1993م، الطبعة الأولى (1/ 56)، وتفسير الماوردي، للماوردي، تحقيق: السيد بن عبدالمقصود بن عبدالرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان (1/ 50)، وتفسير ابن كثير (1/ 29)، وتفسير الخازن، للخازن، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1399 هـ/ 1979 م (1/ 17)، وتفسير القرطبي (1/ 103)، وزاد المسير في علم التفسير، لعبدالرحمن الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، 1404هـ (1/ 9)، وغيرها.

الثانية: أن العلم قائم مقام الإشارة، ولمَّا كانت الإشارة ممتنعة في حق الله تعالى، كان اسم العلم ممتنعًا في حقه.

الثالثة: اسم العلم إنما يصار إليه؛ ليتميز شخص من شخص آخر يشبهه، وهذا ممتنع – أيضًا – في حق الله تعالى؛ لأن الأعلام إنما وُضعت للفصل بين ما تشابه ويشتبه؛ ولذلك قال سيبويه: إن العَلَم كأنه مجموع صفات؛ يعني: أنه وضع لترك الإطالة بذكر الصفات، وامتنع أن يكون الله تعالى اسم علم لاستحالة الشبيه والنظير له تعالى[1].

وقيل: هو اسم جامد: مرتجل، ليس بمشتق ألبتة[2]، وإلى هذا ذهب أبو بكر بن العربي (ت 543هـ)، وأبو القاسم السهيلي (ت 581هـ)، وفخر الدين الرازي (ت 606هـ)، وكثير من الأصوليين والفقهاء، وقالوا: إن اسم "الله" غير مشتق؛ لأن الاشتقاق يستلزم مادةً يُشتق منها، واسمه تعالى قديم، والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق، وقالوا: إنه يدل على الذات مجردةً، من غير اعتبار أيِّ صفة، وعلى الوجود الحق الموصوف بصفات الجلال والكمال، دلالةً مطلقةً غير مقيدة بقيد؛ ولأن العرب عاملته معاملة الأسماء الأعلام في النداء، فجمعوا بينه وبين ياء النداء، فقالوا: يا الله، ولو كان مشتقًا لكانت ألفه ولامه زائدتين، وهما أصليتان لازمتان من أصل الكلمة، وردوا على القائلين بالاشتقاق بثلاث حجج أيضًا...

ويعقب ابن قيم الجوزية في كتاب "بدائع الفوائد بقوله:

إن اختلاف القائلين بالاشتقاق وعدمه، إنما هو اختلاف شكلي، أما اعتقادهم في أسماء وصفات الله تعالى كلها فهو أنها قديمة، والقديم لا مادة له[3]، ويؤكد ابن القيم أنه لا أهمية لهذا الاختلاف، وأنه لا يصل إلى المعنى، فيقول في كتاب "أسماء الله الحسنى": إن جميع أهل الأرض علمائهم وجهلائهم، ومن يعرف الاشتقاق ومن لا يعرفه، وعربهم وعجمهم، يعلمون أن "الله" اسم لرب العالمين، خالق السموات والأرض، الذي يحيي ويميت، وهو رب كل شيء ومليكه، فهم لا يختلفون في أن هذا الاسم يُراد به هذا المُسمَّى، وهو أظهر عندهم

---

[1] معنى لا إله إلا الله، للزركشي (ص: 114).

[2] السابق 106.

[3] ينظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي أبي عبدالله، تحقيق: هشام عبدالعزيز عطا وآخرين، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1416هـ/ 1996م (2/ 32)، وما بعدها.

وأعرف وأشهر من كل اسم وضع لكل مسمى، وإن كان الناس متنازعون في اشتقاقه، فليس ذلك بنزاع في فهم معناه.

وقال أيضًا: ولهذا كان القول الصحيح أن الله أصله الإله، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه، إلا مَن شذ منهم، وأن اسم الله تعالى هو الجامع لجميع معاني الأسماء الحسنى، والصفات العلى...[1].

وقيل: هو اسم سرياني، ومعناه، إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، أي: الخلق.

فقد ذكر اسم الله تعالى بلفظه المعروف في الإنجيل، ولا شكَّ أنَّ أصل لغة الإنجيل هي السريانية، وهذا ليس غريبا، فاسم الله تعالى كان معلوما قبل البعثة وفي عين الجاهلية الجهلاء كانوا يسمون الله باسمه الله، فقد كان يقول زهير في زمن الجاهلية:

بدا لي أن الله حق فزادني * إلى الحق تقوى الله ما كان باديا

ولكنَّ أهل العهد الجديد والقديم كانوا يوقرونه فلا يذكر اسم الله تعالى على شفتين متدنستين غير طاهرتين ولذلك استبدل بلفظ "آدوناى" أى السيد أو الرب، وفي المسيحية السريانية بلفظ "موريو" أو "موران" أي سيد السادة أو الرب أو الرب الأكبر أو الأعلى، والله أعلم.

وأمَّا كون أصله سريانياً قد رفضه البعض لأنَّ القرآن كله عربي خالص، وقال آخرون: أنه لما كان في كل الكتب وكل اللغات، ينطق بنفس اللفظ فهو اسم لكل اللغات، وهذا ما يليق بلفظ الجلالة "الله"، ولمَّا كان اسما يوافق جميع اللغات، ويفهم معناه الكل الجاهل والعالم، علم بذلك أنَّ اسم "الله" تعالى يراد به المعبود الذي لا يُعبد غيره، والذي تألهه القلوب محبة وتعظيما، فهو اسم عربي، وسرياني، وأعجمي، ويحمل على كل لسان، فهو عربي في القرآن، سرياني في التوراة والإنجيل، والله أعلم.

ويقول القائل: من أين عرفت جاهلية العرب أنَّ لفظ "الله" اسم لله تعالى؟

---

[1] بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية (2/ 473) وما بعدها، وينظر: تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي الشافعي، تحقيق: د. أحمد السايح د. السيد الجميلي، مركز الكتاب للنشر، القاهرة، مصر (ص: 3)، وشرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، لسعيد بن علي بن وهف القحطاني، راجعه: د. عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، مؤسسة الجريسي، الرياض، الطبعة الثانية (ص84).

ينظر: شبكة الألوكة مقالة أصل لفظ الجلالة "الله" عند سيبويه – أ. د. عبد الله أحمد جاد الكريم حسن.

فلا شكَّ أنَّ لهم مصدر، والجواب يكون؛ بأنه اسم معلوم من أول الخلق، وهو الله الإله الذي تألهه القلوب محبة وتعظيما.

وهو كما قال سيبويه، مشتق من أله الرجل يأله إليه، إذا فزع إليه من أمر نزل به، فآلهه؛ أي: أجاره وآمنه فسمي إلاهًا، كما يسمى الرجل إمامًا إذا أمَّ الناس فأتمُّوا به.

وليس قولنا أنه مشتق أي أنه متولد من لفظ أله، بل يدل المشتق منه على معنى المشتق.

والقرآن وما فيه موجود قبل خلق الكون من ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن: 1 – 4].

قال ابن عثيمين رحمه الله تعالى: وبدأ الله تعالى في الآية بتعليم القرآن قبل خلق الإنسان إشارة إلى أن نعمة الله علينا بتعليم القرآن أشد وأبلغ من نعمته بخلق الإنسان، وإلا من المعلوم أن خلق الإنسان سابقٌ على تعليم القرآن، لكن لما كان تعليم القرآن أعظمَ مِنَّةٍ من الله عز وجل على العبد قدمه على خلقه[1]. انتهى.

فتعليمه كان بعد خلق الإنسان، ولكن وجود القرآن وما فيه كان قبل خلق الإنسان بل هو متصل بالله تعالى، لأن القرآن كلام الله تعالى وكلامه سبحانه صفة من صفاته.

ويحتمل أن يكون سبحانه قد علم القرآن قبل خلق الإنسان، فيعلمه سبحانه للملائكة أو للملك الموكل به وهو جبريل ﷺ، ثم بعد ذلك خلق الإنسان، ثم علمه بيان ذلك القرآن، ويكون المقصود بالإنسان هنا هو رسول الله محمد ﷺ، كما قال ابن عباس وابن كيسان : الإنسان هاهنا يراد به محمد ﷺ[2].

ونخرج من هذا أنَّ اسم الله موجود بوجود الله تعالى بلفظه ومعاناه، وهو على ما هو عليه في كل الكتب واللغات، وقد وردت كلمة "الله" في القرآن الكريم 2557 مرة، وهذا مع اعتبار الحروف المقارنة، نحو "والله"، "فالله خير حافظاً"، ووردت كلمة "لله" 116 مرة. والله أعلم.

---

[1] لقاءات الباب المفتوح" (رقم/188).

[2] ينظر: تفسير القرطبي.

وعليه فإن اسم الله تعالى، من القرآن والقرآن كلام الله تعالى، وكلام الله تعالى صفة من صفاته، وصفة الكلام هي صفة ذاتية فعلية، فهو صفة ذاتية بمعنى أنها لم تحدث للرب سبحانه وتعالى، بل هي متعلقة بالذات، كما أن ذاته أولية لا بداية لها، فصفة الكلام أولية لا بداية لها. وكون الكلام صفة فعلية، بمعنى: أنها تتعلق بإرادة الله تعالى ومشيئته متى شاء، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: 82] فالله يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء سبحانه وتعالى، ويقولون: إن صفة الكلام قائمة بذاته، لئلا تكون شيئاً خارجاً عن ذاته كما يقول بعض المبتدعة، وهذا لا شك أنه كلام باطل[1].

وختاما: فإنَّ اسم الله تعالى، هو اسم أزلي، وهو جامع لكل الأسماء وما فيها من الصفات، ولو قلت هو سم الله العظيم لصدقت، ومعناه إله، وهو الذي تألهه القلوب محبة وتعظيما.

وألهَ يألهُ إلاهةَ، أي: عبد يعبد عبادة، ومنه قراءة ابن عباس: ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَٰهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127][2]، قال الطبري: وأما قوله: (وآلهتك)، فإن قراءة الأمصار على فتح "الألف" منها ومدِّها، بمعنى: وقد ترك موسى عبادتك (أي فرعون) وعبادة آلهتك التي تعبدها، وقد ذكر عن ابن عباس أنه قال: كان له بقرة يعبدها. انتهى

وقيل أنه إذا رأى بقرة حسناء أمرهم بعبادتها؛ لأن فرعون يُعبد ولا يَعبد، وقد روي عن ابن عباس ومجاهد أنهما كانا يقرآنها: (وَيَذَرَكَ وَإِلاهَتَكَ) بكسر الألف بمعنى: ويذرك وعبودتك[3].

ولفظ الجلالة "الله" أصله إله، على وزن فِعال، بمعنى مفعول، أي معبود، والألوهية هي العبودية.



[1] كتاب شرح لامية ابن تيمية– عمر العيد 23/11 بتصرف.

[2] (وَيَذَرَكَ وَإِلَاهَتَكَ) تعتبر من القراءات الشاذة، وليست من المتواتر، وكذا جاء في قراءة أبي بن كعب: وقَدْ تَرَكُوكَ أَنْ يَعْبُدُوكَ وآلِهَتَكَ.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

﴿المبحث الثاني﴾

﴿الإيمان بوجود الله تعالى﴾

إنَّ الإيمان بوجود الله تعالى أمر مفروض على العقول والأنفس، ولكن بما أنَّ علومنا علوم الدليل، وجب علينا الاستدلال بأدلة على إثبات وجوده سبحانه، وهذه الأدلة على أربعة أقسام:

الأول: دليل الفطرة.

الثاني: دليل العقل.

الثالث: دليل الحس.

الرابع: دليل النقل.



﴿القسم الأول﴾

﴿الأدلة الفطرية على وجود الله تعالى﴾

وجود الله عزَّ وجلَّ أمرٌ فِطْرِيٌّ، مغروزٌ في النَّفسِ البَشَرِيَّةِ:

وقد سبق وأشرنا إلى هذا سابقا من الصفحة 74 إلى الصفحة 76، وهنا نزيد تفصيلا من آيِ القرآن وحديث حبيب الرحمن ﷺ، وأقوال الرجال.

دليل الفطرة:

الفطرة في اللغة: فعلها ثلاثي وهو فطر، والحالة منه: الفطرة كالجلسة، وهي بمعنى الخلقة[1].

قال ابن فارس عن أصل هذه الكلمة: ... أصل صحيح يدل على فتح شيء وإبرازه، ومنه الفطرة: وهي الخلقة[2].

وفي اللسان: والفطرة تعني: الابتداء والاختراع[3].

والأمر ظاهر في أنه لا خلاف بين هذه المعاني الثلاثة، الخلقة، والابتداء، والاختراع.

واصطلاحا (شرعًا): قال الشيخ السعدي رحمه الله في تعريفها: هي الخلقة التي خلق الله عباده عليها وجعلهم مفطورين عليها وعلى محبة الخير وإيثاره وكراهية الشر ودفعه، وفطرهم حنفاء مستعدين لقبول الخير والإخلاص لله والتقرب إليه[4].

ودليل الفطرة راسخ في نفوس البشر إلا ما غُيِّر منها، والدليل إذا كان راسخاً في النفس بكونه قوياً لا يحتاج الشخص معه إلى استدلال، أي: طلب دليل خارجي، ولهذا فهو أصل لكل الأدلة الأخرى الدالة على الإقرار بوجود الرب سبحانه، فهي مؤيدة له ومثبتة للإقرار.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا﴾[الأعراف: 172].

---

[1] كتاب الموسوعة العقدية إشراف: علوي عبد القادر السقاف 154/1.

[2] (معجم مقاييس اللغة) (4/ 510) – مادة (فطر)

[3] لسان العرب 5/ 58، مادة (فطر)، والأصل أنه لابن الأثير في ((النهاية في غريب الحديث)) (3/ 457).

[4] بهجة قلوب الأبرار (ص: 64)

أي: اذكُرْ (يا مُحمَّدُ) حين استخرجَ ربُّك ذريَّةَ بني آدَمَ؛ بَعضَهم من ظهورِ بَعضٍ، وأخرَجَ جميعَ ذلك من صُلبِ آدَمَ؛ ليأخُذَ عليهم العَهدَ فقرَّرَهم على توحيدِه، فقال لهم: ألسْتُ أنا خالِقَكم ومَعبُودَكم؟ فقالوا: قد أقرَرْنا بذلك[1].

وعن أبي هُريرةَ رَضِي اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: {لَمَّا خلَقَ اللهُ آدمَ مَسحَ ظَهرَه، فسقَطَ مِن ظَهرِه كُلُّ نَسَمةٍ هو خالِقُها مِن ذُرِّيَّتِه إلى يومِ القيامةِ}[2].

وعن ابن عباس عن النبي ﷺ: {إنَّ اللهَ أخذَ الميثاقَ مِن ظهرِ آدمَ بِ (نعمانَ) يومَ عرفةَ، وأخرجَ من صُلبِه كلَّ ذريةٍ ذراها فنثرَهمْ بينَ يديهِ كالذَّرِّ، ثمَّ كلَّمَهُم قِبَلًا قال: أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى}[3].

وعن أنَسِ بنِ مالِكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {يقولُ اللهُ تعالى لأهوَنِ أهلِ النَّارِ عَذابًا يومَ القيامةِ: لو أنَّ لك ما في الأرضِ مِن شَيءٍ، أكنتَ تَفتَدِي به؟ فيقولُ: نعم، فيقولُ: أردتُ منك أهوَنَ من هذا وأنت في صُلبِ آدَمَ: ألَّا تُشرِكَ بي شيئًا، فأبيتَ إلَّا أن تُشرِكَ بي}[4].

قال ابن عاشور في تفسيرِ قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾[الرعد: 20] : المرادُ به الإيمانُ الذي أخذه اللهُ على الخَلْقِ، المشارُ إليه بقولِه: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ...، فذلك عَهْدُهم ربَّهم، وأيضًا بقَولِه: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

---

[1] يُنظر: ((التفسير المحرر – سورة الأعراف)) (ص: 681).

[2] أخرجه الترمذي (3076) واللفظ له، والبزار (8892)، والحاكم (3257). صححه الترمذي، وابن منده في ((الرد على الجهمية)) (79)، والحاكم على شرط مسلم.

[3] أخرجه أحمد في مسنده 2455، أخرجه ابن أبي عاصم في "السنة" 202 ، والنسائي في "الكبرى" 11191 ، والطبري 9/10-111 وابن أبي حاتم في "تفسيره"، والحاكم 2/544 والبيهقي في "الأسماء والصفات" ص 327/326 من طريق حسين بن محمد المروذي، بهذا الإسناد. وصححه الألباني.

وقوله : من ظهر آدم: أي: من ذريته، سمي ظهرا لخروجهم منه.

ونعمان: أي: عرفة.

ذرأها: بهمزة: أي: خلقها في ظهره، وأودعها فيه.

كالذر: واحدها الذرة، قيل: هي النملة.

قبلا: بكسر ففتح، أي: عيانا ومقابلة، لا من وراء حجاب، ومن غير أن يولي أمره غيره من الملائكة.

[4] أخرجه البخاري (6557)، ومسلم (2805).

لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي﴾ [يس: 60-61]، وذلك عَهدُ اللهِ لهم بأن يعبُدوه ولا يعبُدوا غيره، فحصل العهدُ باعتبارِ إضافتِه إلى مفعولِه وإلى فاعِلِه، وذلك أمرٌ أودَعَه اللهُ في فِطرةِ البَشَرِ، فنشأ عليه أصلُهم وتقَلَّده ذُرِّيَّتُه، واستمَرَّ اعترافُهم لله بأنَّه خالقُهم، وذلك من آثارِ عَهدِ اللهِ، وطرأ عليهم بعد ذلك تحريفُ عَهدِهم، فأخذوا يتناسَون وتشتَبِهُ الأمورُ على بعضِهم، فطرأ عليهم الإشراكُ لتفريطِهم النَّظَرَ في دلائِلِ التوحيدِ؛ ولأنَّه بذلك العَهدِ قد أودع اللهُ في فطرةِ العُقولِ السَّليمةِ دلائِلَ الوحدانيَّةِ لِمن تأمَّل وأسلم للدَّليلِ، ولكِنَّ المُشرِكين أعرضوا وكابروا ذلك العهدَ القائِمَ في الفطرةِ؛ فلا جَرَمَ أنْ كان الإشراكُ إبطالًا للعَهدِ ونقضًا له؛ ولذلك عُطِفت جملةُ: {وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} على جملةِ {يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ}[1].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: 10].

قال ابنُ كثيرٍ: هذا يحتَمِلُ شيئينِ:

أحدُهما: أفي وجودِه شَكٌّ؟! فإنَّ الفِطَرَ شاهدةٌ بوُجودِه، ومجبولةٌ على الإقرارِ به؛ فإنَّ الاعترافَ به ضروريٌّ في الفِطَرِ السَّليمةِ...

والمعنى الثَّاني: في قَولِهم: {أَفِي اللَّهِ شَكٌّ}، أي: أفي إلهيَّتِه وتفرُّدِه بوُجوبِ العِبادةِ له شكٌّ؟! وهو الخالِقُ لجَميعِ الموجوداتِ، ولا يستحِقُّ العبادةَ إلَّا هو وَحدَه لا شَريكَ له؛ فإنَّ غالبَ الأُمَمِ كانت مُقِرَّةً بالصَّانِعِ، ولكِنْ تعبُدُ معه غيرَه من الوَسائطِ التي يظنُّونها تنفَعُهم أو تقَرِّبُهم مِن اللهِ زُلفى[2].

وعن عِياضٍ المُجاشِعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رَسولَ الله ﷺ قال فيما يرويه عن ربِّه: {إنِّي خَلقتُ عبادي حُنَفاءَ كُلَّهم، وإنَّهم أتَتْهم الشَّيَّاطينُ فاجتالَتْهم عن دينِهم، وحَرَّمَت عليهم ما أحلَلْتُ لهم، وأمرَتْهم أن يُشرِكوا بي ما لم أُنَزِّلْ به سُلْطانًا}[3].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: {ما من مولودٍ إلَّا يُولَدُ على الفِطرةِ، فأبواه يُهَوِّدانِه أو يُنَصِّرانِه أو يُمَجِّسانِه، كما تُنتَجُ البهيمةُ بهَيمةً جمعاءَ، هل تُحِسُّون فيها من

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (13/ 125).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/482).

[3] أخرجه مسلم (2865).

جَدْعاءَ؟} ثمَّ يقولُ أبو هُريرةَ: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30] .

قال أبو الوليد الباجي: الفِطرةُ في كلامِ العَرَبِ: الخِلْقةُ؛ يقال: فَطَر اللهُ الخَلْقَ، بمعنى: خلَقَهم، وهو في الشَّرعِ: الحالةُ التي خُلِقوا عليها من الإيمانِ والمعرفةِ والإقرارِ بالرُّبوبيَّةِ؛ فمعنى هذا الحديثِ: أنَّ كُلَّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ التي خُلِقَ عليها من الإيمانِ[1].

وقال ابنُ الوزيرِ اليماني: إنَّ اللهَ تعالى قد فَطَر الخَلْقَ على مَعرفتِه، كما قال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: 30]، وأوضح ذلك رسول الله ﷺ، وزاده بيانًا بقَولِه: "كلُّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ"، واتَّفَق الكُلُّ على صحَّتِه، وهذه الفِطرةُ تقتضي الإيمانَ بنَفْسِها، وتُرجِّحُه على ما ينافيه... فمن قَبِلَها ولم يُعارِضْها بما هو دُونهَا مِن شُبَهِ المُبطِلين، أثابه اللهُ الزِّيادةَ في إيمانِه، ومَن عصى بعِنادٍ أو تقليدٍ لأبَوَيه أو شُيوخِه، استحَقَّ العُقوبةَ، كما قال تعالى: ﴿كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: 110][2].

وقال ابنُ أبي العِزِّ: لا شَكَّ أنَّ الإقرارَ بالرُّبوبيَّةِ أمرٌ فِطْريٌّ، والشِّركَ حادِثٌ طارِئٌ، والأبناءُ تقَلَّدوه عن الآباءِ، فإذا احتجُّوا يومَ القيامةِ بأنَّ الآباءَ أشركوا ونحن جرَينا على عادتِهم كما يجري النَّاسُ على عادةِ آبائِهم في المطاعِمِ والملابِسِ والمساكنِ، يُقالُ لهم: أنتم كنتُم مُعترفينَ بالصَّانعِ، مُقِرِّين بأنَّ اللهَ رَبُّكم لا شَريكَ له، وقد شَهِدتُم بذلك على أنفُسِكم[3].

وقال ابنُ رجَبٍ: العِبادُ وإن كانوا مَفطورينَ على مَعرِفةِ اللهِ ومحبَّته وتألُّهِه، فإنَّ كُلَّ مولودٍ يُولَدُ على الفِطرةِ، وهي سلامةُ القَلبِ، وقَبولُه وإرادتُه للحَقِّ الذي هو الإسلامُ، وتهيُّؤُه له، لكِنَّهم محتاجون أشدَّ الحاجةِ إلى ما يَحمِلُ به قوَّتَهم العِلْميَّةَ والعَمَليَّةَ، وهو العلِمُ النَّافِعُ والعَمَلُ الصَّالِحُ، وبذلك يَصيرون مُسلِمينَ بالفِعلِ، بعد أن كانوا مُسلِمينَ بالقوَّةِ؛ فلذلك أرسل اللهُ

---

[1] يُنظر: ((المنتقى شرح الموطأ)) (33/2).

[2] يُنظر: ((العواصم والقواصم)) (391/3).

[3] يُنظر: ((شرح الطحاوية)) (314/1).

الرُّسُلَ، وأنزل معهم الكُتُبَ؛ لِيُرشِدوا الخَلْقَ إلى ما فيه سَعادتُهم وفَلاحُهم في دُنياهم وآخِرتِهم[1].

وقال علي القاري: في فِطرةِ الخَلْقِ إثباتُ وُجودِ الباري... ولهذا لم يُبعَثِ الأنبياءُ إلَّا للتوحيدِ أي: توحيدِ العِبادةِ، لا لإثباتِ وُجودِ الصَّانِعِ[2].

ولتقرير أصل هذا الدليل دونكم بعض الأدلة الدالة على ذلك:

1 – لجوء الإنسان وفزعه إلى خالقه سبحانه، سواء كان هذا الإنسان موحداً أو مشركاً عند الشدة والحاجة:

إن بني آدم جميعاً يشعرون بحاجتهم وفقرهم، وهذا الشعور أمر ضروري فطري، إذ الفقر وصف ذاتي لهم، فإذا ألمت بالإنسان – حتى المشرك – مصيبة قد تؤدي به إلى الهلاك فزع إلى خالقه سبحانه والتجأ إليه وحده واستغنى به ولم يستغن عنه، وشعور هذا الإنسان بحاجته وفقره إلى ربه تابع لشعوره بوجوده وإقراره، فإنه لا يتصور أن يشعر الإنسان بحاجته وفقره إلى خالقه إلا إذا شعر بوجوده، وإذا كان شعوره بحاجته وفقره إلى ربه أمراً ضرورياً لا يمكنه دفعه، فشعوره بالإقرار به أولى أن يكون ضرورياً[3].

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[يونس: 12].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الْضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾[الإسراء: 67].

---

[1] يُنظر: ((مجموع رسائل ابن رجب)) (2/555).

[2] يُنظر: ((ضوء المعالي شرح منظومة بدء الأمالي)) (ص: 104).

[3] انظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) 8/ 532 – 533.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: 8].

وهذه الآيات عامَّة ليست خاصَّة بفئة معيَّنة من الإنس بل هي شاملة للمؤمن والكافر والمشرك، فكلهم يفزعون ويرجعون وينيبون إلى خالقهم حال الشدائد.

ورجوع الإنسان وإنابته إلى ربه عند الشدائد دليل على أنه يقر بفطرته بخالقه وربه سبحانه، وهكذا كل إنسان إذا رجع إلى نفسه أدنى رجوع عرف افتقاره إلى الباري سبحانه في تكوينه في رحم أمه وحفظه له، وعرف كذلك افتقاره إليه في بقائه وتقلبه في أحواله كلها، وتبقى هذه المعرفة في نفسه قوية لأن الحاجة استلزمتها، فتكون أوضح من الأدلة الكلية مثل افتقار كل حادث إلى محدث[1].

2 – ورود التكليف بتوحيد العبادة أولاً:

وجود الله تعالى أمر فطري، مغروز في النفس البشرية؛ فعندما خلق الله تعالى آدم عليه السلام أخذ منه، ومن ذريته، الشهادة على أنه ربهم ومعبودهم الحق فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172 – 173].

وقد كانت دعوة الأنبياء جميعاً تنبثق من هذا الأصل الفطري العظيم؛ وهو الإيمان بالله تعالى؛ والدعوة لتوحيده في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته، فما أثر عن أمة من الأمم إنكارها لوجود الله تعالى، إلا ما نسب إلى فرعون، والدهرية، ومع ذلك فقد كان إنكارهم إنكار ظاهريا

---

[1] انظر: مجموع الفتاوى 1/ 47 – 49 ودرء تعارض العقل والنقل 3/ 126 ودلائل التوحيد للقاسمي 191 – 192.

مع إقرار باطني، وذلك لقول الله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: 102].

قال الطنطاوي: قال موسى لفرعون ردًا على كذبه وافترائه: لقد علمت يا فرعون أنه ما أوجد هذه الآيات التسع إلا الله تعالى خالق السموات والأرض، وقد أوجدها سبحانه بصورة واضحة جلية، حتى لكأنها البصائر في كشفها للحقائق وتجليتها... وفي هذا الرد توبيخ لفرعون على تجاهله الحقائق، حيث كان يعلم علم اليقين أن موسى عليه السلام ليس مسحورًا ولا ساحرًا ، وأن الآيات التي جاء بها إنما هي من عند الله تعالى[1].

قال البغوي: قال ابن عباس: علمه فرعون ولكنه عاند قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا واسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْما وَعُلُوًّا﴾ [النمل: 14][2].

وأمَّا الدهرية: فهوم فرقة تحمل اعتقادا فكريا ظهر في فترة ما قبل الإسلام، ويشتقّ المصطلح من الدهر لاعتبارها الزمان أو الدهر السبب الأول للوجود وأنّه غير مخلوق ولا نهائي، وتعتبر الدهريّة أن المادّة لا فناء لها[3].

ويعدّ هذا الاعتقاد قريبًا من اعتقاد اللّادينيّة والإلحاد والمادّيّة، وذكر في القرآن عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[الجاثية: 24]**، وذكرهم أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني في كتابه الملل والنحل بـ "معطلة العرب" وقال أن بينهم ثلاث مجموعات:**

1 – مجموعة تنكر الخالق، والبعث.

2 – مجموعة تقرّ بالخالق، وتنكر البعث.

3 – مجموعة تقرّ بالخالق والخلق الأول، وتنكر الرسل.

---

[1] ينظر: تفسير الطنطاوي.

[2] ينظر: تفسير البغوي

[3] برهان الدين دلّو – جزيرة العرب قبل الإسلام، ص**621-623**.

وعليه: فحتى الدهرية من جملة فرقها توجد فرقة واحدة فقط تنكر الخالق، ومع ذلك فإنكارهم ليس كليًّا، بل هو مجرَّد احتمال، أي: احتمال عدمية الخالق، ودليله أنَّ بقية الفرق تثبت وجود الخالق وما علم بينهم من خلاف في هذا الأمر.

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأشهر من عرف تجاهله، وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن؛ كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء: 102]، **وقال تعالى عنه وعن قومه:** ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: 14][1].

ونصَّ ابن تيمية في موضع آخر على أن فرعون كان معترفاً بالله في الباطن، فقال: وفرعون لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، ولكن أظهر خلاف ما في نفسه؛ كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: 14].

وأما الدهرية فهم لم ينكروا وجود الله تعالى؛ كما قال الشهرستاني (ت 548): أما تعطيل العالم عن الصانع العليم، القادر الحكيم، فلست أراها مقالة، ولا عرفت عليها صاحب مقالة، إلا ما نقل عن شرذمة قليلة من الدهرية أنهم قالوا: كان العالم في الأزل أجزاء مبثوثة، تتحرك على غير استقامة، فاصطكت اتفاقاً؛ فحصل العالم بشكله الذي تراه عليه، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر وجود الصانع؛ بل هو يعترف بالصانع، لكنه يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق؛ احترازاً عن التعليل[2].

ومما يجب العلم به أن هذا المصطلح – أي (وجود الله تعالى) أو (إثبات الصانع)، أو (إثبات واجب الوجود)، وغيرها... هي مصطلحات مبتدعة، برزت في الوسط الإسلامي، مع ظهور فرق الابتداع، واختلاط المسلمين بأهل الشك والريب، من أهل البلاد المفتوحة، فما كانت البيئة الإسلامية تعرف مثل هذه المصطلحات المحدثة.

---

[1] انظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) 8/ 372.

[2] ابن تيمية ((ردء تعارض العقل والنقل)) (8/ 38) وانظر أبي العز الحنفي، ((شرح العقيدة الطحاوية)) (ص: 17).

ولعل مثل هذه المقالات روجها زنادقة البلاد المفتوحة؛ حقداً وحسداً على هذا الدين وأهله، عندما هالهم سرعة انتشاره وتقبله من أهل تلك البلاد، فعكف هؤلاء الزنادقة وغيرهم من القادة الدينيين على تأليف المقالات المنحرفة وزرع الشبه والريب بين المسلمين الجدد[1].

ومما يوضح هذا التعليل أن بلاد فارس والعراق وغيرها قد تعرضت إلى هجمات فكرية عنيفة من الصابئة ودهاقنة الفرق يعاونهم اليهود والنصارى، والسمنية الهنود، الذين كانوا يطوفون في البلاد الإسلامية ويزرعون الشبه والشكوك، ولا شك أن هذه الجماعات قد نشأت ونظمت نفسها، وبدأت عملها في القرن الأول الهجري[2].

ومن أمثلة ذلك ما روي أن مجموعة من الملاحدة سألوا[3]: ما الدلالة على وجود الصانع، فقال لهم: دعوني فخاطري مشغول بأمر غريب، قالوا: ما هو؟ قال: بلغني أن في دجلة سفينة عظيمة مملوءة من أصناف الأمتعة العجيبة؛ وهي ذاهبة وراجعة من غير أحد يحركها ولا يقوم عليها، فقالوا له: أمجنون أنت؟ قال وما ذاك؟ قالوا: أهذا يصدقه عاقل؟ فقال: فكيف صدقت عقولكم أن هذا العالم بما فيه من الأنواع والأصناف العجيبة وهذا الفلك الدوار السيار يجري وتحدث هذه الحوادث بغير محدث وتتحرك هذه المتحركات بغير محرم؟ فرجعوا على أنفسهم بالملام[4].

ومنها أيضاً أولئك السمنية الهنود الذين جادلوا الجهم بن صفوان (ت 128هـ) في الإله المعبود فتحير الجهم، ولم يدر ما يجيب وتوقف عن الصلاة أربعين يوماً حتى يتبين له ما يعبد بزعمه، ثم أحدثت هذه المجادلة الانحراف الكبير في عقلية الجهم؛ مما حدا به إلى نفي الصفات، وفتح باباً كبيراً من أبواب الشر في عقيدة الأمة[5].

فهذه الموجات الإلحادية التي غزت العالم الإسلامي في مراحل تكونه الأولى كانت من أهم الأسباب التي فتحت باب الجدل في وجود الله تعالى، وفي أسمائه وصفاته، على تلك الطريقة

---

[1] الشهرستاني ((نهاية الإقدام في علم الكلام)) (ص: 123 – 124).

[2] كتاب الموسوعة العقدية إشراف: علوي عبد القادر السقاف 154/1.

[3] نسب شارح الطحاوية هذه الحادثة لأبي حنيفة رحمه الله وأن الملاحدة سألوه هو (ص: 23) في حين نسبها ابن تيمية إلى بعض أهل العلم. ((درء تعارض)) 3/ 126.

[4] ابن تيمية ((درء التعارض)) 3/ 127.

[5] ((عقائد السلف)) الإمام أحمد بن حنبل ((الرد على الزنادقة)) 65.

المبتدعة المذمومة، التي خالفت ما جاء به الكتاب والسنة من تقرير هذه المسائل بالطريقة السهلة الميسرة المقبولة[1].

وقد نبه ابن تيمية رحمه الله تعالى على أن أصول هذه المقالات المبتدعة هم الجهمية وغيرهم من فرق الابتداع، فقال: إذا كانت معرفته والإقرار به ثابتاً في كل فطرة، فكيف ينكر ذلك كثير من النظار؛ نظار المسلمين وغيرهم، وهم يدعون أنهم يقيمون الأدلة العقلية على المطالب الإلهية، فيقال لهم ... أول من عرف في الإسلام بإنكار هذه المعرفة – هم أهل الكلام؛ الذين اتفق السلف على ذمهم، من الجهمية، والقدرية، وهم عند سلف الأمة من أضل الطوائف، وأجهلهم، ولكن انتشر كثير من أصولهم في المتأخرين؛ الذين يوافقون السلف على كثير مما خالفهم سلفهم الجهمية، فصار بعض الناس يظن أن هذا قول صدر في الأصل عن علماء مسلمين، وليس كذلك إنما صدر أولاً عمن ذمه أئمة الدين، وعلماء المسلمين[2].

وتبعا لهذا الانحراف ... في تقرير وجود الله تعالى عند الجهمية، والمبتدعة اتسع انحراف المتكلمين من المعتزلة وغيرهم، فاشترطوا النظر والاستدلال، والشك لحصول العلم بالصانع بزعمهم، وقد فند ابن تيمية هذا الزعم الباطل، فقال: ليس هذا قول أحد من سلف الأمة ولا أئمتها، ولا قاله أحد من الأنبياء والمرسلين، ولا هو قول المتكلمين، ولا غالبهم، بل هذا قول محدث في الإسلام، ابتدعه متكلمو المعتزلة، ونحوهم من المتكلمين الذين اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمهم، وقد نازعهم في ذلك طوائف من المتكلمين من المرجئة، والشيعة، وغيرهم، وقالوا: بل الإقرار بالصانع فطري ضروري بديهي، لا يجب أن يتوقف على النظر والاستدلال ... بل قد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن معرفة الله – تعالى –، والإقرار به لا يقف على هذه الطرق التي يذكرها أهل النظر[3].

---

[1] ابن تيمية ((مجموع الفتاوى)) 16/ 431 – جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي النجدي رحمه الله، وولده محمد.

[2] ابن تيمية ((نقض تأسيس الجهمية)) 5/ 473 – بتصرف – ت عبد الرحمن بن محمد العاصي وولده، وانظر ((مجموع الفتاوى)) 6/ 350 ونسبة هذه الطرق إلى المبتدعة والجهمية.

[3] انظر: العقيدة الإسلامية لعطا الله بخيت المعايطة – ص: 13.

قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله تعالى:

معرفة الله قسمان:

1 – معرفة وجود ومعاني، وهذا هو المطلوب منا.

2 – ومعرفة كنه وحقيقة، وهذا غير مطلوب منا؛ لأنه مستحيل.

يعني: لو قال قائل: تعرف الله مثلا: تعرف حقيقة ذاته وحقيقة صفاته؟ لكان الجواب: لا، لا نعلم ذلك وليس مطلوب منا، والوصول إلى ذلك مستحيل، فالمطلوب إذن معرفة الذات بالوجود ومعرفة الصفات بالمعاني، أما معرفة الكنه والحقيقة فهذا مما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فصار قول المؤلف في معرفة الله لا بد فيه من هذا التسديد، قوله: أول واجب على العبيد: أول واجب على الإنسان أن يعرف الله، وقالوا: المراد أول واجب لذاته، وأما أول واجب لغيره فهو النظر والتدبر الموصل إلى معرفة الله، فالعلماء قالوا: أول ما يجب على الإنسان أن ينظر فإذا نظر وصل إلى غاية وهي المعرفة فيكون النظر أول واجب لغيره، والمعرفة أول واجب لذاته، وقال بعض أهل العلم: إن النظر لا يجب لا لغيره ولا لذاته، لأن معرفة الله عز وجل معلومة بالفطرة، والإنسان مجبول عليها ولا يجهل الله عز وجل إلا من اجتالته الشياطين ولو رجع الإنسان إلى فطرته لعرف الله دون أن ينظر أو يفكر، قالوا: ودليل ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: "كلُّ مولودٍ يولدُ علَى الفطرةِ[1] وقوله سبحانه في الحديث القدسي: إِنِّي خلقتُ عبادِي حنفاءَ، فاجتالتهمُ الشَّياطينُ[2] فصار الصارف عن مقتضى الفطرة حادث وارد على فطرة سليمة، فأول ما يولد الإنسان يولد على الفطرة ولو ترك ونفسه في أرض برية ما عبد غير الله، ولو عاش في بيئة مسلمة ما عبد غير الله، وحينئذ تكون عبادته لله، إذا عاش في بيئة مسلمة يكون المقوم لها شيئين: وهما الفطرة والبيئة، لكن إذا عاش في بيئة كافرة فإنه حينئذ يحدث عليه هذا المانع لفطرته من الاستقامة، لقوله صلى الله عليه وسلم: "فأبواهُ يهوِّدانهُ أو ينصِّرانهُ أو يمجِّسانهُ[3]، إذن معرفة الله عز وجل لا تحتاج إلى نظر في الأصل، ولهذا عوام المسلمين الآن هل هم فكروا ونظروا في الآيات الكونية والآيات الشرعية

[1] رواه البخاري 1358 ومسلم 2658 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] رواه مسلم 2865 من حديث عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه.

[3] رواه البخاري 1308 ومسلم 2608 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

حتى عرفوا الله أم عرفوه بمقتضى الفطرة؟ ولا شك أن للبيئة تأثيراً، ما نظروا بل إن بعض الناس – والعياذ بالله – إذا نظر وأمعن ودقق وتعمق وتنطع ربما يهلك، كما قال صلى الله عليه وسلم: "هلكَ المتنطِّعونَ هلكَ المتنطِّعونَ هلكَ المتنطِّعون"[1]. انتهى

وخرجنا من هذا القسم أن إثبات وجود الله تعالى لا يحتاج إلى دليل؛ لأن الإنسان مفطور على معرفة الله تعالى، بل ومفطور على توحيده في ألوهيته وربوبيته سبحانه.



[1] رواه البخاري 1385 ومسلم 2658 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه – شرح العقيدة السفارينية للعثيمين.

﴿القسم الثاني﴾

﴿الأدلة العقلية على وجود الله تعالى﴾

العقلُ لغةً:

أصلُ مادَّةِ (عقل) تدلُّ علَى حُبسةٍ فِي الشَّيءِ أو مَا يقاربُ الحُبسةَ، من ذلكَ العقلُ، وهوَ الحابسُ عن ذميمِ القولِ والفعلِ[1].

والعقلُ أيضًا: نقيضُ الجهلِ، يقالُ: عَقِلَ يعقلُ عقلًا فهوَ عاقلٌ، والمعقولُ: مَا تعقِلُهُ فِي فؤادكَ، ويقالُ: هوَ مَا يُفهمُ منَ العقلِ[2].

وأصلُ العقلِ: الإمساكُ والاستمساكُ، كعقلِ البعيرِ بالعقالِ، وعقلِ الدَّواءِ البطنِ[3].

وقالَ الزبيديُّ: العقلُ هوَ العلمُ بصفاتِ الأشياءِ من حسنهَا وقبحهَا، وكمالهَا ونقصانهَا[4].

وهوَ مأخوذٌ منَ عقالِ الدَّابةِ، فكذلكَ العقلُ يمنعُ صاحبهُ منَ الكفرِ والجحودِ[5].

العقلُ اصطلاحًا:

عرَّفهُ ابنُ عطيَّةَ بأنَّهُ: الإدراكُ المانعُ منَ الخطأِ[6].

ويقولُ الأصفهانِي: هوَ القوَّةُ المتهيِّئةُ لقبولِ العلمِ، ويقالُ للعلمِ الذِي يستفيدهُ الإنسانُ بتلكَ القوَّةِ عقلٌ[7].

وقيلَ: إنَّ العقلَ هوَ المدركُ للأشياءِ علَى مَا هيَ عليهِ من حقائقِ المعانِي[8].

وأُسمِيَ العقلُ عقلًا: لأنَّهُ يعقلُ بهِ مَا ينفعهُ منَ الخيرِ، وَ ينعقلُ بهِ عمَّا يضرُّهُ[9].

---

[1] انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 69/4، مجمل اللغة، ابن فارس، 617/1.

[2] انظر: العين، الفراهيدي، 159/1، جمهرة اللغة، أبو بكر الأزدي، 939/2، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده المرسي، 205/1.

[3] انظر: المفردات، الأصفهاني، ص578.

[4] انظر: تاج العروس 18/30.

[5] انظر: معالم التنزيل، البغوي، 88/1.

[6] انظر: المحرر الوجيز، 137/1.

[7] انظر: المفردات ص577.

[8] الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 370/1.

[9] تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص51.

فالعقلُ يُميَّزُ بهِ الحقُّ والباطلُ، ويمنعُ صاحبهُ منِ ارتكابِ مَا يضرُّ.

وعليه فالعقل بين اللغة والاصطلاح: هو الحابس لذميم السلوك من أقوال وأفعال، فلا تسمع ولا ترى من صاحب العقل إلا حسنا، والمانع للجهل فيما علمه العقل، والممسك لعقال النفس عن شهواتها كما تُمسك الخيول بالعقال إذا جمحت[1]، وهو آلة التمييز بين الخير والشر، فيعقل العقل الشرَّ فلا يفعله، وهو آلة الإدراك، فيدرك العقل الخير فيفعله. اهـ

وإنَّ منْ أفضلِ نعمِ اللهِ تعالَى علَى عبادهِ نعمةُ العقلِ، فلولَا العقلُ لمَا عَرَفَ الإنسانُ دينَ الإسلامِ ولا النبوَّةَ، ولا الخيرَ والشرَّ، ولا الحقَّ والباطلَ، ولا المعروفَ والمنكرَ.

قالَ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

فاللَّهُ سبحانهُ وتعالَى فضَّلَ بنِي آدمَ علَى غيرهمْ منَ الجماداتِ والحيواناتِ، والنَّباتاتِ بهذَا العقلِ.

فإذَا فقدَ الإنسانُ العقلَ السَّليمَ الذِي يقودهُ إلَى الخيرِ ويبعدهُ عنِ الشرِّ، ويدرك به الحقاق والعلم، ويدفع به الجهل والوهم، فقد أصبحَ كالبهيمةِ التِي تأكلُ وتشربُ ولَا تعقلُ شيئًا، بل إنَّهَا خيرٌ منهُ كمَا فِي قولهِ تعالَى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: 179].

قالَ ابنُ حزمٍ: وَحَدُّ العقلِ ينطوِي فيهِ فعلُ الطَّاعاتِ والفضائلِ، واجتنابِ المعاصِي والرذائلِ، (وإدراك وجود الله تعالى وتوحيده) وقدْ نصَّ اللَّهُ تعالَى فِي كتابهِ علَى أنَّ منْ عصاهُ لَا يعقلُ.

---

[1] الجكاح: الخروج عن العادة والهيجان، تقول: جَمَحَتِ المرأةُ تَجْمَحُ جِماحاً من زوجها: خرجت من بيته إلى أهلها قبل أن يطلقها، ومثله طَمَحَتْ طِماحاً؛ قال:

إذا رأتني ذاتُ ضِغْنٍ حَنَّتِ * وجَمَحَتْ من زوجِها وأَنَّتِ

وفرسٌ جَمُوح إذا لم يَثْنِ رأْسَه. وجَمَحَ الفرسُ بصاحبه جَمْحاً وجِماحاً: ذهب يجري جرياً غالباً واعْتَزَّ فارسَه وغلبه.

قالَ تعالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: 10].

وَحَدُّ الحمقِ: استعمالُ المعاصِي والرذائلِ، (والكبر والشرك وإنكار وجود الله تعالى) وهوَ ضدُّ العقلِ، ولَا واسطةَ بينَ الحمقِ والعقلِ إلَّا السُّخفُ[1].

قال ابن القيم في أخبار الحمقى والمغفلين: وأوَّل العقلاء الحمقى إبليس:

فأول القوم إبليس، فإنه كان متعبداً مؤذناً للملائكة فظهر منه من الحمق والغفلة ما يزيد على كل مغفل، فإنه لما رأى آدم مخلوقاً من طين، أضمر في نفسه لئن فضلت عليه لأهلكنه، ولئن فضل علي لأعصينه. ولو تدبر الأمر لعلم أنه كان الاختيار قد سبق لآدم لم يطق مغالبته بحيلة ولكنه جهل القدر ونسي المقدار[2].

فإن كان هذا الكلام على من أقرَّ وجود الله تعالى ووحده في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعبد وارتقى حتى صار في مقام الملائكة، فكيف بمن ينكر وجود الله تعالى جملة وتفصيلا؟ اهـ.

كما أنَّ القرآنَ هوَ كتابُ العقلِ، وأنَّهُ بأكملهِ دعوةٌ لتحريرِ العقلِ من عقالهِ، وأنَّهُ يدعونَا بعباراتٍ تختلفُ فِي أسلوبهَا وتتّحدُ فِي معناهَا إلَى استعمالِ العقلِ ووزنِ كلِّ شيءٍ بميزانهِ.

قالَ تعالَى: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: 66، 67].

فقوله تعالى: (أَفَلا تَعْقِلُونَ) يعنِي: أليسَ لكم عقلٌ تعقلونَ بهِ أنَّ هذهِ الأصنامَ لَا تستحقُّ العبادةَ؟[3]، وتثبتون به وجود الله تعالى وتوحدونه سبحانه؟

كما قالَ تعالَى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ ۖ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[الزمر: 18].

[1] ينظر: الأخلاق والسير في مداواة النفوس، ص58 – بتصرف.

[2] أخبار الحمقى والمغفلين لابن القيم ص 63.

[3] لباب التأويل، الخازن، 229/3.

فقولهُ تعالَى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾ أيِ: المتَّصفونَ بهذهِ الصِّفةِ همُ الذينَ هداهمُ اللهُ فِي الدُّنيَا والآخرةِ، ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أيْ: ذَوُو العقولِ الصَّحيحةِ، والفطرِ المستقيمةِ[1]، التي لم تدخل عليها شوائب تكدر صفائها الأصلي وهو الإقرار بوجود الله تعالى وتوحيده.

فقولهُ: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أيِ: العقولِ السَّليمةِ عنْ منازعةِ الوهمِ والعادةِ، وفِي ذلكَ دلالةٌ علَى أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النَّفسِ لهاَ[2].

وممَّا سبقَ نجدُ أنَّ اللهَ سبحانهُ وتعالَى أكرمَ الإنسانَ بالعقلِ، وبهذَا العقلِ السَّليمِ اهتدَى لوجود اللهِ عزَّ وجلَّ ولوحدانيَّةِ، فأكرمهُ اللهُ تعالَى بالهدايةِ والعلمِ، ممَّا زادَ تقواهُ وخشيتهُ للهِ تعالَى، وهذَا فضلٌ منَ اللهِ تعالَى ومنَّةٌ لذوِي العقولِ السَّليمةِ والفطرةِ الصافيةِ.

وعليه: فوجودُ الله سُبحانَه ضَرورةٌ عقليَّةٌ، فلا يُمكِنُ لعَقلٍ سَليمٍ صَحيحٍ أن يُنكِرَ وُجودَه.

وهو أنه إذا فُرضَ جدلاً أن معرفة الله تعالى نظرية وطلب إقامة الأدلة على الإقرار به وبربوبيته، فإنه لابد من وجود علوم ضرورية فطرية أولية تنتهي إليها العلوم النظرية، ولا يمكن إثباتها بعلوم نظرية كذلك لما يلزم من الدور القبلي والتسلسل في المؤثرات.

وهذه العلوم الضرورية شرط وجودها صحة الفطرة وسلامتها، فبالفطرة السليمة مع حسن النظر يحصل المطلوب من العلم[3].

ويوضح هذا أن الذي يستدل لإثبات الرب سبحانه لابد أن ينقدح في نفسه أن الدليل الذي يستدل به هو بعينه يؤدي إلى مطلوبه الذي شعر به أولاً، فهاهنا أمران:

الأول: الشعور بمطلوبه.

والثاني: الدليل المؤدي إليه[4].

وبهذا يتضح أنه لولا ما في القلوب من الاستعداد لمعرفة الحقائق لما قام نظر ولا استدلال[5] والحقيقة المطلوبة هنا: معرفة وجود الله تعالى.

---

[1] تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 90/7.

[2] أنوار التنزيل، البيضاوي، 39/5.

[3] انظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) 3/ 309.

[4] انظر: ((مجموع الفتاوى)) 1/ 48

[5] انظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) 5/ 62.

ويوضحه كذلك: أن مجرد التعليم والتحضيض لا يحصل به العلم والإرادة لولا وجود قوة في النفس قابلة لذلك التعليم وتلك الإرادة، فإن البهائم والجمادات لو علمت وحضضت بوسائل تعليمية كالتي لبني آدم لما حصل لها ما يحصل لبني آدم مع أن الوسائل متفقة، مما يدل على أن القوابل مختلفة، والقابل هو مقتضى الفطرة.

قال اللهُ تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35].

قال أبو الحَسَنِ الأشعريُّ: إنَّ القُطنَ لا يجوزُ أن يتحَوَّلَ غَزلًا مفتولًا، ثمَّ ثوبًا منسوجًا بغيرِ ناسجٍ ولا صانعٍ ولا مُدَبِّرٍ، ومن اتَّخَذ قطنًا ثم انتظر أن يصيرَ غزلًا مفتولًا، ثم ثوبًا منسوجًا بغير صانعٍ ولا ناسجٍ، كان عن المعقولِ خارجًا، وفي الجَهلِ والجًا، وكذلك من قصد إلى بَرِّيَّة لم يجد فيها قصرًا مبنيًّا، فانتظر أن يتحوَّلَ الطِّينُ إلى الآجُرِّ، وينتَضِدَ بعضُه على بعضٍ بغيرِ صانعٍ ولا بانٍ، كان جاهلًا، وإذا كان تحوُّلُ النُّطفةِ عَلَقةً، ثمَّ مُضغةً، ثمَّ لحمًا ودمًا وعظمًا؛ أعظَمَ في الأعجوبةِ- كان أَولى أن يدُلَّ على صانعٍ صَنَع النُّطفةَ، ونقَلَها من حالٍ إلى حالٍ، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ * ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ [الواقعة: 58 - 59]، فما استطاعوا أن يقولوا بحُجَّةٍ: إنَّهم يَخْلقون ما يُمْنُون، مع تمنِّيهم الوَلَدَ فلا يكونُ، ومع كراهيتِهم له فيكونُ، وقد قال اللهُ تعالى منبِّهًا لخَلْقِه على وحدانيَّتِه: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: 21]، بَيَّن لهم عَجْزَهم وفَقْرَهم إلى صانعٍ صَنَعَهم، ومُدَبِّرٍ دَبَّرَهم[1].

كما أنَّ القاعدة الفاصلة في أي إثبات الوجود العقليِّ هي أنَّ: لا بُدَّ للضربة من ضارب.

فإن كان الأمر كذلك فلابد للفعل من فاعل، وبه فلابدَّ للخلق من خالق.

قال ابنُ تيميَّةَ: قد عُلِمَ بضَرورةِ العَقلِ أنَّه لا بُدَّ مِن موجودٍ قديمٍ غنيٍّ عمَّا سواه؛ إذ نحن نشاهِدُ حُدوثَ المحدَثاتِ، كالحيوانِ والمعدِنِ والنَّباتِ، والحادِثُ ممكنٌ ليس بواجِبٍ ولا ممتَنِعٍ، وقد عُلِمَ بالاضطرارِ أنَّ المحدَثَ لا بدَّ له من محدِثٍ، والممكِنَ لا بدَّ له من واجبٍ،

[1] يُنظر: ((اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع)) (ص: 18).

كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: 35]، فإذا لم يكونوا خُلِقوا من غيرِ خالِقٍ، ولا هم الخالِقون لأنفُسِهم، تعيَّنَ أنَّ لهم خالقًا خلقَهم[1].

وقال ابنُ كثيرٍ في تفسيرِه لهذه الآيةِ الكريمةِ: هذا المقامُ في إثباتِ الرُّبوبيَّةِ وتوحيدِ الأُلوهيَّةِ... أي: أَوُجِدُوا من غير مُوجِدٍ؟! أم هم أوجَدوا أنفُسَهم؟! أي: لا هذا ولا هذا، بل اللهُ هو الذي خلَقَهم وأنشَأَهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مَذكورًا[2].

وقال الكمالُ بنُ الهمامِ بعد أن ذَكَر جُملةً من الآياتِ في خَلْقِ الأرَضينَ والسَّمَاواتِ والإنسانِ والنَّباتِ: فمن أدار نَظَرَه في عجائِبِ تلك المذكوراتِ اضطرَّه إلى الحُكمِ بأنَّ هذه الأمورَ مع هذا الترتيبِ المحكَمِ الغريبِ، لا يستغني كلٌّ عن صانعٍ أوجَدَه، وحكيمٍ رتَّبه، وعلى هذا درَجَت كُلُّ العُقلاءِ إلَّا من لا عِبرةَ بمكابَرتِهم[3].

وكل ما يحصل من أحد فإنما هو بخلقه وتقديره وتسبيبه وتيسيره وهذه الحاجة التي توجب رجوعهم إليه حال اضطرارهم كما يخاطبهم بذلك في كتابه وهم محتاجون إليه من جهة ألوهيته فإنه لا صلاح لهم إلا بأن يكون هو معبودهم الذي يحبونه ويعظمونه ولا يجعلون له أندادا يحبونهم كحب الله بل يكون ما يحبونه سواه كأنبيائه وصالحي عباده إنما يحبونهم لأجله كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال "ثلاثٌ من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمانِ: من كان اللهُ ورسولهُ أحب إليه ممَّا سواهمَا ومن كان يحبُّ المرء لا يحبُّه إلا لله ومن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار[4] ومعلوم أن السؤال والحب والذل والخوف والرجاء والتعظيم والاعتراف بالحاجة والافتقار ونحو ذلك مشروط بالشعور بالمسئول المحبوب المرجو المخوف المعبود المعظم الذي تعترف النفوس بالحاجة إليه والافتقار الذي تواضع كل شيء لعظمته واستسلم كل شيء لقدرته وذل كل شيء لعزته، فإذا كانت هذه الأمور مما تحتاج النفوس إليها ولا بد لها منها بل هي ضرورية فيها كان شرطها ولازمها وهو الاعتراف بالصانع به أولى أن يكون في النفوس وقول النبي ﷺ في الحديث

---

[1] يُنظر: ((التدمرية)) (ص: 20).

[2] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (437/7).

[3] يُنظر: ((المسايرة في علم الكلام والعقائد التوحيدية المنجية في الآخرة)) (ص: 7).

[4] رواه البخاري 16 ومسلم 43 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

الصحيح: "كلُّ مولودٍ يولدُ علَى الفطرةِ[1]، ويروي عن ربه: "خلقتُ عبادي حنفاءَ[2]، ونحو ذلك لا يتضمن مجرد الإقرار بالصانع فقط بل إقرارا يتبعه عبودية لله بالحب والتعظيم وإخلاص الدين له وهذا هو الحنيفيَّة وأصل الإيمان قول القلب وعمله أي علمه بالخالق وعبوديته للخالق والقلب مفطور على هذا وهذا وإذا كان بعض الناس قد خرج عن الفطرة بما عرض له من المرض إما بجهله وإما بظلمه فجحد بآيات الله واستيقنتها نفسه ظلما وعلوا لم يمتنع أن يكون الخلق ولدوا على الفطرة[3].

كون الخالِقِ والمَخلوقِ يَشتَرِكانِ في صِفةِ الوُجودِ لا يعني أنَّ صِفةَ وُجودِهما واحِدةٌ:

وجودُ الخالقِ غيرُ وجودِ المخلوقِ، فلكُلٍّ منهما ما يناسِبُه ويختَصُّ به، ومن ذلك أنَّ وجودَ اللهِ تعالى لم يسبِقْه عَدَمٌ، ولا يَلحَقُه زوالٌ، بخلافِ جمَيعِ المخلوقاتِ، فهي حادثةٌ بعد أن كانت عدَمًا، ثمَّ مَصيرُها في الدُّنيا إلى فَناءٍ.

قال اللهُ تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3][4].

وعن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال: أتت فاطمةُ النبيَّ ﷺ تسألُه خادِمًا، فقال لها: "قُولي: اللهمَّ رَبَّ السَّمَواتِ، وربَّ الأرضِ، ورَبَّ العَرْشِ العَظيمِ، ربَّنا ورَبَّ كُلِّ شَيءٍ، فالِقَ الحَبِّ والنَّوى، ومُنزِلَ التَّوراةِ والإنجيلِ والفُرقانِ، أعوذُ بك من شَرِّ كلِّ شَيءٍ أنت آخِذٌ بناصيتِه، اللهمَّ أنت الأوَّلُ فليس قَبْلَك شيءٌ، وأنت الآخِرُ فليس بَعْدَك شيءٌ، وأنت الظَّاهِرُ فليس فوقَك شيءٌ، وأنت الباطِنُ فليس دُونَك شيءٌ؛ اقْضِ عنَّا الدَّينَ، وأغنِنا مِنَ الفَقرِ[5].

قال ابنُ الوزيرِ اليماني عن صِفةِ الوُجودِ والحياةِ: يُطلَقانِ على اللهِ تعالى على صِفةِ الكَمالِ الذي لا يَستلزِمُ صِفةَ نَقصٍ، وعلى عِبادِه على وُجوهٍ تَستَلزِمُ جوازَ الفَناءِ والموتِ والمرَضِ، واعتراضَ الآفاتِ والعِلَلِ[6].

---

[1] رواه البخاري 1357 ومسلم 2657 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] مسلم 2865.

[3] درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – 2/ 24.

[4] ينظر : موقع الدرر السنية (وجود الله) بتصرف.

[5] أخرجه مسلم (2713).

[6] يُنظر: ((إيثار الحق على الخلق)) (ص: 277).

وقال ابنُ تيميَّةَ: إذا كان من المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ في الوُجودِ ما هو قديمٌ واجبٌ بنَفْسِه، وما هو مُحدَثٌ مُمكِنٌ، يَقبلُ الوجودَ والعَدَمَ، فمعلومٌ أن هذا موجودٌ، وهذا موجودٌ، ولا يلزمُ من اتفاقِهما في مسمَّى «الوجودِ» أن يكونَ وجودُ هذا مِثلَ وُجودِ هذا، بل وجودُ هذا يخصُّه، ووجودُ هذا يخصُّه، واتفاقُهما في اسمٍ عامٍّ لا يقتضي تماثُلَهما في مُسَمَّى ذلك الاسمِ عند الإضافةِ والتَّقييدِ والتَّخصيصِ، ولا في غيرِه[1].

وقال ابنُ أبي العِزِّ: كلُّ من نفى صفةً من صِفاتِ اللهِ تعالى؛ لامتِناعِ مسمَّى ذلك في المخلوقِ؛ فإنَّه لا بدَّ أن يُثبِتَ شَيئًا لله تعالى على خِلافِ ما يَعهَدُه حتى في صفةِ الوُجودِ؛ فإنَّ وجودَ العَبدِ كما يليقُ به، ووجودَ الباري تعالى كما يليقُ به، فوجودُه تعالى يَستحيلُ عليه العَدَمُ، ووجودُ المخلوقِ لا يستحيلُ عليه العدَمُ، وما سمَّى به الرَّبُّ نَفْسَه وسمَّى به مخلوقاتِه، مِثلُ الحَيِّ والعَليمِ والقَديرِ، أو سمَّى به بَعضَ صِفاتِه، كالغَضَبِ والرِّضا، وسمَّى به بَعضَ صفاتِ عِبادِه؛ فنحن نعقِلُ بقُلوبِنا معانيَ هذه الأسماءِ في حقِّ اللهِ تعالى، وأنَّه حقٌّ ثابتٌ موجودٌ، ونعقِلُ أيضًا معانيَ هذه الأسماءِ في حقِّ المخلوقِ، ونَعقِلُ أنَّ بيْن المعنيينِ قَدْرًا مُشتَرَكًا[2].

وجاء في فتاوى اللَّجنةِ الدَّائِمةِ: وجودُ الله معلومٌ من الدِّينِ بالضَّرورةِ، وهو صفةٌ للهِ بإجماعِ المسلِمينَ، بل صفةٌ لله عند جميعِ العُقَلاءِ حتى المشركينَ، لا ينازِعُ في ذلك إلَّا ملحِدٌ دَهْريٌّ، ولا يَلزمُ من إثباتِ الوُجودِ صِفةً لله أن يكونَ له مُوجِدٌ؛ لأنَّ الوجودَ نَوعانِ:

الأوَّلُ: وجودٌ ذاتيٌّ، وهو ما كان وجودُه ثابتًا له في نَفْسِه، لا مكسوبًا له من غيرِه، وهذا هو وجودُ الله سُبحانَه وصفاتِه؛ فإنَّ وجودَه لم يسبِقْه عدَمٌ، ولا يلحَقُه عدَمٌ، ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3].

الثَّاني: وجودٌ حادثٌ، وهو ما كان حادِثًا بعد عَدَمٍ، فهذا الذي لا بدَّ له من مُوجِدٍ يُوجِدُه، وخالِقٍ يُحدِثُه، وهو اللهُ سُبحانَه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: 62، 63]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ

---

[1] يُنظر: ((التدمرية)) (ص: 20).

[2] يُنظر: ((شرح الطحاوية)) (686/2).

الْخَالِقُونَ * أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴾[الطور: 35، 36]، وعلى هذا يوصَفُ اللهُ تعالى بأنَّه موجودٌ، ويُخبَرُ عنه بذلك في الكلامِ، فيقال: اللهُ موجودٌ، وليس الوجودُ اسمًا بل صِفةٌ[1].

لمْ يُعرَف التَّظاهُرُ بإنكارِ وُجودِ اللهِ تَعالى في تاريخِ الأُمَمِ إلَّا عن شِرذِمةٍ قليلةٍ مُكابِرةٍ:

قال الشهرستاني: أمَّا تعطيلُ العالَمِ عن الصَّانِعِ العالِمِ القادِرِ الحَكيمِ، فلستُ أراها مَقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحِبَ مقالةٍ، إلَّا ما نُقِلَ عن شِرْذِمةٍ قليلةٍ مِن الدَّهريَّةِ أنَّهم قالوا: العالَمُ كان في الأزَلِ أجزاءً مَبثوثةً تتحَرَّكُ على غيرِ استقامةٍ، واصطكَّت اتِّفاقًا؛ فحصل العالَمُ بشَكْلِه الذي تراه عليه!!... ولستُ أرى صاحِبَ هذه المقالةِ مِمَّن يُنكِرُ الصَّانِعَ، بل هو مُعترِفٌ بالصَّانِعِ، لكِنَّه يُحيلُ سبَبَ وُجودِ العالَمِ على البَحثِ والاتِّفاقِ؛ احترازًا عن التَّعليلِ، فما عَدَدتُ هذه المسألةَ مِن النَّظَريَّاتِ التي يُقامُ عليها برهانٌ؛ فإنَّ الفِطَرَ السَّليمةَ الإنسانيَّةَ شَهِدَت بضَرورةِ فِطْرتِها وبَديهةِ فِكرتِها على صانعٍ حكيمٍ عالمٍ قَديرٍ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[إبراهيم: 10]، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾[الزخرف: 9]، وإن هم غَفَلوا عن هذه الفِطْرةِ في حالِ السَّرَّاءِ فلا شَكَّ أنَّهم يلوذون إليه في حالِ الضَّرَّاءِ ﴿دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[يونس: 22] ... ولهذا لم يَرِدِ التَّكليفُ بمَعرفةِ وُجودِ الصَّانعِ، وإنَّما ورد بمَعرِفةِ التَّوحيدِ، ونَفْيِ الشَّريكِ[2].

وقال ابنُ تيميَّةَ: أشهرُ من عُرِفَ تجاهُلُه وتظاهُرُه بإنكارِ الصَّانِعِ فِرعَونُ، وقد كان مُستيقِنًا في الباطِنِ، كما قال له موسى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾[الإسراء: 102] ... أظهر خلافَ ما في نَفْسِه، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[النمل: 14][3].

---

[1] يُنظر: ((فتاوى اللجنة الدائمة – المجموعة الأولى)) (**190/3**).

[2] يُنظر: ((نهاية الإقدام في علم الكلام)) (ص: **74**).

[3] يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) (**38/8، 440**).

وقد نشَأَت مُصطَلَحاتٌ وطُرُقٌ مُحدَثَةٌ في بابِ ثُبوتِ وُجودِ اللهِ تعالى أحدَثَتها بَعضُ الفِرَقِ المُبتَدِعةِ مِثْلُ الجَهْميَّةِ:

فقد حكى أحمَدُ بنُ حَنبَلٍ مُجادَلةَ جماعةٍ مِنَ السُّمَنيَّةِ[1] للجَهْمِ بنِ صَفوانَ، في وجودِ اللهِ تعالى، فسألُوه إن كان قد عَرَف اللهَ تعالى بشَيءٍ من الحواسِّ الخَمسِ، فتحيَّرَ الجَهمُ فلم يَدْرِ مَن يَعبُدُ أربعينَ يَومًا، ثمَّ استدرك حُجَّة مِثلَ حُجَّةِ زنادقةِ النَّصارى الذين يَزعُمونَ أنَّ الرُّوحَ الذي في عيسى هو رُوحُ اللهِ من ذاتِ اللهِ، فإذا أراد أن يُحدِثَ أمرًا دَخَل في بَعضِ خَلْقِه، فتكلَّم على لِسانِ خَلْقِه، فيأمُرُ بما يشاءُ، وينهى عمَّا يَشاءُ، وهو رُوحٌ غائبةٌ عن الأبصارِ، وتأوَّل بَعضَ آياتِ القُرآنِ، وكذَّب بأحاديثِ النَّبيِّ ﷺ، وزعم أنَّ من وصف اللهَ تعالى بشَيءٍ ممَّا وصَفَ به نفسَه في كتابِه أو حدَّث عنه رسولُه ﷺ، كان كافِرًا، وكان مِنَ المشَبِّهةِ، فأضلَّ بكلامِه بَشرًا كثيرًا[2].

فهذه الموجاتُ الإلحاديَّةُ التي غَزَت العالَمَ الإسلاميَّ كانت من الأسبابِ التي فتحَت بابَ الجدَلِ في وُجودِ اللهِ تعالى، وفي أسمائِه وصِفاتِه، على الطَّريقةِ المُبتَدَعةِ المذمومةِ التي خالفَت مَنهَجَ الكِتابِ والسُّنَّةِ في تقريرِ هذه المسائِلِ بالطَّريقةِ الواضِحةِ الميسَّرةِ المقبولةِ.

قال ابنُ تيميَّةَ مُفَنِّدًا قَولَ من اشتَرَط النَّظَرَ والاستِدلالَ بالأقيسَةِ العَقليَّةِ؛ لحُصولِ العِلمِ بالصَّانِعِ: ليس هذا قولَ أحدٍ من سَلَفِ الأمَّة ولا أئمَّتِها، ولا قاله أحدٌ من الأنبياءِ والمرسَلينَ، ولا هو قَولُ كُلِّ المتكلِّمين، ولا غالِبِهم، بل هذا قولٌ مُحدَثٌ في الإسلامِ، ابتدعه متكَلِّمو المعتَزِلةِ، ونحوُهم من المتكلِّمين الذين اتَّفق سَلَفُ الأُمَّة وأئمَّتُها على ذَمِّهم، وقد نازعهم في

---

[1] السمنية السَمَنيّة أو الشُّمَنية لفظ مشتق من اللغة البالية سَمَنَه، والتي بدورها مشتقة من السنسكريتية، وتلفظ شرَمَنَه، والتي تعني الباحث أو المتصوف، والكلمة مشتقة من (ش ر م) بمعنى اجتهد في التنسك، هي حركات صوفية ظهرت في الألفية الأولى قبل الميلاد في الهند وقامت على مبادئها البوذية والجاينية وبعض الفرق الصوفية الهندوسية، مبنية على عقائد مشتركة كالتناسخ والكارما ولكنها سلكت منهجاً حراً في التعبد والتنسك لا يلتزم بطقوس ولا نصوص، وهم ينكرون كل شيء من العلم سوى الحسيَّات أي الملموسات، فلا إله ولا وقيامة ولا بعث ولا حساب ولا أي شيء من الغيبيات.

ينظر: أقرب الموارد في فصح العربية و الشوارد , ج2 , ص721، وأبو الريحان البيروني، تحقيق ما للهند من مقولة، ص 19، والتعريفات الفقهية ج1 ص116.

[2] يُنظر: ((الرد على الجهمية والزنادقة)) (ص: 93)، ويُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) لابن تيمية (168/5).

ذلك طوائِفُ من المتكَلِّمين من المُرجِئة، والشِّيعةِ، وغَيرِهم، وقالوا: بل الإقرارُ بالصَّانعِ فِطْريٌّ ضَروريٌّ بَديهيٌّ، لا يجِبُ أن يتوقَّفَ على النَّظَرِ والاستِدلالِ، بل قد يقولون: يمتَنِعُ أن يحصُلَ بالقياسِ والنَّظَرِ، وهذا قولُ جماهِيرِ الفُقَهاءِ والصُّوفيَّةِ وأهلِ الحديثِ والعامَّةِ وغَيرِهم، بل قد اتَّفق سلَفُ الأُمَّة وأئمَّتُها على أنَّ مَعرِفةَ اللهِ والإقرارَ به لا تَقِفُ على هذه الطُّرُقِ التي يذكُرُها أهلُ طريقةِ النَّظَرِ[1].



[1] يُنظر: ((بيان تلبيس الجهمية)) (570/4). وموقع الدرر السنية (وجود الله) بتصرف.

﴿القسم الثالث﴾

﴿الأدلة الحسية على وجود الله تعالى﴾

الحسُّ لغة:

الحس بكسر الحاء، له كثير من المعاني وكذلك بفتحها، فالحس أصله: (ح س س)، مصدر حَسَّ وأحسَّ، تقول: حسَّ يحسُّ إحساسا، وهو مَا يُدْرِكُهُ الْمَرْءُ بِإِحْدَى حَوَاسِّهِ الخَمْسِ، وهو الإحساس عموما[1].

الحس اصطلاحا:

الحسّ في اصطلاح الفلاسفة: عبارة عن قوّة للنّفس مدركة للمحسوسات، فهو إدراك النّفس صور ذوات الطّين في طينتها بأحد سبل القوّة الحسّيّة.

والمراد بالحس عموما: هو عكس الغيب، فكل ملموس، أو مشموم، أو مسموع، أو متذوَّقٍ، أو منظور، فهو محسوس، والعالم الظاهر مُدرك بإحدى هذه الحواس الخمسة.

ويقابله عالم الغيب، أي الذي لا يدرك بالحس، بل يدرك بالعقل أو الفطرة، ويسمي المتصوفة عالم الحس بعالم الأشباح، وعالم الغيب بعالم الأرواح، ومصطلحهم هذا صحيح، فقد جاء في لسان العرب: أَسماءُ الأَشباحِ وهو ما أَدركته الرؤية والحِسُّ، الشَّبْحُ والشَّبَحُ: الشخص، والجمع أَشباح و شُبوح[2].

وجاء في العين: ما بدا لك شخصه من الخلق[3].

فيدل الشبح على الظاهر المحسوس بأيِّ حاسة من الحواس الخمس.

ويريدون بالأرواح، جمع روح، بضم الراء، وهي كما قال تعالى فيها: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85]، **فالروح غيب بحت[4]، فقد قيل**

---

[1] ينظر: معاجم اللغة مادة ح س س.

[2] لسان العرب ج2 ص494.

[3] العين للفراهيدي: ج3 ص99.

[4] البحت: الخالص الصافي الصرف، اذي لم يخلط بشيء والخالي من الشوائب، والشوائب: جمع شائبة، وهو: ما يختلط بالشيء من أقذار وأدناس.

في الروح، أنه جبريل ﷺ لقوله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ [الشعراء: 193]، وقيل كما عند الطبري: هو ملك من الملائكة له سبعون ألف وجه، لكل وجه منها سبعون ألف لسان، لكل لسان منها سبعون ألف لغة يسبح الله عزّ وجلّ بتلك اللغات كلها، يخلق الله من كلّ تسبيحة مَلكا يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة[1]، وقيل هي النفس، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة: 55]، قال البغوي: وتزهق أنفسهم، أي: تخرج[2]، وقال الطبري: فإنه يعني وتخرج أنفسهم[3]، ولقول النبي ﷺ: {الميّتُ تحضرُهُ الملائِكَةُ، فإذا كانَ الرَّجلُ صالحًا، قالوا: اخرجي أيَّتُها النَّفسُ الطَّيِّبةُ، كانت في الجسدِ الطَّيِّبِ...}[4].

وعند ابن كثير في تفسيره: عن البراءِ بنِ عازبٍ: أن الملائكةَ تقولُ لروحِ المؤمنِ: اخرجي أيَّتها الروحُ الطيبةُ...[5]

وقال النبي ﷺ: {إذا أوَى أحَدُكُمْ إلى فِراشِهِ، فَلْيَنْفُضْ فِراشَهُ بداخِلَةِ إزارِهِ؛ فإنَّه لا يَدْرِي ما خَلَفَهُ عليه، ثُمَّ يقولُ: باسْمِكَ رَبِّ، وضَعْتُ جَنْبِي، وبِكَ أرْفَعُهُ، إنْ أمْسَكْتَ نَفْسِي فارْحَمْها، وإنْ أرْسَلْتَها فاحْفَظْها بما تَحْفَظُ به عِبادَكَ الصَّالِحِينَ}[6].

فالروح في الصحيح هي النفس، ولكن إن كانت جبريل أو الملائكة عموما أو ملكا خاصا، أو النفس التي تخرج عند الموت، فكلها دالة على غيب غير محسوس، بل يدرك بالعقل غالبا وبالفطرة في أحوال معينّة مثل إثبات وجود الله تعالى، والإنابة إليه في النوائب، وتوحيده سبحانه.

ودلالة الحس الذي أطلنا في تعريفها على وجود الله تعالى؛ فإن الإنسان لمَّا يدعو الله عز وجل، يقول: يا رب، فيدعو بالشيء ويستجاب له فيه، فهذه دلالة حسية، وهو نفسه لم يدع

[1] ينظر: الطبري، شرح سورة الإسراء آية 85.

[2] ينظر: تفسير البغوي.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

[4] صحيح أخرجه ابن ماجه 3456، صححه الألباني، وقال الأرنؤوط صحيح على شرط الشيخين.

[5] تفسير القرآن العظيم لابن كثير 110/6.

[6] البخاري 6320، ومسلم 2714.

إلا الله تعالى، واستجاب الله له، فيرى ذلك رأي العين، وكذلك نحن نسمع عمن سبق وعمن في عصرنا، أن الله استجاب لهم، فالأعرابي الذي دخل والرسول ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة قال: {هلكت الأموال، وانقطعت السبل فادع الله يغيثنا قال أنس: والله، ما في السماء من سحاب ولا قزعة (أي: قطعة سحاب) وما بيننا وبين سلع (جبل في المدينة تأتي من جهته السحب) من بيت ولا دار وبعد دعاء الرسول ﷺ فوراً خرجت سحابة مثل الترس، وارتفعت في السماء وانتشرت ورعدت، وبرقت، ونزل المطر، فما نزل الرسول ﷺ إلا والمطر يتحادر من لحيته عليه الصلاة والسلام}[1] وهذا أمر واقع يدل على وجود الخالق دلالة حسية، وفي القرآن كثير من هذا، مثل: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَه﴾[الأنبياء:83 – 84]، وغير ذلك من الآيات الدالة دلالة حسية على وجود الله تعالى وجودا حسيا[2].

والدلالة الحسية على إثبات وجود الله تعالى يتفرَّع منها فروع، منها ما يلي:

الأدلة الكونية:

1 – دليل الخلق والحدوث:

كل حادث لا بد له من محدث ولا محدث للحوادث إلا الله عز وجل، والصحيح أن دلالة الحوادث على المحدث دلالة حسية عقلية:

أ – أما كونها حسية: فلأنها مشاهدة بالحس.

ب – وأما كونها عقلية: فلأن العقل يدل على أن كل حادثٍ لا بد له من محدث.

ولهذا سئل أعرابي: بما عرفت ربك؟ فقال: الأثر يدل على المسير، والبَعْرَة تدل على البعير، فسماء ذات أبراجٍ، وأرضٌ ذات فجاج، وبحارٌ ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟

الجواب: بلى، هذا أعرابي استدل على أن هذه الحوادث العظيمة تدل على خالقٍ عظيم عز وجل، هو السميع البصير، فالحوادث دليل على وجود المحدث، ثم كل حادثٍ منها يدل على صفةٍ مناسبةٍ غير الوجود، فنزول المطر لابدَّ له من مُنزل، وهذا لا شك أنه يدل على

---

[1] رواه البخاري 933 ومسلم 897.

[2] ينظر: شرح العقيدة الواسطية لمحمد بن صالح بن عثيمين 1/ 56.

وجود الخالق ويدل على رحمته، وهذه دلالةٌ غير الدلالة على الوجود، كذلك وجود الجدب والخوف والحروب تدل على وجود الخالق، وتدل على غضب الله عز وجل وانتقامه، أوِ امتحانه لخلقه، فكل حادثٍ له دلالتان:

دلالةٌ كلية عامة:

تشترك فيها جميع الحوادث، وهي وجود الخالق المحدث.

ودلالةٌ خاصة:

في كل حادثٍ بما يختص به، كدلالة الغيث على الرحمة، ودلالة الجدب على الغضب وهكذا...[1]

وهناك دلالة أخرى:

وهي النوازل التي تنزل لسبب دالة على وجود الخالق، مثل: دعاء الله عز وجل ثم استجابته للدعاء، فهو دليل على وجوده، وهذه وإن كانت من باب دلالة الحادث على المحدث لكنها أخص، لما دعا النبي ﷺ الله تعالى أن يغيث الخلق قال: {اللهمَّ أغثنا، اللهم أغثنا} ثم نشأ السحاب وأمطر قبل أن ينزل من المنبر[2]، فهذا يدل على وجود الخالق وهذا أخص من دلالة العموم[3].

ومن أمثلة الآيات القرآنية التي تتحدث عن الدلائل الكونية المتعلقة بالخلق والتكوين قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[فصلت: 37]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴾[الروم: 20]، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ

---

[1] ينظر: الموسوعة العقدية لمجموعة من المؤلفين إشراف علوي عبد القادر السقاف 154/1 بتصرف.

[2] رواه البخاري 933، ومسلم 897.

[3] شرح العقيدة السفارينية لمحمد بن صالح بن عثيمين – ص45.

الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ [الروم: 22 - 25]، **فهذه الآيات كونية، وإن شئت فقل: كونية قدرية، وهذه الدلالات كانت آية لله تعالى؛ لأنَّ الخلق لا يمكن لهم فعل ذلك، فمثلاً: لا يستطيع أحد أن يخلق مثل الشمس والقمر، ولا يستطيع أن يأتي بالليل إذا جاء النهار، ولا بالنهار إذا جاء الليل، فهذه الآيات كونية[1].**



[1] **شرح العقيدة الواسطية لمحمد بن صالح بن عثيمين 1/ 12 بتصرف شديد.**

﴿القسم الرابع﴾

﴿الأدلة النقلية على وجود الله تعالى﴾

النقل لغة:

جذرها (ن ق ل) وهي لها معاني منها: ما بقي من الحجارة إذا قلع جبل ونحوه، وما نفي من صغار الحجارة، وتحويل شيء إلى موضع[1].

ونقل الشيء من مكان إلى آخر، وهي تحمل نقل الكلام من الغير كما هو، كما قال الشاعر:

نقل الواشي إليهم سَلْوَتي * كَذِبَ الناقلُ فيما نقلا[2]

النقل شرعا:

المراد بالنقل في عرف علماء الشريعة هو الكتاب والسنة، أو تقول الوحي، وسمِّيت كذلك، لأَنّهما نُقل من صدور الرجال وكتبهم كابر عن كابر برواية العدول الثقات الضباط عن مثلهم وسواء كان الضبط ضبط صدر أو كتاب إلى منتهاه بلا شذوذ ولا علة. اهـ

وطريقة الاستدلال على ثبوت وجود الله تعالى عن طريق النقل، قد تبدو غريبة خاصة على علماء الكلام، ولكن سيتم بيان وجه دلالتها على وجود الله تعالى بما يزيل غرابتها إن شاء الله تعالى، وقد سلك بعض العلماء هذه الطريقة كالقاضي أبي يعلى في كتابه: (عيون المسائل) وأبي بكر البيهقي في كتابه (الاعتقاد) والخطابي في رسالة: (الغنية عن الكلام) وأشار شيخ الإسلام إلى صحتها وشرعيتها إذا حررت[3].

وقال ابن القيم: وهذه الطريق من أقوى الطرق وأصحها وأدلها على الصانع وصفاته وأفعاله. وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله آيات بينات[4].

---

[1] العين للفراهيدي رحمه الله تعالى ج5 ص162.

[2] الشاعر: عبد الغفار الأخرس

[3] انظر: ((مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية)) 11 /379

[4] الصواعق المرسلة لابن القيم 3/ 1197.

وبيان هذه الطريق من وجهين:

الوجه الأول: الآيات والبراهين، وهي المعجزات.

الوجه الثاني: العلوم والأحكام المتضمنة لمصالح الخلق التي جاءوا بها.

الوجه الأول: الآيات والبراهين، وهي المعجزات:

بين الله تعالى في كتابه العزيز أنه أرسل رسله بالوحي وأيدهم بالآيات تصديقاً لهم فقال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾[الحديد: 25] **وقال تعالى:** ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾[النحل: 43 – 44]، **وقال الرسول ﷺ: {مَا من الأنبياءِ من نبيٍّ إلَّا أعطيَ منَ الآياتِ ما مثلهُ آمنَ عليهِ البشر، وإنَّما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه اللهُ إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة}**[1].

وسماها الله تعالى برهاناً كذلك، فقال عن آيتي العصا واليد اللتين أرسل بهما موسى عليه السلام: ﴿فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ﴾[القصص: 32].

فسماها الله تعالى آية وبرهاناً وبينة، وذلك لقوة دلالتها على المطلوب، وأنه بمجرد حدوثها يحصل العلم الضروري، فهي من جنس الآيات من دلالتها على المراد، بل هي أقوى لغرابتها وعظمتها.

---

[1] رواه البخاري **4981** ومسلم **152** من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

يُبَيِّن النَّبيُّ ﷺ في هذا الحديث أنَّ من سُنَّةِ اللهِ في الأنبياءِ جَميعًا أنْ يُمَدَّهم بالمُعجِزاتِ، فلا يَبعَثُ اللهُ نَبيًّا إلَّا أعطاه مُعجِزةً يُستَدلُّ بها على نُبوَّتِه، ويُثبِّتُ بها رِسالتَه، ويَتحدَّى بها كُلَّ مَن عارَضَه وكذَّب به؛ فالمُعجِزةُ أمْرٌ خارِقٌ للعادةِ يَظهَرُ على يَدِ الرَّسولِ؛ ليكونَ شاهدَ إثباتٍ له بالرِّسالةِ.

فيَقولُ النَّبيُّ ﷺ: «ما مِن الأنبياءِ نَبيٌّ إلَّا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ»، أي: ليسَ هُناك نَبيٌّ إلَّا وَقَد أُعطيَ مِن المُعجِزاتِ ما يَكفي لإثباتِ رِسالتِه حتى يؤمِنَ به النَّاسُ من البَشَرِ؛ كناقةِ صالحٍ، وعصا موسى، وإحياءِ الموتى لعيسى، عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ، فهذه مُعجِزاتٌ تُرى بعينِ الحِسِّ، فلا ينظُرُ أحدٌ إلى المعجزةِ التي ظهرت على يديه من أهلِ النُّفوسِ السَّليمةِ من العنادِ والاستكبارِ إلَّا بادر إلى الإيمانِ، «وإنَّما كانَ الَّذي أوتيتُه وحْيًا أوحاهُ اللهُ إلَيَّ»، أي: وإنَّما كانت المُعجِزةُ العُظْمى الَّتي أعطاها اللهُ لي هي هذا الكِتابُ الخالِدُ الباقي والمحفوظ إلى يومِ القيامةِ، وهو القُرآنُ الكريمُ، فما من أحدٍ يَقرَؤُه بتأمُّلٍ وتدبُّرٍ دون عنادٍ أو حسَدٍ أو تكبُّرٍ، إلَّا عَرَف أنَّه كلامُ اللهِ، وأنَّ محمَّدًا رسولُ اللهِ؛ لِما فيه من أنباءِ الغَيبِ التي لا تأتي إلَّا من خبرِ السَّماءِ، وما اشتمل عليه من الأحكامِ والقوانينِ الإلهيَّةِ التي تُصانُ بها حقوقُ الإنسانِ؛ من دينٍ ونفسٍ، ومالٍ ونَسَبٍ، وعَقلٍ وعِرْضٍ.

ومن المعلوم أن الرسول إذا جاء قومه وادعى أنه رسول الله يوحى إليه بأنه لا إله إلا الله، أيده الله وصدقه بآية، فهاهنا أمور:

الأول: دعواه أنه رسول.

الثاني: أن الله تعالى هو الذي أرسله سواء كان المخاطب يقر بوجوده أو لا يقر.

الثالث: أنه مرسل لدعوة الناس إلى إفراد الله بالألوهية.

فإذا جاء الرسول بآية وهي العلامة التي تدل على صدقه ثبتت الرسالة وكذلك الربوبية ضمناً، وذلك لأنها حدث من جنس لا يقدر على مثله البشر وحصلت عند دعوى الرسول الرسالة، كيف وإذا انضم إلى ذلك ما عرف من أحوال الأنبياء وصدقهم وما حصل لهم ولأتباعهم من التأييد والنصر، ولأعدائهم من الهلاك والخسران ... ولذلك فليس بلازم أن تتقدم معرفة العبد بوجود الله تعالى على حصول الآية والمعجزة ومن ثم تقرر النبوة، لأنها من جنس الآيات المخلوقة المحدثة التي لابد لها من محدث أحدثها[1].

كما يمكن الاستدلال لها بما حدث بين موسى عليه السلام وفرعون، كما قص الله تعالى ذلك في القرآن فقال آمراً موسى وهارون عليهما السلام: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ * قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ * قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ * قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ * قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ * قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ

---

[1] انظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) 9/ 41.

ﭐلۡمَسۡجُونِينَ * قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ * قَالَ فَأۡتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ * فَأَلۡقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعۡبَانٞ مُّبِينٞ * وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيۡضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴾[الشعراء: 16 – 33].

ومن معلوم أن فرعون قد ادعى أنه ربهم الأعلى ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾[النازعات: 24].

فهو وإن كان يتظاهر بذلك إلا أنه في باطنه يقر بربوبية الله تعالى على خلقه، كما قال الله تعالى عنه ومن حوله من الملأ ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا ﴾[النمل: 14].

والآيات ساقها الله تعالى للرد عليه في هذه الدعوى التي تظاهر بها، ولذلك لما حاجه موسى عليه السلام بالآيات الظاهرة قال له: ﴿قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ﴾[الشعراء: 29] **فأصر على موقفه وعناده، فدعاه موسى عليه السلام لبرهانين عظيمين وهما قلب العصا ثعباناً وإخراج اليد بيضاء بعد ضمها، فلو كان ذلك لا يدل على مطلوب موسى عليه السلام وإبطال دعوى فرعون، لما دعاه إليه موسى عليه السلام، بل إنه سماه مبيناً فقال:** ﴿قَالَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكَ بِشَيۡءٖ مُّبِينٖ ﴾[الشعراء: 30].

فتقرر من هذا النص أنه يمكن إثبات ربوبية الله ووجوده بالآيات المعجزات وإن لم يكن المخاطب مقراً بذلك ومن ثم يقوم لله بالعبادة.

وأما إن كان المخاطب مقراً بوجود الله بفطرته التي لم تتغير فإنه بالآية والمعجزة تتقرر عنده النبوة والوحدانية في الإلهية كما قال الله تعالى: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾[هود: 13 – 14] **فهذا نص واضح على أنه بالآية وهي هنا معجزة القرآن تثبت وتتقرر الرسالة والوحدانية ضرورة[1] ومعلوم أن توحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية، فإذا ثبت الأول ثبت الثاني تضمناً، ضرورة ثبوت المتضمِّن بثبوت المتضمَّن.**

فثبت أنه يمكن إثبات الربوبية بآيات الأنبياء.

---

[1] انظر: ((مجموع الفتاوى – بتصرف)) **11/ 379.**

الوجه الثاني: العلوم والأحكام المتضمنة لمصالح الخلق التي جاءوا بها:

أولاً: العلوم:

فالرسل جميعاً اتفقوا على الإخبار بأشياء معينة يقطع المرء بأنهم لم يتواطؤوا عليها، ومن ذلك: دعوتهم جميعاً إلى عبادة إله واحد، وكذلك بشارة موسى وعيسى برسالة رسولنا محمد عليهم الصلاة والسلام، من غير تواطؤ منهم على بعد في الأزمنة والأمكنة، فكان ذلك على الوجه الذي بشرا به.

والرسول ﷺ قد أخبر بأخبار الأمم الماضين مع القطع بأنه كان يعيش في أمة أمية، وكذلك قد أخبر بأمور تحصل في المستقبل، وقد حصلت، منها ما هو في القرآن، ومنها ما هو في السنة، فممَّا ورد في القرآن قوله تعالى: ﴿الم غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: 1 – 4] **فكان كما أخبر، ومما ورد في السنة: {إذَا هلكَ كسرَى فلَا كسرَى بعدهُ}[1]. وقوله ﷺ: {خلافةُ النبوَّةِ ثلاثونَ سنةً ثمَّ يؤتِي اللهُ ملكهُ منْ يشاء}[2]، وكانت خلافة أبي بكر رضي الله عنه سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر رضي الله عنه: عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان رضي الله عنه اثنتي عشرة سنة، وخلافة علي رضي الله عنه أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن رضي الله عنه ستة أشهر، ثم نشأ الملك وكان معاوية أول ملوك المسلمين عفا الله عنه[3]، فكان الأمر كما أخبر الرسول ﷺ.**

والأخبار في هذا كثيرة جداً يحصل بمجموعها القطع والعلم الضروري، فيدل ذلك على صدقه في الرسالة وعلى وجود الخالق سبحانه؛ لأنه هو الذي أطلعه على ذلك إذ أنه لا يعقل أبداً أن يتحدث الإنسان ويخبر بأشياء ويصدق فيها دائماً دون تردد، ودون أن يجرب عليه كذب، إلا إذا كان موحى إليه، وأن الذي أوحى إليه هو الذي بيده الأمور وتتطابق أخباره مع قدره، وهذا ظاهر.

---

[1] رواه البخاري 3618 ومسلم 2918 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] رواه أبو داود 4646 والحاكم 3 156 والطبراني 7/ 84 – 3459. والحديث سكت عنه أبو داود، وقال الألباني في ((صحيح سنن أبي داود)): حسن صحيح.

[3] انظر: ((شرح العقيدة الطحاوية)) ص: 545.

ثانياً: الأحكام المتضمنة لمصالح الخلق:

فقد تضمنت شريعة النبي ﷺ أموراً عظيمة، يقطع الإنسان أنها لا يمكن أن تكون إلا من خالق عليم حكيم، فالشريعة جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها ودرء المفاسد وتقليلها، وهذا واضح جداً في الضروريات الخمس: الدين، والعقل، والنفس، والمال، والعرض، وزادوا النسل[1].

وختاما نقول: ما من مخلوق إلا ويقر بوجود الله تعالى، وأما الملحدون الذين أنكروا وجود الله تعالى، هم منكرون بأفواههم لا بقلوبهم، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[النمل: 14].

بل فرعون نفسه كان يعلم أنَّ الله موجود وقد أقرَّ بذلك وذلك بقوله: ﴿ قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾[الشعراء: 29]، **فد أقر فرعون بوجود إله غيره، ولم ينكر وجوده، ولكنه رفض أن يعبد غيره.**



---

[1] يراجع في هذا الكتب التي بُحث فيها عن حكمة التشريع ومقاصد الشريعة الإسلامية. منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف– 1/ 291. ويراجع كتاب الموسوعة العقدية لمجموعة من المؤلفين تحت إشراف علوي عبد القادر السقاف باب إثبات وجود الله تعالى.

﴿ مطلبٌ ﴾

إذَا اختلفَ العقلُ معَ النَّقلِ وجبَ تقديمُ النَّقلِ علَى العقلِ:

إنَّ النَّقلَ الصَّحيحَ لَا يعارضُ العقلَ الصَّريحَ، وباجتماعِ النقلِ الصحيحِ والعقلِ الصَّريحِ تُدْرَكُ الحقائقَ الشرعيَّةُ؛ فلَا النَّقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ العَقلِ، ولَا العقلُ وحدهُ يُفِيدُ فاقدَ النَّقل، فلَا بدَّ مِن اجتماعهمَا، وبنقصِ واحدٍ منهمَا تَنقُصُ المعرفةُ بالحَقّ، وليسَ فِي العقلِ الصَّريحِ ولَا فِي شيءٍ منَ النَّقلِ الصَّحيحِ منَ القرآنِ والسنَّةِ مَا يوجبُ مخالفةَ الشَّرعِ أصلاً[1]، قالَ ابنُ تيميةَ رحمه الله تعالى: كلُّ مَا يدلُّ عليهِ الكتابُ والسنَّةُ؛ فإنَّهُ موافقٌ لصريحِ المعقولِ، والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ، ولكنَّ كثيراً منَ النَّاسِ يغلطونَ إمَّا فِي هذَا وإمَّا فِي هذَا، فمنْ عرفَ قولَ الرَّسولِ ﷺ ومرادهِ بهِ كانَ عارفاً بالأدِّلةِ الشرعيَّةِ وليسَ فِي المعقولِ مَا يخالفُ المنقولَ، ولهذَا كانَ أئمَّةُ السنَّةِ علَى مَا قالهُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: معرفةُ الحديثِ والفقهِ فيهِ أحبُّ إليَّ من حفظهِ، أي معرفتهُ بالتَّمييزِ بينَ صحيحهِ وسقيمهِ، والفقهِ فيهِ معرفةُ مرادُ الرَّسولِ ﷺ وتنزيلهِ علَى المسائلِ الأصوليَّةِ والفروعيَّةِ أحبُّ إليَّ من أن تحفظَ من غيرِ معرفةٍ وفقهِ، وهكذَا قالَ عليُّ بنُ المديني وغيرهُ منَ العلماءِ؛ فإنَّهُ مِن احتجَّ بلفظٍ ليسَ بثابتٍ عن الرَّسولِ ﷺ أو بلفظٍ ثابتٍ عنِ الرَّسولِ ﷺ وحملهُ علَى مَا لم يدلَّ عليهِ فإنَّمَا أتيَ من نفسهِ، وكذلكَ العقليَّاتُ الصَّريحةُ إذَا كانت مقدِّماتهَا وترتيبهَا صحيحاً لَمْ تكن إلَّا حقاً لَا تناقضُ شيئاً ممَّا قالهُ الرَّسولُ ﷺ، والقرآنُ قد دلَّ علَى الأدلَّةِ العقليَّةِ التِي بهَا لم تكنْ إلَّا حقاً وتوحيدهُ وصفاتهُ وصدقِ رسلهِ وبهَا يعرفُ إمكانَ المعادِ، ففِي القرآنِ من بيانِ أصولِ الدِّينِ التِي تُعلمُ مقدِّماتهَا بالعقلِ الصَّريحِ مَا لَا يوجدُ مثلهُ فِي كلامِ أحدٍ منَ النَّاسِ[2].

وإنْ تعارضَ النَّقلُ والعقلُ فِي الظَّاهِرِ؛ قُدِّمَ النَّقْلُ علَى العقلِ؛ لأنَّ النَّقلَ عِلمُ الخالِقِ الكامِلِ، والعَقلَ عِلمُ المخلوقِ القاصِرِ، وهذَا التَّعارضُ يكونُ بحسبِ الظَّاهِرِ لَا فِي حقيقةِ الأمرِ؛ فإنَّهُ لا

[1] شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري.

[2] مجموعة الرسائل والمسائل لابن تيمية (3/ 64 – 65) مختصرا وبتصرف.

يمكنُ أبداً حصولُ تعارضٍ بينَ النَّقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ، وإذَا وجدَ تعارضٌ فإمَّا أنْ يكونَ النَّقلُ غيرَ صحيحٍ أوِ العقلُ غيرَ صريحٍ.

قالَ ابنُ تيميَّةَ: مَا جاءَ عنِ النَّبيِّ ﷺ كلُّهُ حقٌّ يصدِّقُ بعضهُ بعضًا، وهوَ موافقٌ لفطرةِ الخلائقِ، ومَا جعلَ فيهم منَ العقولِ الصَّريحةِ، والقصودِ الصَّحيحةِ، لَا يخالفُ العقلَ الصَّريحَ، ولَا القصدَ الصَّحيحَ، ولَا الفطرةَ المستقيمةَ، ولَا النَّقلَ الصَّحيحَ الثَّابتِ عن رسولِ اللهِ ﷺ، وإنَّمَا يظنُّ تعارضهَا: منْ صدَّق بباطلٍ منَ النُّقولِ، أو فهمَ منهُ مَا لم يدلَّ عليهِ، أوِ اعتقدَ شيئًا ظنَّهُ منَ العقليَّاتِ وهوَ منَ الجهليَّاتِ، أو منَ الكشوفاتِ وهوَ منَ الكسوفاتِ إن كانَ ذلكَ معارضًا لمنقولٍ صحيحٍ وإلَّا عارضَ بالعقلِ الصَّريحِ، أوِ الكشفِ الصَّحيحِ مَا يظنُّهُ منقولًا عنِ النَّبيِّ ﷺ، ويكونُ كذبًا عليهِ، أو مَا يظنُّهُ لفظًا دالًّا علَى شيءٍ ولَا يكونُ دالًّا عليهِ[1].

والعقلُ كالبَصَرِ، والنقلُ كالنُّورِ؛ لَا يَنتفِعُ المبُصِرُ بعينِهِ فِي ظلامٍ دامِسٍ، ولَا يَنتفِعُ العاقلُ بعقلِهِ بلَا وَحيٍ، وبِقَدرِ النُّورِ تَهتَدِي العَينُ، وبقدرِ الوحيِ يَهتَدِي العَقلُ، وبكمالِ العقلِ والنقلِ تَكتمِلُ الهدايةُ والبصيرةُ؛ كمَا تَكتمِلُ الرؤيةُ حِينَ الظَّهيرَةِ، فالمؤمنونَ أبصرُ النَّاسِ بالحقائقِ الشرعيَّةِ لجمعهم بينَ النقلِ الصَّحيحِ والعقلِ الصَّريحِ، قالَ تعالَى: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأنعام: 122]، وقالَ سبحانهُ: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾[محمد: 14].

فيجبُ اتِّباعُ الوحيِ منَ الكتابِ والسنَّةِ وعدمِ الاستغناءِ عنِ الوحيِ بالعقلِ وحدهُ، ومَنْ قالَ: إِنَّهُ يَهتَدِي إِلَى اللهِ تعالى بعقلِهِ المُجرَّدِ بلَا وحيٍ؛ فهوَ كمَن قالَ: إنَّهُ يَهتَدِي إلَى طريقِهِ بعينِهِ المُجرَّدَةِ بلَا ضياءٍ، وكُلٌّ منهمَا جاحدٌ لقطعيٍّ ضروريٍّ، والأوَّلُ بلَا دِين، والثَّانِي بلَا دُنْيَا،

---

[1] الرسالة العرشية (1/ 35).

والأوَّلُ بلَا بصيرةٍ، والثَّانِي بلَا بصرٍ، قالَ تعالَى: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج: 46].

والوحيُ هوَ الذِي يَهدِي الأنبياءَ، ويَهدِي أَتْبَاعَهُمْ، ويدلُّ علَى هذَا قولُ اللهِ تعالى: ﴿قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾[سبأ: 50]، وقولهُ سبحانهُ: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾[النور: 54]، فلَا هدايةَ إلَّا لمنْ اتَّبعَ الوحيَ، ومنْ لمْ يتبعهُ فقد ضلَّ ضلالاً مبيناً، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[النساء: 136]، وقالَ سبحانهُ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب: 36].

وقدْ ضلَّ مَنْ يقولُ: لَا أُصدِّقُ بأيِّ حديثٍ إلَّا إذَا أدرَكَهُ عقلِي، ومَا لَا يُدْرِكُهُ لَا أُؤمِنُ بهِ؛ فإنَّ هذَا قَدَّمَ العقلَ القاصرَ النَّاقصَ الذِي يجهلُ أكثرَ ممَّا يعلمُ علَى الحديثِ الصَّحيحِ الذِي جاءَ بهِ رسولُ اللهِ ﷺ.

فالمؤمنُ العاقلُ يقدِّمُ الحديثَ الصَّحيحَ علَى كلِّ عقلٍ، فمَا لَا يُدرِكُهُ العقلُ لَا يَعنِي عدَمَ وجودِهِ، ولكنَّهُ هوَ غيرُ مُدرِكٍ لهُ، فللعقلِ حَدٌّ يَنتهِي إليهِ، كماَ أنَّ لِلبَصَرِ حَدًّا ينتهِي إليهِ لَا ينتهِي الكونُ والوجودُ بنهايتِهِ، وللسمعِ حَدٌّ لَا تنتهِي الأصواتُ بنهايتِهِ؛ فللنَّمْلَةِ صوتٌ لَا يُسْمَع، وفِي الكونِ فَضَاءٌ وكواكبُ ونجومٌ لا تُرَى.

ومعلومٌ أنَّ النَّصوصَ الشرعيَّةَ منهَا مَا يَفْهَمُهُ غالبُ النَّاسِ، ومنهَا ممَّا لَا يفهمهُ إلَّا العلماءُ، ومنهَا مَا لَا يفهمهُ ويعرفُ دلالتهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، فيكونُ موقفنَا هوَ العملُ بالمحكمِ والوقوفُ عندَ المتشابهِ، والمتشابهُ: هوَ مَا لَا يعلمهُ إلَّا الرَّاسخونَ منْ أهلِ العلمِ، وأمَّا

جعلُ هذَا المتشابهَ أصلاً، أوِ التَّشكيكِ فِي المحكماتِ بضربِهَا بالمتشابهاتِ؛ فهذَا سبيلُ أهلِ الغيِّ، يقولُ اللهُ سبحانهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾[آل عمران: 7].

والعقلُ الصَّريحُ لَا يخالفُ النَّقلَ الصَّحيحَ بحالٍ، ومتَى توهَّمَ متوهِّمٌ أنَّ نصًّاً منَ النُّصوصِ الشَّرعيَّةِ الثَّابتةِ مخالفَ للعقلِ؛ فليتهمْ عقلهُ هوَ، والشَّريعةُ الإسلاميَّةُ لم تأتِي بمَا تَحَارُ فيهِ العقولُ، ولَا تأتِي أبداً بمَا تُحِيْلُهُ العقولُ، كمَا قَرَّرَ ذلكَ المحقِّقونَ منَ العلماءِ، بمعنَى أنَّ الشَّريعةَ لَا تأتِي بمَا تعدُّهُ العقولُ السَّليمةُ أمرًا مستحيلاً.

كما يجبُ التَّسليمُ للنَّقلِ الصَّحيحِ أخباراً وأحكامًا؛ سواءٌ عَرَفْنَا العِلَّةَ أوْ لمْ نَعْرِفْهَا، قالَ الزُّهرِي رحمهُ اللهُ تعالَى: مِنَ اللهِ الرِّسالةُ، وعلَى رسولِ اللهِ ﷺ البلاغُ، وعلينَا التَّسليمُ[1].

فبعضُ القضايَا العقليَّةِ الثَّابتةِ بالأدلَّةِ القطعيَّةِ لَا تدركهَا بعضُ العقولِ لعدمِ فهمهَا لهَا، فكيفَ بالقضايَا التِي لَا تحيطُ بهَا العقولُ وهيَ كثيرةٌ جداً ممَّا نراهُ ونشاهدهُ؟! ومنْ أقربهَا: الرُّوحُ؛ فلَا تحيطُ العقولُ بحقيقتهَا، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85][2]، ومنْ تكلَّمَ عن الروح بالوهم لَا يمكنهُ أن يطلبَ من جميعِ النَّاسِ أن يُسَلِّمُوا بتفسيرهِ، قالَ الشَّوكانِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ هذهِ الآيةِ: أي: هوَ منْ جنسِ مَا استأثرَ اللهُ بعلمهِ منَ الأشياءِ التِي لمْ يُعلمْ بهَا عبادهُ... إلَى أنْ قالَ: ثمَّ ختمَ سبحانهُ هذهِ الآيةَ بقولهِ سبحانهُ: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85]، أي: أنَّ علمكمُ الذِي عَلَّمَكُمُ اللهُ ليسَ إلَّا المقدارَ القليلَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ الخالقِ سبحانهُ، وإنْ أوتيَ حظاً منَ العلمِ وافراً، بل

---

[1] صحيح البخاري (503/13) "فتح" وقال الحافظ ابن حجر: "هذا وقع في قصة أخرجها الحميدي ومن طريقه الخطيب، قال الحميدي: حدثنا سفيان قال رجل للزهري: يا أبا بكر قول النبي ﷺ: "لَيْسَ مِنَّا مَنْ شق الجيوب" ما معناه؟ فقال الزهري: من الله العلم وعلى رسوله البلاغ وعلينا التسليم. وهذا الرجل هو الأوزاعي أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب الأدب، وذكر ابن أبي الدنيا عن دحيم، عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي قال: قلت للزهري فذكره".

[2] شبكة الألوكة من مقالة: "النقل الصحيح لا يعارض العقل الصريح" لـ : محمد بن علي بن جميل المطري بتصرف.

علمُ الأنبياءِ عليهمُ السَّلامُ ليسَ هوَ بالنِّسبةِ إلَى علمِ اللهِ سبحانهُ إلَّا كمَا يأخذُ الطَّائرُ فِي منقارِهِ منَ البحرِ، كمَا فِي حديثِ موسَى والخضرِ عليهمَا السَّلامُ[1].

وبالجملةِ يجبُ علَى المسلمِ أن يُقدِّمَ قولَ اللهِ ورسولهِ ﷺ علَى كلِّ قولٍ، وعلَى كلِّ قياسٍ وعلَى كلِّ ذوقٍ وعلَى كلِّ استحسانٍ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[الحجرات: 1]، قالَ ابنُ كثيرٍ فِي تفسيرهِ: أي: لَا تسرعُوا فِي الأشياءِ بينَ يديهِ، أي: قبلهُ، بل كونُوا تبعًا لهُ فِي جميعِ الأمورِ، وعنِ ابنِ عباسٍ قالَ: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}: لَا تقولُوا خلافَ الكتابَ والسنَّةِ.

وقالَ الضحَّاكُ: لَا تقضُوا أمرًا دونَ اللهِ تعالى ورسولهِ ﷺ من شرائعِ دينكمْ.

وقالَ سفيانُ الثَّورِي: {لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ}: بقولٍ ولَا فعلٍ.

ومنْ أشكلَ عليهِ حديثٌ صحيحٌ؛ فلَا يبادر إلَى إنكارهِ وتكذيبهِ وردِّهِ، بلْ يرجعُ إلَى كلامِ أهلِ العلمِ فِي شرحهِ وتوجيههِ، وروَى ابنُ ماجه بسندٍ صحيحٍ عن عليٍّ بنِ أبِي طالبٍ رضيَ اللهُ عنهُ قالَ: {إذَا حدَّثتكم عن رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا، فظنُّوا بهِ الذِي هوَ أهناهُ، وأهداهُ، وأتقاهُ}[2].

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: {الوضوءُ مِمَّا مسَّتِ النَّارُ، ولو من ثَورِ أَقِطٍ}، فقالَ لَهُ ابنُ عبَّاسٍ يا أبا هُريرةَ أنتوضَّأُ منَ الدُّهنِ؟ أنتوضَّأُ منَ الحميمِ؟ قالَ فقالَ أبو هريرةَ: يا ابنَ أخي إذا سمِعتَ حديثًا عن رسولِ اللَّهِ ﷺ فلا تضرِبْ لَهُ مثلًا[3].

وهنا ابن عبَّاس نظر للحديث بقياس العقل، فأنكر ذلك أوَّل الأمر، ذاك بقوله: (أنتوضَّأُ منَ الدُّهنِ؟ أنتوضَّأُ منَ الحميمِ؟) فأجابه العبقري عبد الرحمن بن صخر بقوله: (يا ابنَ أخي إذا سمِعتَ حديثًا عن رسولِ اللَّهِ ﷺ فلا تضرِبْ لَهُ مثلًا) فأجابه إجابة المعلم الرفيق، ببراعة في استهلال الإجابة وذلك بقوله: (يا ابن أخي) كي يرق

---

[1] فتح القدير للشوكاني (3/ 363).

[2] صحيح ابن ماجه (19)، وأخرجه أحمد (986)، الطيالسي (101)، وابن بطة في ((الإبانة)) (103) بنحوه.

[3] حديث صحيح (منسوخ) أخرجه الترمذي (79) واللفظ له، والبزار (7969)، والطوسي في ((مختصر الأحكام)) (66) باختلاف يسير. منسوخ بحديث جابر بن عبد الله كانَ {آخِرُ الأمرَينِ مِن رسولِ اللَّهِ ، تَرْكَ الوضوءِ ، مِمَّا مسَّتِ النَّارُ}، صحيح أخرجه أبو داود (192)، والنسائي (185) واللفظ له

قلب السَّامع، ثمَّ بيَّن له أنَّ أخبار النبي ﷺ وإن لم يوجد فيها علَّة، فالتسليم لحكمه واجب وهو معلوم عند القاصي والداني، فلا تبحث عن مخارجٍ كما يفعل المتنطعون.
فابن عباس رضي الله عنه نظر إلى هذا الحديث نظرة تمحيصية عقلية فقال: انظر ما تقول يا أبا هريرة! فقد نظر بعقله إلى الحديث لكن لم يرده.
فهو بعقله نظر إلى هذا الحديث فقال: نتوضأ مما مست النار لماذا؟! قال: يا أبا هريرة! أنتوضأ من الدهن؟ أنتوضأ من الحميم، يعني: الماء الساخن؟ يعني هل في الماء الساخن نجاسة؟ وهل الدهن فيه نجاسة؟ وما الذي يدعونني إلى أن أتوضأ مما مسته النار؟ ولذلك نجد أن أبا هريرة قد أصل لنا أصلاً ليس بعده أصل، وقعد لنا قاعدة لكل امرئ يحترم ويقدر ويعظم حديث النبي ﷺ، ويعرف كيف الطريق إلى صحة الحديث أو ترك الحديث؟ فقال أبو هريرة: يا ابن أخي! إذا حدثتك عن رسول الله ﷺ فلا تضرب له الأمثال.
وانظر هنا إلى فصل النزاع، وكيف أنه قيّد وحدّ العقل حتى وإن لم تستطع أن تتدبر وتتفهم ما أمر به النبي ﷺ، وكأن ابن عباس ضرب لنا مثلاً وهو: أن الأصل في الأحكام التعليل، أي: أن تكون معللة، فما العلة التي من أجلها نتوضأ مما مسته النار؟ ليس هناك علة لا نجاسة ولا انتقاض وضوء ولا شيء آخر، فابن عباس رضي الله عنه كأنه يقول: إن معظم الأحكام معللة ولا علة هنا، فلا يكون النبي ﷺ قد قال هذا الحديث.
وأراد أن يوهم أبا هريرة، فقال له أبو هريرة مؤصلاً أصلاً آخر أقوى من تأصيل ابن عبَّاس، وهو للذين يتعلمون كيف يدارسون حديث النبي ﷺ: يا ابن أخي! إن حدثتك بحديث عن رسول الله ﷺ فلا تضرب له الأمثال، وإنما قل: سمعت وأطعت، وهذه قوة من أبي هريرة رضي الله عنه وأرضاه، لكن هو شاهد أيضاً إلى أن مدخل العقل أن

ينظر إلى هذه المسألة، هل يقبلها العقل أم لا؟ فإن لم يقبلها العقل ولم يستطع أن يتفهمها ويعقلها مع ثبوتها فلا بد أن يقول: سمعت وأطعت[1].



[1] **للمزيد ينظر: شرح كتاب نقد متون السنة للدميني – محمد حسن عبد الغفار /5/4.**

﴿ المبحث الثالث ﴾

﴿ تعريف التوحيد ﴾

التوحيد في اللغة:

مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحداً، فهو مصدر وحد يوحد، أي: جعل الشيء واحداً.

التوحيد في الشرع:

إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[1].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله تعالى، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا، عرف قول النبي ﷺ: {إنَّ اللهَ حرَّمَ علَى النَّارِ من قالَ لَا إلهَ إلَّا اللهَ يبتغِي بذلكَ وجهَ اللهَ...}[2].

وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث، التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة! وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي واستقرار الشرع، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود وقال: المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.

كما أنَّ مبلغ الشريعة ﷺ لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، لأن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار.

بل لا بد من قول القلب، وقول اللسان، والعمل بمقتضاها، اي: كلمة التوحيد.

[1] القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد بن صالح بن عثيمين 1/11.

[2] رواه البخاري 425 ومسلم 33 من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

وقول القلب: يتضمن من معرفتها والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله تعالى المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنى بالقلب علماً ومعرفة ويقيناً وحالاً: ما يوجب تحريم قائلها على النار.

وتأمل حديث البطاقة[1] التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، ... ولكن السِّرَّ الذي ثقَّل بطاقة ذلك الرجل هو أنه حصل له ما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات.

وتأمل أيضاً ما قام بقلب قاتل المائة[2] من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق – الموت – عن السير إلى القرية فجعل ينوء بصدره، ويعالج سكرات الموت، لأن ذلك كان أمراً آخر، وإيماناً آخر ولذلك ألحق بأهل القرية الصالحة.

---

[1] يقول النبي ﷺ: إنَّ اللَّهَ سيُخَلِّصُ رجلًا من أمَّتي على رؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ فينشُرُ علَيهِ تسعةً وتسعينَ سجلًّا ، كلُّ سجلٍّ مثلُ مدِّ البصرِ ثمَّ يقولُ : أتنكرُ من هذا شيئًا ؟ أظلمَكَ كتبتي الحافِظونَ ؟يقولُ : لا يا ربِّ ، فيقولُ : أفلَكَ عذرٌ ؟ فيقولُ : لا يا ربِّ ، فيقولُ : بلَى ، إنَّ لَكَ عِندَنا حسنةً ، وإنَّهُ لا ظُلمَ عليكَ اليومَ ، فيخرجُ بطاقةً فيها أشهدُ أن لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ ، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُهُ ورسولُهُ ، فيقولُ : احضُر وزنَكَ فيقولُ يا ربِّ ، ما هذِهِ البطاقةُ مع هذِهِ السِّجلَّاتِ ؟ فقالَ : فإنَّكَ لا تُظلَمُ ، قالَ : فتوضَعُ السِّجلَّاتُ في كفَّةٍ ، والبطاقةُ في كفَّةٍ فطاشتِ السِّجلَّاتُ وثقُلتِ البطاقةُ ، ولا يثقلُ معَ اسمِ اللَّهِ شيءٌ. رواه الترمذي **2639** وابن ماجه **4300** وأحمد **213/2**، **6994**، من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وقال حمزة الكناني في ((مشيخة ابن الخطاب)) **107/1**: وهو من أحسن الحديث، وقال ابن الملقن في ((التوضيح)) **595/33**: صحيح على شرط البخاري ومسلم. وقال الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) **135**: صحيح.

[2] يقول النبي ﷺ: أنَّ رَجُلًا قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ نَفْسًا، فَجَعَلَ يَسْأَلُ هلْ له مِن تَوْبَةٍ؟ فأتَى راهِبًا، فَسَأَلَهُ فقالَ: ليسَتْ لكَ تَوْبَةٌ، فَقَتَلَ الرَّاهِبَ، ثُمَّ جَعَلَ يَسْأَلُ، ثُمَّ خَرَجَ مِن قَرْيَةٍ إلى قَرْيَةٍ فيها قَوْمٌ صالِحُونَ، فَلَمَّا كانَ في بَعْضِ الطَّرِيقِ أدْرَكَهُ المَوْتُ فَنَأَى بصَدْرِهِ، ثُمَّ ماتَ، فاخْتَصَمَتْ فيه مَلائِكَةُ الرَّحْمَةِ، ومَلائِكَةُ العَذابِ، فَكانَ إلى القَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أقْرَبَ مِنْها بشِبْرٍ، فَجُعِلَ مِن أهْلِها.وفي رواية : بهذا الإسْنادِ، نَحْوَ حَديثِ مُعاذِ بنِ مُعاذٍ. وزادَ فِيهِ: فأوْحَى اللَّهُ إلى هذِه: أنْ تَباعَدِي، وإلَى هذِه: أنْ تَقَرَّبِي. رواه مسلم **2766**، واللفظ له والبخاري **3470**بلفظ: كانَ في بَنِي إسْرائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وتِسْعِينَ إنْسانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ،...

وقريب من هذا ما قام بقلب البغي[1] التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش، يأكل الثرى فقام بقلبها ذلك الوقت مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف وحملها خفها بفيها (على رواية) وهو ملآن حتى أمكنها الرقي من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذي جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب من غير أن ترجو منه جزاء ولا شكوراً، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء فغفر لها[2]. اهـ

لأنها فعلت هذا لوجه الله تعالى وحده، بلا رياء وطلب شكر من مخلوق.

وقد ورد في صحيح مسلم قوله ﷺ: {مَن قالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَفَرَ بما يُعْبَدُ مَن دُونِ اللهِ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ علَى اللَّهِ. وفي رواية: مَن وَحَّدَ اللَّهَ... ثُمَّ ذَكَرَ، بمِثْلِهِ}[3].



[1] يقول النبي ﷺ: غُفِرَ لِامْرَأَةٍ مُومِسَةٍ، مَرَّتْ بكَلْبٍ علَى رَأْسِ رَكِيٍّ يَلْهَثُ، قالَ: كَادَ يَقْتُلُهُ العَطَشُ، فَنَزَعَتْ خُفَّهَا، فأوْثَقَتْهُ بخِمَارِهَا، فَنَزَعَتْ له مِنَ المَاءِ، فَغُفِرَ لَهَا بذلكَ. رواه البخاري 3467 ومسلم 2245 واللفظ له. من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[2] مدارج السالكين لابن قيم الجوزية /1 330 – 332 بتصرف بسيط.

[3] رواه مسلم 23 من حديث طارق بن أشيم الأشجعي رضي الله عنه.

الولاء والبراء في الإسلام لمحمد بن سعيد القحطاني ص46.

﴿المطلب الأول﴾

﴿أركان كلمة التوحيد﴾

للتوحيد ركنان لا يقوم إلا بهما وهما:

الأول: النفي.

الثاني: الإثبات.

قال الشنقيطي: تحقيق معنى: لا إله إلا الله، وهي متركبة من نفي وإثبات.

فمعنى النفي منها خلع جميع أنواع المعبودات غير الله تعالى كائنة ما كانت في جميع أنواع العبادات كائنة ما كانت.

ومعنى الإثبات منها هو: إفراد الله جلَّ وعلا وحده بجميع أنواع العبادات بإخلاص، على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام[1].

وإعراب لا إله إلا الله:

(لا): حرف لنفي الجنس، مبني على السكون، لا محل له مِن الإعراب (الجنس أعم مِن النوع، والمراد به هنا الماهية، أي حقيقة ذلك الشيء)، ومعنى كونها نافية للجنس: أنها تنفي الحكم عن كل فرد مِن أفراد جنس الشيء الذي دخلت عليه، وتُسمى أيضًا: لا التبرئة؛ لأنها تدل على تبرئة جنس اسمها كله مِن معنى خبرها وهي بهذا أقرب في هذا المقام.

و(إلهَ): اسم مبني على الفتح، واسم (لا) أي: (إله) مُعرب ومبني، فيُبنى إذا كان مفردًا نكرة على ما كان يُنصب به، و(لا) واسمها في محل رفع بالابتداء، ولفظ (إلهَ) في كلمة الشهادة نكرة في سياق النفي فيعمُّ بلا شك، وخبر (لا) محذوف: أي: بحق؛ أي لا إله بحق، أي: لا معبود بحق، لأن المعبودات كثيرة ولكن عبادتهم لهم باطلة، والمقصود: نفي الألوهية عمَّا عدا الإله الحق وهو الله تعالى.

(إلا): حرف استثناء، مبني على السكون، لا محل له مِن الإعراب، والاستثناء مِن النفي إثبات، وبالعكس، فالنكرة بعد (لا) لنفي العام، فتفيد نفي كل آلهة، و(إلا) لإثبات ضده، وهو ثبوت

---

[1] ينظر: أضواء البيان للشنقيطي شرح آية: { إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً}[الإسراء: 17].

الإلهية لله تعالى وحده، وقد بدأ بالنفي لتفريغ القلب، فإذا كان خاليًا؛ كان أقرب إلى ارتسامِ التوحيد فيه، وإشراق نور الله تعالى عليه.

ولفظ الجلالة (اللهُ): مرفوع بدل مِن (إلهَ) باعتبار محله، وهو الرفع على الابتداء، وأجاز بعض النحاة فيه النصب على الاستثناء، بناءً على جواز الرفع والنصب في المستثنى الذى جاء بعد النفي، مثل قوله تعالى: ﴿مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾[النساء: 66]، فقد قرأ الجمهور (قَلِيلٌ) بالرفع على البدلية، وقرأ ابن عامر بالنصب مع التنوين (قَلِيلًا) على الاستثناء، وكلاهما ثبت متواترًا عن رسول الله ﷺ وقرأ به جماعة مِن الصحابة والتابعين رضي الله عنهم؛ بيد أنه لم تأتِ كلمة التوحيد في القرآن بنصب الاسم الأخير بعد (لا) في قراءة، ولو شاذة.

وقول: (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) على هذه الصيغة الخاصة الجامعة بين النفي والإثبات، يدلُّ على حصر الإلهية لله تعالى؛ فإن الجمع بين النفي والإثبات أبلغ صيغ الحصر.

وكذلك فإنَّ المتأمل في كلمة التوحيد (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ) يجد أن جميع حروفها جوفية، أي: مَخرج نطقها مِن الجوف، ليس فيها مِن الحروف الشفهية التي تخرج مِن الشفتين؛ للإشارة إلى الإتيان بها مِن خالص جوفه، وهو القلب لا مِن الشفتين وحسب، لكي تكون مقبولة عند الله تعالى، لا في أحكام الدنيا فقط[1].

وكذلك فإنَّ لفظ التوحيد مُجرد عن النقط؛ ليس فيه حرف مُعجم، والحرف المعجم هو الذي له نقط فوقه أو تحته؛ ولعلها إشارة إلى التجرُّد عن كلِّ معبود سوى الله تعالى.

---

[1] إعراب لا إله إلا الله للدكتور طلعت مرزوق بتصرف شديد، لأنَّ الباحث حصر النفي والإثبات في وجود الله تعالى فقط، وليس هذا هو مراد كلمة التوحيد، بل نفي العبادة عمَّا سوى الله تعالى وإثباتها له وحده، وإن كان الكلام عن وجود إله سوى الله تعالى، فهذه الآلهة الباطلة كثيرة وقد سمَّاهم الله تعالى بالآلهة، قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ}[الأعراف: 127]، وقال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ}[الجاثية: 23]. ولكنَّ الكلام ليس على الوجود من عدمه، فإن قلنا أن كلمة التوحيد جاءت لمجرد إثبات وجود الله تعالى لصار مجرَّد إثبات وجود الله تعالى كافيا للنجاة من العذاب، ومن المعلوم أنَّ الرسل كلها أرسلت إلى أقوام يثبتون وجود الله تعالى، كما أنه ليس في نفس كائن موجود حي كان أو ميت، إلا وجود الله تعالى مغروس في قلبه، ولم ينكر هذا إلا بعض المجانين على الحقيقة من الملحدين الذي ينتسبون بزعمهم إلى علم المنطق وخالفوا بذلك علم المنطق، كما أنَّ الله تعالى أعلى وأجل وأرفع، أن يرسل رسله لمجرد إثبات وجوده، كما أن لفظ التوحيد بنفسه لا ينطبق على إثبات الوجود، بل ينطبق على عدمه إشراكه بغيره...

وقال البعض: لو قيل ركني كلمة التوحيد هما: النفي والاستثناء لكان أبين مع الإقرار أنَّ لفظ النفي والإثبات جامع للمعنى؛ ولكنَّ النفي والاستثناء أبين، وذلك أنَّ الاستثناء بعد النفي، دال على أنَّ الاستثناء خاص بذلك النفي المعيَّن، فإن قلت: لا رجلا في الدار إلا محمد، نفي لجنس الرجال، واستثناء محمد من جملة المنفيين، فهو تخصيص واستثناء، ولو قلنا لا رجل في الدار نفي لجنس الرجال، وإلا محمد إثبات، فيمكن أن يقول القائل: إثبات لماذا؟ إثبات للوجود في المنزل، أم إثبات للرجولة، أم إثبات لغير الموضوع المذكور؟

والصحيح أن الإثبات هو خلاصة الاستثناء والتخصيص، فيكفي فيها نفي وإثبات لبيان معنى؛ لا معبود بحق إلا الله تعالى.

وعليه: فمن اكتفى بإثبات استحقاق الله تعالى للعبادة دون أن يعتقد اعتقادا جازما ببطلان تأليه ما سواه من المعبودات والكفر بها، فهو لم يحقق كلمة التوحيد التي تحصل بها النجاة.

وكذلك؛ إن نفى الألوهية مطلقا، فهو في ضلال مبين.

وكل من له علم بالعربية، يعرف أنَّ الأسلوب الموجود في كلمة التوحيد لا إله إلا الله؛ أنه عين النفي والإثبات وهو يتطلبهما جميعا.

وخلاصة معنى كلمة التوحيد هو: لا معبود بحق إلا الله.

هذا لأن المعبودات كثيرة فمنهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء، ومنهم من يعبد الشياطين والجن والأصنام وغير ذلك... وهذا المعبود غير حقيقي إذ لا يملك مؤهلات المعبود، ولمَّا ثبتت لهم العبادة مع أنهم غير معبودين في الحقيقة، كان لزاما لبيان معنى لا إله إلا الله أن تقول: لا معبود بحق، لتثبت المعبودات وتنفي بالسياق كل معبود جملة واحدة، ثم تبتها لله تعالى وحده.

ومن الأدلة القرآن على نفي حقيقة العبادة لغير الله تعالى، وإثباتها لله تعالى وحده:

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[النحل: 36].

اعْبُدُوا اللَّهَ: إثبات.

وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ: نفي.

وقوله تعالى: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾[النساء: 36].

وَاعْبُدُوا اللَّهَ: إثبات.

وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا: نفي مع التوكيد، وذلك بقوله تعالى: شَيْئًا.

وغير ذلك كثير في القرآن الكريم...

كما يجب أن يعلم أنَّ معنى النفي هو: هو الكفر بالطاغوت، ومعنى الإثبات هو الإيمان بالله تعالى.

والطاغوت هو: كل من يعبد من دون الله تعالى ورضى بالعبادة؛ لأنه يوجد كثير من المعبودات من دون الله تعالى لا ترضى بالعبادة، منهم الملائكة الذين عبدوا، وعيسى عليه السلام وغيره، فلفظ الطاغوت لا ينطبق عليهم.

قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: 256].

والعروة الوثقى هي كلمة التوحيد.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وعليه: فإنه يجب من ثبوت كلمة التوحيد الكفر بكل المعبودات مما سوى الله تعالى، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: 4].

ولكن ما هي العبادة، وما معناها، وكيف نوحد الله تعالى فيها؟

هذا ما سنأخذه في المطلب القادم إن شاء الله تعالى.



﴿المطلب الثاني﴾

﴿العبادة﴾

وفيه أربع مسائل:

المسألة الأولى: تعريف العبادة.

المسألة الثانية: أركان العبادة.

المسألة الثالثة: شروط قبول العبادة.

المسألة الرابعة: أنواع العبادة.

فإن فهمت يا صاح مني هذه الأربعة واتبعتها فأنت على الخير إن شاء الله تعالى؛ لأنَّ غالب الناس اختلط عليهم معنى العبادة فحصروها في مجرَّد السجود، وهذا غير صحيح، وتفصيل ذلك وشرحه على ما يلي:



﴿المسألة الأولى﴾

﴿تعريف العبادة﴾

لطالما تخبَّط الناس في تعريف العبادة، ورسخ عند الكثير منهم؛ أنَّ العبادة هي الصلاة فقط، وهذا مفهوم خاطئ انجرَّ عنهم شرك كثير من الناس شركا أكبر والعياذ بالله تعالى، وعليه؛ فإنه يجب على العابد أن يعلم معنى العبادة، كي يعبد الله تعالى على بيِّنة من أمره، ومعنى العبادة على ما يلي:

العبادة لغة:

هي التذلُّل والخضوع، يقال: طريق معبَّد أي مذلَّل[1].

العبادة شرعا:

عرَّفها ابن تيمية رحمه الله تعالى فقال: العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث والأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله تعالى ورسوله ﷺ وخشية الله تعالى والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه، والشكر لنعمه والرضى بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى[2].اهـ

أي: كلُّ ما يحبُّه الله تعالى من أعمال أو أقوال، سواء كانت ظاهرة كأعمال الجوارح، أو باطنة كالأعمال القلبيّة فهو عبادة.

والأقوال الظَّاهرة هي: قول اللّسان؛ كالشَّهادتين، والتَّسبيح، والتهليل، وسائر الأذكار، وردّ السَّلام، وخاصة الدعاء، وما إلى ذلك...

---

[1] ينظر لسان العرب.

[2] رسالة العبودية لابن تيمية ص 38

والأقوال الباطنة هي: ما يحدّث به القلب في باطن الانسان من تصديق ويقين؛ لأنَّ الإنسان يخاطب نفسه في داخله، والخطاب إمَّا أن يكون ممَّا يحبه الله تعالى، أو يكون ممَّا لا يحبُّه، ودليله قوله تعالى: ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [البقرة: 284] .

وهذه الآية فيها إشارة على أنَّ الانسان يخاطب نفسه، وأما حكم خطاب النفس فهو منسوخ، إن لم يكن اعتقادا، فيجازى على الاعتقاد السليم، ويعذب على الاعتقاد الفاسد، ودليل النسخ؛ عن أبي هريرة قال: لَمَّا نَزَلَتْ علَى رَسولِ اللهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ ما في السَّماواتِ وما في الأَرْضِ وإنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُمْ أوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُمْ به اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ ويُعَذِّبُ مَن يَشاءُ واللَّهُ علَى كُلِّ شيءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة: 284]، **قالَ: فاشْتَدَّ ذلكَ علَى أصْحابِ رَسولِ اللهِ ﷺ، فأتَوْا رَسولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا علَى الرُّكَبِ، فقالوا: أيْ رَسولَ اللهِ، كُلِّفْنا مِنَ الأعْمالِ ما نُطِيقُ، الصَّلاةَ والصِّيامَ والْجِهادَ والصَّدَقَةَ، وقدْ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هذِه الآيَةُ ولا نُطِيقُها، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: أتُرِيدُونَ أنْ تَقُولوا كما قالَ أهْلُ الكِتابَيْنِ مِن قَبْلِكُمْ سَمِعْنا وعَصَيْنا؟ بَلْ قُولوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، قالوا: سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ، فَلَمَّا اقْتَرَأَها القَوْمُ، ذَلَّتْ بها ألْسِنَتُهُمْ، فأنْزَلَ اللَّهُ في إثْرِها:** ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بما أُنْزِلَ إلَيْهِ مِن رَبِّهِ والْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ باللَّهِ ومَلائِكَتِهِ وكُتُبِهِ ورُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بيْنَ أحَدٍ مِن رُسُلِهِ وقالُوا سَمِعْنا وأَطَعْنا غُفْرانَكَ رَبَّنا وإلَيْكَ المَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]، **فَلَمَّا فَعَلُوا ذلكَ نَسَخَها اللَّهُ تَعالَى، فأنْزَلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ:** ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إلَّا وُسْعَها لها ما كَسَبَتْ وعليها ما اكْتَسَبَتْ رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إنْ نَسِينا أوْ أخْطَأْنا﴾ [البقرة: 286] **قالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنا ولا تَحْمِلْ علَيْنا إصْرًا كما حَمَلْتَهُ علَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنا﴾ **قالَ: نَعَمْ** ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا ما لا

طاقَةَ لنا بِهِ﴾ قالَ: نَعَمْ ﴿واعْفُ عَنَّا واغْفِرْ لنا وارْحَمْنا أَنْتَ مَوْلانا فانْصُرْنا على القَوْمِ الكافِرِينَ﴾ قالَ: نَعَمْ[1].

وعليه: فمجرَّد خطاب النفس دون اعتقاد وقصد لا شيء فيه، ودليله قول النبي ﷺ: {إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتي عَمَّا حَدَّثَتْ به أَنْفُسَهَا، ما لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بهِ}[2].

وقد ذكر العلماء أن مراتب القصد والنية خمس، ويدخل فيها حديث النفس وهي:

1 – الهاجس.

2 – الخاطر.

3 – حديث النفس.

4 – الهم.

5 – العزم.

وقد نظمتها بقولي:

مراتبٌ لقصدنَا فالهاجــسُ * فخاطرٌ حديثهُ والنَّفسُ

فهمُّهُ منْ بعدهِ والخـــامسُ * عزمٌ وَهوَ للبقيَّةْ حـارسُ[3].

قال تقي الدين السبكي: الهاجس ما يلقى في النفس، ثم جريانه فيها وهو الخاطر، ثم حديث النفس وهو ما يقع فيها من التردد هل يفعل أو لا؟ ثم الهم وهو ما يرجح قصد الفعل، يقال: هممت بالأمر إذا قصدته بهمتي، ثم العزم وهو قوة ذلك القصد والجزم به[4].

فالمرتبة الأولى: الهاجس: وهو لا يؤاخذ به إجماعًا؛ لأنه ليس من فعله؛ وإنما هو شيء ورد عليه لا قدرة له عليه ولا صنعه من نفسه.

والمرتبة الثانية: الخاطر: والخاطر يأتي بعد الهاجس، وهو مقدور على دفعه بصرف الهاجس أول وروده.

---

[1] أخرجه مسلم (125) .

[2] مسلم 127، والبخاري 2528 من طريق أبي هريرة.

[3] بحر الرجز، أبيات الدكتور: عصام الدين إبراهيم.

[4] قضاء الأرب في أسئلة حلب للسبكي 158 بتصرف.

المرتبة الثالثة: حديث النفس: وهو وما قبله من الخاطر حكمهما مرفوع بحديث النبي ﷺ: {إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ تَعْمَلْ بِهِ أَوْ تَتَكَلَّمْ}[1]؛ وإذا ارتفع حديث النفس ارتفع ما قبله من باب أولى.

وهذه المراتب الثلاث لو كانت في الحسنات لم يكتب له بها أجر، أما الأول فظاهر وأما الثاني والثالث فلعدم القصد والتردُّد.

المرتبة الرابعة: الهم: وقد بين الحديث الصحيح أن الهم بالحسنة يكتب حسنة، والهم بالسيئة لا يكتب سيئة ويُنتظر؛ فإن تركها لله تعالى كتبت حسنة، وإن فعلها كتبت سيئة واحدة قال النبي ﷺ: {إنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَناتِ والسَّيِّئاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ، فمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ له سَيِّئَةً واحِدَةً}[2]؛ فإن همَّ بالحرام وفعله فعليه وزر، وإن همَّ ولم يفعله لا لوجه الله تعالى فإن لم يكن عليه وزرة؛ فإنه عليه غفلة تسوِّد القلب، فإن همَّ به ولم يفعله لوجه الله تعالى فله أجر الترك، ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾[يوسف: 24]، فكان ليوسف أجر لترك الهمِّ لوجه الله تعالى، وما كان لزليخة أجر؛ لأنها تركت الهمَّ دون قصد منها، فإن لم يكن عليها وزر، فعليها غفلة تسود القلب.

والصحيح أنَّ يوسف لم يهمَّ بزليخا أصلا، لقوله تعالى: (لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ) فهو رأى برهان ربه قبل الهم، تقول: سقط فلان لولا أن أمسكته، فهل سقط فلان؟ طبعا لم يسقط، وكذلك الحال في الآية فهو لم يهمَّ بها قطعا، لسابقية رأياه لبرهان ربه تعالى، وهذا ليس بغريب فهو نبي كريم منزه عن الهم بالرذائل، يقول النبي ﷺ: {إنَّ الكريمَ ابنَ الكريمِ ابنِ

---

[1] متفق عليه من حديث أبي هريرة، رواه البخاري (2528، 5269، 6664)، ومسلم (127)، ورواه أحمد: 393/2، 425، 474، وأبو داود (2209)، والترمذي (1183)، والنسائي (3433 – 3435)، وابن ماجة (2040)؛ وغيرهم.

[2] رواه البخاري (6491)، ومسلم (131) باختلاف يسير، الأول: عن ابن عباس، والثاني: عن أبي هرية، ورواه أحمد: 1 / 279، 360، والنسائي في الكبرى (7670)، وغيرهم.

الكريمِ ابنِ الكريمِ: يوسفُ بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ، قال: ولو لَبِثْتُ في السِّجْنِ ما لَبِثَ يُوسُفُ، ثم جاءني الرسولُ أَجَبْتُ، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: 50]}[1].

فيؤخذ من الهم تحريم المشي إلى معصية، وإن كان المشي في نفسه مباحًا لكن لانضمام قصد الحرام إليه؛ فكل واحد من المشي والقصد لا يحرم عند انفراده، أما إذا اجتمعا فإن مع الهم عملا لما هو من أسباب المهموم به، فاقتضى إطلاق {أَوْ تَعْمَلْ} المؤاخذة به.

فإن ترك المشيَ للمحرَّم أُجرَ على تركه، كما أثم على مشيه.

المرتبة الخامسة: العزم: فالمحققون على أنه يؤاخذ بالعزم على السيئة، وخالف بعضهم فقال: إنه من الهم المرفوع، اهـ[2].

ونقل النووي عن القاضي عياض رحمهما الله تعالى؛ أن عامة السلف وأهل العلم من الفقهاء والمحدثين على أن من عزم على المعصية بقلبه ووطن نفسه عليها أثم في اعتقاده وعزمه، للأحاديث الدالة على المؤاخذة بأعمال القلوب، لكنهم قالوا: إن هذا العزم يكتب سيئة وليست السيئة التي هم بها لكونه لم يعملها وقطعه عنها قاطع غير خوف الله تعالى والإنابة، لكن نفس الإصرار والعزم معصية، فإذا عملها كتبت معصية ثانية، فإن تركها خشية لله تعالى كتبت حسنة، كما في الحديث {إِنَّمَا تَرَكَهَا مِنْ جَرَّايَ}[3]، فصار تركه لها لخوف الله تعالى، ومجاهدته نفسه الأمارة بالسوء في ذلك، وعصيانه هواه حسنة؛ فأما الهم الذي لا يكتب فهي الخواطر التي لا توطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية ولا عزم؛ وذكر بعضهم خلافًا فيما إذا تركها لغير خوف الله تعالى بل لخوف الناس، هل تكتب حسنة؟ قال: لا؛ لأنه إنما حمله على تركها الحياء، وهذا ضعيف لا وجه له.

---

[1] أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث (3525)، وأخرجه موصولاً الترمذي (3116) باختلاف يسير. وقوله: "ولو لبثت في السجن ..." أخرجه البخاري (4694)، ومسلم (151) مختصراً باختلاف يسير

[2] ينظر (قضاء الأرب في أسئلة حلب) ص 158: 162.

[3] رواه أحمد: 2/317، 410، ومسلم (129) من حديث أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: .. قالتِ الملائِكَةُ: رَبِّ، ذاكَ عَبْدُكَ يُرِيدُ أنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، وهو أبْصَرُ به، فقالَ: ارْقُبُوهُ فإنْ عَمِلَها فاكْتُبُوها له بمِثْلِها، وإنْ تَرَكَها فاكْتُبُوها له حَسَنَةً، إنَّما تَرَكَها مِن جَرَّايَ...

قال النووي: هذا آخر كلام القاضي، وهو ظاهر حسن لا مزيد عليه، وقد تظاهرت نصوص الشرع بالمؤاخذة بعزم القلب المستقر، ومن ذلك قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: 19]، وقوله تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾[الحجرات: 12]؛ والآيات في هذا كثيرة، وقد تظاهرت نصوص الشرع وإجماع العلماء على تحريم الحسد واحتقار المسلمين وإرادة المكروه بهم، وغير ذلك من أعمال القلوب وعزمها، والله أعلم[1].

والكلام في هذا طويل جدا، والردود على أهل العلم كثيرة، من ذلك قول القاضي عياض: فأما الهم الذي لا يكتب فهي الخواطر التي لا توطن النفس عليها ولا يصحبها عقد ولا نية ولا عزم.

نقول: إنَّ الهمَّ فيه نيَّة ولا عزم فيه، فصاحبه متردد، ثمَّ رجَّح الفعل؛ فإن لم يكن نية فيه فهو لا شيء، فهو مجرد هاجس أو خاطر أو حتى حديث النفس، لعموم قول النبي ﷺ: {إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى}[2].

والنيات: جمع نية وهي القصد وهي التردد ثمَّ ترجيح الفعل دون عزم القلب على أمر من الأمور.

ونخرج من هذا؛ أنَّ الأقوال الباطنة تتفاوت على حسب درجاتها، من مجرد الهاجس إلى الفعل، وأما حديث النفس والهم والعزم، فيمكن أن تكون عبادة.

فحديث النفس: وذلك أن يحدث المسلم نفسه بتفكر خلق السماوات والأرض وغيرها مثلا، وهو من أرفع العبادات، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: 191]، ولا شكَّ أنَّ التفكر ممَّا يجول في النفس.

---

[1] ينظر (شرح مسلم): 151/2.

[2] أخرجه مسلم في كتاب الإمارة بقوله قوله صلى الله عليه وسلم إنما الأعمال بالنية رقم 1907 (إنما الأعمال بالنيات) أي صحة ما يقع من المكلف من قول أو فعل أو كماله وترتيب الثواب عليه لا يكون إلا حسب ما ينويه.

وعن أبي الدرداء قال: تفكر ساعة خير من عبادة سنة، وفي رواية من قيام ليلة[1].

ويدخل فيه كل ذكر نفسي سري دون الجهر، كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[الأعراف: 205]، فيمكن أن يدخل في حديث النفس، فيصبح بهذا وبالذي قبله عبادة.

وأما الهم: فيشهد له الحديث السابق وفيه: {فمَن هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَناتٍ، إلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إلى أضْعافٍ كَثِيرَةٍ، ومَن هَمَّ بسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها، كَتَبَها اللَّهُ له عِنْدَهُ حَسَنَةً كامِلَةً، فإنْ هو هَمَّ بها فَعَمِلَها، كَتَبَها اللَّهُ له سَيِّئَةً واحِدَةً}.

فعلم بهذا أنَّ الهمَّ عبادة؛ فإن كان هذا حال حديث النفس والهمَّ، فالعزم من باب أولى.

والأعمال الظَّاهرة: وهي أعمال الجَّوارح من صلاة، وصيام، وقيام، وزكاة، وحج ونذر، وغيرها...

والأعمال الباطنة: وهي: أعمال القلب من خوف، وخشية، ومحبة، وإنابة.

فهذه أعمال وليست أقوال، ألم ترَ أنَّ الإنسان إذا ما خاف ارتجف قلبه وبان ذلك على ظاهره؟

وعودا ببدء: يقول ابن القيِّم رحمه الله تعالى في تعريف العبادة: وأما التعبد فهو غاية الحب وغاية الذل، يقال: عبده الحب أي ذلَّله، وطريق معبد بالأقدام أي مذلل، وكذلك المحب قد ذلَّله الحب ووطأه، ولا تصلح هذه المرتبة لأحد غير الله عز وجل، ولا يغفر الله سبحانه لمن أشرك به في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن شاء، فمحبة العبودية هي أشرف أنواع المحبة وهي خالص حق الله على عباده[2].

فلا تكون العبادة عبادة حتَّى يجتمع فيها المحبَّة مع الذُّل، ولا يُكتفى بأحدهما، بل يجب على المسلم أن يحب معبوده ويخضع له بالذُّل، فإذا ما ادَّعى حبَّه ولم يخضع له فهذا حبٌّ زائف، إذ كيف يدعي حبَّه وهو غير خاضع بالذُّل له.

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] روضة المحبين لابن القيم 52/1.

ولله درُّ الإمام الشَّافعي رحمه الله تعالى حيث قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبَّه * هذا محال في القياس بديــع

لو كان حبُّك صادقا لأطعـته * إنَّ المحبَّ لمن يحبُّ مطيع

فهذا هو حال من يدَّعي الذُّلَّ لله تعالى دون حبّ، أو يدعي الحب دون الذل، والمراد بالذل هو الذل المعروف وما ينجر عنه من الخضوع للمحبوب، فكما قال الشَّافعي رحمه الله تعالى هذا محال في القياس بديع.

قال ابن القيّم رحمه الله تعالى: العبادة تجمع أصلين: غاية الحب بغاية الذُّل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعا له لم تكن عبدا له، ومن خضعت له بلا محبَّة لم تكن عبدا له حتى تكون محبًّا خاضعا[1].

كما قال: العُبوديَّةُ مَدارُها على قاعِدَتينِ هما أصلُها: حُبٌّ كامِلٌ، وذُلٌّ تامٌّ، ومَنشَأُ هَذَينِ الأصلَينِ عن مُشاهَدةِ المِنَّةِ التي تُورِثُ المحَبَّةَ، ومُطالَعةُ عَيبِ النَّفسِ والعَمَلِ، التي تُورِثُ الذُّلَّ التَّامَّ[2].



[1] مدارج السالكين، لابن القيم (1/ 74).

[2] يُنظر: ((الوابل الصيب)) (ص: 8) بتصرف يسير.

﴿المسألة الثانية﴾

﴿أركان العبادة﴾

للعبادة ثلاثة أركان لا تصحُّ إلَّا بها وهي على ما يلي:

أوَّلها المحبَّة: أي للمعبود، وهي روح العبادة، فكلَّما تحرَّك الحبُّ في القلب كان أدعى للإخلاص كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ ﴾[البقرة: 165].

الثَّاني الرَّجاء: أي في ما عند الله تعالى من ثواب، وهو يقود العبد إلى إخلاص العبادة، قال تعالى: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[الإسراء: 57].

الثَّالث الخوف: أي الخوف من الله تعالى، والخوف زاجر للعبد عن معصية الله عزَّ وجل، والآية السَّابقة دليل على ما بعدها.

ويمكن جمع ما سبق بما جمعه ابن القيم رحمه الله تعالى؛ أنَّ للعبادة أصلين وهما: الحب والذل، ويدخل فيهما الخوف والرجاء، فيدخل تحت الحب الرجاء، وتحت الخوف الذل.

والخلاصة: أنَّ للعبادة أركان ثلاثة وهي: المحبَّة، والرَّجاء، والخوف.



﴿المسألة الثالثة﴾

﴿شروط قبول العبادة﴾

للعبادة شرطان لا تتمُّ ولا تقبل إلَّا بهما، وهما:

الأول: الإخلاص لله تعالى.

الثاني: متابعة الرَّسول ﷺ.



﴿ الشرط الأول ﴾

﴿ الإخلاص لله تعالى ﴾

الإخلاص في اللغة:

خلص يخلص خلوصًا: صفا وزال عنه شوبه، ويقال: خلص من ورطته: سلم منها ونجا، ويقال: خلَّصه تخليصًا: أي: نجَّاه، والإخلاص في الطاعة: ترك الرياء[1].

قال ثعلب: والمخلصون: هم الذين أخلصوا العبادة لله عز وجل والذين أخلصهم الله تعالى؛ أي: اختارهم، فالمخلَصون: المختارون، والمخلِصون: الموحدون، وكلمة الإخلاص: كلمة التوحيد[2].

والإخلاص شرعا:

هو أن يقصد العبد بعبادته وجه الله تعالى وحده لا يدخل في ذلك معه شيئا بقول أو فعل أو نية.

ونقيض الإخلاص الشّرك؛ فإن لم يكن العبد مخلصا كان مشركا، وليس هنالك منزلة بينهما، ثم إنَّ الله تعالى لا يقبل عملا إلَّا إن كان خالصا لوجهه الكريم، لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {قال الله تبارك و تعالى: أنا أغْنَى الشُّركاءِ عنِ الشِّرك، مَنْ عمِلَ عملًا أشركَ فيه معِيَ غيري تركتُهُ وشِركَهُ}[3].

وفي رواية لابن ماجه: {فأنا منه بريء وهو للَّذي أشرك}[4].

ومعنى الحديث أنَّ الله تعالى أغنى من أن يشاركه غيره، فهو لا يحتاج إلى شريك يسانده، فمن عمل عملا لله وأدخل في هذا العمل غيره لم يقبل منه، بل يتركه الله تعالى لذلك الغير.

من ذلك مثلا: من صلَّى النافلة يريد بها وجه الله تعالى، ويريد مع ذلك أن يمدحه الناس، فعمله للناس وليس لله تعالى، مع أن نية عمله منها الجزء الأكبر لله تعالى والجزء الأصغر للناس، والسبب أن الله تعالى أغنى من أن يشاركه غيره، فلا يحتاج لهذا، لهذا تركه الله تعالى

---

[1] المعجم الوسيط: (1/ 249)، مختار الصحاح (ص: 77).

[2] لسان العرب لابن منظور: (7/ 26).

[3] أخرجه مسلم (2985).

[4] أخرجه ابن ماجه 3406.

لمن أشرك به، ويوم القيامة يجد أعماله هباء منثورا، فعن أبي هريرة عن النبي قال ﷺ: {إنَّ أوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيامَةِ عليه رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: عَمِلْتَ فيها؟ قال: قاتَلْتُ فِيكَ حتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ قاتَلْتَ لأَنْ يُقالَ: جَرِيءٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ، وعَلَّمَهُ وقَرَأَ القُرْآنَ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ، وعَلَّمْتُهُ وقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقالَ: عالِمٌ، وقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقالَ: هو قارِئٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ حتَّى أُلْقِيَ في النَّارِ، ورَجُلٌ وسَّعَ اللَّهُ عليه، وأَعْطاهُ مِن أصْنافِ المالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَها، قالَ: فَما عَمِلْتَ فيها؟ قالَ: ما تَرَكْتُ مِن سَبِيلٍ تُحِبُّ أنْ يُنْفَقَ فيها إلَّا أنْفَقْتُ فيها لَكَ، قالَ: كَذَبْتَ، ولَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقالَ: هو جَوادٌ، فقَدْ قيلَ، ثُمَّ أُمِرَ به فَسُحِبَ علَى وجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ}[1].

فعلى المسلم أن يقصد بعبادته وجه الله تعالى وحده لا شريك له، وينبذ من قلبه الغيريَّة من حب السُّمعة، والمناصب، وتبجيل النَّاس له من أجل عبادته، ويتوجَّه لله تعالى مخلصا له الدّين لقوله تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾[البيّنة: 5].

وقوله تعالى: وما أمروا، أي: هذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، والإخلاص من أوجب الواجبات بل هو أوَّل واجب مطالب به العبد، وللإخلاص أرسل الله تعالى الرسل، وللإخلاص قاتل رسول الله ﷺ قومه، وهذا لكي يعبد الله تعالى وحده ولا يشرك به شيئا.

وقوله تعالى: حُنَفَاءَ، جمع حنيف، والحنيف المائل إلى الحق، مائل عن الباطل، وبما قلت قال القرطبي: حنفاء أي مائلين عن الأديان كلها إلى دين الإسلام، وكان ابن عباس يقول: حنفاء على دين إبراهيم عليه السلام، وقيل: الحنيف: من اختتن وحج؛ قاله سعيد بن جبير، قال أهل اللغة: وأصله أنه تحنف إلى الإسلام: أي مال إليه[2]، وهو الصواب إن شاء الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴾[الزمر: 2 – 3].

---

[1] أخرجه مسلم 1905.

[2] ينظر: تفسير القرطبي.

يقول الطبري رحمه الله تعالى: وقوله: {فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ} يقول تعالى ذكره: فاخشع لله يا محمد بالطاعة، وأخلص له الألوهة، وأفرده بالعبادة، ولا تجعل له في عبادتك إياه شريكا، كما فَعَلَتْ عَبَدة الأوثان.

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

وقوله: {أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ} يقول تعالى ذكره: ألا لله العبادة والطاعة وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، فلا ينبغي ذلك لأحد؛ لأن كل ما دونه ملكه، وعلى المملوك طاعة مالكه لا من لا يملك منه شيئا، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل[1].

فالإخلاص روح العبادة، فبلا إخلاص تنعدم العبادة، والإخلاص هو عين الحب، ورأسه، وذروة سنامه، فلا تدعو أحدا غير الله تعالى، ولا ترجو أحدا، فربُّك من له خزائن السماوات والأرض، فدعاء غيره غباء، كما أنَّ رحمته وسعت كل شيء، فالعقل البسيط يمنع دعاء غيره سبحانه.

يقول النبي ﷺ لابن عباس: {يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ}[2].

وبما أنَّنا ذكرنا الشرك الذي هو نقيض الإخلاص، وجب علينا تعريفه وتفصيله، وهو على ما يلي:



[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] أخرجه الترمذي 2516.

﴿الفرع الأول﴾

﴿الشرك﴾

الشرك لغة:

أَصْلُ (شرك) في اللُّغةِ: يَدُلُّ على مُقارَنةٍ وخِلافِ انفِرادٍ؛ يقالُ: شَرِكَه في الأمرِ وأشرَكَه شَرِكًا وشَرِكةً: إذا صار له شَرِيكًا[1].

الشرك اصطلاحا:

أحسن التعريفات للشرك اصطلاحا هو ما عرفه لنا رسول الله ﷺ في قوله: {أن تجعلَ للهِ نِدًّا وهو خلقكَ}[2].

ومعنى: {أنْ تَجعَلَ للهِ نِدًّا وهو خلَقَك}، والنِّدُّ: المثيلُ والنَّظيرُ، وفي تلك الجُملةِ تَنبيهٌ إلى سُوءِ وفَسادِ عُقولِ الذين يُشرِكون مع اللهِ تعالى غيْرَه، مع أنَّه هو الخالِقُ وَحْدَه لا شَريكَ له، فكما أنَّه المتفَرِّدُ بالخَلقِ والإيجادِ، فهو الذي يَجِبُ أنْ يُفرَدَ بالعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له؛ ولهذا فإنَّ كونَ الإقرارِ بأنَّ اللهَ هو الخالِقُ الرَّزاقُ المُحْيِي المُميتُ، أي: الرُّبوبية، هذا ممَّا أقَرَّ به الكُفَّارُ الذين بُعِثَ فيهم رَسولُ اللهِ ﷺ، ولكِنَّ ذلك لم يُدخِلْهم في الإسلامِ ولم يَنفَعْهم؛ لأنَّهم لم يُفرِدوا اللهَ عزَّ وجَلَّ بالعبادةِ، أي: الألوهية، ولم يَخُصُّوه بالعبادةِ التي هي مُقتَضى شَهادةِ ألَّا إلهَ إلَّا الله.

فيُفهمُ من هذا أنَّ الشرك هو صرف أي نوع من أنواع العبادة المشروعة أو غير المشروعة لغيره الله تعالى أو مع الله تعالى، ومن الشرك في العبادات المشروعة، أن تقول يا رب اشفني ويا رسول الله اشفني، ولا شكَّ أنَّ الدعاء من أرفع العبادات المشروعة، ولكن هنا جعلت مع الله تعالى ندا تدعوه مع الله تعالى، بل يجب أن تفرد الله تعالى وحده في الدعاء وفي غيره من العبادات حتى يرسخ التوحيد في قلبك فيصير سجية فيك يجري مجرى الدم.

---

[1] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (3/ 265)، ((المفردات)) للراغب (ص: 451)، ((النهاية)) لابن الأثير (2/ 466)، ((المصباح المنير)) للفيومي (1/ 311).

[2] عن عبد الله بن مسعود قال: سَأَلْتُ –أوْ سُئِلَ– رَسولَ اللَّهِ: ﷺ أيُّ الذَّنْبِ عِنْدَ اللَّهِ أكْبَرُ؟ قالَ: أنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدًّا وهو خَلَقَكَ. أخرجه البخاري (4477)، ومسلم (86) باختلاف يسير

ومن الشرك في العبادات غير المشروعة، أن تبتكر عبادة تعبد بها الله تعالى كما يفعله المبتدعة، وتعبد بها غيره، فمع أنَّ هذه العبادة في أصلها مردودة؛ لأنها غير مشروعة، إلَّا أنها تعدُّ شركا لو أشركت فيها مع الله غيره، من ذلك أن تجرح نفسك فيسيل شيء من دمك قربانا لله تعالى، وقربانا للحسين عليه السلام أيضا، فلا شكَّ أنَّ هذه العبادة مردودة، ولا أجر فيها بل فيها وزر، أما سبب أنه لا أجرى فيها فلأنها عبادة لم يأذن الله تعالى بها ولا رسوله ﷺ، وأما سبب أنَّ فيها وزر، فللضرر الذي سببه المجروح لنفسه، ولأنها غير مشروعة أيضا، وهذا من أفعال الشيعة، كما أنَّها تعدُّ شركا لأن المجروح جعلها لله تعالى وجعل لغيره، فهي عبادة مردودة من بابها، وصاحبها مؤزُور[1] لتعذيب نفسه، وهي شرك لنسبتها قربة لله تعالى ولغيره معه.

بل الشرك يصل إلى أكثر من ذلك، فعن عبادة بن الصامت قال: {قال أبو بكرٍ قوموا نستغيثُ برسولِ الله ﷺ مِن هذا المنافقِ فقال رسولُ اللهِ ﷺ إنَّه لا يُستغاثُ بي إنَّما يُستَغاثُ باللهِ عزَّ وجلَّ}[2].

فمع أنَّ أبا بكر رضي الله عنه أتى بشروط الاستغاثة الثلاثة وهي: أن يكون المستغاث به حيا، حاضرا، قادرا، وكل هذه الشروط مجتمعة في رسول الله ﷺ، ومع ذلك فقد نهاه النبي ﷺ على ذلك كما هو بيّن في الحديث، ولعلَّ نهي النبي ﷺ كان سدًّا للذريعة، أو تدريبا للصحابة، وتهذيبا لأنفسهم، كي لا يتعلَّقوا إلا بالله تعالى وحده.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ لعبد الله بن عباس :{يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّه يحفَظْكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ...}[3].

وقوله: {إذا سألتَ فاسألِ اللهَ}، أي: إذا أرَدتَ أن تَطلُبَ شيئًا، فلا تَطلُبه إلَّا مِن اللهِ، وإذا استَعنتَ فاستَعِنْ باللهِ، أي: وإذا أردتَ العونَ فلا تَطلُبِ العونَ إلَّا مِن اللهِ ولا تَستَعِنْ إلَّا باللهِ.

---

[1] تقول: رجل موزور، ومأزور، انظر لسان العرب مادة (وزر) 202/15.

[2] حسن لغيره: الرسائل الشخصية لابن عبد الوهاب 45، ومجمع الزوائد للهيثمي 162/10 وقال رجاله رجال الصحيح غير ابن لهيعة وهو حسن الحديث.

[3] أخرجه الترمذي (2516) واللفظ له، وأحمد (2669).

أقسام الشرك:

للشرك بالله تعالى قسمان:

الأول: الشرك الأكبر: وهو أن يجعل لله ندًّا يدعوه ويرجوه، أو تقول هو: صرف شيء من العبادة لغير الله تعالى، والعبادة هو كلُّ ما يُتقرَّب به إلى الله تعالى، من صلاة أو نسك، أو استغاثة، أو دعاء، أو غيره، وهو باب واسع الشَّرح، فإن مات صاحبه قبل التَّوبة منه فهو خارج من الملَّة محبط العمل بالكليَّة، خالد مخلَّدٌ في النَّار، وهو أعظم ذنب عُصيَ الله تعالى به، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: 72] .

وقال ﷺ: {أَلا أُنَبِّئُكُمْ بأَكْبَرِ الكَبائِرِ قُلْنا: بَلَى يا رَسولَ اللَّهِ، قالَ: الإشْراكُ باللَّهِ...}[1].

الثاني: الشِّرك الأصغر: وهو دون الشِّرك الأكبر، فلا يخرجه صاحبه من الإسلام ولا يحبط الأعمال بالكلية بل يحبط العمل المُشرَك به بعينه، أي العمل الذي وقع فيه الشِّرك وهو: كلُّ ما كان ذريعة إلى الشرك الأكبر ووسيلة للوقوع فيه، أو ما كان خالصا لله تعالى في أصله، ويُراد به وجه الله تعالى، لكنَّ أريد به مع ذلك مظهر من مظاهر الدنيا كالسمعة أو المال أو غيره، وأما إن أريد به القربة للأشخاص أحياء كانوا أم أمواتا، جمادات كانت أو سوائل أو غير ذلك من القرب، فينتقل من كونه شركا أصغرا إلى كونه شركا أكبر، والسبب في ذلك هو طلب القربة من غير الله تعالى، وأصل طلب القُرَبِ لله تعالى، هو طلب مرضاته والجنة، والاستعاذة به من غضبه والنار، ولذلك لا تكون نية القربة إلا من الله تعالى، فإن كانت لغيره مهما كانت العبادة فهي شرك أكبر، وأما إن كانت العبادة المشترك فيها ليست للقرب، بل للسمعة أو العلوّ أو المال أو غير ذلك من مظاهر الدنيا فهو شرك أصغر، هذا ما سار عليه تحقيق أهل العلم وهذا ما دلَّت عليه الأحاديث، من ذلك قول النبي ﷺ في حديث أبي أمامة الباهلي: {جاء رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: أرأيت رجلًا غزا يلتمِسُ الأجرَ والذِّكرَ ما له، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: لا شيءَ

---

[1] متفق عليه، البخاري 5976، ومسلم 87.

له، فأعادها ثلاثَ مرَّاتٍ، يقولُ رسولُ اللهِ ﷺ: لا شيءَ له، ثمَّ قال: إنَّ اللهَ لا يقبلُ من العملِ إلَّا ما كان خالصًا وابتُغِي به وجهُه}[1].

فجمع في قبول العمل، النيَّة الإخلاص، هذا بالنسبة لله تعالى، ويجب أيضا اتباع النبي ﷺ لقوله: {من أحدَث في أمرِنا – أو دينِنا – هذا ما ليس فيه فهو رَدٌّ}.

وفي لفظٍ: {من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ}[2].

ومن أنواع الشرك الأصغر: الرِّياء، لقوله ﷺ: {إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الرِّيَاءُ}[3].

ومنه: الحلف بغير الله تعالى لقوله ﷺ: {منْ حلفَ بغيرِ اللهِ فقدْ كفرَ أو أشركَ}[4].

وبما أننا ذكرنا الشرك بقسميه، لابأس أن نتمم بقية الموبقات الكبرى التي تخرج من الملة وما يقابلها من الصغرى، وهي على ما يلي:



---

[1] أخرجه النسائي 3140، والمنذري في الترغيب 264/2، وصححه الألباني.

[2] أخرجه البخاري (2697)، ومسلم (1718).

[3] أخرجه رواه أحمد في "المسند" 429/5 واللَّفظ له، وصححه المحققون في طبعة مؤسسة الرسالة وصححه الألباني في "صحيح الجامع" 1555، والطَّبراني، والبيهقي والبغوي.

[4] أخرجه الحاكم والتِّرمذي بإسناد صحيح 1535 عن ابن عمر رضي الله عنها، وصحَّحه الألباني.

وينظر: الإبانة من أصول الديانة: لحسن أمين المندوه يوسف الزهيرى.، وعامة كتب العقيدة لأهل السنَّة والجماعة.

﴿الفرع الثاني﴾

﴿الفسق﴾

والفسق لغة:

الخروج عن الشيء، أو الخروج عن القصد، تقول: فَسَقَتِ الرُّطْبَةُ عَنْ قِشْرِهَا إِذِ انْفَصَلَتْ عَنْهَا، وتقول فسق الرَّكب عن الطريق، إذا خرجوا[1].

واصطلاحا:

هو العصيان، وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طاعته وعن طريق الحق، تقول: رجل فاسق، أي: عصى وجاوز حدود الشرع، تقول: فسق عن أمر ربه، أي: خرج عن طاعته.

والفسق في الشَّرع على ثلاثة أنواع:

1 – فسق أكبر.

2 – فسق أصغر.

3 – فسق ملِّي.

1 – أمَّا الفسق الأكبر: فهو رديف الكفر الأكبر والشِّرك الأكبر، وهو الذي يخرج صاحبه من الملَّة والعياذ بالله تعالى ويخلد في النَّار إذا مات ولم يتب منه، ولا تنفعه شفاعة الشَّافعين قياسًا على الكافر، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة: 84].

وقال تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: 55].

وهذا لمن استحلَّ المعصية، كشرب الخمر أو الزنا أو غيره، فإن قال هي حلال اعتقادا فقد كفر كفرا أكفر، والسبب هو تكذيبه لصريح الآيات والأحاديث، مما يتولد منهم تكذيبه لله تعالى ولرسوله ﷺ، أو كانت معاصيه اعتقادية، كنفي اسم من أسماء الله تعالى المجمع عليها، أو نفيه لصفاته بالكلية، أو شيء منها نفيا اعتقاديا لا بحثيا، والنفي الاعتقادي هو النفي الجازم، والنفي البحثي هو أهون من سابقه؛ لأنه طلب الحق وبدأ بالنفي حتَّى يتبيَّن له الحق، فإن تبين له الحق وجب عليه اتباعه وإلا فهو كسابقه.

---

[1] يُنظر: معجم المعاني مادة (ف س ق).

وأمَّا الفسق الأصغر: فهو رديف الكفر الأصغر والشِّرك الأصغر، فهو فسق دون فسق، كما يوجد كفر دون كفر، وشرك دون شرك.

فالفسق الأصغر هو: معصية لا تنفي عن صاحبها أصل الإيمان، أو مطلق الإيمان، ولا تسلبه صفة الإسلام، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 282][1] قال البغوي: أي معصية وخروج عن الأمر[2].

وقال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات: 6]، ولا شك أن صاحب هذا الفسق هو من جنس الفسق الأصغر؛ لأنَّ النبأ لا يقبل من الكافر من بابه هذا ما قرره أهل الحديث، فالكافر أي صاحب الفسق الأكبر لا يقبل خبره ولا يلتفت له.

ويكون هذا الفسق الأصغر تارةً بتَرْكِ الفرائض، وتارةً بفِعلِ المحَرَّماتِ[3].

والفسق في عُرفِ الشَّرعِ أشَدُّ من العصيانِ[4].

2 – وأمَّا الفسق الملِّي:

فالمرادُ بالفاسِقِ المِلِّي: الفاسِقُ من أهلِ القِبلةِ:

قال ابنُ تيميَّةَ: بتحَقُّقِ هذا المقامِ يزولُ الاشتباهُ في هذا الموضِعِ، ويُعلَمُ أنَّ في المُسلِمين قِسمًا ليس هو منافِقًا محْضًا في الدَّركِ الأسفَلِ مِنَ النَّارِ، وليس هو من المُؤمِنين الذين قيل فيهم: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات:15]، ولا من الذين قيل فيهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:4]، فلا هم منافقون، ولا هم من هؤلاء الصَّادقين المُؤمنين حَقًّا، ولا من الذين

---

[1] للمزيد يُنظر: حقيقة الإيمان والكفر عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله بن محمد الغليفى.

[2] تفسير البغوي.

[3] يُنظر: ((مجموع الفتاوى لابن تيمية)) (251/7).

[4] يُنظر: ((فتح الباري لابن حجر)) (112/1).

يدخُلون الجنَّةَ بلا عِقابٍ، بل له طاعاتٌ ومعاصٍ، وحَسَناتٌ وسَيِّئاتٌ، ومعه من الإيمانِ ما لا يُخَلَّدُ معه في النَّارِ، وله من الكبائِرِ ما يستوجِبُ دخولَ النَّارِ[1].

وهذا القِسمُ قد يُسَمِّيه بعضُ النَّاسِ: الفاسِقَ المِلِّي، وهذا مِمَّا تنازع النَّاسُ في اسمِه وحُكمِه، والخِلافُ فيه أوَّلُ خِلافٍ ظهر في الإسلامِ في مسائِلِ أُصولِ الدِّينِ[2].

وأهلُ السُّنَّة لا يُكَفِّرون هذا الصِّنف، ولا يحكُمونَ بخُلودِه في النَّارِ، بل يَرَون أنَّه تحت المشيئةِ، لكِنَّهم تنازَعوا في اسمِه، هل يُطلَقُ عليه مُؤمِنٌ أم لا؟

وهذا الشَّخصُ الذي له سَيِّئاتٌ عُذِّب بها، وله حسَناتٌ دَخَل بها الجنَّةَ، وله معصيةٌ وطاعةٌ باتِّفاقٍ، فإن الطَّوائِفَ لم يتنازَعوا في حُكمِه، لكِنْ تنازعوا في اسمِه، فقالت المرجِئةُ جهميَّتُهم وغيرُ جَهميَّتِهم: هو مُؤمِنٌ كامِلُ الإيمانِ، وأما أهلُ السُّنَّةِ والجَماعةِ على أنَّه مُؤمِنٌ ناقِصُ الإيمانِ، ولولا ذلك لَمَّا عُذِّب، كما أنَّه ناقِصُ البِرِّ والتقوى باتِّفاقِ المُسلِمين.

فدليل أنه مؤمن هو دخوله للجنة آخر الأمر.

ودليل أنه فاسق هو تعذيبه في جهنم.

ولكنَّ عدم خلوده في النار ودخوله الجنَّة أثبت له صفة الإيمان.

فيخرج بهذا أنَّ اسم هذا الشخص: مؤمن ناقص الإيمان.

فمن المعلوم عند كل أهل العلم بجميع أصنافهم أنَّ الإيمان يزيد وينقص، أي: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وعليه: فاسمه: مؤمن ناقص الإيمان.



[1] **للمزيد: ينظر: موقع الدرر السنية الموسوعة العقدية باب الفسق فرع الفسق الملي.**

[2] **يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (7/478).**

﴿الفرع الثالث﴾

﴿الكفر﴾

الكُفْرُ لُغةً:

الكفر في اللغة: التَّغطيةُ للشَّيءِ والسَّترُ له، فكأنَّه تغطيةٌ منه على حَقِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ، وفُلانٌ كَفَر نِعمةَ اللهِ: إذا سَترَها فلم يَشكُرْها، وأصلُ (كفر): يدُلُّ على السَّتْرِ والتَّغطِيةِ[1].

والكُفْرُ اصطِلاحًا:

ضِدُّ الإيمانِ، وكما أنَّ الإيمانَ قَولٌ، وعَمَلٌ، واعتقادٌ، فالكُفْرُ يكونُ قَولًا، وعَمَلًا، واعتِقادًا، وشكًّا، وتركًا، وهذا ممَّا اتَّفق عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعةِ، خِلافًا لِمن حَصَر الكُفْرَ في التَّكذيبِ، أو الجحودَ بالقَلْبِ، أو بالقَلْب واللِّسانِ، ونفى أن يكونَ الكُفْرُ بالعَمَلِ الكُفريِّ، أو بتَرْكِ جِنسِ العَمَلِ الصَّالحِ الذي لا يصِحُّ الإيمانُ إلَّا به، لا سِيَّما الصَّلاةِ.

قال ابنُ تيميَّةَ: الكُفْرُ عَدَمُ الإيمانِ باللهِ تعالى ورَسولِه ﷺ، سواءٌ كان معه تكذيبٌ أو لم يكُنْ معه تكذيبٌ، بل شَكٌّ ورَيبٌ أو إعراضٌ عن هذا حَسَدًا أو كِبرًا أو اتِّباعًا لبَعضِ الأهواءِ الصَّارفةِ عن اتِّباعِ الرِّسالة[2].

والنُّقولُ عن عُلَماءِ الإسلامِ في بيانِ أنَّ الكُفْرَ قد يكونُ عَمَلِيًّا كثيرةٌ، نذكُرُ منها ما يلي:

قال إسحاقُ بنُ راهَوَيه: ممَّا أجمعوا على تكفيرِه وحَكَموا عليه كما حَكَموا على الجاحِدِ: المُؤمِنُ الذي آمَنَ باللهِ تعالى وممَّا جاء من عنده، ثم قَتَل نَبيًّا أو أعان على قَتْلِه، وإن كان مُقِرًّا، ويقولُ: قَتْلُ الأنبياءِ مُحَرَّمٌ، فهو كافِرٌ، وكذلك من شَتَم نَبيًّا أو رَدَّ عليه قَولَه مِن غيرِ تَقِيَّةٍ ولا خوفٍ[3].

---

[1] يُنظَر: ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (5/ 191)، ((المفردات)) للراغب (ص: 714)، ((شرح صحيح البخارى)) لابن بطال (8/ 383).

[2] يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (12/335).

[3] يُنظر: ((تعظيم قدر الصلاة)) للمروزي (2/930).

وقال البربهاريُّ: ولا نخرِجُ أحدًا من أهلِ القِبلةِ من الإسلامِ حتى يَرُدَّ آيةً من كتابِ اللهِ، أو يَرُدَّ شيئًا من آثارِ رَسولِ اللهِ ﷺ، أو يَذبحَ لغَيرِ الله، أو يصَلِّيَ لغيرِ الله، فإذا فَعَل شيئًا من ذلك فقد وجب عليك أن تخرِجَه من الإسلامِ[1].



[1] يُنظر: ((شرح السنة)) (ص: 64).

﴿الوجه الأول﴾

﴿أقسام الكفر﴾

يتقسم الكفر على قسمين:

القسم الأول: كفر أكبر.

القسم الثاني كفر أصغر.

﴿الكفر الأكبر﴾

أمَّا الكُفْرُ الأكبَرُ يُناقِضُ الإيمانَ، ويخرِجُ صاحِبَه من الإسلامِ، ويوجِبُ الخُلودَ في النَّار، ولا تنالُه شفاعةُ الشَّافعينَ، ويكونُ الكُفْرُ الأكبَرُ بالاعتقادِ، وبالقَوْلِ، وبالفِعْلِ، وبالشَّكِّ والرَّيبِ، وبالتَّركِ، وبالإعراضِ وبالاستكبارِ[1].

﴿من أنواع الكفر الأكبر﴾

1 – كُفرُ التَّكذيبِ:

وهو اعتِقادُ كَذِبِ الرُّسُلِ عليهم السَّلامُ، فمن كذَّبهم فيما جاؤوا به ظاهِرًا أو باطِنًا، فقد كفر.

والدَّليلُ:

قَوْلُ اللهِ تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 68].

قال الواحدي: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [العنكبوت: 68] **لا أحَدَ أظلَمُ ممَّن زعم أنَّ للهِ شريكًا، وأنَّه أمَرَ بالفواحِشِ** ﴿أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ﴾**؛ بمحمَّدٍ ﷺ والقرآنِ،** ﴿أَلَيْسَ

[1] يُنظر: ((الإيمان حقيقته خوارمه نَواقِضه عند أهل السنة)) لعبد الله الأثري (ص: 245).

فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت: 68] أمَا لهذا الكافِرِ المكَذِّبِ مأوًى في جَهَنَّمَ؟ وهو استفهامٌ معناه التَّقريرُ[1].

وقال سُبحانَه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: 39].

قال الواحِدي: قَولُه تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ} أي: بما في القُرآنِ مِن الجَنَّةِ والنَّارِ، والبَعثِ والقيامةِ، والثَّوابِ والعِقابِ، {وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} لم يأتِهم بَعْدُ حقيقةُ ما وُعِدوا في الكتابِ مِمَّا يؤولُ إليه أمْرُهم من العُقوبةِ[2].

وقال عزَّ وجَلَّ: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النمل: 84].

قال ابنُ جرير: قال الله: أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي أي: بحُجَجي وأدِلَّتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا يقول: ولم تَعرفوها حَقَّ مَعرفَتِها؟ أَمْ مَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فيها من تكذيبٍ أو تصديقٍ؟[3]

ويشمل هذا تكذيب سنن الأنبياء أحياء كانوا أم أمواتا، فإن ثبتت السنة عن نبي من الأنبياء وجب التصديق بها بالقلب والعمل بها بالجوارح، فإن كذَّب بها والقوم مجمعون على صحتها فقد كفر، من ذلك تكذيب البعض أنَّ تارك الصلاة كافر، ففريق ردَّ أخبار النبي ﷺ ولم يقبلها، وفريق أولها، وفريق أوَّل السند فلم يقل بتكذيب الخبر ولكن كذَّب رجال الإسناد المجمع على عدالتهم وضبطهم، وهي أخبار صحيحة عن النبي ﷺ من ذلك قوله: {العهدُ الذي بينَنا وبينَهم الصلاةُ، فمَن تركَها فقد كفرَ}[4].

وعند مسلم: {إنَّ بيْنَ الرَّجُلِ وبيْنَ الشِّرْكِ والْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلاةِ}[5].

وهذه الأخبار صحيحة مجمع على صحتها سندا ومتنا، ففريق لم يقبل هذه الأخبار، وفريق كذَّب الناقل، وفريق أوَّلها تأويلا فاسدا، فأوَّلها أصحاب الأهواء إلى كفر دون كفر وشرك دون شرك ليرضوا أسيادهم، لكنَّ هذه الأخبار لا يمكن تأويلها؛ لأنها مؤزِّرة لبعضها، وكذلك هي

---

[1] يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (3/ 426).

[2] يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (2/ 548).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (130/18).

[4] أخرجه الترمذي (2621)، والنسائي (463)، وابن ماجه (1079)، وأحمد (22987).

[5] مسلم 82.

مدعومة بآيات من الكتاب من ذلك قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ * قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: 41 – 42]، **فالآية هاهنا صريحة ولا يمكن تأويلها، ولكنَّهم أوَّلوها بقولهم: لن يخلد في النار، فيأتي الدعم بآية أخرى وفيها قوله تعالى:** ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]، **قال الأوزاعي، عن موسى بن سليمان، عن القاسم بن مخيمرة في قوله: (فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ)، قال: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركا كان كفرا[1].**

وقال ابن مسعود : على مواقيتها، قالوا: ما كنا نرى ذلك إلا على الترك؟ قال: ذاك الكفر[2].

فهذه الإضاعة هي إضاعة للمواقيت وليس تركا، فكان جزاؤهم الغي لقوله تعالى: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) والغي، قال الأعمش، عن زياد، عن أبي عياض في قوله: (فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا) قال: واد في جهنم من قيح ودم[3].

فإن كان من لم يترك الصلاة بالكلية، بل أضاعها بتضييع وقتها جزاؤه جهنَّم في واد الغي، فكيف بمن تركها جملة واحدة، بل قالوا هو لم يضيع مواقيتها، بل لم يتم ركوعها وسجودها، بل قالوا من ترك الصلاة في المساجد هذه جزاؤه فكيف بمن ترك الصلاة جملة واحدة.

ويقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 4 –5]، **انظر يا ابن أمَّ إلى هذا؛ فقد شهد الله تبارك وتعالى لهم بالصلاة، مع ذلك توعَّهم بالويل للسَّهوِ عن مواقيتها، والويل هو واد يسيل منه صديد أهل جهنَّم والعياذ بالله تعالى من ذلك، كما قال الطبري[4].**

---

[1] تفسير ابن كثير.

[2] تفسير ابن كثير.

[3] السابق.

[4] انظر: تفسير الطبري.

فمن كذب خبر الباب، أو أوَّله تأويلا فاسدا الذي لطالما ذكرناه وكرَّرنا ذكره في كتاباتنا فقد كفر، لأنَّ التأويل الفاسد هو تحريف معنوي، والمحرَّف مكذب لأصل الخبر أو كاره له، أو متكبر عنه وكله كفر والعياذ بالله تعالى، وهذا سائر على كل الأخبار من الكتاب أو من السنة.
وانظر إلى فحل الرجال الإمام ابن أبي ذئب ماذا قال في إمام دار الهجرة مالك بن أنس حين ردَّ خبر الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ، فَقَالَ: يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلاَّ ضُرِبَتْ عُنُقُهُ[1].

---

[1] قال الإمام الذهبي في السير (7/ 142 – 143) عند ترجمة ابن أبي ذئب – وقد رواه عنه أيضًا تلميذه حربٌ الكرمانيُّ في "مسائله"(ص/481)؛ فقال: سمعته؛ يقول: "بلغ ابن أبي ذئب أنَّ مالك بن أنسٍ؛ قال: ليس البيِّعان بالخيار؟ فقال ابن أبي ذئب: يستتاب مالك، فإن تاب وإلاَّ ضربت عنقه."
وكذا هو عند ابن مفلح في "المقصد الأرشد"(306/2) وابن أبي يعلى في "طبقات الحنابلة"(56/2) عن عمر بن محمَّد بن بكَّار القلافلائيِّ أبي جعفرٍ حدَّث بمسائل أبي إسحاق إبراهيم بن هانىء النَّيسابوريِّ؛ قال: سمعت أبا عبد الله؛ يقول: فذكره.
وأيضًا من رواية الفضل بن زياد أبو العبَّاس القطَّان البغداديُّ عنه كما في "المقصد الأرشد"(312/2) عن أبي بكرٍ الخلاَّل.
وفي روايةٍ عن ابنه عبد الله كما في "العلل"(1275)؛ قال: سمعته؛ يقول: "قالوا لابن أبي ذئب: إنَّ مالكا؛ يقول: ليس البيِّعان بالخيار، فقال ابن أبي ذئب: هذا خبر موطوء في المدينة. قال أبي: وكان مالك؛ يقول: ليس البيِّعان بالخيار. سمعت أبي؛ يقول: قال ابن أبي ذئب: يستتاب مالك فإن تاب، وإلاَّ ضربت عنقه.
وأخرجه الفسويُّ في "المعرفة والتَّاريخ"(686/1) ومن طريقه الخطيب البغداديُّ في "تاريخه"(515/3) وابن أبي يعلى في "طبقاته"(251/1) عن الفضل بن زياد، عن أحمد بن حنبل؛ قال: بلغ ابن أبي ذئب أنَّ مالكا لم يأخذ بحديث البيِّعين بالخيار؛ قال: يستتاب وإلاَّ ضربت عنقه. ومالك لم يرد الحديث ولكن تأوَّله على غير ذلك.
وقد ذكرها أيضًا الإمام الذَّهبيُّ في "تذهيب التَّهذيب"(190/8).
وأخرجه أيضا الإمام أبو إسماعيل الأنصاريُّ الهرويُّ في "ذم الكلام"(885)؛ قال: أخبرنا محمَّد بن موسى، حدَّثنا محمَّد بن يعقوب، حدَّثنا عبد الله ابن أحمد بن حنبل، سمعت أبي؛ يقول: قيل لابن أبي ذئب: مالك بن أنس؛ يقول: ليس البيِّعان بالخيار ما لم يتفرَّقا. فقال: يستتاب مالك؛ فإن تاب وإلاَّ ضربت عنقه.
قلت: فمدار هذه الرِّواية ـ كما رأينا آنفًا ـ هي فقط على الإمام أحمد، ومنه اشتهرت بواسطة تلامذته: الفضل بن زياد وحربٌ الكرمانيُّ وابن هانئ النَّيسابوريُّ وابنه عبد الله؛ وهؤلاء جميعهم أئمَّة ثقات أثبات. إلاَّ أنَّ علَّتها الانقطاع كما هو ملاحظٌ فيها؛ فالإمام أحمد لم يسندها، ولعلَّها لم تصح كما قال ذلك الذَّهبيُّ في السِّير، وكنِّي أراها ثابتة لرواية الأثبات الثقات لها، ومع ذلك الناظر إلى نمط حياة ابن أبي ذئب وشجاعته وقوله للحق لا يستغرب ذلك.

2 – كُفرُ الإباءِ والاستِكبارِ:

وذلك بأن يكونَ عالِمًا بصِدقِ الرَّسولِ ﷺ، وأنَّه جاء بالحَقِّ مِن عندِ اللهِ تعالى، لكِنْ لا ينقادُ لحُكمِه، ولا يُذعِنُ لأمْرِه، استِكبارًا وعِنادًا.

والدَّليلُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 34].

قال الشَّوكاني: معنى أبى: امتَنَع مِن فِعلِ ما أُمِرَ به. والاستكبارُ: الاستِعظامُ للنَّفسِ، وقد ثبت في الصَّحيحِ عنه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم {إنَّ الكِبرَ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ} وفي روايةٍ {غَمْصُ} بالصَّاد المهمِلَة، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، أي: من جِنْسِهم. قيل: إنَّ "كان" هنا بمعنى صار[1].

وقال سُبحانَه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل: 14].

قال الواحدي: الآيةُ معناها: وجَحَدوا بها ظُلمًا وترَفُّعًا عن أن يؤمنوا بما جاء به موسى، وهم يعلمون أنَّها من عندِ اللهِ عزَّ وجَلَّ[2].

وقال اللهُ تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 89].

عن قتادةَ في قَولِه: { مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا} قال: كانت اليهودُ تَستفتِحُ بمُحَمَّدٍ ﷺ على كُفَّارِ العَرَبِ مِن قَبلُ، وقالوا: اللَّهُمَّ ابعَثْ هذا النَّبيَّ الذي نجِدُه في التَّوراةِ يُعَذِّبُهم ويَقتُلُهم، فلمَّا بَعَث اللهُ محمَّدًا ﷺ فرَأَوا أنَّه بُعِث من غيرِهم، كَفَروا به؛ حَسَدًا للعرَبِ، وهم يَعلَمونَ أنَّه رَسولُ اللهِ ﷺ، يَجِدونَه مَكتوبًا عندهم في التَّوراةِ {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ}.

---

[1] يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (**78/1**).

[2] يُنظر: ((الوجيز)) (ص: **801**).

وقال السَّمرقنديِ: {فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} أي: سَخَطُ اللهِ وعَذابُه على الجاحِدين محمَّدًا ﷺ [1].

وقال الواحدي: كُفرُ الجُحودِ: أن يَعرِفَ بقَلْبِه ولا يعتَرِفَ بلِسانِه، ككُفْرِ إبليسَ، وكُفْرِ أمِيَّةَ بنِ أبي الصَّلْتِ، ومنه قَولُه تعالى: {فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ} يعني: كُفرَ الجُحودِ[2].

3 – كُفرُ الشَّكِّ:

وهو التَّردُّدُ، وعَدَمُ الجَزمِ بصِدقِ الرُّسُلِ، وهو ضِدُّ الجَزمِ واليقينِ.

والدَّليلُ:

قَالُ اللهِ عزَّ وجَلَّ: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: 35 – 38].

والظن هاهنا بمعنى اليقين وقد بينَّا سابقا أنَّ أصل الظن هو اليقين ولكنه من المشتركات فيُحمل على الشك والوهم على حسب السياق.

فقوله: {مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا} أي: لست متيقنا من أن تبيد هذه الجنَّة، وقوله: {وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً} أي: لست مستيقنا من قيام الساعة، فأنا متشكك في وجودها من عدمه، ولكن لو فرضنا وقامة الساعة سأجد جنَّة خير من جنَّتي هذه، وذلك معنى قوله: {وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا}.

فكان جواب صاحبه بأن قال: { أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا * لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا}.

فكان شكه كفر، وفي الآية دليل على أنَّ الظن من أصول يقين.

---

[1] يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (1/ 72).

[2] يُنظر: ((التفسير الوسيط)) (1/ 84).

قال ابنُ عطية: ظُلْمُه لنَفْسِه: كُفرُه وعقائِدُه الفاسِدةُ في الشَّكِّ في البَعثِ – فقد نَصَّ على ذلك قتادةُ وابنُ زيدٍ، وفي شَكِّه في حُدوثِ العالَمِ إن كانت إشارتُه بـ {هَذِهِ} إلى الهيئةِ مِن السَّمَواتِ والأرضِ وأنواعِ المخلوقاتِ، وإن كانت إشارتُه إلى جَنَّتِه فقط فإنَّما في الكلامِ تساخُفٌ واغترارٌ مُفرِطٌ وقِلَّةُ تحصيلٍ؛ وكأنَّه مِن شِدَّة العُجبِ بل والسُّرورِ أفرط في وَصْفِها بهذا القَوْلِ، ثم قاس أيضًا الآخرةَ على الدُّنيا، وظَنَّ أنَّه لم يُمْلَ له في دنياه إلَّا لكرامةٍ يستوجِبُها في نَفْسِه، قال: فإن كان ثَمَّ رُجوعٌ –كما يزعُمُ– فستكون حالي كذا وكذا... وقولُه: {قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ} حكايةٌ أنَّ المُؤمِنَ من الرَّجُلينِ لَمَّا سَمِع كلامَ الكافِرِ وَقَّفَه على جهة التَّوبيخ على كُفرِه باللهِ تعالى... ثمَّ جَعَل يُعَظِّمُ اللهَ تعالى عنده بأوصافٍ تضَمَّنَت النِّعَمَ والدَّلائِلَ على جوازِ البَعثِ مِن القُبورِ[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم: 9].

قال البغوي: وقالُوا يعني: الأُمَمَ للرُّسُلِ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ مُوجِبٍ للرِّيبةِ مُوقِعٍ للتُّهمةِ[2].

وقال ابنُ كثير: قالوا: إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ يقولون: لا نُصَدِّقُكم فيما جئتُم به؛ فإنَّ عندنا فيه شَكًّا قَوِيًّا[3].

4 – كُفرُ الإعراضِ:

والمرادُ: الإعراضُ الكُلِّيُّ عن الدِّينِ، بأن يُعرِضَ بسَمْعِه وقَلْبِه وعِلْمِه عمَّا جاء به الرَّسولُ ﷺ.

والدَّليلُ:

قَولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: 3].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (3/ 517).

[2] يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/ 31).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (4/ 481).

قال السَّمعانيُّ: قَولُه: وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَما أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ أي: مُعرِضون إعراضَ المُكَذِّبين الجاحِدين[1].

وقال الشَّوكانيُّ: وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَما أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ أي: عَمَّا أُنذِروا وخُوِّفوا به في القرآنِ مِن البَعثِ والحِسابِ والجزاءِ: مُعرِضون مُوَلُّون، غيرُ مُستَعِدِّين له، والجُملَّةُ في محلِّ نَصبٍ على الحالِ، أي: والحالُ أنَّهم مُعرِضون عنه غيرُ مُؤمِنين به[2].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: 24].

قال ابنُ جرير: قوله: {بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ}، يقولُ: بل أكثَرُ هؤلاء المُشْرِكين لا يعلمون الصَّوابَ فيما يقولون ولا فيما يأتُون ويَذَرون، فهم مُعرِضون عن الحَقِّ جَهلًا منهم به، وقِلَّةَ فَهمٍ[3].

5 – كُفرُ النِّفاق:

والمرادُ النِّفاقُ الاعتقاديُّ بأن يُظهِرَ الإيمانَ، ويُبطِنَ الكُفْرَ.

والدَّليلُ:

قَولُ اللهِ سُبحانَه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:3].

قال ابنُ كثير: أي: إنَّما قَدَّر عليهم النِّفاقَ لرُجوعِهم عن الإيمانِ إلى الكُفْرانِ، واستبدالِهم الضَّلالةَ بالهُدى {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أي: فلا يَصِلُ إلى قُلوبِهم هدى، ولا يخلُصُ إليها خيرٌ، فلا تعي ولا تهتَدي[4].

وقال اللهُ تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: 8].

---

[1] يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (5/ 148).

[2] يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (5/ 17).

[3] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/ 248).

[4] يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (8/ 125).

قال السمعاني: أكثَرُ المُفَسِّرين على أنَّه في شأنِ المنافِقين، ومعناه: ومن النَّاس ناسٌ تقولُ: آمَنَّا باللهِ وباليومِ الآخِرِ، يعني: القيامةَ، {وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ} نفى الإيمانَ عنهم؛ حيث أظهروا الإسلامَ باللِّسانِ ولم يعتَقِدوا بالجَنانِ، وهذا دليلٌ على من يُخرِجُ الاعتقادَ من جُملةِ الإيمانِ[1].

وقال السَّعْديُّ: اعلَمْ أنَّ النِّفاقَ هو: إظهارُ الخيرِ وإبطانُ الشَّرِّ، ويدخُلُ في هذا التَّعريفِ النِّفاقُ الاعتقاديُّ، والنِّفاقُ العَمَليُّ، كالذي ذكَر النَّبيُّ ﷺ في قَولِه: {آيةُ المنافِقِ ثلاثٌ: إذا حَدَّث كَذَب، وإذا وَعَد أخلَفَ، وإذا اؤتُمِنَ خان}[2]، وفي روايةٍ: {وإذا خاصَمَ فجَرَ}[3].

وأمَّا النِّفاقُ الاعتِقاديُّ المخرِجُ عن دائرةِ الإسلامِ، فهو الذي وَصَف اللهُ تعالى به المنافِقين في هذه السُّورةِ وغَيرِها، ولم يكُنِ النِّفاقُ موجودًا قبل هِجْرةِ الرَّسولِ ﷺ من مكَّةَ إلى المدينةِ، وبعد أن هاجَرَ، فلَمَّا كانت وقعةُ بدر وأظهر اللهُ المُؤمِنين وأعَزَّهم، ذَلَّ مَن في المدينةِ مِمَّن لم يُسلِمْ، فأظهَرَ بَعْضُهم الإسلامَ خوفًا ومخادَعةً، ولِتُحقَنَ دِماؤُهم، وتَسلَمَ أموالُهم، فكانوا بين أظهُرِ المُسْلِمين في الظَّاهِرِ أنَّهم منهم، وفي الحقيقةِ ليسُوا منهم، فمِن لُطفِ اللهِ بالمُؤمِنين أنْ جَلَّى أحوالَهم ووصَفَهم بأوصافٍ يتمَيَّزون بها؛ لئلَّا يغتَرَّ بهم المُؤمِنون، ولِيَنقَمِعوا أيضًا عن كثيرٍ مِن فُجورِهم[4].

6 –كفر الاستهزاء:

فالاستهزاء بالله تعالى أو برسوله ﷺ ، أو بأي شيء ورد في القرآن، أو بأي شيء جاء به النبي ﷺ هو كفر أكبر مخرج من الملَّة.

والدليل قوله تعالى: ﴿قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ * وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة: 64 – 65 – 66].

---

[1] يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (1/ 47).

[2] أخرجه البخاري (33)، ومسلم (59).

[3] عن عبد الله بن عمرو عن النبي قال: أَرْبَعٌ مَن كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا – أَوْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِن أَرْبَعَةٍ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ – حتَّى يَدَعَهَا: إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وإذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وإذَا خَاصَمَ فَجَرَ. رواه البخري 2459، و34.

[4] يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 42).

وقد روى الإمام الطبري في تفسيره عن سعد، عن زيد بن أسلم: أن رجلاً مِن المنافقين قال لعوف بن مالك في غزوة تَبوك: ما لقُرَّائنا هؤلاء؛ أرغبنا بطونًا وأكذبنا ألسنةً، وأجبننا عند اللقاء؟! فقال له عوف: كذبتَ، ولكنك منافقٌ، لأُخْبِرَنَّ رسول الله ﷺ، فذهب عوفٌ إلى رسول الله ﷺ ليُخبره، فوجد القرآن قد سبَقه، قال زيد: قال عبدالله بن عمر: فنظرتُ إليه مُتعلقًا بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ تنكبُهُ الحجارة، يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [التوبة: 65]، فيقول له النبيُّ ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة: 65]؟ ما يَزيدُه[1].

قال أبو بكر ابن العربي رحمه الله تعالى: لا يخلو أن يكون ما قالوه من ذلك جدا أو هزلا، وهو كيفما كان كفر؛ فإن الهزل بالكفر كفر، لا خُلْف فيه بين الأمة، فإن التحقيق أخو الحق والعلم، والهزل أخو الباطل والجهل[2]. انتهى.

فهذا النوع من الناس كافر ولو أتى بكل أركان الإيمان، إلا إن كان جاهلا بهذا الأمر لمن يعذر بالجهل في فروع العقيدة، وأنا أعذر بالجهل في ذلك؛ لأن سبب بعثة الرسل هو رفع الجهل عن الناس، وما كان الله تعالى ليعذب أحدا حتى يبعث رسولا يرفع عنه الجهل، قال تعالى:

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: 15]؛ فإن استمرَّ فقد أقيمت عليه الحجة، وعليه فإن كان صاحب هذا الفعل جاهلا، نقول: قد أتى بفعل كفري ولم يكفر حتى يتبيَّن له أنَّ ما فعله كفر، فإن استمرَّ بعد العلم فقد كفر، والله أعلم.

7 – كفر البغض والكره:

وهو أن يبغض أو يكره الله تعالى أو رسوله ﷺ، أو يبغض شيئا مما جاء به الله تعالى أو جاء به رسوله ﷺ ولو كانت لحية أو قميصا أو سواكا أو نقابا، فقد كفر.

---

[1] ينظر: تفسير الطبري (14/ 333) و(16912)، وابن أبي حاتم في ((التفسير)) (10515) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. قال العقيلي في ((الضعفاء الكبير)) (1/94): إسناده فيه مقال، ويحسن بشواهد الآية رقم 66 من سورة التوبة.

[2] تفسير ابن العربي (2/ 543).

ودليله:

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾[محمد: 8 – 9].

فهم كفروا؛ لأنهم كرهوا ما أنزل الله تعالى من الكتاب والشرائع، فهذا هو سبب كفرهم.

8 – كفر الموالاة:

وهو أن يوالي الكافر على المسلم، فينصر الكافر على حساب المسلم، ولو بمجرد الاعتقاد.

ودليله:

قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾[المائدة:51].

قال السعدي: **لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم**[1].

9 – كفر السحر.

وهو أن يتعلمه أو يعلمه أو يذهب لمن يعمله له، أو يرضى به، سواء سحر العطف أو الصرف، فهو كافر.

ودليله:

قوله تعالى: ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾[البقرة:102].

والسَّحرة أعداء الأنبياء، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ ﴾[الأنعام: 112].

فالشياطين منهم الإنس ومنهم الجن، والنبي يوحي إليه ملك من الرحمن، والساحر يوحي إليه الشيطان، والنبي يأتي بالكرامات والمعجزات، والساحر يأتي بما يقابله من السحر، لذلك كان الساحر كافرا، هو ومن آمن به، أو اتبعه، أو عضَّمه، أو أقره، أو عمله، أو ذهب لمن يعمله له، أو تعلَّمه، إلا لعالم شريعة كي يدحض به الشبهات التي تختلط على بعض الناس فيظنون

---

[1] ينظر: تفسير السعدي.

السحر كرامة والساحر ولي، فيأتي العالم الرباني الذي درس السحر بحجة دحره فيبين الحق من الباطل.

10 – كفر الوسائط:

وهو أن يجعل بينه وبين الله تعالى وسائط يدعوهم ويسألهم الشفاعة ويتوكل عليهم فقد كفر إجماعا.

ودليله:

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾[يونس: 18]، فمن فعل ذلك كان شبيها بعباد الأوثان.

ولذلك قال ابن مفلح رحمه الله تعالى: لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى[1]. انتهى

وقال ابن تيمية رحمه الله تعالى: فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط، يدعوهم ويتوكل عليهم، ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات: فهو كافر بإجماع المسلمين[2]. انتهى

وقد تلقى العلماء هذا الإجماع من شيخ الإسلام، وأثبتوه في أبواب حكم المرتد من كتبهم، كما نقله المرداوي فقال: وكذا الحكم لو جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، إجماعا[3]. انتهى



[1] الفروع لابن مفلح (553/3).

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية (124/1).

[3] الإنصاف للمرداوي (327/10). وينظر: كشاف القناع للبهوتي (168/6)

﴿الكفر الأصغر﴾

الكُفْرُ الأصْغَرُ غيرُ مُخْرِج من المِلَّةِ، ولا يُناقِضُ أصلَ الإيمانِ، بل يَنقُصُه ويُضعِفُه، ولا يَسلُبُ صاحِبَه صِفةَ الإسلامِ وحَصانتَه، وهو المشهورُ عند العُلَماءِ بقَولِهم: كُفرٌ دونَ كُفرٍ.

وقد أطلقه الشَّارعُ على بَعْضِ المعاصي والذُّنوبِ على سبيلِ الزَّجرِ والتَّهديدِ؛ لأنَّها من خِصالِ الكُفْرِ، وهي لا تَصِلُ إلى حَدِّ الكُفْرِ الأكبَرِ، وإنَّما هي مِن كبائِرِ الذُّنوبِ، وهو مُقتَضٍ لاستحقاقِ الوَعيدِ والعذابِ دون الخُلودِ في النَّارِ، وصاحِبُ هذا الكُفْرِ مِمَّن تنالُهم شفاعةُ الشَّافعينَ بإذنِ اللهِ تعالى[1].

﴿من أنواع الكفر الأصغر﴾

1 – كُفرُ النِّعمةِ:

وذلك بنِسبتِها إلى غيرِ اللهِ تعالى بلِسانِه دونَ اعتقادِه، فإن كان باعتقاده فهو كفر أكبر.

قال اللهُ تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: 83].

قال الشَّوكاني: جُملةُ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا استئنافٌ لبيانِ تَوَلِّيهم، أي: هم يَعرِفون نعمةَ اللهِ تعالى التي عَدَّدها، ويعترفون بأنَّها من عندِ اللهِ سُبحانَه، ثُمَّ يُنكِرونَها بما يقَعُ من أفعالِهم القبيحةِ من عبادةِ غيرِ اللهِ، وبأقوالِهم الباطِلةِ، حيث يقولون: هي من اللهِ تعالى، ولكِنَّها بشفاعةِ الأصنامِ، وحيث يقولون: إنَّهم وَرِثوا تلك النِّعَمَ من آبائِهم، وأيضًا كونُهم لا يَستعمِلون هذه النِّعَمَ في مرضاةِ الرَّبِّ سُبحانَه، وفي وُجوهِ الخيرِ التي أمرهم اللهُ بصَرْفِها فيها، وقيل: نعمةُ اللهِ نُبُوَّةُ محمَّدٍ ﷺ، كانوا يعرفونه ثُمَّ يُنكِرون نُبُوَّتَه وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ أي: الجاحِدون لنِعَمِ اللهِ، أو الكافِرون باللهِ[2].

ومن ذلك قَولُ الرَّجُلِ: لولا فلانٌ لم يكُنْ كذا وكذا، فينسُبون النِّعمةَ إلى غيرِ اللهِ، مع عِلْمِهم أنَّها بتوفيقِ اللهِ وَحْدَه، وهذا إن كان باللسان فهو كفر أصغر، ولكن إن كان باعتقاد فهو كفر أكبر.

[1] موقع الدرر السنية: الكفر الأكبر والأصغر.

[2] يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (3/ 222).

قال السَّعْديُّ: الشِّركُ الأصْغَرُ كالشِّركِ في الألفاظِ؛ كالحَلِفِ بغيرِ اللهِ، وكالتَّشريكِ بين اللهِ وبين خَلْقِه في الألفاظِ، كـ: لولا اللهُ وفلانٌ، وهذا باللهِ وبك؛ وكإضافةِ الأشياءِ ووُقوعِها لغيرِ اللهِ، كـ: لولا الحارِسُ لأتانا اللُّصوصُ، ولولا الدَّواءُ الفلاني لهلكْتُ، ولولا حِذقُ فُلانٍ في المكسَبِ الفلانيِّ لَمَا حَصَل. فكُلُّ هذا ينافي التَّوحيدَ.

والواجِبُ أن تضافَ الأمورُ ووقوعُها ونَفْعُ الأسبابِ إلى إرادةِ اللهِ، وإلى اللهِ ابتداءً، ويُذكَر مع ذلك مرتبةُ السَّبَبِ ونَفْعُه، فيقول: لولا اللهُ ثُمَّ كذا؛ لِيُعلَمَ أنَّ الأسبابَ مربوطةٌ بقَضاءِ اللهِ وقَدَرِه[1].

من ذلك قول النبي ﷺ: {لا تقولوا: ما شاء اللهُ وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء اللهُ، ثم شاء فلانٌ}[2].

ومن ذلك تسميةُ الأبناءِ بعَبدِ الحارثِ، وعبدِ الرَّسولِ، وعبدِ الحُسَين، ونحوِها؛ لأنَّه عبَّده لغيرِ اللهِ لفظًا، مع أنَّه هو خالِقُه والمنعِمُ عليه.

قال وَلِيُّ اللهِ الدهلَويُّ في بابِ أقسامِ الشِّركِ: ومنها: أنَّهم كانوا يُسَمُّون أبناءَهم عَبْدَ العُزَّى وعَبْدَ شَمسٍ ونحوَ ذلك... وقد ثبت في أحاديثَ لا تُحصى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيَّر أسماءَ أصحابِه من عَبْد العُزَّى وعَبْد شَمسٍ ونَحوَهما إلى عَبدِ اللهِ وعَبدِ الرَّحمنِ وما أشبَهَهما؛ فهذه أشباحٌ وقَوالِبُ للشِّركِ نهى الشَّارعُ عنها؛ لكَونِها قوالِبَ له. واللهُ أعلَمُ[3].

2 - كُفرانُ العَشيرِ والإحسانِ:

عنِ ابنِ عَبَّاس رَضِيَ اللهُ عنهما قال: قال النَّبيُّ ﷺ: {أُريتُ النَّارَ، فإذا أكثَرُ أهلِها النِّساءُ؛ يَكْفُرْنَ" قيل: أيكفُرْنَ باللهِ؟ قال: "يَكْفُرْنَ العشيرَ، ويَكْفُرْنَ الإحسانَ؛ لو أحسَنْتَ إلى إحداهنَّ الدَّهرَ ثُمَّ رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيتُ منك خيرًا قطُّ}[4].

قال أبو العَبَّاسِ القُرطبي: أمَّا الكُفْرُ الواقِعُ في الشَّرعِ، فهو جَحدُ المعلومِ منه ضرورةً شَرعيَّةً، وهذا هو الذي جرى به العُرفُ الشَّرعيُّ، وقد جاء فيه الكُفْرُ بمعنى جَحْدِ المنعِمِ، وتَرْكِ الشُّكرِ

---

[1] يُنظر: ((القول السديد)) (ص: 143).

[2] صحيح أخرجه أبو داود 4980.

[3] يُنظر: ((حجة الله البالغة بتصرف)) (1/ 122).

[4] أخرجه البخاري (29) واللَّفظُ له، ومسلم (907) مُطَوَّلًا.

على النِّعَمِ، وتَرْكِ القيامِ بالحُقوقِ، ومنه قَولُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ للنِّساءِ: {يَكْفُرْنَ الإحسانَ، ويَكْفُرْنَ العشيرَ}، أي: يجحَدْنَ حُقوقَ الأزواجِ وإحسانَهم، ومن هاهنا صَحَّ أن يقالَ: كُفرٌ دونَ كُفرٍ، وظُلمٌ دونَ ظُلمٍ[1].

3 – الحَلِفُ بغيرِ اللهِ تعالى:

عنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {من حَلَف بغيرِ اللهِ فقد كفر أو أشرَكَ}[2].

قال المناوي: من حَلَف بغيرِ اللهِ فقد كَفَر، وفي روايةٍ: (أشرك) أي: فَعَل فِعْلَ أهلِ الشِّرْك أو تشَبَّه بهم؛ إذ كانت أيمانُهم بآبائِهم وما يَعبُدون من دون اللهِ فقد أشركَ في تعظيمِ من لم يكُنْ أن يُعَظِّمَه؛ لأنَّ الأيمانَ لا تصلُحُ إلَّا باللهِ؛ فالحالِفُ بغيرِه مُعَظِّمٌ غَيرَه ممَّا ليس له؛ فهو يُشرِكُ غيرَ اللهِ في تعظيمِه.

ورَجَّحَه ابنُ جريرٍ، ومن هذا التَّقريرِ عُلِمَ أنَّ مَن زَعَم أنَّ الخَبَرَ ورد على مَنهَجِ الزَّجرِ والتَّغليظِ، فقد تكَلَّفَ[3].

وقد قَرَّر عُلَماءُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ أنَّ هذا الشِّرْكَ والكُفْرَ هما من الأصْغَرِ الذي لا يُخرِجُ صاحِبَه من الإسلامِ، ما لم يَعظُمِ المحلوفُ به في قَلْبِ الحالِفِ، كتعظيمِ اللهِ تعالى[4].

قال النووي: لو اعتَقَد الحالِفُ في المحلوفِ به من التَّعظيمِ ما يعتَقِدُه في اللهِ تعالى، كَفَر[5].

وأقول: أنَّ كلام النووي أقرب إلى الحق، فمن علم بأنَّ الحلف بغير الله تعالى كفر أصغر ومع ذلك حلف بغير الله تعالى عامدا، فقد وقع في الكفر الأكبر عنادا.

وقال ابنُ عثيمين في تعريف الشِّرْك الأصْغَر: كُلُّ عَمَلٍ قَوليٍّ أو فِعليٍّ أَطلق عليه الشَّرعُ وَصْفَ الشِّرْكِ، ولكنَّه لا يُخرِجُ مِنَ المِلَّةِ، مِثلُ الحَلِفِ بغيرِ اللهِ[1].

---

[1] يُنظر: ((المفهم)) (253/1).

[2] أخرجه أبو داود (3251)، والترمذي (1535) واللَّفظُ له، وأحمد (6072). صَحَّحه ابن حبان في ((صحيحه)) (4358)، والحاكم على شَرطِ الشَّيخَينِ في ((المستدرك)) (7814)، وابن تيمية كما في ((المستدرك على مجموع الفتاوى)) لابن قاسم (28/1)، وابن القيم في ((الوابل الصيب)) (189).

[3] يُنظر: ((فيض القدير)) (6/ 120).

[4] يُنظر: ((طرح التثريب)) للعراقي (7/ 142 – 147).

[5] يُنظر: ((روضة الطالبين)) (6/11).

وقال أيضًا: الحَلِفُ بغيرِ اللهِ شِركٌ أكبَرُ إذا اعتقد أنَّ المحلوفَ به مساوٍ للهِ تعالى في التَّعظيمِ والعَظَمةِ، وإلَّا فهو شِركٌ أصْغَرُ[2].

وعليه: فمن حلف بغير الله تعالى عمدا دون علم بالحكم فلا شيء عليه حتى يعلم الحكم، فإن لم يعلم الحكم وقع عليه وزر عدم تعلم المعلوم بالضرورة، ومن حلف بغير الله تعالى وهو عالم بالحكم غير عامد فلا شيء عليه، ومن حلف بغير الله تعالى عمدا وعندا مع علمه بالحكم فقد وقع في الشرك الأكبر غالبا، ومن حلف بغير الله تعالى وهو معظم للمحلوف به تعظيم الله تعالى فقد وقع في الشرك الأكبر، والله أعلم.

كذلك فإنَّ الحديث لم يذكر فيه استثناء الكفر الأكبر، كما في حديث نساء جهنَّم حيث قال: {تكفرن العشير}، فالحلف بغير الله تعالى في الحديث لم يُقيَّد بشيء، ولذلك نخشى أنَّ الحالف بغير الله ولو كان مُعظما للمحلوف به دون تعظيم الله تعالى فقد أشرك شركا أكبر، والله أعلم

4 – قِتالُ المُسْلِمِ:

عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {سِبابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ، وقِتالُه كُفرٌ}[3].

قال النَّوويُّ: السَّبُّ في اللُّغةِ: الشَّتمُ والتَّكلُّمُ في عِرضِ الإنسانِ بما يَعيبُه.

والفِسقُ في اللُّغةِ: الخُروجُ. والمرادُ به في الشَّرعِ: الخروجُ عن الطَّاعةِ، وأمَّا معنى الحديثِ فسَبُّ المُسْلِمِ بغيرِ حَقٍّ حَرامٌ بإجماعِ الأُمَّةِ، وفاعِلُه فاسِقٌ، كما أخبر به النَّبيُّ ﷺ، وأما قتالُه بغيرِ حَقٍّ فلا يَكفُرُ به عند أهلِ الحَقِّ كفرًا يَخرُجُ به من المِلَّةِ، كما قَدَّمْناه في مواضِعَ كثيرةٍ، إلَّا إذا استحَلَّه. فإذا تقَرَّر هذا فقيلَ في تأويلِ الحديثِ أقوالٌ:

أحدها: أنَّه في المستَحِلِّ.

والثَّاني: أنَّ المرادَ كُفرُ الإحسانِ والنِّعمةِ وأُخُوَّةِ الاسلامِ لا كُفرُ الجُحودِ.

والثَّالِثُ: أنَّه يَؤُولُ إلى الكُفْرِ بشُؤمِه.

---

[1] يُنظر: ((مجموع فتاوى)) ابن عثيمين (203/2)، ((شرح الأصول الثلاثة)) ضمن ((مجموع الفتاوى)) له (115/7).

[2] يُنظر: ((القول المفيد)) (325/2).

[3] أخرجه البخاري (48)، ومسلم (64).

والرَّابعُ: أنَّه كفِعلِ الكُفَّارِ. واللهُ أعلَمُ، ثُمَّ إنَّ الظَّاهِرَ من قتالِه المقاتَلةُ المعروفةُ[1].

وقال النوويُّ أيضا: قَوْلُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {لا تَرجِعوا بعدي كُفَّارًا؛ يَضرِبُ بَعضُكم رِقابَ بَعضٍ} قيل في معناه سبعةُ أقوالٍ:

أحَدُها: أنَّ ذلك كُفرٌ في حَقِّ المستحِلِّ بغيرِ حَقٍّ.

والثَّاني: المرادُ كُفرُ النِّعمةِ وحَقِّ الإسلامِ.

والثَّالثُ: أنَّه يُقَرِّبُ من الكُفْرِ ويؤدِّي إليه.

والرابعُ: أنَّه فِعلٌ كفِعلِ الكُفَّارِ.

والخامِسُ: المرادُ حقيقةُ الكُفرِ، ومعناه: لا تَكفُروا بل دوموا مُسْلِمين.

والسَّادِسُ: حكاه الخطَّابي وغيرُه، أنَّ المرادَ بالكُفَّارِ المتكَفِّرون بالسِّلاحِ، يقالُ: تكَفَّر الرَّجُلُ بسلاحِه: إذا لَبِسَه.

قال الأزهريُّ في كتابِه «تهذيب اللغة» يقال للابِسِ السِّلاحِ: كافِرٌ.

والسَّابعُ: قاله الخَطَّابي، معناه: لا يُكَفِّرْ بَعضُكم بعضًا، فتَستَحِلُّوا قِتالَ بَعْضِكم بعضًا.

وأظهَرُ الأقوالِ الرَّابعُ، وهو اختيارُ القاضي عياضٍ رحمه اللهُ[2]. أهـ

وأقول: الأظهر عندي هو الأوَّل، وذلك للسلامة من تأويل كلام النبي ﷺ على غير معناه الظاهر، فالمسلم المستحل لدم المسلم بغير حق والعامد لقتله، فهو كافر بالإجماع؛ لأنه قتل مسلما متعمِّدا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: 93]، وقد قيل فهذا النوع من القتل أنه عمل كفري عملي لا اعتقادي، ولكنَّ الأمر فيه كلام، فالقاتل المتعمد خالد في جهنَّم، وزاد على ذلك غضب الله تعالى ولعنته، استحلَّ محرمًّا بل كبيرة من الكبائر، ولكن بمجموع النصوص، سوف يتبيَّن لنا أنَّ قاتل المسلم الذي يستحق الكفر هو من استحلَّ دم المسلم، ومن المعلوم أنَّ استحلال ما حرَّمه الله تعالى كفر.

---

[1] يُنظر: ((شرح مسلم)) (2/ 53).

[2] يُنظر: ((شرح مسلم)) (2/ 55).

وأما إن كان قتل المسلم من غير استحلال دمه، فقد أتى بكبيرة، ولا يكون هذا إلا بغير قصد صحيح، وهذا النّوعُ من الكُفْرِ غيرُ مُخْرِجٍ من المِلَّةِ باتِّفاقِ الأئِمَّةِ؛ لأنَّهم لم يَفقِدوا صِفاتِ الإيمانِ؛ لِقَولِ اللهِ تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾[الحجرات:9].

قال ابنُ جريرٍ: يقولُ تعالى ذِكْرُه: وإن طائِفتانِ مِن أهلِ الإيمانِ اقتَتَلوا، فأصلَحوا – أيُّها المُؤمِنون – بينهما بالدُّعاءِ إلى حُكمِ كِتابِ اللهِ تعالى، والرِّضا بما فيه لهما وعليهما، وذلك هو الإصلاحُ بينهما بالعَدْلِ[1].

فكما تلاحظ فقد أثبت الله تعالى لهما صفة الإيمان مع أنهما يقتتلان، وما اقتتلا إلا بقصد، فلا يكون القتال بغير قصد، بل القتل يكون أحيانا بغير القصد، وأما القتال فمقصود فيه القتل، ومع ذلك أثبت الله تعالى لهما صفة الإيمان، وهذا لن ينجينهم من عذاب الله تعالى إن لم يتوبا في الحياة الدنيا بدلالة الآية السابقة: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النّساء: 93]، كذلك بقول النبي ﷺ: {...إذَا التَقَى المُسْلِمَانِ بسَيْفَيْهِما فَالقَاتِلُ والمَقْتُولُ في النَّارِ....}[2].

5 – الطَّعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحةُ على المَيِّتِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {اثنتانِ في النَّاسِ هما بهم كُفرٌ: الطَّعنُ في النَّسَبِ، والنِّياحةُ على الميِّتِ}[3].

قال ابنُ تيميَّةَ: الخَصْلتانِ هما كُفرٌ قائمٌ بالنَّاسِ، فنَفسُ الخَصلتينِ كُفرٌ؛ حيث كانتا من أعمالِ الكُفَّارِ، وهما قائمتان بالنَّاسِ، لكِنْ ليس كُلُّ من قام به شُعبةٌ مِن شُعَبِ الكُفْرِ يصيرُ كافِرًا الكُفْرَ المطْلَقَ حتى تقومَ به حقيقةُ الكُفْرِ، كما أنَّه ليس كُلُّ من قام به شُعبةٌ من شُعَبِ الإيمانِ يصيرُ مُؤمِنًا حتى يقومَ به أصلُ الإيمانِ[4].

---

[1] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (21/ 357).

[2] أخرجه البخاري 31.

[3] أخرجه مسلم (67).

[4] يُنظر: ((اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم)) (1/237).

6 – الانتسابُ إلى غيرِ الأبِ:

عن أبي هُرَيرةَ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {لا تَرغَبوا عن آبائِكم؛ فمن رَغِبَ عن أبيه فهو كُفرٌ}[1].

قال ابنُ بَطَّالٍ: قال الطَّبَري: فإن قال قائِلٌ: ما وجهُ هذا الحديثِ، وقد كان من خيارِ النَّاسِ من يُنسَبُ إلى غيرِ أبيه؛ كالمقدادِ بنِ الأسوَدِ، الذي نُسِبَ إليه، وإنَّما هو المقدادُ بنُ عَمرٍو، ومنهم من يُدعى إلى غيرِ مولاه الذى أعتَقَه، كسالمٍ مولى أبى حُذَيفةَ، وإنَّما هو مولى امرأةٍ مِن الأنصارِ، وهؤلاء خيارُ الأُمَّةِ؟ قيل: لا يدخُلُ أحَدٌ منهم في معنى هذه الأحاديثِ، وذلك أنَّ أهلَ الجاهليَّةِ كانوا لا يَستَنكِرون ذلك؛ أن يتبنى الرَّجُلُ منهم غيرَ ابنِه الذي خرج من صُلْبِه، فنُسِبَ إليه، ولا أن يتولَّى من أعتقه غيرُه فيُنسَب ولاؤه إليه، ولم يَزَلْ ذلك أيضًا في أوَّلِ الإسلامِ حتى أنزل الله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾[الأحزاب: 4] ونزلت ﴿ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[الأحزاب: 5] الآية، فنُسِبَ كُلُّ واحدٍ منهم إلى أبيه، ومَن لم يُعرَف له أبٌ ولا نسَبٌ، عُرِف مولاه الذي أعتقه وألحِقَ بولائِه عنه، غيرَ أنَّه غَلَب على بَعْضِهم النَّسَبُ الذي كان يُدعى به قبل الإسلامِ، فكان المعروفُ لأحَدِهم إذا أراد تعريفَه بأشهَرِ نَسَبِه عَرَّفه به من غيرِ انتحالِ المعروفِ به، ولا تحَوُّلٍ به عن نَسَبِه وأبيه الذي هو أبوه على الحقيقةِ رغبةً عنه، فلم تَلحَقْهم بذلك نقيصةٌ، وإنَّما لعن النبيُّ ﷺ المتبرِّئَ من أبيه والمُدَّعي غيرَ نَسَبِه، فمن فعل ذلك فقد ركب من الإثمِ عظيمًا، وتحَمَّل مِن الوِزْرِ جَسيمًا، وكذلك المنتمي إلى غيرِ مواليه.

فإن قيل: فتقولُ للرَّاغِبِ في الانتماءِ إلى غير أبيه ومواليه كافِرٌ باللهِ؟ كما رُوِيَ عن أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ أنَّه قال: كُفرٌ باللهِ ادِّعاءُ نَسَبٍ لا يُعرَفُ، ورُوي عن عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ أنَّه قال: كان ممَّا يُقرَأُ في القرآنِ: «لا تَرْغَبوا عن آبائِكم؛ فإنَّه كُفرٌ بكم». قيل: ليس معناه الكُفْرُ الذي يستحقُّ عليه التَّخليدَ في النَّارِ، وإنَّما هو كُفرٌ لحَقِّ أبيه ولحَقِّ مواليه، كقَولِه في النِّساءِ: ((يَكْفُرْنَ العشيرَ)) والكُفْرُ في لُغةِ العَرَبِ: التَّغطيةُ للشَّيءِ والسَّترُ له، فكأنَّه تغطيةٌ منه على حَقِّ اللهِ عزَّ وجَلَّ فيمن جعله له والِدًا، لا أنَّ من فعل ذلك كافِرٌ باللهِ حلالُ الدَّمِ. واللهُ الموَفِّقُ[2].

---

[1] أخرجه البخاري (6768)، ومسلم (62).

[2] يُنظر: ((شرح صحيح البخاري)) (8/ 383).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {ليس من رجُلٍ ادَّعى لغيرِ أبيه –وهو يَعلَمُه– إلَّا كَفَر، ومن ادَّعى قومًا ليس له فيهم، فلْيتبَوَّأْ مَقعَدَه من النَّارِ}[1].

قال علي القاري: ((فقد كَفَر)): أي: قارب الكُفْرَ، أو يُخشى عليه الكُفْرُ. في النهاية: الدِّعوةُ –بالكسر– في النَّسَبِ، وهو أن ينتَسِبَ الإنسانُ إلى غيرِ أبيه وعشيرته، وكانوا يفعلونه فنُهُوا عنه، والادِّعاءُ إلى غيرِ الأبِ مع العِلمِ به حرامٌ، فمن اعتقد إباحَتَه كَفَر لمخالفةِ الإجماعِ، ومن لم يعتَقِدْ إباحتَه فمعنى "كفر": وجهان:

أحدهما: أنَّه أشبَهَ فِعْلُه فِعلَ الكُفَّارِ[2].

والثَّاني: أنَّه كافِرٌ نِعمةَ الإسلامِ.

7 – النِّفاق الأصغر: فهو متعلِّق بالجوارح أي بالأعمال لا بالقلوب ويسمَّى أيضا نفاقًا عمليًّا، وهو الذي قال فيه النبي ﷺ: {أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النِّفاق حتى يدعها، إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر}[3].

فمن كانت فيه خصلة من هذه الخصال الأربع كان فيه شيء من النِّفاق، ولكنَّه ليس منافقا خالصا لقوله ﷺ: {أربعٌ من كنَّ فيه}، أي يجب أن تجتمع هذه الخصال الأربع ليكون صاحبه واقعا في النفاق الأكبر وإلَّا فهو في النِّفاق الأصغر حتى يتوب من ذلك.

8 – التطير:

التطير لغة:

مصدر تطير، وأصله مأخوذ من الطير؛ لأن العرب يتشاءمون أو يتفاءلون بالطيور على الطريقة المعروفة عندهم بزجر الطير، ثم ينظر: هل يطير يمينا أو شمالا أو ما أشبه ذلك، فإن طار إلى الجهة التي فيها التيامن؛ أقدم، أو فيها التشاؤم، أحجم.

---

[1] أخرجه البخاري (3508) واللَّفظُ له، ومسلم (61).

[2] يُنظر: ((مرقاة المفاتيح)) (5/2170).

[3] متفق عليه، البخاري 34، ومسلم 58.

أما في الاصطلاح:

فهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وهذا من الأمور النادرة؛ لأن الغالب أن اللغة أوسع من الاصطلاح؛ لأن الاصطلاح يدخل على الألفاظ قيودا تخصها، مثل الصلاة لغة: الدعاء، وفي الاصطلاح أخص من الدعاء، وكذلك الزكاة وغيرها.

وإن شئت فقل: التطير: هو التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم[1].

فالمَرئيُّ: كأن يرى طيرًا فيَتشاءَمَ به مِثْلَ البُومةِ والغُرابِ.

والمسموعُ: كأن يَهُمَّ بالقيامِ بأمرٍ، فيسمَعَ أحدًا يقولُ لآخَرَ: يا خَسْرانُ، أو يا خائِبُ، فيتشاءَمَ ويترُكَ الأمرَ.

والمعلومُ: كالتشاؤُمِ ببَعضِ الأيَّامِ، أو بعضِ الشُّهورِ، أو بعضِ السَّنَواتِ، فهذه أشياءُ لا تُرى ولا تُسمَعُ، ولكِنْ قد يُتشاءمُ بها.

والتطَيُّرُ ينافي التَّوحيدَ مِن وَجهَين:

الأوَّلُ: أنَّ المتطَيِّرَ قطَعَ توكُّلَه على اللهِ تعالى، واعتمَدَ على غيرِه.

الثَّاني: أنَّه تعَلَّق بأمرٍ لا حقيقةَ له، بل هو وهمٌ وتخييلٌ.

والمتطيِّرُ لا يخلو من حالينِ:

الأولى: أن يُحجِمَ ويَستجيبَ لهذه الطِّيَرةِ، ويَدَعَ العَمَلَ.

الثَّانية: أن يَمضِيَ ولكِنْ بقَلَقٍ وهَمٍّ وغَمٍّ؛ لخشيتِه مِن تأثيرِ هذا المتطَيَّرِ به، وهذه أهونُ مِن الحالِ الأُولى.

وكِلا الأمرَينِ نَقصٌ في التَّوحيدِ؛ فالواجِبُ على الإنسانِ أن يتوكَّلَ على اللهِ تعالى، ويَمضِيَ إلى ما يُريدُ بانشراحِ صَدرٍ وحُسنِ ظَنٍّ باللهِ[2].

وأنواعُ الكُفْرِ الأصْغَرِ كثيرةٌ يتعَذَّرُ حَصْرُها، وقد ذكر كثيرًا منها ابنُ بَطَّة، وعَقَد لها بابًا بعنوانِ: (بابُ ذِكرِ الذُّنوبِ التي تصيرُ بصاحِبِها إلى كُفرٍ غيرِ خارجٍ عن المِلَّة)

وكل ما سبق من الأنواع والأقسام المذكورة منافية للإخلاص بغض النظر هل هي مخرجة من الملة أم غير مخرجة منه، بل المهم في بابنا هنا أنها تناقض الإخلاص.

---

[1] القول المفيد على كتاب التوحيد لابن عثيمين 559/1.

[2] السابق.

﴿ الشَّرط الثاني ﴾

﴿ متابعة الرّسول ﷺ ﴾

يجب أن يُعلم أنَّ الله تعالى لا يقبل عملا إلَّا إذا كان موافقا لهدي النبي ﷺ، وكلُّ عبادة لم يأتي بها الرَّسول ﷺ أو لم يقرَّها على أصحابه في عصره، لم تقبل ويصبح اسمها بدعة، وصاحبها محبط عمله مردود عليه مخزيٌّ يوم القيامة.

وهذا لحديث سهل بن سعد الساعدي، وأبي سعيد الخدري قالا: قال رسول الله ﷺ: {إنِّي فَرَطُكُمْ علَى الحَوْضِ، مَن مَرَّ عَلَيَّ شَرِبَ، ومَن شَرِبَ لَمْ يَظْمَأْ أبَدًا، لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ أقْوامٌ أعْرِفُهُمْ ويَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحالُ بَيْنِي وبيْنَهُمْ. قالَ أبو حازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمانُ بنُ أبِي عَيَّاشٍ، فقالَ: هَكَذا سَمِعْتَ مِن سَهْلٍ؟ فَقُلتُ: نَعَمْ، فقالَ: أشْهَدُ علَى أبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، لَسَمِعْتُهُ وهو يَزِيدُ فيها: فأقُولُ إنَّهُمْ مِنِّي، فيُقالُ: إنَّكَ لا تَدْرِي ما أحْدَثُوا بَعْدَكَ، فأقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَن غَيَّرَ بَعْدِي}[1].

فهؤلاء الذين غيَّروا وبدَّلو، أو زادوا أو أنقصوا، في العبادة فهم بين ثلاثة ظنون:

الأول: إمَّا أنّهم ظنُّوا أنَّ الدّين ناقص وهم الذّين سيتمّمون فراغ النقصان، وهذا محال لقوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾[المائدة: 3].

الثاني: أنَّهم ظنُّوا أنَّ رسول الله ﷺ لم يبلّغ الرّسالة كاملة وهم الذين سيملؤون هذا النَّقص الذي تركه رسول الله ﷺ، وهذا محال لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ﴾[المائدة: 67].

والمعنى أن؛ يا أيها الرسول أخبر بما أُنْزِلَ إليك من ربك كاملاً، ولا تكتم منه شيئًا، فإن كتمت منه شيئًا فما أنت بمبلِّغ رسالة ربك (وقد بَلَّغَ رسول الله ﷺ كل ما أُمِرَ بتبليغه، فمن زعم خلاف ذلك فقد أعظم الفِرْية على الله)، والله يحميك من الناس بعد اليوم، فلا يستطيعون الوصول إليك بسوء، فما عليك إلا البلاغ، والله لا يوفق للرشد الكافرين الذين لا يريدون الهداية.

---

[1] أخرجه البخاري **6583**، ومسلم (**2290**، **2291**) باختلاف يسير.

وقوله تعالى: {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40].

والمعنى أن؛ وإن أريناك أيها النبي بعض ما نعدهم به من العذاب قبل موتك فذلك إلينا، أو أمتناك قبل أن نريك إياه فليس عليك إلا تبليغ ما أمرناك بتبليغه، وليس عليك مجازاتهم ولا محاسبتهم، فذلك علينا.

ويشهد كل كائن حي كان أو ميت؛ أنَّ النبي ﷺ قد بلَّغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهداه حتى أتاه اليقين ولا ينكر هذا إلا كافر متكبر.

بل حتى أنه ﷺ لما نزلت عليه المعوذتان وفيهما أمر بالاستعاذة بالله تعالى، فقرأهما على الناس كما هما، فقال ﷺ لعقبة بن عامر رضي الله عنه: {أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتِ اللَّيْلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ؟! ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ }[1].

لا حظ أنَّ النبي ﷺ من شدَّة الأمانة، وتمام البلاغ، أعاد الكلام كما هو، والحال؛ أنه مأمور وأمَّته بالاستعاذة، فيقول: أعوذ بربِّ الفلق، وأعوذ برب الناس، ولكنَّ قوة البلاغ، وشدَّة الأمانة حملته أن يعيد الكلام كما أنزل فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

الثالث: أنّهم ظنُّوا أنَّهم أعلم من رسول الله ﷺ وهم أتوا من بعده ليصحّحوا شريعته، وهذا محال لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: 113].

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾ [النجم: 5].

يقول الطبري: قوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ **يقول تعالى ذكره: ما حاد صاحبكم أيها الناس عن الحقّ ولا زال عنه؛ ولكنه على استقامة وسداد.**

---

[1] أخرجه مسلم **814**.

ويعني بقوله ﴿وَمَا غَوَى﴾ : وما صار غويًّا، ولكنه رشيد سديد؛ يقال: غَوَيَ يَغْوي من الغيّ، وهو غاو، وغَوِيّ يَغْوَى من اللبن إذا بَشِم[1].

ويقول البغوي: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الهَوَى﴾ أي: بالهوى يريد لا يتكلم بالباطل، وذلك أنهم قالوا: إن محمدا ﷺ يقول القرآن من تلقاء نفسه[2].

ويقول السعدي: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ أي: لا يتبع إلا ما أوحى الله إليه من الهدى والتقوى، في نفسه وفي غيره.

ودل هذا على أن السنة وحي من الله تعالى لرسوله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه؛ لأن كلامه لا يصدر عن هوى، وإنما يصدر عن وحي يوحى.

﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ ثم ذكر المعلِّم للرسول ﷺ، وهو جبريل ﷺ أفضل الملائكة وأقواهم وأكملهم[3].

ومن المعلوم أنَّ جبريل ﷺ لم يعلم الرسول ﷺ القرآن وحسب، بل علمه السنة كذلك ليدخل فيها الصلاة من كيفيتها ومواقيتها وغير ذلك، كما أنَّ جبريل ﷺ لم يعلم الرسول ﷺ من تلقاء نفسه، بل هو مأمور بأمر الله تعالى وعلَّمه الله تعالى، فإنَّ كان الرسول ﷺ مخطئا أو مقصرا أو منقصا، فهو كما تلقاه من جبريل ﷺ، فيكون جبريل ﷺ حينها مخطئا أو مقصرا أو منقصا، وإن كان جبريل ﷺ مخطئا أو مقصرا أو منقصا، فهو كما تلقاه من الله تعالى لم يغير من أوامره شيئا، لقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]، وعليه فهو يقول ما تلقاه من ربِّه كما هو لا يغير فيه شيئا ولا ينسى شيئا، فيكون بذلك الرب تبارك وتعالى مخطئا أو مقصرا أو منقصا؛ لأنَّ جبريل ﷺ بنص القرآن لا

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] ينظر: تفسير البغوي.

[3] ينظر: تفسير السعدي.

يخالف الله تعالى في شيء، وسبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، وهذا يستحيل بالعقل قبل النقل.

وأمَّا دليل عدم خطئ ونسيان الرسول ﷺ: فقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ﴾ [الأعلى: 6]، **فالرسول ﷺ لا ينسى شيئا من الوحي.**

وأما دليل عدم تقصير النبي ﷺ: فقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 128].

فهو حريص على هداية الناس، عزَّ في قلبه ما يعانونه من أهوال الشرك والمشركين، وهو رؤوف بالمؤمنين ورحيم بهم، فكيف يكون من هذا وصفه مقصّرا، بل العكس، فقد كاد النبي ﷺ أن يهلك نفسه من شدة حرصه على هداية الناس حتى قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: 6].

يقول الطبري: يعني تعالى ذكره بذلك: فلعلك يا محمد قاتلٌ نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: 90]، **تمردا منهم على ربهم...**[1]

وأما دليل تمام تبليغ النبي ﷺ: فقد سبق ذكره وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ۖ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: 67].

وقوله تعالى: {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: 40].

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

---

[1] **ينظر: تفسير الطبري.**

وبعد كل هذا نقول: من أكمل ممَّن أكمله الله تعالى، والدّين أكمله الله تعالى، ومن أكثر عصمة ممَّن عصمه الله تعالى، والنبيّ ﷺ عصمه الله تعالى، ومن أعلم ممَّن علّمه الله تعالى، والنبيُّ ﷺ علَّمه الله تعالى.

وهذا ينطبق على كل من أتى بعبادة جديدة كالشّيعة، والصّوفية، فالأوَّل يجلد نفسه ويحتسب في الأجر عند الله تعالى، والثَّاني يذكر الله بما لم يشرع به.

وينطبق أيضا على من أنقص من العبادة شيئا أو زاد فيها شيئا، كمن أوجبوا قراءة الفاتحة جماعة بعد الجنازة، فهذا عمل مردود غير مقبول، وردَّت الجنازة بالكامل على الأرجح، وأكثر من تضرَّر بهذا هو صاحب الجنازة أي الميَّت.

هذا لحديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال النبي ﷺ: {مَن عَمِلَ عَمَلًا ليسَ عليه أمْرُنا فَهو رَدٌّ}[1].

الخلاصة:

التوحيد هو: إفرادُ اللهِ سُبحانَه وتعالى بما يختصُّ به من الرُّبوبيَّةِ والألوهيَّةِ والأسماءِ والصِّفاتِ[2].

قال ابنُ القَيِّم: ليس التَّوحيدُ مجرَّدَ إقرارِ العَبدِ بأنَّه لا خالِقَ إلَّا اللهُ، وأنَّ اللهَ ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، كما كان عبَّادُ الأصنامِ مُقرِّين بذلك وهم مُشرِكون، بل التَّوحيدُ يتضمَّنُ من محبَّة اللهِ، والخُضوعِ له، والذُّلِّ له، وكمالِ الانقيادِ لطاعتِه، وإخلاصِ العبادةِ له، وإرادةِ وَجْهِه الأعلى بجَميعِ الأقوالِ والأعمالِ، والمنعِ والعَطاءِ، والحبِّ والبُغضِ ما يحولُ بين صاحِبِه وبين الأسبابِ الدَّاعيةِ إلى المعاصي والإصرارِ عليها، ومَن عَرَف هذا عَرَف قولَ النبيِّ ﷺ: {إنَّ اللهَ حرَّم على النَّارِ من قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، يبتغي بذلك وَجْهَ اللهِ...}[3] وما جاء من هذا الضَّربِ مِن الأحاديثِ التي أَشكَلت على كثيرٍ من النَّاسِ، حتى ظنَّها بعضُهم منسوخةً، وظنَّها بعضُهم قيلَت قَبلَ وُرودِ الأوامِرِ والنَّواهي واستِقرارِ الشَّرعِ، وحمَلَها بعضُهم على نارِ المشركينَ والكفَّارِ، وأوَّلَ بعضُهم الدُّخولَ بالخُلودِ، وقال: المعنى لا يدخُلُها خالدًا، ونحو ذلك من التَّأويلاتِ

---

[1] أخرجه البخاري (2697) بنحوه، ومسلم (1718).

[2] يُنظر: ((شفاء العليل)) لابن القيم (ص: 366)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (11/1).

[3] أخرجه البخاري (425)، ومسلم (33) من حديثِ عتبانَ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه.

المُستَكرَهةِ، ومبلغ الشريعة ﷺ لم يجعَلْ ذلك حاصلًا بمجرَّدِ قَولِ اللِّسانِ فقط، فإنَّ هذا خلافُ المعلومِ بالاضطرارِ مِن دينِ الإسلامِ؛ فإنَّ المنافقينَ يقولونَها بألسِنَتِهم، وهم تحتَ الجاحِدينَ لها؛ في الدَّركِ الأسفَلِ من النَّارِ، فلا بدَّ من قَولِ القَلبِ، وقَولِ اللِّسانِ[1].

وعليه: فتمام التوحيد يكون على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: قول باللسان.

بأن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ.

الوجه الثاني: اعتقاد بالجنان

وهو أن يعتقد بقلبه أن لا معبود بحق إلا الله، وأنه أرسل نبيه محمد ﷺ ، كما أرسل من قبله رسلا.

الوجه الثالث: العمل بالجوارح والأركان.

وهو أن يعمل بمقتضى قول لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، وهذا يكون بالتسارع في الائتمار بأوامر الله تعالى وأوامر نبيه ﷺ، واجتناب نواهيهما.

والامتثال والإذعان لكل أوامر الله تعالى الشَّرعية، وقولنا الإذعان لأوامره الشرعية خرج بذلك الأوامر الكونية.

فإنَّ حقق هذه الثلاثة فهو الموحِّد النَّاجي يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

فائدة:

تعريف الأوامر الشَّرعية والأوامر الكونية:

أوامر الله الكونية:

وهي التي ليست من تكاليف المسلم، فالكل مستسلم لله تعالى فيها مسلمه وكافره، وهو ما يسميه الأصوليون بخطاب الوضع.

وهي ثلاثة أنواع:

الأوَّل: أمر الخلق: وهو أمر متوجّه الى جميع المخلوقات بالخلق والايجاد لقوله تعالى ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[القمر: 49].

---

[1] يُنظر: ((مدارج السالكين)) (339/1).

الثَّاني: أمرُ البقاء: وهو أمر متوجّه الى جميع المخلوقات بالبقاء إلى أجل مسمًّى لقوله تعالى:

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾[فاطر: **41**].

الثَّالث: أوامر التَّدبير والتَّصرُّف: وهي أوامر متوجَّهة من الله تعالى إلى جميع الخلائق بالحركة والسُّكون وغير ذلك لقوله تعالى: ﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران: **27**].

ليدخل فيها دوران الفلك من شروق الشمس من مشرقها وغروبها من مغربها، واختلاف الليل والنهار، والموت والإحياء، وغير ذلك مما ليس للإنسان عليه قدرة ولا له فيها خيرة، فهذه أوامر كونية قدرية بيد الله تعالى وحده لا شريك له.

وأمَّا الأوامر الشَّرعية:

فهي موجبة من الله تعالى إلى الثقلين الإنس والجنّ وهي الدّين.

وأوامر الله الشَّرعية هي خمسة أنواع:

الأوَّل: أوامر الإيمان والتَّوحيد.

الثَّاني: أوامر العبادات.

الثَّالث: أوامر المعاملات.

الرَّابع: أوامر المعاشرات

الخامس: أوامر الأخلاق[1]**.**

ومنها ما هو طلب للفعل، منها ما هو طلب للنهي، وأما طلب الفعل فهو إما على وجه والوجوب، فهو الواجب والفرض واللازم والمحتوم، وكلها تدل على الواجب، وإمَّا طلب الفعل لا على وجه الوجوب، فهو المندوب والمستحب، وأمَّا طلب الترك على وجه والوجوب، فهو الحرام، وأمَّا طلب الترك لا على وجه الوجوب، فهو المكروه، وأمَّا المسكوت عنه فهو المباح.

وعليه: فالعبادة هي الامتثال والإذعان لأوامر الله تعالى الشَّرعية، (وقد سبق شرحها)، واجتناب نواهيه سبحانه، وهو كلُّ ما لا يحبُّه الله تعالى ولا يرضاه.

[1] ينظر موسوعة الفقه الإسلامي.

وأكثر ما وقع الناس فيه من الشرك أو الكفر هو الدعاء، وانساقوا بعده في الاستعانة، والاستغاثة، والنذر، والذبح لغير الله تعالى، والخوف، والرجاء، والتوكُّل، والإنابة، والمحبة، والخشية، والرغبة، والرهبة، والتأله، والخشوع، والتفويض.

وهذا ما سنتناوله في المسألة القادمة، وهي أنواع العبادة إجمالا.



﴿المسألة الرابعة﴾

﴿أنواع العبادة إجمالا﴾

﴿الفرع الأول﴾

﴿الدعاء﴾

والدُّعاء لغة: هو الرَّغبة إلى الله تعالى.

والأصل في الدَّعاء أنه طلب، والطَّلب على ثلاثة أقسام:

الأول: طلب من الأعلى إلى الأدنى، وهو الأمر.

الثاني: وطلب من القرين إلى قرينه وهو الالتماس.

الثالث: وطلب من الأدنى إلى الأعلى، وهو الدعاء.

- فإن كان من الأعلى إلى الأدنى يسمَّى أمرًا.

كصاحب الشُّغل حينما يطلب من أجيره عملا ما، فهذا أمر.

- وإن كان من القرين إلى قرينه يسمَّى التماسا.

كالصَّديق عندما يطلب من صديقه شيئا، فهذا التماس

- وإن كان من الأدنى إلى الأعلى، يسمى دعاءً.

كالعبد عندما يطلب من الله تعالى شيئا، فهذا دعاء.

يقال دعوة الله أدعوه دعاء، إذا ابتهلت إليه بالسؤال، والرغبت في ما عنده من الخير.

ودعوة زيدا ناديته، أي: طلبت إقباله.

والدُّعاء شرعا:

هو استدعاء العبد ربَّه عزَّ وجل العناية واستمداده المعونة[1].

قال الخطَّابي: وحقيقيته (أي الدُّعاء) إظهار الافتقار إليه (أي لله تعالى) والتَّبرُّؤ من الحول والقوَّة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذّلة البشرية، وفيه معنى الثَّناء على الله عزَّ وجل وإضافة

[1] شأن الدعاء للخطابي 4/1.

الجود والكرم إليه[1].

والدُّعاء عبادة لا تجوز إلا لله وحده لا شريك له.

فعن النُّعمان بن بشير رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال: {الدُّعاء هو العبادة}[2].

قال الخطَّابي: ومعناه أنَّه معظم العبادة، أو أفضل العبادة[3].

واستدلَّ على ذلك بحديث: {الحَج عَرَفَةُ}[4].

وأقول: أنَّ الدعاء هو عين العبادة، وأنَّ استدلال الخطَّابي بأنه أفضل العبادة أو معظمها بحديث الحج عرفة، هو قياس لفظي وحسب، ولكن حقيقة الدعاء هو العبادة نفسها، فكما قلنا أنَّ الدعاء هو طلب، فالمزكي يطلب من الله تعالى فضلي الدنيا والآخرة بإخراج زكاة ماله، فهذا طلب، والمجاهد يطلب الجنة من ربه بالجهاد، فهو طلب، والموحِّد يطلب النجاة من النار ومقام الإخلاص بالتوحيد فهو طلب، والداعي هو يطلب من الله مسألته فهو طلب، وهكذا في كل العبادات، فهي على أصلها طلبات، والطلب دعاء، ونخرج من هذا أنَّ الدعاء هو ذات العبادة، فكل العبادات هي أدعية، وكل عبادة منها لها نوعها الخاص.

وقد أمر الله تعالى بدعائه في أكثر من موضع في كتابه الكريم، منه قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر: 60].

فهذا بيان واضح على أنَّ الدعاء هو عين عبادة.

فقد قال ابن كثر: قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي عن دعائي وتوحيدي[5].



[1] السابق.

[2] أخرجه أبو داود (1479)، والترمذي (2969)، وابن ماجة (3828)

[3] شأن الدعاء للخطابي 5/1.

[4] أخرجه النسائي 3016.

[5] ينظر: تفسير ابن كثير.

﴿أقسام الدعاء﴾

وبعد ما علمنا معنى الدُّعاء، وعلمنا أنَّه عبادة بل أصل العبادات كلها، نقول: أنَّ الدُّعاء قسمان:

1 – دعاء مسألة.

2 – ودعاء عبادة.

والأوَّل يندرج تحت الثَّاني إلَّا أنَّه أخذ استقلاليته لكونه طلب من العبد لربَّه، وأمَّا الثَّاني فهو طلب من الرَّب لعبده.

القسم الأوَّل: دعاء المسألة:

فهو طلب ما ينفع الدَّاعي من جلب نفع أو دفع ضر.

كطلب المغفرة والرَّحمة والرِّزق الطيّب والولد الصَّالح.

حكم صرف هذا النَّوع من الدُّعاء لغير الله تعالى.

فيه حالان:

الحال الأوَّل: صرف الدُّعاء لغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلَّا الله تعالى:

كمغفرة الذنوب في الآخرة أو طلب الشفاء في الدنيا، فمثل هذا لا يقدر عليه إلا الله تعالى، وفاعله قد أشرك بالله شركا أكبر، لقوله تعالى ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: 18].

قال الطَّبري: ولا تشرك به فيها شيئا، ولاكن أفردوا له التَّوحيد وأخلصوا له العبادة[1].

وقال السعدي: أي: لا دعاء عبادة، ولا دعاء مسألة، فإن المساجد التي هي أعظم محال العبادة مبنية على الإخلاص لله تعالى، والخضوع لعظمته، والاستكانة لعزته[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الاحقاف: 5].

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] ينظر: تفسير السعدي.

قال ابن كثير: أي لا أضلُّ ممَّن يدعو أصناما ويطلب منها ما لا تستطيع إلى يوم القيامة وهي غافلة عمَّا يقول لا تسمع ولا تبصر ولا تبطش لأنَّها جماد حجارة صنم[1]. اهـ

وقس على ذلك من يدعون الأموات بل القبور.

الحال الثَّاني: صرف الدُّعاء لغير الله تعالى في ما يقدر عليه غير الله بإذن الله تعالى:

كمن طلب من حيّ حاضر قادر أن يسقيه، أو يطعمه، أو طلب منه مالًا، أو نحو ذلك...

فهذا لا شيء فيه لحديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: {من استعاذكم باللهِ فأعيذوه، ومن سألكمْ باللهِ فأعطوهُ...}[2].

وبهذا تكون شروط دعاء غير الله تعالى في ما يقدر عليه المدعو ثلاث وهي أن يكون المدعو:

1 – حيًّا.

2 – حاضرًا.

3 – قادرًا.

وهذا لأنَّ الميِّت لا يقدر على شيء، فهو في عالم آخر وهو عالم البرزخ، وغير الحاضر بدوره لا يقدر على شيء، فكيف لمن يقطن في جزيرة العرب أن يطلب كوز ماء ممن هو في مصر؟ وأمَّا غير القادر لاستحالة استجابته وهو كم طلب من أعمى أن يدله على الطريق، فالأعمى بنفسه يحتاج إلى من يرشده، كما أنَّ هذه الصفات الثلاث لا تجتمع غالبا في أحد، فإن كان حيا لا يكون حاضرا، وإن كان حيا وحاضرا فلا يكون قادرا، ويمكن أن تجتمع هذه الصفات الثلاث في الشخص، ولكن اجتماعها لا يدوم، ولكن قطعا هي موجودة في الله تعالى ودائمة فيه بدوامه سبحانه، فهو حي لا يموت، حاضر لا يغيب، قادر لا يعجز، وبعد هذا سلْ نفسك من أولى بالدعاء؟ أمَّن هو حي لا يموت، حاضر لا يغيب، قادر لا يعجز، أم أصحاب القبور، أو حتى الملائكة والرسل؟ والرسول ﷺ يعلم ابن عباس فيقول: {يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ...}[3].

---

[1] ينظر تفسير ابن كثير.

[2] أخرجه أبو داود (5109) واللفظ له، والنسائي (2567)، وأحمد (5365).

[3] أخرجه الترمذي (2516) واللفظ له، وأحمد (2669).

القسم الثاني: دعاء العبادة:

وهذا يكون بأي نوعٍ من أنواع العبادة المشروعة، وهو كلُّ ما ليس فيه سؤال أو طلب ظاهر، لأن سائر العبادات في أصلها طلبات، فسائر العبادات كالزكاة والصيام والحج فكل منها طلب، يطب به فاعله رضاء ربه سبحانه، فالصَّلاة هي دعاء، والزَّكاة دعاء، والصَّوم دعاء، ونحو ذلك...

ويدخل في ذلك كلُّ القربات الظَّاهرة والباطنة؛ لأنَّ المتعبّد لله تعالى هو طالب من الله تعالى قبول تلك العبادة والمثوبة عليها بلسان حاله ومقاله لقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾[الجن: 18].

أي لا تعبدوا مع الله تعالى أحدا، ولا تسألوا مع الله أحدا، لقوله صلى الله عليه وسلَّم {الدُّعاء هو العبادة} فبالآية والحديث يظهر لك أنَّ من صلى أو زكَّى أو غير ذلك...فهو في دعاء عبادة، ومن دعا دعاء المسألة فهو في عبادة الدُّعاء.

كذلك يمكن قول أنَّ دعاء العبادة؛ هو طلب من الربِّ لعبده، فالله يطلب منَّا صلاة الفريضة على وجه الوجوب، ويطلب منا صلاة الرواتب على وجه الندب، ويطلب منَّا ترك المحرَّمات على وجه الوجوب مما يؤدي إلى التحريم، ويطلب منَّا تروكا أخرى على وجه الكراهة، فهي طلبات من الربِّ سبحانه لعبده، والعبد بامتثاله لهذه الطلبات هو بنفسه طالب من ربِّه قبول ائتمراه بأوامره، وطالب من ربِّه رضاه، وطالب من ربِّه فضله أي: الجنَّة، فدعاء العبادة يدور في حلقة بين العبد وربه، فالرب يطلب والعبد بتنفيذه للأوامر يطلب، إلَّا أنَّ طلب الربِّ على وجه الاستعلاء، وطلب العبد على وجه الدعاء.

وعلى كل حال؛ فإنه إذا أطلق الدعاء أريد به دعاء المسألة.

حكم صرف دعاء العبادة لغير الله تعالى:

هو شرك أكبر مخرج من الدّين بالكلية.

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[المائدة: 72].

وقوله تعالى: ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴾[الشّعراء: 213].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال النَّبي ﷺ: {مَنْ ماتَ وهوَ يدعُو منْ دونِ اللهِ ندًّا دخلَ النَّارَ...}[1]

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ * وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ۚ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[يونس: 106 – 107].

فقوله تعالى: {وَلَا تَدْعُ} هذا نهي، والنَّهي منصَّب على الفعل فيعمُّ جميع أنواع الدُّعاء، سواء أكان دعاء العبادة أو دعاء المسألة؛ لأنَّ النهي لم يخصَّص فيبقى على عمومه ولأنَّ لفظ (تدع) يمكن قول؛ أنه نكرة؛ لأنَّه فعل مشتمل على مصدر، والنَّكرة في سياق النَّهي تفيد العموم أي عموم الدُّعاء، تقول مثلا: (لا اله الا الله)، (لا) نهي (إله) نكرة والنكرة في سياق النَّهي تفيد العموم، فـ(لا إله) نفي عموم الآلهة (إلَّا) استثناء (الله) مستثنى.

فنفى بقوله لا إله عموم الآلهة واستثنى الله بقوله إلاَّ الله.

كذلك في قوله: (ولا تدع) تفيد نهي عموم الدعاء إلَّا لله وحده.

وكما أنَّ الخطاب هنا للنهي، والنهي يقتضي التحريم، وذلك بقوله: {وَلَا تَدْعُ}.

وعبادة الدعاء هي التي ضلَّ فيها الصوفية والمتصوفة، والفرق بين الصوفية والمتصوّفة هو أنَّ الصُّوفية هم أصحاب الطَّريقة الحية، أي شيخهم حي، والمتصوفة من مات شيخهم فبقوا على طريقته ونهجه، فهم أضل سبيلا.

فعبادة الدّعاء بقسميها ضلَّ فيها هؤلاء بصنفيهما فتقول لأحدهم: أنت لما تدعو هذا وهو ميت أو وهو غائب فهذا دعاء وعبادة لا تجوز صرفها إلَّا لله تعالى وحده وفاعله مشرك بالله تعالى، يقول لك: أنا لم أسجد له، ظنًّا منه أنَّ العبادة مقتصرة على مجرَّد الركوع والسجود، فإذا ما شرحت له أنَّ الدعاء عبادة ولا تباح إلَّا في حق الحي الحاضر القادر إن كان لغير الله تعالى، يقول لك: شيخي حي حاضر قادر، اعتقادا منه أنَّ شيخه حاضر بروحه، وهو حي عند

---

[1] أخرجه البخاري (1238)، ومسلم (92).

الله كالشهداء إلا أنه له التصرف بأن يعود لعالم الحس متى شاء، وهو قادر مع ذلك بكراماته، وشيخه هذا ميت منذ سنين عدَّة، لا يسمع وإن سمعه؛ فإنه لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلا على أن ينفع غيره، فلله المشتكى، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ * إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[فاطر: 13 - 14]، فهذه الآيات المباركات حجة على الجاهل قبل العالم، وعلى الأمي قبل القارئ، قال السعدي رحمه الله تعالى: ومع هذا {إِنْ تَدْعُوهُمْ} لا يسمعوكم لأنهم ما بين جماد وأموات وملائكة مشغولين بطاعة ربهم، {وَلَوْ سَمِعُوا} على وجه الفرض والتقدير {مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ} لأنهم لا يملكون شيئا، ولا يرضى أكثرهم بعبادة من عبده، ولهذا قال: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ} أي: يتبرؤون منكم، ويقولون: ﴿سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ﴾[فاطر: 41][1].

فاللهم اهدهم وردهم لدينك ردًّا جميلا واغفر لهم فإنهم لا يعلمون.

وبما أننا تكلمنا عن الدعاء، وجب علينا الكلام عن الاستعانة والاستغاثة وغيرها من العبادات.



[1] ينظر: تفسير السعدي.

﴿الفرع الثاني﴾

﴿الاستعانة﴾

الاستعانة لغة:

أي: الوُصُول إلى حاجَتِهِ بِمُساعَدَةِ وسِيلَةٍ مِنَ الوَسائِلِ[1].

الاستعانة شرعا:

هي طلب العون من الله تعالى وحده في كل شيء، وإن كانت تجوز الاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق، بشروط ثلاثة ذكرناها وسنعيد ذكرها.

أركان الاستعانة:

قال ابن القيِّم: الاستعانة تجمع أصليين:

الثّقة بالله (تعالى) والاعتماد عليه؛ فإنَّ العبد قد يثق بالواحد من النَّاس ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجة إليه ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنَّه غير واثق به[2]. اهـ

أنواع الاستعانة:

والاستعانة نوعان:

النوع الأول: استعانة بالمخلوق:

النوع الثاني: استعانة بالخالق:

أما الاستعانة بالمخلوق في على قسمان:

القسم الأول: قسم جائز:

القسم الثاني: وقسم ممنوع:

أما القسم الجائز منهما:

هو الاستعانة بمخلوق فيما يقدر عليه، كمن يستعين بحي حاضر قادر على حمل متاعه مثلا، أو أي شأن من شؤن الدنيا التي يقدر عليها المستعان به الحي الحاضر، فهذا جائز ولا حرج

---

[1] معجم المعاني الجامع.

[2] مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن القيم 1/75.

ولا إشكال فيه لقول الله تعالى ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾[المائدة: 2] .

شروط الاستعانة بالمخلوق:

فإن تأمَّلت رأيت أنَّه لجواز الاستعانة بالمخلوق شروط ثلاثة:

الشرط الأوَّل: أن يكون المستعان به حيًّا؛ لأنَّ الميَّت لا يستطيع إعانة نفسه فضلا على إعانة غيره.

الشرط الثَّاني: أن يكون حاضرا، لأنَّ الغائب لا يسمع ولا يستعان به، والاستعانة بمن لا تراه ولا تسمعه لا تجوز إلاَّ لله تعالى وحده.

الشرط الثالث: أن يكون قادرا.

إذ كيف تستعين بمخلوق ليفعل شيء لا يقدر عليه.

الخلاصة: الاستعانة بالمخلوق الجَّائزة يجب أن تتوفَّر فيها هذه الشُّروط الثَّلاثة وهي: حياته وحضوره، وقدرته.

وأمَّا القسم الممنوع منها:

هو الاستعانة بمخلوق في ما لا يقدر عليه إلَّا الله تعالى، كمن يستعين بحي أو ميت حاضر أو غائب على شفائه، فهذا شرك لقوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[الفاتحة: 5]، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: 80] .

وكم نرى من هذا النَّوع في زمننا الحاضر، إذ يستعينون بالأموات في كلّ شؤنهم؛ لجلب رزق أو دفع ضرّ أو غيره...، فتراهم يطوفون حول الأضرحة و تمسَّحون عليها عسى أن صاحب القبر يعينهم في شيء ما، وهذا لعمرِي[1] لهو الجنون بعينه.

---

[1] لعمري ، أو لعمرك، وإن كانت في صيغتها وأصلها يمينا، إلا أنها صارت من الكلمات الجارية على اللسان العربي، ولا يراد بها حقيقة القسم بغير الله تعالى، وهذا مشهور في لغة العرب، حيث تشتمل على كثير من الكلمات التي لا يراد حقيقتها، كمثل: تربت يمينك، أو ثكلتك أمك، أو نحو ذلك من العبارات التي ظاهرها الدعاء ولا يراد منها ذلك، وقد قال الطبري في قوله تعالى: { لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}[الحجر: 72]، وقوله (لَعَمْرُكَ) يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: وحياتك يا محمد. اهـ =

قال ابن كثير: قدَّم المفعول وهو {إيَّاك} وكرَّره للاهتمام والحصر، أي لا نعبد إلَّا إيَّاك، ولا نتوكَّل إلَّا عليك، وهذا كمال الطَّاعة[1].

أي أنَّ الله تعالى قدَّم المفعول على الفاعل للاهتمام وللحصر، وكلُّ هذا للتأكيد بأنَّ العبادة لا تكون إلَّا لله تعالى، والاستعانة لا تكون إلا بالله تعالى وحده.

ومن ذلك حديث ابن عبَّاس رضي الله تعالى عنهما قال كنت رديف رسول الله فقال لي {يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلتَ فاسأَلِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ}[2].

ومن الغرائب والعجائب أنَّ كفار زمن النبي ﷺ كانوا يشركون بالله تعالى وقت الرخاء، ولكن يوحدونه سبحانه بالدعاء والاستعانة وقت البلاء، فإذا رفع عنهم البلاء أشركوا معه غيره سبحانه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾[الإسراء: 67]، **وأمَّا بعض مسلمي هذه العصور، فهم يشركون بالله تعالى في السراء والضراء، فإن كانت البنت تريد الزواج مثلا، ذهبت إلى قبر فلان فتذبح عند القبر ذبيحة كي تتزوج، وإن خاطبتهم ليقولنَّ لك ما قيل للنبي ﷺ من قبل قال تعالى:** ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[الزمر: 3]، **أي: ما ندعوهم إلَّا ليقربونا إلا الله تعالى، والزُّلفى هي المنزلة والمكانة[3]، وقد اتَّفقنا سابقا أنَّ العبادة كلها دعاء ورأس العبادة هو الدعاء، وهؤلاء على الأقل قد اعترفوا بعبادة غير الله تعالى في قولهم: {مَا نَعْبُدُهُمْ} وأمَّا بعض**

= فهو لفظ محمول على غير حقيقته في كلام العرب، حيث لا يريدون به القسم، وهو لفظ محمول على حقيقته في القرآن الكريم؛ لأنَّ الله تعالى يقسم بما يشاء، والقرآن يعجُّ بأقسام الله تعالى، منها الليل والنجم والنفس اللوامة وغيره...

[1] تفسير ابن كثير.

[2] أخرجه الترمذي (2516) واللفظ له، وأحمد (2669).

[3] ينظر: معجم اللغة العربية.

مسلمي هذه العصور، لا يرى دعائه ونحره لغير الله تعالى عبادة، فقد حصرت العبادة في معتقدهم في الركوع والسجود وحسب، فقد اجتمع فيه أشياء:

الأول: أنه يشرك بالله في السراء والضراء، ولم يكن هذا فعل مشركي زمن النبي ﷺ، بل كانوا يشركون في السراء فقط.

الثاني: أنهم يعبدون قبورا وأمواتا من دون الله تعالى، ولا يعتبرون ما يفعلونه عبادة، وأما كفار عصر النبي ﷺ كانوا يعترفون بأنهم يعبدون أحجارا من دون الله وقت السراء يتقربون بها إلى الله تعالى.

الثالث: أنهم في أعمق غيابات الضلال والجهل، وهم يعتقدون أنَّ لهم علم، وأما كفار عصر النبي ﷺ فقد كان لهم شيء من العلم، فعلموا بقوة فصاحتهم وبلاغتهم أن ما يقوله محمد ﷺ ليس كلام البشر.

الرابع: أنَّ هؤلاء في زمننا همُ الذين يتصدرون المشهد الديني في العالم، ومن خالفهم رموه بالتشدد، فلا مجال لفتح باب الحوار والمناظرة معهم، ولم يكن هذا في كفار عصر النبي ﷺ، بل فتح باب الحوار والنقاش والمناظرة، فلمَّا استيأسوا رموا بعدها الرسول ﷺ بالهرطقة والسحر وغيره.

الخامس: أنَّ مشركي عصر النبي ﷺ، كانوا يحاربون النبي ﷺ ظنا منهم أنهم يفعلون خيرا، فهم متدينون في أصل فطرتهم، يعظمون البيت والأشهر الحرم وغير ذلك، وأما بعض المنتسبين إلى الإسلام اليوم، يحارب في الإسلام من أجل إبطال دين الإسلام في الدول، ويقول أنه مسلم.

السادس: أنَّ كفَّار قريش، كانوا يعبدون رجالا صالحين على الحقيقة مثل: وَدّ، وسُوَاع، وَيَغُوث، وَيَعُوق، وَنَسْرا، والذي عليه جمهور العلماء أنَّ ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا هي أصنام وصور رجال صالحين كان قوم نوح يعبدونها في زمان نوح، ثم عبدتها العرب بعد ذلك، وإلى ذلك ذهب ابن عباس رضي الله عنهما، فعَنه قال: صَارَتِ الأوْثَانُ الَّتي كَانَتْ في قَوْمِ نُوحٍ في العَرَبِ بَعْدُ؛ أمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بالجَوْفِ عِنْدَ سَبَأٍ، وأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلَاعِ، أسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِن قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أوْحَى الشَّيْطَانُ إلى قَوْمِهِمْ:

أنِ انْصِبُوا إلى مَجَالِسِهِمُ الَّتي كَانُوا يَجْلِسُونَ أنْصَابًا، وسَمُّوهَا بأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حتَّى إذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ[1].

وأما بعض المسلمين في عصرنا فهم يدعون أصحاب القبور ظنا منهم أنهم كانوا صالحين، والصحيح أنَّ غالبهم كانوا سحرة، وأقل ما يُقال فيهم أنهم كانوا مبتدعة لعب بهم الشيطان، حتى ظنوا أنَّ خوارق العادات التي تجري على أيديهم كرامات من الله تعالى، والصحيح أنَّها واردات شيطانية، وما هي بواردات رحمانية؛ فإنَّ الله تعالى لا يجري كراماته على أهل البدع، وأجمع القوم على أنَّ الرجل إن كان يبرئ الأكمه[2] والأبرص ويسير فوق الماء ويطير في السماء وغيره؛ فإن كان تاركا لشيء من السنن فهذا به جنٌّ أو شيطان، وما يجري على يديه ليس كرامة من الله تعالى، وعلى ما سبق فالمبتدع من باب أولى بتلبس الشيطان بِهِ، وقد ثبت أنَّ الملائكة كانت تسلم على عمران بن حصين رضي الله عنه حتى اكتوى فلم تعد تسلم عليه[3]، وذلك لأن النبي ﷺ نها عن الكي[1]، فهذه كرامة فقدها وهو صحابي جليل؛ لأنه خالف النبي ﷺ في شيء بسيط وللضرورة؛ لأنه كان مريضا بالبواسير وصبر على ذلك ثلاثين سنة،

---

[1] صحيح أخرجه البخاري 4920.

[2] الأكمه: الأعمى، ينظر: معجم المعاني. قيل : هو الذي يبصر نهارا ولا يبصر ليلا، وقيل بالعكس، وقيل: هو الأعشى، والأعشى من عشا، ضَعُفَ بصرُه ليلاً :وطفلٌ أَعْشى، عشِيتْ عيناي من طول البُكا، وقيل: الأعمش، وهو ضعيف البصر

[3] ... وَقَدْ كانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ (أي: الملائكة)، حتَّى اكْتَوَيْتُ، فَتُرِكْتُ، ثُمَّ تَرَكْتُ الكَيَّ فَعَادَ. أخرجه مسلم 1226.

وفي سنن أبي داود عَنْ مُطَرِّفٍ، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنهما، قَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الكَيِّ فَاكْتَوَيْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَ، وَلَا أَنْجَحْنَ» قَالَ أَبُو دَاوُد: وَكَانَ يَسْمَعُ تَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ فَلَمَّا اكْتَوَى انْقَطَعَ عَنْهُ فَلَمَّا تَرَكَ رَجَعَ إِلَيْهِ. أخرجه أبو داود في سننه 3865 وصححه الحاكم في المستدرك 8284.

وفي الطبقات لابن سعد عَنْ مُطَرِّفٍ قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ أَشَعَرْتَ أَنَّهُ كَانَ يُسَلَّمُ عَلَيَّ، فَلَمَّا اكْتَوَيْتُ انْقَطَعَ التَّسْلِيمُ، فَقُلْتُ: أَمِنْ قِبَلِ رَأْسِكَ كَانَ يَأْتِيكَ التَّسْلِيمُ أَوْ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْكَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِنْ قِبَلِ رَأْسِي، فَقُلْتُ: لَا أَرَى أَنْ تَمُوتَ حَتَّى يَعُودَ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ بَعْدُ قَالَ لِي: أَشَعَرْتَ أَنَّ التَّسْلِيمَ عَادَ لِي؟ قَالَ: ثُمَّ لَمْ يَلْبَثْ إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى مَاتَ.

أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى 4/289 والإمام أحمد في الزهد 805 والطحاوي في شرح معاني الآثار 7168.

وعلى ما تقدَّم فإنَّ عمران بن حصين كانت الملائكة تسلم عليه ، فلمَّا اكتوى انقطع عنه تسليم الملائكة، وقد قيل في أحاديث تسليم الملائكة على عمران مقال، فقد أنكره الألباني، ولكن صححه ابن حجر، وهو الأصح، فأحاديث تسليم الملائكة على عمران تجبر بعضها بعض، وتُردُّ كلها إلى أصل محكم صحيح وهو خبر الإمام مسلم الذي في الباب =

فلمَّا اكتوى بضرورة شدة الألم، ذهبت كرامته، فما بالك بمن جاء بعبادة جديدة وغيَّر دين الله تعالى فأنَّى تكون لهذا الكرامة؟

وأما إن كان شغله السنن واقتفاء أثر النبي ﷺ وصفوة أصحابه رضي الله عنهم، فما يجري عليه هو كرامة من الله تعالى، وما نرى ؤلائك يتبعون إلا أرباب التصوف البدعي، فلا لهم من الصلاح شيء، ولا لهم من الكرامات شيء، إلا ما أجراه الشيطان على أيديهم.

وخلاصة القول: أنَّ كفار عصر النبي ﷺ، أهون على أهل السنة من كثير ممن ينتسبون إلى الإسلام اليوم، فعلى الأقل كفار عصر النبي ﷺ فُتح معهم باب الحوار، كذلك فهم متدينون بدين ولو كان معوجا، كذلك فإنهم لهم شيء من العلم ولو باللغة، وأما هؤلاء فليس لهم شيء من ذلك إلا دعاء غير الله تعالى والاستعانة بغير الله تعالى، بل والاستغاثة وقت الضر بغير الله تعالى، والتنكير على المخلصين من أهل السنة وتضييق العيش عليهم، يقول النبي ﷺ:

{سَيَخْرُجُ قَوْمٌ في آخِرِ الزَّمانِ، أحْداثُ الأسْنانِ، سُفَهاءُ الأحْلامِ، يقولونَ مِن خَيْرِ قَوْلِ البَرِيَّةِ، لا يُجاوِزُ إيمانُهُمْ حَناجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ، كما يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ}[2].

وهذا الحديث ينطبق عليهم فهم حدثاء الأسنان بالنسبة إلى السلف، سفهاء الأحلام بالنسبة لاعتقاد السلف، جمعوا دينا هجينا يرضون به أهوائهم وأسيادهم، يقول حذيفة بن اليمان:

{كانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسولَ اللهِ ﷺ عَنِ الخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّا كُنَّا في جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللَّهُ بهذا الخَيْرِ، فَهلْ بَعْدَ هذا الخَيْرِ شَرٌّ؟ قالَ: نَعَمْ، فَقُلتُ: هلْ بَعْدَ ذلكَ الشَّرِّ مِن خَيْرٍ؟ قالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ، (أي: كدَرٌ غيرُ صافٍ ولا خالصٍ، وقيلَ: الدَّخَنُ الأُمورُ المَكْروهةُ) قُلتُ: وَما دَخَنُهُ؟ قالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بغيرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بغيرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ منهمْ وَتُنْكِرُ، فَقُلْتُ: هلْ بَعْدَ ذلكَ الخَيْرِ مِن شَرٍّ؟ قالَ:

= وقال النووي في شرح حديث الباب: ومعنى الحديث أن عمران بن الحصين رضي الله عنه كانت به بواسير فكان يصبر على المهمات وكانت الملائكة تسلم عليه ، فاكتوى فانقطع سلامهم عليه، ثم ترك الكي فعاد سلامهم عليه. ينظر شرح النووي لمسلم 358/8.

[1] عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عنْهمَا، قَالَ: الشِّفَاءُ في ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ عَسَلٍ، وشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وكَيَّةِ نَارٍ، وأَنْهَى أُمَّتي عَنِ الكَيِّ رَفَعَ الحَدِيثَ ورَوَاهُ القُمِّيُّ، عن لَيْثٍ، عن مُجَاهِدٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النبيِّ ﷺ: في العَسَلِ والحَجْمِ. رواه البخاري 5680.

[2] أخرجه البخاري (6930)، ومسلم (1066).

نَعَمْ، دُعَاةٌ علَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَن أَجَابَهُمْ إلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا، قالَ: نَعَمْ، قَوْمٌ مِن جِلْدَتِنَا، وَيَتَكَلَّمُونَ بأَلْسِنَتِنَا، قُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، فَما تَرَى إنْ أَدْرَكَنِي ذلكَ؟ قالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ المُسْلِمِينَ وإمَامَهُمْ، فَقُلتُ: فإنْ لَمْ تَكُنْ لهمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إمَامٌ؟ قالَ: فَاعْتَزِلْ تِلكَ الفِرَقَ كُلَّهَا، ولو أَنْ تَعَضَّ علَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حتَّى يُدْرِكَكَ المَوْتُ وَأَنْتَ علَى ذلكَ}[1].

وقول حُذَيْفةُ رَضيَ اللهُ عنه: يا رَسولَ اللهِ، وما دَخَنُه؟ قال: قَوْمٌ يَهْدونَ بغَيرِ هَدْيِي، أي: لا يَستنُّونَ بسُنَّتي، وفيهم خَلْطٌ بيْن الأُمورِ، فترى منهم أشياءَ مُوافِقةً للشَّرعِ، وأشياءَ مُخالِفةً له، أو ترى أنهم مسلمون في الظاهر ولكنَّهم يفعلون أفعال أهل الكفر ويعتقدون اعتقادهم، فعليكَ أنْ تَعرِفَ منهمُ الخيرَ فتَشكُرَه، والشَّرَّ فتُنكِرَه، فقال حُذَيْفةُ: فهلْ بعْدَ ذلك الخيرِ المَشوبِ بالكَدَرِ مِن شرٍّ؟ قال ﷺ: نعمْ؛ دُعاةٌ إلى أبْوابِ جَهنَّمَ؛ وذلك باعْتِبارِ ما يَنْتَهي إليه شَأنُهم؛ فإنَّهم يَدْعونَ النَّاسَ إلى الضَّلالةِ، ويَصُدُّونَهم عنِ الهُدى بأنْواعٍ مِن التَّلْبيسِ؛ فلذا كانوا بمَنزلةِ أبْوابِ جَهنَّمَ، مَن أجابَهم إلى الخِصالِ الَّتي تؤولُ إلى النَّارِ، قَذَفوه فيها.

فقال حُذَيْفةُ رَضيَ اللهُ عنه: يا رَسولَ اللهِ، صِفْ لنا هؤلاء الدُّعاة، فقال ﷺ: هُم مِن جِلدَتِنا، أي: مِن أهل ملتنا ويتكلمون بلساننا، وبه فإنهم يَتكلَّمونَ بما قال اللهُ ورَسولُه ﷺ مِن المَواعظِ، والحِكمِ، وليس في قُلوبِهم شَيءٌ مِن الخَيرِ، يَقولونَ بأفْواهِهم ما لَيس في قُلوبِهم، فقال حُذَيْفةُ رَضيَ اللهُ عنه: يا رَسولَ اللهِ، فما تَأمُرُني إنْ أدْرَكَني ذلك؟ قال ﷺ: تَلزَمُ جَماعةَ المُسلِمينَ وعامَّتَهمُ الَّتي تَلتزِمُ بالكِتابِ والسُّنَّةِ، وإمامَهم، وهو أميرُهم العادِلُ الَّذي اخْتاروه، ونَصَّبوه عليهم، وقيلَ: تَلزَمُ الجَماعةَ الَّتي أمَرَ الشَّارِعُ بلُزومِها جَماعةَ أئمَّةِ العُلماءِ؛ لأنَّ اللهَ تعالَى جعَلَهم حُجَّةً على خَلقِه، وإليهم تَفزَعُ العامَّةُ في أمرِ دِينِها، وقيلَ: هم جَماعةُ الصَّحابةِ الَّذين قاموا بالدِّينِ، وفرَّقوا عِمادَه، وثبَّتوا أوْتادَه، والجامِعُ بيْن كلِّ هذه المَعاني هو التَّمسُّكُ بصَحيحِ الدِّينِ في أوامِرِه ونَواهيه.

فقال حُذَيْفةُ رَضيَ اللهُ عنه: فإنْ لم يكُنْ لهم جَماعةٌ ولا إمامٌ يَجتَمِعونَ على طاعَتِه؟ قال ﷺ: إنْ لم يكُنْ لهم إمامٌ يَجتَمِعونَ عليه، فاعتَزِلْ تلك الفِرَقَ كلَّها، ولو كان الاعْتِزالُ بالعَضِّ على جِذعِ شَجرةٍ، فلا تَعدِلْ عنه.

ولكن كيف لنا أن نعرف الحق وأهله كي نتبعهم؟

---

[1] مسلم: 1847 واللفظ له، والبخاري 3606.

فالكل يقول إنه عالم، والكل يقول بقول الله تعالى وقول رسوله ﷺ، والكل يؤوّل كلام الله تعالى وكلام رسوله ﷺ على حسب هواه، فكيف للمسلم قليل العلم أن يعلم الحق؟

يجيب النبي ﷺ بقوله: {ليأتينَّ على أمَّتي ما أتى على بني إسرائيل حَذوَ النَّعلِ بالنَّعلِ، حتَّى إن كانَ مِنهم من أتى أُمَّهُ علانيَةً لَكانَ في أمَّتي من يصنعُ ذلِكَ، وإنَّ بَني إسرائيل تفرَّقت على ثِنتينِ وسبعينَ ملَّةً، وتفترقُ أمَّتي على ثلاثٍ وسبعينَ ملَّةً، كلُّهم في النَّارِ إلَّا ملَّةً واحِدةً، قالوا: مَن هيَ يا رسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أَنا علَيهِ وأَصحابي}[1].

فهذا بيان واضح؛ وهو أنَّ من لم يكن على نهج الصحابة فهو في ضلال مبين.

وبه فمن أراد الحقَّ والصراط المستقيم فليتبّع الصحابة.

فيسأل المسلم قليل العلم، وكيف أجد أخبار الصحابة ومنهاجهم؟

الجواب: ذلك يكون صحيح كتب الرجال كالكتب الستة، ومعهم الموطأ ومسند أحمد فهذا يكفيك.

فيسأل المسلم إنَّ بعض أهل العلم طعنوا في هذه الكتب؟

الجواب: هو أنَّ من طعن في هذه الكتب ممن ينتسبون إلى العلم، أو نسب نفسه للعم، أو سمى نفسه عالما، ليس له أي علم بعلم الحديث، وعلى هذا فيجب عليك أن تكرّس من وقتك ولو شهرا تدرس فيه شروط الأحاديث الصحيحة فقط، وهذا يكون برواية العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه بلا شذوذ ولا علَّة، فهذه خمسة شروط وكل شرط فيها له شروط، فإذا درست هذا وفهمته فسوف تعلم علم اليقين أنَّه يستحيل الخطأ في الخبر الذي توفَّرت فيه هذه الشروط، وهذه الاستحالة هي استحالة عقلية قبل أن تكون نقلية، وستجد بعدها في النقل ما يثبت صحة الأخبار المنقولة بالشروط السابقة، ولنا في ذلك كتاب اسمه (المنة في بيان مفهوم السن)، وفي علم المصطلح لنا كتاب (الترويح والملح في شرح نظم غرامي صحيح لابن فرح).

فإنِ اتفقنا بعد هذا أنَّ الكتب الصحاح لا ريب فيها، سهُل الأمر، فما عليك إلا الاتِّباع، فالصحابة لا يقولون بقيلهم إلا في النزر القليل وكل مقالاتهم غالبا تحمل حكم الرفع، فاتَّبعهم، واقتدي بهم، وتشبَّه بهم؛ فإنَّ التشبه بالكرام فلاح، فإن رام قلبك هذا فأنت على

---

[1] أخرجه الترمذي (2641) واللفظ له، والطبراني (14/53) (14646)، والحاكم (444).

الصراط المستقيم وأنت في خيري الدنيا والآخر تنعم بما لم ينعم به غيرك إلا القليل من الناس، واعلم بأنك في جنَّتين جنة الدنيا وهي جنة العلم والمعارف، وفي جنَّة الآخرة وهي جنَّة النعيم والزخارف، وهو وعد من الله تعالى لم نقله بقيلنا، أما دليل جنَّة المعارف قوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ﴾ [المجادلة: 11].

وقال النبي ﷺ: {من سلك طريقًا يطلبُ فيه علمًا، سلك اللهُ به طريقًا من طرقِ الجنةِ، وإنَّ الملائكةَ لتضعُ أجنحتَها رضًا لطالبِ العِلمِ، وإنَّ العالِمَ ليستغفرُ له من في السماواتِ ومن في الأرضِ، والحيتانُ في جوفِ الماءِ، وإنَّ فضلَ العالمِ على العابدِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدرِ على سائرِ الكواكبِ، وإنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياءِ، وإنَّ الأنبياءَ لم يُورِّثُوا دينارًا ولا درهمًا، ورَّثُوا العِلمَ فمن أخذَه أخذ بحظٍّ وافرٍ}[1].

وقال النبي ﷺ: {منهومانِ لا يشبعانِ طالبُ علمٍ وطالبُ دُنيا}[2].

وأما دليل جنة الزخارف فقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ﴾ [المجادلة: 11]، فتلك الدرجات هي في الدنيا والآخرة، ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: 17].

وقال الشيخ محمد المختار الشنقيطي في شرح سنن الترمذي: أكد النبي ﷺ فضل العلم وأنه ينتهي بصاحبه إلى الجنة في قوله في الحديث الصحيح: العلماء ورثة الأنبياء، ومن ورث الخير كان من أهله، وقال جمع من العلماء في قوله تعالى: ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: 69]، قالوا: الصديقون هم العلماء العاملون.

وعليه فإنَّ مرتبة العلماء يوم القيامة تكون مع الأنبياء والصديقين.

---

[1] أخرجه أبو داود (3641) واللفظ له، والترمذي (2682)، وابن ماجه (223)، وأحمد (21715).

[2] حسن بطرقه: جاء من طريق ابن مسعود، وابن عباس، وأنس بن مالك، الأول والثاني السيوطي في الدر المنثور 130، والحافظ العراقي في تخريج الإحياء 294/3، والهيثمي في مجمع الزوائد 140/1، والثالث محمد جار الله الصعدي في النوافح العطرة 414. وحسنه الحاكم في المستدرك (1/ 169) (312).

ويسأل السائل: إن كان الأمر بسيطا هكذا، فلماذا لا يستسلم الكل إلى أوامر رسول الله ﷺ فيكون الأمر سهلا؟

نجيب: إنه التنطع، والتنطع هو: الغلو، والتكلف، والتقعر في الكلام، والنبي ﷺ يقول: {هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ. قَالَهَا ثَلَاثًا}[1].

قال ابن الأثير: المُتَنَطِّعون: هم المُتعَمِّقون المُغالون في الكلام، المتكلِّمون بأقْصَى حُلوقهم، مأخوذ من النِّطَع، وهو الغارُ الأعْلى من الفَم، ثم استُعْمِل في كل تَعَمُّق قولاً وفعلا[2].

ويمكن إطلاق لفظ التنطع على المتشدد في فرض رأيه والتمسك به دون دليل.

فهذا النوع من التنطع يوصل إلى الكبر، أو هو نتاج الكبر.

فالأحرى بالمسلم أن يُعمل عقله فيما ينفعه، وأولى أولويَّات إعمال العقل هو إدراكه أنَّ صحابة النبي ﷺ خير خلق الله بعد الأنبياء والرسل والاقتداء بهم واجب، لأنهم وزراء النبي ﷺ وتلامذته، فبالاقتداء بهم واتباعهم يسلك المسلم مسلك الصحابة ومن سلك مسلك الصحابة كان منهم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة: 100]، ومن المعلوم أنَّ الأحكام لا تؤخذ بخصوص الشخص أو السبب، بل تؤخذ بعموم اللفظ، وإن كان اللفظ على التابعين، فهو بعمومه يشمل كل من كان على نهج الصحابة الكرام رضي الله عنهم فهو منهم بنص الآية، وبما قلت قال البغوي: قال: هم الذين سلكوا سبيلهم في الإيمان والهجرة أو النصرة إلى يوم القيامة[3].

ومن ذلك عن أبي موسى الأشعري قال: {صَلَّيْنَا المَغْرِبَ مع رَسُولِ اللهِ ﷺ، ثُمَّ قُلْنَا: لو جَلَسْنَا حتَّى نُصَلِّيَ معهُ العِشَاءَ، قالَ: فَجَلَسْنَا، فَخَرَجَ عَلَيْنَا (أي: رسول الله ﷺ)، فَقالَ: ما زِلْتُمْ هَاهُنَا؟ قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، صَلَّيْنَا معكَ المَغْرِبَ، ثُمَّ قُلْنَا: نَجْلِسُ حتَّى نُصَلِّيَ معكَ العِشَاءَ، قالَ: أَحْسَنْتُمْ – أَوْ أَصَبْتُمْ – قالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إلى السَّمَاءِ، وَكانَ كَثِيرًا ممَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ

---

[1] رواه مسلم (2670).

[2] "النهاية" لابن الأثير (164/5).

[3] ينظر: تفسير البغوي.

إلى السَّمَاءِ، فَقالَ: النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ، فَإِذَا ذَهَبَتِ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ ما تُوعَدُ، وَأَنَا أَمَنَةٌ لأَصْحَابِي، فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي ما يُوعَدُونَ، وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي، فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتي ما يُوعَدُونَ}[1].

فقد سمَّى الرسول ﷺ الصحابة بأمنة الأمة، فمن لم يتبعهم فهو للشيطان تابع، فلا مسلك لعلم رسول الله ﷺ إلى عن طريق صحابة رسول الله ﷺ، بل حتى محبة رسول الله ﷺ متعلقة بحب أصحابه رضي الله عنهم، فعن عبدالله بن مغفل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتَّخِذوا أصحابي غَرَضًا بعدي، فمَن أحَبَّهم فبِحُبِّي أحَبَّهم، ومَن أبغَضهم فبِبُغْضي أبغَضهم، ومَن آذاهم فقد آذاني ومَن آذاني فقد آذى اللهَ، ومَن آذى اللهَ يوشِكُ أنْ يأخُذَه}[2].

وقال النبي ﷺ: {لا تَسُبُّوا أصْحابِي، لا تَسُبُّوا أصْحابِي، فَوالذي نَفْسِي بيَدِهِ لو أنَّ أحَدَكُمْ أنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، ما أدْرَكَ مُدَّ أحَدِهِمْ، ولا نَصِيفَهُ}[3].

والشاهد أنَّ فضل الصحابة عظيم لم يبلغه من تأخَّر إسلامه من الصحابة فضلا على من جاء بعدهم من العصور الذهبية، فضلا على غيرهم من الناس.

---

[1] أخرجه مسلم 2531.

[2] حسن لغيره: بكثرة شواهده، أخرجه الترمذي (3862)، وأحمد (20568) وفي ((فضائل الصحابة)) (1) واللفظ له، وابن حبان في صحيحه 7256، والسيوطي في الجامع الصغير وصححه 1436، والبيهقي في شعب الإيمان 657/2 وقال: له شواهد، وأبو نعيم في حلية الأولياء 287/8، وبمثله رواه ابن أبي عاصم في السنة 992، وفي سنده عبد الرحمن بن زياد، لم يوثقه غير ابن حبان وهو مجهول، والصحيح أنه مبهم وليس بمجهول فإن كان عبد الرحمن بن زياد الهاشمي فهو مقبول الحديث، وإن كان عبد الرحمن بن زياد الأفريقي فهو ضعيف الحديث وليس بمتهم، وقيل هو عبد الله بن عبد الرحمن، وهذا موثَّق وثقه أحمد بن صالح الجيلي، ووثقه يحيى بن معين، وقيل: عبدالرحمن بن زياد، وقلنا هذا مبهم غير مجهول، فأحدهما مقبول والآخر ضعيف من جهة الضبط، وقيل: عبد الرحمن بن عبد الله، لم يوثقه غير ابن حبان، وقال ابن معين: لا أعرفه. قال الذهبي: لا يعرف. وكل من سبق هم من الأجيال الذهبية، فأما عبد الله بن عبد الرحمن فهذا موثَّق، وأمَّا عبد الرحمن بن زياد فهو مبهم أحدهما الهاشمي فهو مقبول، والآخر الأفريقي ضعيف من جهة الضبط، فإن سلمنا بأنه الأفريقي فللحديث شواهد بالمعنى تشهد له فيرتقي، وإن كان عبد الرحمن بن عبد الله فقد وثقه ابن حبان والجيلي. فالحديث على الثاني حسن لغيره، وعلى الأول صحيح لذاته.

[3] أخرجه مسلم 2540، والبخاري 3673.

وعن عبدالله بن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: {تَسمعونَ ويُسمعُ منْكم ويسمعُ مِمَّن سمعَ منْكم}[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: {يَأْتي على النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيَقولونَ: فِيكُمْ مَن صاحَبَ رَسولَ اللَّهِ ﷺ؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ، ثُمَّ يَأْتي علَى النَّاسِ زَمانٌ، فَيَغْزُو فِئامٌ مِنَ النَّاسِ، فيُقالُ: هلْ فِيكُمْ مَن صاحَبَ مَن صاحَبَ أصْحابَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ؟ فيَقولونَ: نَعَمْ، فيُفْتَحُ لهمْ}[2].

وللمزيد في فضل الصحابة والتابعين وأتباعهم ينظر كتابنا (الأربعون في فضل الصحابة وخير القرون) ففيه ما يغني الطالب من الأحاديث المشروحة.



[1] صحيح: أخرجه أبو داود (3659)، وأحمد (2947)، وصححه الألباني في صحيح أبي داود، وقال البزار في البحر الزخار 266/11: روي من وجه آخر، وهذا الإسناد أحسن من الإسناد الذي يروى في ذلك، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 1784

[1] صحيح: أخرجه البخاري 3649.

﴿الفرع الثالث﴾

﴿الاستغاثة﴾

الاستغاثة لغة:

وهي: من الغوث، وهو طلب النصرة[1].

الاستغاثة شرعا:

هو طلب النصرة من الله تعالى وحده، (وإن كانت تجوز بالمخلوق فبشروط سوف يأتي ذكره).

وهي: طلب الغوث وإزالة الشدة[2].

والاستغانة بالخالق فرض واجب على كلّ مؤمن.

الفرق بين الاستغاثة، والاستعانة، والدعاء:

– **وهو أنَّ الاستغاثة: لا تكون إلا لمكروب، قال تعالى:** ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾[القصص: 15].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: 9].

– **والاستعانة: تكون في السراء والضرَّاء، قال تعالى:** ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ﴾[البقرة: 45]، **ومن المعلوم أنَّ الصبر فيه مشقة، وأنَّ الصلاة فيها الراحة، لقول النبي ﷺ: {يا بلالُ أقمِ الصلاةَ، أرِحْنا بها}[3].**

– **والدعاء: أعم منهما حيث يشمل الاستغاثة والاستعانة، إذ هو طلب.**

شروط الاستغاثة بالمخلوق ثلاثة وهي:

أن يكون المستغاث به، حيًّا، حاضرا، قادرا، حالها حال الدعاء والاستعانة.

فالاستغاثة بالأموات جنون، والاستغاثة بالغائب غباء، والاستغاثة بالعاجز خسَّة عقل.

---

[1] معجم المعاني الجامع.

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية 103/1.

[3] أخرجه أبو داود 4985.

فالميت لا يملك لنفسه شيئا من دفع ضر أو جلب مصلحة، فكيف يستغاث به أو يستعان به.

والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: 5].

والغائب ليس له علم بشيء إذ هو غائب، فالاستغاثة بالصخر الصم الحاضر أقرب عقلا من الاستغاثة بغائب، فالصخرة على الأقل هي حاضرة، وأمَّا الغائب فمعدوم بالكلية.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ [فاطر: 14].

والعاجز كذلك، فهو لم يستطع نفع نفسه فكيف سينفع غيره؟ والله تعالى يقول: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: 13]، **والقطمير هي قشرة نواة التمر.**

فالحي الحاضر عاجز عن كثير من الأشياء، فما بالك بالغائب والميت.

فالحي الحاضر عاجز عن الشفاء، فالعلاج هو مادة الشفاء، فالمُعالِجُ يعالج أي يتسبب، والله هو الذي يشفي، فكما ترى فإن المُعَالِجَ حي حاضر قادر، ومع ذلك يعجز عن الشفاء؛ لأن الشفاء بيد الله تعالى وحده، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: 80].

وهذه الآية فيها بيان أنَّ الشفاء من خصائص الله تعالى وحده ككثير من الأشياء المادية التي يظن بعض الناس أنها يمكن أن يشترك فيها المخلوق مع الخالق أحيانا، كالاستعانة بالحي الحاضر القادر في بعض الأمور التي يقدر عليها البشر، فالشفاء وكثير من الأشياء الأخرى هي من خصائص الله تعالى وحده منها: الرزق والنصر والنكاح وغيره... مع أنَّ ظاهرها أنها يقدر على بعظها البشر، إلا إنها من خصائص الربوبية، فيقول العامي، أنا اشتغلت فأخذت أجري، فكيف يكون الله تعالى قد رزقني هذا المال، بل أخذته بعد عمل وتعب؟؟؟

والصحيح أنَّ العمل سبب جعله الله تعالى لعبده كي يرزقه به، ولو شاء الله تعالى لأنزل عليه رزقه من السماء عيانا، ولكنَّه سبحانه سخَّر لعبده أسبابا لكل شيء لحكمة منه تعالى يعلمها.

ومع ذلك فإنه سبحانه يرزق عبده بلا سبب معلوم، أو يشفيه بلا سبب معلوم، فالأمر بيده سبحانه، ولكنَّ الغالب جعل له سبحانه وتعالى أسبابا لكل شيء.

قال تعالى في ذكره لذي القرنين: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾[الكهف: 84].

قال ابن كثير مستشهدا بآية: ﴿ وَأُوتِيَت مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[النمل: 23]، أي: مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله تعالى له الأسباب، أي: الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق[1] والبلاد والأراضي وكسر الأعداء، وكبت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك.

قد أوتي من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سببا، والله أعلم[2].

ومن ذلك أيضا: شرب المريض للدواء فيذهب به عنه السقم، فيظن أنَّ الدواء أو المُعَالِجَ هو الذي شفاه، والصحيح أنَّ المُعَالِجَ أو الدواء سببٌ والله هو الشافي، يقول ابن كثير في تفسير الآية الأولى: أي: إذا وقعت في مرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره، بما يقدر من الأسباب الموصلة إليه[3].

فيجب على المسلم أن يحذر من هذه الأمور، وأن ينسب الخير كله لله تعالى في كل حال، حينها يستقر التوحيد في قلبه، فيعلم علم اليقين أنَّ رزقه من الله تعالى، وشفائه كذلك، وكل أموره من الله تعالى وحده، حتَّى يبلغ مبلغ العلمِ فينسب الخير لله تعالى، وينسب الشرَّ لنفسه تأدُّبا مع الله تعالى، كقول نبي الله إبراهيم ﷺ ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾[الشعراء: 80].

قال ابن كثير: أسند المرض إلى نفسه، وإن كان عن قدر الله وقضائه وخلقه، ولكن أضافه إلى نفسه أدبا[4].

وهذه منزلة عالية في العلم والتوحيد، حيث يستيقن العبد أنَّ الخير والشرَّ بيده الله تعالى وحده، ثمَّ يرضى بذلك بلا حرج، ويستسلم لحكم الله تعالى، حتَّى ينسب الشرَّ لنفسه، لا

---

[1] الرساتيق: مفردها رستاق، وهي المواضع التي فيها زرع وقرى أو بيوت مجتمعة.

[2] ينظر: تفسير ابن كثير.

[3] ينظر: تفسر ابن كثير.

[4] ينظر: تفسير ابن كثير.

جهلا منه بعلم الله تعالى، وأن الخير والشر بيده؛ لكنَّه أدب منه فينسب به الخير لربه والشر لنفسه.

أنواع الاستغاثة:

للاستغاثة نوعان:

1 – استغاثة بالمخلوق.

وذلك قوله تعالى: ﴿ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ ﴾[القصص: 15].

2 – واستغاثة بالخالق.

وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[الأنفال: 9].

إلَّا أنَّ الاستغاثة بالمخلوق على قسمين أيضا:

1 – قسم جائز.

2 – وقسم غير جائز.

أما الجائز منها: فهو ما توفَّرت فيه شروط الاستغاثة الثلاثة وهي أن يكون المستغاث به حيا، حاضرا، قادرا، فيما يقدر عليه البشر، لا في خصوصيات الربوبية، كمن يستغيث بحي حاظر قادر في الشفاء، بل يستغيثه في العلاج والله هو الشافي.

وأما الممنوع منها: هو من اختل فيها شرط من شروط الاستغاثة بالمخلوق.

بل كرهت الاستغاثة بالمخلوق ولو كان حيا حاضرا قادرا، عن عدم الحاجة اللازمة لذلك، لما رواه الطبراني عن عبادة بن الصامت، يقول: {خرج علينا رسول الله ﷺ، فقال أبوبكر رضي الله عنه: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله}[1].

---

[1] حسن لغيره بشواهده: أخرجه أحمد في مسنده 5/ 317 / 22758، والطبراني في المعجم الكبير، كما في المجمع 10/ 246، وابن سعد في الطبقات 1/ 387 بسنده لعبادة بن الصامت، يقول: خرج علينا رسول الله ﷺ ، فقال أبوبكر رضي الله عنه: قوموا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: لا يقام لي، إنما يقام لله تبارك وتعالى. ولفظ الطبراني: إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله. وكذا في مجمع الزوائد للهيثمي 162/10.

فلو تلاحظ أنَّ النبي ﷺ نهى عن الاستغاثة به، وهو حي، حاضر، قادر، وهو سيد ولد آدم، فما بالُ أقوام يستغيثون بالأموات، بل بالقبور، بل بالحجارة، ولله المشتكى.
ونخرج من هذا أنه لو لزم الأمر بالمسلم أن يستغيث، فيستغيث بحي حاظر قادر، ويستغيث بلسانه لا بقلبه، ويستغيث الله تعالى بقلبه، والأحسن من ذلك أن يترك الحي الحاضر القادر، ويتوجه في مصيبته لله تعالى وحده، إلا ما لزم منها التسبب بالأسباب، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ لابن عباس: {يا غُلامُ إنِّي أعلِّمُكَ كلِماتٍ، احفَظِ اللَّهَ يحفَظكَ، احفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تجاهَكَ، إذا سأَلتَ فاسألِ اللَّهَ، وإذا استعَنتَ فاستَعِن باللَّهِ، واعلَم أنَّ الأمَّةَ لو اجتَمعت علَى أن ينفَعوكَ بشَيءٍ لم يَنفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتَمَعوا على أن يضرُّوكَ بشَيءٍ لم يَضرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبَهُ اللَّهُ عليكَ، رُفِعَتِ الأقلامُ وجفَّتِ الصُّحفُ}[1].
ففي هذا الحديث بيان واضح على أنَّ حتى الاستغاثة المباحة لا فائدة منها فقد رفعت الأقلام وجفت الصحف، فلم يبقى للمسلم إلا الله تعالى فليستغيث به وحده.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: {بعثَ رسولُ اللَّهِ ﷺ سَريَّةً عينًا[2]، وأمَّرَ عليهِم عاصمَ بنَ ثابتٍ، وَهوَ جدُّ عاصمِ بنِ عمرَ، فانطَلَقوا، حتَّى إذا كانوا ببَعضِ الطَّريقِ بينَ عُسفانَ ومَكَّةَ نزولًا، ذُكِروا لِحيٍّ من هُذَيْلٍ، يقالُ لَهُم: بنو لحيانَ، فتبِعوهم بقريبٍ من مائةِ رجلٍ رامٍ، فاقتصُّوا آثارَهُم، حتَّى نزلوا منزلًا نزلوهُ، فوجَدوا فيهِ نوى تمرٍ، تزوَّدوهُ من تمرِ المدينةِ، فقالوا: هذا من تَمرِ يثربَ، فاتَّبعوا آثارَهُم حتَّى لحِقوهم، فلمَّا أحسَّهم عاصمُ بنُ ثابتٍ وأصحابُهُ لَجؤوا إلى فَدفدٍ[3]، وقد جاءَ القومُ فأحاطوا بِهِم، وقالوا: لَكُمُ العَهْدُ والميثاقُ إن نزلتُمْ إلَينا أن لا نقتُلَ منكُم رجلًا، فقالَ عاصِمُ بنُ ثابتٍ: أمَّا أَنا فلا أنزلُ في ذمَّةِ كافرٍ، اللَّهمَّ أخبر عنَّا رسولَكَ...}[4].
فانظر إلى عاصم رضي الله عنه، وهو يعلم أن الوحي ينزل على النبي ﷺ ولم يستغث بالنبي ﷺ، ولكنه رفع شكواه إلى ربِّ النبي ﷺ فهو أولى بالاستغاثة فقال: اللَّهمَّ أخبر عنَّا رسولَكَ.

---

[1] أخرجه الترمذي (2516) واللفظ له، وأحمد (2669).
[2] المُرادُ بالعَينِ: الذين يَستَطلِعونَ أخبارَ العَدُوِّ.
[3] الفدفد: المكان المرتفع، وجاء في لسان العرب: مكان صلب غليظ، وقيل الأرضُ الواسعة المستويةُ لا شيءَ بها.
[4] رواه أحمد في المسند 230/15، واللفظ له، وصححه أحمد شاكر، والبخاري في صحيحه 3045

{فأخْبَرَ النَّبيُّ ﷺ أصْحَابَهُ خَبَرَهُمْ وما أُصِيبُوا، وبَعَثَ نَاسٌ مِن كُفَّارِ قُرَيْشٍ إلى عَاصِمٍ حِينَ حُدِّثُوا أنَّه قُتِلَ، لِيُؤْتَوْا بشَيءٍ منه يُعْرَفُ، وكانَ قدْ قَتَلَ رَجُلًا مِن عُظَمَائِهِمْ يومَ بَدْرٍ، فَبُعِثَ علَى عَاصِمٍ مِثْلُ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ، فَحَمَتْهُ مِن رَسولِهِمْ، فَلَمْ يَقْدِرُوا علَى أنْ يَقْطَعَ مِن لَحْمِهِ شيئًا}[1].



[1] ينظر: صحيح البخاري 3045.

﴿الفرع الرابع﴾

﴿النذر﴾

النذر لغة:

هو الإيجاب، تقول نذرت كذا، إذا أوجبت على نفسك شيئا[1].

النذر شرعا:

هو إلزام المكلف نفسه عبادة لم تكن لازمة بأصل الشرع[2].

والنذر من أجل العبادات، يقول الحق تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: 7].

قال ابن كثير: أي: يتعبَّدون الله تعالى فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر[3].

أنواع النذر:

للنذر نوعان:

الأول: نذر لله تعالى.

الثاني: نذر لغير الله تعالى.

النوع الأول: النذر لله تعالى:

وهو على حالين:

الحال الأول: نذر مطلق محمود: وهو يقول مثلا: عليَّ نذر أن أصلي ركعتين لله تعالى، أو أن أصوم يوما، ونحو ذلك، فهذا نذر محمود لخلوّه من الاشتراط على الخالق كما سيأتي، وقد مدح الله تعالى الموفون بالنذر عموما حيث قال: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا * يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾[الإنسان: 5 – 6 – 7].

---

[1] لسان العرب مادة (نذر) بتصرف.

[2] ينظر: كشاف القناع على متن الإقناع للبهوتي 14475، والمطلع للبعلي 392.

[3] ينظر: تفسير ابن كثير.

الحال الثاني: نذر مقيَّد مكروه، أو تقول: نذر مشروط مكروه: من ذلك أن يقول: إن ولدت زوجتي ذكرا أتصدق بمائة درهم، أو نحوي ذلك؛ فإن وجد شرطه لزمه ذلك النذر، وإلا فلا.

قال ابن المنذر: وأجمعوا أنَّ كل من قال: إن شفى الله عليلي، أو قدم غائبي، أو ما شابه ذلك، فعليَّ من الصوم كذا، ومن الصلاة كذا، فكان ما قال؛ أنَّ عليه الوفاء بالنَّذر[1].

وهذا نذر مكروه، لأنَّ المسلم يشترط في العبادة على الله تعالى؛ فكأنه يتمزَّى[2] عليه سبحانه، والله تعالى يقول: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ ﴾[الحجرات: 17].

كذلك؛ فإنَّ المسلم قيَّد نفسه بشيء عظيم، فإن أتاه الله تعالى ما طلب ولم يوفي بنذره فقد وقع في كبيرة، فالله تعالى يقول: ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ * فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾[التوبة: 75 – 76 – 77].

كذلك؛ فإنَّ النبي ﷺ نهى عن هذا النوع من النذر، لحديث ابن عمر قال: {أَخَذَ رَسولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا يَنْهَانَا عَنِ النَّذْرِ، ويقولُ: إنَّه لا يَرُدُّ شيئًا، وإنَّما يُسْتَخْرَجُ به مِنَ الشَّحِيحِ}[3].

وأرقى أنواع النذر هو: أن ينذر الإنسان لله نذرا مشروطا، فإن أتاه الله تعالى وفا بنذره وإن لم يأته لله تعالى كذلك أتى بنذره، كمن قال عليَّ نذر إن شفى الله عليلي لأتصدقنَّ بألف درهم؛ فإن شفى الله عليله تصدَّق، وإن مات عليله تصدَّق، فهو يَسْبَحُ في كلا الخيرين، وهو حامد وشاكر، خارج من عين المكروه، إلا مقام الإحسان، فهو في أولى موفٍ بنذره وهو بذلك في مقام الشاكرين، وهو في الثانية في مقام الحامدين الصابرين المخلصين، والله أعلم.

---

[1] ينظر: الإجماع لابن المنذر 676.

[2] تَمَزَّى عليهم: رأى لنفسه الفضْلَ عليهم. ينظر: معجم المعاني.

[3] أخرجه البخاري (6693) بنحوه، ومسلم (1639).

النوع الثاني: نذر لغير الله تعالى:

وهو على حالين أيضا:

الحال الأول: فيما لا يجب إلا لله تعالى:

كالذبح والصيام والصلاة وغيرها، فمن نذر شيئا من العبادات أو مما لا يكون إلا لله تعالى، لغير الله تعالى فقد كفر كفرا أكبرا مخرجا من الملة؛ لأنه عبد بذلك النذر غير الله تعالى، كمن يقول عند صاحب الضريح لو تزوجت ابنتي لأذبحنَّ لهذا الولي خروفا، فهذا قد كفر كفرا أكبرا قولا واحدا، كذلك لو نذر الصوم أو الصلاة أو غيرها مما يجب لله تعالى وحده[1].

والنذر لغير الله تعالى فيما لا يجب إلا لله تعالى، هو بدوره على قسمين:

القسم الأول: أن ينذر العبد لغير الله نذرا مشروطا، كأن يقول: لو شفي ابني لأذبحن لصاحب المقام ذبيحة.

القسم الثاني: أو يكون غير مشروط، بأن ينذر لغير الله نذرا للتعبد والتقرب وحسب.

والنذر لغير الله تعالى فيما لا يجب إلا لله تعالى أيضا له ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: فهو مشروط لله تعالى، بنذر لغير الله تعالى، كأن يقول: لو شفى الله ابني لأذبحن للولي فلان ذبيحة أو غيرها.

الوجه الثاني: فهو مشروط لغير الله تعالى، بنذر لغير الله تعالى، كأن يقول: لو شفى الولي فلان ابني لأذبحن له ذبيحة أو لأصومنَّ شهرا.

وهؤلاء هم شر البرية.

الوجه الثالث: فهو مشروط لغير الله تعالى، بنذر لله تعالى، كأن يقول: لو شفى صاحب المقام عليلي، لأذبحن لله ذبيحة.

وكل من سبق ذبيحتهم مردودة عليهم لأنهم خرجوا عن أصل الإسلام فلا يقبل منه شيء.

والحال الثاني: يأخذ مقام العهد:

كأن يقول لابنه مثلا: لك عليَّ إن نجحت في اختبار القرآن، لأشترينَّ لك ثوبا جديدا، فهو أقرب للعهد من النذر، وهذا لا شيء فيه بل هو مباح، سواء كان مشروطا أم غير مشروط، على أن لا ينذر لغير الله تعالى عبادة...

---

[1] للمزيد ينظر: مجموع الفتاوى 123/33 – ومدارج السالكين 508/1.

﴾ الفرع الخامس ﴿

﴾ الذبائح والقرابين ﴿

والذبح والقرابين؛ هي كل ما يتقرب به إلى الله تعالى من ذبح بهيمة الأنعام، ليشمل البقر والأغنام، أو المعز، أو غيرها مما يحل أكله ولو كان دجاجة.

وهذه العبادة من أعظم العبادات، لقوله تعالى: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾[الكوثر: 2].

فقد قرن سبحانه وتعالى الصلاة بالنحر، لشدة قربهما، كما أنَّ الخطاب جاء هنا على صيغة الإيجاب الشرعي، فهو أمر والأمر للوجوب، وهي من أعظم العبادة؛ لأن الله تعالى أوجبها لنفسه فقط، كالصلاة والصيام وغيرها.

قال ابن كثير في شرح الآية: أي: أخلص له صلاتك وذبيحتك[1].

الفرق بين الذبح والنحر:

الذبح: يتم عن طريق قطع العروق الموجودة في منطقة الرقبة ناحية الرأس، خاصة في الحيوانات ذات الرقبة القصيرة كالغنم مثلا.

النحر: يتم عن طريق طعن الحيوان أسفل الرقبة عند التقاء الرقبة بالصدر، وخاصة الحيوانات ذات الرقبة الطويلة كالإبل، وقد ألحق بها بعض العلماء الزرافة إن تأنست، فإن كانت متوحشة صيدت بما يصاد به غيرها.

وإن عكس المذكي فنحر البقر والغنم، أو ذبح الإبل فهو جائز عند الجمهور من الحنفية والشافعية والحنابلة، لأن المقصود فري الأوداج، وإنهار الدم ليطيب به اللحم، ولأن الكل موضع للتذكية.

ولا يجوز عند المالكية ذبح الإبل، وهو محمول على التحريم، كما ذكره صاحب شرح كفاية الطالب عن ابن حبيب، ورجحه العدوي في حاشية شرح كفاية الطالب[2]، هذا إذا كان في حال السعة، أما إذا كان مضطراً لذبحها، فإنه جائز.

ويجوز عندهم نحر البقر، لكن ذبحها أفضل.

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] ينظر: كفاية الطالب وحاشيته 578/1.

وأقول: هذا تناقض بيِّن، بين تحريم ذبح الإبل وجواز نحر البقر، إذ هما أقرب لبعضهما من بقية مأكولات اللحم لعظمهما، وإن كانت رقبة الإبل طويلة، فرقبة البقرة فيها شيء من الطول أيضا فيصح بها القياس، وبهذا القياس يمكن قول لمَّا جاز نحر البقر، جاز بذلك ذبح الإبل، ولكن نقول: الصحيح هو: الأسهل على الحيوان وهو الواجب، يعني لو كان النحر أسهل للإبل فهو الواجب، وإن كان الذبح للبقر هو الأسهل فهو الواجب وهكذا، لقول النبي ﷺ: {إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحسانَ على كُلِّ شَيءٍ، فإذا قتَلْتُم فأحسِنُوا القِتْلةَ، وإذا ذبَحْتُم فأحسِنوا الذَّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحَدُكم شَفْرَتَه، فلْيُرِحْ ذَبيحَتَه}[1]، وأمَّا إن نحرت البقرة، وذبح الجمل، أصبح الأمر مكروها؛ لأنه فيه شيء من التعذيب للحيوان، والذبيحة صحيحة إن كان بغير قصد تعذيب الدابة، وأما إن كان تعذيب الحيوان عن قصد، بأن يذبح الإبل كي يعذبها أو ينحر البقر بقصد تعذيبها، فأرى أنَّ تلك الذبيحة لا تؤكل، وفعله كبيرة، للمخالفة الواضحة للأوامر النبوية بالرفق بالحيوان وراحته، ومخالفته أيضا في طريقة الذبح أو النحر، ويدل على ذلك منع عقر قائمة البعير ليسهل نحره؛ ولأنَّ السنَّة أن تنحر الإبل قائمة معقوله يدها اليسرى[2]، وأما إن كان غير قاصد أو لم يقدر على البقرة إلا بنحرها، ولم يقدر على الإبل إلا بذبحها، فنراه على خير والذبيحة صحيحة والله أعلم.

---

[1] أخرجه مسلم **1955**.

[2] عن زيادِ بنِ جُبَيرٍ قال: رأيتُ ابنَ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما أتى على رجُلٍ قد أناخ بَدَنَتَه يَنحَرُها، قال: ابعَثْها قِيامًا مُقَيَّدةً؛ سُنَّةَ مُحمَّدٍ ﷺ.

فيُستَحَبُّ نَحرُ الإبِلِ قائِمةً مَعقولةً يَدُها اليُسرى، وهو مَذهَبُ الجُمْهورِ: الحَنَفيَّةِ، فيُستحَبُّ عندهم النَّحْرُ قائِمةً أو مُضطجعةً. ينظر: الهداية للمرغيناني **187/1** و**67/4**، تبيين الحقائق للزيلعي **90/2**، والشَّافِعيَّةِ، ينظر: المجموع للنووي **85/9**، والحَنابِلةِ، ينظر: الإنصاف للمرداوي **60/4**، مطالب أولي النهى للرحيباني **331/6**، وحُكِيَ الإجماعُ على استِحبابِ نَحرِ الإبِلِ، قال ابن قدامة: لا خِلافَ بين أهلِ العِلمِ في أنَّ المستحَبَّ نَحرُ الإبِلِ، وذَبحُ ما سواها، ينظر: المغني **397/9**، وقال الشنقيطي: واتَّفَق الفُقهاءُ على أن النَّحْرَ للإبِلِ، والذَّبحَ للغَنَمِ، والبَقَرُ مُتَرَدَّدٌ فيه بين النَّحْرِ والذبح، وأجمعوا على أنَّ ذلك هو الأفضَلُ، أضواء البيان، **130/9**، وخالف المالكيَّةُ فقالوا بوجوبِ النَّحْرِ في الإبِلِ، والذَّبحِ في الغنَمِ، والتخييرِ في البَقَرِ. يُنظر: التاج والإكليل للمواق **220/3**.

أنواع الذبح والنحر:

للذبح والنحر نوعان:

النوع الأول: الذبح للأكل، وللاتِّجار:

فهو مباح لقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ﴾[المائدة: 3].

وهذه الآية تدل بمفهوم المخالفة على إباحة أكل والاتجار في غير ما ذكر من النواهي.

وكذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ ﴾[الأنعام: 121].

وكذلك هذه الآية تدل بمفهومها على جواز الأكل والاتجار، بما ذكر اسم الله عليه حال النحر أو الذبح.

النوع الثاني: الذبح لله تعالى:

وهذا العمل هو عبادة عظيمة لا يجوز صرفها لغير الله تعالى بحال، لقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام: 162].

قال الطبري: إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي، يقول: وذبحي[1].

قال السعدي: {قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي} أي: ذبحي، وذلك لشرف هاتين العبادتين وفضلهما، ودلالتهما على محبة الله تعالى، وإخلاص الدين له، والتقرب إليه بالقلب واللسان، والجوارح وبالذبح الذي هو بذل ما تحبه النفس من المال، لما هو أحب إليها وهو الله تعالى[2].

وقال القرطبي: والنسك جمع نسيكة، وهي الذبيحة، وكذلك قال مجاهد والضحاك وسعيد بن جبير وغيرهم، والمعنى: ذبحي في الحج والعمرة[3].

وقيل النسك: هو الدين، وقيل العبادة، والظاهر أنها لكل المعاني السابقة والله أعلم.

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] ينظر: تفسير السعدي.

[3] ينظر: تفسير القرطبي.

وعن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: { لَعَنَ اللَّهُ مَن ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن سَرَقَ مَنَارَ الأَرْضِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن لَعَنَ وَالِدَهُ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَن آوَى مُحْدِثًا}[1].

واللعن هو الطرد من رحمة الله تعالى، فمن فعل شيئا مما سبق ذكره وخاصَّة الذبح لغير الله تعالى، وهذا لابتداء النبي ﷺ الكلام به، فهو مطرود من رحمة الله تعالى، ولا تحل ذبيحته ولا يحل أكلها ولو كان الذابح مسلما، بل هي أشد من الجيفة، فمن الجيفة ما يمكن أن تنتفع بجلدها، وأما هذه فلا شيء فيها حلال، فلمَّا حرم ذبحها وأكلها حرم كل الانتفاع بها، على خلاف الجيفة فالأصل فيها أنها ماتت حتف أنفها، فإن حرم أكلها؛ فإنه لم يحرم الانتفاع بجلدها أو قرنها، فالتحريم منوط بالأكل فقط لما جاء في الصحيحين:

{وَجَدَ النبيُّ ﷺ شَاةً مَيِّتَةً أُعْطِيَتْهَا مَوْلَاةٌ لِمَيْمُونَةَ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقالَ النبيُّ ﷺ: هَلَّا انْتَفَعْتُمْ بجِلْدِهَا؟ قالوا: إنَّهَا مَيْتَةٌ، قالَ: إنَّما حَرُمَ أكْلُهَا}[2].

فيتبين لك من هذا أن الأكل من الذبيحة لغير الله تعالى أشد تحريما من أكل الجيفة، حيث أن الجيفة يمكن الانتفاع بها دون الأكل؛ لأنَّ النبي ﷺ قيَّد التحريم بالأكل، وأما ما ذبح لغير الله تعالى فلا يمكن الانتفاع بشيء منه، لما جاء في الصحيحين أنه؛ بَلَغَ عُمَرَ بنَ الخَطَّابِ أنَّ فُلَانًا باعَ خَمْرًا، فَقالَ: قَاتَلَ اللَّهُ فُلَانًا! أَلَمْ يَعْلَمْ أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ: {قَاتَلَ اللَّهُ اليَهُودَ؛ حُرِّمَتْ عليهمُ الشُّحُومُ، فَجَمَلُوهَا فَبَاعُوهَا}[3].

وتحريم أكل ما ذبح لغير الله تعالى تحريم مطلق، ولا يمكن تقييده؛ لأنه من أصل الشرع لا من فروعه، ويخرج من كل هذا المضطر، على أن تكون ضرورته مهلكة، وأن يقدر الضرورة بقدرها لا يتجاوزها.

قال النووي: أما الذبح لغير الله تعالى؛ فالمراد به أن يذبح باسم غير الله تعالى، كمن ذبح لصنم، أو صليب أو لموسى، او لعيسى، صلى الله عليهما (أو لمحمد ﷺ، أو لصحابي، أو لولي)، أو للكعبة، (أو لقبر)، ونحو ذلك فكل هذا حرام، ولا تحل ذبيحته سواء كان الذابح مسلما أو نصرانيا أو يهوديا، نصَّ عليه الشافعي، واتفق عليه أصحابنا؛ فإن قصد مع ذلك

---

[1] أخرجه مسلم 1978.

[2] أخرجه البخاري (1492) واللفظ له، ومسلم (363).

[3] أخرجه البخاري (2223)، ومسلم (1582)، فَجمَلُوها، أي: أَذابُوه واستخْرَجُوا دُهْنَه، وباعُوه احتيالًا ومَكرًا.

تعظيم المذبوح له غير الله تعالى والعبادة له، كان ذلك كفرا؛ فإن كان الذابح مسلما قبل ذلك، صار بالذبح مرتدا[1].

وأقول: إن ذبح لغير الله تعالى، نقول فيه: لا يعذر المكلف بجهله بالتوحيد إن كان بين المسلمين؛ لأنه وإن كان جاهلا كان له أن يقلد المسلمين فيما يفعلون، وكذلك إن كان بين ظهرني غير المسلمين، فيجب عليه أن يتعلم إن لم يكن يعلم، فطلب العلم فريضة على كل مسلم، قاله رسول الله ﷺ[2].

وليس له عذر ولو لم تبلغه الدعوة المحمَّدية؛ لأنَّ النحر حاله حال الصلاة يدل العقل السوي على أنه لا يكون إلا لله تعالى، وكل شريعة من الشرائع السابقة لم تذبح لغير الله تعالى إلا ما حرِّف منها.

يقول النبي ﷺ: {والذي نفْسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمةِ، لا يهودِيٌّ، ولا نصرانِيٌّ، ثُمَّ يموتُ ولم يؤمِنْ بالذي أُرْسِلْتُ به، إلَّا كان من أصحابِ النارِ}[3].

فدلَّ هذا على أنَّ من لم يسمع منهم بالبعثة، سيحاسب على حسب شريعته، فإن كان نصرانيا ممن جعلوا عيسى إله فهو في النار، وإن كان نصرانيا موحد حنيفا فهو سالك، فهذا الذي لم تبلغ الدعوة، كان له أن يتبِّع الحنيفية السمحاء دين إبراهيم وكل الأنبياء فيسلك، وهذا السالك إذا بلغته الدعوة المحمدية وجب عليه اتباعها وجوبا، وإلا فهو كافر، ونفس الأمر في اليهود.

فيتبين لنا من هذا أنَّ أهل الفترة من الرسل، وهم الذين يأتون بين الرسل، يجب عليهم أن يتبعوا الحنيفية السمحاء والفطرة السوِّية للإنسان، وقد سبق وقلنا: أنَّ العقيدة السليمة فطرية، فمن كان على الحنيفية كان ناجٍ من براثن الشرك والكفر والنحر لغير الله تعالى، وقد كان من أهل الفترة موحِّدون أحناف، منهم زَيْدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ، فعَنْ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: {أَنَّ

---

[1] شرح مسلم للنووي 141/13.

[2] صحيح أخرجه ابن ماجه (224) أوله في أثناء حديث، والبزار (6746) مختصراً، وابن عبد البر في (جامع بيان العلم وفضله)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (8567)، وتمام في ((الفوائد)) (52)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (1667).

[3] أخرجه مسلم 153

زَيدَ بنَ عَمْرِو بنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ يَسْأَلُ عَنْ الدِّينِ وَيَتْبَعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِن اليَهُودِ فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ، فَأَخْبِرْنِي.

فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ.

قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُهُ !! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟

قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا.

قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الحَنِيفُ؟

قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ.

فَخَرَجَ زَيْدٌ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنْ النَّصَارَى، فَذَكَرَ مِثْلَهُ فَقَالَ: لَنْ تَكُونَ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيبِكَ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ.

قَالَ: مَا أَفِرُّ إِلَّا مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ، وَلَا مِنْ غَضَبِهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنَّى أَسْتَطِيعُ؟! فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟

قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا.

قَالَ: وَمَا الحَنِيفُ؟

قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ؛ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ.

فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنِّي عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ.

قال البخاري: وَقَالَ اللَّيْثُ: كَتَبَ إِلَيَّ هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَتْ: رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْكَعْبَةِ يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي.

وَكَانَ يُحْيِي الْمَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ: إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا؛ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا[1].

قال الحافظ ابن حجر: كان ممن طلب التوحيد، وخلع الأوثان، وجانب الشرك؛ لكنه مات قبل المبعث.

---

[1] رواه البخاري (3828).

فروى محمد بن سعد والفاكهي من حديث عامر بن ربيعة حليف بني عدي بن كعب قال: قال لي زيد بن عمرو: إني خالفت قومي واتبعت ملة إبراهيم وإسماعيل وما كانا يعبدان، وكانا يصليان إلى هذه القبلة، وأنا أنتظر نبيا من بني إسماعيل يبعث ولا أراني أدركه، وأنا أومن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، وإن طالت بك حياة فأقره مني السلام.

قال عامر: فلما أسلمت أعلمت النبي ﷺ بخبره، قال: فرد عليه السلام، وترحم عليه، قال: ولقد رأيته في الجنة يسحب ذيولا[1].

وروى البزار والطبراني من حديث سعيد بن زيد قال: خرج زيد بن عمرو، وورقة بن نوفل يطلبان الدين حتى أتيا الشام، فتنصر ورقة وامتنع زيد، فأتى الموصل فلقي راهبا فعرض عليه النصرانية فامتنع... قال سعيد بن زيد: فسألت أنا وعمر رسول الله ﷺ عن زيد فقال: غفر الله له ورحمه، فإنه مات على دين إبراهيم[2].

فخرجنا بكل هذا أن لا عذر للمكلف البتة بجهل بأمور التوحيد، ولو كان في فترة من الرسل؛ فإنه يجب عليه أن يكون على الحنيفية السمحاء، والحنيفية هي الميل إلى الله تعالى في عبادته وتوحيده، وهو الميل إلى الحقِّ، والإلحاد هو الميل عن الله تعالى في عبادته وتوحده، وهو الميل عن الحقِّ، فيعبد غير الله، أو يعبد مع الله غيره، ولا تختص الحنيفية بإبراهيم عليه الصلاة والسلام وحسب، بل الحنيفية فطرة كل إنسان، جبله الله تعالى عليها، لا يزيغ عنها إلا هالك، ولا يتقفَّرها إلا سالك.



[1] فتح الباري لابن حجر (143/7).

[2] ينظر: موقع إسلام سؤال جواب لصالح المنجد.

﴿الفرع السادس﴾

﴿الخوف﴾

الخوفُ لغةً: تدلُّ مادَّةُ (خ و ف) علَى الذُّعرِ والفزعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: الخاءُ والواوُ والفاءُ أصلٌ واحدٌ يدلُّ علَى الذُّعرِ والفزعِ، يقالُ خفتُ الشَّيءَ خوفًا وخيفةً[1].

الخوفُ اصطلاحًا: توقُّعُ حلولِ مكروهٍ أو فواتِ محبوبٍ[2].

أنواعُ الخوفِ:

1) الخوفُ منَ اللهِ تعالَى:

ويسمَى (خوفُ العبادةِ)، وهوَ الخوفُ المقترِنُ بالمحبَّةِ والتَّعظيمِ والتذلُّلِ والخضوعِ، وهوَ الذِي يحملُ العبدَ علَى الطَّاعةِ والبعدِ عنِ المعصيةِ.

حكمهُ: الخوف بما سبق تعريفه يسمى بـ الخشية، وهو واجبٌ فِي حقِّ اللهِ تعالَى، وصرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى شركٌ أكبرٌ، وسيأتي تعريف الخشية والفرق بينها وبين الخف في المبحث القادم.

والخوفُ منَ اللهِ تعالَى قدْ يكونُ خوفًا ممدوحًا أوْ خوفًا مذمومًا:

أ) الخوفُ الممدوحُ هوَ: الباعثُ علَى العملِ، وهوَ الذِي يحملُ العبدَ علَى أداءِ الفرائضِ واجتنابِ المحرَّماتِ، فتكونُ نتيجتهُ طاعةُ اللهِ تعالَى، وحكمهُ واجبٌ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾[فاطر: 28].

إنما: إن: حرف ناسخ وتوكيد ونصب مبني على الفتح، ما: كافة كفت إن عن العمل مبني على السكون.

و (إنَّما) أداة حصر ركِّبت من حريفين (إنَّ) و(ما).

يخشى: فعل مضارع مرفوع وعلامة رفعه الضمة المقدرة منع من ظهورها التعذر.

الله: "لفظ جلالة" مفعول منصوب وعلامة نصبه الفتحة الظاهرة على آخره.

فحصرت (إنما) خشية الله تعالى.

---

[1] **معجم مقاييس اللغة 230/2.**

[2] **التعريفات للجرجاني 90.**

من: حرف جر، وهي للتبعيض.

عباده: اسم مجرور وعلامة جره الكسرة الظاهرة على آخره، والهاء ضمير متصل مبني في محل جر بالإضافة.

فكانت (من) لتبعيض عباد الله تعالى، وهي منَ البعض، والبعض هو الجزء أو الطائفة.

العلماء: فاعل مؤخر مرفوع وعلامة رفعه الضمة الظاهرة على آخره.

فكان لفظ العلماء دليلا على البعض المحصورين بـ (من).

فالمعنى البلاغي للآية: حصر خشية الله تعالى بـ (إنما) ببعض العباد، وليس كلَّهم، وذلك بحرف (من) التي هي للجر وللتبعيض، وهؤلاء البعض من العباد همُ العلماء.

والمعنى الأصولي للآية: فللآية مفهوم مخالفة، وهو أنه من لم يخشى الله تعالى ليس عالما ولو كان يحمل من العلم الشيء الوفير.

وفيه أنه من كان أكثر علما كان أكثر خشية، وأنَّ الخشية تدل على علم الرجل.

ب) والخوفُ المذمومُ هوَ: المُقعِدُ عنِ العملِ، وهوَ مَا يحملُ العبدَ علَى اليأسِ والقنوطِ منْ رحمةِ اللهِ تعالَى، وحكمةُ: كبيرةٌ، قالَ تعالَى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: 56] .

وقوله تعالى على لسان يعقوب: ﴿يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: 87] .

قال البغوي: معناه التمسوا (وَلَا تَيْأَسُوا) ولا تقنطوا (مِنْ رَوْحِ اللهِ) أي : من رحمة الله، وقيل: من فرج الله، (ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)[1].

وقال القرطبي: (وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ) أي لا تقنطوا من فرج الله؛ قاله ابن زيد، يريد أن المؤمن يرجو فرج الله، والكافر يقنط في الشدة[2].

وقال قتادة والضحاك: من رحمة الله.

---

[1] ينظر: تفسير البغوي.

[2] ينظر: تفسير القرطبي.

{إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} دليل على أن القنوط من الكبائر، وهو اليأس.
وهو دليل أيضا على أنَّ الكفار يائسون من رحمة الله تعالى يوم القيامة، وهذا فيه تحذير لأهل الكفر ليعودوا إلى الصراط المستقيم قبل فوات الأوان.

قالَ ابنُ تيميةَ رحمهُ اللهُ تعالَى: الخوفُ المحمودُ هوَ مَا حجزكَ عنْ محارمِ اللهِ[1] اهـ.

أمَّا إذَا زادَ الخوفُ بحيثُ يؤدِّي إلَى القنوطِ واليأسِ، فهوَ خوفٌ مذمومٌ؛ لذلكَ لَا بدَّ أنْ تتوازنَ عبادةُ الخوفِ معَ عبادةِ الرَّجاءِ.

ثمَّ قال تعالى محرضا عباده على عدم القنوط، مشجعا لهم بالتوبة والتقدم نحو رضوان الله تعالى فقال جلَّ من قائل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: 53].

فأمرهم بعدم القنوط، وأخبرهم بأنه سبحانه يغفر الذنوب جميعا، ثمَّ ذكَّرهم؛ بأنه هو الغفور الرَّحيم.

ثمَّ زاد أكثر من ذلك فبشر التائبين بالجنان والنعيم المقيم فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ * أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [آل عمران:135 – 136].

فقوله: وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً، أي: من الشهوات ما دون الشرك، ثمَّ زاد فقال: أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، قال أهل التفسير هي ما دون الفاحشة، وأقول؛ إنَّ المراد بقوله: أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ، هو أكبر من الفاحشة بل هو الشرك، فمعنى الكلام أنَّ الذين فعلوا فاحشة من زنا أو غيره، أو حتَّى أشركوا بالله تعالى، ودليلنا على أنَّ الظلم هاهنا الشرك هو قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، فهؤلاء إن تذكروا الله تعالى وذكروه بأن يستغفروا لذنوبهم ولا يصرون على فعلتهم وهم يعلمون، أي: بقصد، فهؤلاء لهم مغفرة من الله تعالى وجنَّات خالدين فيها.

[1] مدارج السالكين لابن القيم الجوزية 184/2.

ولا شكَّ أنَّ التوبة من الشرك من أعظم الأعمال الصالحة؛ لأنه تاب من أكبر الكبائر.
وأمَّا من حصر الظلم بأنه هنا أيسر من الفاحشة، فلعلَّه نظر إلى سبب النزول فقط.
جاء في تفسير القرطبي: نزلت هذه الآية في نبهان التمار – وكنيته أبو مقبل – أتته امرأة حسناء باع منها تمرا، فضمها إلى نفسه وقبلها فندم على ذلك، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فنزلت هذه الآية.
وعنده أيضا: إن سبب نزولها أن ثقيفيا خرج في غزاة وخلف صاحبا له أنصاريا على أهله، فخانه فيها بأن اقتحم عليها فدفعت عن نفسها فقبل يدها، فندم على ذلك فخرج يسيح في الأرض نادما تائبا؛ فجاء الثقفي فأخبرته زوجته بفعل صاحبه، فخرج في طلبه فأتى به إلى أبي بكر وعمر رجاء أن يجد عندهما فرجا فوبخاه؛ فأتى النبي ﷺ فأخبره بفعله؛ فنزلت هذه الآية.
ثمَّ قال: وهذا عام، وقد تنزل الآية بسبب خاص ثم تتناول جميع من فعل ذلك أو أكثر منه[1].
فكما تلاحظ أنَّ سبب نزول الآية لم يتطرَّق إلى زنا فعلي أو فاحشة فعلية إلا اليسير منها، ولم يتطرق سبب النزول إلى الشرك أو غيره، ومن المعلوم في أصول التفسير أن: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.
وإلا لبقي حكم الآية في السبب الذي نزلت لأجله لا تتعدَّاه.
وخرجنا بهذا؛ أنه من فعل الفاحشة كبيرة أو صغيرة، أو حتى أشرك بالله فتذكر الله تعالى وأيامه، واستغفر الله تعالى نادما من قلبه غفر الله له، ولو أشرك وقتل ألف نفس، فمن تاب يتوب الله عليه، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾[البروج: 10]، **فقول تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ) فهذه الآية نزلت في أصحاب الأخدود الذين حرَّقوا المؤمنين والمؤمنات، والفتن الحرق، تقول فتنت الذهب إذا حرَّقته كي تخلصه من الشوائب الزائدة عن أصله، وبما قلت قال الطبري: إن الذين ابْتَلَوُا المؤمنين والمؤمنات بالله بتعذيبهم، وإحراقهم بالنار**[2].

---

[1] ينظر: تفسير القرطبي.
[2] ينظر: تفسير الطبري.

وبما قلت قال القرطبي: والعرب تقول: فتن فلان الدرهم والدينار إذا أدخله الكور لينظر جودته، ودينار مفتون، ويسمى الصائغ الفتان، (ألنه يحرق الذهب والفضة) وكذلك الشيطان، وورق فتين، أي فضة محترقة[1].

وقوله تعالى: (ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا) فانظر إلى مفهوم الآية، فهم كفار ويحرقون المؤمنين، فاجتمع فيهم أعلى درجات الكفر والفسق، وهو يدعوهم إلى التوبة، فإن تابوا لتاب الله عليهم.

وبما قلت قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[2].

2) الخوفُ منْ غيرِ اللهِ تعالَى: وهوَ علَى قسمين:

أ) الخوفُ الطبيعِي:

وهوَ خوفُ الإنسانِ ممَّا يُؤذيهِ، مثلَ خوفِ المرءِ منَ السَّبعِ أنْ يأكلهُ، ومنَ النَّارِ أنْ تحرقهُ.

حكمهُ: مباحٌ إذَا وُجدتْ أسبابهُ.

وهذَا الخوفُ ليسَ بعبادةٍ، ووقوعهُ فِي القلبِ لَا ينافِي الإيمانَ، قالَ تعالَى عنْ موسَى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾[القصص: 21]، ولكنْ يجبُ ألَّا يزيدَ عنِ الحدِّ، وألَّا يستقرَّ فِي القلبِ، بل يُذهبهُ العبدُ ويَدفعهُ عنْ قلبهِ بالتوكُّلِ علَى اللهِ تعالَى واللُّجوءِ إلى اللهِ سبحانهُ، قالَ تعالَى:

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾[آل عمران: 173].

فالخوفُ الطَّبيعيُّ لَا يُلامُ عليهِ العبدُ، بشرطِ ألَّا يؤدِّي إلَى تركِ واجبٍ أو فعلِ محرَّمٍ، أمَّا إذَا كانَ بلَا سببٍ، أو سببهُ ضعيفًا كمن يخافُ منَ الظَّلامِ، أو كانَ سببًا وهميًّا فهوَ مذمومٌ.

---

[1] ينظر: تفسير القرطبي.

[2] ابن كثير: 497/4.

ب) الخوفُ المحرَّمُ:

وهوَ الخوفُ الذِي يحملُ علَى تركِ واجبٍ أو فعلِ محرَّمٍ وهو ما يسمى بالخشية.

وهوَ الخوفُ منَ الخلقِ فِي حدٍّ منْ حدودِ اللهِ تعالَى، فيعصِي اللهَ تعالَى خوفًا منَ النَّاسِ، أو يتركَ واجبًا منَ الواجباتِ خوفًا منَ النَّاسِ؛ كمن يتركُ الصَّلاةَ خوفًا منَ أن يُفصَلَ من عملهِ،

وبهذهِ الصِّفةِ حكمهُ: محرَّمُ، فالخشية لا تكون إلا من الله تعالى وحده، كما سيأتي، قال تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾[النساء: 77] .

فبيَّن سبحانه أنَّ من خاف من غير الله تعالى إذا بلغ خوفه مرتبة الخوف من الله تعالى أصبح خشية، والخشية لا تكون إلا من الله تعالى وحده.

هذَا إن لم يكنِ الخائفُ مكرهًا؛ مُلجأً كاملًا، أو حتَّى غيرَ ملجيءٍ ناقصًا، لمَا سيأتِي من شرحِ الإكراه وأنواعه:



﴿الوجه الأول﴾

﴿الإكراه﴾

الإكراه لغة:

قال ابن فارس: الكاف والراء والهاء أصلٌ صحيحٌ واحد، يدل على خلاف الرضا والمحبة، يقال: كرهت الشيء أكرهه كَرْهًا[1].

الإكراه اصطلاحا:

قال الجرجاني: حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد والإلزام والإجبار على ما يكره الإنسان طبعًا أو شرعًا، فيقدم على عدم الرضا ليرفع ما هو أضر[2].

وقيل: الإكراه حمل الغير على ما يكرهه بالوعيد الشديد[3].

وقيل: والكره معنى قائم بالمكره ينافي المحبة والرضا، ولهذا يستعمل كل واحد منهما مقابل الآخر. قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 216][4].

وأقول: الإكراه دون الإجبار وهو حمل الإنسان لفعل ما لا يحب فعله، ويظهر لغير العالم أنه يفعله طواعية، والصحيح أنه لا يحب فعل ذلك.



---

[1] مقاييس اللغة، ابن فارس 172/5.

[2] التعريفات للجرجاني 50.

[3] التوقيف للمناوي 84.

[4] بدائع الصنائع للكاساني 175/7.

﴿شروط الإكراه﴾

شروطُ الإكراهِ أربعةٌ:

الأوَّلُ: أنْ يكونَ فاعلهُ قادرًا علَى إيقاعِ مَا يهدِّدُ بهِ، والمأمورُ عاجزًا عنِ الدَّفعِ ولوْ بالفرارِ.

الثَّانِي: أنْ يغلبَ علَى ظنِّهِ أنَّهُ إذَا امتنعَ أوقعَ بهِ ذلكَ.

الثَّالثُ: أنْ يكونَ مَا هدَّدهُ بهِ فوريًّا، فلوْ قالَ: إنْ لمْ تفعلْ كذَا ضربتكَ غدًا، لَا يُعدُّ مكرهًا، ويستثنَى مَا إذَا ذكرَ زمنًا قريبًا جدًّا أوْ جرتِ العادةُ بأنَّهُ لَا يُخلفُ، (وهذا ليس مطَّردا، بل الصحيح أن يغلب على الظن أنه سيفعل ما هدد به ولو بعد سنة)

الرَّابعُ: ألَّا يَظهرَ منَ المأمورِ مَا يدلُّ علَى اختيارهِ، كمنْ أُكرهَ علَى الزِّنَا فأولجَ وأمكنهُ أنْ ينزعَ ويقولُ أنزلتُ، لكنَّهُ تمادَى حتَّى أنزلَ، فهذَا كانَ باختيارهِ أنْ ينزعَ ولكنَّهُ تمادَى.

وكما أنَّ الإكراه إكراه ولو كان المكره يحب ذلك الفعل: فلو قيل لك اشرب الخمر وإلا قطعت يدك وأنت تحب شرب الخمر فشربتها كنت مكرها؛ لأن شربك الخمر في ذلك الوقت بالذات كان تحت السيف، أو أنك غير راض بشربها في ذلك الوقت بالذات، والله أعلم.



﴿أقسام الإكراه﴾

الإكراهُ علَى قسمينِ:

فقدْ قسَّمَ جمهورُ الأصوليِّينَ والفقهاءِ الإكراهَ إلَى قسمين:

1 – إكراهٌ ملجئٌ: وهوَ الإكراهُ التَّامُ، المعبَّرِ عنهُ بالإلجاءِ الكاملِ.

2 – وإكراهٌ غيرُ ملجئٍ: وهوَ الإكراهُ النَّاقصُ، وهوَ المعبَّرُ عنهُ بغيرِ الملجئِ النَّاقصِ.

الأوَّل: الإكراهُ الملجئ (الكاملُ):

الإلجاء لغة:

التلجئة: الإكراه، وألجأه إلى كذا: اضطره إليه، وألجأ أمره إلى الله تعالى: أسنده[1].

الإلجاء اصطلاحا:

والإلجاء ما تشتد دواعي الانسان إليه على وجه لا يجوز أن يقع من دون تلك الدواعي، والإلجاء يكون فيما لا يجد الإنسان منه بدًا من أفعال نفسه[2].

وهوَ الذِي يقعُ علَى نفسِ المكرهِ، ولَا يبقَى للشَّخصِ معهُ قدرةٌ ولَا اختيارٌ، كأنْ يُهدَّدَ الإنسانُ بقتلهِ أوْ بقطعِ عضوٍ منَ أعضائهِ كيدهِ أوْ رجلهِ، أوْ بضربٍ شديدٍ يفضِي إلَى هلاكهِ أوْ بإتلافِ جميعِ مالهِ، فمتَى غلبَ علَى ظنِّهِ أنَّ مَا هُدِّدَ بهِ سيقعُ عليهِ، جازَ لهُ القيامُ بمَا دفعَ إليهِ بالتَّهديدِ، باعتبارهِ فِي حالةِ ضرورةٍ شرعيَّةٍ[3].

وهوَ حيثُ ينعدمُ الرِّضَا والاختيارُ، وتنتفِي الإرادةُ والقصدُ، وذلكَ بالوقوعِ تحتَ التَّعذيبِ الشَّديدِ أوْ نحوِ ذلكَ، وهذهِ الحالةُ قالَ تعالَى فيهَا: ﴿مَن كَفَرَ بِاللّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾ [سورة النحل: 106].

---

[1] **مختار الصحاح، الرازي ص612.**

[2] **الفروق اللغوية، العسكري ص44 بتصرف.**

[3] **ينظر الإكراه وأثره في عقود المفاوضات المالية د. إبراهيم العروان 9657، والبدائع للكاساني 175/7، حاشية ابن عابدين 109/5، وينظر الفرق بين الإكراه والضرورة، التشريع الجنائي 576/1 – 577، والإكراه وأثره في التصرفات، د. محمد المعيني 37 – 44.**

وهذَا النَّوعُ منَ الإكراهِ اسمُ صاحبهِ ملجَئٌ كامِلٌ، وهذَا النَّوعُ يعطِي صاحبهُ الرُّخصةَ حتَّى فِي قولِ كلمةِ الكفرِ، بشرطِ أنْ يكونَ قلبهُ مطمئنًّا بالإيمانِ، فهوَ يعطيهِ الرُّخصةَ فِي كلِّ شيءٍ إلَّا القتلِ قالَ أبُو إسحاقٍ الشِّيرازِي: انعقدَ الإجماعُ علَى أنَّ المكرهَ علَى القتلِ مأمورٌ باجتنابِ القتلِ والدَّفعِ عنْ نفسهِ وأنَّهُ يأثمُ إنْ قتلَ منْ أُكرهَ علَى قتلهِ...[1].

ومنه دلائل جواز التنازل عند الإكراه، حديثُ أبِي عبيدةَ بنِ محمَّدٍ بنِ عمَّارَ بنِ ياسرٍ قالَ: {أخذَ المشركونَ عمَّارًا فعذَّبوهُ حتَّى قاربهمْ فِي بعضِ مَا أرادُوا، فشكَى ذلكَ إلَى النَّبيِّ ﷺ فقالَ لهُ: كيفَ تجدُ قلبكَ؟ قالَ: مطمئنًّا بالإيمانِ، قالَ فإنْ عادُوا فعد}[2].

وعليه: فهذَا النَّوعُ منَ الإكراهِ يعطِي صاحبهُ الرُّخصةَ فِي تركِ بعضِ العباداتِ العقائديَّةِ، بأن يأخذَ بالتَّقيَّةِ حفاظًا علَى نفسهِ، إلَّا أنَّ الإمامَ أحمدَ بنَ حنبلَ رضيَ اللهُ عنهُ، منعهَا عنِ الإمامِ المُتَّبَعِ بقولهِ: إذَا أجابَ العالمُ تقيَّةً، والجاهلُ يجهلُ فمتَى يتبيَّنُ الحقُّ؟...[3].

وكذلكَ قالَ لهُ صاحبهُ أبُو جعفرَ الأنبارِي الذِي عبرَ الفراتَ للقائهِ قبلَ سفرهِ إلَى طرسوسَ للمناظرةِ والتَّعذيبِ فِي قضيَّةِ خلقِ القرآنِ، فقالَ: يَا هذَا أنتَ اليومَ رأسٌ، والنَّاسُ يقتدونَ بكَ، فواللهِ لئنْ أجبتَ إلَى خلقِ القرآنِ ليُجِيبَنَّ خلقٌ، وإنْ أنتَ لمْ تُجبْ ليَمْتَنِعَنَّ خلقٌ منَ النَّاسِ كثيرٌ، ومعَ هذَا فإنَّ الرَّجلَ إنْ لمْ يقتلكَ فإنَّكَ تموتُ، لابدَّ منَ الموتِ، فاتَّقِ اللهَ ولَا تُجبْ، فجعلَ الإمامُ أحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ، ثمَّ قالَ: يَا أبَا جعفرَ أعدْ عليَّ، فأعادَ عليهِ، وأحمدُ يبكِي ويقولُ: مَا شاءَ اللهُ[4].

وخلاصة: فالإكراه الملجئ الكامل، متعلق بحفظ الضرورات الخمسة وهي: حفظ الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل، وزادوا حفظ النسل.

---

[1] فتح الباري للعسقلاني 277/12.

[2] أخرجه الحاكم (3362)، وأبو نُعيم في ((حلية الأولياء)) (140/1)، والبيهقي (17350). صحَّحه الحاكمُ على شرط البخاري ومسلم، وصحَّح إسنادَه ابنُ كثير في ((إرشاد الفقيه)) (295/2) وقال: (وزاد بعضُهم: وفي هذا أُنزِلَت: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ... الآيةَ)، وقال ابنُ حجر في ((الدراية)) (197/2): (إسنادُه صحيحٌ إن كان محمَّدُ بنُ عمَّارٍ سَمِعَه من أبيه). (295/2) وقال: (وزاد بعضُهم: وفي هذا أُنزِلَت: مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ... الآيةَ)، وقال ابنُ حجر في ((الدراية)) (197/2): (إسنادُه صحيحٌ إن كان محمَّدُ بنُ عمَّارٍ سَمِعَه من أبيه).

[3] تفسير البحر المحيط لأبي حيَّان الأندلسي.

[4] ينظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ج11/ص239.

فهذه الضرورات تجوز فيها الرخصة الكبرى وهو ترك شيء من أصول الدين، وإلا فلا يجوز كما سيأتي.

الثَّانِي: الإكراهُ غيرِ الملجئِ (النَّاقصِ):

وهوَ التَّهديدُ أوِ الوعيدُ بمَا دونَ تلفِ النَّفسِ أوِ العضوِ، كالتَّخويفِ بالضَّربِ أوِ القيدِ أوِ الحبسِ أوِ إتلافِ بعضِ المالِ، وهذَا النَّوعُ يُفسدُ الرِّضَا، ولكنَّهُ لَا يفسدُ الاختيارَ لعدمِ الاضطرارِ إلَى مباشرةِ مَا أُكرهَ عليهِ لتمكُّنهِ منَ الصَّبرِ علَى مَا هُدِّدَ بهِ[1].

وقدْ يلحقُ بهذَا النَّوعِ، التَّهديدُ بحبسِ الأبِ أوِ الابنِ أوِ الزَّوجةِ والأختِ والأمِّ والأخِ، وهناكَ نزاعٌ فِي اعتبارِ هذَا القسمِ منْ أقسامِ الإكراهِ[2]، فالقياسُ يقتضِي عدمَ اعتبارهِ منَ الإكراهِ لأنَّ الضَّررَ فيهِ لَا يلحقُ بالمكرهِ والأصلُ فِي اعتبارِ المكرهِ بهِ (وسيلةَ الإكراهِ) أنْ يلحقَ المُكرهُ بالتَّهديدِ بهِ الخوفُ والمشقَّةُ والضِّيقُ، أمَّا الاستحسانُ فيعدُّهُ منَ الإكراهِ، لأنَّ المكرهَ يلحقهُ الغمُّ والاهتمامُ والحزنُ والحرجُ إذَا أصابَ أحداً منْ محارمهِ مكروهٌ، فيندفعُ إلَى الإتيانِ بمَا أمرَ بهِ كمَا لوْ وقعَ الضَّررُ بهِ أوْ أشدّ[3].

وذلك رأي، وأمَّا قولي: فإنَّ القياس يلحق بهذا النوع من الإكراه؛ فمن قال بأنَّ القياس لا يلحق بهذا النوع نظر إلى الضرر المادي وحسب، نقول: الصحيح أنَّ في الإكراه ضرر معنوي أكثر منه مادي، فحبس الابن أو ضربه يؤلم الأب أكثر من ضرب نفسه، وتلف بعض المال يمكن أن يجر على إتلافه كله، ولو اتبعنا قول من قال إنَّ القياس لا يلحق هذا النوع لأنَّ الضرر لم يبلغه هو بذلته، لقنا: حتى اغتصاب الزوجة أو الابنة ليس فيه ضرر ذاتي مادي، وعليه فقياس الضرر يكون على الضرر المعنوي لا المادي، وبه يقاس الإلجاء الناقص على الإلجاء الكامل، فإنَّ ردَّ الفرع إلى الأصل بعلة مشتركة بنهما، بأن تكون العلة وصفا ظاهرا مطردا دل الدليل على أنها مناط للحكم، أخذ حكم الإلجاء الكامل وما يتولد منه، والله أعلم.

وأمَّا إن لم يتمَّ القياس وكان دون الإلجاء الكامل فهو إلجاء ناقص.

---

[1] ينظر كشف الأسرار للبزودي (4/383) – تبيين الحقائق للزيلعي (5/ 181) – حاشية ابن عابدين (5/ 109).

[2] ذهب بعض الأحناف إلى اعتبار هذا القسم نوعاً ثالثاً، أما بقية الفقهاء فقد أدخلوه في النوعين السابقين، ينظر كشف الأسرار (4/383) – الإكراه وأثره في التصرفات – د. عيسى شقره (ص: 61).

[3] ينظر الإكراه وأثره في التصرفات – د. عيسى شقره (ص: 60، 61) – وينظر في ترجيح ذلك المبسوط للسرخسي (24/143، 144).

وهذَا النَّوعُ، أيِ: الإلجاء الناقص، لَا يُسترخصُ بهِ فِي تركِ بعضِ العباداتِ العقائديَّةِ، بل لو قالَ كلمةَ الكفرِ تحتَ هذَا النَّوعِ منَ الإكراهِ فقد كفرَ علَى الحقيقةِ، من ذلك قولنا في نظم نواقض الإسلام:

لَا فَرْقَ فِي جَمِيعِ مَا فِي نَظْمِهِ, * فِي خَـوْفِهِ, وَهَزْلِهِ, وَجَــدِّهِ,
إِلَّا الْمُكْرَهُ, رُفِعْ عَنْهُ الْقَلَــــمْ * بِرَحْمَةٍ مِنَ الْإِلَهِ ذِي النِّعَــمْ
وَمُكْـرَهٌ تَقْسِيــمُهُ, لِاثْنـيـــــنِ,* مُكَمَّـلٌ وَنَاقِصٌ لَا بَـيْـــنِ,
أَمَّا مُكَمَّـلُ عفَى عَنْهُ السَّـــلَامْ * وناقص يُصِيبَهُ, كلُّ الْمَـلَامْ[1].

وقيلَ أنَّ هذَا النَّوعَ منَ الإكراهِ، أي: الإكراه غير الملجئِ الناقص، يبيحُ ما دونَ الكفرِ والمساسِ بمصالحِ الغيرِ، كمنْ أُكرهَ بهذَا النَّوعِ علَى حلقِ لحيتهِ، فيجوزُ لهُ حلقهَا وقس علَى ذلكَ، واللهُ أعلمُ.



[1] منظومة نواقض الإسلام للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي.

﴿الوجه الثّاني﴾

﴿الضرورة﴾

الاضطرار لغة:

الاحتياج إلى الشيء، يقال: اضطر فلانٌ إلى كذا، من الضرورة، وقد اضطره إليه أمرٌ، ورجلٌ ذو ضارورةٍ وضرورةٍ، أي: ذو حاجةٍ، وقد اضطر فلان إلى الشيء: أي ألجئ إليه، والضرورة اسمٌ لمصدر الاضطرار، تقول: حملتني الضرورة على كذا وكذا[1].

الاضطرار اصطلاحا:

قال الراغب الأصفهاني: الاضطرار: حمل الإنسان على ما يضره[2].

وقال الجرجاني: الضرورة: مشتقة من الضرر، وهو النازل مما لا مدفع له[3].

وهو عند الفقهاء: بلوغ الإنسان حدًا إن لم يتناول الممنوع هلك أو قارب، كالمضطر للأكل واللبس بحيث لو بقي جائعًا أو عريانًا لمات، أو تلف منه عضو، وهذا يبيح تناول المحرم[4].

وأقول: الاضطرار إكراه دون فعل فاعل؛ لأن المضطر لأكل الخنزير من الجوع هو كاره له، ولكنَّه لم يكرهُ أحد على ذلك إلا الضرورة، وعليه: فالاضطرار إكراه دون فعل فاعل، كما سيأتي:

شروط الضرورة:

1 – السبب: أي: وجود الضرورة نفسها، كالجزع المهلك مثلا.

2 – ألا توجد وسيلة لدفع الضرر إلا المحرم، كلحم الميتة مثلا..

3 – أن يكون فعل المحرم مزيلا للضرورة قطعا، أو ظنا غالبا.

4 – ألَّا يعارض هذه الضرورة مثلها أو أعظم منها، كم غصَّ من طعام غصا ظنَّ أنه مميت، فشرب سما كي يزيل الغص.

---

[1] انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، 3/360 لسان العرب، ابن منظور، 4/483.

[2] المفردات، لراغب، ص504.

[3] التعريفات، للجرجاني، ص138.

[4] الموسوعة الفقهية الكويتية، 28/198.

5 – وشرط صاحب الضرورة؛ أن يقدرها بقدرها، أي: أن ينال من الميتة حال المخمصة قدر الحاجة فقط، فإن زاد على ذلك فالغالب أنه آثم والله أعلم.

﴿الفروقُ الأربعةُ بين المكرِه والمضطرِّ﴾

الفروق التي بين الإكراه والضرورة:

يجبُ أنْ نعلمَ أوَّلًا أنَّ مصبّ الإكراهِ الفعلُ، ومصبَّ الاضطرارِ غيرُهُ:

الفرق الأوَّلُ: أنَّ مصبَّ الإكراهِ هوَ الفعلُ نفسهُ، كمَا لوْ أُكرِهَ علَى البيعِ، تحتَ وطأةِ السَّيفِ. وأمَّا مصبُّ الاضطرارِ فهوَ غيرهُ لكنَّهُ سرَى منهُ إليهِ، كمَا لوْ اضطرَّ إلَى بيعِ دارهِ لإنقاذِ ابنهِ، فإنَّ مصبَّ الاضطرارِ فِي الواقعِ هوَ إنقاذُ ابنهِ، أيْ أنَّهُ مضطرٌّ لإنقاذِ ابنهِ، لكنْ حيثُ كانَ بيعُ دارهِ لتحصيلِ الأموالِ التِي بهَا يُنقذُ ابنهُ مقدمةً لإنقاذهِ، صارَ بيعهَا مضطراً إليهِ، فالاضطرارُ إلَى البيعِ بالتَّبعِ، أمَّا فِي الإكراهِ؛ فإنَّهُ مكرهٌ علَى البيعِ نفسهِ، فهوَ مكرَهٌ عليهِ بالذَّاتِ.

كما أنَّ الإكراه متوقَّفٌ علَى وجودِ مُكرِهٍ، عكسُ الاضطرارِ:

الثَّانِي: أنَّ الإكراهَ متوقَّفٌ علَى وجودِ مُكرِهٍ، أمَّا الاضطرارُ فغيرُ متوقِّفٍ علَى وجودِ مضطَرٍّ (باسمِ الفاعلِ).

والحاصلُ: فِي الإكراهِ أنَّهُ يوجدُ شخصٌ أكرههُ علَى البيعِ، وأمَّا فِي الاضطرارِ فليسَ هنالكَ شخصٌ اضطرَّهُ إلَى البيعِ، ولَا يقالُ عنِ ابنهِ الذِي لأجلهِ يبيعُ بيتهُ بِطَوعهِ أنَّهُ أكرههُ علَى البيعِ، وإن قيلَ فبتوسُّعٍ.

الاضطرارُ متوقَّفٌ علَى الاحتياجِ، دونَ الإكراهِ:

الثَّالثةُ: إنَّ الاضطرارِ متوقَّفٌ علَى الاحتياجِ، فإذَا لمْ يكنْ محتاجاً فباعَ فلَا يصحُّ أنْ يقولَ: أنَّنِي اضطررتُ إلَى البيعِ فبعتُ، ولوْ قالَ فغلطَ أوْ قالهُ مجازًا، أمَّا الإكراهُ فلَا يتوقَّفُ علَى الاحتياجِ كمَا هوَ واضحٌ.

المكرَهُ غيرُ راضٍ والمضطرُّ راضٍ:

الرَّابعةُ: أنَّ الإكراهَ لَا رضَى فيهِ ولَا طيبَ نفسٍ بهِ، عكسُ الاضطرارِ فإنَّ فيهِ طيبَ نفسٍ ثانويًّا.

توضيحهُ: أنَّ المكرَهَ علَى بيعِ دارهِ ليستْ نفسهُ طيبةً بذلكَ، أمَّا المضطرُّ لبيعهَا لينقذَ ابنهُ منَ القتلِ أوِ الموتِ أوِ المرضِ فإنَّ نفسهُ طيِّبةٌ ببيعهَا، لكنْ لَا بالعنوانِ الأوَّلِي (لفرضِ أنَّهُ كارهٌ

للبيعِ لولا توقُّفِ إنقاذِ ابنهِ عليهِ) بلْ بالعنوانِ الثَّانوِي لأنَّهُ يجدهُ الأملَ الوحيد لإنقاذِ ابنهِ، وبعبارةٍ أوضحَ: أنَّهُ بعدَ الكسرِ والانكسارِ بمرضِ ابنهِ الذِي سيسوقهُ إلى الموتِ المحتَّمِ، طيَّبَ نفسهُ ببيعِ بيتهِ، بلْ تجدهُ يتوسَّلُ الغير ليشترِي دارهِ ولوْ بنصفِ القيمةِ.

وعليه: فيمكن في للمضطر أن يكون كارها أو راض، أو كارها وراض في نفس الوقت، فهو كاره لبيع بيته راض بذلك لإنقاض ابنه.

ويتفرَّعُ علَى هذَا الفرقِ، فرقٌ آخرُ فِي الصَّحيحِ والفاسدِ:

وهوَ أنَّ بيعَ المضطرِّ صحيحٌ نافذٌ، وأمَّا بيعُ المكرَهِ فباطلٌ فاسدٌ، قالَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: {لَا يَحِلُّ مَالُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِلَّا بِطِيبَةِ نَفْسٍ مِنْهُ}[1] ولذَا افتَى الفقهاءُ بصحَّةِ بيعِ المضطرِّ؛ لأنَّ لهُ طيبَ نفسٍ بهِ، وببطلانِ بيعِ المكرَهِ: لأنَّهُ غيرُ راضٍ، فإنَّ المكرَهَ لَا يقولُ أنَا راضٍ حقيقةً بالذِي أكرهنِي عليهِ، وإلَّا لمَا كانَ مكرَهاً، أمَّا المضطرُّ فيقولُ أنَا راضٍ ببيعِ دارِي مادامَ قدْ توقَّفَ عليهَا إنقاذُ ابنِي.

والاضطرارُ: كما سبق في تعريفه أنه؛ الحاجةُ الشَّديدةُ، والمحظورُ: المنهيُّ عنْ فعلهِ، والمعنَى أنَّ الممنوعَ شرعاً يباحُ عندَ الضَّرورةِ، ومنْ ذلكَ قاعدةُ: (الضَّروراتُ تبيحُ المحظوراتِ).

وهيَ قاعدةٌ أصوليَّةٌ مأخوذةٌ منَ النصِّ، وهوَ قولهُ تعالَى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾[الأنعام: 119].

فالأكل ممَّا لم يذكر اسم الله تعالى عليه حرام بمفهوم المخالفة؛ ولكنه سبحانه استثنى من ذلك المضطر.

وقدْ مثَّلَ الفقهاءُ لهذهِ القاعدةِ بأمثلةٍ منهَا:

1) إباحةُ أكلِ الميتةِ، أو الخنزير، أو ما لم يذكر اسم الله عليه أو غير ذلك، عندَ المخمصةِ، أيِ المجاعةِ، يغلب الظن أنه إن لم يأكل سيهلك.

2) إساغةُ اللُّقمةِ بالخمرِ لمنْ غصَّ غصًّا يغلب الظن على أنه مميتٌ ولمْ يجدْ غيرهَا.

---

[1] أخرجه ابن حبان في صحيحه وصححه الألباني 5978، والأوسط لابن المنذر 325/12، وجمع الزوائد للهيثمي 268/3.

3) إباحةُ كلمةُ الكفرِ للمكرهِ عليهَا بقتلِ أوْ تعذيبٍ شديدٍ، فالمكره مضطر، والمضطر ليس مكرها، حيث اضطر لقول كلمة الكفر بسبب الإكراه.

وهذهِ القاعدةُ هيَ فرعٌ عنْ قاعدةٍ كليَّةٍ سمَّاهَا العلماءُ (الضَّررُ يزالُ)، فكلُّ ما أبيحَ اضطرارًا فمنْ بابِ أولَى أنْ يباحَ إكراهًا.

وخلاصةً: قسمةُ المكرهِ علَى ثلاثٍ:

1) مكرهٌ ملجئٌ كاملٌ، وهذَا يبيحُ لهُ حتَّى قولَ كلمةِ الكفرِ بشروطهَا السَّابقةِ، وكل ما يتعلق بأصول الدين.

2) مكره غيرُ ملجئٍ ناقصٍ، وهذَا يبيحُ لهُ تركُ بعضِ المندوبات، وكل ما يتعلق بفروعِ الدين.

3) مضطرٌ أيْ لمْ يكرهُهُ أحدٌ وهوَ راضٍ عنْ ذلكَ، ولا يندرجُ الاضطرارُ تحتَ أي نوعٍ منَ الإكراهِ، معَ أنَّهُ يشملهُ لغةً، فلَا نقولُ: أُكرِهتُ علَى أكلِ لحمِ الخنزيرِ من شدة الجوع، إنْ لمْ يكنْ مكرهًا، بلِ اضطررتُ لأكلِ لحمِ الخنزيرِ منِ مخمصةٍ، ولَا نقولُ: اضطررتُ لقولِ كلمةِ الكفرِ، بلْ أكرهتُ علَى قولِ كلمةِ الكفرِ أو أجبرتُ، معَ أنَّهُ يجوزُ لغةً، فتقول: اضطررت بسبب الإكراه لقول كلمة الكفر.

وبما أننا ذكرنا الإكراه والضرورة، لابأس أن نذكر نظائرهما:



﴿الوجه الثالث﴾

﴿الحاجة﴾

الحاجة لغة:

الحاء، والواو، والجيم، أصل واحد وهو الاضطرار إلى الشيء، فالحاجة واحدة حاجات، والحوجاء هي الحاجة، ويقال أحوج الرجل إذِ احتاج[1].

الحاجة اصطلاحا:

وهو ما يرفع الحرج والضيع على سبيل التوقيت أو التأبيد، بحيث إن لم تراعى نزل الحرج والضيق، وقد تبلغ الفساد.

كالحاجة للنظر إلى المعقود عليها، مع أنَّ النظر للأجنبية في أصله حرام لغيره، ولكنَّ الحاجة ألزمت الشهود للنظر إليها؛ فإن لم يتم النظر يصبح العقد بلا شهود لأنهم لم يروها فوجودهم من عدمه سواء فيدخل الفساد في العقد.

شروط الحاجة:

1 – أن تكون المشقة أو الحرج هو الباعث على مخالفة الحكم الشرعي الأصلي العام.

كمن اضطره ضيق الوقت لغسل الجنابة والجمعة لدخول الحمام وما فيه من عري إن لم يجد غيره.

2 – أن لا يوجد سبيل آخر مباح لفرع الحرج.

3 – أن تقدَّر الحاجة بقدرها، فالمطالب بالنظر للمعقود عليها مطالب بالنظر حيث يتعرف عليها، إن أنكر أحدهما العقد، فلا يزيد على ذلك فيتمتع بالنظر إلى جمالها.



[1] مقاييس اللغة لابن فارس 91/2.

﴿الوجه الرابع﴾

﴿الإجبار﴾

الإجبارُ لغة:

الإلزام، والقهر، والإكراه، والإرغام. معجم المعاني.

قال ابن الأثير: يقال: أجبر القاضي الرجل على الحكم إذا أكرهه عليه[1].

الإجبار اصطلاحا:

الإجبار في استعمالات أهل الفقه: حمل الغير من ذي الولاية بطريق الإلزام على عملٍ، تحقيقا لحكم الشرع.

والإجبار عموما: هو حمل الغير وإلزامه بعمل ما بحيث لا يكون له طاقة لدفعه.

والإجبار أعلَى منَ إكراهِ أي: الإلجاءِ الكاملِ، فالمجبورُ علَى الفعلِ محمولٌ عليهِ حملًا، كمنْ قيَّدكَ وفتحَ فاكَ وصبَّ فيهِ الخمرَ صبًّا إلَى أنْ ابتلعتهُ جبرًا، وهذَا النوعُ ليسَ علَى صاحبهِ شيءٌ منْ قريبٍ ولَا منْ بعيدٍ.

كما أنَّ المجبور لس له اختيار البتة، إلا الانصياع، بخلاف المكره، فله أن يقول لا ويتحمل العواقب، كذلك المضطر؛ فإنه يقدر على الامتناع، فالمجبور على السجن ليس له أن يمتنع، ولا أن يقول لا ويتحمل العواقب، وإن قال لا فلن يسمع له أحد، فهو محمول عليه حملا.

شروط الإجبار:

يمكن أن نرى شروط الإجبار على كل من طريقة الفقهاء في الإجبار وفي عموم الإجبار معا:

1 – أن يكون الإجبار للإصلاح، كالإجبار على دفع الزكاة.

2 – أن يكون المجبر كارها لذلك، وإلا فلم يعد إجبارا.

3 – أن يكون المُجبِر من ذي النفوذ على المُجبَر.

4 – ويمكن أن يكون الإجبار على الفساد، ولكنه يكون نوعا من أنواع الإكراه أعلى من الإلجاء الكامل، كمن فتحوا فاهه بالعنف وصبوا فيه الخمر صبا وأبلعوه إياه بلعا، حتى سكر، فيمكن أن نطلق على هذا إجبارا من ناحية عموم الإجبار، وأما على طريقة الفقهاء فهو إكراه،

---

[1] لسان العرب ص16 – ص 114 ص 116.

والصحيح أني لا أراه إكراها، فالمكره له أن يمتنع ويتحمَّل العواقب، وأما هذا فليس له من الأمر شيء، وعليه فهذا النوع يكون إجبارا خالصا.

أنواع الإجبار:

بما ذكرنا سابقا يكون للإجبار نوعا:

الأول: إجبار مشروع: وهو إجبار من ذي السلطان حين يجبر أحدا على دفع الزكاة مثلا.

الثاني: إجبار غير مشروع: وهو إجبار من ذي النفوذ على المُجبَر، أو حتى السلطان إن خالفا الشرع، مثل إجبار الزوجة على طلب الخلع، أو إجبار السلطان الجائر رجلا على بيع أرضه.

أقسام الإجبار المشرع:

ينقسم الإجبار المشروع إلى:

إجبار واجب: كإجبار الحاكم المدين المماطل على دفع دينه في الحال إن كان له مال، أو حتى إجبار الناس على الحج إن تركوه وغيره من الواجبات، فهي واجبات في أصلها، وهي كذلك من واجبات الحاكم ليس له أن يتركها أو يترك للناس الخيرة فيها بل هي من أعمال الحاكم الواجبة عليه.

إجبار مندوب:

وقد يكون الإجبار المندوب، كإجبار المالك مملوكه على النكاح إن خشي عليه العنتَ.

﴿الإرغام﴾

والإرغامُ: منْ جنسِ الإكراهِ لكنْ يتبعهُ ذلٌّ، قالَ فِي القاموسِ: رَغَّمَ الرَّجُلُ أَنْفَهُ: خَضَعَ، وذَلَّ[1].

وعليه: فالإكراه الملجئ الكامل يعطي الرخصة في أمور العقيدة، وغير الملجئ يعطي الرخصة في ما دون العقيدة، والاضطرار، يعطي الرخصة في الحرام لذاته، والحاجة تعطي الرخصة في الحرام لغيره، والإجبار يشمل الكل.



[1] للمزيد من البيان والتفصيل في باب الإكراه وغيره، ينظر: موسوعة: الخلاصة في علم الأصول من حد الفقه، للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي، المجلد الأول، من الصفحة رقم 281، إلى الصفحة رقم 301.

وعودا ببدئ إلَى أنواعِ الخوفِ، والقسمِ الثَّالثُ:

ج) خوفُ السرِّ:

وهوَ خوفُ غيرِ اللهِ تعالَى فيمَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى، كمَنْ يخافُ مِنَ وليٍّ أو إنسٍ أو جنٍّ، أن يصيبهُ بمرضٍ أو مكروهٍ أو أذًى أوْ بليَّةٍ ممَّا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى.

وهذَا النَّوعُ كالخوفِ الواقعِ بينَ عبَّادِ القبورِ المتعلِّقينَ بالأولياءِ؛ قالَ تعالَى عنْ قومِ هودٍ: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾[هود: 54].

قال الطبري: وهذا خبر من الله تعالى ذكره، عن قول قوم هود: أنهم قالوا له، إذ نصح لهم ودعاهم إلى توحيد الله تعالى وتصديقه، وخلع الأوثان والبراءة منها: لا نترك عبادة آلهتنا، وما نقول إلا أن الذي حملك على ذمِّها والنهي عن عبادتها، أنه أصابك منها خبَلٌ من جنونٌ[1].

فهم يخافون أن تُفعل فيهم أشياء لا يقدر عليها إلا الله تعالى وحده.

وحكمهُ: حكم هذا النوع من الخوف من غير الله تعالى هو شركٌ أكبرٌ؛ لأنهم خافوا أن يفعل بهم معبودهم أفعالا لا يقدر على فعلها إلا الله تعالى وحده.

ودليلُ عدمِ جوازِ الخوفِ من غيرِ اللهِ تعالَى فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالى: قولهُ تعالَى:

﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[آل عمران: 175]، **قالَ الطَّبريُّ: يعنِي بذلكَ تعالَى ذكرهُ: إنَّمَا الذِي قالَ لكمْ، أيُّهَا المؤمنونَ:** ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾[آل عمران: 173]، **فخوَّفوكمْ بجموعِ عدوِّكمْ ومسيرهمْ إليكمْ، منْ فعلِ الشَّيطانِ ألقاهُ علَى أفواهِ منْ قالَ ذلكَ لكمْ، يخوِّفكمْ بأوليائهِ منَ المشركينَ – أبِي سفيانَ** (رضيَ اللهُ عنهُ) **وأصحابهِ منْ قريشٍ – لترْهبوهمْ، وتجْبُنُوا عنهمْ.**

ثمَّ قالَ: يقولُ: فلَا تخافُوا، أيُّهَا المؤمنونَ، المشركينَ، ولَا يعظُمَنَّ عليكمْ أمرهمْ، ولَا ترهبُوا جمعهمْ، معَ طاعتكمْ إيَّايَ، مَا أطعتمونِي واتَّبعتمْ أمرِي، وإنِّي متكفِّلٌ لكمْ بالنَّصرِ والظفرِ، ولكنْ خافونِ واتَّقُوا أنْ تعصونِي وتخالفُوا أمرِي، فتهلكُوا {إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}، يقولُ: ولكنْ

---

[1] ينظر: تفسير الطبري.

خافونِ دونَ المشركينَ ودونَ جميعِ خلقِي، أنْ تخالفُوا أمرِي، إنْ كنتمْ مصدِّقِي رسولِي ومَا جاءكمْ بهِ منْ عندِي[1].

وهذَا دليلٌ علَى أنَّ الخوفَ من غيرِ اللهِ تعالَى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى منهيٌّ عنهُ، أو أي نوعِ من أنواع الخوف إن غلب على الخوف من الله تعالى صار خشية وهو شرك بالله تعالى، كما أنَّ الخوفَ منَ اللهِ تعالَى مأمورٌ بهِ، وهوَ شرطٌ فِي صحَّةِ الإيمانِ.



[1] تفسير الطبري.

﴿الفرع السابع﴾

﴿الخشية﴾

الخشيةٌ لغةً:

تدلُّ مادَّةُ (خ ش ي) فِي اللُّغةِ علَى خوفٍ ورهبةٍ، قالَ ابنُ فارسٍ: الخاءُ والشِّينُ والحرفُ المعتلُّ يدلُّ علَى خوفٍ وذعرٍ، ثمَّ يُحملُ علَى المجازِ، فالخشيةُ الخوفُ... والمجازُ قولهمْ: خشيتُ بمعنَى علمتُ، واحتجَّ بقولِ الشَّاعرِ:

ولقدْ خشيتُ بأنْ منْ تبعَ الهدَى * سكنَ الجنانَ معَ النَّبيِّ محمَّدٍ[1].

ثمَّ فسَّرَ "خشيت" بقولهِ: أيْ: علمتُ[2].

وجاء في تاج العروس: خشيت بمعنى رجوت، فقال: الخشية: الرجاء؛ نقله الراغب، وبه فسر حديث عمر: قال له ابن عباس: {لقد أكثرت من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله}[3]، أي رجوت[4].

---

[1] البيت لجرير، وقال أحمد حسني في حاشية مجمع البحرين للطريحي: لم أظفر على من نسب هذا البيت إلى جرير فيما اطلعت عليه من الكتب اللغوية وهو أيضا غير موجود في ديوانه المطبوع، وجرير بفتح الجيم وكسر الراء هو أبو حزرة جرير بن عطية بن حذيفة بن بدر بن سلمة بن عوف بن كليب بن يربوع الشاعر الذي اشتهر بكثرة هجائه وقذفه، وفيه مع ذلك دين وعفة وحسن خلق ورقة طبع، وكان بينه وبين الفرزدق مناوشات شعرية وأهاجي كثيرة، ولد سنة 42 ه باليمامة ومات فيها سنة 114 ه. ينظر: المؤتلف والمختلف71، الشعر والشعرا. 108، جواهر الأدب 150/2.

[2] معجم مقاييس اللغة.

[3] جاء في العزلة لأبي سليمان حمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي، قال: أخبرني محمد بن علي، قال حدثنا ابن دريد، قال: حدثنا أبو حاتم، عن أبي عبيد، قال: أخبرني محمد بن عباس رضي الله عنهما قال لعمر: لقد أكثرت من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله، فإذا مللت من أمتك، أما تعين صالحا أو تُقوِّم فاسدا؟ فقال: يا بن عباس؛ إني قائل قولا هو إليك، قال: قلت لن يعدوني، قال: كيف لا أحب فراقهم وفيهم ناس كلهم فاتح فاه للَهْوة من الدنيا إمَّا بحق لا ينوءُ به أو بباطل لا يناله، ولولا أن أُسأل عنكم لا هربت منكم فأصبحت الأرض منى بلاقع، فمضيت لشأني وما قلت ما فعل الغالبون. من غريب الحديث، العزلة: لأبي سليمان حمْد بن محمد بن إبراهيم الخطابي 90، والفائق في غريب الحديث – الجزء الأول 371. لجار الله محمود بن عمر الزمخشري/–/على محمد البجاوى – محمد أبو الفضل إبراهيم.

[4] تاج العروس للزبيدي 376/19.

وتأتي خشيت بمعنى: كرهت، وذلك من قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾[الكهف: 80].

فتكون كرهنا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا، و قال الفراء: أي فعلمنا.

وقال الزجاج: هو من كلام الخضر، ومعناه كرهنا[1].

والخشية المرادة في كلامنا هي المرادفة للخوف، والتي ستأتي في معنى الخشية اصطلاحا.

والخشية من الله تعالى تجمع كل معاني الخشية السابقة فتقول خشيت من الله تعالى، أي: رهبته، وعلمتُ أنه شديد العقاب، قوي، متين، ورجوت مع خشيتي له رحمته، وكرهتُ أن يعذبني.

الخشيةُ اصطلاحًا:

هي: تألُّمُ القلبِ بسببِ توقُّعِ مكروهٍ فِي المستقبلِ، ويكونُ تارةً بكثرةِ الجنايةِ منَ العبدِ، وتارةً بمعرفةِ جلالِ اللهِ تعالَى وهيبتهِ، وخشيةُ الأنبياءِ عليهمْ السَّلامُ منْ هذَا القبيلِ.

والخشيةُ خوفٌ يشوبهُ تعظيمٌ، وأكثرُ مَا يكونُ ذلكَ عن علمٍ بمَا يخشَى منهُ، ولذلكَ خصَّ اللهُ تعالَى العلماءَ بهَا فِي قولهِ تعالَى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[فاطر: 28].

الفرقُ بينَ الخوفِ والخشيةِ:

لَا يكادُ اللُّغويونَ يفرِّقونَ بينَ الخوفِ والخشيةِ والشَّفقةِ، ولَا شكَّ أنَّ الخشيةَ أعلَى منَ الخوفِ وهيَ أشدُّ الخوفِ؛ فإنَّهَا مأخوذةٌ من قولهم: شجرةٌ خشيةٌ، أي: يابسةٌ، وهوَ فواتٌ بالكليَّةِ، والخوفُ مأخوذٌ من قولهم: ناقةٌ خوفاءٌ، أي: بهَا داءٌ، وهوَ نقصٌ، وليسَ بفواتٍ، ولذلكَ خُصَّتِ الخشيةَ باللهِ تعالَى، وخُصَّ الخوفُ به وبغيرهِ سبحانه فِي قولهِ تعالَى فِي صفةِ المؤمنينَ: ﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ ﴾[الرعد: 21].

فنسب سبحانه الخشية لنفسه، والخوف من الحساب، كما أنَّ الخشية من الحساب تجوز؛ لأنها متعلقة بالله تعالى.

---

[1] السابق، بتصرف.

ومنَ الفروقِ بينَ الخوفِ والخشيةِ:

أنَّ الخشيةَ: تكونُ من عظمِ المُخْتَشَى، وإن كانَ الخاشِي قويًّا، ألم ترَ إلَى عمرٍ وعليٍّ ومَا لهمَا منْ قوّةٍ جسديَّةٍ وعلميَّةٍ وسلطةٍ، وهم يبكونَ من خوفهم من خالقهم، فخوفهمْ هذَا يسمَى خشيةً.

وأمَّا الخوفُ: فيكونُ من ضعفِ الخائفِ وإن كانَ المخوِّفُ أمرًا يسيرًا، ألم ترَ إلَى الجبانِ يخافُ كلَّ شيءٍ حتَّى قيلَ فيهِ أنَّهُ يخافُ منْ ظلِّهِ.

والخشية: تكون بعلم، فالخاشي يعمل قوَّة من يخشاه.

وأمَّا الخوف: فلا يحتاج علما، فالناس يخافون المجهول ولا علم لهم به.

والخشية من الله تعالى: متعلقة بالرجاء؛ لأنه من معانيها.

وأمَّا الخوف: يحتمل أن يشمل الرجاء ويحتمل ألَّا يشمله.

ومنَ الأدلَّةِ علَى ذلكَ أنَّ الخاءَ والشِّينَ والياءَ فِي تقاليبهَا تدلُّ علَى العظمةِ، نحوَ قولنَا: شيخُ للسيِّدِ الكبيرِ، وخيشٌ لمَا غلظَ منَ اللِّباسِ، ولهذَا وردتْ الخشيةُ غالبًا فِي حقِّ اللهِ تعالَى، نحوَ قولهِ تعالَى: ﴿وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾[البقرة: 74].

وقولهُ تعالَى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾[ق: 33]، وهذَا يقتضِي أنْ الذِي يخشَى اللهَ تعالَى لَابدَّ أن يرجوهُ ويطمعَ فِي رحمتهِ فينيبَ إليهِ ويحبَّهُ ويحبَّ عبادتهُ وطاعتهُ فإنَّ ذلكَ هوَ الذِي ينجيهِ ممَّا يخشاهُ ويحصلُ بهِ مَا يحبُّهُ.

كذلكَ قولهُ تعالُى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:28]، قالَ السَّلفُ وأكثرُ العلماءِ أنَّهُ يدلُّ علَى أنَّ كلَّ من يخشَى اللهَ تعالَى فهوَ عالمٌ، وأنَّ كلَّ من لم يخشَ اللهَ تعالَى فهوَ جاهلٌ.

وذلكَ أنَّ الحصرَ (إنما) فِي معنَى الاستثناءِ، والاستثناءُ منَ النَّفي إثباتٌ عندَ جمهورِ العلماءِ، فنفَى الخشيةَ عمَّنْ ليسَ منَ العلماءِ وأثبتهَا للعلماءِ، فكلُّ عالمٍ يخشاهُ، فمنْ لمْ يخشَ اللهَ

تعالَى فليسَ منَ العلماءِ بلْ منَ الجهَّالِ كمَا قالَ عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رضيَ اللهُ عنهُ: كفَى بخشيةِ اللهِ علمًا، وكفَى بالاغترارِ باللهِ جهلًا[1].

حكم الخشية:

الخشيةُ: لَا تكونُ إلَّا منَ اللهِ تعالَى وحدهُ خوفًا ومحبَّةً وطاعةً وتعظيمًا.

والخوفُ: يكونُ منَ اللهِ تعالَى، ومنَ غيرِ اللهِ تعالَى إن كانَ يتحمَّلُ أسبابهُ، قالَ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[الرعد: 21].

فجعل سبحانه الخشية له وحده، والخوف منه ومن غيره.

وبمَا أنَّنا عرَّفنَا الخوفَ والخشيةَ والفرقَ بينهمَا وجبَ علينا أن نعرِّفَ مَا يتقاربُ منهمَا فِي الألفاظِ والمعانِي:

الذُّعرُ: خَوْفٌ فُجائيٌّ شديدٌ، والمذعورُ منِ اسْتولَى عليهِ الخوفُ.

الهلعُ: جَزَعٌ شديدٌ، واِضْطرابٌ وانْزعاجٌ، وهَوْلٌ، وفزعٌ عظيمٌ، وقلقٌ شديدٌ، والهلِعُ والهلوعُ: خائفٌ جبانٌ جاحدٌ.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾[المعارج: 19]، وهو نوع من الخوف على الممتلكات، قال البغوي: والهلع: شدة الحرص وقلة الصبر[2].

الجزعُ: مَا يُحسُّ بهِ المرءُ منَ القلقِ والاضطرابِ وضيقِ الصَّدرِ أوْ عدمِ الصَّبرِ، والجَزُوعُ: ضدُّ الصَّبُورِ علَى الشرِّ.

الرُّعبُ: فقدُ رباطةِ الجَأْشِ وثَباتِ القَلْبِ، والمرعوبُ خائفٌ فزعٌ.

الفزعُ: رعبٌ وخوفٌ إلَى درجةِ الاستغاثةِ بالغيرِ، والفزِعُ الخائفُ المُستغيثُ، والفزعُ المُغيثُ، (تُطلقُ علَى المغيثِ والمستغيثِ، بكسرِ الزَّاي فِي الحالتينِ).

---

[1] رواه ابن المبارك في الزهد 46، وابن أبي شيبة 35674، والطبراني 8927، وابن بطة في إبطال الحيل 17، والبيهقي في المدخل إلى السنن 387.

[2] ينظر: تفسير البغوي.

الرَّهبةُ: خوفٌ يَستَشعِرُ بهِ الشَّخصُ أمامَ منْ يجلُّهُ.

الإجلالُ: التَّعظيمُ والاحترامُ، والمُجِلُّ المعظِّمُ للشيءِ.

الهيبةُ: الإجلالُ والمخافةُ[1].



[1] ينظر: قواميس اللغة.

﴿الفرع الثامن﴾

﴿الرجاء﴾

الرَّجاءُ لغةً هوَ:

التَّوَسُّلُ، والتَّفَضُّلُ، ورجاءً: عبارةٌ تُستخدمُ كردٍّ إيجابيٍّ مهذَّبٍ لعرضٍ، وضدُّ الرَّجاءِ: اليأسُ[1].

والرجاءُ هوَ: الأملُ[2].

قالَ ابنُ فارسٍ: أصلُ الكلمةِ: الرَّاءُ والجيمُ والحرفُ المعتلُّ (الواو) أصلانِ متباينانِ: يدلُّ أحدهمَا علَى الأملِ ويدلُّ ثانيهمَا علَى ناحيةِ الشَّيءِ[3].

– ومعنَى كلمةِ الرَّجاءِ (بالمدِّ):

التوقُّعُ والأملُ يقالُ رجوتُ الأمرَ أَرْجُوهُ رَجاءً، ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: 110].

– والرَّجَا (بالقصرِ):

ناحيةُ كلِّ شيءٍ وطرفهُ وحافَّتهُ، وخصَّهُ البعضُ بالنَّاحيةِ منَ البئرِ، وكلُّ ناحيةٍ رَجاً، والتَّثنيةُ منهَا رَجَوَانِ والجمعُ أرجاءٌ[4]، ومنهُ قولهُ تعالَى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: 17].

قالَ الطَّبريُّ: عنْ مجاهدٍ، قولهُ: (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا) قالَ: أطرافهَا، وقالَ: عنْ قتادةَ (وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا): علَى حافاتهَا، وقالَ: قالَ قتادةُ: علَى نواحيهَا[5].

---

[1] المعجم العربي.

[2] التعريفات للجرجاني.

[3] المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور.

[4] السابق.

[5] ينظر: تفسير الطبري.

وأمَّا الإرجاءُ (المهموزُ):

فإنَّهُ يدلُّ علَى التَّأخيرِ ومنهُ قولُ اللهِ تعالَى: ﴿ تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ ﴾[الأحزاب: 51]، **قالَ ابنُ كثيرٍ: وقدْ تقدَّمَ أنَّ البخارِي رواهُ منْ حديثِ أبِي أسامةَ، عنْ هشامٍ بنِ عروةَ، فدلَّ هذَا علَى أنَّ المرادُ بقولِهِ: (تُرْجِي) أي: تُؤخِّرُ**[1].

ومنهُ سمِّيتِ المرجئةُ[2]**، لأنَّهمْ كانُوا يؤخِّرونَ العملَ عنِ النيَّةِ والعقدِ.**

ومنْ أقوالِهمْ: لَا تضرُّ معَ الإيمانِ معصيةٌ، أي: لا تنقص الإيمان، وبه فعندهم الإيمان في القلب فقط، ولا عمل معه، كمَا لَا تنفعُ معَ الكفرِ طاعةٌ عندهم، وهذا صحيح[3].

وقدْ جاءتْ مادَّةُ الرَّجاءِ فِي القرآنِ الكريمِ لعدَّةِ معانٍ فهي من مشتركات القرآن، ومن الوجوه والنظائر، والمتفق المفترق، نذكر منهَا:

1) **الرَّجاءُ بمعنَى الخوفِ، قالَ اللهُ تعالَى:** ﴿ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴾[نوح: 13].

والرَّجاءُ لَا يكونُ بمعنَى الخوفِ إلَّا إذَا سبقهُ نفيٌ[4].

2) **الرَّجاءُ بمعنَى الطَّمعِ، قالَ تعالَى:** ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾[الإسراء: 57].

قالَ مكِّي القرطبِي فِي تفسيرِ الهدايةِ إلَى بلوغِ النِّهايةِ: وأصلُ الرَّجاءِ وبابهِ أنْ يأتِي معَ الذِي يقربُ منَ اليقينِ...[5].

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] المقاييس في اللغة لابن فارس، ولسان العرب لابن منظور.

[3] ينظر: الشهرستاني في الملل والنحل.

[4] تهذيب اللغة للأزهري182/11.

[5] **هو الإمام مكي بن أبي طالب القيسي القرطبي ت 437 هـ، ذكره ابن الجزري ضمن علماء القراءات، ينظر معجم حفاظ القرآن عبر التّاريخ، محمد سالم محيسن الجزء الثاني صفحة 406، ينظر: تفسيرِ الهدايةِ إلَى بلوغِ النِّهايةِ لمكي ابن أبي طالب.**

3) الرَّجاءُ بمعنَى توقُّعِ الثَّوابِ، قالَ تعالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ﴾[فاطر: 29].

وبذلكَ قالَ البيضاوِي فِي تفسيرِهِ فِي قولِهِ تعالَى: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾[الفرقان: 41]، قالَ: بلْ كانُوا كفرةً لَا يتوقَّعونَ نشورًا[1]، وتُحمل الآية أيضا على الخوف، فيكون المعنى: (لا يخافون نشورا) وبما قلت قال القرطبي في تفسيره: وقد تقدم بل كانوا لا يرجون نشورا أي لا يصدقون بالبعث، ويجوز أن يكون معنى (يرجون) يخافون[2]، وبه قال البغوي[3]، والسعدي[4].

وعليها فالآية تؤخذ بأصول التفسير وقواعده على المعنيين، الأول: أنهم لا يخافون نشورا، والثاني: أنهم لا يؤمنون بالنشور، وبالجمع بين المعاني يتبين لنا المعنى العام وهو؛ أنهم لا يؤمنون بالنشور، وحتى إن آمنوا به؛ فإنهم لا يخافونه.

الرَّجاءُ فِي اصطلاحِ الشَّرعِ لهُ عدَّةُ تعريفاتٍ وكلُّهَا تدورُ علَى معنًى واحدٍ نذكرُ منهَا:

1) تعلُّقُ القلبِ بحصولِ محبوبٍ فِي المستقبلِ[5].

وأولى ما يتعلق به القلب هو الله تعالى وحسن ثوابه.

2) الطَّمعُ فيمَا يمكنُ حصولهُ، ويرادفهُ الأملُ[6].

وأحسن ما يطمع فيه المسلم هو رضا الله تعالى وجنته.

3) ظنٌّ يقتضِي حصولَ مَا فيهِ مسرَّةٌ[7].

---

[1] تفسير البيضاوي، الجزء الرابع صـ 125. وينظر: موقع موسوعة التفسير الموضوعي.

[2] ينظر: تفسير القرطبي.

[3] ينظر: تفسير البغوي.

[4] ينظر: تفسير السعدي.

[5] التعريفات للجرجاني.

[6] الكليات للكفوي ص: 468.

[7] المفردات للراغب ص: 195، وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي46/3.

وأولى الظن الحسن أن يكون في الله تعالى، يقول تعالى في الحديث القدسي: ﴿أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبدِي بي فليظُنَّ بِي مَا شاءَ﴾[1].

4) تأميلُ الخيرِ، وقربُ وقوعهِ[2].

ومن أحسن من الله تعالى متأمل منه الخير مع قرب وقوعه؟

5) توقُّعُ الخيرِ منَ اللهِ تعالى للعلمِ بأنَّهُ بيدهِ، ولَا مالكَ لهُ غيرهُ[3].

وهذهِ التَّعريفاتُ كلُّهَا متقاربةُ المعنَى، وتصدقُ علَى الرَّجاءِ، فهوَ تعلُّقُ القلبِ بحصولِ رحمةِ اللهِ تعالى وفضلهِ، وعدمِ اليأسِ والقنوطِ، ويشاركهُ التمنِّي فِي هذَا، ولكنَّ الفرقَ بينهمَا، أنَّ التَّمنِّي يكونُ معَ الكسلِ والخمولِ والتَّسويفِ، ولَا يسلكُ بصاحبهِ طريقَ الجدِّ والاجتهادِ[4] والعزمِ والتوكُّلِ، على خلاف الرجاء؛ فإنه يجب معه الجد في الطلب مع التوكل على الله تعالى.

والتَّمنِي في أصله مذمومٌ، وهوَ من صفاتِ المغرورينَ، وهوَ:

توقُّعُ الخيرِ من دونِ أخذٍ بأسبابهِ، قالَ تعالَى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ * يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[الحديد: 13 – 14].

فالرَّجاءُ هوَ: توقُّعُ الخيرِ معَ الأخذِ بأسبابهِ الدَّاخلةِ تحتَ اختيارِ المكلَّفِ، فالعبدُ إذَا بثَّ بذرَ الإيمانِ، وسقاهُ ماءُ الطَّاعاتِ، وطهَّرَ القلبَ من شَوْكِ الأخلاقِ الرَّديئةِ، وانتظرَ من فضلِ اللهِ تعالَى تثبيتهُ علَى ذلكَ إلَى الموتِ، وحُسنَ الخاتمةِ المفضيةِ إلَى المغفرةِ، كانَ انتظارهُ لذلكَ محمودًا باعثًا علَى المواظبةِ علَى الطَّاعاتِ والقيامِ بمقتضَى الإيمانِ إلَى الموتِ، وإن قطعَ بذرَ

---

[1] أخرجه أحمد (16016)، والدارمي (2731)، وابن حبان (633)

[2] فيض القدير للمناوي4/490.

[3] المنهاج في شعب الإيمان للحليمي1/518.

[4] فيض القدير للمناوي 4/490، مدارج السالكين لابن القيم2/37.

الإيمانِ عن تعهُّدِهِ بماءِ الطَّاعاتِ، أو تركِ القلبِ مشحونًا برذائلِ الأخلاقِ، وانهمكَ فِي طلبِ لذَّاتِ الدُّنيَا، ثمَّ انتظرَ المغفرةَ، كانَ ذلكَ حمقًا وغرورًا[1].

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن لَّا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ ۗ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأعراف: 169]، قالَ ابنُ كثيرٍ: ...يسوِّفونَ أنفسهم ويعدونهَا بالتَّوبةِ...[2].

وقد جمع القوم في المعنى بين الرجاء والترجي، سواء في أصل اللغة أو في ما اصطلح عليه أهل كل صنعة، والفرق بينهما أولى من الجمع لما في الفروق من بيان:

الفرق بين التمني، والرجاء، والترجي:

فالتمني: طلب مستحيل، أو ممكن الوقوع عقلا لا حقيقة، وبما أنه مستحيل فمُحال الكد في طلبه.

من ذلك قولهم: ليت الشباب يعود يوما، فالشباب يستحيل أن يعود، فهذا تمنٍّ؛ لأنه مستحيل الوقوع؛ ولأنَّه يستحيل الكد في طلب المستحيل.

وهذا مكروه شرعا ويصل إلى التحريم في بعض المواضع، كتمني الجنة دون السعي لها، وتمني الرزق دون شغل، وتمني العلم دون طلبه، فكل هذا التمني مكروه وهو من باب التواكل على الله أو على غيره، والمتواكل على غير الله تعالى، مع أنه لا يسعى في طلب ما يريد، وإنه مع ذلك يتمناه من غير الله تعالى، فهو متواكل مشرك، وأمَّا المتواكل على الله تعالى، لا شرك فيه إلا إنه يخشى عليه من النفاق، حيث يطلب ما لا يسعى عليه، ويقول ما لا يفعل، وإن كان قلبه مع مطلوبه فهو يندرج تحت النفاق العملي، بحيث حب الجنَّة في قلبه حقيقة ولكن لا يسعى في طلبها، وإن كان قلبه مع غير مطلوبه، فهو نفاق عقدي، فهو يدعي أنه يريد رضا الله والجنَّة وأيضا لا يسعى لذلك.

---

[1] كتاب موقف الإسلام من الانحرافات المتعلقة بتوحيد العبادة لعبد الرازق محمد بشر.

[2] ينظر: تفسير ابن كثير.

وأما الرجاء: فهو طلب ما يمكن وقوعه مع عدم إمكانية السعي في طلبه، وهو انتظار الخير خاصَّة، فهو يمكن حصوله ولا يستحيل، ولكنَّه لا يحتاج كدًّا في ذلك ولا يمكن السعي في طلبه، كقول مقطوع الحيلة المظلوم: لعلَّ الفرج قريب، فلعلَّ أداة رجاء، فهو يرجوا الفرج من الله تعالى وحده، ولكن بلا كدٍّ فيه؛ لأنه مقطوع الحيلة، كما أنَّ ما يرجاه ليس مستحيلا؛ فإن كان مستحيلا صار تمنٍّ، من ذلك قول يعقوب لبنيه: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾[يوسف: 83]، لاحظ أنَّ يعقوب مقطوع الحيلة، ولكنَّه لم يقنط من رحمة الله تعالى، فأتى بأداة الرجاء وهي (عسى)، فهو هنا رجاء وليس ترجٍّ، لأنَّ يعقوب مقطوع الحيلة فلم يكد في طلب ابنه، فإنَّ كدَّ في طلبه صار ترجٍّ، كما في قوله: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ﴾[يوسف: 87].

وهذا النوع من تعلق القلب بالله تعالى وحده ورجاؤه وحده مع أنه لا حيلة له، من أرفع مقامات العبودية والإخلاص لله تعالى حيث أنَّ الراجي مقطوع الحيلة، مع ذلك رجى مولاه وحده لا شريك له، وأما صرف الرجاء لغير الله تعالى بهذه الصورة فهو شرك أكبر؛ لأنَّ الراجي مقوع الوسائل، مع ذلك دعا ورجى غير الله تعالى.

والترجي: طلب مرغوب، مع وجوب الكد في طلبه.

من ذلك قول يعقوب عليه السلام لأبنائه: ﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴾[يوسف: 87].

وهذا على خلاف التمني والرجاء، فالتمني لا يكون إلا على المستحيل وقوعه، ولا كد ولا جهد في طلبه، والرجاء يكون في الممكن وقوعه ولا يمكن الكد في طلبه؛ ولكنَّ الترجي لا يكون إلا على الممكن وقوعه، ولا يكون على المستحيل وقوعه، كما يجب الكد في طلبه، مع التوكل على الله تعالى في ذلك كما في الآية السابقة، فقد طلب يعقوب من أبنائه أن يتحسسوا من يوسف وأخيه، فهذا هو الكد في الطب، وأمرهم أن لا ييأسوا من روح الله تعالى، بل يحسنون الظنَّ بالله ويتوكلون عليه سبحانه في مطلبهم، وهو ترجٍّ ثبت بالسياق.

وعليه:

فالتمني: هو رجاء المستحيل، ولا يمكن أن يكد فيه، وحكمه الكراهة ويصل إلى التحريم.

والرجاء: هو طلب ما ليس مستحيلا، ولكن لا كدَّ في طلبه.

وهذا على قسمين: ممدوح ومذموم:

الأوَّل: الممدوح: هو رجاء الله تعالى وحده لمقطوع الوسائل.

الثاني: المذموم: هو رجاء غير الله تعالى، أو رجاء الله وغيره معه لمقطوع الوسائل، وهو إما كفر أو شرك أكبر.

والترجي: هو طلب ما ليس مستحيلا، ولكن يجب الكد في طلبه[1].

فالرجاء والترجي، هما من العبادات، التي يجب أن تصرف لله تعالى وحده، فيما لا يقدر عليه إلا الله وحده، كرجاء أو ترجي الشفاء، أو الرزق، فهذا من اختصاص الربوبية، ولا يقدر عليه أحد غير الله تعالى.

وحتى الأشياء المقدور عليها من المخلوقات، كترجي الزوجة أن يشتري لها زوجها ثوبا جديدا، فالأولى أن يكون الترجي في القلب من الله تعالى اعتقادا، وبالجوارح ممن يُطب منه المرجو وقوعه، كترجي الزوجة أن يشتري لها زوجها ثوبا جديدا، فالترجي هو طلب المرغوب مع الكد فيه، فيكون الترجي في القلب لله، والطلب من الزوج يكون بالجوارح.

وغالب الرجاء والترجي لا يكونان إلا لله وحده، كرجاء الأم أن يعود ابنها من السفر، فيجب أن يعقد هذا الرجاء من الله تعالى وحده في قلب الراجي، كذلك ترجي المرأة أن يخرج زوجها من سجنه، فهي ترجوا الله تعالى في ذلك، وتسعى بالكد في طلب ذلك بجوارحها، إذا فالترجي لله تعالى محله القلب؛ فإنه يجب أن يصرف إلى الله تعالى وحده، مع حسن التوكل على الله تعالى في ذلك، مع السعي في تحقيق ذلك.

وعليه: فالرجاء من أعمال القلوب، والترجي من أعمال القلوب والجوارح معا، وأما التمني بلا طلب وسعي، فهو تواكل على الله تعالى؛ فإن عُدم الكد في طلبه واستحال مع عقد ما يرجو في قلبه فهو رجاء، فإن لم يستحيل الكد عليه وسعى الراجي في طلبه فهو ترجٍّ.

---

[1] للمزيد، ينظر: فتح الرب السميع في علم المعاني والبيان والبديع للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي من صـ 65.

وأخيرا فالرجاء أو الترجي، هو عبادة لا تصرف إلا لله تعالى وحده[1].

حكم الرجاء والترجي:

الرجا والترجي، عبادة جليلة، لا يجوز صرفها لغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى، فإن ترجَّى غير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله تعالى فقد أشرك شركا أكبر، وإن كان في ما يقدر عليه غير الله تعالى فهذا يجوز دون التوكُّل على غير الله تعالى، فأنت ترجو من صاحب الشغل إن يزيد في راتبك ولكنَّك تتوكل على الله تعالى أولا وآخرا في ذلك.

فإنَّ التوكُّل مرتبط بالرجاء، فيجب التفريق بينهما إن كان الرجاء لغير الله تعالى في ما يقدر عليه غير الله تعالى، فلا يجوز التوكُّل إلا على الله تعالى، وسيأتي معنى التوكل في بابه.



[1] للمزيد ينظر: الأصل الجامع في عبادة الله وحده، للشيخ محمد بن عبد الوهاب النجدي.

وفتح الرب السميع في علم المعاني والبيان والبديع للدكتور عصام الدين إبراهيم النقيلي من صـ 56.

﴿الفرع التاسع﴾

﴿الإنابة﴾

الإنابةُ لغةً:

تدورُ مادَّةُ (ن و ب) حولَ الرُّجوعِ، يقولُ ابنُ فارسٍ: النُّونُ والواوُ والباءُ كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ علَى اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليهِ[1].

وقالَ ابنُ الأثيرِ: يقالُ أنابَ ينيبُ إنابةً، فهوَ منيبٌ، إذَا أقبلَ ورجعَ وفِي حديثِ الدُّعاءِ: وَإليكَ أنبتُ[2].

والإنابةُ اصطلاحًا:

قالَ الكفوي: الإنابةُ: الرُّجوعُ عن كلِّ شيءٍ إلَى اللهِ تعالَى[3].

وقالَ ابنُ القيِّمِ: الإنابةُ: الإسراعُ إلَى مرضاةِ اللهِ تعالَى معَ الرُّجوعِ إليهِ فِي كلِّ وقتٍ، وإخلاصِ العملِ لهُ[4].

وقالَ الرَّاغبُ: الإنابةُ إلَى اللهِ تعالَى: الرُّجوعُ إليهِ بالتَّوبةِ وإخلاصِ العملِ[5].

وأقول: كما قال الكفوي، لكن بتبديل عن بـ في، أي: الرُّجوعُ في كلِّ شيءٍ إلَى اللهِ تعالَى.

أي يرجع المسلم لله تعالى في كل أحواله، والإنابة تشمل التوبة والاستخارة وغيرهما.

---

[1] مقاييس اللغة لابن فارس: 367/5.

[2] النهاية لابن الأثير: 123/5.

عن ابن عباس: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ كان يقولُ : اللهمَّ لكَ أسلمتُ وبكَ آمنتُ وعليكَ توكلتُ وإليكَ أنبتُ وبكَ خاصمتُ أعوذُ بعزَّتِكَ لا إلهَ إلا أنتَ أن تُضِلَّني أنت الحيُّ الذي لا تموتُ والجنُّ والإنسُ يموتونَ. أخرجه البخاري (7383) مختصراً، ومسلم (2717) باختلاف يسير.

[3] كتاب الكليات لأبي البقاء (308).

[4] مدارج السالكين لابن القيم (467/1) بتصرف.

[5] المفردات للراغب مادة (نوب) (529).

أنواعُ الإنابةِ: الإنابةُ لله تعالى إنابتانِ:

الأولى: إنابةٌ لربوبيّتهِ تعالَى: وهيَ إنابةُ المخلوقاتِ كلِّهَا، (فهيَ إنابةٌ عامَّةٌ)، يشتركُ فيهَا المؤمنُ والكافرُ، والبرُّ والفاجرُ، قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾[الروم:33]، فهذَا عامٌّ فِي حقِّ كلِّ داعٍ أصابهُ ضرٌّ، كمَا هوَ الواقعُ...

الثانية: إنابةٌ لإلهيَّتهِ تعالَى: وهيَ إنابةُ أوليائهِ تعالَى (فهيَ إنابةٌ خاصَّةٌ) وهيَ إنابةُ عبوديَّةٍ ومحبَّةٍ.

وهيَ تتضمَّنُ خمسة أمورٍ:

1 – محبَّتهُ تعالى.

2 – والخضوعُ لهُ.

3 – والإقبالُ عليهِ.

4 – والإعراضُ عمَّا سواهُ.

5 – والرجوع إليه سبحانه في كل شيء، أي دائن الحضور مع الله تعالى، يسأله وحده كل حاجاته، ويستأنس به في وحدته وغربته.

فلَا يستحقُّ اسمَ (المنيبِ) إلَّا منِ اجتمعت فيهِ هذهِ الخمسة، وتفسيرُ السَّلفِ لهذهِ اللَّفظةِ يدورُ علَى ذلكَ[1].

منزلةُ الإنابةِ:

إنَّ الإنابة عبادة عظيمة يغفل عنها الكثير، وهي عبادة قلبية في أصلها، وتدل عليها الجوارح فالمنيب هو مع الله تعالى في كل حال من أحواله راجع إلى ربه في كل شؤونه.

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللّهُ تعالَى: من نزلَ فِي منزلِ التَّوبةِ، وقامَ فِي مقامهَا نزلَ فِي جميع منازلِ الإسلامِ، فإذَا استقرَّت قدمهُ فِي منزلِ التَّوبةِ نزلَ بعدهُ فِي منزلِ الإنابةِ، وقد أمرَ اللّهُ تعالَى بهَا فِي كتابهِ، وأثنَى علَى خليلهِ بهَا، فقالَ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾[الزمر:54]، وقالَ تعالَى: ﴿إِنَّ

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 432/1 – بتنقيح وزيادة.

إِبراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾[هود:75]، وأخبرَ سبحانهُ أنَّ البُشرَى منهُ، إنَّمَا هيَ لأهلِ الإنابةِ فقالَ تعالَى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوها وَأَنابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرى﴾[الزمر:17][1].

حكم الإنابة:

الإنابة عبادة جليلة فيها دلالة على إخلاص العبد لربه، وتوقيره، ومحبَّته، وخشيته، حيث يرجع إلى ربه في كل شيء، ولا يجوز اجتماع هذه الأمور وصرفها إلا لله تعالى وحده، لأنه الوحيد الذي يمكن الإنابة إليه في كل شيء عقلا وشرعا.

ومنْ فوائدِ الإنابةِ:

1) دليلُ كمالِ الإيمانِ وحسنِ الإسلامِ.
2) دليلٌ علَى سلامةِ النِّيَّةِ وحسنِ الطَّوِيَّةِ.
3) بشارةُ اللهِ تعالَى للمنيبينَ وهدايتهُ لهم.
4) معلمٌ علَى صلاحِ العبدِ وقربهِ من ربِّهِ تعالَى.
5) دليلٌ علَى حسنِ ظنِّ العبدِ بربِّهِ.
6) طريقٌ موصلٌ إلَى الجنَّةِ.
7) المنيبُ يُرزَقُ خشيةَ اللهِ تعالَى[2].
8) ديمومة الحضور مع الله تعالى.

ومن فوائد ديمومة الحضور مع الله تعالى: الاستقرار على الشرع الحنيف، حتى يكون الدين الكامل عنده مثل التنفس، سليقة، ودما يجري في عروقه، خارجا عن إرادته، يسري فيه بلا إرادة منه، ومن بلغ هذا المقام، علم مقام أُويس القرني رضي الله عنه، وعلم مقام أولياء الله الصالحين الحق، وهام بحبِّ الله تعالى على الحقيقة لا على الدروشة[3].

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 432/1 – بتنقيح وزيادة.

[2] من كتاب: نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم كتبه عدد من المختصين بإشراف الشيخ/ صالح بن عبد الله بن حميد إمام وخطيب الحرم المكي – والأصول الجامع لعبادة الله وحده للإمام محمد بن عبد الوهاب.

[3] تعود تسمية الدرويش إلى المصدر الفارسي «در» وتعني «الباب» فالدرويش تعني «الشخص الذي يفتح الباب». كما ذكر أن اصلها من كلمة «دريهو» الفارسية القديمة والتي تعني «المعوز». وردها البعض لكلمة «دار» بالعربية والتي تعني «منزل». فالدرويش هو الشخص الذي يدور من دار إلى دار طالبا للإحسان، هذا قول...=

﴿الفرع العاشر﴾

﴿التوكُّل﴾

التوكُّلُ لغةً:

منْ الجِّذرِ (و ك ل) وأصلهَا: اعتمادكَ علَى غيركَ[1]، تقولُ: وكَّلتهُ إليكَ أَكِلُهُ كَلَةً، أي: فوَّضتهُ، ورجلٌ وكِلٌ ووكِلةٌ وهوَ المواكلُ يعتمدُ علَى غيرهِ فيضيعُ أمرهُ، وتقولُ: وكلتُ باللهِ، وتوكّلتُ علَى اللهِ، ووكلتُ فلانًا إلَى اللهِ، أكِلهُ إليهِ، والوكيلُ: فعلةُ التّوكّلُ، والتوكّلُ إظهارُ العجزِ والاعتمادُ علَى غيركَ، وكذلكَ يعنِي (التُكلانُ) الذِي انقلبتْ تاؤهُ عنْ واوٍ، ومصدرُ التوكُّلِ الوكالةُ[2]، قالَ ابنُ منظورٍ: يقالُ: توكّلَ بالأمرِ إذَا ضمنَ القيامَ بهِ، ووكَّلتُ أمرِي إلَى فلانٍ أي ألجأتهُ إليهِ واعتمدتُ فيهِ عليهِ، ووكّلَ فلانٌ فلانًا إذا استكفاهُ أمرهُ؛ ثقةً بكفايتهِ، أو عجزًا عنِ القيامِ بأمرِ نفسهِ[3].

التوكُّلُ اصطلاحًا:

غلبَ استخدامُ مصطلحِ التوكُّلِ فِي توكُّلِ العبدِ علَى ربِّهِ تعالَى؛ لذَا عرَّفهُ العلماءُ أنَّهُ: الثِّقةُ بمَا عندَ اللهِ تعالَى، واليأسُ عمَّا فِي أيدِي النَّاسِ[4]، وقالَ الرَّازِي: التوكُّلُ هوَ أن يراعِي الإنسانُ الأسبابَ الظَّاهرةَ، ولكن لَا يعوِّل بقلبهِ عليهَا، بل يعولُ علَى عصمةِ الحقِّ[5]. اهـ

والرازي هنا ذكر تعريف التوكل بشروطه لا بماهيته، وشروطه كما هو معلوم: الأخذ بالأسباب، مع عقد القلب على أن الأمر كله بده الله تعالى، والاعتماد عليه سبحانه في ذلك.

قال النّسفِي التوكُّلَ هوَ: قطعُ العلائقِ وتركُ التملُّقِ للخلائقِ[6].

= ولكن الذي أراه أنَّ الدويش مأخوذة من كلمة (دارش) والدارش هو الجلد الأسود ودرَّشَ مقلوب شرَّد، أي: طرد فلانا وشرَّده، فكان مفعوله درويش لا مسكن له ومال، فهو يرتدي الجلد من شدَّة فقره.

[1] انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس 136/6.

[2] انظر: العين، الفراهيدي 405/5، مختار الصحاح، الرازي 344/1.

[3] لسان العرب 764/11.

[4] التعريفات، الجرجاني 70/1.

[5] مفاتيح الغيب للرازي 410/9.

[6] مدارك التنزيل للنسفي 439/1.

وقالَ ابنُ عاشورٍ: هوَ انفعالٌ قلبيٌّ عقليٌّ يتوجّهُ بهِ الفاعلُ إلَى اللهِ تعالَى؛ راجيًا الإعانةً، ومستعيذًا منَ الخيبةِ والعوائقِ[1].

وأقول: أنَّ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالَى هو: تفويضُ كلَّ الأمورِ الظَّاهرةِ والباطنةِ إلَى اللهِ تعالَى، والاعتماد عليه فيها، معَ الثِّقةِ التامَّةِ في قدرتهِ سبحانهُ علَى جلبِ النَّفعِ ودفعِ الضرِّ، مع وجوب الأخذ بالأسباب.

ودليله: ما جاء في صحيح ابن حبان، قال رجُلٌ لِلنَّبيِّ ﷺ: {أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ؟ قال: اعقِلْها وتوكَّلْ}[2].

فلم يأمره بتفويض أمر الناقة إلى الله تعالى وحسب، ولا بالاعتماد على نفسه في عقلها وحسب، بل أمره بالجمع بين الاثنين، وهو الاعتماد على الله تعالى في حفظ الناقة، مع الأخذ بالأسباب في ذلك وهو ربطها.

والمتأمِّلُ فِي التَّعريفينِ اللُّغوي والاصطلاحِي يجدُ توافقًا واضحًا بينهمَا، فالتوكُّلُ لغةً هوَ تفويضُ الأمرِ والاعتمادُ علَى الآخرِ معَ الثِّقةِ، والمعنَى الاصطلاحِي يتضمَّنُ تفويضَ الأمرِ للهِ تعالَى، والاعتمادِ عليهِ وحدهُ فِي تسييرِ الأمورِ؛ ثقةً بقدرتهِ الكاملةِ عزَّ وجلَّ مع وجوب الأخذ بالأسباب.

ودليل وجوب الأخذ بالأسباب قول تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[آل عمران: 159]، فإن الله عز وجل لم يأمر بالتوكل إلا بعد التحرز والأخذ بالأسباب.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[هود: 123]، فَاعْبُدْهُ، عملٌ مع التوكل.

وقال سبحانه: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[إبراهيم: 12]، وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا، عمل مع التوكل.

---

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور 151/4.

[2] أخرجه ابن حبان في صحيحه 731، وحسنه الأرناؤوط.

وقال جلَّ من قائل: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[النحل: 42]، **الَّذِينَ صَبَرُوا، عمل مع التوكل.**

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾[الأحزاب: 48]، **وَدَعْ أَذَاهُمْ، عمل مع التوكل.**

وغير ذلك من الآيات الدلَّات على أنَّ التسبب مقترن بالتوكُّل، وأنَّ الله تعالى جعل في هذه الدنيا لكل شيء سببا، حتى لما دعاه أيوب راجيا الشفاء، قال: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص: 42]، **والحال أنه لو أراد لقال كن فيكون، ولكنه سبحانه أمره بالتسبب، ولو بركضٍ برجله.**

شروط صحة التوكل على الله تعالى:

يتبين لنا مما سبق أن للتوكل على الله تعالى شرطان:

الأول: تفويض الأمر إلى الله تعالى والاعتماد عليه في كل شيء.

الثاني: الأخذ بالأسباب في ما يجب فيه الأخذ بالأسباب.

ودليل ذلك: قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ * ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾[ص: 41 – 42].

فأيوب عليه السلام كان مبتلى، فدعا ربه تعالى بأدب وإخلاص فقال: {أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ}، فاستجاب له الله تعالى، والله يقول للشيء كن فيكون، فلو شاء الله لعافاه بلا سبب، ولكنه أمره بالأخذ بالأسباب فقال: {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ}، فلما فعل ذلك شفاه الله تعالى.

فإن اختل شرط من هذه الشروط لم يعد توكُّلا بل تواكل.

التَّواكلُ:

التَّواكلُ لغةً:

يعرف التواكل عل أنه ترك الأسباب بالتقاعس عن القيام بالأعمال ومتابعتها بحجة الاتكال على الله تعالى أو على الآخرين في قضائها تكاسلا.

والتواكل يحمل على التقاعس أصالة، ويحمل على التَّكاتف، إذِ اعتمدت الجماعة على بعضها البعض.

وتواكلَ القومُ: اتَّكلَ بعضهم علَى بعضٍ[1].

التَّواكلُ اصطلاحًا:

هو التقاعس، والاعتماد على الأماني.

فإن ترك التسبب وادعى التوكل فهو متواكل، وإن اتَّجه إلى التسبب وترك التوكل على الله ففي إيمانه نقص كبير، لقوله تعالى: ﴿ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[آل عمران: 122]، فقد وصف المتوكلين بالإيمان.

ولكن من شغله التوكل على الله تعالى عن التسبب، فهو في أرقى مقامات التوكل، مثل طالب علمٍ شغله علمه على التسبب في طلب الرزق، فترك طلب الرزق واتجه لطلب العلم وتوكل على الله تعالى في رزقه بلا تسبب، فهذا في أعلى مقامات التوكل.

وعليه: فليس ترك التسبب تواكل على إطلاقه، بل في حالات، فمن ترك التسبب لشيء ما طلبا لشيء خيرا منه، فهو متوكل في أعلا مقامات التوكل، فمن كان مريضا يحتج دواء، وأمه كذلك، وليس له من المال إلا لدواء واحد، فاشترى لأمه دواء، وتوكَّل على الله تعالى في علاج نفسه، فهذا لا أرقى منه في الدنيا وهو في المقامات العليا في الآخرة، كذلك من شغله طلب العلم على طلب الرزق، فتوكل على الله تعالى في رزقه، وطلب العلم، فهو في المقامات العلا في الدنيا والآخرة.

ولكن هذا لا يعني ترك التسبب لغير حاجة لترك التسبب، كمن ينام عن عمله ويتوكل على الله

---

[1] ينظر معاجم اللغة.

في رزقه، هذا جنون، أو كسل، أو اهتبال[1].

دلالةُ اقترانِ التوكُّلِ بالإيمانِ والعبادةِ:

التوكُّلُ من أعظمِ العباداتِ المرتبطةِ بالإيمانِ؛ لذلكَ كثُرَ اقترانهُ بمصطلحي «العبادةِ» و«الإيمانِ»، فالتوكُّلُ علَى اللهِ تعالَى هوَ أجمعُ أنواعِ العبادةِ، وأعلَى مقاماتِ التَّوحيدِ وأعظمهَا وأجلِّهَا؛ لمَا ينشأُ عنهُ منَ الأعمالِ الصَّالحةِ؛ فإنَّهُ إذَا اعتمدَ العبدُ علَى اللهِ تعالَى فِي جميعِ أمورِهِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ دونَ كلِّ مَا سواهُ؛ صحَّ إخلاصهُ ومعاملتهُ معَ اللهِ تعالَى، وكذلكَ لَا يصحُّ إيمانُ الإنسانِ إذَا فسدَ توكُّلهُ، فالتوكُّلُ شرطٌ فِي الإيمانِ[2]، بدلالةِ قولِ اللهِ تعالَى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23].

{وَعَلَى اللهِ} (الواو): عاطفة، (على الله): جار ومجرور متعلق بـ: (توكلوا)، {فَتَوَكَّلُوا} (الفاء): رابطة لجواب شرط مقدر، (توكلوا): فعل أمر مبني على حذف النون، و(الواو): فاعل، وجملة: على الله فتوكلوا: في محل جزم جواب شرط مقدر، أي: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا على الله.

{إِنْ}: حرف شرط جازم {كُنْتُمْ}: فعل ماض ناسخ في محل جزم فعل الشرط، و(التاء): ضمير في محل رفع اسم كان، {مُؤْمِنِينَ}: خبر كان منصوب بالياء، وجواب الشرط محذوف يفسره ما قبله أي: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا على الله، وجملة: إن كنتم ... تفسيرية لما سبق[3].

فيتبين لنا من هذا أنَّ التوكَّل شرط الإيمان، فإن فقد التوكل على الله تعالى فقد الإيمان.

لكن هل يُفْقَدُ الإيمان بالكليَّة حال فَقْدِ التوكُّل؟

فيه كلام:

الصَّحيحُ واللهُ أعلم؛ أنَّ عدمَ التوكُّلِ لَا يُفسدُ الإيمانَ ولا يُعدمه، بل يُنقِصهُ، إلَّا إذَا توكَّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى فِي ما لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى، فهذَا قدِ انتقضَ إيمانه وسيأتِي تفصيلهُ، وكذلكَ التوكُّلُ فهوَ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ، وإن قلنَا بمَا سبقَ فإنَّ من لم يتوكَّل علَى اللهِ

---

[1] اهتبل: كذب واحتالَ وخدع عرف عنه أنَّه يهتبل في تعامله مع النَّاس. ينظر: معجم المعاني./ والاهتبال والاستهبال: ادعاء الجنون، منه: هبل: أي: جنَّ.

[2] انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، صالح الفوزان 78/1.

[3] إعراب القرآن الكريم ط دار الصحابة | مجلد 1 | صفحة 506.

تعالَى فِي حالٍ منَ الأحوالِ نُزِعَ عنهُ الإيمانُ؟ وهذَا غيرُ صحيحٍ؛ لأنَّ المسلمَ لَا يخلُو من خللٍ، فلابدَّ أن يفقدَ التوكُّلَ علَى اللهِ تعالى مرَّةً إن لمْ تكنْ مرَّاتٍ، وبذلكَ ينقصُ إيمانهُ ولَا يفسدُ، واللهُ أعلمُ.

وبمَا قلتُ أشارَ السَّعدِي رحمهُ اللهُ تعالَى فِي تفسيرِ الآيةِ السَّابقةِ: ودلَّ هذَا علَى وجوبِ التوكُّلِ، وعلَى أنَّهُ بحسبِ إيمانِ العبدِ يكونُ توكُّلهُ[1]. اهـ

يعني: أنَّ التوكلَّ عند المؤمن، يزيد وينقص، كما الإيمان يزيد وينقص؛ لارتباط التوكل بالإيمان، فلا ينتقض توكل المرء إلا بعد أن ينتقض إيمانه، ولا عكس على الغالب، لما سبق وأشرنا أنَّ المسلم أحيانا يفقد رابطة جأشه، وينسى أحيانا، ويغتر أخرى، فكل هذا يعدم التوكل أحيانا، وهو بدوره ينقص الإيمان ولا ينقضه، والله أعلم.

وبمَا يُقاربهُ قالَ ابنُ عاشورٍ: أي علَى اللهِ وحدهُ اعتمدُوا وثقُوا، فهوَ وكيلكم الأعلمُ بمَا يصلحُ لكم إن كنتم مؤمنينَ، وإن لم تكونُوا متوكِّلينَ فلن ينطبقَ عليكم سمتُ المؤمنينَ[2].

وفي موضع آخر قال جل وعلا: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾[يونس: 84].

قالَ القرطبِي: قولهُ تعالَى وقالَ موسَى يَا قومِ إنْ كنتمْ آمنتمْ أي صدَّقتم باللهِ فعليهِ توكَّلُوا أيِ اعتمدُوا إنْ كنتم مسلمينَ كرَّرَ الشَّرطَ تأكيدًا، وبيَّنَ أنَّ كمالَ الإيمانِ بتفويضِ الأمرِ إلَى اللهِ تعالَى[3].

وخرجنَا منْ هذَا أنَّ التوكُّلَ شرطٌ فِي الإيمانِ، إلَّا أنَّهُ شرطُ كمالٍ لَا شرطُ صحَّةٍ.

وقد قُرِنَ التوكُّلُ بالعبادةِ فِي أكثرِ من موضعٍ، منهَا قولُ اللهِ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود: 123].

وقد بيّنَ الرَّازِي أنَّ أوَّلَ درجاتِ السَّيرِ إلَى اللهِ تعالَى هوَ عبوديَّةُ اللهِ تعالَى، وآخرهَا التوكُّلُ علَى اللهِ (وحدهُ)، وأنَّ هذَا هوَ السَّببُ الذِي أدَّى إلَى ترتيبَ الآيةِ هكذَا: (فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ)،

---

[1] ينظر: تفسير السعدي.

[2] انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور 203/13.

[3] انظر: تفسير القرطبي.

بمعنَى أنَّ المخلصَ فِي العبادةِ المؤدِّي لهَا بيقينٍ وتأمُّلٍ وصفاءٍ يصلُ بِهِ التدبُّرُ إلَى عظمِ الخالقِ عزَّ وجلَّ وروعةِ إبداعهِ، وأنَّهُ لَا يملكُ أمامَ تلكَ القدرةِ المطلقةِ سوَى تفويضِ أمورهِ كلِّهَا والاعتمادِ عليهِ تعالَى فِي تسييرِ شؤونِ حياتهِ كلِّهَا[1].

ولعلَّ ترتيبَ الآيةِ السَّابقةِ يؤكِّدُ علَى مبدئِ العبادةِ والعملِ، ومن ثمّ تفويضُ الأمورِ للهِ تعالَى، وهذَا هوَ التوكُّل الصَّحيحُ، خلافًا لمَا يفعلهُ المتواكلونَ منَ القعودِ عنِ العملِ، وتركِ الأمورِ بحجَّةِ التَّفويضِ، وإسنادِ الأمورِ للخالقِ عزَّ وجلَّ، فاللهُ تعالَى يحبُّ العاملينَ ولَا يحبُّ المتخاذلينَ.

التوكُّل فِي حقِّ اللهِ تعالَى:

فممَّا يجب لهُ أنْ يُعلمَ أنَّ من أسماءِ اللهِ تعالَى (الوكيلُ)، وقد حقّ لجلالهِ وعزَّتهِ وحكمتهِ هذَا الاسمُ، فعليهِ يجبُ أنْ يتوكَّلَ المؤمنونَ، وعلَى غيرهِ لَا يصحُّ التوكُّلُ؛ لأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، لَا تُصرفُ إلَّا للهِ عزَّ وجلَّ[2]، ودونكم بيانُ معنَى اسمِ اللهِ الوكيلِ واستحقاقهِ جلَّ وعلَا لهذَا الاسمِ:

الوكيلُ اسم من أسماءِ اللهِ الحسنَى وهو يحمل صفة من صفاته:

وقد أثبتَ اللهُ تعالَى لنفسهِ صفة الوكيلِ، يقولُ الحقُّ تعالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

وقالَ تعالَى فِي موضعٍ آخرَ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [الأحزاب: 3].

والوكيلُ هوَ المتكفِّلُ باحتياجاتِ عبادهِ، وقيلَ: الموكولُ إليهِ ذلكَ، فإنَّ عبادهُ وكّلُوا إليهِ مصالحهمُ اعتمادًا علَى إحسانهِ عزَّ وجلَّ[3].

---

[1] انظر: مفاتيح الغيب، الرازي **414/17**.

[2] انظر: الجواب الكافي، ابن القيم **137/1**.

[3] انظر: المواقف، عضد الدين الإيجي **322/3**.

والفرقُ بينَ وكالةِ اللهِ تعالَى ووكالةِ العبادِ:

أولا: أنَّ الوكيلَ صفةُ اللهِ جلَّ جلالهُ التِي تعنِي المتولِّي القائمِ بتدبيرِ (شؤونِ) خلقهِ؛ لأنَّهُ مالكٌ لهم رحيمٌ بهم، أمَّا توكيلُ العبادِ إنَّمَا يعقدُ بالتَّوكيلِ، ولَا يتضمَّنُ الرَّحمةَ[1]، لذَا حريٌّ بنَا أن نتوجَّهَ إلَى اللهِ جلَّ جلالهُ بالدُّعاءِ باسمهِ الوكيلَ، وبجميعِ أسمائهِ الحسنَى، فاللهُ تعالَى حقيقٌ بذلكَ، وقد أمرنَا بهذَا فِي قولهِ تعالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: 180].

وعلَى الإنسانِ أنْ يستحضرَ لحظةَ الدُّعاءِ عزَّةَ الرُّبوبيَّةِ وذلَّةَ العبوديَّةِ، فبذلكَ يعظمُ الدُّعاءُ ويحسنُ الذكرُ[2].

ثانيًا: استحقاقُ اللهِ تعالَى للتوكِّلِ لاتِّصافهِ بصفاتِ الكمالِ:

للهِ تعالَى منَ الصِّفاتِ المطلقةِ مَا يجعلنَا نسارعُ إلَى عبادتهِ، ونجتهدُ فِي التوكُّلِ عليهِ، توقًا إلَى رحمتهِ، وحرصًا علَى استحقاقِ جنَّتهِ،

أقسامُ التوَّكُّلِ على غير الله تعالى:

فلأنَّ التوكُّلَ عبادةٌ قلبيَّةٌ، فلَا يصح صرفهُ لغيرِ اللهِ تعالَى، فهذَا ضربٌ منَ الشِّركِ، وهو على قسمين:

وقد قسّمَ العلماءُ التوكُّلَ علَى غيرِ اللهِ تعالَى إلَى قسمينَ:

الأوَّلُ: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي لَا يقدرُ عليهَا إلَّا اللهُ؛ كالذينَ يتوكَّلونَ علَى الأمواتِ، ويطوفونَ بالقبورِ استشفاءً أو طلبًا للنَّصرِ والرِّزقِ، فهذَا شركٌ أكبرٌ.

الثَّانِي: التوكُّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي الأمورِ التِي يقدرُ عليهَا العبادُ؛ كأنْ يتوكَّلَ علَى وزيرٍ أو أميرٍ في مَا جعلهُ اللهُ فِي يدهِ من سلطةٍ أو وظيفةٍ، فِي جلبِ مصلحةٍ أو دفعِ أذًى، فهذَا ينافِي كمالَ الإيمانِ ويضعفهُ.

---

[1] انظر: الفروق اللغوية، العسكري **1/877**.

[2] انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية **7/16**.

والوكالةُ الجائزةُ: هيَ توكيلُ الإنسانِ فِي فعلٍ مقدورٍ عليهِ، ولكن ليسَ لهُ أن يتوكَّلِ عليهِ، وإن وكّلهُ، بل يتوكّلُ علَى اللهِ تعالَى ويعتمدُ عليهِ فِي تيسيرِ مَا وكّلَ صاحبهُ فيهِ[1].

قالَ ابنُ تيميَّةَ: ومَا رجَا أحدٌ مخلوقًا أو توكَّلَ عليهِ إلَّا خابَ ظنَّهُ فيهِ فإنَّهُ مشركٌ[2].

وقدَ قالَ ربُّ العزَّةِ: ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[الحج: 31].

والمشركُ المتوكِّلُ علَى غيرِ اللهِ فِي مَا لَا يقدرُ عليهِ إلَّا اللهُ تعالَى أو في مَا يقدرُ عليهِ عبادهُ، يوقعُ اللهُ فِي قلبهِ التعلُّقَ بالمخلوقينَ، فيخافهم ويرجوهم فيحصلُ لهُ رعبٌ، كمَا قالَ تعالَى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾[آل عمران: 151].

والخالصُ منَ الشِّركِ يحصلُ لهُ الأمنُ واطمئنانُ النَّفسِ والتعفُّفِ عنْ سؤالِ النَّاسِ[3].

قالَ تعالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[الأنعام: 82].

ولعلَّ منْ أهمِّ قوادحِ التوكُّلِ التي نراهَا فِي هذهِ الأيامِ اعتمادُ المسلمينَ علَى الرُّقيةِ لاَ بذاتهَا أنَّهَا كلامُ اللهِ تعالَى، بل يعتمدُ فيهَا علَى شخصٍ معيَّنٍ، أوِ العلاجِ علَى يدِ مُعالجٍ بعينهِ اعتقادًا بقدرتهمَا علَى الشِّفاءِ، وهذَا الأمرُ منافٍ للتوكُّلِ الصَّحيحِ الذِي يعتمدُ علَى رجاءِ اللهِ تعالَى أوَّلًا، ثمَّ عملِ مَا يلزمُ بواسطةِ البشرِ معَ عدمِ تعليقِ الأملِ علَى أشخاصهم ثانيًا.

حكم التوكل على الله تعالى:

حكم التوكُّل على الله تعالى هو الوجوب العيني، ولا يجوز صرفه لغير الله تعالى، فإن كان في ما لا يقدر عليه إلا الله تعالى وحده فهذا من نواقض الإسلام؛ لأنه شرك أكبر، وإن كان في ما يقدر عليه غير الله تعالي فهذا ينافي كمال الإيمان.



[1] انظر: تيسير العزيز الحميد، سليمان بن عبدالوهاب 428/1.

[2] الفتاوى الكبرى لابن تيمية 232/5.

[3] انظر: المصدر السابق.

﴿الفرع الحادي عشر﴾

﴿المحبة﴾

المحبة لغة:

أصل المحبة مأخوذ من حبب التي هي بمعنى اللزوم والثبات، ومنه يقال: أحبه حبا ومحبة إذا لزمه[1].

والحب: نقيض البغض، والحب: الوداد[2]، والحب: المحبة، وكذلك الحب بالكسر[3].

المحبة اصطلاحا:

قال الراغب: المحبة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيرًا[4].

وقال الكفوي: الحب: هو عبارة عن ميل الطبع في الشيء الملذ[5].

فتكون العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي علاقة اللازم بالملزوم، فالمحبة انفعال نفسي يلزم منه ويعقبه الميل والانجذاب إلى المحبوب[6]، والله أعلم.

المحبة شرعا:

قال ابن القيم: هي إيثار المحبوب على جميع المصحوب[7].

فالمحبة الشرعية، هي: تقديم الله تعالى وإيثاره على كل شيء، ومحبته سبحانه لا تقتصر على الأعمال القلبية والقول باللسان وحسب، بل شرطها العمل بالجوارح، وإلا وقع فيما قال فيه الشافعي رحمه الله تعالى حيث قال:

تَعصي الإِلَهَ وَأَنتَ تُظهِرُ حبه * هَذا مَحالٌ في القِياسِ بَديعُ

لَو كانَ حُبُّكَ صادِقاً لأطعته * إِنَّ المُحِبَّ لِمَن يُحِبُّ مُطيعُ

---

[1] مقاييس اللغة، ابن فارس 26/2 المفردات، الراغب ص 214.

[2] لسان العرب، ابن منظور 289/1.

[3] الصحاح، الجوهري 105/1.

[4] الذريعة إلى مكارم الشريعة، الراغب ص ٢٥٦، المفردات، الراغب ص 214.

[5] الكليات، الكفوي ص 398.

[6] التحرير والتنوير، ابن عاشور 225/3.

[7] مدارج السالكين لابن القيم 13/3.

في كُلِّ يَومٍ يَبتَديكَ بنعـــمة * مِنهُ وَأَنتَ لِشُكرِ ذاكَ مُضيعُ

وأما من قال أنَّ المحبة محلها القلب فقط، واستند على حديث أنس بن مالك:

{أنَّ رَجُلًا مِن أهْلِ البَادِيَةِ أتَى النَّبيَّ ﷺ فَقالَ: يا رَسولَ اللَّهِ، مَتَى السَّاعَةُ قَائِمَةٌ؟ قالَ: ويْلَكَ! وما أعْدَدْتَ لَهَا؟ قالَ: ما أعْدَدْتُ لَهَا إلَّا أنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: إنَّكَ مع مَن أحْبَبْتَ. فَقُلْنَا: ونَحْنُ كَذلكَ؟ قالَ: نَعَمْ. فَفَرِحْنَا يَومَئذٍ فَرَحًا شَدِيدًا، فَمَرَّ غُلَامٌ لِلْمُغِيرَةِ –وكانَ مِن أقْرَانِي– فَقالَ: إنْ أُخِّرَ هذا، فَلَنْ يُدْرِكَهُ الهَرَمُ حتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ}[1].

أخرجه البخاري **6171**.

[1] في هذا الحديثِ يُخبِرُ أنسُ بنُ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ رجُلًا مِن أهلِ الباديةِ –وهو الذي يسكُنُ الصَّحراءَ– قيل: هو ذو الخُوَيصِرة اليَمانيُّ، وهو الذي بال في المسجِدِ؛ سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ عَن وقْتِ قيامِ السَّاعةِ، فقال له النَّبيُّ ﷺ: «ويْلَكَ! وما أعددْتَ لها؟»، والويلُ هو الدُّعاءُ بِالهلاكِ، وليس مَقصودًا هنا، وإنَّما هو تَعنيفٌ مِنَ النَّبي ﷺ؛ لِيَنشغِلَ بالأصلحِ له –وهو العملُ الصَّالحُ– لا بِموعدِ قيامِ السَّاعةِ.

فقال له الرَّجلُ بعْدَ أنْ سَمِعَ مِنَ النَّبيِّ ﷺ ذلك: «ما أعددْتُ لها إلَّا أنِّي أُحبُّ اللهَ ورَسولَه»، ولم يذكُرْ غيرَها من العباداتِ القَلبيَّةِ والبَدَنيَّةِ والماليَّةِ؛ لأنها كُلَّها فروعٌ للمَحبَّةِ مترتِّبةٌ عليها، ولأنَّ المحبَّةَ هي أعلَمُ منازِلِ السائرين؛ فإنها باعِثةٌ لمحبَّةِ اللهِ تعالى أو نتيجةٌ لها، فقال له ﷺ: «إنَّكَ مع مَن أحببْتَ»، أي: معهم في الجنَّةِ، وليس المرادُ بالمَعِيَّةِ التساوي في الدَّرَجةِ والمنزلةِ، بل المرادُ كَونُهم في الجنَّةِ بحيث يتمكَّنُ كُلُّ واحدٍ منهم من رؤيةِ الآخَرِ وإن بَعُد المكانُ؛ لأنَّ الحجابَ إذا زال شاهَدَ بَعضُهم بعضًا، وإذا أرادوا الرُّؤيةَ والتلاقي قَدَروا على ذلك.

فقال الصَّحابةُ رِضوانُ اللهِ عليهم: «ونحْنُ كذلك»، أي: نحْنُ أيضًا نُحبُّ اللهَ تعالى ورسولَه ﷺ، فهل نكونُ مع مَن أحبَبْنا؟ فقال لهمُ النَّبيُّ ﷺ: «نَعمْ»، ففرِحوا بذلك فرحًا شديدًا.

ثم أخبر أنَسٌ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ غُلامَ المغيرةِ بنِ شُعْبَةَ –وهو مملوكُه دونَ سِنِّ البُلوغِ والتكليفِ، واسمُه محمَّدٌ، وقيل: سعيدٌ– مرَّ عليهم، وكان مِن أقرانِ أنسِ بنِ مالكٍ رضِي اللهُ عنه، أي: مُقارِبٌ له في عُمْرِه، فقال ﷺ: «إنْ أُخِّرَ هذا» أي: إنْ عاشَ ولم يَمُتْ في صِغَرِه: (فَلَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ) فِي رِوَايَة الْكُشْمِيهَنِيّ "فَلَنْ" وَكَذَا لِمُسْلِمٍ وَهِيَ أَوْلَى.

وَفِي رِوَايَة حَمَّاد بْن سَلَمَة "إِنْ يَعِشْ هَذَا الْغُلَام فَعَسَى أَنْ لَا يُدْرِكهُ الْهَرَم" وَفِي رِوَايَة مَعْبَد بْن هِلَال "لَئِنْ عَمَّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكهُ الْهَرَم" كَذَا فِي الطُّرُق كُلّهَا بِإِسْنَادِ الْإِدْرَاك لِلْهَرَمِ، وَلَوْ أُسْنِدَ لِلْغُلَامِ لَكَانَ سَائِغًا، وَلَكِنْ أُشِيرَ بِالْأَوَّلِ إِلَى أَنَّ الْأَجَل كَالْقَاصِدِ لِلشَّخْصِ.

قَوْله: (حَتَّى تَقُوم السَّاعَة) وَقَعَ فِي رِوَايَة الْبَارُودِيّ الَّتِي أَشَرْت إِلَيْهَا بَدَل قَوْله حَتَّى تَقُوم السَّاعَة "لَا يَبْقَى مِنْكُمْ عَيْن تَطْرِف" وَبِهَذَا يَتَّضِح الْمُرَاد.وَلَهُ فِي أُخْرَى "مَا مِنْ نَفْس مَنْفُوسَة يَأْتِي عَلَيْهَا مِائَة سَنَة " وَهَذَا نَظِير قَوْله ﷺ فِي الْحَدِيث الَّذِي تَقَدَّمَ بَيَانه فِي الْعِلْم أَنَّهُ قَالَ لِأَصْحَابِهِ فِي آخِر عُمْره "أَرَأَيْتُكُمْ لَيْلَتكُمْ هَذِهِ؟ فَإِنَّ عَلَى رَأْس مِائَة سَنَة مِنْهَا لَا يَبْقَى عَلَى وَجْه الْأَرْض مِمَّنْ هُوَ الْيَوْم =

فإنَّ الحصر بـ (إلا) هنا لا يدل على أنَّ المحبة في القلب وحسب، ويدل على ذلك رواية أنس ابن مالك أيضا: {أنَّ رَجُلًا سَأَلَ النبيَّ ﷺ: مَتَى السَّاعَةُ يا رَسولَ اللَّهِ؟ قالَ: ما أعْدَدْتَ لَهَا قالَ: ما أعْدَدْتُ لَهَا مِن كَثِيرِ صَلَاةٍ ولَا صَوْمٍ ولَا صَدَقَةٍ، ولَكِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ، قالَ: أنْتَ مع مَن أحْبَبْتَ}[1].

فتلاحظ هنا أنه ذكر من الأعمال شيئا من الصلاة والصيام والصدقة، وهي من أعمال الجوارح واللسان، فبهذا الحديث يتبين لك، أنَّ المحبة كانت بلسانه، وبقلبه، وفعله، وإن كانت بلسانه وفعله قليل، ولكنَّها موجودة، وعليه؛ فيحمل الحديث الأوَّل على الثاني، وكذلك قوله في الحديث الأول: (مَا أعددت لها إلا...) فهذا لا يفيد أنه لا يعمل، ونخلص من هذا أنَّ المحبة رأس العقيدة وذروة سنامها، فإن كان الأمر كذلك فشرطها هو شرط التوحيد، فتكون المحبة قولا باللسان وتصديقا بالجنان وعمل بالجوارح.

= عَلَيْهَا أَحَد" وَكَانَ جَمَاعَة مِنْ أَهْل ذَلِكَ الْعَصْر يَظُنُّونَ أَنَّ الْمُرَاد أَنَّ الدُّنْيَا تَنْقَضِي بَعْد مِائَة سَنَة، فَلِذَلِكَ قَالَ الصَّحَابِيّ "فَوَهِلَ النَّاس فِيمَا يَتَحَدَّثُونَ مِنْ مِائَة سَنَة" وَإِنَّمَا أَرَادَ ﷺ بِذَلِكَ اِنْخِرَام قَرْنه، أَشَارَ إِلَى ذَلِكَ عِيَاض مُخْتَصَرًا.

وَوَقَعَ فِي الْخَارِج كَذَلِكَ "فَلَمْ يَبْقَ مِمَّنْ كَانَ مَوْجُودًا عِنْدَ مَقَالَته تِلْكَ عِنْدَ اِسْتِكْمَال مِائَة سَنَة مِنْ سَنَة مَوْته أَحَد" وَكَانَ آخِر مَنْ رَأَى النَّبِيّ ﷺ مَوْتًا أَبُو الطُّفَيْل عَامِر بْن وَاثِلَة كَمَا ثَبَتَ فِي صَحِيح مُسْلِم، وَقَالَ الْإِسْمَاعِيلِيّ بَعْد أَنْ قَرَّرَ أَنَّ الْمُرَاد بِالسَّاعَةِ سَاعَة الَّذِينَ كَانُوا حَاضِرِينَ عِنْدَ النَّبِيّ ﷺ وَأَنَّ الْمُرَاد مَوْتهمْ وَأَنَّهُ أَطْلَقَ عَلَى يَوْم مَوْتهمْ اِسْم السَّاعَة لِإِفْضَائِهِ بِهِمْ إِلَى أُمُور الْآخِرَة، وَيُؤَيِّد ذَلِكَ أَنَّ اللَّه اِسْتَأْثَرَ بِعِلْمِ قِيَام السَّاعَة الْعُظْمَى كَمَا دَلَّتْ عَلَيْهِ الْآيَات وَالْأَحَادِيث الْكَثِيرَة، قَالَ: وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون الْمُرَاد بِقَوْلِهِ "حَتَّى تَقُوم السَّاعَة" الْمُبَالَغَة فِي تَقْرِيب قِيَام السَّاعَة لَا التَّحْدِيد، كَمَا قَالَ فِي الْحَدِيث الْآخَر "بُعِثْت أَنَا وَالسَّاعَة كَهَاتَيْنِ" وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهَا تَقُوم عِنْدَ بُلُوغ الْمَذْكُور الْهَرَم.

وَهَذَا عَمَل شَائِع لِلْعَرَبِ يُسْتَعْمَل لِلْمُبَالَغَةِ عِنْدَ تَفْخِيم الْأَمْر وَعِنْدَ تَحْقِيره وَعِنْدَ تَقْرِيب الشَّيْء وَعِنْدَ تَبْعِيده , فَيَكُون حَاصِل الْمَعْنَى أَنَّ السَّاعَة تَقُوم قَرِيبًا جِدًّا، وَبِهَذَا الِاحْتِمَال الثَّانِي جَزَمَ بَعْض شُرَّاح "الْمَصَابِيح" وَاسْتَبْعَدَهُ بَعْض شُرَّاح "الْمَشَارِق" وَقَالَ الدَّاوُدِيُّ: الْمَحْفُوظ أَنَّهُ ﷺ قَالَ ذَلِكَ لِلَّذِينَ خَاطَبَهُمْ بِقَوْلِهِ تَأْتِيكُمْ سَاعَتكُمْ، يَعْنِي بِذَلِكَ مَوْتهمْ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَعْرَابًا فَخَشِيَ أَنْ يَقُول لَهُمْ لَا أَدْرِي مَتَى السَّاعَة فَيَرْتَابُوا فَكَلَّمَهُمْ بِالْمَعَارِيضِ، وَكَأَنَّهُ أَشَارَ إِلَى حَدِيث عَائِشَة الَّذِي أَخْرَجَهُ مُسْلِم "كَانَ الْأَعْرَاب إِذَا قَدِمُوا عَلَى النَّبِيّ ﷺ سَأَلُوهُ عَنْ السَّاعَة مَتَى السَّاعَة ؟ فَيَنْظُر إِلَى أَحْدَث إِنْسَان مِنْهُمْ سِنًّا فَيَقُول إِنْ يَعِشْ هَذَا حَتَّى يُدْرِكهُ الْهَرَم قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتكُمْ" قَالَ عِيَاض وَتَبِعَهُ الْقُرْطُبِيّ: هَذِهِ رِوَايَة وَاضِحَة تُفَسِّر كُلّ مَا وَرَدَ مِنْ الْأَلْفَاظ الْمُشْكِلَة فِي غَيْرهَا. للمزيد ينظر: موقع أحاديث الرسول ﷺ:

https://hadithprophet.com/hadith-36654.html

[1] أخرجه البخاري **6167**، ومسلم **2639**.

أنواع المحبة:

تنقسم المحبة ابتداء إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عامَّة.

والقسم الثاني: محبَّة خاصَّة.

المحبة العامة:

وهي المحبة الفطرية العادية، لتشمل حب النوم، والأكل، والأشخاص كالوالدين، والدين، وغيره...

أنواع المحبة العامة:

إنَّ المحبة تدور على حسب أحكام التكليف الخمسة.

محبة واجبة: كحب الله تعالى ورسوله ﷺ وجينه ووالديه وغير ذلك...

محبَّة مندوبة: كحب فعل النوافل...

محبة مباحة: كحب الأكل والنوم وغيره...

محبة مكروهة: كحب اللهو دون إضاعة الواجب...

محبة حرام: كحب أعداء الدين وغيره...

فهي على حسب أحوال المحبوب، يدور الحكم على حسبه.

المحبة الخاصة:

وهي المحبة الشرعية.

وهي على أنواع:

لتشمل أولا وقبل كل شيء الله تعالى، ثم دينه ورسله من الملائكة أو الإنس، وكتبه، ورتب ما عدا الله تعالى ثمَّ رسوله ﷺ من المذكورات كما شئت فلا خلاف بينهم.

محبة الله تعالى:

إنَّ أوجب الواجبات وعين التوحيد ورأس حقيقة العبادة هي محبة الله تعالى، فشرط الإيمان وركنه القويم هو حبه الله تعالى، لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: 165].

لاحظ أنَّ الله تعالى جعل من يحب غيره كحبه مشركا بالله، وهذا النوع يسمى بشرك المحبَّة، ويتبين لك من هذا أنه لا يجوز محبة من يبغضه الله تعالى، فتجد الشخص يحب من يبغض الله تعالى، والأصل فيه أن يبغض من يبغض الله تعالى، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ ﴾[المجادلة: 22].

ففي هذه الآية المباركة نفي تام للإيمان لمن أشرك شرك المحبَّة ورمى أعداء الدين بالمودَّة، بل بلغ الأمر للآباء والأبناء والإخوة، فإن كانوا أعداء للدين وجب بغضهم لبغض الله تعالى لهم، واسمع لقول الله تعالى في حق خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ﴾[التوبة: 144].

نعم هذا هو الحب الصادق المندمج مع الكد والعمل بمقتضى الحب، ويذكر سبحانه خليله في موقع آخر، في وقفة رجولية إبداعية صادقة مطردة منعكسة حيث قال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾[الممتحنة: 4].

فالحب ليس كلمة تقال، بل حاله حال الخوف، فكيف تدعي أنك تخاف عذاب الله تعالى ثمَّ تعصاه، كذلك كيف تدعي أنك تحب الله تعالى، وأنت تحب من يبغض الله؟ لا، هذا لا يكون، ألم تعلم بأنَّ الله غيور؟ فاسمع لأبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: {إِنَّ اللَّهَ يَغَارُ وَغَيْرَةُ اللَّهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ}[1].

وعَن الْمُغِيرَةِ قَالَ: قَالَ سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ: لَو رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفَحٍ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ {أَتَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللَّهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللَّهُ أَغْيَرُ مِنِّي، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَةِ اللَّهِ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ}[2].

---

[1] رواه البخاري (**4925**) ومسلم (**2761**).

[2] رواه البخاري (**6980**) ومسلم (**1499**) وعنده زيادة بلفظ (وَلاَ شَخْصَ أَغْيَرُ مِنَ اللَّهِ).

وعَن عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: {يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ مَا مِن أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنْ اللَّهِ أَنْ يَزْنِيَ عَبْدُهُ أَوْ تَزْنِيَ أَمَتُهُ، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيراً}[1].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:

الغيْرة التي وصف الله بها نفسه: إمَّا خاصة وهو أن يأتي المؤمن ما حرَّم عليه، وإما عامة وهي غيرته من الفواحش ما ظهر منها وما بطن[2].

فإن كانت هذه غيرته سبحانه وتعالى في من يأتي بالفواحش، فكيف تكون غيرته سبحانه بمن يحب غير الله تعالى مثل حب الله تعالى؟ فلا شكَّ أنَّ هذا أشد، لذلك كان حب من سوى الله تعالى كحب الله تعالى شركا أكبر، وإن كان مع حب غير الله تعالى عمل بالجوارح أو اللسان دالا على ذلك، فهو شرك عملي واعتقادي، وإن لم يكن معه عمل دال على ذلك فهو أيضا شرك اعتقادي، وهذا يخرج صاحبه من دائرة الإسلام غالبا، واسمع لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: 54]، ومناسبة ذكر المحبة هنا، يدل على أنَّ سبب ارتدادهم عن الدين هو شرك المحبة.

قلت: ومحبة الله تعالى هي عين التوحيد، فإن كان مقترنا بعمل مما يوافقه فلا شيء أعلى من عبادة حب الله تعالى، وفي الحديث: أن رجلًا سأل النبي ﷺ: {متى الساعة يا رسول الله؟ قال: ما أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة، ولكني أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت}[3].

---

[1] رواه البخاري (1044) ومسلم (901).

[2] الاستقامة (2 / 9 – 11).

[3] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب علامة الحب في الله، 49/8 رقم 9171 ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المرء مع من أحب، 20333/4 رقم 2639.

وقال ﷺ: {ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبُّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّهُ إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النارِ}[1].

ثمَّ يأتي بعد حب الله تعالى مباشرة، حبُّ نبيه محمد ﷺ، لقوله ﷺ: {لَا يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْهِ مِن والِدِهِ ووَلَدِهِ والنَّاسِ أجْمَعِينَ}[2].

وحديث عبد الله بن هشام قال: {كُنَّا مع النَّبيِّ ﷺ وهو آخِذٌ بيَدِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ، فَقالَ له عُمَرُ: يا رَسولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن كُلِّ شيءٍ إلَّا مِن نَفْسِي، فَقالَ النبي ﷺ: لَا، والَّذي نَفْسِي بيَدِهِ، حتَّى أكُونَ أحَبَّ إلَيْكَ مِن نَفْسِكَ، فَقالَ له عُمَرُ: فإنَّه الآنَ، واللَّهِ، لَأَنْتَ أحَبُّ إلَيَّ مِن نَفْسِي، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: الآنَ يا عُمَرُ}[3].

أسباب دخول المحبة للقلب:

المحبة لا توصف ولا تعرف، إنما يعرفها من وجدها وذاقها، وإنما البحث (يكون) في أسبابها وموجباتها، وعلامتها، وشواهدها.

والمتتبع للأسباب الجالبة للمحبة والموجبة لها، يجد أنها عشرة تقريبا:

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه، وما أريد به، كتدبر الكتاب الذي يحفظه العبد، ويشرحه؛ ليتفهم مراد صاحبه منه.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: 82]، وهنا سؤال إنكاري يفيد وجوب تدبر القرآن، والتشنيع على من يقره بلا تدبر.

الثاني: التقرب إلى الله بالنوافل بعد الفرائض، فإنها توصله إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

لما جاء في الحديث القدسي في ما يخبر به النبي ﷺ عن ربه تعالى قال: {إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به،

---

[1] أخرجه البخاري (16)، ومسلم (43)، والترمذي (2624) واللفظ له، والنسائي (4987)، وابن ماجه (4033)، وأحمد (12021).

[2] رواه البخاري 15.

[3] رواه البخاري 6632.

وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ}[1].

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان، والقلب، والعمل، والحال، فنصيبه من المحبة على قدر نصيبه من الذكر.

لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ **إلى أن قال:** ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۖ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾[آل عمران: 190 – 195].

الرابع: إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى، والتسليم إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: 31]، **أي: إن كنتم تحبون الله كما تقولون فاستسلموا لحكم الله تعالى واتبعوا رسوله، وأحبوا ما يحبه، وابغضوا ما يبغضه.**

وقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: 92].

وفي هذه الآية دلالة واضحة على تقديم محاب الله تعالى على محاب المسلم، فشرط إدراك البر هو تقديم محاب الله تعالى على محاب نفسك، والبر ضد المعصية، وهو المسارعة في الطاعة، قال تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾[مريم: 14].

يقول الطبري: مسارعا في طاعتهما ومحبتهما، غير عاقّ بهما[2]. اهـ

[1] أخرجه البخاري في صحيحه6502.

[2] ينظر: تفسير الطبري.

والبَرُّ بالفتح العطوف الرحيم، والبِرُّ بالكسر هو العطف والرحمة، وعودا لقوله تعالى: {لنْ تنَالُوا البرَّ حتَّ تنفقُوا ممَّا تحبُّون} أي: تنالوا عطف الله تعالى ورحمته ورضاه ودخول جنَّته، حتَّى تقدموا ما يحبه الله تعالى على ما تحبونه، كذلك يؤخذ من هذه الآية الكريمة من الفوائد؛ أن النفي فيها جاء بأقوى صيغه: {لَن تَنَالُواْ الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}، فهذه أقوى صيغة من صيغ النفي، فدل ذلك على أنه يتعذر أن يصل الإنسان إلى الدرجات العُلى، وأن يحصل على مناه من الجنة والألطاف الربانية والمنازل العالية إلا بهذا الشرط: {حَتَّى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ}، و"حتى" هذه تفيد الغاية، فهذا حكم قد عُلق على شرط، والحكم المعلق على شرط يزيد بزيادته وينقص بنقصانه، فإذا عُدم الشرط عُدم المشروط، أي: إذا عُدم الإنفاق مما نُحب وهو الشرط، لن يتحقق لنا هذا المرجو وهو أن ننال البر وهو المشروط، فتقديم محاب الله تعالى عموما شرط في بلوغ المشروط وهو مقامات البر، وكلَّما زاد تقديم محاب الله تعالى زاد بلوغ مقامات البر، فهو حكم يزيد بزيادة الشرط، وينقص بنقصانه، وينعدم بانعدامه.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه، وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها، وتقلبها في رياض هذه المعرفة، وميادينها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، أحبه لا محالة، ولهذا كانت المعطلة، والفرعونية، والجهمية قطاع الطريق على القلوب بينها وبين الوصول إلى المحبوب.

وهذا لقول الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[الإسراء: 110]، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: 180]، فهذا أمر بالدعاء بأسماء الله تعالى الحسنى، ويتعلق بالدعاء بها معرفتها، ويزيد بيان ذلك في قوله تعالى: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} الإلحاد الميل عن الحق، وهو التحريف المعنوي، وهو العدول عمَّا هي عليه حقيقة، وهو التأويل الفاسد، كقولهم في صفة الاستواء باستولى، فحملوها من حقيقتها إلى غيرها من المعاني التي تهوى أنفسهم، قال الطبري: وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها

"اللات" اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو "الله"، وسموا بعضها "العُزَّى" اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو العزيز[1].

ومن ذلك ما نراه أيضا من بعض الصوفية، حيث نسبوا لله أسماء ما أنزل الله تعالى بها من سلطان، كقولهم: (أه) هي اسم الله، والضمير (هو) يدعون أنه اسم لله تعالى، فالإلحاد يكون بالتغيير بالزيادة أو النقصان أو النسبة حيث تنسب شيء لشيء لم يكن فيه فقد حرَّفته.

ودلالة النهي عن الإلحاد في الآية تستوجب لزاما العلم بحقيقة الأسماء ومعانيها ومقتضاها، وهو كذلك في صفاته سبحانه، وسوف يأتي الكلام عن كل هذا لاحقا.

السادس: مشاهدة برِّه سبحانه وإحسانه وآلائه ونعمه الظاهرة والباطنة، فإنها داعية إلى محبته.

السابع: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى، بقبول الابتلاء بالرضى.

الثامن: الخلوة بالله تعالى وقت النزول الإلهي؛ لمناجاته، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب، والتأدب لأدب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار، والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، كما ينتقى أطايب الثمر، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عز وجل[2].

فمن هذه الأسباب العشرة: وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

وملاك ذلك كله أمران: استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة.

وكل ما سبق هو رأي ابن القيم رحمه الله تعالى.

وأقول: إنَّ بلوغ مقامات المحبين يدور على وجهين:

الوجه الأوَّل: يحتمل أربعة أحوال يُنهى عن الإكثار منها وهي:

الحال الأول: قلة الكلام.

ففي قلة الكلام السلامة من الآفات.

الحال الثاني: قلة المنام.

ففي قلة المنام صفو الإرادات.

---

[1] ينظر تفسير الطبري.

[2] مد ارج السالكين 17/3.

الحال الثالث: قلة الطعام.

ففي قلة الطعام الشفاء من العلات[1].

الحال الرابع: احتمال الأذى من الأنام (كظم الغيظ).

ففي احتمال الأذى من الأنام علو الدرجات.

الوجه الثاني: ويحتمل أربع أحوال يرجى الإكثار منها وهي:

الحال الأول: إطعام الطعام.

ففي إطعام الطعام مقام أهل الصدقات.

الحال الثاني: الصلاة والناس نيام.

وفي الصلاة والناس نيام، علو المقامات.

الحال الثالث: إدمان الصيام.

وفي إدمان الصيام تهذيب النفس من الآفات.

الحال الرابع: الجهاد فهو ذروة السنام.

وفي الجهاد بلوغ أقصى الغايات.

الشرح:

الوجه الأول: الأحوال التي يرجى التقليل منها:

والمراد بهذه الأحول الأربعة هو أن يأتي بها مريد قرب الله تعالى بعد الفرائض والمندوبات، وإلا فما هو إلا تعب بلا فائدة، إذ لا نافلة بلا فرض، كما لا إحسان بلا إسلام.

الحال الأوَّل: قلة الكلام:

ففي قلة الكلام السلامة من الآفات: يقول النبي ﷺ: {وَهَل يَكُبُّ النَّاسَ في النَّارِ على وجوهِهِم أو على مَناخِرِهِم إلَّا حَصائدُ ألسنتِهِم}[2].

[1] المفرد علة: والجمع علل وعلات، ينظر: معاجم اللغة العربية.

[2] صحيح أخرجه الترمذي **2616**.

فلا يجب على طالب قرب الله تعالى أن يكون كثير الكلام؛ فإنَّ اللهَ تعالى يبغضُ كلَّ جَعْظَرِيٍّ جَوَّاظٍ، صَخَّابٍ في الأسْواقِ[1].

كذلك فإن في كثرة الكلام الوقوع في الكذب: فعن عبد الله بن مسعود عن النبي ﷺ: قال: {عليكم بالصِّدقِ فإنَّ الصِّدقَ يَهدي إلى البرِّ وإنَّ البرَّ يَهدي إلى الجنَّةِ وما يزالُ الرَّجلُ يصدقُ، ويتحرَّى الصِّدقَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ صدِّيقًا وإيَّاكم والكذبَ فإنَّ الكذبَ يَهدي إلى الفجورِ، وإنَّ الفجورَ يَهدي إلى النَّارِ، وما يزالُ العبدُ يَكذبُ ويتحرَّى الكذبَ حتَّى يُكتبَ عندَ اللهِ كذَّابًا}[2].

وكما أنَّ في كثرة الكلام كثرة الحلف بالله تعالى ولو كان صادقا: يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: 10]، والمهين فيه ثلاثة أقوال مختلفة اختلاف تنوع يجوز فيها المعاني الثلاثة:

- فالمهين هو الكذاب كما قال ابن عباس.
- والمهين هو ضعيف القلب، كما قال مجاهد.
- وهو المكابر الضعيف كما قال الحسن[3].

---

[1] الترغيب والترهيب للمنذري 378 حسن لغيره يشهد له ما أخرجه أحمد في مسنده بسند صحيح عن عطاء بن يسار، قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاصي، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، فقال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة بصفته في القرآن: {يَا أَيُّها النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} وحرزا للأميين، وأنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولا غليظ، ولا سخاب بالأسواق – قال يونس: ولا صخاب في الأسواق – ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح بها أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، قال عطاء: لقيت كعبا فسألته، فما اختلفا في حرف، إلا أن كعبا يقول بلغته: أعينا عمومى، وآذانا صمومى، وقلوبا غلوفى – قال يونس: غلفى 6622 وصححه الأرناؤوط، فهو يشهد لحديث الباب بالمعنى فيحسنه.

ومعنى الجعظري–كما قال أهل العلم–: المتكبر الجافي عن الموعظة، وقيل: الفظ الغليظ.

والجواظ: هو الأكول الشروب البطِر الكفور.. وقيل: الجعظري: هو الذي يتنفخ بما ليس عنده. والجواظ: المختال في مشيه الغليظ الفظ.

والسخاب:– بالسين والصاد– كثير الخصام ، والسخب في الأسواق كثرة الخصام ورفع الصوت فيها.

[2] أخرجه الترمذي (1971) واللفظ له، وأخرجه البخاري (6094)، ومسلم (2607) باختلاف يسير.

[3] ينظر: تفسير ابن كثير.

كما أنَّ في كثرة الكلام الوقوع في الهمز والنميمة: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾[القلم: 11].

والهمَّاز هو: الذي يغتاب الناس، ورَجُلٌ هَمَّازٌ: صيغة مبالغة من همَزَ: هُمَزة؛ عيّاب طعّان في أعراض الناس[1].

والنمَّام: صيغة مبالغة من نَمَّ/ نَمَّ عن: كثير السَّعي بالنَّميمة بين النَّاس ليوقِعَ بينهم.

والنَّمَّامُ: واشٍ، ناشر الإشاعات والأكاذيب.

فالنمام هو الذي يوقع بين الناس بالكذب، وهو نفسه القتات، والقتات: فاعل من قَتَّ، ورَجُلٌ قَتَّاتٌ : نَمَّامٌ، مُخْبِرٌ[2]، فهو يجمع بين الإخبار للأمراء، ولعلَّ القتات صدقه أكثر من كذبه في جمع الأخبار، والنمَّام كذبه أكثر من صدقه في نشر الأخبار.

فعن الهمام بن الحارث قال: كُنَّا جُلُوسًا مع حُذَيْفَةَ في المَسْجِدِ، فَجاءَ رَجُلٌ حتَّى جَلَسَ إلَيْنا فقِيلَ لِحُذَيْفَةَ: إنَّ هذا يَرْفَعُ إلى السُّلْطانِ أشْياءَ فقالَ حُذَيْفَةُ إرادَةَ أنْ يُسْمِعَهُ: سَمِعْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: {لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَتّاتٌ}[3].

وفي رواية لمسلم: {لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نَمَّامٌ}[4].

وعن عمرَ أنه دخل يومًا على أبي بكرٍ الصدِّيقِ، وهو يجبِذُ لسانَه! فقال عمرُ: مَهْ! غفر اللهُ لك فقال له أبو بكرٍ: إنَّ هذا أوردَني المواردَ[5].

وكان أعرابي يُجالس الشَّعبي يُطيل الصمت، فسُئل عن طول صمته، فقال: أسمع فأعلم، وأسكت فأسلم.

وقالوا: لو كان الكلام من فِضة لكان السكوت من ذهب.

وقالوا: مَقتل المرء بين لَحيَيه وفكَّيه[6].

---

[1] ينظر: معجم المعاني الجامع.

[2] ينظر: معجم المعاني الجامع.

[3] أخرجه البخاري 6056، ومسلم 105.

[4] أخرجه مسلم 105

[5] الترغيب والترهيب للمنذري 2873، وصححه الألباني.

[6] ينظر: البيان والتبيين للجاحظ 113/1. واللحيين: العظمان في جانبي الفم.

وعن سهل بن سعد الساعدي، عن النبي ﷺ قال: {مَن يَضْمَن لي ما بيْنَ لَحْيَيْهِ وما بيْنَ رِجْلَيْهِ، أضْمَنْ له الجَنَّةَ}[1].

فإن شر اللسان وما ينجر عنه من سيء الكلام عظيم، والسكوت أولى، وقول لا أدري لما تدري شرف، وقول لا أعلم لما تعلم علو، والسكوت بذكر خفي ومعه فكر لا أعلى منه في باب العبادة، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾[الأعراف: 205]، ويقول تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[آل عمران: 191].

علاج اللسان وكثرة الكلام:

لا شكَّ أنَّ العلَّة تعالج بنقيضها، فاللسان إن لم تشغله بالذكر شُغل بالنميمة والغيبة والكذب، والكلام إن لم يكن ذكرا لله تعالى أو درسا أو نصيحة، فلا شكَّ أنه سيكون لغوا وكذبا ونميمة. فيجب على المسلم أن يشغل لسانه بالذكر؛ فإن سكت فيشغل ذهنه بالفكر؛ فإن فعل هذا وأدمن الذكر مع الفكر، وقد سلك طريق أولياء الله الصالحين الحق، وسيرى كرامات السابقين تجري على لسانه، فلا ينطق إلا بحق وصدق، فينطق بالله وفي الله ولله تعالى ولا غير ذلك، ثمَّ تتدفق الحكمة على لسانه فيكون مؤيدا بالله تعالى: كما قال النبي ﷺ في ما يخبر عن ربه تعالى: {إنَّ اللَّهَ قالَ: مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ}[2].

فيالها من عطية أن تكون كل جوارح المسلم لله وبالله وفي الله تعالى.

---

[1] أخرجه البخاري **6474**.

[2] صحيح أخرجه البخاري **6502**.

كما يجب أن يعلم أنَّ أوَّل مبادئ السلوك هو صون اللسان، وهو منهج الصحابة، فيروى أنَّ أبا بكرٍ الصِّدِّيقَ رَضِيَ اللَّهُ عنه كان يَضَعُ حَصاةً في فيه، يمنَعُ بها نفسَه عن الكلامِ، وكان يشيرُ إلى لسانِه ويقولُ: هذا الذي أوردني الموارِدَ[1].

ورُئِيَ ابنُ عبَّاسٍ آخِذًا بلسانِه، وهو يقولُ: وَيْحَك! قُلْ خيرًا تغنَمْ، أو اسكُتْ عن سوءٍ تَسلَمْ، وإلَّا فاعلَمْ أنَّك ستندَمُ، قال: فقيلَ له: يا ابنَ عبَّاسٍ، لمَ تقولُ هذا؟ قال: إنَّه بلغني أنَّ الإنسانَ -أُراه قال- ليس على شيءٍ من جَسَدِه أشَدَّ حَنَقًا أو غيظًا يومَ القيامةِ منه على لسانِه إلَّا ما قال به خيرًا، أو أملى به خيرًا[2].

وعن زيدِ بنِ أسلَمَ: أنَّه دخل على أبي دُجانةَ وهو مريضٌ، وكان وجهُه يتهَلَّلُ، فقال له: ما لك يتهَلَّلُ وجهُك؟ قال: ما من عَمَلِ شَيءٍ أوثَقُ عندي من اثنينِ: أمَّا أحَدُهما فكنتُ لا أتكَلَّمُ بما لا يَعنيني، وأمَّا الأُخرى فكان قلبي للمُسلِمين سليمًا[3].

الحال الثاني: قلة المنام:

والمراد بقلة المنام هو: قلة النوم، ففي قلة النوم صفوُّ الإرادات، فيعلم السالك لطريق محبة الله تعالى ماذا يريد، ويصفى له الطريق من الشوائب المانعة من السلوك، ومن الأهواء، فأهل قلة المنام هم قلة قليلة ذكرهم الله تعالى في كتابه العزيز فأثنى عليهم بأحسن الثناء، فقال:

﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: 17 – 18].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ذُكِرَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ رَجُلٌ، فَقِيلَ: مَا زَالَ نَائِمًا حَتَّى أَصْبَحَ، مَا قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: {ذَاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيْطَانُ فِي أُذُنِهِ}[4].

---

[1] أخرجه مالك (988/2)، والبزار (84)، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (4947). صحَّحه الألباني في ((صحيح الترغيب)) (2873).

[2] رواه من طرقٍ: أحمد في ((فضائل الصحابة)) (1846)، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (439)، وأبو نعيم في ((حلية الأولياء)) (1/ 328).

[3] أخرجه ابن وهب في ((الجامع)) (319) واللفظ له، وابن سعد في ((الطبقات الكبرى)) (4577)، وابن أبي الدنيا في ((الصمت)) (113).

[4] أخرجه البخاري (1144) ومسلم (774) والنسائي (1608) وابن حبان (2562).

وقد كره أهل العلم كثرة النوم؛ لأنه دليل على الكسل والخمول، وفيه تضييع الأوقات وفوات الطاعات، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله تعالى في مدارج السالكين خمس مفسدات للقلب فذكر منها: الْمُفْسِدُ الْخَامِسُ: كَثْرَةُ النَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ يُمِيتُ القَلب، وَيُثَقِّلُ البَدَنَ، وَيُضِيعُ الوَقتَ، وَيُورِثُ كَثرَةَ الغَفلَةِ وَالكَسَلِ، وَمِنهُ المَكرُوهُ جِدًّا، وَمِنْهُ الضَّارُّ غَيْرُ النَّافِعِ لِلبَدَنِ، وَأَنْفَعُ النَّومِ مَا كَانَ عِندَ شِدَّةِ الحَاجَّةِ[1].

ومن كثرة النوم ما هو مكروه، ومنه ما هو محرَّم:

أمَّا المكروه منه، فهو على قسمين:

- كراهة إرشادية.
- وكراهة شرعية.

ويمكن اعتباره أيضا:

- مكروها لكسبه أي: لغيره.
- ومكروها لذاته.

أمَّا المكروه لغيره:

فهو النوم بعد صلاة الصبح، وقلنا أنه مكروه لغيره؛ لأنَّ النوم في أصله مباح ولو في ذلك الوقت، ولكن لمَّا انجرَّ عن النوم في ذلك الوقت خسارة عمل عظيم وثواب جزيل، كان مكروها لغيره، وهذا لما رواه أنس بن مالك عن النبي ﷺ: قال: {مَن صلى الفجرَ في جماعةٍ، ثم قَعَد يَذْكُرُ اللهَ حتى تَطْلُعَ الشمسُ، ثم صلى ركعتينِ، كانت له كأجرِ حَجَّةٍ وعُمْرَةٍ تامَّةٍ، تامَّةٍ، تامَّةٍ}[2]، ولا شكَّ أنَّ ترك هذا الفضل العظيم بالكلية مكروه.

وأمَّا المكروه لذاته:

فهو النوم بين المغرب والعشاء، فعن أبي بزرة الأسلمي نضلة بن عبيد قال: {كانَ النَّبيُّ ﷺ: يكرَهُ النَّومَ قبلَ العِشاءِ، والحديثَ بعدَها}[3].

---

[1] مدارج السالكين لابن القيم 96/2.

[2] صحيح أخرجه الترمذي (586)، والبغوي في ((شرح السنة)) (710)، وصححه الألباني.

[3] أخرجه البخاري (547)، ومسلم (647)، والترمذي 168 واللفظ له.

وأمَّا المحرَّم منه:

فهو ما يحمل صاحبه عن الكسل عن الواجبات، ومنها الصلاة فلا يقوم لها ترجيحا للنوم عليها والمؤذن يقول (الصلاة خير من النوم)، فمن سمع ذلك ولم يقم لها وآثر النوم عليها، فقد خسر خسرانا كبيرا، ومنهم من يقوم ولكنه يقوم متكاسلا وكارها، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾[التوبة: 54]، يقول السعدي: {وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى} أي: متثاقلون، لا يكادون يفعلونها من ثقلها عليهم[1].

وقال ابن كثير: ليس لهم قصد صحيح، ولا همة في العمل[2].

وأقول: إن كان هذا الكلام على من يأتون الصلاة وهم كسالى، والكلام هاهنا ليس على المنافقين خاصة، فالآية تؤخذ بعموم اللفظ لا بخصوص الشخص أو الأشخاص، أو الجنس، بل هي تعم كل من حقَّ عليه الوصف، فإن كان هذا حال من يأتي الصلاة متكاسلا فكيف حال من يسمع الأذان ويختار النوم، فلا شكَّ أنه قد وقع في محظور عظيم.

وأمَّا من يصعب عليه القيام للفجر، لكنه مع ذلك يجاهد نفسه ويقوم ولو يتهادى بين الناس من النوم، فهذا له أجر أعظم من النشيط، لأن الجزاء من جنس العمل، كما أنَّ الأجر على قدر المشقة، قال النبي صلى ﷺ لعائشة رضي الله عنها : {إنَّ لكِ منَ الأجرِ علَى قدرِ نصبكِ ونفقتكِ}[3].

وعند البخاري ومسلم: {... ولكِنَّهَا علَى قَدْرِ نَفَقَتِكِ أوْ نَصَبِكِ}[4].

قال النووي في شرح مسلم: قَوْله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : {عَلَى قَدْر نَصَبك أَوْ قَالَ: نَفَقَتك} هَذَا ظَاهِر فِي أَنَّ الثَّوَاب وَالفَضْل فِي العِبَادَة يَكْثُر بِكَثْرَةِ النَّصَب وَالنَّفَقَة، وَالمُرَاد النَّصَب الَّذِي لا يَذُمّهُ الشَّرْع، وَكَذَا النَّفَقَة. اهـ

---

[1] يُنظر: تفسير السعدي

[2] يُنظر: تفسير ابن كثير.

[3] رواه الحاكم وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (1116) وأصل الحديث في الصحيحين.

[4] أخرجه البخاري (1787)، ومسلم (1211).

لأنَّ اتعاب النفس في العبادة قصدا هذا مكروه شرعا فهو من التكلف، فعَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: {إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ}[1].

وكذلك كثرة الإنفاق، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾[الإسراء: 29]، أي: كن وسطا لا بخيل ولا مبذر.

وكذلك يجب أن يعلم أنَّ قاعدة: (الأجر على قدر المشقة) ليست عامة الاطراد، بل هناك من الأعمال ما هو أخف وأعظم أجراً.

من ذلك: {أنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ مِن عِندِ جويرية بُكْرَةً حِينَ صَلَّى الصُّبْحَ وَهي في مَسْجِدِهَا، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهي جَالِسَةٌ، فَقالَ: ما زِلْتِ علَى الحَالِ الَّتي فَارَقْتُكِ عَلَيْهَا؟ قالَتْ: نَعَمْ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: لقَدْ قُلتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، لو وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليَومِ لَوَزَنَتْهُنَّ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ، وَرِضَا نَفْسِهِ، وَزِنَةَ عَرْشِهِ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ}[2].

فلاحظ أنَّ هذا العمل قليل، فهي أربع كلمات، عدلت ما سبحته جويرة من صلاة الفجر إلى الضحى، فالحكمة والفضل في اتباع النبي ﷺ.

وعودا بدء: فلا شكَّ أنَّ في كثرة النوم أضرارا مادية ومعنوِّية، فأمَّ الماديَّة: فمنها وهن الجسم من جرَّاء حرق السكَّريَّت حال كثرة النوم، وأما المعنوية: فإنَّ كثرة النوم تورث الاستهتار بكل شيء ولو عظُم، يقول ابن القيم: المفسد الخامس: كثرة النوم، فإنَّه يُميت القلب، ويثقِّل البدن، ويضيع الوقت، ويورث كثرة الغفلة والكسل، ومنه المكروه جدًّا، ومنه الضَّارُّ غير النافع للبدن[3].

ملاحظة:

فإنَّ ترك النوم المهلك للجسد محرَّم؛ فهو من باب إلقاء النفس في التهلكة؛ فإنَّ الله تعالى جعل النوم ليرتاح به جسم البشر وأباحه للناس بل وندبه وأوجبه في أحوال، أما ندبه فهو

---

[1] رواه البخاري (39) ومسلم (2816).

[2] أخرجه مسلم: 2726، أخرجه أبو داود (1503)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (9989)، وابن حبان (832)، وابن خزيمة في التوحدي: 394.

[3] مدارج السالكين 96/2.

القيلولة، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: {قيلوا فإن الشيطان لا يقيل}[1]، وأما الواجب منه، فهو ما يلزم للجسم منه كي لا يهلك، وأما ما يفعل بعض غلاة الصوفية من ترك النوم بالكلية فهو حرام، لما جاء عن أنس بن مالك قال: {جَاءَ ثَلَاثَةُ رَهْطٍ إلى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عن عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقالوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟! قدْ غُفِرَ له ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِهِ وما تَأَخَّرَ، قالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فإنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وقالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ولَا أُفْطِرُ، وقالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فلا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ إليهِم، فَقالَ: أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلتُمْ كَذَا وكَذَا؟! أَمَا واللَّهِ إنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ وأُفْطِرُ، وأُصَلِّي وأَرْقُدُ، وأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فمَن رَغِبَ عن سُنَّتي فليسَ مِنِّي}[2].

والله تعالى يقول: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[يونس: 67]، قال الطبري: إنّ ربكم أيها الناس الذي استوجب عليكم العبادة، هو الرب الذي جعل لكم الليل وفصله من النهار، لتسكنوا فيه مما كنتم فيه في نهاركم من التَّعب والنَّصب، وتهدؤوا فيه من التصرف والحركة للمعاش والعناء الذي كنتم فيه بالنهار[3].

قال ابن القيم: وأنفع النَّوم ما كان عند شدَّة الحاجة إليه، ونومُ أوَّل الليل أحمدُ وأنفعُ من آخره، ونومُ وسط النهار أنفعُ من طَرَفيه، وكلَّما قَرُب النوم من الطَّرَفين قلَّ نفعه وكَثُر ضرره، ولاسيَّما نوم العصر والنوم أوَّلَ النهار إلَّا لسهران[4].

وعلى كل حال فإن قلة النوم خير من كثرته وصدق الشاعر في قوله:

ألا انهض وسر في سبيل الحياة * فمن نام لن تنتظره الحياة[5]

ومن أهل العلم من قسَّم النوم ما دون نوم الليل إلى ثلاثة أقسام وهي:

---

[1] حسن لغيرهع بكثرة طرقه، أخرجه أبو نعيم في " الطب " (12/ 1)، و الطبراني في " الأوسط " (رقم – 2725 ج 1/ 3 / 1)، ابن نصر في " قيام الليل " (ص 40)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة 202/4 وصحيح الجامع 4431.

[2] أخرجه البخاري 5063.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

[4] مدارج السالكين 97/2. (لم يثبت شيء عن كراهة نوم بعد العصر، ويمكن أن يكون ابن القيم اعتمد على تجارب طبية).

[5] أبو القاسم الشَّابِّي الهذلي الملقب بشاعر الخضراء (24 فبراير 1909 – 9 أكتوبر 1934م).

- الحيْلولة.
- القيْلولة.
- العيْلولة.

أما الحيلولة: وهي نومة بعد صلاة الصبح، وسميت بذلك لأنها تحول بين المرء وبين رزقه، وأنها تحول بينه وبين فضل الذكر في ذلك الوقت كما سبق وذكرنا.

وأما القيلولة: وهي نومة بعد الظهر، سميت بذلك؛ لأنها من قال، واستقال، أي: ارتاح واسترخى، وقال النبي ﷺ: قيلوا فإن الشيطان لا يقيل[1].

وأما والعيلولة: فهي نومة بعد المغرب، وقد سميت بذلك؛ لأنَّ تصيب الإنسان بالعلل والتعب ولا تفيد شيئا.

وأمَّا نومة ما بعد العصر: فقد كرهها بعض أهل العلم، وأباحه البعض الآخر، ولم أجد لها ذكرا في السنَّة إلا حديثا موضوعا وفيه: من نام بعد العصر فاختلس عقله فلا يلومن إلا نفسه. وهذا حديث ضعفه الألباني، وابن حبان[2].

فأما الذين كرهوا نومة بعد العصر استدلوا بالحديث السابق، أو بعض آثار السلف، أو التجارب الطبية.

أما الحديث السابق فهو مكذوب، وأما آثار السلف فإن صحَّت دون مخالف لهم منهم، فيجب اتباع التابعين في آرائهم والصحابة أولى بالاتباع، فقد جاء عن خَوَّات بن جبير من الصحابة أنه قال عن النوم بعد آخر النهار إنه حُمق. (يريد بعد المغرب)

---

[1] حسن لغيرهع بكثرة طرقه، أخرجه أبو نعيم في " الطب " (12/ 1)، و الطبراني في " الأوسط " (رقم – 2725 ج 1/ 3 / 1)، ابن نصر في " قيام الليل " (ص 40)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة 202/4 وصحيح الجامع 4431.

[2] قال الألباني في "سلسلة الأحاديث الضعيفة" (112/1/حديث رقم 39 ضعيف.

أخرجه ابن حبان في "الضعفاء والمجروحين" (1 / 283) من طريق خالد بن القاسم عن الليث بن سعد عن عقيل عن الزهري عن عروة عن عائشة مرفوعا.

أورده ابن الجوزي في " الموضوعات " (3 / 69) وقال : لا يصح ، خالد كذاب، والحديث لابن لهيعة فأخذه خالد ونسبه إلى الليث.

وجاء عن مكحول من التابعين أنه كان يكره النوم بعد العصر، ويخاف على صاحبه من الوسواس[1].

ونقل المروذي قال: سمعت أبا عبد الله – يعني الإمام أحمد بن حنبل – يكره للرجل أن ينام بعد العصر، يخاف على عقله[2].

وأما البعض الآخر يرى، إباحة النوم بعد العصر، لأن الكراهة حكم شرعي لا يؤخذ إلا من نقل صحيح أو إجماع، وقد أنكر الليث ابن سعد المصري، الإمام المحدث الفقيه المعروف بعلمه وفقهه، وقد قيل فيه أنه أحفظ وأفقه من مالك بشهادة مالك نفسه، وقد سأله أحدهم: مالك تنام بعد العصر؟ قال: لا أدع ما ينفعني بحديث ابن لهيعة عن عقيل[3].

وقد أباح النوم بعد العصر، الألباني، وابن باز رحمهما الله تعالى[4].

ولم يبقى بهذا إلا الطب والتجارب، فإن ثبت أنَّ نومة ما بعد العصر تضر بالبدن فيكره النوم فيه، ولا أراها تضر بالبدن، على أن يكون النائم بعد العصر محتاجا للنوم فيه، بل سيكون نافعا حينها، ولو كان نوم العصر مكروها، لكره النوم بين صلاة ركعتي الفجر وصلاة الصبح فهي أولى بالكراهة لقلة الاسترخاء فيه، وانشغال الفكر بانتظار صلاة الصبح، مما ينجر عنه اضطراب الدماغ ما بين خوف فوات صلاة الصبح وإرادة الراحة، ومع ذلك فنومة ما بين الفجر والصبح سنة متبعة.

ونخرج بهذا: أنه لا دليل على كراهة نومة ما بعد العصر، فنبقى على رأي الليث بن سعد وغيره وهو الإباحة.

علاج كثرة النوم:

لا علاج لكثرة النوم إلا بالدوام على قيام الليل، مع المحافظة على صلاة الفجر في جماعة، وخير قيام الليل ما أوصى به النبي ﷺ حيث قال: {إنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إلى اللهِ، صِيَامُ دَاوُدَ،

---

[1] انظر "مصنف ابن أبي شيبة" (339/5).

[2] نقله ابن مفلح في "الآداب الشرعية" (159/3) وابن أبي يعلى في طبقات الحنابلة (22/1).

[3] ينظر: "السلسلة الضعيفة" (حديث رقم/39)

[4] ينظر: فتاوي الجامع الكبير لابن باز

وَأَحَبَّ الصَّلَاةِ إلى اللهِ، صَلَاةُ دَاوُدَ عليه السَّلَام، كانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، ويقومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَكانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا}[1].

فقد كان داود عليه السلام، يقسم الليل ستة أسداس، فينام نصف الليل وهو ثلاثة أسداس، ويقوم ثلث الليل وهو سدسان، فلم يبقى إلا السدس الأخير فينامه.

فمن اعتاد على هذا أو شبه هذا، بأن يقوم في وسط الليل فيصلي ما شاء الله له أن يصلي، مع المحافظة على صلاة الفجر في جماعة، فإن جسده سيعتاد على كسر عسل النوم، ويهون عليه الاستيقاظ متى أراد، والله أعلم.

الحال الثالث: قلة الطعام:

ولا شك أنَّ قلة الطعام فيه شفاء العلل، وقد سمى أهل الطب البطن: بيت الداء، فكلما امتلأت زاد الداء، وكلما فرغت نقص الداء.

ولقلة الطعام فوائد حسية ومعنوية لا تحصى ولا تعد:

أما الحسية: فإنَّ الحمية الصحيَّة علاج لكثير من الأمراض حتى أنها تقلل من انتشار الورم الخبيث، قال ابن كثير وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: 31]، قال بعض السلف: جمع الله الطب كله في نصف آية: {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا}[2].

وقال النبي ﷺ: {ما ملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا من بطنِه حسْبُ ابنِ آدمَ أُكلاتٌ يُقمْنَ صلبَه فإن كان لا محالةَ فثُلثٌ لطعامِه وثلثٌ لشرابِه وثلثٌ لنفسِه}[3].

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله تعالى: هذا الحديث أصل جامع لأصول الطب كلها[4].

---

[1] أخرجه البخاري 1131، ومسلم 1159 واللفظ له.

[2] ينظر: تفسير ابن كثير.

[3] أخرجه الترمذي (2380)، والنسائي في ((السنن الكبرى)) (6769)، وابن ماجه (3349)، وأحمد (17186) واللفظ له.

[4] جامع العلوم والحكم ص503.

وأما المعنوية: فإنَّ قلة الطعام المنجر عنه الجوع غير المهلك: يطيِّب النفس ويرقق القلب وينقص وسواس الشيطان، وخير الجوع، جوع الصوم، فعن سهل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: {إن في الجنة بابًا يُقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق، فلن يدخل منه أحد}[1].

وعَنْ نَافِعٍ قَالَ: كَانَ ابْنُ عُمَرَ لاَ يَأْكُلُ حَتَّى يُؤْتَى بِمِسْكِينٍ يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَدْخَلْتُ رَجُلًا يَأْكُلُ مَعَهُ، فَأَكَلَ كَثِيرًا، فَقَالَ: يَا نَافِعُ! لاَ تُدْخِلْ هَذَا عَلَيَّ، سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: {الْمُؤْمِنُ يَأْكُلُ فِي مِعًى وَاحِدٍ وَالْكَافِرُ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أَمْعَاءٍ}[2].

قال النووي في شرح هذا الحديث، قال العلماء: ومقصود الحديث التقليل من الدنيا، والحث على الزهد فيها والقناعة، مع أن قلة الأكل من محاسن أخلاق الرجل، وكثرة الأكل بضده، وأما قول ابن عمر في المسكين الذي أكل عنده كثيرا: "لا يدخلن هذا علي"؛ فإنما قال هذا لأنه أشبه الكفار، ومن أشبه الكفار كرهت مخالطته لغير حاجة أو ضرورة؛ ولأن القدر الذى يأكله هذا يمكن أن يسد به خلة جماعة[3].

وقال سُفيانُ الثَّوريُّ: إيَّاكم والبِطنةَ؛ فإنَّها تقسِّي القَلبَ، واكظِموا الغَيظَ، ولا تُكثِروا الضَّحِكَ؛ فإنَّه يُميتُ القُلوبَ[4].

وقال لقمان عليه السلام لابنه: يا بني إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء عن العبادة[5].

وقال عليه السلام: لا تأكل شبعا فوق شبع؛ فإنك أن تنبذه إلى الكلب خير لك[6].

---

[1] أخرجه البخاري رقم: (1797)، ومسلم رقم: (1152).

[2] رواه البخاري (5393) ومسلم (2060).

[3] شرح النووي لمسلم (25/14).

[4] ((حلية الأولياء)) لأبي نعيم (7/ 36).

[5] تنبيه الخواطر لأبي الحسين ورام ابن أبي فراس المالكي 102/1. وجامع الأخبار لأبي جعفر محمد بن علي بن بابويه القمي المعروف بالشيخ الصدوق (حدود 306 هـ – 381 هـ) / (923 م – 991 م).

[6] مصنف عبد الرزاق 212/10 – 19539، والدر المنثور للسيوطي 515/1.

ويروي لنا أنس بن مالك قال: {جِئْتُ رَسولَ اللهِ ﷺ يَوْمًا فَوَجَدْتُهُ جَالِسًا مع أَصْحَابِهِ يُحَدِّثُهُمْ، وَقَدْ عَصَّبَ بَطْنَهُ بعِصَابَةٍ، قالَ أُسَامَةُ: وَأَنَا أَشُكُّ علَى حَجَرٍ، فَقُلْتُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ لِمَ عَصَّبَ رَسولُ اللهِ ﷺ بَطْنَهُ؟ فَقالوا: مِنَ الجُوعِ،...الحديث[1].

علاج كثرة الأكل:

لا شكَّ أنَّ علاج كثرة الأكل لا يكون إلا بنقيضه برياضة نفسية، وهو أن يصوم ابتداء ثلاثة أيام كل شهر التي أوصى بها النبي ﷺ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: {أَوْصَانِي خَلِيلِي ﷺ بثَلَاثٍ: بصِيَامِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهْرٍ...الحديث}[2].

فإنِ اعتاد على ذلك صام يومي الإثنين والخميس من كل أسبوع ويعزل ثلاثة الأيام من كل شهر، لقول النبي ﷺ: {تُعرَضُ الأعمالُ يومَ الاثنينِ والخميسِ فأحبُّ أن يُعرَضَ عملي وأنا صائمٌ}[3].

فإنِ اعتاد على ذلك زاد على يوم الإثنين والخميس من كل أسبوع ثلاثة أيام من كل شهر، وزاد أيام السنن المعروفة وهي: العشر من ذي الحجة دون يوم النحر ولا أيام التشريق، لقول النبي ﷺ: {ما العمَلُ في أيَّامِ العَشرِ أفضَلُ مِن العمَلِ في هذه} قالوا: ولا الجهادُ؟ قال: {ولا الجهادُ، إلا رجلٌ خرج يخاطِرُ بنَفسِه ومالِه فلم يرجِعْ بِشَيءٍ}[4].

والصوم يندرج تحت العمل الصالح.

ويوم عرفة لغير الحاج، لقول النبي ﷺ:{صيامُ يوم عرفةَ، أحتسِبُ على اللهِ أن يُكَفِّرَ السَّنةَ التي قَبْلَه، والسَّنةَ التي بَعْدَه}[5].

وعشوراء، فعنِ ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما: أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قَدِمَ المدينةَ فوجَدَ اليهودَ صيامًا يومَ عاشُوراءَ، فقال لهم رَسولُ اللهِ ﷺ: {ما هذا اليومُ الذي تصومُونَه؟} فقالوا: هذا يومٌ عظيمٌ

---

[1] أخرجه مسلم 2040.

[2] رواه مسلم 721.

[3] صحيح أخرجه الترمذي (747) واللفظ له، وابن ماجه (1740)، وأحمد (8343) بنحوه وصححه الألباني.

[4] رواه البخاري (969).

[5] رواه مسلم (1162).

أنجى اللهُ فيه موسى وقَومَه، وغَرَّقَ فِرعَونَ وقَومَه، فصامَه موسى شُكرًا؛ فنَحن نصومُه، فقال رسولُ الله ﷺ: {فنَحنُ أحَقُّ وأَوْلى بمُوسى منكم}، فصامَه رسولُ اللهِ ﷺ، وأمَرَ بِصيامِه[1].

وتاسوعاء، لقول النبي ﷺ: {لئِن بقيتُ إلى قابلٍ، لأَصُومنَّ التَّاسِعَ}[2].

وست من شوال، لقول النبي ﷺ: {من صامَ رَمَضانَ، ثم أتبَعَه ستًّا من شوَّال، كان كصيامِ الدَّهرِ}[3].

وصوم ما تيسَّر من شعبان، فعن عائشةَ رَضِيَ الله تعالى عنها قالت: {ما رأيتُ رَسولَ الله ﷺ أكثَرَ صيامًا منه في شَعبانَ}[4].

وما تيسر من شهر محرَّم، فقد سُئِلَ– أي النبيُّ ﷺ أيُّ الصَّلاةِ أفضَلُ بعد المكتوبةِ؟ وأيُّ الصِّيامِ أفضَلُ بعد شَهرِ رمضانَ؟ {فقال: أفضَلُ الصَّلاةِ بعد الصَّلاةِ المكتوبةِ، الصَّلاةُ في جَوفِ اللَّيلِ، وأفضَلُ الصِّيامِ بعد شَهرِ رَمَضانَ، صِيامُ شَهرِ اللهِ المُحَرَّم}[5].

فإنِ اعتاد على ذلك وأراد خيرا من مما سبق، بأن يجمع فضل كل ما سبق، فهو صيام يوم بيوم، وهو خير الصيام لا صيام أحسن منه في التطوع لقول النبي ﷺ:

{...إنَّ أَحَبَّ الصِّيَامِ إلى اللهِ، صِيَامُ دَاوُدَ... ويصومُ يومًا ويُفطِرُ يَومًا}[6].

فلا صيام أحب إلى الله تعالى من صوم يوم بيوم، فمن اعتاد كل ما سبق أو شيئا منه، وداوم عليه؛ فإنَّ: {أَحَبّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْومُها وإن قَلَّ}[7]، فقد تبرّأ من حب الطعام والأكل إلى الشبع، وإن أكل إلى أن شبع فلينوي أنه تقوية لنفسه على الصوم، فيكون شبعه حينها أجرا وثوابا غالبا، فحاله حال المجاهد الذي يأكل جيّدا كي يتقوّى على أعداء الدين والله أعلم.

---

[1] رواه البخاري (2004)، ومسلم (1130) واللفظ له

[2] رواه مسلم (1134)

[3] رواه مسلم (1164).

[4] رواه البخاري (1969)، ومسلم (782) بعد (1156).

[5] رواه مسلم (1163).

[6] أخرجه البخاري (1976) بنحوه، ومسلم (1159).

[7] أخرجه البخاري (6465)، ومسلم (783) واللفظ له.

الحال الرابع: احتمال الأذى من الأنام.

والمراد منه هو كظم الغيظ، وفي كظم الغيظ علوُّ الدرجات في الدنيا والأخرى، أما في الدنيا، فهو باشتهاره بحلمه وعفوه، وأما في الآخرة بالثواب الجزيل من الرب الجليل.

مفهوم كظم الغيظ:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[آل عمران: 134] .

قال القرطبي في تفسير الآية: وكظم الغيظ رده في الجوف، يقال: كظم غيظه، أي: سكت عليه ولم يظهره مع قدرته على إيقاعه بعدوه، وكظمت السقاء أي ملأته وسددت عليه، والكظامة ما يسد به مجرى الماء، ومنه الكظام للسير الذي يسد به فم الزق والقربة[1].

وقال ابن كثير: أي: إذا ثار بهم الغيظ كظموه، بمعنى: كتموه فلم يعملوه، وعفوا مع ذلك عمَّن أساء إليهم وقد ورد في بعض الآثار: يقول الله تعالى: {ابن آدم، اذكرني إذا غضبت، أذكرك إذا غضبت، فلا أهلكك فيمن أهلك}[2].

فأصلُ مادَّةِ كَظمَ: يدُلُّ على معنًى واحِدٍ، وهو الإمساكُ، والجَمعُ للشَّيءِ، وأصلُ الكَظمِ: حَبسُ الشَّيءِ عن امتِلائِه، يُقال: كَظمتُ القِربةَ: إذا مَلَأتَها، ويُقالُ: كَظمتُ الغَيظَ أكظِمُه كَظمًا: إذا أمسَكتَ على ما في نفسِك منه[3].

قال المناويُّ: الكَظمُ: الإمساكُ على ما في النَّفسِ مِن صَفحٍ أو غَيظٍ[4].

معنى الغيظِ لُغةً:

الغَيظُ: غَضَبٌ، وقيل: هو أشَدُّ مِن الغَضَبِ، وقيل: هو ثورتُه وأوَّلُه، وغِظتُ فُلانًا أَغيظُه غَيظًا،

---

[1] ينظر: تفسير القرطبي.

[2] ينزر تفسير ابن كثير – وأما الأثر فلم أجده.

[3] ((مقاييس اللغة)) لابن فارس (184/5)، ((الكشف والبيان عن تفسير القرآن)) للثعلبي (165/3)، ((لسان العرب)) لابن منظور (519/12).

[4] ((التوقيف على مهمات التعاريف)) (ص: 282). ويُنظَر: ((التبصرة)) لابن الجوزي (1/ 54).

وقد غاظَه فاغتاظَ، وغَيَّظَه فتَغيَّظَ، وهو مَغِيظٌ[1].

وقال الرَّاغِبُ: الغَيظُ: أشَدُّ الغَضَبِ، وهو الحَرارةُ التي يجِدُها الإنسانُ مِن فوَرانِ دَمِ قَلبِه[2].

معنى كَظمِ الغَيظِ اصطِلاحًا:

كَظمُ الغَيظِ: تجَرُّعُه، واحتِمالُ سَبَبِه، والصَّبرُ عليه[3].

ويُقال: كَظمَ غَيظَه، أي: سَكَتَ عليه، ولم يُظهِرْه بقَولٍ أو فِعلٍ، مع قُدرَتِه على إيقاعِه بعَدوِّه[4].

وقال ابنُ عَطيَّةَ: كَظمُ الغَيظِ: رَدُّه في الجَوفِ إذا كادَ أن يخرُجَ مِن كَثرَتِه، فضبطُه ومنعُه كظمٌ له[5].

وخلاصة:

فكظم الغيظ هو: ضبط النفس عند القدرة، بعدم إظهار الغضب للمسيء، فضلا على الإيقاع به، مع العفو عنه ظاهرا وباطنا.

شروط كظم الغيض:

لكظم الغيظ أربعة شروط:

الأول: القدرة على إيقاع غضبه بالمسيء.

الثاني: العفو عن المسيء.

الثالث: عدم إظهار الغضب للمسيء.

الرابع: احتساب ذلك لله تعالى وحده.

– فإن كان الكاظم ليس قادرا، بأن احتمل غيظه خوفا من المسيء فهذا ليس كظما؛ لأنَّ الكاظم حينها مضطر لذلك.

– وإن لم يعفو الكاظم على المسيء، فقد أخذ حقه منه وهذا ليس كظما.

---

[1] ((لسان العرب)) لابن منظور (7/450). ويُنظَر: ((النهاية في غريب الحديث والأثر)) لابن الأثير (3/402)، ((جمهرة اللغة)) لابن دريد (2/932)، ((الصحاح)) للجوهري (3/1176).

[2] ((المفردات)) للراغب الأصفهاني (ص: 619).

[3] ((فتح الباري)) لابن حجر (1/179).

[4] ((تفسير القرطبي)) (4/206)، ((معجم ديوان الأدب)) لأبي إبراهيم الفارابي (2/186).

[5] ((المحرر الوجيز)) (3/233).

– وإن أظهر الكاظم غضبه للمسيء، فقد أخذ شيئا من حقه من المسيء؛ لأنَّ إظهار الغضب يخيف المسيء، وهذا ليس كظما.

– وإن لم يكن كظمه لله تعالى؛ بأن لم يحتسب ذلك، وليس له نية في ذلك، أو كان الكظم طبعا فيه، فليس بكاظم غالبا؛ لقول النبي ﷺ: {لا أجرَ إلَّا عن حِسبةٍ ، ولا عملَ إلَّا بنيَّةٍ}[1].

ولعلَّ من كان كظم الغيظ فيه سجية مأجور بحسن الطبع والأخلاق، لقول النبي ﷺ: {إن المؤمنَ لَيُدْرِكُ بحُسْنِ خُلُقِه درجةَ الصائمِ القائمِ}[2].

وقال رسولُ اللهِ ﷺ لأشَجِّ عبدِ القيسِ: {إنَّ فيك خَصلتيْنِ يُحبُّهُما اللهُ: الحِلمُ والأَناةُ، قال يا رسولَ اللهِ: أنا أتخلَّقُ بهما أمِ اللهُ جَبَلَني عليهما؟ قال: بلِ اللهُ جَبَلَك عليهما، قال: الحمدُ للهِ الذي جَبَلَني على خَلَّتيْنِ يُحبُّهُما اللهُ ورسولُهُ}[3].

فإن كان هذا حال المجبول، فمن تحرى الأخلاق الحميدة وجاهد نفسه عليها حتى غلبها فهو من باب أولى.

وعلى كل: فكظم الغيظ من السماحة واللين، ولا تنطبق عليه الشدة ولا الغضب، فيجب على الكاظم أن يكون سمحا سلسلا حال كظمه محتسبا ذلك لله تعالى وحده.

فوائد كظم الغيظ في الدنيا والآخرة:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾[آل عمران: 133-134].

فهذه الجنة التي عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين، وعرَّفهم الله تعالى لنا بقوله: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ} فالمتقين هاهنا هم الذين ينفقون أموالهم في مرضات الله تعالى في كل الأحوال، وهم كذلك كاظمي الغيظ الذي سبق وشرح معناه.

فكظم الغيظ لله تعالى أجره عظيم، يقول النبي ﷺ: {مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وهوَ قادِرٌ على أنْ يُنْفِذَهُ؛

[1] أخرجه الديلمي في الفردوس 7894، وصححه الألباني في الصحيحة 2415.

[2] صحيح أخرجه أبو داود 4798 عن عائشة، وبمثله المنذري في الترغيب 2645 عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

[3] أخرجه مسلم (17) مختصراً.

دعاهُ اللهُ سبحانَهُ على رُؤوسِ الخَلائِقِ يومَ القيامةِ حتى يُخَيِّرَهُ مِن الحُورِ العِينِ ما شاءَ}[1].

كذلك عن ابنِ عُمَرَ قال: قال رَسولُ اللهِ ﷺ: {ما مِن جُرعةٍ أعظَمَ أجرًا عندَ اللهِ مِن جُرعةِ غَيظٍ كَظَمَها عَبدٌ ابتِغاءَ وَجهِ اللهِ}[2].

– فمن فوائد كظم الغيظ تعظيم العدوّ للكاظم، فعن بعض السلف في شرح قَولِه تعالى:

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [المؤمنون: 96]، قال: الصَّبرُ عندَ الغَضَبِ، والعَفوُ عندَ الإساءةِ، فإذا فعَلوا عَظَّمهم عَدوُّهم، وخَضَعَ لهم.

– ومن فوائده دلالة على قوّة وشدة الكاظم: فقد جاء في الصَّحيحِ عن أبي هُرَيرةَ رَضيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {ليس الشَّديدُ بالصُّرَعةِ، إنَّما الشَّديدُ الذي يملِكُ نفسَه عندَ الغَضَبِ}[3].

– كذلك من فوائده مع دلالة القوة والشدة في غلبة شيطانه وشيطان عدوه: فعن أنَسٍ: {أنَّ النَّبيَّ ﷺ مَرَّ بقَومٍ يصطَرِعونَ، فقال: ما هذا؟ فقالوا: يا رَسولَ اللهِ، فُلانٌ الصَّريعُ، لا ينتَدِبُ له أحَدٌ إلَّا صَرَعَه! فقال رَسولُ اللهِ ﷺ: ألا أدُلُّكم على مَن هو أشَدُّ منه؟ رَجُلٌ ظَلَمَه رَجُلٌ، فكَظَمَ غَيظَه فغَلَبَه، وغَلَبَ شَيطانَه، وغَلَبَ شَيطانَ صاحِبِه}[4].

– كذلك بكظم الغيظ يدَفعِ الإساءةِ بالإحسانِ، والمَكروهِ بالمَعروفِ، والقَهرِ باللُّطفِ:

---

[1] أخرجه أبو داود (4777)، والترمذي (2493)، وابن ماجه (4186)، وأحمد (15637) باختلاف يسير، وصححه الألباني في صحيح الترغيب 2753.

[2] أخرجه ابن ماجه (4189) واللفظ له، وأحمد (6114). صححه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4189)، وأحمد شاكر في ((عمدة التفسير)) (415/1)، والوادعي في ((الصحيح المسند)) (733)، وشعيب الأرناؤوط في تخريج ((مسند أحمد)) (6114).

[3] رواه البخاري (6114)، ومسلم (2609).

[4] رواه البزار (7272)، والطبراني في ((مكارم الأخلاق)) (52). حسَّن إسناده ابن حجر في ((فتح الباري)) (535/10)، والألباني في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3295). وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (71/8): فيه شعيب بن بيان، وعمران القطان، وثَّقهما ابن حبان، وضعَّفهما غيرُه، وبقيَّة رجالهما رجالُ الصَّحيحِ.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[فصلت: 34-35].

– كذلك إنَّ في كظم الغيظ زيادة مروءة الرجل، وباب عظيم في مجاهدة النفس، والرياضة النفسية، كما أنه يلقي محبة الكاظم ومهابته في قلوب الناس.

وخلاصة:

فهذه أربع مكروهات يجب على مريد سلوك طريق محبة الله تعالى أن يجتنبها وهي كما سبق وذكرها:

1 – قلة الكلام.

فيه السلامة من الآفات.

2 – قلة الطعام.

فيه السلامة من العلات.

3 – قلة المنام.

فيه صفوُّ الإرادات.

4 – احتمال الأذى من الأنام.

فيه علو الدرجات.

وتأتي معها أربع مندوبات ومرغوبات يرجى الإكثار منها وهي في الوجه الثاني:

الوجه الثاني: ويحتمل أربع أحوال يرجى الإكثار منها وهي:

الحال الأول: إطعام الطعام.

الحال الثاني: الصلاة والناس نيام.

الحال الثالث: إدمان الصيام.

الحال الرابع: الجهاد فهو ذروة السنام.

الشرح:

الحال الأول: إطعام الطعام: الحال:

ففي إطعام الطعام بلوغ مقام أهل الصدقات.

والمراد به الصدقة عموما، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان: 8].

قال القرطبي: قال ابن عباس ومجاهد: على قلته وحبهم إياه وشهوتهم له.

وقال الداراني: على حب الله – تعالى[1].

وقال ابن كثير: قيل: على حب الله تعالى، وجعلوا الضمير عائدا إلى الله عز وجل لدلالة السياق عليه.

واختار ابن كثير على حبه، أي: الطعام[2].

وقال البغوي: أي على حب الطعام وقلته وشهوتهم له وحاجتهم إليه.

وقيل: على حب الله عز وجل[3].

وأرى أن اللفظ دال على المعنيين: على حب الله تعالى ومرضاة له، مما حملهم على التصدق بطعامهم القليل المحبب لقلوبهم فهم ليس لهم غيره.

قال تعالى: ﴿ لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ﴾ [البقرة: 177].

قال البغوي: اختلفوا في هذه الكناية فقال أكثر أهل التفسير: إنها راجعة إلى المال أي أعطى المال في حال صحته ومحبته المال قال ابن مسعود: أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر...

---

[1] ينظر: تفسير القرطبي.

[2] ينظر: تفسير ابن كثير.

[3] ينظر: تفسير البغوي.

وقيل هي عائدة على الله عز وجل أي على حب الله تعالى[1].

وأرى أنَّ الآيتان فيهما اختلاف تنوّع لا اختلاف تضاد، فالصحيح أنَّ كلا الآيتان يحملان على حب الله تعالى وحب الطعام والمال، وهذا الأكمل؛ فإنه يطعم الطعام أو يعطي المال، محبة لله أولا ومرضاة له، فحمله هذا على إعطاء ماله وطعامه المحبَّب إلى قلبه والذي ليس له غيره، بالمشروع.

فوائد الصدقة:

أولا: مضاعفة الأجر: **قال تعالى:** ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[البقرة: 245].

وقال تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: 261].

ثانيا: تثبيت النفس على طاعة الله تعالى: **قال الله تعالى:** ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[البقرة: 265].

ثالثا: تؤمن صاحبها من هول يوم القيامة: **قال تعالى:** ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة: 262].

رابعا: تكفير السيئات: **قال تعالى:** ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[البقرة: 271].

خامسا: الصدقات تطفئ غضب الرب: **قال النبي ﷺ: {صِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ في العُمْرِ، وصَدَقَةُ**

---

[1] ينظر: تفسير البغوي.

السِّرِّ تُطفِئُ غضبَ الرَّبِّ}[1].

سادسا: الصدقات تدفع البلاء: يقول النبي ﷺ: {صنائعُ المعروفِ تقي مصارعَ السوءِ والآفاتِ والهلكاتِ، وأهلُ المعروفِ في الدنيا همْ أهلُ المعروفِ في الآخرةِ}[2].

سابعا: إدخال السرور إلى قلوب المحتجين: يقول النبي ﷺ: {أَحَبُّ الناسِ إلى اللهِ أنفعُهم للناسِ، وأَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ سرورٌ تُدخِلُه على مسلمٍ، تَكشِفُ عنه كُربةً، أو تقضِي عنه دَيْنًا، أو تَطرُدُ عنه جوعًا، ولأَنْ أمشيَ مع أخٍ في حاجةٍ؛ أَحَبُّ إليَّ من أن اعتكِفَ في هذا المسجدِ (يعني مسجدَ المدينةِ) شهرًا، ومن كظم غيظَه ولو شاء أن يُمضِيَه أمضاه؛ ملأ اللهُ قلبَه يومَ القيامةِ رِضًا، ومن مشى مع أخيه في حاجةٍ حتى يَقضِيَها له؛ ثبَّتَ اللهُ قدمَيه يومَ تزولُ الأقدامُ}[3].

ثامنا: الصدقة تطفئ الخطايا: يقول النبي ﷺ: {الصَّومُ جُنَّةٌ والصَّدقةُ تطفئُ الخطيئةَ كما يطفئُ الماءُ النَّارَ}[4].

تاسعا: الصدقة تقي عذاب الله تعالى: يقول النبي ﷺ: {... اتَّقُوا النَّارَ ولو بشِقَّةِ تَمْرَةٍ، فمَن لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ...}[5].

---

[1] ((الترغيب في فضائل الأعمال)) (386) مطولاً، والقضاعي في ((مسند الشهاب)) (100) وصححه الألباني في صحيح الجامع 3766 .

[2] أخرجه الحاكم (429) باختلاف يسير، والبيهقي في ((شعب الإيمان)) (8061) مطولاً، وصححه الأرنؤوط في تخريج منهاج القاصدين 41، والحاكم في المستدرك 434، وقال: له شواهد، =

= والسيوطي الجامع الصغير 5023، وبمثله في المعجم الأوسط للطبراني 6086، وصححه الألباني في صحيح الجامع 3796.

[3] أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (6026)، وأبو الشيخ في ((التوبيخ والتنبيه)) (97)، وقوام السنة الأصبهاني كما في ((الترغيب والترهيب)) للمنذري (265/3) واللفظ له، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب.

[4] أخرجه الترمذي 2616، والمنذري في الترغيب والترهيب 58/2، واللفظ له، جُنَّةٌ"، أي: سِترٌ وحِفظٌ لصاحبِه مِن الشَّهواتِ في الدُّنيا، ومِن النَّارِ في الآخِرةِ، والجُنَّة برفع الجيم يعني الستر، تقول: جنَّ الليل، إذا أنزل ستاره، وكذلك المجنون؛ لأنه سُتر عنه عقله، وكذا الجنين؛ لأنه مستور عن الأنظار في بطن أمه.

[5] أخرجه البخاري (3595)، ومسلم (1016).

عاشرا: الصدقة هي السبب الرئيس في زيادة المال أي نمائه: يقول النبي ﷺ فيما يخبر عن ربه: {قالَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ: أنْفِقْ أُنْفِقْ عَلَيْكَ، وقالَ: يَدُ اللَّهِ مَلْأَى، لا تَغِيضُها نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ والنَّهارَ، وقالَ: أرَأَيْتُمْ ما أنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّماءَ والأرْضَ؟! فإنَّه لَمْ يَغِضْ ما في يَدِهِ، وكانَ عَرْشُهُ علَى الماءِ، وبِيَدِهِ المِيزانُ يَخْفِضُ ويَرْفَعُ}[1].

الحال الثاني: الصلاة والناس نيام:

وفي الصلاة والناس نيام، علو المقامات، ويراد بالصلاة هنا هو قيام الليل، والمراد بقيام الليل، أي: قيام شيء منه ولو كانت ركعتان خفيفتان في جوف الليل.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾[الفرقان: 64].

قال البغوي: يقال لمن أدرك الليل: بات، نام أو لم ينم، يقال: بات فلان قلقا، والمعنى: (يبيتون لربهم) بالليل في الصلاة، (سجدا) على وجوههم، (وقياما) على أقدامهم.

قال ابن عباس: من صلى بعد العشاء الآخرة ركعتين أو أكثر فقد بات لله ساجدا وقائما[2].

وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[السجدة: 16].

قال ابن كثير: يعني بذلك قيام الليل، وترك النوم والاضطجاع على الفرش الوطيئة.

قال مجاهد والحسن في قوله تعالى: (تتجافى جنوبهم) يعني بذلك قيام الليل[3].

وقال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[الذاريات: 15 – 18].

قال السعدي: أي: كان هجوعهم أي: نومهم بالليل، قليلاً، وأما أكثر الليل، فإنهم قانتون لربهم، ما بين صلاة، وقراءة، وذكر، ودعاء، وتضرع.

{وَبِالْأَسْحَارِ} التي هي قبيل الفجر {هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} الله تعالى، فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا في خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه.

---

[1] أخرجه البخاري (4684)، ومسلم (993).

[2] ينظر: تفسير البغوي.

[3] ينظر: تفسير ابن كثير.

وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالى في وصف أهل الإيمان والطاعة: ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾[آل عمران: 17][1].

فضل وفوائد قيام الليل:

أولا: إنَّ شرف المؤمن في قيامه لليل: فعن سهل بن سعد الساعدي عن النبي ﷺ قال: {أتاني جبريلُ عليه السَّلامُ فقال: يا محمَّدُ! عِشْ ما شئتَ فإنَّك ميِّتٌ، وأحبِبْ من شئتَ فإنَّك مفارقُ، واعمَلْ ما شئتَ فإنَّك مجزِيٌّ به، ثمَّ قال: يا محمَّدُ! شرفُ المؤمنِ قيامُه باللَّيلِ، وعِزُّه استغناؤُه عن النَّاسِ}[2].

ثانيا: قيام الليل دأب الصالحين: قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[آل عمران: 113– 114].

ثالثا: أجر قيام الليل لا يعلمه إلا الله تعلى وحده: قال تعالى: ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[السجدة: 16، 17].

رابعا: قيام الليل والتنافس فيه يرفع درجات المسلم حتى يكون من المقنطرين: يقول النبي ﷺ: {من قامَ بعشرِ آياتٍ لم يُكتب منَ الغافلينَ، ومن قامَ بمائةِ آيةٍ كتبَ منَ القانتينَ، ومن قامَ بألفِ آيةٍ كتبَ منَ المقنطرينَ}[3].

---

[1] ينظر: تفسير السعدي.

[2] أخرجه الطبراني في ((المعجم الأوسط)) (4278)، والحاكم (7921) باختلاف يسير وأبو نعيم في حلية الأولياء 290/3 وصححه الشيخ الألباني رحمه الله تعالى في صحيح الجامع الصغير برقم (73).

[3] أخرجه أبو داود (1398)، وصححه الألباني، وابن خزيمة (1144)، وابن حبان (2572). والقانت: هو المداوم على الطاعة، والمقنطر: القنطار هي وحدة قياسية تختلف من بلد إلى بلد وقيل هي مائة رطل، فيُعطَى بالقِنْطارِ الَّذي يَدُلُّ على عَظيمِ الفضلِ والأجرِ وعدَمِ مَحدوديَّتِه، ولعلَّ المراد بانه مقنطر، اي: كتب من أهل القنطر التي بعد الصراط، فأهل القنطرة همُ الناجون من الصراط الداخلون للجنَّة بلا شك بعد أن يقتص كل واحد من أخيه مظلمته، والله أعلم.

أي: مَن صلَّى في اللَّيلِ تَطوُّعًا ونافلةً، فقام بينَ يدَي اللهِ وقرَأ بعَشْرِ آياتٍ لَم يَكُنْ مِن الغافِلين عَنِ اللهِ وعن ذِكْرِه وطاعتِه سبحانه، "ومَن قام بمِائةِ آيةٍ كُتِب مِن القانِتينَ"، أي: كُتِب مِن المُواظِبينَ على الطَّاعةِ، ومِن التَّائبين والخاشِعينَ الرَّاجِعين إلى اللهِ تعالى، "ومَن قامَ بألفِ آيةٍ كُتِب مِن المُقَنطَرين"- بفتْح الطاء- أي: الَّذين أُعطُوا قِنطارًا مِن الأجرِ، فيَكونُ أجْرُه على قدرِ قِراءتِه وخُشوعِه، فيُعطَى بالقِنْطارِ الَّذي يَدُلُّ على عَظيمِ الفضلِ والأجرِ وعدَمِ مَحدوديَّتِه.

ويُروَى "المُقَنطِرين"- بكَسرِ الطاء- أي: الذين يَطلُبونَ القَناطيرَ مِن الأجرِ، أو هم المَالِكونَ مالًا كَثيرًا، والمُرادُ كَثرةُ الأجْرِ.

خامسا: قيام الليل سبب استجابة الدعاء: يقول النبي ﷺ: {ينزلُ ربنُّا تبارك وتعالَى كُلَّ ليلةٍ إلَى السَّماءِ الدُّنيَا حينَ يبقَى ثُلثُ اللَّيلِ الآخرِ يقولُ: منْ يدعوني فأستجيبُ لهُ منْ يسألنِي فأُعطيهِ منْ يستغفرنِي فأغفرُ له}[1].

وعن النبي ﷺ: قال: {إنَّ فِي اللَّيلِ لساعةٌ لَا يوافقهَا رجلٌ مسلمٌ يسألُ الله خيرًا من أمرِ الدُّنيَا والآخرةِ إلَّا أعطاهُ إيَّاهُ وذلكَ كلَّ ليلةٍ}[2].

الحال الثالث: إدمان الصيام:

وفي إدمان الصيام تهذيب النفس من الآفات، فإنَّ من أعظم ما يتقرب به المسلم إلى ربه هو الصيام، يقول النبي ﷺ: {كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إلى سَبْعِ مِائَة ضِعْفٍ، قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إلَّا الصَّوْمَ؛ فإنَّه لي، وَأَنَا أَجْزِي به، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِن أَجْلِي. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ، وَلَخُلُوفُ فيه أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِن رِيحِ المِسْكِ}[3].

وعن سهل رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: {إن في الجنة بابًا يُقال له: الريان يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق، فلن يدخل منه أحد}[4].

---

[1] متفق عليه: رواه البخاري 1145 ومسلم 758.

[2] صحيح: رواه مسلم 757

[3] أخرجه البخاري (7492) مختصراً، ومسلم (1151) واللفظ له.

[4] أخرجه البخاري رقم: (1797)، ومسلم رقم: (1152)

وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: {من صامَ يومًا في سبيلِ اللهِ زحزحَ اللَّهُ وجْهَهُ عنِ النَّارِ بذلِكَ اليومِ سبعينَ خريفًا}[1].

وأحسن الصيام بعد الفريضة ما كان على السنَّة أو ما أوصت به السنة، وقد سبق وذكرناه في مبحث علاج كثرة الأكل.

والمراد بإدمان الصوم، هو الاستمرار في الصوم، سواء كان الصيام ثلاثة أيام من كل شهر، أو ما سبق ذكره، وذلك من قول النبي ﷺ: {أَحَبُّ الأعمالِ إلى اللهِ أدْوَمُها و إن قَلَّ}[2].

فهو من أنجع علاجات القلوب، وهو من أبواب محبة الله تعالى.

الحال الرابع: الجهاد فهو ذروة السنام:

ولا شكَّ أنَّ في الجهاد بلوغ أقصى الغايات.

والجهاد: جهادان:

الأوَّل: جهاد النفس ويلحقها جهاد الشيطان.

الثاني: جهاد السيف، ويراد به جهاد العدو الكافر والمنافق.

وهذان الاثنان لا يغنيان عن بعضهما، ويمكن إدراج الأول تحت الثاني، مع أنَّ الأول أشمل من الثاني، فما جاهد المجاهد في سبيل الله تعالى بدمه وماله وأهله ونفسه، إلا بعد أن جاهد نفسه على ذلك، فالثاني يدل على الأول، والأول أشمل من الثاني.

الأول: جهاد النفس والشيطان:

وقد أدمجت جهاد الشيطان في جهاد النفس؛ لأنه لا مدخل للشيطان إلا عن طريق هوى النفس وشهواتها، وهذا النوع من الجهاد هو أشد من جهاد السيف، قال ابن رجب الحنبلي:

فهذا الجهاد يحتاجُ أيضاً إلى صبر، فمن صبر على مجاهدة نفسه وهواه وشيطانه: غلبه، وحصل له النصر والظفر، وملَكَ نفسه، فصار عزيزاً ملكاً، ومن جَزِعَ ولم يَصبر على مجاهدة ذلك، غُلِب وقُهر وأُسر، وصار عبداً ذليلاً أسيراً في يدي شيطانه وهواه، كما قيل:

إذا المَرءُ لم يَغلِبْ هواهُ أقامه * بمنْزلةٍ فيها العَزيزُ ذَليلُ[3]

---

[1] أخرجه الترمذي (1622)، والنسائي (2244) واللفظ له، وابن ماجه (1718)، وأحمد (7990).

[2] أخرجه البخاري (6465)، ومسلم (783) واللفظ له.

[3] ينظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب (2/ 584).

ودليل وجوب جهاد النفس قول النبي ﷺ: {أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ}[1].

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في بيان مفهوم جهاد النفس: فَيُؤْمَرُ بِجِهَادِهَا، كَمَا يُؤْمَرُ بِجِهَادِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعَاصِي وَيَدْعُو إلَيْهَا، وَهُوَ إلَى جِهَادِ نَفْسِهِ أَحْوَجُ؛ فَإِنَّ هَذَا فَرْضُ عَيْنٍ، وَذَاكَ فَرْضُ كِفَايَةٍ، وَالصَّبْرُ فِي هَذَا مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ؛ فَإِنَّ هَذَا الْجِهَادَ: حَقِيقَةُ ذَلِكَ الْجِهَادِ؛ فَمَنْ صَبَرَ عَلَيْهِ، صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ الْجِهَادِ، كَمَا قَالَ: (وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ السَّيِّئَاتِ).

ثُمَّ هَذَا (يعني: جهاد النفس): لَا يَكُونُ مَحْمُودًا فِيهِ إلَّا إذَا غَلَبَ (يعني: إذا غلب هوى نفسه)؛ بِخِلَافِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّهُ مَنْ يُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ: {فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}[2].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: كَانَ جِهَادُ النَّفْسِ مُقَدَّمًا عَلَى جِهَادِ الْعَدُوِّ فِي الْخَارِجِ، وَأَصْلًا لَهُ، فَإِنَّهُ مَا لَمْ يُجَاهِدْ نَفْسَهُ أَوَّلًا، لِتَفْعَلَ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَتَتْرُكَ مَا نُهِيَتْ عَنْهُ، وَيُحَارِبهَا فِي اللَّهِ تعالى: لَمْ يُمْكِنْهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ فِي الخَارِجِ؛ فَكَيْفَ يُمْكِنُهُ جِهَادُ عَدُوِّهِ، وَالِانْتِصَافُ مِنْهُ: وَعَدُوُّهُ الَّذِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَاهِرٌ لَهُ، مُتَسَلِّطٌ عَلَيْهِ، لَمْ يُجَاهِدْهُ، وَلَمْ يُحَارِبْهُ فِي اللَّهِ تعالى؛ بَلْ لَا يُمْكِنُهُ الخُرُوجُ إِلَى عَدُوِّهِ، حَتّى يُجَاهِدَ نَفْسَهُ عَلَى الْخُرُوجِ[3].

وأقول: إنَّ الشيطان ليس له مدخل للإنسان إلا عن طريق هوى نفسه أو شهواتها، والفرق بين الهوى والشهوة شاسع، وقد أخطأ من جمع بينهما في المعنى، ودونك تعريفهما والفرق الذي بينهما:

تعريف الهوى:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[النساء: 135].

---

[1] الإمام أحمد (23958) ، وابن حبان (4862) ، والطبراني في "المعجم الكبير" (796) ، والحاكم (24) ، وابن المبارك في "الزهد" (826) ، والنسائي في "السنن الكبرى" (11794) ، والبيهقي في "الشعب" (10611)، والترمذي 6121 مختصرا، وابن ماجه 3934 مختصرا.

[2] مجموع الفتاوى لابن تيمية (10/ 635).

[3] "زاد المعاد" لابن القيم (3/ 6).

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: 26].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾[الكهف: 28].

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: 43].

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص: 50].

﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: 23].

الهوى لغة:

(هوي) يقول ابن فارس: الهاء والواو والياء: أصل صحيح يدل على خلو وسقوط. أصله الهواء بين الأرض والسماء، سمي لخلوه. قالوا: وكل خال هواء، ويقال: هوى الشيء يهوي: سقط. وهاوية: جهنم؛ لأن الكافر يهوي فيها[1].

والهوى مقصورٌ، هوى النفس والضمير: أي: إرادتها، والجمع الأهواء، و الهوى: محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه، تقول: هوي بالكسر يهوى هوًى أي: أحب. ورجلٌ هوٍ: ذو هوًى، وامرأة هويةٌ: لا تزال تهوى[2].

وهوى الشيء يهوي هويًا إذا سقط من علو إلى سفلٍ، وذلك لأن الإنسان إذا اتبع هواه؛ فقد هوى وسقط[3].

---

[1] مقاييس اللغة، ابن فارس، **15/6**. وانظر: مختار الصحاح، الرازي، ص**329**.

[2] انظر: لسان العرب، ابن منظور، **372/15**، تاج العروس، الزبيدي **326/40**.

[3] مشارق الأنوار، القاضي عياض **273/2**.

الهوى اصطلاحا:

ذكرت كثيرة من التعريفات للهوى منها الصحيح المطرد المنعكس، ومنها من أخلط تعريف الهوى بتعريف الشهوة، ونحن لا نطيل في هذا بل ندلي بتعريف الهوى الصحيح المطَّرد المنعكس.

فالهوى هو: ميل النفس عن الحق في الاعتقاد خاصَّة، واتباع غير الدليل، أو تأويل الدليل تأويلا فاسدا كي يوافق هواه.

فلو تلاحظ أنَّ كل الآيات السابق ذكرها تحكي على مخالفات اعتقادية ولم ترمز للأعمال ولو رمزا.

وأبين دليل على أنَّ الهوى في الاستعمال القرآن هو الميل عن الحق في أمور الاعتقاد هو قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: 43].

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: 26].

فدلَّت الآيتان وغيرهما على أنَّ الهوى في الاستعمال القرآني يراد به الميل عن الحق في أمور العقائد خاصَّة.

تعريف الشهوة:

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[الأعراف: 81].

وقال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[آل عمران: 14].

الشهوة لغة:

قال ابن فارس: الشين والهاء والحرف المعتل كلمة واحدة، وهي الشهوة. يقال: رجل شهوان، وشيء شهي[1].

والشهوة اشتياق النفس إلى الشيء، والجمع شهواتٌ[2].

الشهوة اصطلاحا:

الشهوة في الاستعمال القرآني، هي كل لذَّة مباحة أو ممنوعة، ويغلب استعمالها في اللذة الممنوعة.

أما دليل أن الشهوة تأتي في المباح والممنوع:

أما المباح منها: فهو ما أباحه الشرع، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: 14].

فهنا أطلقت الشهوة من قيدي التحليل أو التحريم فهي المباح وتدور على أحكام التكليف الخمس، بما يستعملها المكلف.

وعن أبي ذر، أن ناسا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: {يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم، قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟ إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر}[3].

لاحظ أنه سمى لذة الجماع بالشهوة.

---

[1] مقاييس اللغة، ابن فارس، 220/3

[2] انظر: المصباح المنير، الفيومي، 326/1.

[3] أخرجه مسلم 2329

وكذلك قول النبي ﷺ: {كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، إلى سَبْعِ مِائَة ضِعْفٍ، قالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: إلَّا الصَّوْمَ؛ فإنَّه لي، وَأَنَا أَجْزِي به، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِن أَجْلِي. لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ: فَرْحَةٌ عِنْدَ فِطْرِهِ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ. وَلَخُلُوفُ فيه أَطْيَبُ عِنْدَ اللهِ مِن رِيحِ المِسْكِ}[1].

فهذه كلها شهوات وهي مباحة.

وأما الممنوع منها: فهو ما منعه الشرع: يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: 81].

فهذه شهوة منعها الشرع.

الفرق بين الهوى والشهوة:

بين الهوى والشهوة عدة فروق نذكر منها:

أنَّ الشهوة تدور على أحكام التكليف الخمسة ففيها المحرم، وفيها المكروه، وفيها المباح، وفيها المندوب، وفيها الواجب:

- أما المحرم: منها أن يأتي المسلم شهوة الفرج في من لا تحل له.
- وأمَّا المكروهة: منها كثرة الإسراف في شهوة الطعام.
- أما المباح: منها كل الطيبات من المأكول والمركوب والملبوس والمشموم والمنكوح.
- وأما المندوب فهي كثير: منها أن يأتي الرجل زوجته يوم الجمعة ليلجئها للغسل، قال النبي: {مَن غَسَّلَ واغتَسَلَ، وغَدَا وابتَكَرَ، فدَنَا وأَنصَتَ، ولم يَلْغُ، كان له بكُلِّ خُطْوةٍ كأجْرِ سَنةٍ؛ صيامِها وقيامِها}[2].

قيل: إنَّ معنى (غسل) أصابَ أهلَه قبلَ خروجِه إلى الجُمُعةِ؛ ليكون أملكَ لنَفْسِه وأحْفَظَ في طريقِه لبَصرِه؛ فكأنَّه غَسَلَ امرأتَه أو غسَّلها، أي: أحوجَها إلى الغُسلِ. وقيل: المرادُ بهذينِ اللَّفظينِ (غسل واغتسل) التوكيدُ ولم تقَعِ المخالفةُ بينَ المعنيَينِ لاختلافِ اللَّفظينِ.

---

[1] أخرجه البخاري (7492) مختصراً، ومسلم (1151) واللفظ له.

[2] أخرجه الترمذي (496)، والنسائي (1381)، وابن ماجه (1087)، وأحمد (16961) واللفظ له

– ومن الشهوة ما هو واجب: منها أنَّ المطلَّقة ثلاثا، وتزوجت آخر ثم طلقها، فلا يحل لها أن تعود إلى الأول حتى يجامعها الثاني، من ذلك أن عمرَو بنَ حزمٍ طلَّقَ الغَمِيصَاءَ، فنكَحَها رجلٌ، فطلَّقَها قبلَ أن يَمَسَّها، فسألَتُ النبيَّ ﷺ، {فقال: لا، حتى يذوقَ الآخرُ عسيلتَها وتَذُوقَ عُسَيْلَتَه}[1].

ففي هذا الحديثِ يُخْبِرُ عبدُ اللهِ بنُ عمرَ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: في الرَّجلِ تكونُ له المرأةُ فيُطلِّقُها، أي: يُطلِّقُها ثلاثًا، وتَبِينُ منه، فيتزوَّجُها رجُلٌ، فيُطلِّقُها قبْلَ أنْ يدخُلَ بها، أي: يُطلِّقُها قبْلَ أنْ يطَأَها ويُجامِعَها، "أترجِعُ إلى الأوَّلِ؟ أي: هل يجوزُ لها أنْ ترجِعَ إلى زوجِها الأوَّلِ بمجُرَّدِ العقْدِ وعدَمِ البِناءِ بها؟ فقال النَّبيُّ ﷺ: لا، حتَّى يذوقَ العُسَيلةَ، وفي رِوايةٍ: حتَّى تذوقَ عُسيلةَ الآخَرِ، ويذوقَ عُسيلَتَها، أي: حتَّى تَذوقَ المرأةُ لذَّةَ جِماعِ الزَّوجِ الثَّاني، ويذوقَ لذَّةَ جِماعِها، والعُسيلةُ مُصغَّرةٌ في المُوضعينِ، والتَّصغيرُ للتَّقليلِ؛ إشارةً إلى أنَّ القدْرَ القليلَ كافٍ في تَحصيلِ ذلك بأنْ يقَعَ تغييبُ الحَشَفةِ في الفرْجِ، وقيل: معنى العُسيلةِ: النُّطفةُ، وذَوْقُ العُسيلةِ كِنايةٌ عنِ الجماعِ، وهو تَغييبُ حشَفَةِ الرَّجلِ في فرْجِ المرأةِ، وهذه اللذة واجبة في تحليل الرجوع إلى الأول، إن طلقها الثاني برضاه.

وبما سبق تلاحظ أنَّ الشهوة تدور على أحكام التكليف الخمسة.

وأمَّا الهوى فليس له إلا حكم واحد وهو المنع:

لأن الهوى لا يكون إلا في العقائد، ولا اجتهاد في العقيدة، يقول تبارك وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾[الفرقان: 43] .

يعني يحتكم بهوى نفسه في نفسه أو في غيره، فهو عبد لهوى نفسه، لا يرفع بالدليل رأسا، ولو جئته بملء الأرض أدلة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: 26].

---

[1] أخرجه أبو نعيم في ((معرفة الصحابة)) (**7780**) باختلاف يسير، وأخرجه البخاري (**2639**)، ومسلم (**1433**) دون ذكر قصة عمرو والعميصاء.

وفي هذه الآية بيّن الله تعالى أنَّ مخالفة الهوى تكون بالتسليم لحكم الله تعالى، وأنَّ من لم يحكم بما أنزل الله تعالى فهو يحكم بهوى نفسه، فهو ضال عن سبيل الله تعالى.

وهوى النفس بدوره على قسمين:

- هوى صالح موافق لحكم الله تعالى وحكم نبيه ﷺ.
- وهوى فاسد مخالف لحكم الله تعالى وحكم نبيه ﷺ.

يقول النبي ﷺ في بيان ما أوردناه: {لا يؤمنُ أحدُكم حتَّى يكونَ هواه تبعًا لما جئتُ به}[1].

فإن لم يكون موافقا لما جاء به النبي ﷺ فهو فاقد الإيمان، وبذلك يتبين لنا أنَّ الهوى نوعان، صالح وفاسد، أما الصالح ما كان موافق لهدي النبي ﷺ، وأما الفاسد ما كان حكمه من نفس المكلف لا من هدي النبي ﷺ، وبهذا الحديث أيضا يتبين لنا أنَّ الهوى لا يكون إلى في مسائل العقيدة.

وكذلك أنَّ صاحب الشهوة إن مات وهو على تلك الحال فهو تحت المشيئة إن شاء الله تعالى غفر له، وإن شاء عذَّبه، وأما صاحب الهوى يخشى عليه في بعض الأحوال الخروج من الملة، كتحكيم الهوى بدلا من نصوص الشرع، فهذا خارج من الملة والعياذ بالله تعالى.

وخلاصة:

فإنَّ اتباع الهوى يكون في العقائد، وهو شر ما في الباب، وأمَّا اتباع الشهوات فيكون في الملذات، وهو بدوره يدور على أحكام التكليف الخمسة.

وأنَّ هوى النفس من أكبر مصائد الشيطان، والسبب أنَّ الملذات المحرَّمة شأنها ظاهر التحريم، وأما هوى النفس؛ فإنه إن لم يكن موافقا للشرع فهو ضد الشرع، فيعمل المرء بهواه وهو يظن أنه على خير، وهو في بحر الجهل المركب غارق.

مراتب جهاد النفس:

لجهاد النفس خمسة مراتب وهي:

الأول: جهاد في فعل المفروضات.

---

[1] أخرجه ابن أبي عاصم في ((السنة)) (15)، والخطيب في ((تاريخ بغداد)) (368/4) واللفظ لهما، والبيهقي في ((المدخل إلى السنن الكبرى)) (209) باختلاف يسير.

الثاني: جهاد في ترك المنهيات.

الثالث: جهاد في فعل المستحبات.

الرابع: جهاد في ترك المكروهات.

الخامس: جهاد في ترك بعض المباحات.

الأول الجهاد في فعل المفروضات:

كالصلاة والصوم وغيرها فيجاهد نفسه ليأتي بها كما طُلبت منه.

وهذا النوع على قسمين:

القسم الأول: فرائض عملية.

القسم الثاني: فرائض قلبية.

أما الفرائض العملية: فهي أن تأتي بما طلب منك في وقته وعلى صفته المطلوبة منك.

وأما الفرائض القلبية: وهي أن تفعل ما طلب منك لوجه الله تعالى وحده لا تريد بذلك غيره تعالى.

الثاني: جهاد في ترك المنهيات:

وهو ترك كل ما حرَّمه الله تعالى أو حرمه رسوله ﷺ.

وهذا النوع على قسمين:

القسم الأول: منهيات عملية.

القسم الثاني: منهيات قلبية.

أما المنهيات العميلة: وهو أن تنتهي عما طلب منك أن تنتهي عنه من الأعمال جملة واحدة، من ذلك شرب الخمر والزنا والميسر وغيره...

وأما المنهيات القلبية: وهو على وجهين:

الوجه الأول: أن تنتهي عن المنهيات القلبية جملة واحدة، كالرياء والنفاق وحسد وغيره...

والوجه الثاني: أن يكون انتهاؤك عن المنهيات العملية والقلبية لله تعالى، وإلا وقعت في بعض الأمراض القلبية كالرياء أو النفاق...

الثالث: جهاد في فعل المستحبات:

وهذا النوع من الجهاد، أشد من السابق ذكره؛ لأن ما سبق ذكره هو من الفرائض، فيحملك الخوف من الله تعالى على فعل ما أمرت به، وترك ما نهيت عنه، ولكن في المستحبَّات لا يحملك إلى فعلها إلى حب الله تعالى، وإرادة القرب منه؛ فالمندوب يستحق الأجر فاعله، ولا يستحق العقاب تاركه، يقول الحق تبارك وتعالى في الحديث القدسي: {...وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ...}[1].

وارتباط حب الله لعبده، بحب العبد لربه، ارتباط لازم؛ فإنَّ أوَّل ما يجاز العبد به بعد محبة الله تعالى له، هو إلقاء محبة الله تعالى في قلبه، من ذلك قوله تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا ﴾[التوبة: 100].

فقد قدَّم سبحانه رضاه على رضائهم؛ لأنَّ أول جوائز الله تعالى لهم بعد رضاه عنهم، هو أن يرضيهم عنه، وهو كذلك في الحديث القدسي السابق، فقوله (حتى أحبه)، فإذا أحب الله تعالى عبده، فأوَّل الجوائز التي ينالها العبد حينها هو إلقاء حب الله تعالى في قلبه.

الرابع: جهاد في ترك المكروهات:

وهذا النوع من الجهاد لا يقل درجة عن سابقه، فترك المحرَّم يحمل عليه الخوف من الله تعالى، وأما ترك المكروهات لا يحمل عليه إلا إرادة القربات لله تعالى؛ فالمكروه لا يستحق العقاب فاعله، ويستحق الأجر تاركه، مثل النوم بعد صلاة المغرب، والكلام بعد صلاة العشاء وغيرها...

الخامس: جهاد في ترك بعض المباحات:

وهذا الجهاد هو ذروة سنام الجهاد النفس، وهو جهاد أهل الإحسان، فمن ترك المباح لوجه الله تعالى، فقد سلك سبيل المحسنين، بشرط عدم الغلو في ذلك، من ذلك اجتناب أسباب المكروهات، مثال: يكره الكلام بعد صلاة العشاء، وسبب الوقوع في هذا المكروه هو الوقوف مع من يتكلمون بعد صلاة العشاء، فاجتناب الوقوف معهم سبب في اجتناب الوقوع

---

[1] رواه البخاري: **6502**.

في المكروه، والنوم بعد صلاة المغرب مكروه، والسبب في وقوع المكلف في هذا المكروه، هو الاستلقاء، فاجتناب الاستلقاء بعد صلاة المغرب هو اجتناب للوقوع في المكروه وهو النوم بعد صلاة المغرب، كذلك: يكره الكلام الذي ليس فيه ذكر أو درس، وسببه هو الجلوس مع عامة الناس، فيترك الجلوس مع عامة الناس الذي هو سبب في الكلام الذي لا ينفع.

كذلك: الزيادة على النوافل والمندوبات: مثال: أن يأتي بالرواتب، ثمَّ يزيد من الركعات ما شاء الله له أن يزيد، وهذا فضله عظيم؛ لأن العابد إذا كسل يوما ما أو تعب فسيترك الزوائد ويسقط في الرواتب، ولا شكَّ أنَّ هذا سبيل أهل الإحسان، فقد روي عن بعض العباد أنه كان يصلي أربع مائة ركعة في اليوم والليلة؛ فإن وهن عن الإتيان بها أتي بنوافل السنن. والله أعلم.

يقول النبي ﷺ: {إنَّ اللهَ تعالى فَرَضَ فرائِضَ فلا تُضَيِّعوها، وحَدَّ حُدودًا فلا تَعْتَدوها، وحرَّم أشياءَ فلا تَنْتَهكوها، وسَكَتَ عن أشياءَ رَحْمةً لكم غيرَ نِسيانٍ، فلا تَبْحَثوا عنها}[1].

والقول في: (فلا تبحثوا عنها) أي: فلا تَبحَثوا عنها بكَثرةِ سُؤالِ النَّبيِّ ﷺ عنها خَشيةَ أنْ يُشدِّدَ اللهُ عليكم، وهذا فيه النَّهيُ عنِ التَّكلُّفِ في المَسائلِ.

وكذلك: لا تبحثوا عنها قصد فعلها مع أنكم تعلمون أنَّ الله تعالى سكت عنها تخفيفا عنكم ورحمة.

فالمسكوت عنه هاهنا هو المباح، وهو يحمل على عدم السؤال عنها للنبي ﷺ في عصره خشية التكليف بها، فلم رحل الرسول ﷺ انقطع الوحي فلم يعد يخشى من التكليف بها، فتحمل حينها المسكوت عنها على عدم البحث عنها لفعلها، من ذلك المجالس التي لا تنفع ولا تضر، وكثرة التنويع في الطعام، وغيرها...وشرط ترك بعض المباحات، هو عدم الإفراط في الفعل أو الترك.

فلا يبحث عنها فيفعلها، بل يجعل التقوى نصب عينيه، والتقوى: هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله تعالى وقاية تقيك غضبه وعذابه سبحانه.

---

[1] **أخرجه الدارقطني (183/4)، والحاكم (7114)، والبيهقي (20217) باختلاف يسير وحسنه الأرناؤوط في رياض الصالحين 1832..**

ولا يترك كل المباحات بحجة تقوى الله تعالى، كما قال بعضهم: في الحرام عذاب، وفي المباح حساب[1]، فيترك كل المباحات خشية الحساب، فهذا لا يجوز، فقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[البقرة: 172].

وقال: سبحانه: ﴿ وكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: 31]، فقد أمر الله تعالى في الآية الأولى بالأكل من الطيِّبات، ومن المعلوم أنَّ الأمر للوجوب، فالأمر بالأكل من الطيِّبات يمنعك من أن تمنع نفسك عنها، كفعل غلاة الصوفية، الذين لا يأكلون ما فيه روح ولا ما يخرج من الروح، يريدون بذلك مأكول اللحم وما يخرج منه، كالبقر فهو مأكول اللحم، وما يخرج منه هو الحليب، وما يشتق منه كالجن، والزُّبد، فهؤلاء لم يتحرَّوا رشدا، وإنما المطلوب هو عدم الإسراف في الطيبات كما في الآية الثانية.

ويتبيَّن لنا من هذا أنَّ ترك المباح بمعنى ترك الإكثار منه، قال الشاطبي:

ومنها أن الشرع قد جاء بذم الدنيا والتمتع بلذاتها، كقوله تعالى: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ﴾[الأحقاف: 20].

وقوله: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾[هود: 15][2].

وقول النبي ﷺ: {...فَوَاللَّهِ ما الفَقْرَ أخْشَى علَيْكُم، ولَكِنِّي أخْشَى أنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كما بُسِطَتْ علَى مَن كانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كما تَنَافَسُوهَا، وتُهْلِكَكُمْ كما أهْلَكَتْهُمْ}[3].

فيفهمُ من هذا أنه لا يجوز ترك المباح بالكلية، ولا يجوز الإسراف فيها، بل يجب على المسلم أن يكون وسطا في ذلك، فيترك من المباح ما لا فائدة منه.

حكم جهاد النفس والشيطان:

هو فرض عين على كل مكلف.

---

[1] ينظر: الموافقات للشاطبي مبحث ترك المباح 167/1.

[2] ينظر: الموافقات للشاطبي: 167/1

[3] رواه البخاري 4015.

الثاني: جهاد السيف، أي: جهاد العدو الكافر والمنافق:

وهو على قسمين:

القسم الأول: جهاد الدفع.

والقسم الثاني: جهاد الطلب.

القسم الأول: جهاد الدفع:

والمقصود به دفع المشركين وغيرهم حال زحفهم وغزوهم لأرض الإسلام.

وحكمه: فرض عين على كل قادر، ويزول الحكم بزوال الاعتداء.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:190].

القسم الثاني: جهاد الطلب:

والمراد به الغزو، وهو الذي يهدف إلى حماية حرية نشر الدعوة وإزالة العوائق أمامها، كما يهدف إلى الدفاع عن المستضعفين والمضطهدين بالأرض ونصرتهم، ومعناه أن يغزوا أهل الإسلام أهل الكفر.

وحكمه: فرض كفاية.

قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾[الأنفال:39].

وقال سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا﴾[النساء:75].

ويقول النبي ﷺ: {مَن ماتَ ولَمْ يَغْزُ، ولَمْ يُحَدِّثْ به نَفْسَهُ، ماتَ علَى شُعْبَةٍ مِن نِفاقٍ}[1].

ويكون جهاد الكفار والمنافقين على أربعة مراتب:

1 – بالقلب.

2 – واللسان.

3 – والمال.

[1] أخرجه أبو داود (**2502**) واللفظ له، وأخرجه مسلم (**1910**) باختلاف يسير.

4 – والنفس.

وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب:

أوَّلا: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى الثانية: وهو اللسان، فإن عجز انتقل إلى الثالثة: وهو جاهد بقبله[1].

قال ابن قدامة رحمه الله تعالى:

والجهاد فرض على الكفاية، إذا قام به قوم، سقط عن الباقين:

معنى فرض الكفاية، هو الذي إن لم يقم به من يكفي، أثم الناس كلهم، وإن قام به من يكفي، سقط عن سائر الناس.

فالخطاب في ابتدائه يتناول الجميع، كفرض الأعيان، ثم يختلفان في أن فرض الكفاية يسقط بفعل بعض الناس له، وفرض الأعيان لا يسقط عن أحد بفعل غيره، والجهاد من فروض الكفايات، في قول عامة أهل العلم[2].

ويكون جهاد الكفار باليد واجباً متعيناً في أربع حالات هي:

1 – إذا حضر المسلم الجهاد.

2 – إذا حضر العدو وحاصر البلد.

3 – إذا استنفر الإمام الرعية يجب عليها أن تنفر.

4 – إذا احتيج إلى ذلك الشخص ولا يسد أحد مسدَّه إلا هو.

يقول الشيخ ابن عثيمين:

الموضع الأول: من المواضع التي يتعين فيها الجهاد: يجب الجهاد ويكون فرض عين إذا حضر الإنسان القتال؛ لقول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ * وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ

[1] زاد المعاد لابن القيم 3 / 9 – 11.

[2] المغني للمقدسي (9 / 163).

جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال: 16]، وقد أخبر النبي ﷺ: أن التولي يوم الزحف من الموبقات حيث قال: {اجتَنِبوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ. قيل: يا رَسولَ اللهِ، وما هُنَّ؟ قال: الشِّركُ باللهِ، والسِّحرُ، وقَتْلُ النَّفسِ التي حرَّم اللهُ إلَّا بالحَقِّ، وأكْلُ الرِّبا، وأكْلُ مالِ اليَتيمِ، والتوَلِّي يومَ الزَّحفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ الغافِلاتِ المُؤمِناتِ}[1].

إلا أن الله تعالى استثنى حالتين:

الأولى: أن يكون متحَرّفاً لقتال بمعنى أن يذهب لأجل أن يأتي بقوة أكثر.

الثانية: أن يكون منحازاً إلى فئة بحيث يذكر له أن فئة من المسلمين من الجانب الآخر تكاد تنهزم فيذهب من أجل أن يتحيز إليها تقوية لها، وهذه الحالة يشترط فيها: أن لا يخاف على الفئة التي هو فيها، فإن خيف على الفئة التي هو فيها؛ فإنه لا يجوز أن يذهب إلى الفئة الأخرى، فيكون في هذا الحالة فرض عين عليه لا يجوز له الانصراف عنه.

الموضع الثاني: إذا حصر بلده العدو فيجب عليه القتال دفاعاً عن البلد، وهذا يشبه من حضر الصف في القتال؛ لأن العدو إذا حصر البلد فلا بد من الدفاع؛ إذ إن العدو سيمنع الخروج من هذا البلد، والدخول إليه، وما يأتي لهم من الأرزاق، وغير ذلك مما هو معروف، ففي هذا الحال يجب أن يقاتل أهل البلد دفاعاً عن بلدهم.

الموضع الثالث: إذا قال الإمام انفروا، والإمام هو ولي الأمر الأعلى في الدولة، ولا يشترط أن يكون إماماً للمسلمين؛ لأن الإمامة العامة انقرضت من أزمنة متطاولة، والنبي ﷺ قال: اسمعوا وأطيعوا ولو تأمر عليكم عبد حبشي، فإذا تأمر إنسان على جهة ما صار بمنزلة الإمام العام، وصار قوله نافذاً، وأمره مطاعاً[2].

ونزيد على ما قال الشيخ ابن عثيمين:

ونقول: والنفير وراء ولي الأمر، يجب أن يكون على حق لا على باطل، وإلا فلا سمع ولا طاعة، وإن أمر الأمير بالنفير لا يخلو أن يكون طلبا أو دفعا.

---

[1] أخرجه البخاري (2766)، ومسلم (89) باختلاف يسير.

[2] "الشرح الممتع" (8 /10).

أمَّا الطلب: فيُنظر من يطلب هذا الأمير، فإن أراد غزو المسلمين بغير وجه حق فلا سمع ولا طاعة.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء: 93].

وعليه فيجب على المسلم العاقل أن يتريَّث وينظر من سيقاتل؛ فإن كان سيقاتل مسلما بغير وجه حق، فيجب عليه نصح وليِّ الأمر بالكف عن ذلك؛ فإن أبى فلا سمع ولا طاعة، فعَن تَمِيمٍ الدَّارِيِّ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: {الدِّينُ النَّصِيحَةُ} قُلْنَا لِمَنْ؟ قال: {لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ}[1].

وأما إن أراد غزو بلاد المسلمين لدفع أمير ظالم ورد المظالم لأصحبها أو لإقامة دين الله تعالى، فيجب السمع والطاعة، وهذا فرض على الكفاية.

قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ۖ فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ۚ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[الحجرات: 9].

وأما الدفع: إن كان الدفع لأمة إسلامية قائمة بأمر الله تعالى تريد رفع راية التوحيد وإقامة دين الله تعالى على أرض مسلمة لا تقيم حدود الله تعالى، فالواجب اتباعهم، ويمنع اتباع ولي الأمر في الدفع ضدَّهم، إن كان لا يقيم دين الله تعالى.

وأما إن كان الدفع ضدَّ مسلمين بغاة فيجب على ولي الأمر التعامل معهم بالمعروف وردهم بالحسنى، فإن أبوا فحكمهم حكم الصائل[2]، ويجب السمع والطاعة للأمير في ذلك، وهو فرض عين.

---

[1] مسلم 55.

[2] فاعل من صالَ، وهو: ن سطا عاديا على غيره يريد نفسه أو عرضه أو ماله.

فعن أبي هريرة؛ قال: {جاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله! أرأيت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: فلا تعطه مالك، قال: أرأيت إن قاتلني؟ قال: قاتله، قال: أرأيت إن قتلني؟ قال: فأنت شهيد، قال: أرأيت إن قتلته؟ قال: هو في النار}[1].

وأما إن كان ولي الأمر يطلب قوما غير مسلمين، بوجه حق، أو أراد إقامة الدين في أرض من أراضي الله تعالى، فيجب السمع والطاعة وجوبا، وإن كان الدفع ضد قوم غير مسلمين، أو مسلمين بغو على الأرض، فكذلك يجب السمع والطاعة، ويجب الدفع حينها وجوبا عينيا.

وأما الإمامة العامة التي قال عنها الشيخ ابن عثيمين أنها انقرضت منذ زمن.

فنرد على الشيخ رحمه الله تعالى: بأنَّ هذا الكلام غير صحيح؛ فإنَّه لابد لكل زمن أن يوجد فيه إمام عام مسلم وللناس أي يتبعوه أو ينبذوه، ولكنَّه إمام عام على الحقيقة، لا يمنع إعراض الناس عنه نفي إمامته، يقول النبي ﷺ: {لَا يَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ ظَاهِرُونَ}[2].

وعند مسلم: {لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ علَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ، حتَّى يَأْتِيَ أمْرُ اللهِ}[3].

وهذه الطائفة لابد لها من أمير لقول النبي ﷺ: {إذا خرجَ ثلاثةٌ في سفَرٍ فليؤمِّروا أحدَهُم}[4].

وفي رواية: {لا يَحِلُّ لثلاثةِ نَفَرٍ يكونون بأرضٍ فَلاةٍ إلا أَمَّرُوا عليهم أحدَهم}[5].

وهذه الطائفة التي لابد لها من إمام هي الطائفة المنصورة التي يكون المهدي منهم وإمامهم، ثمَّ ينزل عيسى ابن مريم فيهم إمام عاما، فهل يمكن قول أنَّ المهدي ليس إماما عاما، أو أن عيسى ليس إمام عاما؟ فإن قال: بل هما إمامان عامان، نقول وهو كذلك فيمن كان قبلهما من أئمة الفرقة المنصورة، يقول النبي ﷺ: {لا تَزالُ طائفةٌ من أُمَّتي يقاتِلونَ على الحقِّ، ظاهرينَ

---

[1] مسلم 360.

[2] رواه البخاري (7311) ومسلم (156).

[3] أخرجه مسلم 1920.

[4] صحيح: أخرجه أبو داود (2608)، والطبراني في ((المعجم الأوسط)) (8093)، والبيهقي (10651) وصححه الألباني.

[5] حسن لغيره: أخرجه أحمد (6647)، والطبراني كما في ((مجمع الزوائد)) للهيثمي (66/8) مطولاً، حسن يشهد له الحديث السابق بالمعنى.

إلى يومِ القيامةِ، فيَنْزِلُ عيسى ابنُ مريمَ، فيقولُ أميرُهم: تَعَالَ صَلِّ لنا، فيقولُ: لا، إنَّ بعضَكم على بعضٍ أميرٌ، تَكْرِمَةُ اللهِ لهذه الأُمَّةِ}[1]، فإن دلَّ هذا الحديث على إمامة المهدي العامة، وإمامة عيسى العامَّة، فيلزم بالضرورة أن يكون كل أئمة الفرقة المنصورة عامِّين، لدلالة قول النبي ﷺ: لا (تزال طائفة من أمتي) لا تزال أي: باقية، فإن كان حكم آخر أئمَّتهم الإمامة العامة فلابد أن يكون حكم بقية أئمَّتهم كحكم آخرهم، فيُفهم من هذا أنَّ هذه الطائفة المنصورة موجودة في كل جيل وعصر، وأنَّ لها إماما في كل جيل وعصر، وهذا الإمام الأصل فيه أنه إمام عام، لكل جيل وعصر إمامه، ولا يضره من خذله، بعدم بيعته، كما لا يضرُّ الفرقة المنصورة من خذلها، كما قال النبي ﷺ: (لا تَزالُ طائِفَةٌ مِن أُمَّتي ظاهِرِينَ علَى الحَقِّ، لا يَضُرُّهُمْ مَن خَذَلَهُمْ) والخذلان لإمامهم بعدم بيعته، والخذلان للفرقة بعدم اتباعهم، ولكن ما هو زمان ظهور هذه الفرقة؟ يقول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة من أمتي) أي: كانت وتكون وستكون وسوف تكون موجودة حتى ينزل عيسى ابن مريم، بل تبقى قائمة حتى خروج القحطاني وهو خليفة عادل من قحطان، يقول النبي ﷺ: {سيكون من بعدي خلفاء ومن بعد الخلفاء أمراء ومن بعد الأمراء ملوك ومن بعد الملوك جبابرة ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملا الأرض عدلا كما ملئت جورا ثم يؤمر القحطاني والذي بعثني بالحق ما هو دونه}[2]، فقوله: (والذي بعثني بالحق ما هو دونه)، أي: ليس دون المهدي في العدل والتقوى.

فهذه الفرقة المنصورة المذكورة في الأحاديث المتواترة التي كانت وهي موجودة الآن وستكون وسوف تكون، واجبة الاتباع، فيجب على كل مسلم اتباع إمام تلك الفرقة، وعدم اتباع الناس لإمام تلك الفرقة لا ينفي إمامته العامة، بل يبين تقصير المعرضين عن اتباعه، لذلك أكَّد الرسول ﷺ على مبايعة المهدي ولو زحفا، لكي لا يُعرض عنه المعرضون كما أعرضوا عمن قبله، يقول النبي ﷺ: {يَقْتَتِلُ عِنْدَ كَنْزِكُمْ ثَلَاثَةٌ، كُلُّهُمْ ابْنُ خَلِيفَةٍ، ثُمَّ لَا يَصِيرُ إِلَى وَاحِدٍ مِنْهُمْ،

---

[1] صحيح أخرجه مسلم 156.

[2] حسن لغيره أخرجه السيوطي في الجامع الصغير وحسنه 4752.

ثُمَّ تَطْلُعُ الرَّايَاتُ السُّودُ مِنْ قِبَلِ الْمَشْرِقِ فَيَقْتُلُونَكُمْ قَتْلًا لَمْ يُقْتَلْهُ قَوْمٌ – ثُمَّ ذَكَرَ شَيْئًا لَا أَحْفَظُهُ – فَقَالَ: فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُ فَبَايِعُوهُ وَلَوْ حَبْوًا عَلَى الثَّلْجِ، فَإِنَّهُ خَلِيفَةُ اللَّهِ الْمَهْدِيُّ}[1].

فنخرج من هذا أنَّ الفرقة المنصورة موجودة في كل زمان، وأنَّ إمامهم أمام عام، وأنَّ عدم التفاف المسلمين حوله لا يمنع أن تكون إمامته عامَّة، بل يجب البحث عنه وبيعته في كل زمان، فإن لم يعرفه، فليبايع الأقرب فالأقرب، وأما حديث: {تَكُونُ النُّبُوَّةُ فِيكُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ النُّبُوَّةِ، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا عَاضًّا، فَيَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ مُلْكًا جَبْرِيَّةً، فَتَكُونُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ تَكُونَ، ثُمَّ يَرْفَعُهَا إِذَا شَاءَ أَنْ يَرْفَعَهَا، ثُمَّ تَكُونُ خِلَافَةٌ عَلَى مِنْهَاجِ نُبُوَّةٍ}[2].

فهذا الحديث يحكي على الظلم والجور، لا على عموم الإمامة، فكل ولي أمر فيهم هو إمام عام، سواء كان على نهج النبوَّة أم لا.

وأمَّا بيعة من لا يؤمن بالبيعة فلا أراها نافذة، مثل بيعة الملوك والرؤساء وغيرهم ممن لا يحكم شرع الله تعالى، فكيف تتم البيعة بين التابع والمتبوع، والمتبوع لا يؤمن بالبيعة؟ بل يؤمن بالحكم الجبري والعضوض وحكم الجاهلية، فالملك العضوض هو الذي يصيب الناس فيه الظلم والجور، والملك الجبري هو الذي يكون فيه عتو وقهر، بل لا يؤمن بحكم الله تعالى، ويرى حكم غير الله تعالى من ديمقراطية وغيرها خير من حكم الله تعالى، والديمقراطية باليونانية وحرفيا هي: حكم الشعب، والصحيح أن الحكم لله تعالى وحده لا شريك له، فالبيعة الحق تكون لمن يحكم بما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ من كتاب وسنة، وما عدا هذا فاعتبره حكما عضوضا أو جبريا، أو دكتاتورية، وهو أن يكون الحكم لشخص واحد، وطبعا هذا الواحد يحكم بحكمه الخاص ولا يرفع بحكم الله تعالى رأسا، والله تعالى يقول: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ

---

[1] حسن بشواهده: رواه ابن ماجه في السنن (رقم/4084)، والبزار في المسند (120/2)، والروياني (رقم/619)، والحاكم في المستدرك (510/4)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (515/6).
رووه من طريق سفيان الثوري، عن خالد الحذاء، عن أبي قلابة، عن أبي أسماء، عن ثوبان به مرفوعا.

[2] رواه الإمام أحمد في "المسند" (30 / 355)، وحسنه الألباني في هداية الرواة 5306.

الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: 48].

يقول: وأنزلنا إليك أيها الرسول القرآن بالصدق الذي لا شك ولا ريب أنه من عند الله، مصدقًا لما سبقه من الكتب المنزلة، ومؤتَمَنًا عليها، فما وافقه منها فهو حق، وما خالفه فهو باطل، فاحكم بين الناس بما أنزل الله عليك فيه، ولا تتبع أهواءهم التي أخذوا بها، تاركًا ما أنزل عليك من الحق الذي لا شك فيه.

ويقول الله تعالى: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ﴾ [المائدة: 49].

يقول: وأن احكم بينهم أيها الرسول بما أنزل الله إليك، ولا تتبع آراءهم النابعة من اتباع الهوى، واحذرهم أن يضلوك عن بعض ما أنزل الله عليك، فلن يألوا جهدًا في سبيل ذلك.

ويقول تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50].

يقول: أَيُعْرِضون عن حكمك طالبين حكم أهل الجاهلية وكل حكم غير حكم الله تعالى هو حكم جاهلي، وهم الذين يحكمون تبعًا لأهوائهم؟! فلا أحد أحسن حكمًا من الله عند أهل اليقين الذين يعقلون عن الله تعالى ما أنزل على رسوله ﷺ، لا حكم أهل الجهل والأهواء الذين لا يقبلون إلا ما يوافق أهواءهم وإن كان باطلاً.

ويقول الله تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40]، **فانظر كيف قرن سبحانه إثبات الحكم له وحده مع إثبات العبادة له وحده، فحكم الله تعالى فرض واجب تنفيذه فهو روح العقيدة السليمة، وانظر رحمك الله إلى إعراب هذه الآية:**

(إِنِ) حرف نفي (الْحُكْمُ) مبتدأ (إِلَّا) أداة حصر، فتحصر الحكم لله تعالى وحده، (لِلَّهِ) لفظ الجلالة مجرور باللام ومتعلقان بالخبر المحذوف والجملة مستأنفة (أَمَرَ) ماض وفاعله مستتر (إِنِ) ناصبة (لا) نافية (تَعْبُدُوا) مضارع منصوب بأن وعلامة نصبه حذف النون والواو، و(تعْبدوا) نكرة في سياق النهي تفيد نفي عموم العبادة بأنواعها، وقلنا نكرة بالنظر إلى أصل كلمة (تعبدوا) أنَّ مصدرها عبادة، فنفى سبحانه بذلك عموم العبادة، وحصرها سبحان له

وحده بقوله، ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ وإلا أداة حصر تحصر العبادة لله وحده، وإياه ضمير منفصل في محل نصب مفعول به والجملة مستأنفة وأن وما بعدها في محل جر بالباء المحذوفة ومتعلقان بأمر.

فلاحظ هداك الله، كيف حصر سبحانه الحكم له وحده وقرنه بحر العبادة له وحده، ممَّا يعني أنَّ الحكم عبادة لا يجوز صرفها لغيره سبحانه، يقول الحق تبارك وتعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44].

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

فانظر كيف وصفهم الله تعالى؛ فمن لم يحكم بما أنزل فهو في احدى ثلاث: فهو إمَّا كافر، بصريح النص، وإما فاسق فسقا كفريًّا لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]، **أو ظالم والظلم شرك بدليل قوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، **وأخيرا فتحكيم حكم الله تعالى في أرض الله تعالى فرض على كل وليِّ أمر، وعلى المسلم أن يبحث عن أرض يُحكم فيها بحكم الله تعالى، أو يمضي عمره في البحث؛ فإنه لا يُعدم حكم الله تعالى في الأرض أبدا.**

كذلك وجب على المسلم ألا يموت حتى يباع أميرا، فالنبي ﷺ: {... مَن خَلَعَ يَدًا مِن طَاعَةٍ، لَقِيَ اللَّهَ يَومَ القِيَامَةِ لا حُجَّةَ له، وَمَن مَاتَ وَليسَ في عُنُقِهِ بَيْعَةٌ، مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً}[1].

أي مات على الضَّلالَةِ كما يموتُ أهلُ الجاهليَّةِ عليها مِن جِهَةِ أَنَّهم كانوا لا يَدخُلون تحتَ طاعةِ أميرٍ ويَرَوْنَ ذلك عَيْبًا، بل كان ضَعِيفُهم نَهْبًا لِقَوِيِّهم، والبيعةُ هي المُعاقَدةُ والمُعاهَدةُ على الالتِزامِ بما يُوجِبُه اللهُ تعالى ورَسولُه ﷺ، وسُمِّيتْ بذلك تَشبيهًا بالمُعاوَضةِ الماليَّةِ، كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما يَبيعُ ما عِندَه مِن صاحبِه.

[1] أخرجه مسلم **1815**.

وسنتحدث في الفصول القادمة إن شاء الله تعالى، على وجوب تحكيم شرع الله، وعلى البيعة وشروطها على من تجب ولمن تجب.

وخلاصة:

فإنَّ بلوغ مقامات المحبين يدور على وجهين:

الوجه الأوَّل: يحتمل أربعة أحوال يُنهى عن الإكثار منها وهي:

الحال الأول: قلة الكلام.

ففي قلة الكلام السلامة من الآفات.

الحال الثاني: قلة المنام.

ففي قلة المنام صفو الإرادات.

الحال الثالث: قلة الطعام.

ففي قلة الطعام الشفاء من العلات[1].

الحال الرابع: احتمال الأذى من الأنام (كظم الغيظ).

ففي احتمال الأذى من الأنام علو الدرجات.

الوجه الثاني: ويحتمل أربع أحوال يرجى الإكثار منها وهي:

الحال الأول: إطعام الطعام.

ففي إطعام الطعام مقام أهل الصدقات.

الحال الثاني: الصلاة والناس نيام.

وفي الصلاة والناس نيام، علو المقامات.

الحال الثالث: إدمان الصيام.

وفي إدمان الصيام تهذيب النفس من الآفات.

الحال الرابع: والجهاد فهو ذروة السنام.

وفي الجهاد بلوغ أقصى الغايات.



---

[1] المفرد علة: والجمع علل وعلات، ينظر: معاجم اللغة العربية.

﴿علامات محبة الله تعالى﴾

لمحبة الله تعالى للعبد ممَّا ينجر عنها حب العبد للرب علامات كثيرة، نذكر منها:

1 – تعلق القلب بحب الله تعالى، فهي أقوى علامة على حب الله تعالى للمؤمن وهو أن يلقي حبه في قلب عبده، قال تعالى: ﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾[التوبة: 100]، **انظر كيف قدَّم رضاه على رضاهم، فهم لم يتمَّ رضاهم عن الله تعالى إلا بعد أن رضي الله عنهم، وكذلك في الحب، فلن يدخل حب الله تعالى قلب مؤمن حتَّى يحبه الله تعالى أولا.**

كذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾[المائدة: 54].

انظر كيف قدَّم حبه سبحانه على حبهم، فهم لم يحبوه إلا بعد أن أحبهم الله تعالى ثمَّ ألقى حبه في قلوبهم.

2 – التواضع والذل والانكسار لإخوانه من أهل الإيمان.

3 – العزَّة والشدة على أهل الكفر والنفاق والفسق.

4 – حب الجهاد في سبيل الله تعالى.

5 – لا يخاف في الله تعالى لومة لائم.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[المائدة: 54].

وهنا قد ذكر سبحانه التذلل لمؤمنين، فهو من علامات محبة الله تعالى وذلك في قوله تعالى: (أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ)، وذكر العزَّة على الكافرين في قوله سبحانه: (أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ) وذكر الجهاد في قوله تعالى: (يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ)، وذكر عدم الخوف من لوم اللائمين بقوله سبحانه: (وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ)، فهذه الأربعة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية كلها أدلة على محبَّة الله تعالى لعبده ومحبة العبد لربه، وذلك لأنها معطوفة على قوله تعالى: (فَسَوْفَ

يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)، ثمَّ بعد ذلك ذكر الأوصاف الأربعة الدالة عليهم، وهي السابق ذكرها.

5 – اتباع النبي الكريم ﷺ وعدم مخالفته في شيء.

يقول الحق تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[آل عمران: 31].

وعليه فاتباع النبي ﷺ وعدم التخلف عنه في شيء هو من أدمغ العلامات على محبة اله تعالى.

6 – الإتيان بالنوافل المقيدة والزيادة بالنوافل المطلق.

يقول النبي ﷺ في ما يخبر عن ربه تعالى: إنَّه قالَ: {مَن عادَى لي وَلِيًّا فقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ، وما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممَّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ، فإذا أحْبَبْتُهُ، كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ به، وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ به، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها، ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها، وإنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، ولَئِنِ اسْتَعاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وما تَرَدَّدْتُ عن شَيءٍ أنا فاعِلُهُ تَرَدُّدِي عن نَفْسِ المُؤْمِنِ؛ يَكْرَهُ المَوْتَ، وأنا أكْرَهُ مَساءَتَهُ}[1].

7 – التحابب في الله تعالى.

8 – التزاور في الله تعالى.

9 – التباذل في الله تعالى.

10 – التواصل في الله تعالى.

يقول النبي ﷺ في ما يخبر عن ربه: {حَقَّتْ مَحَبَّتي للمُتَحابِّينَ فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتي للمُتَزاوِرِينَ فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتي للمُتَباذِلينَ فيَّ، وحَقَّتْ مَحَبَّتي للمُتَواصِلينَ فيَّ}[2].

---

[1] أخرجه البخاري في الصحيح 6502.

[2] صحيح: أخرجه الترمذي (2390) مختصراً من حديث معاذ، وأحمد (22002)، أخرجه الضياء المقدسي في الأحاديث المختارة 311/8، واللفظ له، والدمياطي في المتجر الرابح 260، والمنذري في الترغيب والترهيب 82/4 وقال إسناده صحيح، والحاكم في المستدرك 7521، والبيهقي (21599) باختلاف يسير، وصححه الألباني والأرناؤوط.

والتحابب في الله تعالى، هو أن يحب المرء أخيه المؤمن لا لشيء إلا لدينه، أو للأخوة في الإسلام، يقول النبي ﷺ: {سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إلَّا ظِلُّهُ: إمَامٌ عَدْلٌ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّهِ، ورَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ، ورَجُلَانِ تَحَابَّا في اللَّهِ، اجْتَمعا عليه وتَفَرَّقَا عليه، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ فَقالَ: إنِّي أَخَافُ اللَّهَ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بصَدَقَةٍ فأخْفَاهَا حتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ}[1].

والمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ أي: أَن يَكُونَ زِيَارَةُ بَعضِهِم لِبَعضٍ مِن أَجلِهِ وَفِي ذَاتِهِ وَابتِغَاءِ مَرضَاتِهِ مِن مَحَبَّةٍ لِوَجهِهِ أَو تَعَاوُنٍ عَلَى طَاعَتِهِ، أو عيادة، يقوب النبي ﷺ: {إنَّ اللَّهَ عزَّ وجلَّ يقولُ يومَ القِيامَةِ: يا ابْنَ آدَمَ، مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قالَ: يا رَبِّ، كيفَ أعُودُكَ وأَنْتَ رَبُّ العالَمِينَ؟! قالَ: أَمَا عَلِمْتَ أنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أنَّكَ لو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟...}[2]

وَالمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ، أي: يَبذُلُونَ أَنفُسَهُمْ فِي مَرضَاتِهِ مِن الِاتِّفَاقِ عَلَى جِهَادِ عَدُوِّهِ وَغَيرِ ذَلِكَ مِمَّا أُمِرُوا بِهِ[3].

أو الذين يبذلون ما في وسعهم مساعدة لبعضهم فيما يرضي الله تعالى، يقول النبي ﷺ: {مَن نَفَّسَ عن مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِن كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللَّهُ عنْه كُرْبَةً مِن كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ، وَمَن يَسَّرَ علَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللَّهُ عليه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَن سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللَّهُ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَاللَّهُ في عَوْنِ العَبْدِ ما كانَ العَبْدُ في عَوْنِ أَخِيهِ،...}[4].

وقوله تعالى: للمُتَواصِلينَ فيَّ: أي: للذين يصلون أرحامهم لوجه الله تعالى، ولو كان في أقاربهم جفاء، يقول النبي ﷺ: {الرَّحِمُ معلَّقةٌ بالعرشِ تقولُ: مَن وَصَلني وصلَه اللهُ ومَن قطعني قطعه اللهُ}[5].

---

[1] أخرجه البخاري (1423)، ومسلم (1031).

[2] أخرج مسلم 2569.

[3] ينظر: المنتقى شرح الموطأ حديث 1779.

[4] أخرجه مسلم: 2699.

[5] أخرجه مسلم 2555.

11 – الابتلاء.

يقول النبي ﷺ: {إنَّ عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ؛ و إنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رضيَ فله الرِّضَى، ومن سخِط فله السُّخطُ}[1].

ونزول البلاء خيرٌ للمؤمن من أن يُدَّخر له العقاب في الآخرة، كيف لا وفيه تُرفع درجاته وتكفر سيئاته، قال النبي ﷺ: {إذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافيه به يوم القيامة}[2].

﴿لوازم محبة الله تعالى﴾

إنَّ لمحبَّة الله تعالى لوازم وأركان لا تتم ولا تصلح إلا بها، وهي على ما يلي:

أولا: محبة الرسول ﷺ خاصة، ومحبة جميع الرسل عامة:

يقول النبي ﷺ: {لا يُؤْمِنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولدِهِ، ووالدِهِ، والناسِ أجمعينَ}[3].

والله تعالى يقول: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

ويقول النبي ﷺ: في صيام يوم عاشوراء: {نَحْنُ أَوْلَى بمُوسَى مِنكُم فأمَرَ بصَوْمِهِ}[4].

وفي هذا دليل عدم التفريق بين الأنبياء والرسل، ومن ذلك محبتهم كلهم دون تفريق بينهم.

من لوازم محبة الرسول ﷺ:

1 – محبة شخصه.

2 – ومحبة قوله وفعله وتقريراته، والإسراع في العمل بها.

3 – وقبول كل ما صحَّ من أخباره، والاحتكام بحكمه، ومحبة حكمه مع التسليم التام.

---

[1] أخرجه الترمذي بعد حديث (2396)، وابن ماجه (4031) وحسنه الألباني.

[2] رواه الترمذي (2396) ، وصححه الشيخ الألباني.

[3] أخرجه مسلم (44) واللفظ له، وأخرجه البخاري (15) باختلاف يسير

[4] أخرجه البخاري (4680)، ومسلم (1130) واللفظ.

يقول الودود تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: 65] .

4 – ومحبة كل ما يحبه، وبغض كل ما يبغضه.

فيرشدنا أبو أيوب الأنصاري لمعنى الحب الصادق: {أنه كانَ يَصْنَعُ للنَّبيِّ ﷺ طَعَامًا، فَإِذَا جِيءَ به إلَيْهِ سَأَلَ عن مَوْضِعِ أَصَابِعِهِ، فَيَتَتَبَّعُ مَوْضِعَ أَصَابِعِهِ، فَصَنَعَ له طَعَامًا فيه ثُومٌ، فَلَمَّا رُدَّ إلَيْهِ سَأَلَ عن مَوْضِعِ أَصَابعِ النَّبيِّ ﷺ، فقِيلَ له: لَمْ يَأْكُلْ، فَفَزِعَ وَصَعِدَ إلَيْهِ، فَقالَ: أَحَرَامٌ هُوَ؟ فَقالَ النَّبيُّ ﷺ: لا، وَلَكِنِّي أَكْرَهُهُ، قالَ: فإنِّي أَكْرَهُ ما تَكْرَهُ أَوْ ما كَرِهْتَ}[1].

فانظر إلى أبي أيوب كيف أصبح يكره الثوم؛ وذلك لمجرَّد أنَّ محبوبه لا يحب الثوم، والثوم مباح الأكل، وكراهته مرتبطة بالمساجد والصلاة وحسب.

ثانيا: محبة جبريل ﷺ خاصة، والملائكة عامة:

يقول الودود تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[البقرة: 97] .

﴿ وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾[التحريم: 4].

وجبريل ﷺ في هذه الآية مذكور من باب عطف العام على الخاص، فجبريل من جملة الملائكة ولكنه سبحانه أفرده بالذكر ثمَّ عطف عليه بذكر الملائكة، وعطف العام على الخاص، يعطي الخاص مزية على بقية العام.

وقال: ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾[البقرة: 98] .

هنا كذلك فهي من باب عطف الخاص على العام، عكس السابق، ممَّا يعطي مزية أيضا للخاص من جملة العام.

وقال: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾[النساء: 136] .

---

[1] أخرجه مسلم **2053**.

وعليه؛ فإن عطف الخاص (جبريل وميكال) على العام (الملائكة) يعطي الخاص مزية على العام، كما أفرد جبريل بالذكر في الآية الأولى، مما يدل على خصوصيته من جملة الملائكة.

وبه فيجب أن تكون محبة جبريل ﷺ خاصَّة لخصوصيته عند الله تعالى، ولأنه رسولُ رسولِ هذه الأمة، وقد مدحه الله تعالى في القرآن بما لم يمدح به غيره، بما يدل على مكانته عند ذي العرش سبحانه، حيث قال تعالى: ﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴾ [النج: 6].

والمرة قيل فيها أنها: الخلق الحسن، وقيل القوة، والجمع بين القولين أولى من الترجيح.

وقال: ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [النجم: 20].

كذلك: ذكره الله جل وعلا في سورة التحريم ذكراً مشرفاً؛ لأنه ذكره ذكراً خاصاً وعاماً، قال الله جل وعلا: ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ [التحريم: 4].

ووصفه سبحانه بالأمين فقال: ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴾ [الشعراء: 193].

ومدح الودود سبحانه عامة ملائكته بقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء: 26 – 28].

ثالثا: محبة المحسنين خاصة والمسلمين عامَّة:

يقول الودود تبارك وتعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: 29].

يقول الطبري: ألقى الله في قلوبهم الرحمة، بعضهم لبعض[1].

فدلت رحمتهم لبعضهم على حبهم لبعضهم.

يقول النبي ﷺ: {والَّذي نفسي بيدِه لا تدخلوا الجنَّةَ حتَّى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتَّى تحابُّوا، أولا

[1] ينظر: تفسير الطبري.

أدلُّكم علَى شيءٍ إذا فعلتُموهُ تحاببتُم؟ أفشوا السَّلامَ بينَكم}[1].

وقال ﷺ: {والذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيدِهِ لا يُؤْمِنُ أحدُكُم حتى يُحِبَّ لِأَخِيهِ ما يُحِبُّ لنفسِهِ من الخيرِ}[2].

وقال ﷺ: {المُؤْمِنَ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يشدُّ بَعضُهُ بعضًا وشَبَّكَ أصَابِعَهُ}[3].

وقال ﷺ: {المؤمِنُ مرآةُ أخيهِ، المؤمنُ أخو المؤمنِ يَكُفُّ عليهِ ضَيْعَتَه ويحوطُه مِن ورائِهِ}[4].

وقال ﷺ: {تَرَى المُؤْمِنِينَ في تَراحُمِهِمْ وتَوادِّهِمْ وتَعاطُفِهِمْ، كَمَثَلِ الجَسَدِ، إذا اشْتَكَى عُضْوًا تَداعَى له سائِرُ جَسَدِهِ بالسَّهَرِ والحُمَّى}[5].

رابعا: محبة حكم الله تعالى تحكيمه والرضا به:

يقول الحكم تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[النساء: 65].

قال السعدي رحمه الله تعالى: ثم أقسم تعالى بنفسه الكريمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموا رسوله ﷺ فيما شجر بينهم، أي: في كل شيء يحصل فيه اختلاف، بخلاف مسائل الإجماع، فإنها لا تكون إلا مستندة للكتاب والسنة، ثم لا يكفي هذا التحكيم حتى ينتفي الحرج من قلوبهم والضيق، وكونهم يحكمونه على وجه الإغماض، ثم لا يكفي ذلك حتى يسلموا لحكمه تسليمًا بانشراح صدر، وطمأنينة نفس، وانقياد بالظاهر والباطن.

فالتحكيم في مقام الإسلام، وانتفاء الحرج في مقام الإيمان، والتسليم في مقام الإحسان.

فمَن استكمل هذه المراتب وكملها، فقد استكمل مراتب الدين كلها.

---

[1] أخرجه مسلم (54)، وأبو داود (5193)، والترمذي (2688)، وابن ماجه (68) واللفظ له، وأحمد (9709).

[2] أخرجه النسائي (5017) واللفظ له، وأخرجه البخاري (13)، ومسلم (45) مختصراً بلفظ مقارب.

[3] أخرجه البخاري 481، و6026، ومسلم 2585.

[4] أخرجه أبو داود (4918)، والبخاري في ((الأدب المفرد)) (239) واللفظ له، والبزار (8109)، والطبراني في ((مكارم الأخلاق)) (92).

يكُفُّ عليهِ ضيعَته: أي: يحفَظُ عليهِ مالَه ولا يُضيِّعه، "ويَحوطُه مِن ورائِه"، أي: يحفظُ جميعَ شُؤونَ أخيهِ إذا غابَ؛ فيَحفظُ مالَه وأهلَه ومصالِحَه.

[5] البخاري 6011.

فمَن ترك هذا التحكيم المذكور غير ملتزم له فهو كافر، ومَن تركه، مع التزامه فله حكم أمثاله من العاصين[1]. اهـ

وأما الذي يدعي محبة الله تعالى، ولا يحكم كتابه مع قدرته على تحكيمه، فقولنا فيه قول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

فليختر لنفسه واحدة من الثلاثة.

خامسا: محبة سنة رسول الله ﷺ والعمل بها:

قال النبي ﷺ: {... فمَن رغِب عن سنَّتي فليس منِّي}[2].

فمن أبغض شيئا من سنة النبي ﷺ لحية أو قميصا أو سواكا أو تقصيرا أو غير ذلك ولو قلَّ، فهو خارج من ديوان أهل السنَّة.

لأنَّ لفظ المحبة ليس قولا باللسان فقط، بل الحب هو روح العقيدة، فيشترط فيه القول باللسان، والعمل بالجوارح، والتصديق والقبول والتسليم بالجنان.

حكم محبة الله تعالى:

حكم محبة الله تعالى الوجوب العيني مع الأوَّلية، فهو واجب عيني، مقدم على أي حبٍّ آخر، قال النبي ﷺ: {ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وجَدَ حلاوَةَ الإيمانِ: أنْ يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبُّ إليه مِمَّا سِواهُما، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحبُّهُ إلَّا للهِ، وأنْ يَكْرَهَ أنْ يَعودَ في الكُفرِ بعدَ إذْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ؛ كَما يَكرَهُ أنْ يُلْقى في النارِ}[3].

يقول إمام ابن باز رحمه الله تعالى: يجب أن يحب الله بكل قلبه، محبة لا يعادلها شيء، يكون الله أحب إليه من كل ما سواه، محبة صادقة تقتضي طاعته وترك معصيته،...ثم يحب الرسول

---

[1] ينظر: تفسير السعدي.

[2] أخرجه البخاري **5063**، وابن حبان **317**.

[3] أخرجه البخاري (**16**)، ومسلم (**43**)، والترمذي (**2624**) واللفظ له، والنسائي (**4987**)، وابن ماجه (**4033**)، وأحمد (**12021**).

ﷺ محبة صادقة بعد محبة الله يحبه في الله؛ لأنه رسول الله، ويحب المؤمنين؛ لأنهم أولياء الله وأحباء الله، ويكره الكافرين ويبغضهم؛ لأنهم أعداء الله، هكذا المؤمن[1].اهـ

فلا بأس بالمسلم أن يحب ابنه أو والديه بل هو مطالب بذلك، أو يحب زوجته، ولكن لا يجوز أنَّ يحب زوجته فَيَهِيمُ بحبها فيصبح قلبه معمورا بحبها وحدها، وهو كذلك في الأولاد والوالدين، فهذا لا يجوز، يقول الودود سبحانه تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: 24].

وعليه فيجب أن يكون حب الله تعالى مقدما على حب كلِّ شيء.

ووعودا ببدء ما زلنا في المسألة الرابعة، أنواع العبادة إجمالا.



---

[1] فتاوي ابن باز نور على الدرب.

﴿الفرع الثاني عشر﴾

﴿الرغبة﴾

والرغبة لغةً:

قال ابن فارس رحمه الله: الراء والغين والباء أصلان: أحدهما طلب لشيء. والآخر سعة في شيء. فالأول: الرغبة في الشيء: الإرادة له، رغبت في الشيء، فإذا لم ترده قلت: رغبت عنه[1].

والرغبة: السؤال والطمع، يقال: رغب يرغب رَغبًا ورُغبًا ورغبة؛ إذا حرص على الشيء، وطمع فيه، ورجل رغوب: من الرغبةِ والرغيبة: العطاء الكثير والواسع، وأرغبني في الشيء، ورغبني بمعنى واحد[2].

والرَّغبةُ شرعًا:

الرغبة: هي طلب أو محبة الوصول إلى الشيء المحبوب[3]، فالرغبة إلى الله: هي الطمع فيما عند الله تعالى، والحرص على طلبه[4].

والرغبة: سَفَرُ القلبِ فِي طلبِ المرغوبِ فيهِ[5].

الفرق بين الرغبة والرجاء:

قالَ ابنُ القيِّمِ رحمهُ اللهُ تعالَى: والفرقُ بينَ الرَّغبةِ والرَّجاءِ، أنَّ الرَّجاءَ طمعٌ، والرَّغبةُ طلبٌ، فهيَ ثمرةُ الرَّجاءِ، فإنَّهُ إذَا رجَا شيئًا طلبهُ[6].

قالَ تعالَى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

---

[1] مجمل اللغة لابن فارس388/1، مختار الصحاح للرازي ص: 105.

[2] انظر: مقاييس اللغة (415/2 . 416)، والصحاح للجوهري (137/1) ولسان العرب (254/5).

[3] انظر: شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين (59) وتيسير الوصول إلى شرح ثلاثة الأصول لعبد المحسن القاسم (84).

[4] انظر: مدارج السالكين (474/1).

[5] مدارج السالكين لابن القيم550/1.

[6] مدارج السالكين لابن القيم58/2.

قالَ الطَّبرِي: وكانوا يعبدوننا رغبا ورهبا، وعنى بالدعاء في هذا الموضع: العبادة، كما قال ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[مريم: 48]، ويعنى بقوله (رَغَبا) أنهم كانوا يعبدونه رغبة منهم فيما عنده، ويرجون منه رحمته وفضله (وَرَهَبا) يعني رهبة منهم من عذابه وعقابه، بتركهم عبادته وركوبهم معصيته[1].اهـ

ولا يمنع قول الطبري أنَّ الدعاء هنا المراد به دعاء العبادة، أن يكون أيضا دعاء المسألة لأنَّ الأصل في دعاء المسألة هو أنه عبادة، فهو رغبة فيما عند الله تعالى من خير.

ويقابلُ الرَّجاءَ الخوفُ، ويقابلُ الرغْبَةَ الرَّهبةُ، والرَّهبةُ هي: الخوفُ والفزعُ[2].

الفرق بين الرغبة والرهبة:

فالرهبة هي الإمعان في الفزع من المرهوب، فهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه[3].

الفرق بين دعاء الرغبة ودعاء الرهبة:

قيل في دعاء الرغبة: يجعل ظاهر كفيه إلى السماء وباطنهما إلى الأرض، وفي الرهبة بالعكس يجعل باطنهما إلى السماء وظاهرهما إلى الأرض، وقالوا: الراغب كالمستطعم، والراهب كالمستجير[4].

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾[الإسراء: 57].

فهم بين الرجاء والخوف، لم يمنعهم الخوف من ترجي ربهم، ولم يملأ الرجا قلوبهم فأنساهم الخوف، بل هم بين الرجاء والخوف يتراوحون بينهما.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: 90].

---

[1] تفسير الطبري – بتصرف خفيف.

[2] ينظر: معجم المعاني.

[3] انظر: مدارج السالكين (417/1).

[4] انظر: المستدرك على مجموع الفتاوى (135/3)، وانظر: جامع المسائل لابن تيمية (89/4).

وهؤلاء يدعون الله تعالى، رغبة فيما عنده من حسن الثواب، ويدعون كذلك خوفا من عذابه، فلم تركن قلوبهم إلى الرغبة وحدها فأنستهم الرهبة، ولم تملأ قلوبهم الرهبة وحدها فأنستهم الرغبة، بل هم يتراوحون بين ذلك فهم يرغبون ويرهبون.

حكم الرغبة:

الرغبة من الأعمال القلبية التي يتقرب بها إلى الله عزّ وجل، وقد أمر الله نبيَّه ﷺ بالرغبة إليه فقال: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: 9]**، ومدح أنبيائه عليهم السلام بذلك فقال:** ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90]**، وعلى هذا فهي عبادة جليلة، وقربة عظيمة، فلا يجوز صرفها لغير الله تعالى، وأما الرغبة من المخلوق بمعنى طلب الشيء منه، فهي جائزة إذا كان حيًّا قادرًا حاضرًا، وأما من طلب من مخلوق ما لا يقدر عليه إلا الخالق، أو فيما يقدر عليه مخلوق لكن ذلك المخلوق ميت أو غائب (أو غير قادر) فقد أشرك في عبادة الله تعالى[1].**



[1] انظر: قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (287)، والصواعق المرسلة الشهابية لسليمان بن سحمان (135).

﴿الفرع الثالث عشر﴾

﴿الرهبة﴾

الرهبة لغة:

قال ابن فارس رحمه الله: الراء والهاء والباء أصلان: أحدهما يدل على خوف، والآخر على دقة وخفة.

فالأول الرهبة: تقول: رهبت الشيء رَهبًا ورُهبًا ورهبة.

والترهُّب: التعبد[1].

والرهبة: الخوف والفزع، من رهِب يرهب الشيء رهبة ورُهبًا ورَهبًا؛ أي: خافه، ويقال: أرهبه واسترهبه: إذا أخافه، والراهب: واحد رهبان النصارى، ويطلق على المنقطع للعبادة في الصومعة[2].

الرهبة شرعا:

هي الإمعان في الهرب من المكروه[3]، أو الخوف والفزع المثمر للهرب من المخوف، فهي خوف مقرون بعمل[4].

أو: هو الخوف المتواصل دون انقطاع.

وحقيقة الرهبة: أنها الفزع والخوف من المكروه؛ كعذاب الله تعالى وعقابه، والسعي بالعمل الذي ينجي منه، فهي خوف مثمر للهرب من المخوف، مقرون بالعمل[5].

الفرق بين الرهبة والخوف:

أن الرهبة طول الخوف واستمراره، ومن ثم قيل للراهب: راهب؛ لأنه يديم الخوف[6].

---

[1] مقاييس اللغة لابن فارس (447/2).

[2] انظر: الصحاح (140/1)، ولسان العرب (337/5) وترتيب القاموس المحيط (398/2).

[3] انظر: مدارج السالكين (474/1).

[4] انظر: شرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين (59)، وتيسير الوصول إلى شرح ثلاثة الأصول لعبد المحسن القاسم.

[5] انظر: مدارج السالكين (474/1)، وشرح ثلاثة الأصول لابن عثيمين (59)، وتيسير الوصول إلى شرح ثلاثة الأصول للقاسم (84).

[6] الفروق اللغوية للعسكري (241).

وأما الخوف فلا يستمر، بل هو مرتبط متقطع.

والرهبة مستمرة باستمرار ذكر المخوِّف ودوام وجوده، لذلك كانت الرهبة حقا لله تعالى وحده.

وذكر ابن القيِّم: أن الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف.

وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام، وهذا سبب الخوف، لا أنه نفسه.

وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه[1].

حكم الرهبة:

الرهبة من الله عزّ وجل: نوع من أجلّ العبادات القلبية، التي يتقرب بها إلى الله عزّ وجل، فلا يجوز صرفها لغير الله تعالى، ومن صرفه لغيره فقد أشرك الشرك الأكبر[2].



[1] مدارج السالكين (508/1) بتصرف.

[2] انظر: ثلاثة الأصول مع حاشية ابن قاسم (34. 35، 39) ومجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (228/4).

﴿الفرع الرابع عشر﴾

﴿التأله﴾

التأله لغة:

من تألَّهَ يتألَّه ، تألُّهًا ، فهو مُتألِّه، تَألَّهَ، أي: تَنَسَّك وتعبَّد.

وتأله ادعى الألوهية[1].

ومرادنا هو المعنى الأول.

التأله اصطلاحا:

أصل التأله التعبد، والتعبد آخر مراتب الحب، ومراتب الحب على حسب ما رتبها ابن القيم هي:

1 – العلاقة: وفيها تعلُّق القلب بالمحبوب.

2 – الإرادة: وهي ميل القلب إلى المحبوب.

3 – الصَّبابة: وهي انصباب القلب إلى المحبوب، كانصباب الماء في المنحدرات.

4 – الغرام: وهو الحبُّ اللَّازم الذي لا يفارق القلب، كملازمة الغريم لغريمه.

5 – الوداد: وهو صفو المحبَّة.

6 – الشَّغف: وذكر له عدة معانٍ، منها أنه الواصل إلى غشاء القلب، والذي يسمى بالشغاف.

7 – العشق: وهو الحبُّ المفرط، الَّذي يُخاف على صاحبه منه. أهـ

وحقيقة العشق: أنه الود المقترن بالوصال الجنسي، فهذا لا يجوز في الشرع، وليس من مراتب الحب في الشرع.

فالمعنى اللغوي للعشق يبين أنه مرض، وأنه لفظ لا يجوز في الشرع.

فالعشق لغة: من عَشَّقَ الشيءَ بآخَرَ: أَدخل أَطرافَ أَحدهما بين أَطراف الآخر، عشَّق النجّارُ الخشبةَ: أدخلها في أخرى وثبَّتها فيها[2].

---

[1] ينظر: معجم المعاني.

[2] ينظر: معاجم اللغة العربية.

واصطلاحا: مَحَبَّةٌ زائِدَةٌ تَقْتَرِنُ بِشَهْوَةٍ[1]**.**

ويتبين لنا من هذا أنَّ العشق هو حب مقترن بالوصال جنسي، ولا يجوز هذا اللفظ، فلا يجوز أن تقول عشقت الله تعالى ولا الرسول ﷺ ولا غير ذلك، فهذا لفظ لا يجوز إلا للرجل مع زوجته فحسب.

ثمَّ ذكر ابن القيم:

8 – التَّتيُّم: وهو التَّعبُّد، والتَّذلُّل.

9 – التَّعبُّد: وهو فوق التَّتيُّم، فإنَّ العبودية فيها يتملك السيد عبده، وهذه هي حقيقة العبوديَّة لله تعالى.

10 – مرتبة الخلَّة الَّتي انفرد بها الخليلان، إبراهيم ومحمَّد ﷺ[2]**.**

فهذه عشر مراتب ذكرها ابن القيم، فإن حذفنا منها العشق لأنه مرض، بقي على الصحيح تسعة مراتب فقط، وهي: العلاقة، والإرادة، والصبابة، والغرام، والوداد، والشغف، والتتيُّم، والتعبد، والخلَّة.

وعودا إلى التأله، فالإله هو الذي يألهه العباد ذلا، وخوفا، ورجاء وتعظيما وطاعة له.

بمعنى مألوه؛ وهو الذي تألهه القلوب أي تحبه وتذل له[3]**.**

والإله هو: المألوه الذي يستحق أن يؤله ويعبد، والتأله والتعبد: يتضمن غاية الحب بغاية الذل[4]**.**

حكم التأله:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: أما العبادة، والاستعانة، والتأله، فلا حقَّ فيها للبشر بحال[5]**.**



[1] معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ : (ص 398) – شرح العقيدة الطحاوية : (124/1) .

[2] مدارج السالكين، ابن قيم الجوزية، صفحة 29. بتصرّف.

[3] مدارج السالكين 27/3 – 28.

[4] ينظر: النبوات للإمام لابن تيمية 285/1.

[5] ينظر: مجموع الفتاوى لابن تيمية 98/1.

﴿الفرع الخامس عشر﴾

﴿الخشوع﴾

الخشوع لغة:

مصدر خشع، كمنع، يقال: خَشَع يَخْشَعُ خُشوعًا واخْتَشَع وتَخَشَّعَ، ويطلق على الخضوع والسكون والذل، قال الجوهري: «الخُشوعُ: الخضوعُ، يقال: خَشَعَ واخْتَشَعَ»[1].

والخشوع يكون في الصوت؛ كقوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[طه: 108]؛ أي: سكنت وذلت وخضعت[2].

قال الطبري: وسكنت أصوات الخلائق للرحمن فوصف الأصوات بالخشوع[3]. اهـ

فذكر سبحانه وتعالى خشوع الأصوات ثمَّ فسَّر سبحانه ذلك بالانخفاض أي: انخفاض الأصوات فقال: {فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا}

كما يكون في البدن والبصر؛ كقوله تعالى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾[القلم: 43].

كذلك فسر سبحانه وتعالى خشوع الأبصار هنا بالذل.

قال القرطبي: خاشعة أبصارهم أي ذليلة متواضعة[4].

قال ابن القيِّم: «والخشوع في أصل اللغة: الانخفاض والذل والسكون»[5].

الخشوع اصطلاحا:

الخشوع: هو جمع القلب بين يدي الله تعالى والقيام بالخضوع والذل له[6].

---

[1] الصحاح (1204/3).

[2] انظر: لسان العرب (71/08)، والقاموس المحيط (921).

[3] ينظر: تفسير الطبري.

[4] ينظر: تفسير القرطبي.

[5] مدارج السالكين (558/1).

[6] انظر: مدارج السالكين (558/1).

حقيقة الخشوع:

والخشوع في حقيقته: يجمع عدة معان عظيمة، من تعظيم الله تعالى، ومحبته، والذل له، والخشية منه سبحانه، قال ابن القيِّم: والحقّ أنّ الخشوع معنى يلتئم من التّعظيم والمحبّة والذّلّ والانكسار[1].

وإذا نظرنا إلى إطلاق لفظ الخشوع في القرآن الكريم، نجد أنه يطلق على معان أربعة:

أحدها: إطلاقه بمعنى الذّلّ، ومنه قوله تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَانِ﴾[طه: 108].

والثّاني: سكون الجوارح، ومنه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون].

والثّالث: بمعنى الخوف، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: 90].

والرّابع: بمعنى التّواضع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة: 45][2].

الفرق بين الخشوع والخضوع:

اختلف العلماء في الفرق بين الخشوع والخضوع على قولين:

أ – أن الخشوع والخضوع بمعنى واحد، فهما مترادفان لا فرق بينهما عند الإطلاق، وقد قال بذلك بعض أئمة اللغة.

ب – وقيل: بل بينهما بعض الفروق، وهي كما يلي:

1 – أن الخشوع يكون في القلب، وقد يظهر على الصوت والبصر.

وأما الخضوع لا يكون في القلب وإنما يكون في البدن، قال ابن القيِّم: أجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب[3].

---

[1] مدارج السالكين (558/1).

[2] ينظر: موقع موسوعة التفسير الموضوعي، وموقع، موسوعة العقيدة والأديان، والفرق والمذاهب المعاصرة، وموقع الجمهرة معلمة مفردات المحتوى الإسلامي.

[3] مدارج السالكين (558/1).

2 – أن الخشوع لا يكون إلا مع خوف المخشوع ولا يقع تكلفًا، بخلاف الخضوع فقد لا يكون معه خوف[1].

وخلاصة:

فالخشوع هو: انخفاض وذل وخضوع وانقياد وانكسار القلب أمام عظمة الله تعالى، مع بيان ذلك على بعض الجوارح كالبصر والصوت.

حكم الخشوع:

الخشوع: بوصفه السابق لا يجب أن يكون إلا لله تعالى وحده عقلا ونقلا، فهو عمل قلبي لا يُتقرب به إلا إلى الله عزّ وجل وقد جاءت النصوص بالأمر به، والثناء على من اتصف به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[الحديد: 16].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾[آل عمران: 199].

وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[الأنبياء: 90].

وقال سبحانه: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾[البقرة: 45].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾[المؤمنون: 2].

وقال تعالى: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ **إلى أن قال:** ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾[الأحزاب: 35].

وغير ذلك من الآيات البينات أو الإيماء في مدح الخاشعين مما يدل أنها عبادة عظيمة لا يجوز أن تصرف لغير الله تعالى.



[1] **انظر: الفروق اللغوية (216/1)، والقاموس المحيط (921).**

﴿الفرع السادس عشر﴾

﴿التفويض﴾

التفويض لغة:

التَّفْوِيضُ: التَّسْلِيمُ وعَدَمُ المُنازَعَةِ، يُقال: فَوَّضَ إِلَيْهِ الأَمْرَ، تَفْوِيضاً، أيْ: سَلَّمَهُ لَهُ وجَعَلَهُ إِلَيْهِ. ويأْتي بِمعنى رَدِّ الأَمْرِ إلى الغَيْرِ[1].

التفويض اصطلاحا:

التفويض إلى الله هو خروج العبد من مراد نفسه إلى ما يختاره الله، ويرضاه.

حقيقة التفويض:

وحقيقته التسليم، والانقياد لله تعالى، ومنه قول النبي ﷺ: {وفوضت أمري إليك}[2]. أي: سلمت كل ما أهمني إليك.

وأقول: التفويض هو تسليم كل ما أهمَّ العبد وأغمه إلى الله تعالى وحده، وهذا روح التوحيد وعين التوكل على الله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[غافر: 44].

يقول الطبري: وأسلم أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكل عليه؛ فإنه الكافي من توكل عليه[3].

وقال السعدي: أي: ألجأ إليه وأعتصم، وألقي أموري كلها لديه، وأتوكل عليه في مصالحي ودفع الضرر الذي يصيبني منكم أو من غيركم[4].

فالتفويض إلى الله تعالى في المصائب والمعضلات هو قمة الإيمان وعين التوحيد والتوكل على الله تعالى.

---

[1] مقاييس اللغة: (**460/4**) – المحكم والمحيط الأعظم: (**251/8**) – النهاية في غريب الحديث والأثر: (**479/3**) – مختار الصحاح: (ص **244**) – لسان العرب: (**210/7**) – تاج العروس: (**496/18**).

[2] البخاري **6311**، ومسلم **2710**.

انظر: مدارج السالكين لابن القيم، **127/2**، الصواعق المرسلة لابن القيم، **163/1**، **918/3**، **1133**.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

[4] ينظر: تفسير السعدي.

ولكنَّ التفويض لا يكون في المصائب وحسب، بل يكون في كل شيء، ومنه الممدوح ومنه المذموم:

التفويض الممدوح:

عندما يكون بمعنى التوكل والإنابة إلى الله تعالى في شؤون المسلم كلها، وكذلك في باب العلم فالتفويض في كيفيات صفات الله تعالى هو رد علمها إلى الله سُبْحَانَهُ، وعدم الخوض في تحديد كيفياتها، وهذا هو مذهب السلف، فهم يثبون المعاني، ويُفوضون الكيفيات، ومذهب المتكلمين تفويض المعاني، والكيفيات، وهو التعطيل.

التفويض المذموم:

التفويض المذموم في باب العلم، ما يأتي في معاني أسماء الله تعالى وصفاته، وهو الإيمان بألفاظ القرآن، والأحاديث الواردة في الأسماء، والصفات من غير فقهٍ، ولا فهمٍ لمراد الله تعالى، ومراد رسوله ﷺ منها، وهذا من طرق أهل البدع، وحقيقته تعطيل المعاني.

والتفويض كما سبق وأشرنا يمكن أن يكون في كل شيء وهو على حسب ما يسوقه المسلم، فمن المفوضة من الشيعة من قالوا إنَّ الله تعالى فوَّض الخلق إلى النبي ﷺ، ومنهم من قال بل إلى علي، لينفوا بذلك صفة الخلق عن الله تعالى[1].

ونبه ابن تيمية رحمه الله تعالى إلى لونين من التفويض فقال: وهؤلاء أهل التضليل والتجهيل الذين حقيقة قولهم: إن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء.

ثم هؤلاء منهم من يقول: المراد بها خلاف مدلولها الظاهر والمفهوم، ولا يعرف أحد من الأنباء والملائكة والصحابة والعلماء ما أراد الله بها، كما لا يعلمون وقت الساعة.

ومنهم من يقول: بل تُجرى على ظاهرها وتُحمل على ظاهرها، ومع هذا فلا يعلم تأويلها إلا الله، فيتناقضون حيث أثبتوا لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وقالوا –مع هذا– : إنها تُحمل على ظاهرها، وهذا ما أنكره ابن عقيل على شيخه القاضي أبي يعلى في كتاب ذم التأويل[2].

---

[1] ينظر: شرح كتاب الإبانة من أصول الديانة 10/11.

[2] ينظر: درء تعارض العقل مع النقل لابن تيمية 16/1.

وأما مذهب السلف فهم: يفوضون الكيفيات ويثبتون المعاني، فهم يثبتون اليد للخالق والسمع والبصر، بمعناه الحقيقي، ويفوضون الكيفية، لأنه سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[الشورى: 11]**، فقد أثبت لنفسه سبحانه السمع والبصر، ولكي نفهم معنى السمع والبصر نرده إلى معناه الحقيقي، وأما كيفية سمعه وبصره فنفوض ذلك إلى الله تعالى؛ لأنه سبحانه ليس كمثله شيء، وسيأتي بيان أكثر عند الكلام على الفرق والمذاهب.**

وخلاصة: معنى التفويض وشروطه، هو اجتماع التوكل والإنابة معا، أي الرجوع إلى الله تعالى في كل شيء مع التوكل عليه في كل شيء.

حكم التفويض:

حكم التفويض في المصائب والمعضلات، وفي العلوم التي لا يبلغها العقل البشري القاصر، أنه واجب، وأنه عبادة لا تجوز إلا لله تعالى، فهو الربُّ سبحانه، ومعناه الخالق والمالك والمدبر لشؤون خلقه، فهو أهل أن يفوض المسلم له كل ما أهمه وأغمه، وهو العليم الحكيم، فهو أهل أن تفوَّض إليه كيفيات صفاته، أو بعض المعاني التي استأثر بعلمها لنفسه، فقد قال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[الإسراء: 85]،

قال ابن كثير: (قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي) أي: من شأنه، ومما استأثر بعلمه دونكم[1].اهـ

فمعنى الروح يجب أن يفوَّض إلى الله تعالى؛ لأنه علم استأثر به لنفسه غالبا، كذلك كيفيات صفاته سبحانه، فإنه يجب تفويضها إلى الله تعالى، ولا يجوز الخوض فيها، وكذلك في المصائب والبلايا، فإن العبد يجب أن يفوض أمره إلى الله تعالى؛ لأن الله تعالى بصير بالعباد، وقادر على كل شيء.

قال تعالى: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾[غافر: 44]**.**

قال الطبري: وقوله: (وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ) يقول: وأسلم أمري إلى الله، وأجعله إليه وأتوكل عليه، فإنه الكافي من توكل عليه[2].



[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] ينظر: تفسير الطبري.

﴿المطلب الثالث﴾

﴿شروط تحقيق كلمة التوحيد : لا إله إلا الله﴾

كلمة التوحيد وهي لا إله إلا الله، هي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي مفتاح دار السعادة، وهي أساس الدين وأصله، وهي بنيان الدين وفروعه، وفضل لا إله إلا الله، لا يعلمه إلا الله تعالى، وفضل صاحب كلمة التوحيد لا يعلمه إلا الله تعالى، فقد عجَّ[1] القرآن والسنة بذكرها، بل القرآن نزل من أجلها، وهي أصل دعوة الأنبياء والمرسلين.

من ذلك في القرآن:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: 35].

وقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: 19].

وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: 255].

وقوله جلا جلاله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163].

وقوله جل في علاه: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2].

وغير ذلك كثير، فقد ذكرت لا إله إلا الله 37 مرة في القرآن.

وكذلك قد عجَّت أحاديث الحبيب المصطفى ﷺ بذكر فضل لؤلؤة التوحيد، وفضل قائلها، والعمل بمقتضاها، والوقوف عند حدودها، والمتمم لشروطها.

---

[1] **عجَّ: يعني كثر وفاض، تقول عجَّت الشوارع بالناس إذ غصت بهم، وعج المسجد بالناس إذا امتلأ – ينظر: معجم الأفعال المتداولة و مواطن استعمالها , ج1 , ص484.**

وهي تعني أيضا ارتفاع الأصوات، تقول: عَجَّ الرجلُ عَجّا و عَجِيْجا صاح و رفع صوتهُ ، يتظر: أقرب الموارد في فصح العربية و الشوارد , ج3 , ص479.

وأما من السنة:

فقد قال أبو هريرة: {كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسولِ اللهِ ﷺ، معنا أبو بَكْرٍ، وعُمَرُ في نَفَرٍ، فَقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن بَيْنِ أظْهُرِنا، فأبْطَأَ عَلَيْنا، وخَشِينا أنْ يُقْتَطَعَ دُونَنا، وفَزِعْنا، فَقُمْنا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أبْتَغِي رَسولَ اللهِ ﷺ حتَّى أتَيْتُ حائِطًا لِلأَنْصارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ به هلْ أجِدُ له بابًا؟ فَلَمْ أجِدْ، فإذا رَبِيعٌ يَدْخُلُ في جَوْفِ حائِطٍ مِن بئْرٍ خارِجَةٍ، والرَّبِيعُ الجَدْوَلُ، فاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: أبو هُرَيْرَةَ؟ فَقُلتُ: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: ما شَأْنُكَ؟ قُلتُ: كُنْتَ بيْنَ أظْهُرِنا، فَقُمْتَ فأبْطَأْتَ عَلَيْنا، فَخَشِينا أنْ تُقْتَطَعَ دُونَنا، فَفَزِعْنا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فأتَيْتُ هذا الحائِطَ، فاحْتَفَزْتُ كما يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وهَؤُلاءِ النَّاسُ ورائِي، فقالَ: يا أبا هُرَيْرَةَ وأَعْطانِي نَعْلَيْهِ، قالَ: اذْهَبْ بنَعْلَيَّ هاتَيْنِ، فمَن لَقِيتَ مِن وراءِ هذا الحائِطَ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ، فَكانَ أوَّلَ مَن لَقِيتُ عُمَرُ، فقالَ: ما هاتانِ النَّعْلانِ يا أبا هُرَيْرَةَ؟ فَقُلتُ: هاتانِ نَعْلا رَسولِ اللهِ ﷺ، بَعَثَنِي بهِما مَن لَقِيتُ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، بَشَّرْتُهُ بالجَنَّةِ، فَضَرَبَ عُمَرُ بيَدِهِ بيْنَ ثَدْيَيَّ فَخَرَرْتُ لِاسْتِي، فقالَ: ارْجِعْ يا أبا هُرَيْرَةَ، فَرَجَعْتُ إلى رَسولِ اللهِ ﷺ، فأجْهَشْتُ بُكاءً، ورَكِبَنِي عُمَرُ، فإذا هو علَى أثَرِي، فقالَ لي رَسولُ اللهِ ﷺ: ما لكَ يا أبا هُرَيْرَةَ؟ قُلتُ: لَقِيتُ عُمَرَ، فأخْبَرْتُهُ بالَّذِي بَعَثْتَنِي به، فَضَرَبَ بيْنَ ثَدْيَيَّ ضَرْبَةً خَرَرْتُ لِاسْتِي، قالَ: ارْجِعْ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: يا عُمَرُ، ما حَمَلَكَ علَى ما فَعَلْتَ؟ قالَ: يا رَسولَ اللهِ، بأَبِي أنْتَ، وأُمِّي، أبَعَثْتَ أبا هُرَيْرَةَ بنَعْلَيْكَ، مَن لَقِيَ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ بَشَّرَهُ بالجَنَّةِ؟ قالَ: نَعَمْ، قالَ: فلا تَفْعَلْ، فإنِّي أخْشَى أنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ عليها، فَخَلِّهِمْ يَعْمَلُونَ، قالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: فَخَلِّهِمْ[1].

[1] أخرجه مسلم في صحيحه 31.

شروط لا إله إلا الله:

وعودا ببدءٍ فإنَّ كلمة التوحيد {لا إله إلا الله} ليست كلمة مجردة تلوكها الألسنة فحسب دون فهم لمعناها ومعرفة شروطها والعمل بمقتضاها، إنما هي منهج شامل كامل للحياة بأسرها، وقد قرر العلماء بالاستقراء أن «كلمة التوحيد لا إله إلا الله» مفتاح الجنة وأن لها شروط سبعة ومنهم من زادها شرطًا، وهي على ما يلي:

1 – العلم.

2 – واليقين.

3 – والقبول.

4 – والانقياد.

5 – والصدق.

6 – والإخلاص.

7 – والمحبة.

8 – وثامنها الكفر بما يعبد من دون الله.

كما أن هذه الشروط كالأسنان للمفتاح؛ فإن جئت بها فتح لك وإلا لم يفتح، وهي كلمة الإخلاص المنافية للشرك، وكلمة التقوى التي تقي قائلها من الشرك بالله تعالى، وهذه الكلمة لها شروط ثقال قيدت بها[1].

فعن معاذ بن جبل قال: {قال لي رسول الله ﷺ: مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله}[2].

---

[1] فضل تعلم وتعليم شروط لؤلؤة التوحيد لا إله إلا الله لإبراهيم بن أحمد الشريف مقالة الألوكة، بتصرف شديد.

[2] حسن لغيره بالشواهد بالمعنى وبالمتابعات: مسند الإمام أحمد 22102، حَدَّثَنَا عَبْد اللَّهِ حَدَّثَنِي أَبِي حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مَهْدِيٍّ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عَيَّاشٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي حُسَيْنٍ عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ.

ضعَّفوا إسناده، فشهر بن حوشب ضعيف ولم يدرك معاذا، وإسماعيل ابن عياش روايته عن غير أهل بلده ضعيفة، وهذا منها.

وقد صح معناه عن معاذ بغير هذه السياق في المسند أيضا21998: عن هصان بن الكاهل، قال: دخلت المسجد الجامع بالبصرة، فجلست إلى شيخ، أبيض الرأس واللحية، فقال: حدثني معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ أنه قال: ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله يرجع ذاك إلى قلب موقن إلا غفر الله لها، قلت له أنت =

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في قصيدته النونية مشيرًا إلى أسنان هذا المفتاح الذي تفتح به أبواب الجنة وهي العمل بشرائع الإسلام وتحقيق هذه الشروط:

هذا وفتح الباب ليس بممكن * إلا بمفتاح على أسنـــــــــان

مفتاحه بشهادة الإخــــلاص * والتوحيد، تلك شهادة الإيمان

أسنانه الأعمال، وهى شرائـع * الإسلام، والمفتاح بالأسنــــان

لا تلغين هذا المثال فكم بــه * من حل إشكال لذي العرفـان[1]

وقال الحكمي:

وبشـــروط سبعــة قـد قيِّدت * وفي نصوص الوحي حقا وردت

فإنــه لـم ينتفـع قائلــــها * بالنطق إلا حيث يستكملـــــها

العلـم واليقيـــن والقبـــول * والانقياد فادر ما أقـــــــول

والصدق والإخلاص والمحبَّه * وفقـــك الله لـــما أحبــــــه

= سمعته من معاذ؟ فكأن القوم عنفوني، قال: لا تعنفوه، ولا تؤنبوه، دعوه، نعم أنا سمعت ذاك من معاذ، يذبره عن رسول الله ﷺ، وقال إسماعيل، مرة: يأثره عن رسول الله ﷺ، قال: قلت لبعضهم: من هذا؟ قال: هذا عبد الرحمن بن سمرة.

عن هصان بن الكاهل، قال: دخلت المسجد الجامع بالبصرة، فجلست إلى شيخ، أبيض الرأس واللحية، فقال: حدثني معاذ بن جبل، عن رسول الله ﷺ أنه قال: " ما من نفس تموت وهي تشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، يرجع ذاك إلى قلب موقن، إلا غفر الله لها " قلت له: أنت سمعته من معاذ؟ فكأن القوم عنفوني، قال: لا تعنفوه، ولا تؤنبوه، دعوه، نعم أنا سمعت ذاك من معاذ، يذبره عن رسول الله ﷺ، وقال إسماعيل، مرة: يأثره عن رسول الله ﷺ، قال: قلت لبعضهم: من هذا؟ قال: هذا عبد الرحمن بن سمرة.

وفي المسند أيضا **19597**: حَدَّثَنَا مُؤَمَّلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ قَالَ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَمَعِي نَفَرٌ مِنْ قَوْمِي فَقَالَ أَبْشِرُوا وَبَشِّرُوا مَنْ وَرَاءَكُمْ إِنَّهُ مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ صَادِقًا بِهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ فَخَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ النَّبِيِّ ﷺ نُبَشِّرُ النَّاسَ فَاسْتَقْبَلَنَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فَرَجَعَ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ عُمَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِذَنْ يَتَّكِلَ النَّاسُ قَالَ فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

حديث صحيح، مؤمل بن إسماعيل- وإن كان سيىء الحفظ- تابعه بهز بن أسد العمي- وروح بن عبادة- كما عند الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" **4003** – وباقي رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، غير حماد بن سلمة، خاص من رجال مسلم – وأخرجه البزار في "مسنده" **2660** ، والطبراني في "الدعاء" **1479** ، وابن عدي في "الكامل" **1356/4** من طرق عن إسماعيل بن عياش، بهذا الإسناد.

[1] شرح قصيدة الإمام ابن القيم، تأليف أحمد بن إبراهيم بن عيسى (ص**474**). المكتب الإسلامي.

﴿الشرط الأول: العلم﴾

وهو أن يعلم قائلها معناها علما منافيا للجهل، لا أن يلوكها بلسانه دون فهم لمعناها، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾[محمد: 19]، قال البغوي، فازدد علما على علمك[1]، والمعنى أن تعلم معنى لا إله إلا الله، ومعنى كلمة التوحيد لا إله إلا الله هو: لا معبود بحق إلا الله. لأنه يوجد كثير من المعبودات، ولكنَّ هذه المعبودات لا تستحق العبادة، كعباد الكواكب والبقر والصنم والأنبياء والملائة والقبور، وغيرها.

فمعنى كلمة التوحيد، هو نفي الألوهية عمَّا سوى الله تعالى، وإثباتها له تعالى وحده.

وليس كقول البعض أنَّ معناها: لا خالق إلا الله، نعم صحيح فلا خالق إلا الله تعالى من هذه الحيثية، ولاكن لا علاقة لهذا بالتوحيد، وهنا مقام توحيد، فإثبات صفة الخلق لله وحده، هي من جملة فروع توحيد الربوبية كما سيأتي وليست كله فضلا على توحيد الألوهية، فالصحيح في معناها أنه: لا معبود بحق إلا الله، فإن ثبت هذا كان حينها لا خالق إلا الله، ولا مالك إلا الله، ولا مدبرا لشؤون خلقه إلا الله.

فهي تشمل إفراد الله سبحانه وتعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات[2].

ومن جملة العلم بلا إله إلا الله، أن يعلم قائلها أنها ليست كلمة تقال باللسان وحسب، بل يجب على قائلها التصديق بها والعمل بمقتضاها.

كذلك من جملة العلم بلا إله إلا الله، أن يعلم المسلم، أن التوحيد ليس مرتبطا بتوحيد الله تعالى في الخلق والملك والتدبير وحسب، بل التوحيد منهج حياة كامل فيكون في كل شيء، في المحبَّة والخوف والخشية، وسائر ما ذكرناه آنفا في أنواع العبادة التي لا تجوز إلا لله تعالى وحده.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه: لا خالق إلا الله، وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله تعالى، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة

---

[1] ينظر: تفسير البغوي.

[2] القول المفيد على كتاب التوحيد لمحمد بن صالح بن عثيمين **1/11**.

له، وإرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي والإصرار عليها، ومن عرف هذا، عرف قول النبي ﷺ: {إنَّ اللهَ حرَّمَ علَى النَّارِ من قالَ لَا إلهَ إلَّا اللّهَ يبتغِي بذلكَ وجهَ اللهَ...}[1].

كما يجب أن يعلم أنَّ المسلم لو علم معنى لا إله إلا الله حقَّ علمها، كان من العلماء، لأنَّ مادَّة لا إله إلا الله هي أصل العلوم كلها، فكل العلوم الموجودة من أصول أو آلة هي لتحقيق: لا إله إلا الله.



[1] رواه البخاري 425 ومسلم 33 من حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه.

﴿الشرط الثاني: اليقين﴾

اليقين المنافي للشك؛ بأن يكون قائلها مستيقنا بمدلول هذه الكلمة يقينا جازما؛ فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين، ليدخل فيه الظنُّ الراجح، نعم هذا لأنَّ الظنَّ الراجح هو من درجات اليقين، ومن المعلوم أنَّ الناس تتفاوت في مراتب اليقين، فاليقين يزيد وينقص، والكثير من أهل التوحيد استقرَّ التوحيد في قلبوهم بعد ظن وترجيح للحق.

ولكن إن دخل ادنى شك إلى القلب، فقد انعدم التوحيد ولو ذكر لا إله إلا الله بلسانه آلاف المرات.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[الحجرات: 15]، فاشترط سبحانه في صدق إيمانهم بالله تعالى ورسوله ﷺ كونهم لم يرتابوا، أي لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين والعياذ بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[التوبة:45]، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يلْقَى اللهَ بِهما عبدٌ غيرُ شاكٍّ فِيهِما إلَّا دخَلَ الجنةَ}[1].

كذلك عن أبي هريرة قال: {كُنَّا قُعُودًا حَوْلَ رَسولِ اللهِ ﷺ، معنا أبو بَكْرٍ، وعُمَرُ في نَفَرٍ، فَقامَ رَسولُ اللهِ ﷺ مِن بَيْنِ أظْهُرِنا، فأبْطَأَ عَلَيْنا، وخَشِينا أنْ يُقْتَطَعَ دُونَنا، وفَزِعْنا، فَقُمْنا، فَكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فَخَرَجْتُ أبْتَغِي رَسولَ اللهِ ﷺ حتَّى أتَيْتُ حائِطًا لِلأَنْصارِ لِبَنِي النَّجَّارِ، فَدُرْتُ به هلْ أجِدُ له بابًا؟ فَلَمْ أجِدْ، فإذا رَبِيعٌ يَدْخُلُ في جَوْفِ حائِطٍ مِن بئْرٍ خارِجَةٍ، والرَّبِيعُ الجَدْوَلُ، فاحْتَفَزْتُ، فَدَخَلْتُ علَى رَسولِ اللهِ ﷺ، فقالَ: أبو هُرَيْرَةَ؟ فَقُلتُ: نَعَمْ يا رَسولَ اللهِ، قالَ: ما شَأْنُكَ؟ قُلتُ: كُنْتَ بيْنَ أظْهُرِنا، فَقُمْتَ فأبْطَأْتَ عَلَيْنا، فَخَشِينا أنْ تُقْتَطَعَ دُونَنا، فَفَزِعْنا،

---

[1] عن أبي هريرة، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في مسير، قال: فنفدت أزواد القوم، قال: حتى هم بنحر بعض حمائلهم، قال: فقال عمر: يا رسول الله، لو جمعت ما بقي من أزواد القوم، فدعوت الله عليها، قال: ففعل، قال: فجاء ذو البر ببره، وذو التمر بتمره، قال: وقال مجاهد: وذو النواة بنواه، قلت: وما كانوا يصنعون بالنوى؟ قال: كانوا يمصونه ويشربون عليه الماء، قال: فدعا عليها قال حتى ملأ القوم أزودتهم، قال: فقال عند ذلك: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة» أخرجه مسلم 138.

فَكُنْتُ أوَّلَ مَن فَزِعَ، فأتَيْتُ هذا الحائِطَ، فاحْتَفَزْتُ كما يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ، وهَؤُلاءِ النَّاسُ ورائِي، فقالَ: يا أبا هُرَيْرَةَ وأَعْطانِي نَعْلَيْهِ، قالَ: اذْهَبْ بنَعْلَيَّ هاتَيْنِ، فمَن لَقِيتَ مِن وراءِ هذا الحائِطَ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ مُسْتَيْقِنًا بها قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ، فَكانَ أوَّلَ مَن لَقِيتُ عُمَرُ،...الحديث}[1].

فاشترط في تبشير قائلها بالجنة أن يكون مستيقنا بها قلبه غير شاك فيها، فإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.



[1] **مسلم 31.**

﴿الشرط الثالث: القبول﴾

أي: قبول كل ما تقتضيه كلمة التوحيد، لا أن يقبل شيئا ويترك شيئا، فيحق فيه قول الله تعالى:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾[النساء: 150].

أو يقولها ولا يقبل منها شيئا فلا يرفع بشروطها رأسا ولا يعمل بها، فيحق عليه قول الله تعالى:

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ * وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ **إلى قال:** ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[الصافات: 22 – 35].

فكان سبب تعذيبهم هو الاستكبار إما عن قول لا إله إلا الله، أو قولها باللسان وعدم العمل بها، فهو نفسه عدم قبولها، فمن لم ينفي ما نفته، ولم يثبت ما أثبتته؛ فإنه لم يقبلها؛ لأن قبولها ليس قولا باللسان فقط.

وما تقتضيه لا إله إلا الله هو كل شرع الله تعالى، فتعمل بشرع الله تعالى كله لا يرد منه شيئا، وإن وقع وأخطأ في بعض الأحيان فهذا لا يعد ردًّا ولا ينفي عنه قبول كلمة التوحيد، فالكلُّ يخطئ ويقصر، المهم أن لا يكون جاحدا، وعليه فيجب تعلق القبول بالقلب ويبذل الوسع في العمل بمقتضاها.

وخير مثل نضربه على قبول كلمة التوحيد من عدمه، هو المثل الذي ضربه لنا سيد العلماء محمد رسول الله ﷺ حيث قال: {مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللَّهُ به مِنَ الهُدَى والعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أصابَ أرْضًا، فَكانَ مِنْها نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ الماءَ، فأنْبَتَتِ الكَلَأَ والعُشْبَ الكَثِيرَ، وكانَتْ مِنْها أجادِبُ، أمْسَكَتِ الماءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بها النَّاسَ، فَشَرِبُوا وسَقَوْا وزَرَعُوا، وأَصابَتْ مِنْها طائِفَةً أُخْرَى، إنَّما هي قِيعانٌ لا تُمْسِكُ ماءً ولا تُنْبِتُ كَلَأً، فَذلكَ مَثَلُ مَن فَقُهَ في دِينِ اللَّهِ، ونَفَعَهُ ما

بَعَثَنِي اللَّهُ به فَعَلِمَ وعَلَّمَ، ومَثَلُ مَن لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْسًا، ولَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الذي أُرْسِلْتُ بهِ[1].

نعم فكذلك حال قبول لا إله إلا الله، فهم على قسمين: أحدهما قبلها فنفعه علمها حيث عمل بمقتضاها، والآخر علمها وعلَّمها غيره.

وأما من لم يقبل لا إله إلا الله بأن لم يتعلمها ولم يعمل بها، وكيف يعمل بها وهو لم يعلمها، فهذا لا خير فيه، فهو كالأرض القيعان التي لا تنبت الزرع ولا تمسك الماء.

وهناك فرق بين أن يقبل العبد هذه الشريعة العظيمة ويعصي الله تعالى، وأقر بأنه عاص، واستغفر الله على ذلك، فهو قابل لشرع الله رب العالمين ولكن غلبت عليه شقوته فوقع في المعصية، وبين أن يرد ذلك ولا يقبله، كالذين يرفضون قول الله سبحانه وتعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾[النساء:34] **ويقولون: الرجل مثل المرأة، والمرأة لا تأخذ النصف من نصيب الرجل، بل تأخذ مثل نصيبه، فمن يقل ذلك فقد حاد الله سبحانه وتعالى، وجحد ورفض ما جاء من عند رب العالمين ويعد مستكبراً على ما جاء من عند الله، فإن هذا لم يقبل شرع الله سبحانه.**



[1] أخرجه البخاري (**79**)، ومسلم (**2282**)

﴿الشرط الرابع: الانقياد﴾

أي: الانقياد المنافي للترك، والمعنى أن ينقاد المسلم لما تقتضيه كلمة التوحيد جملة واحدة، وهذا من نفي الشرك بأنواعه، والاتجاه للإخلاص بكل معانيه، والعمل بكل شرع الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾[الزمر: 54]، **والإنابة لله تعالى هي الرجوع لله تعالى في كل شيء، وعليه: فالإنابة هي علامة انقياد العبد لربه، وقال تعالى:** ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾[النساء:125]، **فقوله تعالى: {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ للهِ}، أي انقاد لله تعالى برضاه، وقال تعالى:** ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ للهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[لقمان: 22]، **ومعنى يسلم وجهه أي ينقاد، وهو محسن، أي: موحد، ومن لم يسلم وجهه إلى الله تعالى ولم يك محسنا؛ فإنه لم يستمسك بالعروة الوثقى وهو المعني بقوله تعالى:** ﴿وَمَن كَفَرَ فَلا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾[لقمان: 23 – 24]، **وهذا تمام الانقياد وغايته، وهو الإنابة إلى الله تعالى في كل شيء مع الاستسلام له سبحانه في كل أمر.**



﴿الشرط الخامس: الصدق﴾

أي: الصدق فيها المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقا من قلبه، يواطئ قلبه لسانه وجوارحه بالعمل بها، قال الله تعالى: ﴿الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[العنكبوت: 1 – 3].

وقال تعالى في شأن المنافقين الذين قالوها كذبا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم وَمَا يَشْعُرُونَ * فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[البقرة:8 – 10].

وقال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ﴾[الفتح: 11].

وكم ذكر الله تعالى من شأنهم وأبدى وأعاد وكشف أستارهم وهتكها وأبدى فضائحهم في غير ما موضع من كتابه كسورة البقرة وآل عمران والنساء والأنفال والتوبة وسورة كاملة في شأنهم وغير ذلك.

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه: {أنَّ النبي ﷺ ومُعاذٌ رَدِيفُهُ علَى الرَّحْلِ، قالَ: يا مُعَاذَ بنَ جَبَلٍ، قالَ: لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللَّهِ وسَعْدَيْكَ، قالَ: يا مُعَاذُ، قالَ: لَبَّيْكَ يا رَسولَ اللَّهِ وسَعْدَيْكَ ثَلَاثًا، قالَ: ما مِن أحَدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلَهَ إلَّا اللَّهُ وأنَّ مُحَمَّدًا رَسولُ اللَّهِ، صِدْقًا مِن قَلْبِهِ، إلَّا حَرَّمَهُ اللَّهُ علَى النَّارِ، قالَ يا رَسولَ اللَّهِ: أفلا أُخْبِرُ به النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا؟ قالَ: إذًا يَتَّكِلُوا وأَخْبَرَ بهَا مُعَاذٌ عِنْدَ مَوْتِهِ تَأَثُّمًا}[1].

فاشترط النبي ﷺ في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقا من قلبه، فلا ينفعه مجرد التلفظ بدون مواطأة القلب، ولا التلفظ وموافقة القلب بلا عمل، والعمل بلا إله إلا الله، يعني العمل بكل الشرع، ألم ترى أنَّ تارك الصلاة محكوم عليه بالكفر وهي عمل، يقول النبي ﷺ: {العهدُ الذي بيننا وبينَهم الصلاةُ، فمَن ترَكَها فقد كفرَ}[2].

---

[1] أخرجه البخاري (128)، ومسلم (32) بدون قوله: (صدقا من قلبه).

[2] أخرجه الترمذي (2621)، والنسائي (463)، وابن ماجه (1079)، وأحمد (22987).

فإن كان تاركا لها جحودا، فلا خلاف في كفره كفرا مخرج من الملة، وحينها يكون حالها كحال أي حكم شرعي فجاحده خارج من الملة، وهذا معلوم بالضرورة، فيكون حينها اختصاص الصلاة بالذكر منفردة عن سائر أحكام الشرع؛ أنَّ الشرط في تركها ليس الجحود، وإلا فمعلوم أنَّ من جحد أي شيء صحيح من الدين فقد كفر، فيكون شرطها عموم الترك، سواء كان متكاسلا مع الإقرار بوجوبها، أو جاحدا، فأقرب الأقوال والظاهر، أنَّ كل الفعلين مخرج من الملة، والله أعلم.

ويتبيَّن لنا من هذا أيضا أن كلمة التوحيد لا إله إلا الله، تكتمل بقولها باللسان مع الصدق في القلب، مع العمل بالجوارح، والحديث خير شاهد على ذلك، فإنَّ القائل باللسان دون التصديق بالقلب منافق، لأنه يقول ما ليس في قلبه فقد نافق، والقائل بلسانه مع التصديق بقله دون عمل، فهو كاذب؛ لأنَّ الأعمال الظاهرة هي الدالة على صدق القلب والنبي ﷺ يقول: {مَنْ صَلَّى صَلَاتَنَا، وَاسْتَقْبَلَ قِبْلَتَنَا، وَأَكَلَ ذَبِيحَتَنَا؛ فَذَلِكَ الْمُسْلِمُ الَّذِي لَهُ ذِمَّةُ اللَّهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ، فَلَا تُخْفِرُوا اللَّهَ فِي ذِمَّتِهِ}[1].

فلو تلاحظ أنها كلها أعمال ظاهرة وحكم بها النبي ﷺ على صدق المسلم، كذلك قوله ﷺ: {أمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رسولُ اللهِ، ويقيموا الصَّلاةَ، ويُؤتوا الزَّكاةَ، فإذا فَعَلوا ذلك عَصَموا مني دماءَهم وأموالَهم إلَّا بحَقِّ الإسلامِ، وحِسابُهم على اللهِ}[2].

أنظر كيف قرن النبي ﷺ القول مع العمل لتحقيق صدق الناطق بها.

ونخرج بهذا؛ أن شرط الصدق في كلمة التوحيد، أن يكون مقترنا بالقول والعمل كما بينَّا سابقا.



[1] أخرجه البخاري (391).

[2] أخرجه البخاري (25) واللَّفظُ له، ومسلم (22).

﴿الشرط السادس: الإخلاص﴾

أي: الإخلاص المنافي للشرك، والإخلاص هو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك، قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر: 3]، **وقال الله تعالى:** ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[البينة: 5]، **وقال الله تعالى:** ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[الزمر: 2]، **وقال الله تعالى:** ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾[الزمر: 11]، ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾[الزمر: 14]، **وغير ذلك من الآيات فجلُّ القرآن كان مخصصا لدعوة الإخلاص.**

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: {أسعدُ الناس بشفاعتِي من قالَ لا إلهَ إلَّا الله خالصًا من قلبه أو نفسه}[1].

وفي الصحيح عن عتبان بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: {إن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل}[2].

وعند الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: {ما قال عبد قط لا إله إلا الله مخلصا إلا فتحت له أبواب السماء حتى تفضي إلى العرش ما اجتنبت الكبائر}[3].

وقد عرفنا الإخلاص لغة واصطلاحا، وذكرنا نقيضه وهو الشرك، وأتممنا بقية أنواع الكفر سابقا.



---

[1] رواه البخاري 99.

[2] رواه البخاري 425، ومسلم 33.

[3] رواه الترمذي 3590 وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وصححه الألباني.

ينظر: الموسوعة العقدية تأليف جماعة من المؤلفين 267/1.

﴿الشرط السابع: والمحبة﴾

أي: المحبة المنافية للبغض، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[البقرة: 165]، **وقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ﴾[المائدة:54].

فقد أخبر الودود عز وجل أن عباده المؤمنين أشد حبا له، وذلك لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحدا كما فعل مدعو محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونه كحبه، وعلامة حب العبد ربه تقديم محابه وإن خالفت هواه وشهوته، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله تعالى ورسوله ﷺ ومعاداة من عاداه، واتباع رسول الله ﷺ واقتفاء أثره عن طريق أصحابه، وقبول هداه، وكل هذه العلامات شروط في المحبة لا يتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلا﴾[الفرقان: 43]، **وقال تعالى:** ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾[الجاثية: 32]، **فكل من دعا مع الله تعالى غيره فهو في الحقيقة عبد هواه، بل كل ما عُصيَ الله تعالى به من الذنوب فسببه تقديم العبد هواه وشهوته على أوامر الله عز وجل ونواهيه، قال تعالى في شأن الموالاة والمعاداة فيه:** ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[الممتحنة: 4]، **وقال الله تعالى:** ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ﴾[المجادلة: 22]، **وقال تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ

أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ﴾[المائدة: 51]، **وقال الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة: 23 - 24]، **وقال الله تعالى:** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء ﴾[الممتحنة: 1] **إلى آخر السورة، وغير ذلك من الآيات... وقال تعالى في اشتراط اتباع الرسول ﷺ:** ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾[آل عمران: 31 - 32].

وعن أنس قال رسول الله ﷺ: {ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار}[1].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: {لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين}[2].

فإذا امتثل العبد ما أمره الله به واجتنب ما نهاه عنه وإن كان مخالفا لهواه كان مؤمنا حقا، فكيف إذا كان لا يهوى سوى ذلك وفي الحديث: {أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض فيه}[3].

---

[1] رواه البخاري **16**، ومسلم **43**.

[2] رواه البخاري **15**، ومسلم **44**.

[3] **حسن بطرقه**: رواه أحمد **286/4**، والطيالسي في ((المسند)) **111/1**، وابن أبي شيبة في ((المصنف))**80/7**، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه **قال الألباني في** (صحيح الترغيب والترهيب) **3030** حسن لغيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: {من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك وقد أصبح غالب مؤاخاة الناس اليوم على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا}[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: {كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة, ومن عصاني فقد أبى}[2].

وعن جابر بن عبد الله يقول: {جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إلى النبيِّ ﷺ وهو نَائِمٌ، فَقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقالوا: إنَّ لِصَاحِبِكُمْ هذا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا له مَثَلًا، فَقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقالوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وجَعَلَ فِيهَا مَأْدُبَةً وبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَن أجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وأَكَلَ مِنَ المَأْدُبَةِ، ومَن لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ ولَمْ يَأْكُلْ مِنَ المَأْدُبَةِ، فَقالوا: أوِّلُوهَا له يَفْقَهْهَا، فَقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّه نَائِمٌ، وقالَ بَعْضُهُمْ: إنَّ العَيْنَ نَائِمَةٌ، والقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقالوا: فَالدَّارُ الجَنَّةُ، والدَّاعِي مُحَمَّدٌ ﷺ، فَمَن أطَاعَ مُحَمَّدًا ﷺ فقَدْ أطَاعَ اللَّهَ، ومَن عَصَى مُحَمَّدًا ﷺ فقَدْ عَصَى اللَّهَ، ومُحَمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بيْنَ النَّاسِ}[3].

---

[1] رواه ابن أبي شيبة بنحوه 7/ 134.

[2] رواه البخاري 7280.

[3] رواه البخاري 7281.

في هذا الحديثِ ضَرَبَتِ الملائكةُ له مَثَلًا يُبيِّنُ بعضَ خصائصِه وفضائلِه؛ فيَروي جابرُ بنُ عبدِ اللهِ رَضيَ اللهُ عنهما قِصَّةً سَمِعَها مِنَ النَّبي ﷺ، حيثُ يُخبِرُ أنَّه قد جاءت جماعةٌ منَ الملائكةِ إلى النَّبيِّ ﷺ وهو نائمٌ، فلمَّا رأته الملائكةُ قالت: إنَّ لِصاحِبِكم محمَّدٍ ﷺ – والمُخاطَبُ بعضُ الملائكةِ – «مَثَلًا»، أي: صِفةً عَجيبةَ الشَّأنِ، «فاضرِبوا له مَثَلًا» يُبيِّنُ حالتَه العَجيبةَ، فقالَ بعضُ الملائكةِ: «إنَّه نائمٌ»، فلن يَسمَعَنا، فلا يُفيدُ ضَربُ المَثَلِ شيئًا، «وقال بعضُهم: إنَّ العينَ نائمةٌ، والقلْبَ يَقْظَانُ» يَعي ويُدرِكُ، فلا يَفُوتُه شَيءٌ ممَّا تقولون؛ فإنَّ المدارَ على المَدارِكِ الباطنيَّةِ دونَ الحواسِّ الظَّاهريَّةِ، وقيل: هذا تَمثيلٌ يُرادُ به حَياةُ القلبِ وصِحَّةُ خَواطرِه، يُقالُ: رجُلٌ يَقِظٌ؛ إذا كان ذَكيَّ القلبِ، وهذه مُناظرةٌ جَرَت بينهم بَيانًا وتَحقيقًا لِمَا أنَّ النُّفوسَ الكاملةَ لا يَضعُفُ إدراكُها بضَعفِ الحواسِّ الظَّاهرةِ واستراحةِ الأبدانِ، بل رُبَّما يَقوى إدراكُها عندَ ضَعفِها، «فقالوا: مَثَلُه كمَثَلِ رجُلٍ بَنى دارًا»، وأقامَ في الدَّارِ مَأدُبَةً، وهي كلُّ طَعامٍ عامٍّ يُدعَى النَّاسُ إليه، كالوَليمةِ، وبَعَث داعيًا من عندِه يَدعو النَّاسَ إليها، فمَن أجاب الدَّاعيَ دخَل الدَّارَ وأكَلَ مِنَ المَأدُبةِ، ومَن لم يُجِبِ الدَّاعيَ لم يَدخُلِ الدَّارَ ولم يَأكُل مِنَ المَأدُبةِ، فقالوا: «أَوِّلُوها»، أي: فَسِّروا هذه الحكايةَ التَّمثيليَّةَ لمحمَّدٍ ﷺ، «يَفْقَهْهَا»، أي: ليَفهَمَها، «فقال بعضُهم: إنَّه نائمٌ، وقال بعضُهم: إنَّ العينَ نائمةٌ، والقلْبَ يَقظانُ» وكَرَّرُوا هذا؛ لِتَنبيه السَّامعينَ إلى هذه المَنقبةِ العَظيمةِ لدى النَّبيِّ ﷺ، وهي نومُ العَينِ ويَقَظةُ القلبِ، «فقالوا: فالدَّارُ» المُمَثَّلُ بها هي «الجَنَّةُ»، واللهُ سُبحانَه =

ومن هنا يعلم أنه لا تتم شهادة أن لا إله إلا الله إلا بشهادة أن محمدا رسول الله ﷺ، فإذا علم أنه لا تتم محبة الله عز وجل إلا بمحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه، فلا طريق إلى معرفة ما يحبه تعالى ويرضاه، وما يكرهه ويأباه إلا باتباع ما أمر به رسول الله ﷺ واجتناب ما نهى عنه، فصارت محبته مستلزمة لمحبة رسول الله ﷺ وتصديقه ومتابعته، ولهذا قرن محبته بمحبة رسول الله ﷺ في مواضع كثيرة من القرآن كقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[التوبة: 24]، وغير ذلك من الآيات...[1]

وقد تكلمنا عن محبة الله تعالى بشيء من التفصيل سابقا.



= هو خالقُ الجَنَّةِ وبانيها، «والدَّاعي» للنَّاسِ المُرسَلُ بالدَّعوةِ إليها هو «مُحمَّدٌ ﷺ»، «فمَن أطاعَ محمَّدًا ﷺ، فقدْ أطاع اللهَ»؛ لأنَّه رَسولُ صاحِبِ المَأدُبةِ، فمَن أجابَه ودخَل في دَعوتِه أكَل مِنَ المَأدُبةِ، وهو كِنايةٌ عن دُخولِ الجنَّةِ، وقولُهم: «ومحمَّدٌ ﷺ فَرْقٌ بيْن النَّاسِ»، أي: هو الفارقُ بين المؤمنِ والكافرِ، والصَّالحِ والطَّالحِ؛ إذ به تَميَّزَتِ الأعمالُ والعُمَّالُ، وهذا كالتَّذييلِ للكلامِ السَّابقِ؛ لأنَّه مُشتمِلٌ على معناه ومُؤكِّدٌ له.

[1] معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد الحكمي518 – 524.

﴿الشرط الثامن: الكفر بما يعبد من دون الله تعالى﴾

وزاد بعض أهل العلم شرطا ثامنا وهو الكفر بما يعبد من دون الله تعالى، واختلف القوم في جعل الكفر بما يعبد من دون الله تعالى شرطا أم هو فرع من شرط المحبة، والذي يتراءى لي أنه فرع من شرط المحبة، إذِ المحبة تحمل صاحبها على حب من يحب محبوبه وبغض من يبغضه محبوبه أو يبغض محبوبه، وبه فمحبة الله تعالى، تحمل صاحبها على الكفر بما يعبد من دون الله تعالى.

وأما من رأى أن الكفر بما يعبد من دون الله تعالى شرط مستقل فلا حرج في ذلك، فالله تعالى يقول: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ﴾[البقرة: 256]، قال ابن كثير: أي: من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله، ووحد الله تعالى فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو {فقد استمسك بالعروة الوثقى} أي: فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم[1].

وقال البغوي: يعني الشيطان، وقيل: كل ما عبد من دون الله تعالى فهو طاغوت[2].

فكان الكفر بما يعبد من دون الله تعالى في هذه الآية ركنا لصحيح الإيمان، وهذه الآية هي بحر في بيان الولاء والبراء.

وقال النبي ﷺ: {من قال: لا إلهَ إلَّا اللهُ، وكَفَر بما يُعبَدُ مِن دونِه؛ حَرُم مالُه ودَمُه، وحسابُه على اللهِ}[3].

وهذا من أعظَمِ ما يُبَيِّنُ معنى لا إلهَ إلَّا اللهُ؛ فإنَّه لم يجعَلِ التلفُّظَ بها عاصمًا للدَّمِ والمالِ، بل ولا مَعرِفةَ معناها مع لَفْظِها، بل ولا الإقرارَ بذلك، بل ولا كَونَه لا يدعو إلَّا اللهَ وَحْدَه لا شريكَ له، بل لا يَحرُمُ مالُه ودَمُه حتى يُضِيفَ إلى ذلك الكُفرَ بما يُعبَدُ من دونِ اللهِ، فإن شَكَّ وأقرَّ

---

[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] ينظر: تفسير البغوي.

[3] أخرجه مسلم (23) باختلافٍ يسيرٍ من حديثِ طارقِ بنِ أشيَمَ الأشجعيِّ رَضِيَ اللهُ عنه.

بشكه، لم يَحرُمْ مالُه ودَمُه، فيا لها من مسألةٍ! ما أعظَمَها وأجَلَّها! ويا له من بيانٍ! ما أوضَحَه! وحُجَّةٍ ما أقطَعَها للمُنازِعِ[1].



[1] يُنظر: ((كتاب التوحيد)) (ص: 26) بتصرُّف.

﴿الشرط التاسع: الموت على كلمة التوحيد﴾

فمسألة الاستمرارية والثبات على المبدأ في غاية الوضوح، ومهما كانت حال المؤمن وعبادته فلن يستفيد من إيمانه شيئاً ما لم يظلّ على هذه الكلمة حتى مماته، وعندها ينتفع بها، أما إذا خُتم له بالشرك فمات عليه فقد خسر الدنيا والآخرة، ولم ينفعه إيمانه وعمله الصالح بشيء، قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة: 217].

ولذلك جاء تحذير المؤمنين من خطورة النكوص والتراجع في نهاية المطاف، فقد قال النبي ﷺ: {فو الذي نفسي بيده إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها}[1].

هذه هي الشروط التسعة، والتي ينبغي على الجميع أن يُحافظ عليها وأن يعمل بها جميعاً، ولابد من اجتماعها حتى تتحقق النجاة والسلامة، نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن حقق التوحيد فاستحق بموجبه الجنّة[2].



[1] أخرجه الترمذي (2137) واللفظ له، وأخرجه البخاري (3208)، ومسلم (2643) باختلاف يسير.

[2] ينظر: موقع إسلام واب، شروط لا إله إلا الله.

﴿المبحث الرابع﴾

﴿أقسام التوحيد﴾

تنوعت عبارات علماء أهل السنة في التعبير عن أنواع التوحيد، ولكنهم مع ذلك التنوع متفقون في المضمون، ولعل السبب في ذلك هو أن تلك التقسيمات مأخوذ من استقراء النصوص، ولم ينص عليها باللفظ مباشرة، ولذلك فمن العلماء من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، هي[1]:

1 – توحيد الربوبية.

2 – توحيد الأسماء والصفات.

3 – توحيد الألوهية.

ومن المتأخرين من زاد قسماً رابعاً على الأقسام الثلاثة السابقة وسماه:

4 – توحيد الاتباع أو توحيد الحاكمية: أي: التحاكم إلى الكتاب والسنة.

ولكن يلاحظ على من ذكر هذا القسم أنه في الحقيقة داخل ضمن توحيد الألوهية؛ لأن العبادة لا تقبل شرعاً إلا بشرطين هما:

أ – الإخلاص.

ب – الإتباع.

واتباع الكتاب والسنة واجب، والتحاكم لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، من جملة الاتباع.

وقال بعضهم بل توحيد الحاكمية داخل تحت توحيد الربوبية، فالربوبية تشمل الخلق والملك والتدبير، فقالوا: التحاكم إلى الله تعالى من جملة تدبير الله تعالى، فنظروا إلى التحاكم على أنه فعل الرب؛ فهو الحاكم، وآخرون قالوا بل هو فعل العبد، لذلك قالوا هو تحت توحيد الألوهية؛ فهو عبادة، وقسم ثالث نظر إلى وجوب إفراد توحيد الحاكمية ولو كانت تحت الألوهية أو الربوبية لضرورة ذلك، حيث يكاد التحاكم بحكم الله تعالى أن ينقرض بالكلية، وهذا رأي سديد، فعن أبي أمامة الباهلي قال: قال النبي ﷺ: {لَتُنتَقَضَنَّ عُرى الإسلامِ عُروةً

---

[1] ينظر: طريق الهجرتين 30 وشرح الطحاوية 76 ولوامع الأنوار للسفاريني 128/1 وتيسير العزيز الحميد 18– 19.

عُروةً، فكُلَّما انتَقَضَت عُروةٌ تَشَبَّث النَّاسُ بالتي تليها، فأَوَّلُهنَّ نَقضًا الحُكمُ، وآخِرُهنَّ الصَّلاةُ}[1].

فهذا الحديث يحمل نفس المسلم العالم على وجوب إفراد توحيد الله تعالى في حكمه، وأنَّ الذي لم يأتي بهذا القسم من التوحيد هو خارج من ديوان الموحدين، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: 40]، **فهنا قرن سبحانه وتعالى حكمه بالعبادة، فلا عبادة لمن لم يحكم بما أنزل الله تعالى، من ذلك قوله تعالى:** ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، **وقال تعالى:** ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45]، **والظلم هنا هو الشرك، وذلك لقوله تعالى:** ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13].

كما قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 46].

وفي هذه الآية حكم الله تعالى عليهم بالفسق الأكبر، ودليل أنه فسق أكبر هو سائر الآيات السابقة، والفسق في اللغة هو الخروج من الشيء، وهنا هو الخروج من الدين.

وعلى كل حال، فالأقوال الثلاثة لا تخرج عن وجوب توحيد الحكم لله تعالى، وأنَّ الذي لا يحكم كتاب الله تعالى وهو لم يكن مكرها، فهو كافر ظالم فاسق، فهو كافر في نفسه، ظالم لغيره من المسلمين حيث حكم فيهم بهوى نفسه، وهو فاسق لخروجه عن الحق.

---

[1] صحيح: أخرجه أحمد في المسند **22160**، وأخرجه الطبراني في الكبير **7486**، وفي الشاميين **1602**، والبيهقي في الشعب **7524** من طريق محمد بن عبد الله الحضرمي، عن أحمد بن حنبل، به.

وأخرجه ابن حبان **6715** من طريق إسحاق بن إبراهيم المروزي، والبيهقي في الشعب **5677** من طريق أبي جعفر المسندي، كلاهما عن الوليد بن مسلم، به وصححه الألباني في صحيح الموارد **216**، والسيوطي في الجامع الصغير **7214**.

كما أنَّ من أهل العلم من قسم التوحيد إلى قسمين، وهذا هو الأغلب في كلام أهل العلم المتقدمين؛ لأنهم يجمعون بين توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وذلك بالنظر إلى أنهما يشكلان بمجموعهما جانب العلم بالله ومعرفته عز وجل، فجمعوا بينهما لذلك، بينما توحيد الألوهية يشكل جانب العمل لله تعالى[1].

وتقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام راجع إلى اعتبار متعلق التوحيد، وتقسيمه إلى قسمين راجع إلى اعتبار ما يجب على الموحد.

- فمن العلماء من يقول: التوحيد قسمان[2]:

القسم الأول: توحيد المعرفة والإثبات:

ويريد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بتوحيد المعرفة؛ لأن معرفة الله عز وجل إنما تكون بمعرفة أسمائه، وصفاته، وأفعاله.

والإثبات: أي إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات والأفعال.

القسم الثاني: توحيد القصد والطلب:

ويراد به الألوهية، وسمي بتوحيد القصد والطلب؛ لأن العبد يتوجه بقلبه ولسانه وجوارحه بالعبادة لله تعالى وحده رغبة ورهبة، ويقصد بذلك وجه الله, وابتغاء مرضاته.

- ومن العلماء من يقسم التوحيد إلى قسمين أيضا وهما:

القسم الأول: التوحيد العلمي الخبري:

والمقصود به توحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وسمي بالتوحيد العلمي: لأنه يعتني بجانب معرفة الله، فالعلمي أي العلم بالله.

والخبري: لأنه يتوقف على الخبر أي: الكتاب والسنة.

---

[1] الموسوعة العقدية تأليف جماعة من المؤلفين 1/160.

[2] ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه مدارج السالكين 3/ 449.

القسم الثاني: التوحيد الإرادي الطلبي:

والمقصود به توحيد الألوهية، وسمي بالتوحيد الإرادي لأن العبد له في العبادات إرادة، فهو إما أن يقوم بتلك العبادة أو لا يقوم بها، وسمي بالطلبي؛ لأن العبد يطلب بتلك العبادات وجه الله ويقصده عز وجل بذلك.

ومن أهل العلم من يقسم التوحيد إلى قسمين أيضا فيقول[1]:

القسم الأول: التوحيد القولي:

والمراد به توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، وسمي بالقولي لأنه في مقابل توحيد الألوهية الذي يشكل الجانب العلمي من التوحيد، وأما هذا الجانب فهو مختص بالجانب القولي العلمي.

القسم الثاني: التوحيد العملي:

والمراد به توحيد الألوهية، وسمي بالعملي؛ لأنه يشمل كلاً من عمل القلب، وعمل اللسان، وعمل الجوارح التي تشكل بمجموعها جانب العمل من التوحيد، فالتوحيد له جانبان: جانب تصديقي علمي، وجانب انقيادي عملي.

ولكنَّ القوم اجتمعوا على التقسيم الأول وهو: توحيد الألوهية، والربوبية، والأسماء والصفات، ونحن نسير على دربهم، ونذكر معاني هذه الأقسام وشيئا من أدلتها:



[1] ممن ذكر ذلك ابن القيم في كتابه ((مدارج السالكين)) 3/ 350 وابن تيمية في ((الصفدية)) 2/ 228 (٣)

﴿المطلب الأول﴾

﴿معاني أقسام التوحيد مع أدلتها﴾

﴿المسألة الأولى﴾

﴿توحيد الألوهية﴾

المعنى اللغوي للألوهية:

الألوهية هي مصدر أله يأله، قال الجوهري: أله – بالفتح – إلاهة، أي عبد عبادة، ومنه قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَيَذَرَكَ وَإِلَٰهَتَكَ﴾ [الأعراف: 127]، بكسر الهمزة قال وعبادتك وكان يقول: إن فرعون كان يعبد في الأرض، ومنه قولنا: (الله) وأصله: (إله) على فعال بمعنى مفعول أي معبود، كقولنا: إمام فعال: لأنه مفعول أي مؤتم به، اهـ[1].

وقد تكلمنا عن هذا سابقا.

وعليه: فإن الألوهية صفة لله تعالى تعني استحقاقه جل وعلا للعبادة بما له من الأسماء والصفات والمحامد العظيمة[2]، ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: والله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين اهـ[3].

ويقول ابن سيده: (والإلهة والألوهة والألوهية العبادة) وأما الألوهية التي جاءت هذه الكلمة لإثبات استحقاق الله تعالى وحده لها، فهي من مجموع كلام أهل اللغة أيضاً فزع القلب إلى الله، وسكونه إليه، واتجاهه إليه لشدة محبته له، وافتقاره إليه ويجمعهما كون الله هو الغاية والمراد والمقصود مطلقاً.

يقول ابن الأثير: أصله من أله يأله إذا تحير، يريد: إذا وقع العبد في عظمة الله وجلاله وغير ذلك من صفات الربوبية وصرف وهمه إليها أبغض الناس حتى لا يميل قلبه إلى أحد.

---

[1] الصحاح للجوهري **2223/6**، مادة (أله)، وانظر: تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص: **26**.

[2] ينظر: ((شرح الواسطية)) لابن عثيمين ص: **11**

[3] منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف– **1/ 54**.

ويقول أبو الهيثم: الله: أصله إله ولا يكون إلها حتى يكون معبوداً، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً وعليه مقتدراً وأصل إله ولاه فقلبت الواو همزة ومعنى ولاه أن الخلق إليه يؤلهون في حوائجهم ويفزعون إليه فيما ينوبهم كما يوله طفل إلى أمه.

ويقول الإمام ابن القيم: اسم الله دال على كونه مألوهاً معبوداً تألهه الخلائق محبة وتعظيماً وخضوعاً وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب[1].

الفرق بين الرب والإله في المعنى:

فالاسم الأول (الإله) يتضمن غاية العبد ومصيره ومنتهاه وما خلق له وما فيه صلاحه وكماله وهو عبادة الله.

والاسم الثاني (الرب) يتضمن خلق العبد ومبتداه وهو أنه يربّه ويتولاه، مع أن الثاني يدخل في الأول دخول الربوبية في الإلهية، والربوبية تستلزم الألوهية أيضا، واسم الرحمن يتضمن كمال التعليقين وبوصف الحالين فيه تتم سعادته في دنياه وأخراه ولهذا قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد:30] فذكر هنا الأسماء الثلاثة: الرحمن، وربي، والإله، وقال: عليه توكلت وإليه متاب، كما ذكر الأسماء الثلاثة في أم القرآن لكن بدأ هناك باسم الله ولهذا بدأ في السورة بـ {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} فقدم الاسم وما يتعلق به من العبادة لأن (الرب) هو الخالق والمالك والمدبر، الذي يضل من يشاء، ويهدي من يشاء، ويسعد من يشاء، ويشقي ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، إلى غير ذلك من معاني ربوبيته التي له منها ما يستحقه من الأسماء الحسنى[2].

اسم الله يدل على مقصود العبادة التي لها خلق الخلق:

ففاتحة دعوة الرسل الأمر بالعبادة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، وقال النبي ﷺ: {أمرتُ أن أقاتلَ الناسَ حتى يشهدُوا أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدا عبده ورسوله}[3].

---

[1] ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة لعبد الله بن محمد القرني ص37.
[2] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية بتصرف12/14.
[3] أخرجه البخاري 25، ومسلم 22.

وذلك يتضمن الإقرار به وعبادته وحده؛ فإن الإله هو المعبود ولم يقل حتى يشهدوا أن لا رب إلا الله؛ فإن اسم الله أدل على مقصود العبادة له التي لها خلق الخلق وبها أمروا[1].

اسم الرب أحق بحال الاستعانة والمسألة:

والرب هو المربي الخالق المالك المدبر لشؤون خلقه، وهذا الاسم أحق باسم الاستعانة والمسألة ولهذا قال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ﴾[نوح: 28]، وقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[الأعراف: 23]، وقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾[القصص: 16]، وقال: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾[آل عمران: 137]، وقال: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[البقرة: 286]، فعامة المسألة والاستعانة المشروعة باسم الرب[2].

إقرار الخلق بالله تعالى من جهة ربوبيته، أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود وقصدهم لدفع حاجاتهم العاجلة قبل الآجلة، كان إقرارهم بالله تعالى من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته، وكان الدعاء له والاستعانة به والتوكل عليه، فيهم أكثر من العبادة له والإنابة إليه، ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له الذي هو المقصود المستلزم للإقرار بالربوبية، وقد أخبر عنهم أنهم لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله[3]، وأنهم إذا مسهم الضر ضل من يدعون إلا إياه[4]، وقال: وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين[5]، فأخبر أنهم مقرون بربوبيته وأنهم مخلصون

---

[1] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية 2/ 13.

[2] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية بتصرف 14/ 13.

[3] {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ}[الزمر: 38].

[4] {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا}[الإسراء: 67].

[5] {وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ}[لقمان: 32].

له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم، وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية، وأما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية، وكذلك كثير من المتصوفة المتعبدة وأرباب الأحوال إنما توجههم إلى الله من جهة ربوبيته لما يمدهم به في الباطن من الأحوال التي بها يتصرفون، وهؤلاء من جنس الملوك، وقد ذم الله عز وجل في القرآن هذا الصنف كثيرا، فتدبر هذا فإنه تنكشف به أحوال قوم يتكلمون في الحقائق ويعملون عليها وهم لعمري في نوع من الحقائق الكونية القدرية الربوبية لا في الحقائق الدينية الشرعية الإلهية، وقد تكلمت على هذا المعنى في مواضع متعددة وهو أصل عظيم يجب الاعتناء به والله سبحانه أعلم[1].

حقيقة توحيدُ الأُلوهيَّةِ:

فيما سبق قدمنا معنى الألوهية، ويبقى علينا بيان كيفية توحيد الله تعلى في ألوهيته، وعليه:

فتوحيد الألوهية هو: إفرادُ اللهِ عزَّ وجَلَّ بالعِبادةِ في جميعِ أنواعِها السابق ذكرها، الظاهر منها والباطن.

قال اللهُ تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة: 163].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[النحل: 51].

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾[لقمان: 30].

ففي الآيتين الأولتين، بيَّن سبحانه وتعالى أنه لا يوجد معبودين الاثنين، وأنَّ الذين يتخذون إله غير الله تعالى أو مع الله تعالى يدعونه ويرجونه، فما الإله الثاني إلا وهم لا وجود له، لعدم استحقاقه الألوهية، وعدم قدرته عليها بما يحمل الإله من الصفات المعجزات.

وفي الآية الثالثة بيّن سبحانه أنه هو المعبود الحق، وأنَّ الذين يدعونهم أو يرجونهم أو يتوسلونهم مع الله تعالى أنه الباطل بعينه.

---

[1] مجموع الفتاوى لأحمد بن عبد الحليم ابن تيمية 14/ 14.

لذلك وجب على العاقل أن يعلم معنى العبادة بما بيناه سابقا كي لا يصرف شيئا منها لغير الله تعالى، فإن فعل ذلك كان موحدا لله تعالى في ألوهيته وهو عين التوحيد.

قال ابنُ عثيمين: توحيدُ الأُلوهيَّةِ: ويُقالُ له: توحيدُ العِبادةِ باعتبارَينِ: فباعتبارِ إضافتِه إلى اللهِ يُسَمَّى توحيدَ الأُلوهيَّةِ، وباعتبارِ إضافتِه إلى الخَلْقِ يُسَمَّى توحيدَ العِبادةِ، وهو إفراد الله عزَّ وجَلَّ بالعِبادةِ، فالمستحِقُّ للعِبادةِ هو اللهُ تعالى؛ قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ ﴾ [لقمان: 30][1].

والعِبادةُ لها شَرْطانِ:

1 – الإخلاصُ لله تعالى فيها.

2 – المتابَعةُ فيها، أي: أن تكونَ وَفْقَ ما جاء به الرَّسولُ ﷺ.

قال محمَّدُ بنُ إبراهيمَ آل الشَّيخ: أوجَبُ الواجِباتِ إخلاصُ العَمَلِ للهِ وَحْدَه، وتجريدُ المتابعةِ للرَّسولِ ﷺ، وأنكَرُ المنكَراتِ الشِّرْكُ باللهِ، والابتِداعُ في الدِّينِ بشَرعِ ما لم يأذَنْ به اللهُ[2].

وقال ابنُ عثيمين أيضا: لا يكونُ العَمَلُ صالِحًا إلَّا بأمرَينِ: الإخلاصُ لله عزَّ وجَلَّ، والمُتابعةُ للرَّسولِ ﷺ، والدَّليلُ على ذلك قَولُ الله تعالى في الحديثِ القُدُسيِّ: {أنا أغنى الشُّرَكاءِ عن الشِّرْكِ، مَن عَمِلَ عَمَلًا أشرَكَ فيه معيَ غيري، تركْتُه وشِرْكَه}[3].

وهذا فُقِدَ فيه الإخلاصُ، وقَولُ النَّبيِّ ﷺ: {من عَمِلَ عمَلًا ليس عليه أمْرُنا فهو رَدٌّ}[4].

وقال أيضًا: شهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ تستلزِمُ الإخلاصَ، وشهادةُ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ تَستلزِمُ الاتِّباعَ، وكُلُّ عمَل يُتقَرَّبُ به إلى اللهِ لا يُقبَلُ إلَّا بهذينِ الشَّرْطينِ: الإخلاصُ للهِ، والمتابَعةُ لرَسولِ اللهِ ﷺ[5].

---

[1] يُنظر: ((القول المفيد)) لابن عثيمين 1/ 14.

[2] يُنظر: ((فتاوى ورسائل محمد بن إبراهيم)) (13/ 178).

[3] أخرجه مسلم (2985) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[4] أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم قبل حديث (7350)، وأخرجه موصولاً مسلم (1718) من حديث عائشة رَضِيَ الله عنها.

[5] يُنظر: ((شرح الأربعين النووية)) (ص: 23).

وهذا هو معنى شَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وتمامُ تحقيقِها بشَهادةِ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ ﷺ[1].
وهذا التَّوحيدُ يُسَمَّى باعتبارِ إضافتِه إلى اللهِ تعالى بـ (توحيدِ الأُلوهيَّةِ).
ويُسَمَّى باعتبارِ إضافتِه إلى الخَلْقِ بـ (توحيدِ العِبادةِ)، و(توحيدِ العَمَلِ)، و(توحيدِ القَصْدِ)، و(توحيدِ الإرادةِ والطَّلَبِ)[2].
قال الزَّجَّاجي: معنى الإلهِ في الحقيقةِ: هو ذو الأُلوهيَّةِ، أي: المستحِقُّ للأُلوهيَّةِ والعِبادةِ[3].
وقال ابنُ تَيميَّةَ: توحيدُ الأُلوهيَّةِ أن يَعبُدَ اللهَ ولا يُشرِكَ به شَيئًا، فيُطيعَه ويُطيعَ رسُلَه، ويَفعَلَ ما يُحِبُّه ويَرضاه[4].
وقال محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ: هو توحيدُ اللهِ تعالى بأفعالِ العِبادِ؛ كالدُّعاءِ، والنَّذرِ والنَّحرِ، والرَّجاء والخَوفِ والتَّوكُّل، والرَّغْبة والرَّهبةِ والإنابةِ[5].
وقال سُلَيمانُ بنُ عبدِ اللهِ آل الشَّيخ: توحيدُ الإلَهيَّةِ المبنيُّ على إخلاصِ التَّألُّهُ لله تعالى، من المحبَّةِ والخَوفِ، والرَّجاءِ والتَّوكُّلِ، والرَّغْبة والرَّهبةِ، والدُّعاءِ للهِ وَحْدَه، وينبني على ذلك إخلاصُ العِباداتِ كُلِّها – ظاهِرِها وباطِنِها – للهِ وَحْدَه لا شَريكَ له، لا يَجعَلُ فيها شيئًا لغَيرِه، لا لمَلَكٍ مُقرَّبٍ، ولا لنبيٍّ مُرسَلٍ، فضلًا عن غيرِهما... ويُسَمَّى هذا النَّوعُ:
توحيدَ الإلَهيَّةِ: لأنَّه مبنيٌّ على إخلاصِ التَّألُّهِ، وهو أشَدُّ المَحَبَّةِ لله وَحْدَه، وذلك يستلزِمُ إخلاصَ العِبادةِ.
وتوحيدَ العِبادةِ: لذلك.
وتوحيدَ الإرادةِ: لأنَّه مبنيٌّ على إرادةِ وَجهِ اللهِ بالأعمالِ.
وتوحيدَ القَصْدِ: لأنَّه مبنيٌّ على إخلاصِ القَصْدِ المُستَلزِمِ لإخلاصِ العِبادةِ لله وَحْدَه.

---

[1] يُنظر: ((تطهير الاعتقاد)) للصنعاني (ص: 16).

[2] يُنظر: ((تيسير العزيز الحميد)) لسليمان آل الشيخ (ص: 21)، ((القول السديد)) للسعدي (ص: 19)، ((القول المفيد)) لابن عثيمين (14/1).

[3] يُنظر: ((اشتقاق أسماء الله))للزجاجي (ص: 30).

[4] يُنظر: ((الفتاوى الكبرى)) لابن تيمية (2/ 421).

[5] يُنظر: ((الرّسالة المفيدة)) للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص: 41).

وتوحيدَ العَمَلِ: لأنَّه مبنيٌّ على إخلاصِ العَمَلِ للهِ وَحْدَه[1].

وقال محمود شكري الألوسي: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ هو الذي أقرَّت به الكُفَّارُ جميعُهم ولم يخالِفْ منهم أحَدٌ في هذا الأصلِ إلَّا الثَّنَويَّةُ[2] وبعضُ المجوسِ، وأمَّا غيرُهما من سائرِ فِرَقِ الكُفرِ والشِّركِ فقد اتَّفَقوا على أنَّ خالِقَ العالَمِ ورازِقَهم ومُدَبِّرَ أمْرِهم ونافِعَهم وضارَّهم ومُجيرَهم واحِدٌ... كما قال سُبحانَه وتعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ [المؤمنون: 84، 85]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: 31].

وأمَّا توحيدُ الألوهيَّةِ: فهو إفرادُ العبادةِ للهِ الواحِدِ الصَّمَدِ؛ لأنَّ الإلهَ مَن يُقصَد للعبادةِ... إذا عَلِمْتَ هذا تبيَّن لك أنَّ المعركةَ بين أهلِ التوحيدِ والمُشرِكين في الألوهيَّةِ فقط[3].



[1] يُنظر: ((تيسير العزيز الحميد)) لسليمان آل الشيخ (ص: 19 – 21).

[2] الثنوية أو المثنوية: هي ديانة الاثنين، أي: يوجد إلهين اثنين أحدهما للظلمة والآخر للنور، وهؤلاء هم أصحاب الاثنين الأزليين: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس فإنهم قالوا بحدوث الظلام، وذكروا سبب حدوثه.

[3] يُنظر: ((فتح المنان)) (ص: 292).

﴿ الفرع الأول ﴾

﴿ أدلة وجوب توحيد الألوهية ﴾

مِنَ الأدِلَّةِ على ذلك:

قَولُ الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة: 21 - 22].

أي: اعبُدوا اللهَ تعالى أيُّها النَّاسُ؛ لأنَّه هو الذي أوجَدَكم أنتم ومَن قَبْلَكم من العَدَمِ؛ وذلك مِن أجْلِ أن تَصِلوا إلى مَرتَبةِ التَّقوى، واعبُدوه؛ لأنَّه هو الذي جعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً كالفِراشِ، مُوطأةً مُثبَّتةً يَستقِرُّ عليها الإنسانُ، وجعَل لكم السَّماءَ سَقْفًا، وهو الذي أَنزَلَ مِنَ السَّحابِ مَطَرًا؛ فأنبَتَ للنَّاسِ بسَبَبِه أنواعًا متعدِّدةً من الثِّمارِ؛ رزقًا لهم؛ فلا تتَّخِذوا له أمثالًا ونُظراءَ بزَعْمِكم، وهو الذي خلَقَكم ورزَقَكم؛ فهو المستَحِقُّ لأنْ تُخلِصوا له العِبادةَ وَحْدَه لا شريكَ له، وأنتم تَعلَمونَ أنَّه إلهٌ واحدٌ، لا نِدَّ له ولا شَريكَ له في الخَلْقِ والرَّزْقِ وغيرِ ذلك؛ فليس كمِثْلِه شَيءٌ سُبحانَه وتعالى.

كذلك في هذه الآيتين طريقة بديعة في الدعوة، وهو أنه سبحانه يذكرهم بأفعال الربوبية، التي غالب أهل الشرك مؤمن بها، فيدعوهم بذلك لتوحيد الألوهية.

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّيَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكَينَ﴾[الأنعام: 14].

أي: قُلْ - يا محمَّدُ -: أأجْعَلُ غيرَ اللهِ تعالى مِن هذه المخلوقاتِ العاجزةِ وَليًّا يتولَّاني؛ فأستنصِرَه وأستعينَ به؟ كَلَّا فلا أتَّخِذُ وليًّا غيرَ اللهِ تعالى؛ لأنَّه خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُبدِعُهما على غيرِ مثالٍ سبَق، ولا أتَّخِذُ غيرَه سُبحانَه وليًّا؛ لأنَّه سُبحانَه الرَّزَّاقُ لجميعِ خَلْقِه، من غيرِ احتياجٍ إليهم، وقد أَمَرني ربِّي أنْ أكونَ أوَّلَ مَن يخضَعُ له سُبحانَه بالتَّوحيدِ، وينقادَ له بالطَّاعةِ من هذه الأُمَّة، ونُهيتُ عن أنْ أكونَ مِن المشْرِكين.

وقال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الأنعام: 101-102].

أي: إنَّ اللهَ تعالى الذي جَعَلَ المُشركونَ الجِنَّ شُرَكاءَ له، وخَرَقوا له بنينَ وبناتٍ بغَيْرِ عِلمٍ هو خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ، ومُحْدِثُهما على غيرِ مثالٍ سَبَقَ، فكيفَ يكونُ له ولَدٌ، ولا زوجةَ له؟ فالولَدُ إنَّما يكونُ متولِّدًا عن شيئينِ متناسِبَينِ، واللهُ لا يناسِبُه ولا يشابِهُه مِن خَلْقِه شيءٌ، وهو سُبحانَه لا يحتاجُ إلى زوجةٍ، فهو الغنيُّ عن جميعِ مخلوقاتِه، وكلُّها فقيرةٌ إليه، وجميعُ الكائناتِ خَلْقُه وعَبيدُه، ولا يُمكِنُ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه ولَدًا أو زوجةً له بحالٍ، وهو سُبحانَه عالِمٌ بالموجوداتِ والمعدوماتِ، والجائزاتِ والمُسْتحيلاتِ، فمِنْ إحاطَةِ عِلْمِه عزَّ وجَلَّ أنَّه يَعلَمُ المعدومَ الذي سَبَق في عِلْمِه أنَّه لا يُوجَدُ، يعلَمُ أنْ لو كان كيف يكونُ؟ فمن أحاط عِلْمُه بكلِّ شيءٍ فكيف يكونُ جِنْسًا له -كالوَلَدِ- من لا يعلَمُ شيئًا إلَّا ما عَلَّمَه اللهُ؟ وهو عالِمٌ أيضًا بأعمالِ أولئك الذين يزعُمونَ أنَّ للهِ شَريكًا أو ولدًا، وهو مُحْصيها عليهم فيُجازيهم بها، وذلك الذي لا وَلَدَ له ولا صاحِبَةَ، وخَلَقَ كُلَّ شيءٍ، وهو بكلِّ شيءٍ عليمٌ، هو المألوهُ المعبودُ الذي يستحِقُّ نهايةَ الذُّلِّ ونهايةَ الحُبِّ، الرَّبُّ الذي ربَّى جميعَ خَلْقِه بنِعَمِه، فلا ينبغي أن تكونَ عبادَتُكم وعبادَةُ جميعِ الخَلْقِ إلَّا خالِصةً له وحْدَه؛ فحَقٌّ على المصنوعِ أن يُفْرِدَ جميعَ أنواعِ العبادَةِ لصانِعِه، ويَقْصِدَ بها وَجْهَه، فاعْبُدوه وحْدَه لا شَريكَ له، وأَقِرُّوا له بالوَحدانيَّةِ، فلا وَلَدَ له، ولا والِدَ، ولا صاحِبَةَ له، ولا نَظيرَ ولا شريكَ. واللهُ على جميعِ ما خَلَقَ رَقيبٌ وحَفيظٌ؛ فيقومُ بأرزاقِهم وأقواتِهم، وسياسَتِهم وتدبيرِ شُؤونِهم؛ بكمالِ عِلْمِه، وقُدْرَته ورَحْمَتِه، وعَدْلِه وحِكْمَتِه عزَّ وجَلَّ، وكلُّ شيءٍ بِيَدِه، وأمورُ كُلِّ شيءٍ تُفَوَّضُ إليه وَحْدَه، فيفعَلُ فيها ما يشاءُ سُبحانَه، فذلك -الذي هذه صفاتُه- هو الذي يَستَحِقُّ أن يُعبَدَ وَحْدَه لا شريكَ له.

وقال اللهُ تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: 31-32].

أي: قُل – يا مُحمَّدُ – للمُشرِكينَ: مَن الذي يرزُقُكم من السَّماءِ مياهَ الأمطارِ، ويَرزُقُكم من الأرضِ أنواعًا من الحُبوبِ والثِّمارِ والبُقولِ والمعادِنِ؟ أم مَن الذي يملِكُ سَمعَكم وأبصارَكم، ولو شاء لسَلَبَكم إيَّاها؟ ومَنْ يُخرِجُ الشَّيءَ الحَيَّ مِن الشَّيءِ الميِّتِ بقُدرتِه العظيمةِ، فيُخرِجُ الإنسانَ الحيَّ والأنعامَ والبهائمَ الأحياءَ من النُّطَفِ الميِّتةِ، ويُخرِجُ الزَّرعَ من الحَبَّةِ، والنَّخلةَ من النَّواةِ، والدَّجاجةَ مِن البيضةِ، والمؤمنَ من الكافِرِ، إلى غيرِ ذلك؟ ومَنْ يُقدِّر أمرَ جَميعِ الخلائِقِ، ويتصَرَّفُ في السَّماءِ والأرضِ بما يشاءُ؟

فسيَقولُ المُشرِكونَ: اللهُ وَحدَه هو الذي يرزُقُنا مِنَ السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ من الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ.

فقُل– يا مُحمَّدُ – لهؤلاءِ المُشرِكينَ: ما دمتم مقرين بذلك فلما تشركون بالله تعالى وتدعون غيره، أفلا تتَّقونَ اللهَ، وتخافونَ عِقابَه على إصرارِكم على الشِّرْكِ، فتُخلِصونَ له العِبادةَ؟! فأنتم مُقِرُّونَ أنَّه خالِقُكم ورازِقُكم، ومُدَبِّرُ أمورِكم، فالذي يقومُ بتلك الأفعالِ، فَيرزُقُكم من السَّماءِ والأرضِ، ويَملِكُ السَّمعَ والأبصارَ، ويُخرِجُ الحَيَّ مِنَ الميِّتِ، ويُخرِجُ الميِّتَ مِن الحَيِّ، ويُدَبِّرُ الأمرَ؛ هو المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه دونَ ما سِواه، وهو ربُّكم الحَقُّ الذي لا شَكَّ فيه. فأيُّ شَيءٍ غيرِ الحقِّ إلَّا الضَّلالُ؟! فلا واسِطةَ بين الحَقِّ والباطِلِ؛ فمَن عبدَ غَيرَ اللهِ المستَحِقِّ وَحدَه للعِبادةِ، فقد ضلَّ، فكيف يَقَعُ صَرفُكم بعدَ وضوحِ الحقِّ، فتَعدِلونَ عن عِبادةِ اللهِ إلى عِبادةِ ما سِواه، وأنتم تعلمونَ أنَّ اللهَ وَحْدَه هو المتفرِّدُ بالخَلقِ والتَّدبيرِ؟[1]

قال الشِّنقيطيُّ: قَولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: 3 – 5].

ذكَرَ جَلَّ وعلا في هذه الآياتِ الكريمةِ مِن أوَّلِ سُورةِ «الجاثيةِ» سِتَّةَ بَراهينَ مِن براهينِ التَّوحيدِ الدَّالَّةِ على عَظَمتِه وجَلالِه، وكَمالِ قُدرتِه، وأنَّه المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه تعالى.

الأوَّلُ منها: خَلْقُه السَّمواتِ والأرضَ.

---

[1] يُنظر: ((التفسير المحرر – سورة يونس)) (ص: 153).

ينظر: موقع الدرر السنية: أدلة توحيد الألوهية – بتصرف.

الثَّاني: خَلْقُه النَّاسَ.

الثَّالِثُ: خَلْقُه الدَّوابَّ.

الرَّابعُ: اختِلافُ اللَّيلِ والنَّهارِ.

الخامِسُ: إنزالُ الماءِ مِن السَّماءِ وإحياءُ الأرضِ به.

السَّادِسُ: تصريفُ الرِّياحِ.

وذَكَر أنَّ هذه الآياتِ والبراهينَ إنَّما ينتَفِعُ بها المؤمِنونَ الموقِنونَ الذين يَعقِلونَ عن اللهِ حُجَجَه وآياتِه، فكأنَّهم هم المختَصُّونَ بها دونَ غيرِهم.

ولذا قال: ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الجاثية: 3]، **ثم قال:** ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: 4]، **ثم قال:** ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الجاثية: 5].

وهذه البراهينُ السِّتَّةُ المذكورةُ في أوَّلِ هذه السُّورةِ الكريمةِ جاءت مُوضَّحةً في آياتٍ كثيرةٍ جِدًّا، كما هو معلومٌ[1]. اهـ

وهذه البراهين هي ﴿لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[الجاثية: 3]، **ليزدادوا إيمانا، وهي**﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[الجاثية: 4]، **ليزدادوا رسوخا، وهي** ﴿آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[الجاثية: 5]. **وسواء كان هذا العاقل مؤمنا أو كافر، فإن كان مؤمنا زاد يقينا، وإن كان كافرا دله عقله السليم إلى لزوم توحيد الله تعالى في ألوهيته، كما هو موحدٌ في ربوبيته، فهذه هي وضيفة العقل السليم[2].**



[1] يُنظر: ((أضواء البيان)) (7/ 179).

[2] ينظر: العقل في القرآن الكريم: للدكتور: عصام الدين إبراهيم النقيلي، بداية من ص 20.

﴿الفرع الثاني﴾

﴿مقام توحيد الألوهية﴾

توحيدُ الأُلوهيَّةِ هو: تحقيقٌ لشَهادةِ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وشَهادةِ أنَّ محمدًا رسولُ اللهِ ﷺ. وأوَّلُ واجبٍ هو الشَّهادتانِ:

قال أبو الحارثِ الصَّائغُ: سألتُ أبا عبدِ اللهِ أحمدَ بنَ محمَّدِ بنِ حَنبلٍ، قلتُ: إذا قال الرَّجُلُ: لا إلهَ إلَّا اللهُ، فهو مؤمِنٌ؟ قال: كذا كان بدءُ الإيمانِ، ثمَّ نزلت الفرائِضُ؛ الصَّلاةُ، والزَّكاةُ، وصَومُ رَمَضانَ، وحَجُّ البيتِ[1].

وقال العَيني: قال شيخُنا زينُ الدين رحمه اللهُ:... لَمَّا كان إرسالُ مُعاذٍ إلى من يُقِرُّ بالإلهِ والنبُوَّاتِ، وهم أهلُ الكتابِ، أمَرَه بأوَّلِ ما يدعوهم إلى توحيدِ الإلهِ والإقرارِ بنبُوَّةِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فإنَّهم وإن كانوا يعترفون بإلهيَّةِ اللهِ تعالى، ولكِنْ يجعلون له شَريكًا؛ لدعوةِ النَّصارى أنَّ المسيحَ ابنُ اللهِ تعالى، ودعوةِ اليهودِ أنَّ عُزَيرًا ابنُ اللهِ –سبحانَه عمَّا يَصِفون– وأنَّ محمَّدًا ليس برَسولِ اللهِ أصلًا، أو أنَّه ليس برسولٍ إليهم، على اختلافِ آرائِهم في الضَّلالةِ؛ فكان هذا أوَّلَ واجِبٍ يُدْعَونَ إليه[2].

وقال ابنُ تَيميَّةَ: السَّلَفُ والأئمَّةُ متَّفِقونَ على أنَّ أوَّلَ ما يُؤمَرُ به العبادُ الشَّهادتانِ[3].

وقال أيضًا: أصلُ الإسلامِ: أشهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، فمن طلَبَ بعباداتِه الرِّياءَ والسُّمعةَ فلم يحقِّقْ شَهادةَ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، ومَن خرَجَ عمَّا أمَرَه به الرَّسولُ مِن الشَّريعةِ، وتعَبَّد بالبِدْعةِ فلم يحَقِّقْ شَهادةَ أنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ، وإنَّما يُحَقِّقُ هذينِ الأصلَينِ مَن لم يَعبُدْ إلَّا اللهَ، ولم يخرُجْ عن شريعةِ رَسولِ اللهِ ﷺ التي بلَّغَها عن اللهِ[4].

---

[1] يُنظر: ((السنة)) للخلال (3/564).

[2] يُنظر: ((عمدة القاري)) (8/ 235).

[3] يُنظر: ((درء تعارض العقل والنقل)) (8/11).

[4] يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (11/ 617).

توحيدُ الأُلوهيَّةِ يُحَقِّقُ الغايةَ مِن خَلْقِ الإنسانِ، وهي عِبادةُ اللهِ وَحْدَه:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56].

عن عبدِ اللهِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما قال: إلَّا لِيُقِرُّوا بالعُبوديَّةِ طَوعًا وكَرْهًا[1].

وقال مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الوَهَّابِ: اعلَمْ أرشَدَك اللهُ لطاعتِه أنَّ الحنيفيَّةَ مِلَّةَ إبراهيمَ: أن تَعبُدَ اللهَ وَحْدَه مخلِصًا له الدِّينَ، وبذلك أمَرَ اللهُ جميعَ النَّاسِ، وخلَقَهم لها، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: 56] **ومعنى يَعْبُدون: يُوَحِّدون.**

وأعظَمُ ما أمَرَ اللهُ تعالى به التَّوحيدُ، وهو إفرادُ اللهِ بالعِبادةِ، وأعظَمُ ما نهى عنه الشِّرْكُ، وهو دَعوةُ غيرِه معه، والدَّليلُ قَولُه تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: 36][2].

جميعُ الرُّسُلِ دَعَوا إلى توحيدِ اللهِ جلَّ وعلا وإخلاصِ العِبادةِ له:

قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

وقال اللهُ سُبحانَه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25].

عن قتادةَ قال: أُرسِلَت الرُّسُلُ بالإخلاصِ والتَّوحيدِ، لا يُقبَلُ منهم عَمَلٌ حتَّى يقولوه، ويُقِرُّوا به[3].

وعن قتادةَ أيضا في قَولِ اللهِ تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ [النحل: 2]، **قال: إنَّما بَعَث اللهُ المرسَلينَ أن يُوَحِّدوا اللهَ وَحْدَه، ويُطاعَ أمْرُه، ويُجتنَبَ سَخَطُه**[4].

---

[1] أخرجه ابن جرير في تفسيره (21/ 554).

[2] يُنظر: ((ثلاثة الأصول وأدلتها)) (ص: 8).

[3] أخرجه ابن جرير في تفسيره (16/ 250).

[4] أخرجه ابن جرير في تفسيره (14/ 164).

وقال ابنُ أبي العِزِّ: اعلَمْ أنَّ التَّوحيدَ أوَّلُ دَعوةِ الرُّسُلِ، وأوَّلُ مَنازِلِ الطَّريقِ، وأوَّلُ مَقامٍ يقومُ فيه السَّالِكُ إلى اللهِ عزَّ وجَلَّ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 59]، وقال هودٌ عليه السَّلامُ لقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 65]، وقال صالحٌ عليه السَّلامُ لقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 73]، وقال شُعَيبٌ عليه السَّلامُ لقَومِه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: 85]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25]، وقال صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: {أُمِرتُ أن أقاتِلَ النَّاسَ حتَّى يَشْهَدوا أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنَّ مُحمَّدًا رَسولُ اللهِ}[1]؛ ولهذا كان الصَّحيحُ أنَّ أوَّلَ واجِبٍ يجِبُ على المكَلَّفِ شَهادةُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، لا النَّظَرُ، ولا القَصْدُ إلى النَّظَرِ، ولا الشَّكُّ، كما هي أقوالٌ لأربابِ الكلامِ المذمومِ، بل أئمَّةُ السَّلَفِ كُلُّهم مُتَّفِقونَ على أنَّ أوَّلَ ما يُؤمَرُ به العَبدُ الشَّهادتانِ... فالتَّوحيدُ أوَّلُ ما يَدخُلُ به في الإسلامِ، وآخِرُ ما يخرُجُ به من الدُّنيا، كما قال النَّبيُّ ﷺ: {مَن كان آخِرَ كَلامِه: لا إلهَ إلَّا اللهُ، دَخَل الجنَّةَ}[2]، وهو أوَّلُ واجبٍ وآخِرُ واجِبٍ؛ فالتَّوحيدُ أوَّلُ الأمرِ وآخِرُه، أعني: توحيدُ الإلَهيَّةِ[3].

توحيدُ الأُلوهيَّةِ مُتضَمِّنٌ لتَوحيدِ الرُّبوبيَّةِ ولتَوحيدِ الأسماءِ والصِّفاتِ:

فمَن عَبدَ اللهَ تعالى وَحْدَه، وآمَنَ بأنَّه المستَحِقُّ وَحْدَه للعِبادةِ، دَلَّ ذلك على أنَّه مُؤمِنٌ برُبوبيَّتِه وبأسمائِه وصِفاتِه؛ لأنَّه لم يَفعَلْ ذلك إلَّا لأنَّه يَعتَقِدُ بأنَّ اللهَ تعالى وَحْدَه هو المتفَضِّلُ عليه وعلى جميعِ عِبادِه بالخَلْقِ والرِّزقِ، والتَّدبيرِ، وغَيرِ ذلك من خَصائِصِ الرُّبوبيَّةِ، وأنَّه تعالى له الأسماءُ الحُسنى والصِّفاتُ العُلا، التي تدُلُّ على أنَّه المستَحِقُّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له.

---

[1] رواه البخاري ومسلم: الأول 25، والثاني 22.

[2] أخرجه أبو داود (3116) واللفظ له، وأحمد (22034).

[3] يُنظر: ((شرح الطحاوية)) (1/ 21 – 24).

ومع أهميَّةِ هذا التَّوحيدِ فقد جَحَده أكثَرُ الخَلْقِ، فأنكَروا أن يكونَ اللهُ تعالى هو المستَحِقَّ للعِبادةِ وَحْدَه لا شَريكَ له، وعَبَدوا غَيرَه معه.

فكفار قريش مثلا: كانوا موحدين بربوبيته سبحانه وتعالى فقد كانَ المُشْرِكُونَ يقولونَ: لَبَّيْكَ لا شَرِيكَ لَكَ، قالَ: فيَقولُ رَسولُ اللهِ ﷺ: وَيْلَكُمْ! قدْ قَدْ، فيَقولونَ: إلَّا شَرِيكًا هو لَكَ، تَمْلِكُهُ وَما مَلَكَ. يقولونَ هذا وَهُمْ يَطُوفُونَ بالبَيْتِ[1].

فالمُشرِكينَ كانوا يَقولونَ في الطَّوافِ حَولَ الكَعبةِ: «لبَّيكَ لا شَريكَ لكَ»، فيَبدَؤونَ التَّلبيةَ بالتَّوْحيدِ، ولأنَّ الرَّسولَ ﷺ يعلَمُ ما كانوا يَزيدونَه بعْدَ ذلكَ، فكانَ إذا لَبُّوا بالتَّوْحيدِ قال لَهم: «وَيْلَكم!»، أي: لَكمُ الوَيلُ والهَلاكُ بما تَزيدونَ في التَّلبيةِ، «قدْ قدْ»، رُوِيَ بإسْكانِ الدَّالِ وكَسرِها معَ التَّنوينِ، أي: اكتَفوا بقَولِكُم بالتَّوْحيدِ واقْتَصِروا عليهِ، وَلا تَزيدُوا ما بَعدَها مِن قَولِكم: إلَّا شَريكًا هوَ لكَ، تَملِكُه وَما ملَكَ.

وتفهم من هذا أنَّ كفار قريش وغيرهم، كانوا يثبتون وجود الله تعالى، بل يوحدونه في ربوبيته، بل يبجلون الله تعالى ويحترمون ما بقى عندهم من شرعة إبراهيم عليه السلام، كالأشهر الحرم وتوقير البيت الحرام وغير ذلك، بل حتى الشريك الذي نسبوه لله تعالى، نسبوه على وجه التصغير، فهو أقل من الله تعالى عندهم، فهو يملك الشريك ويملكه الشريك، فكان الله هو ربُّ الشريك، فأثبتوا الكمال لله تعالى وحده والملك لله تعالى وحده، وترى قوما آخرين في زمننا لم يبلغوا حتى توحيد الربوبية، وهم يدعون الإسلام، فيستمطرون، ويستنكحون، ويسترزقون، عند قبر الجيلاني، والشاذلي وغيرهم من رؤوس الصوفية ممن يدعون الولاية، فالإسلام عند هؤلاء هو إثبات وجود الله تعالى والتصديق ببعثة محمد ﷺ، فقط، فلو قارنتهم بكفار قريش رأيت أنَّ كفار قريش أكثر إيمانا وحبا وعقلا وتبجيلا للدين منهم.

قال محمَّدُ بنُ إبراهيمَ آل الشَّيخ: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ هو الأصلُ، وهو الدَّليلُ على توحيدِ الأُلوهيَّةِ، فإذا كان اللهُ تعالى هو المتفَرِّدَ بخَلْقِ السَّمواتِ والأرضِ لم يُشرَكْ فيه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبيٌّ مُرسَلٌ، فكونُه هو الخالِقَ وَحْدَه يقتضي أن يكونَ هو المعبودَ وَحْدَه؛ فإنَّه مِن أبعَدِ شَيءٍ أن يكونَ المخلوقُ مُساوِيًا للخالِقِ أو مُستَحِقًّا لِما يَستَحِقُّه الخالِقُ[2].

---

[1] أخرجه مسلم **1185**.

[2] يُنظر: ((شرح ثلاثة الأصول)) (ص: **79**).

تحقيق توحيد الألوهية هو السَبَب الرئيس لدُخولِ الجَنَّةِ والنَّجاةِ مِنَ النَّارِ:

عن مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال له: {هل تَدْري ما حَقُّ اللهِ على عِبادِه؟} قلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: {حَقُّ اللهِ على عِبادِه أن يَعبُدوه ولا يُشرِكوا به شيئًا}، ثم قال: {هل تدري ما حقُّ العبادِ على اللهِ إذا فَعَلوه؟} قلتُ: اللهُ ورَسولُه أعلَمُ، قال: {حَقُّ العِبادِ على اللهِ ألَّا يُعَذِّبَهم}[1].

وعن جابرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: {من مات لا يُشرِكُ باللهِ شَيئًا دَخَل الجنَّةَ، ومن مات يُشرِكُ باللهِ شَيئًا دَخَل النَّارَ}[2].

قال المَنَاوِيُّ في شرحِ حديثِ النَّبيُّ ﷺ حيث قال: {عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ فَأَخَذَ النَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الأُمَّةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ النَّفَرُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْعَشَرَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ مَعَهُ الْخَمْسَةُ وَالنَّبِيُّ يَمُرُّ وَحْدَهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قُلْتُ: يَا جِبْرِيلُ هَؤُلاءِ أُمَّتِي؟ قَالَ: لا، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ كَثِيرٌ قَالَ: هَؤُلاءِ أُمَّتُكَ وَهَؤُلاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا قُدَّامَهُمْ لا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلا عَذَابَ}، قُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: {كَانُوا لا يَكْتَوُونَ وَلا يَسْتَرْقُونَ وَلا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ... }[3].

إنَّ النَّبيَّ ﷺ جعل الوَصْفَ الذي استحَقَّ به هؤلاء دُخولَها بغيرِ حِسابٍ تحقيقَ التوحيدِ وتجريدَه، فلا يَسألون غيرَهم أن يَرْقِيَهم، «ولا يتطَيَّرون»؛ لأنَّ الطِّيَرة نوعٌ من الشِّركِ، «وعلى رَبِّهم يتوَكَّلون» قَدَّم الظَّرفَ ليفيدَ الاختصاصَ، أي: عليه لا على غيره[4]. اهـ

فغاصوا في بحر توحيد الألوهية، وشربوا منه حتى ذاقوا من لذَّاته ما أدركهم عين التوكل الخالص على الله تعالى، فكانوا مع الله تعالى في كل أحوالهم وتحركاتهم وسكناتهم، حتى علموا علم اليقين أنَّ حسناتهم وسيئاتهم وكل شيء بيد الله تعالى وحده، فعلى أي شيء سيحاسبُ هؤلاء؟

---

[1] أخرجه البخاري (5967) واللفظ له، ومسلم (30).

[2] أخرجه مسلم (93).

[3] صحيح البخاري (6059).

[4] يُنظر: ((فيض القدير)) (92/4).

وقال سُليمانُ بنُ عبدِ اللهِ آل الشيخِ في كلامِه على قَولِه تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: 82]: فدَلَّت على فَضْلِ التوحيدِ وتكفيرِه للذُّنوبِ؛ لأنَّ من أتى به تامًّا فله الأمنُ التَّامُّ والاهتداءُ التَّامُّ، ودخل الجنَّةَ بلا عذابٍ، ومن أتى به ناقصًا بالذُّنوبِ التي لم يَتُبْ منها، فإن كانت صغائِرَ كُفِّرت باجتنابِ الكبائِرِ؛... وإن كانت كبائِرَ فهو في حُكمِ المشيئةِ؛ إن شاء الله غَفَر له، وإن شاء عَذَّبه، ومآلُه إلى الجنَّةِ[1].

وقال ابنُ عثيمين: تحقيقُ التَّوحيدِ: تخليصُه مِن الشِّرْكِ، ولا يكونُ إلَّا بأمورٍ ثلاثةٍ:

الأوَّلُ: العِلمُ: فلا يمكِنُ أن تحَقِّقَ شَيئًا قَبلَ أن تَعلَمَه؛ قال اللهُ تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19].

الثَّاني: الاعتِقادُ: فإذا عَلِمْتَ ولم تعتَقِدْ واستكبَرْتَ، لم تحَقِّقِ التَّوحيدَ؛ قال اللهُ تعالى عن الكافِرينَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: 5]، فما اعتَقَدوا انفرادَ اللهِ بالأُلوهيَّةِ.

الثَّالث: الانقيادُ: فإذا عَلِمْتَ واعتقَدْتَ ولم تنْقَدْ، لم تحَقِّقِ التَّوحيدَ؛ قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [الصافات: 35، 36]، فإذا حَصل هذا وحَقَّق التَّوحيدَ، فإنَّ الجنَّةَ مَضمونةٌ له بغيرِ حِسابٍ...[2]

---

[1] يُنظر: ((تيسير العزيز الحميد)) (ص: **51**).

[2] يُنظر: ((القول المفيد)) بتصرف (**1/ 91**).

الخلاصة:

توحيد الألوهية هو: إفراد الله تعالى بأفعال العباد، ويسمى توحيد العبادة، ومعناه الاعتقاد الجازم بأن الله سبحانه وتعالى هو: الإله الحق ولا إله غيره، وكل معبود سواه باطل، وإفراده تعالى بالعبادة والخضوع والطاعة المطلقة، وأن لا يشرك به أحد كائناً من كان، ولا يصرف شيء من العبادة لغيره؛ كالصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، والدعاء، والاستعانة، والنذر، والذبح، والتوكل، والخوف والرجاء، والحب، والدعاء وغيرها من أنواع العبادة الظاهرة والباطنة، وأن يعبد الله بالحب والخوف والرجاء جميعا، وعبادته ببعضها دون بعض ضلال.

قال الله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: 5].

وفي: إياك نعبد: توحيد الله تعالى في كل عبادة ظاهرة دلَّ عليها النبي ﷺ، كالصلاة والصوم والحج والدعاء وغيره...والعبادة كل ما يتقرب به إلى الله تعالى مما جاء به النبي ﷺ.

وفي: إياك نستعين: توحيد الله تعالى في كل عبادة باطنة دل عليها النبي ﷺ، كالخوف والرجاء والحب والاستعانة وغيرها...

وقال: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117].

فتوحيد الألوهية هو ما دعت إليه جميع الرسل، وإنكاره هو الذي أورد الأمم السابقة موارد الهلاك.

وهو أول الدين وآخره وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها ولأجله أرسلت الرسل، وأنزلت الكتب، وسلت سيوف الجهاد، وهو معنى قوله تعالى: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: 25][1].



[1] **الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري بتصرف ص 56.**

﴿المسألة الثانية﴾

﴿توحيد الربوبية﴾

أولا: معنى اسم الرب:

قال الراغب الأصفهاني: الرب مصدر مستعار للفاعل[1].

وجاء في لسان العرب: ربب: الرب: هو الله عز وجل هو رب كل شيء أي: مالكه... ولا يقال الرب في غير الله، إلا بالإضافة، قال: ويقال الرب، بالألف واللام، لغير الله تعالى، وقد قالوه في الجاهلية للملك[2].

وقيل: الرّبُّ في الأصل: مصدرُ ربَّ يَرُبُّ، بمعنى: نشَّأ الشيءَ من حال إلى حال التمام، يُقالُ: ربَّه وربَّاه وربَّبَهُ، فلفظ (رب) مصدر مستعار للفاعل

قال ابنُ الأنباريِّ: الرَّبُّ: ينقسِمُ إلى ثلاثةِ أقسامٍ:

يكونُ الرَّبُّ: المالِكَ.

ويكون الرَّبُّ: السَّيِّدَ المطاعَ؛ قال اللهُ عزَّ وجلَّ: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ [يوسف: 41]، معناه: فيَسقي سَيِّدَه...

ويكونُ الرَّبُّ: المصلِحَ، من قولِهِم: قد رَبَّ الرَّجُلُ الشَّيءَ يرُبُّه رَبًّا، والشَّيءُ مربوبٌ: إذا أصلَحَه[3].

فهذه ثلاثة أصول ترجع إليها معاني كلمة الرب:

فالأصل الأول: بمعنى المالك والصاحب، ومن هذا المعنى قول الرسول ﷺ في ضالة الإبل {فذرها حتى يلقاها ربُّها}[4].

والأصل الثاني: بمعنى السيد المطاع، قل الطبري: وأما تأويل قوله: (رب) فإن الرب في كلام العرب متصرف على معان: فالسيد المطاع فيها يدعى رباً، ومن ذلك قول لبيد بن ربيعة العامر:

---

[1] المفردات للراغب (ص: 336).

[2] ينظر: لسان العرب 670.

[3] يُنظر: ((الزاهر)) (467/1).

[4] رواه البخاري 91 من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

وأهلكن يوماً رب كندة وابنه * ورب معد بين خبت وعرعر

يعني رب كندة: سيد كندة[1]. اهـ.

وأما الأصل الثالث: فبمعنى المصلح للشيء المدبر له، ولذلك قال بعض أهل العلم باشتقاق كلمة الرب من التربية، قال الراغب: الرب في الأصل التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام[2].

وقال الطبري بعد أن ذكر المعاني الثلاثة لكلمة (الرب) قال: وقد يتصرف معنى الرب في وجوه غير ذلك، غير أنها تعود إلى بعض هذه الوجوه الثلاثة[3].

وكلمة الرب تحمل على معان كثيرة، لهذا جمعها القوم على أقسام ثلاثة تكون أصولا لها كما سبق، ولكن القوم اجتمعوا على أن أصول معنى الربوبية هي: الخلق، والملك، والتدبير.

هذا ما استقر عليه الأمر، وإن كان لا فرق بينها وبين ما سبق من الأصول، فكلها تعود إلى المعاني نفسها.

قال ابنُ عُثَيمين: معاني الرُّبوبيَّةِ كَثيرةٌ؛ لأنَّ الرَّبَّ هو الخالِقُ المالِكُ المدبِّرُ، وهذه تَحمِلُ معانيَ كثيرةً جِدًّا[4].

فكون سبحانه خالق، فهو قدير وقادر وغيره، وكونه مالك فهو قوي عظيم وغيره، وكونه مدبرا، فهو غني معطي كريم وغيره من امعاني التي تدخل تحت تلك الأصول الثلاثة للربوبية.

فائدة:

لا تُستَعمَلُ كَلِمةُ (الرَّبِّ) في حقِّ المخلوقِ إلَّا مضافةً، فيقالُ: ربُّ الدَّارِ، وربُّ المالِ.

قال ابنُ قُتَيبةَ: لا يُقالُ لمخلوقٍ: هذا (الرَّبُّ) معرَّفًا بالألفِ واللَّامِ، كما يقالُ للهِ، إنَّما يقالُ: هذا رَبُّ كذا، فيُعرَّفُ بالإضافةِ؛ لأنَّ اللهَ مالِكُ كُلِّ شَيءٍ، فإذا قيل: (الرَّبُّ) دَلَّت الألفُ

---

[1] تفسير الطبري 1/ 141.

[2] المفردات: 336.

[3] تفسير الطبري 1/ 142. ينظر: منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف– 1/ 215 .

[4] يُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) (2/84).

واللَّامُ على معنى العُمومِ، وإذا قيل لمخلوقٍ: ربُّ كذا ورَبُّ كذا، نُسِبَ إلى شَيءٍ خاصٍّ؛ لأنَّه لا يملِكُ شَيئًا غَيرَه[1].

فكلمة الرب مجرَّدة لا تستعمل إلا اسما لله تعالى وحده، وأما بالإضافة فإنها تستعمل في الله تعالى وفي غيره بحسب الإضافة:

مِثالُ الأوَّلِ: ما جاء في قَولِه تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 1].

ومِثالُ الثَّاني: ما حكاه اللهُ تعالى عن يوسُفَ عليه السَّلامُ؛ حيث قال لأحَدِ صاحِبَيه في السِّجنِ: ﴿اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: 42][2].

أي: قال يوسُفُ للذي ظَنَّ أنَّه سينجو من القَتلِ، ويخرُجُ مِن السِّجنِ: اذكُرني عند سيِّدِك الملِكِ، وأخبِرْه بأنِّي مَسجونٌ بلا ذَنبٍ[3].

وأخيرا: فمصدر رب يرب الربوبية والربابة، إلا أن الربابة لا تقال في الله تعالى، وإنما في غيره، قال الراغب: والربوبية مصدر يقال في الله عز وجل، والربابة تقال في غيره[4].



---

[1] يُنظر: ((غريب القرآن)) (ص: 9).

[2] يُنظر: ((المفردات)) للراغب (ص: 336)، ((منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى)) لخالد عبد اللطيف 217/1 .

[3] يُنظر: ((التفسير المحرر – سورة يوسف)) (ص: 146). وينظر موقع الدرر السنية: معنى الرب، وينظر: الموسوعة العقدية تأليف جماعة من المؤلفين .

[4] منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف 1/ 217.

ثانيا: الرب اسم من أسماء الله الحسنى:

اسم الله تعالى (الرب) هو من الأسماء الحسنى والأدلة على ذلك كثير، منها من الكتاب ومنها من السنة ومنها من اللغة:

الأول من الكتاب:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان: 30].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[الزخرف: 88].

ففي هاتان الآيتين دلالة واضحة على أنَّ الرب هو اسم من أسماء الله تعالى الحسنى.

الثاني من السنة:

قول النبي ﷺ: {أَلَا وإنِّي نُهِيتُ أنْ أقْرَأَ القُرْآنَ رَاكِعًا، أوْ سَاجِدًا، فأمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فيه الرَّبَّ عزَّ وجلَّ...}[1].

وأما من حيث اللغة:

فمن المعلوم أنَّ ياء النداء من علامات الاسم، فالاسم يعرف بالجر، والتنوين، والندا، وأل، والاسناد إليه.

قال ابن مالك:

بالجر، والتنوين، والندا، وأل * ومسند للاسم تمييز حصل[2]

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان: 30].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾[الزخرف: 88].

ولاحظ أنَّ في الآيتين استعمل ياء النداء للدلالة على أنه اسم من أسمائه سبحانه، كذلك لو أجريت عليه كل علامات الاسم لانطبقت عليه، تقول: بربِّك، وربٌّ كريم، ويا رب، والرب.



[1] مسلم 479.

[2] ينظر: أليفة ابن مالك وشروحها.

ثالثا: تعريف توحيد الربوبية اصطلاحاً:

هو الإقرار الجازم بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وخالقه، ومدبره، والمتصرف فيه، لم يكن له شريك في الملك، ولا في الخلق، ولا في التدبير، ولم يكن له ولي من الذل، ولا راد لأمره، ولا معقب لحكمه، ولا مضاد له (ولا مماثل له)، (ولا سمي له)، ولا منازع في شيء من معاني ربوبيته ومقتضيات أسمائه وصفاته[1].

ومنهم من عرفه بأنه: الاعتقاد بأن الله تعالى هو الخالق الرازق المدبر لكل شيء وحده لا شريك له[2].

وأشمل التعريفات، الربُّ هو: الخالق، والمالك، والمدبر لشؤون خلقه.

وهو يشتمل على ما يلي:

- الإيمان بوجود الله تعالى.

- الإقرار بأن الله تعالى خالق كل شيء، ومالكه، ورازقه، وأنه المحيي، المميت، النافع، الضار، المتفرد بإجابة الدعاء، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، المقدر لجميع الأمور، المتصرف فيها، المدبر لها، ليس له في ذلك كله ولا في شيء شريك[3].

وعلى كل فالربوبية هي عمل الربِّ، على خلاف الألوهية فهي عمل العبد.

وقد تكاثرت الأدلة في القرآن والسنة في إثبات الربوبية لله تعالى، فكل نص ورد فيه اسم (الرب) أو ذكر فيه خصيصة من خصائص الربوبية، كالخلق، والرزق، والملك، والتقدير، والتدبير، وغيرها فهو من أدلة الربوبية، كقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[الفاتحة: 2]،

---

[1] أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة لحافظ بن أحمد الحكمي– ص: 30 بتصرف.

ومعنى: {وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ}[الإسراء: 111]، أي: لا يستحق أحدا من خلقه يتولَّاه كي يعزز به ملكه، فالمحتاج إلى غيره ذليل له، سبحانه وتعالى عن ذلك علوا كبيرا.

[2] ينظر: ((مجموعة التوحيد)) 1/ 5.

[3] شرح الطحاوية 25، مدارج السالكين 1/ 33 – 36، 3/ 468، تيسير العزيز الحميد 17، القول السديد 18، معارج القبول 99/1.

وكقوله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: 54]، **وكقوله جل وعلا:** ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [المؤمنون: 88][1].

فالرب هو المالك لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [المائدة: 17]، **وقال:** ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: 83].

والرب هو الخالق لكل شيء، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62].

والرب هو المدبر لشؤون خلقه كلهم، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [الرعد: 2].

وقال: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [السجدة: 5].

وما ذكرناه هو أصول أفعال الربوبية، فيدخل فيها، الإحياء والإماتة كما قال تعالى: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الدخان: 8].

ويدخل فيها هو النفع والضر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح: 11].

ويدخل فيها العطاء والمنع، كما قال تعالى: ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِن بَعْدِهِ﴾ [فاطر: 2].

وقال النبي ﷺ: ... اللَّهُمَّ لا مَانِعَ لِما أعْطَيْتَ، ولَا مُعْطِيَ لِما مَنَعْتَ...[2]

---

[1] **مدارج السالكين 3/ 468 – 469، شرح الطحاوية 42 – 43، المدخل لدراسة العقيدة 112.**

[2] **البخاري 7292، ومسلم 593. =**

﴿الفرع الأول﴾

﴿الإقرار بالربوبية لا يكفي للبراءة من الشرك﴾

إن توحيد الربوبية هو أحد أنواع التوحيد الثلاثة؛ ولذا فإنه لا يصح إيمان أحد ولا يتحقق توحيده إلا إذا وحد الله تعالى في ربوبيته، لكن هذا النوع من التوحيد ليس هو الغاية من بعثة الرسل عليهم السلام، ولا ينجِّي وحده من عذاب الله تعالى ما لم يأت العبد بلازمه توحيد الألوهية.

ولذا يقول الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[يوسف: 106]، **والمعنى أي: ما يقرُّ أكثرهم بالله رباً وخالقاً ورازقاً ومدبراً، إلا وهم مشركون معه في عبادته غيره من سواء الأشخاص، أو الأوثان والأصنام، أو القبور، التي لا تضر ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع.**

وبما قلت قال ابن كثير وسائر أهل التفسير، قال ابن كثير:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: من إيمانهم إذا قيل لهم من خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به.

وكذا قال مجاهد، وعطاء وعكرمة، والشعبي، وقتادة، والضحاك، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم[1].

وقال السعدي: فهم وإن أقروا بربوبية الله تعالى، وأنه الخالق الرازق المدبر لجميع الأمور، فإنهم يشركون في ألوهية الله وتوحيده[2].

وقال البغوي: فكان من إيمانهم إذا سئلوا: من خلق السماوات والأرض؟ قالوا: الله، وإذا قيل لهم: من ينزل القطر؟ قالوا: الله، ثم مع ذلك يعبدون الأصنام ويشركون[3].

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم بن زيد: ليس أحد يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربُّه، وأنَّ الله خالقُه ورازقُه، وهو يشرك به، ألا ترى كيف قال إبراهيم: ﴿قَالَ

= للمزيد ينظر: منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف 227/1.

[1] ينظر تفسير ابن كثير.

[2] ينظر: تفسير السعدي.

[3] ينظر: تفسير البغوي.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴾[الشعراء: 75 – 77][1].

فالجماعة هنا بتوحيد الربوبية وهو مسلم فيه ولكن مع ذلك يدعون ويرجون غيره.

والنصوص عن السلف في هذا المعنى كثيرة، بل لقد كان المشركون زمن النبي ﷺ مقرين بالله رباً خالقاً ومالكا ومدبراً، وكان شركهم به من جهة العبادة حيث اتخذوا الأنداد والشركاء، يدعونهم، ويستغيثون بهم، وينزلون بهم حاجاتهم وطلباتهم.

وقد دل القرآن الكريم في مواطن عديدة منه على إقرار المشركين بربوبية الله تعالى مع إشراكهم به في العبادة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[العنكبوت: 61]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾[العنكبوت: 63]، **وقوله تعالى:** ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[الزخرف: 87]، **وغير ذلك كثير...**

فخرجنا بهذا أنَّ معظم المشركين يقرون بتوحيد الربوبية، ولكنَّ شركتهم كان من جهة الألوهية تعصبا منهم لا غير، فلا دليل عندهم، قال تعالى في حقهم: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾[الأعراف: 70]، **فالقضية عندهم تعصبية من جهة الآباء.**

فخرجنا بهذا أنهم مقرون بتوحيد الربوبية، وإشراكهم كان من جهة الألوهية.

والمفاجئة أنَّ منهم من يوحد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته في حال الضرَّاء، وأما في حال السراء يشرك بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴾[الإسراء: 67]، **قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه**

---

[1] تفسير ابن جرير 16/ 289.

للمزيد: ينظر الموسوعة العقدية تأليف جماعة من المؤلفين 1/169 – 1/1717.

إذا مس الناس ضر دعوه منيبين إليه مخلصين له الدين ولهذا قال: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله[1].

وقال السعدي: ومن رحمته الدالة على أنه وحده المعبود دون ما سواه أنهم إذا مسهم الضر في البحر فخافوا من الهلاك لتراكم الأمواج ضل عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في حال الرخاء من الأحياء والأموات، فكأنهم لم يكونوا يدعونهم في وقت من الأوقات لعلمهم أنهم ضعفاء عاجزون عن كشف الضر وصرخوا بدعوة فاطر الأرض والسماوات الذي تستغيث به في شدائدها جميع المخلوقات وأخلصوا له الدعاء والتضرع في هذه الحال.

فلما كشف الله عنهم الضر ونجاهم إلى البر ونسوا ما كانوا يدعون إليه من قبل وأشركوا به من لا ينفع ولا يضر ولا يعطي ولا يمنع وأعرضوا عن الإخلاص لربهم ومليكهم[2].

وخرجنا بهذا أنه يوجد فئة من المشركين، يخلصون لله تعالى وقت الضر، ويشركون وقت الرخاء.

وإذا نظرنا إلى أقوام منتسبون للإسلام في زمننا هذا، تراهم يشركون بالله تعالى وقت الرخاء ووقت الضر، فإذا تقدمت البنت في العمر وأراد أهلها تزويجها، ذهبوا إلى قبر من قبور المنتسبين للصالحين، فذبحوا عنده ودعوه من دون الله تعالى، فإذا شاء الله تعالى وأعماهم عن الحق وتقدَّم للبنت زوج وتزوَّجت، ذهبوا إلى صاحب القبر نفسه وذبحوا له شكرا له لا لله تعالى، ولله المشتكى.

وبهذا ترى أنَّ كفار قريش، أقرب للإسلام والإيمان من كثير ممن يدعون الإسلام في وقتنا هذا، فعلى الأقل إنَّ مشركي عهد النبي ﷺ كانوا يقرون بتوحيد الربوبية بل يوحدونه سبحانه في ربوبيته، بل منهم من يخلص لله الدين وقت الضر، وأمَّا هؤلاء فهم في غيابات الشرك في الألوهية والربوبية بل حتى في أسماء الله تعالى وصفاته.



[1] ينظر: تفسير ابن كثير.

[2] ينظر: تفسير السعدي.

﴿الفرع الثاني﴾

﴿الفرق بين مجرد الإقرار بالربوبية وبين توحيد الربوبية﴾

اعلم وفَّقني اله وإياك لما يحب ويرضى؛ أنَّ مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله تعالى وحده خالق كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين؛ لأنهم أقروا بالربوبية ولم يحققوها، وتحقيقها يكون بتحقيق الألوهية، قال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف: 106] **قالت طائفة من السلف: تسألهم من خلق السموات والأرض؟ فيقولون: الله، وهم مع هذا يعبدون غيره، قال تعالى:** ﴿قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: 84 – 89].

فيتبين لنا من هذا؛ أنه ليس كل من أقر بأن الله تعالى ربّ كل شيء وخالقه ومليكه، يكون عابدا له دون ما سواه، وداعيا له دون ما سواه، وراجيا له خائفا منه دون ما سواه، يوالي فيه ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به وينهى عما نهى عنه، فعامة المشركين أقروا بأن الله خالق كل شيء وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به وجعلوا له أندادا قال تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلا يَعْقِلُونَ﴾[الزمر: 43]، **وقال تعالى:** ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[يونس: 18]، **ولهذا كان أتباع هؤلاء ممن يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها ثم يقول: إن هذا ليس بشرك إنما الشرك إذا اعتقدت أنها المدبرة لي؛ فإذا جعلتها سببا وواسطة لم أكن مشركا، ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك[1]. اهـ**

---

[1] فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لعبد الرحمن بن حسن آل الشيخ – ص**11**.

ونعيد ونقارن هؤلاء ببعض المسلمين من أهل زمننا، وجدنا المشركين الأسبقين أكثر عقلانية من هؤلاء الذين من بني جلدتنا وديننا، فيضع أحدهم الودعة في خيط على رقبته، ويعتقد اعتقادا جازما أنَّ الودعة تشفي من الحسد والعين، وأنها تمنع الضر، وأما المشركون الأسبقون يعلمون يقينا أنَّ ما يدعون من دون الله ما هم إلا شفعاء ومالهم من حول ولا قوَّة، قال تعالى:

﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾[الأنبياء: 65]، **فقلي بربك أيها أقرب إيمانا المشركون القدامة أم بعض المنتسبين للإسلام من الفرق الضالة، الذين يدعون غير الله تعالى في سراء وفي الضراء، ويعتقدون أنَّ القبر ينفع ويضر، وأن الودع والخُمسة تشفي بنفسها وغير ذلك...؟**



﴿الفرع الثالث﴾

﴿مقتضيات الإقرار لله تعالى بالربوبية﴾

اعلم وفقني الله تعالى وإياك لما يحب ويرضى؛ أنه إذا أقر العبد لله تعالى بالربوبية؛ فإن إقراره هذا يقتضي أموراً لابد منها؛ فإن لم يلتزم هذه المقتضيات لم ينفعه إقراره بالربوبية لله تعالى في شيء، وهذه المقتضيات هي:

الأول: ألا يعتقد العبد نفعاً ولا ضراً، ولا حركة ولا سكوناً، ولا بسطاً ولا خفضاً ولا رفعاً، ولا إعطاء ولا منعاً، ولا إحياءً ولا إماتةً، ولا تدبيراً ولا تصريفاً، إلا والله سبحانه وتعالى هو فاعله وخالقه، لا يشركه في ذلك ولا يملك واحد منه شيئاً[1].

ويدخل في هذا: الإيمان بالقضاء والقدر.

الثاني: إثبات رب مباين للعالم، يقول ابن القيم رحمه الله: إن الربوبية المحضه تقتضي مباينة الرب للعالم بالذات كما باينهم بالربوبية وبالصفات والأفعال، فمن لم يثبت رباً مبايناً للعالم فما أثبت رباً[2].

ويتبيَّن لك هذا عند قول الله تعالى: {الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}، والعالم هو كل ما سوى الله تعالى.

الثالث: أن يتوصل العبد بالإقرار بالربوبية إلى الإقرار بالألوهية فيجردها لله تعالى فلا يصرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله تبارك وتعالى[3].

الرابع: ألا يكون كل ما سبق مجرد اعتقاد أو إقرار، بل يجب أن يقترن معه القول باللسان، إذا وجب ذلك، والعمل بالجوارح، إذا وجب ذلك، أما القول باللسان فهو في الشهادتين معلوم، وأما العمل بالجوارح أن يعمل بمقتضى لا إله إلا الله بما أمر نهى سبحانه، ويعمل بمحمد رسول الله في الاتباع.



---

[1] مجلة الجامعة الإسلامية مفهوم الربوبية للشيخ سعد ندا ص: 124.

[2] مدارج السالكين 1/ 84.

[3] منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى لخالد عبد اللطيف– 1/ 232

ينظر: الموسوعة العقدية تأليف جماعة من المؤلفين 177/1.

﴿الفرع الرابع﴾

﴿أنواع ربوبية الله تعالى على خلقه﴾

ربوبية الله على خلقه على نوعين:

1 – الربوبية العامة: وهي لجميع الناس؛ بَرِّهم وفاجرِهم مؤمنِهم وكافرِهم؛ وهي خلقه للمخلوقين، ورزقُهم، وهدايتهم، لما فيه مصالحهم التي فيها بقاؤهم في الدنيا.

2 – الربوبية الخاصة: وهي تربيته لأوليائه المؤمنين، فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه، ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب؛ فإن مطالبهم كلَّها داخلةٌ تحت ربوبيته الخاصة.



﴿الفرع الخامس﴾

﴿آثار توحيد الربوبية وثمراته﴾

للإيمان بالربوبية آثار عظيمة، وثمرات كثيرة، فإذا أيقن المؤمن أن له ربّاً خالقاً هو الله تبارك وتعالى، وأن هذا الرب هو رب كلِّ شيءٍ ومليكُه وهو مصرف الأمور، وأنه هو القاهر فوق عباده، وأنه لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، أَنِسَت رُوحُه بالله، واطمأنت نفسه بذكره، ولم تزلزله الأعاصير والفتن، وتوجه إلى ربه بالدعاء، والالتجاء، والاستعاذة، وكان دائماً خائفاً من تقصيره، وذنبه؛ لأنه يعلم قدرة ربه عليه، ووقوعه تحت قهره وسلطانه، فتحصل له بذلك التقوى، والتقوى رأس الأمر، بل هي غاية الوجود الإنساني، ولهذا قال النبي ﷺ: {ذاق طعم الإيمان من رضي الله ربّاً وبالإسلام ديناً، وبمحمدٍ رسولاً}[1].

ومن ثمراته أن الإنسان إذا علم أن الله هو الرزاق، وآمن بذلك، وأيقن أن الله بيده خزائن السموات والأرض، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع ـ قطع الطمع من المخلوقين، واستغنى عما بأيديهم، وانبعث إلى إفراد الله بالدعاء والإرادة والقصد.

ثم إذا علم أن الله هو المحيي المميت، النافع الضار، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن أمره كلَّه بيد الله، انبعث إلى الإقدام والشجاعة غير هياب، وتحرر من رق المخلوقين، ولم يعد في قلبه خوف من سوى الله تعالى.

وهكذا نجد أن توحيد الربوبية مستلزم لتوحيد الألوهية.

والكلام في مقتضيات الربوبية وما تثمره من ثمرات يفوق الحصر والعد، وما مضى إنما هو إشارات عابرة يقاس عليها غيرُها.



[1] أخرجه مسلم (34)، واللفظ له، والترمذي (2623)، بلفظ: وبمُحمدٍ نبيا.

﴿الفرع السادس﴾

﴿ضد توحيد الربوبية﴾

يضاد توحيد الربوبية الإلحاد، وإنكار وجود الرب تعالى.

ويضاده أيضاً، اعتقاد متصرف مع الله تعالى في أي شيء؛ من تدبير الكون، من إيجاد، أو إعدام، أو إحياء، أو إماتة، أو جلب خير، أو دفع شر، أو غير ذلك من معاني الربوبية، أو اعتقاد منازع له في شيء من مقتضيات أسمائه وصفاته، كعلم الغيب، أو كالعظمة، والكبرياء، ونحو ذلك.

وكما يضاده أيضا اعتقاد مشرع مع الله تعالى؛ لأنه هو الرب وحده، وربوبيته شاملة لأمره الكوني والشرعي[1].



[1] **ينظر رسالة منهج العقيدة توحيد الربوبية للشيخ محمد بن إبراهيم الحمد.**

﴿الفرع السابع﴾

﴿الفرق التي أشركت بالربوبية﴾

هناك أقوامٌ أشركوا بالربوبية، وفِرَقٌ أشركت به، ومن هؤلاء:

المجوس: "الأصلية" قالوا بالأصلين: النور والظلمة، وقالوا: إن النور أزليٌّ، والظلمة محدثة.

الثنوية: أصحاب الاثنين الأزليّين: يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان، بخلاف المجوس الذين قالوا بحدوث الظلام، لكن قالوا باختلافهما في الجوهر، والطبع، والفعل، والخبر، والمكان، والأجناس، والأبدان، والأرواح، ولم يقولوا بتماثلهما في الصفات والأفعال، كما ترى، وإن قالوا بتساويهما في القدم.

المانوية: أصحاب ماني بن فاتك: قالوا: إن العَالَمَ مصنوع من أصلين قديمين، ولكن قالوا باختلافهما في النفس، والصورة، والفعل، والتدبير.

النصارى: القائلون بالتثليث: فالنصارى لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضها عن بعض، بل هم متفقون على أنه صانع واحد يقولون: باسم الأب والابن وروح القدس إله واحد، ويقولون: واحد بالذات ثلاثة بالأقنوم.

أما الأقانيم فإنهم عجزوا عن تفسيرها.

والأقانيم عندهم: هي إحدى طبائع الله تعالى في الثالوث، والكلمة مشتقة من اللغة السريانية حيث لا يوجد نظير لها في العربية وقد تحمل عدة معاني منها «شخص» و«طبيعة» و«ذات» و«كيان» و«ماهية»، فالمسيح مثلا هو أقنوم وهو إنسان وإله في الوقت نفسه، وهو ابن لمريم العذراء وابن لله في الوقت نفسه[1].

يقول: القديس كيرلس الكبير" (377–444 م): نحن نؤمن بإله واحد ضابط الكل، الذي لا ابتداء ولا انتهاء له، آب واحد، وابن واحد، والروح القدس منبثق من الآب وحده، وهؤلاء هم جوهر واحد، ورب واحد، وسلطان واحد وإرادة واحدة[2].

---

[1] المهد العربي: المسيحية المشرقية على مدى ألفي عام والعلاقة المتبادلة مع الإسلام، لسميح غنادري.

[2] أورده سامح حلمي في كتابه: إيماننا المسيحي صادق وأمين 54.

ويقول البابا أثناسيوس الرسولي: ليست الأقانيم ثلاثة آلهة بل هم إله واحد مثلث بقوام عقله (الآب) وكلمته (الابن) وروحه الذين هم الآب والابن والروح القدس، ولا يستقيم أن يُقال أن جوهر الله أصم أخرس عديم عقل ولا كلمة ولا روح، فالعقل والكلمة والروح في ذات الله ثلاث خواص ذات طبيعة واحدة وجوهر واحد ليس فيه شيء غريب، فطبيعة العقل الإلهي هيَ طبيعة الكلمة هيَ طبيعة الروح القدس، العقل الإلهي وكلمته وروحه ثالوث بلا فرقة وواحد بلا تخليط، الثالوث جوهر واحد، قدرة واحدة، خالق واحد، وأمر واحد، وإرادة واحدة، وقوة واحدة بلا فرقة بينهم في شيء، ليس يريد الكلمة ولا الروح إلاَّ ما يريد العقل (الآب) فكل ما في العقل (الآب) من القوة فهو في الكلمة وفي الروح أيضًا، العقل الإلهي خالق والكلمة خالق والروح خالق، ومع ذلك فهم خالق واحد وليسوا بثلاثة، لأن العقل الخالق لا يخلق دون كلمته الخالقة وروحه الخالق، وهكذا الحال بالنسبة لكل من الكلمة والروح القدس فإن أيًا منهما لا يخلق من دون الأقنومين الآخرين[1].

وقولهم هذا متناقض أيما تناقض وتصوره كافٍ في رده، قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: ولهذا قال طائفة من العقلاء: إن عامة مقالات الناس يمكن تصورُها إلا مقالة النصارى، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوروا ما قالوا، بل تكلموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النقيضين ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشرة نصارى لتفرقوا عن أحدَ عشرَ قولاً.

وقال آخر: لو سألت بعض النصارى وامرأته وابنه عن توحيدهم لقال الرجل قولاً، وامرأته قولاً آخر، وابنه قولاً ثالثاً[2].

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى في معرض رده عليهم: أما خبر ما عندكم أنتم فلا نعلم أمةً أشدَّ اختلافاً في معبودها منكم؛ فلو سألت الرجل، وامرأته، وابنته، وأمه، وأباه، عن دينهم لأجابك كلٌّ منهم بغير جواب الآخر[3].

---

[1] مفيد كامل في كتابه الثالوث الذي نؤمن به ص 49 – 50.

[2] الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية 155/2.

[3] هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى لابن القيم، 321..

بل قيل فيهم: لو توجهت إلى أي نصراني على وجه الأرض، وطلبت منه أن يصور لك حقيقة دينه، وما يعتقده في طبيعة المسيح تصويراً دقيقاً، لما استطاع ذلك[1].

القدرية: هم في الحقيقة مشركون في الربوبية، وهذا لازم لمذهبهم؛ لأنهم يرون أن الإنسان خالقٌ لفعله، فهم أثبتوا لكل أحد من الناس خَلْقَ فعله، والخلق إنما هو مما اختص الله به، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96].

وأفعال العباد لا يخرجها شيء من عموم خلقه تعالى[2].

الفلاسفة الدهرية: في قولهم في حركة الأفلاك بأنها تسعة، وأن التاسع منها وهو الأطلس، وهو أحد أقمار زحل، وقيل: هو نجم ثنائي وثالث ألمع نجم في عنقود الثريا النجمي والذي يقع في كوكبة الثور، فهو يحرك الأفلاك كلها، فجعلوه مبدأ الحوادث، وزعموا أن الله تعالى يحدث ما يقدره في الأرض.

عبدة الأصنام من مشركي العرب وغيرهم: ممن كانوا يعتقدون أن الأصنام تضر وتنفع، فيتقربون إليها، وينذرون لها، ويتبركون بها.

غلاة الصوفية: لغلوهم في الأولياء، وزعمِهم أنهم يضرون، وينفعون، ويتصرفون في الأكوان، ويعلمون الغيب، ولقولهم بوحدة الوجود، وربوبيةِ كلِّ شيءٍ[3].

الروافض: لقولهم بأن الدنيا والآخرة للإمام، يتصرف بها كيف يشاء، وأن تراب الحسين شفاءٌ من كل داء، وأمانٌ من كل خوف، ولقولهم: إن أئمتهم يعلمون الغيب، ويعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا بإذنهم.

---

[1] ما يجب أن يعرفه المسلم عن حقائق النصرانية والتبشير لإبراهيم الجبهان، ص13.

ينظر: رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) ما عندهم من التناقض، ومحمد أبو زهرة في كتابه (محاضرات في النصرانية).

كلها من كتاب رسائل الشيخ الحمد في العقيد 9/3.

[2] انظر مجموع الفتاوى 258/8 والإيمان بالقضاء والقدر للكاتب ص173 – 174.

[3] انظر هذه هي الصوفية لعبد الرحمن الوكيل، ص35 – 38، و133.

وهذا باطل، وبطلانه لا يحتاج إلى دليل، بل إن فساده يغني عن إفساده[1].

النصيرية: لقولهم بألوهية علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وبأنه المتصرف بالكون، لوصفهم إياه بأوصاف لا يجوز أن يوصف بها أحد إلا الله عز وجل مع اختلاف أقوالهم في هذا؛

فبعضهم يقول: إنه يسكن في الشمس ويُسَمَّون بـ: الشمسية.

وبعضهم يقولون: إنه يسكن في القمر، ويُسَمَّون بـ: القمرية.

وبعضهم يقولون: إنه يسكن في السحاب، ولذا إذا رأوا السحاب قالوا: السلام عليك يا أمير النحل.

الدروز: لقولهم بألوهية الحاكم بأمر الله العبيد، وغلوهم فيه، ووصفِه بأوصافٍ لا تليق إلا بالله وحده، كقولهم عنه: إنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور[2].

من يعتقدون تأثير النجوم والكواكب والأسماء: وذلك كحال الذين يتتبعون الأبراج ويقولون رجماً بالغيب إذا ولد فلان في البرج الفلاني أو الشهر الفلاني أو اليوم الفلاني، أو كان اسمه يبدأ بحرف كذا أو كذا فسيصيبه كذا وكذا، ويضعون عليها دعاياتٍ تقول: مِنْ شهر ميلادك تعرف حظك، أو من اسمك تعرف حظك.

كل ذلك شرك في الربوبية؛ لأنه ادعاءٌ لعلم الغيبِ، والغيبُ لا يعلمه إلا الله وحده لا شريك له.

القانونيون: الذين يَصدون ويصدفون عن شرع الله، والذين يحكمون الناس بالقوانين الوضعية، التي هي من نحاتة أفكارهم، وزبالة أذهانهم، فهؤلاء محاربون لله تعالى، منازعون له في ربوبيته وحكمه وشرعه[3].

---

[1] انظر الخطوط العريضة لمحب الدين الخطيب، تحقيق: محمد مال الله، ص69 وانظر مسألة التقريب بين أهل السنة والشيعة، د. ناصر القفازي، ج1/290، والشيعة والسنة لإحسان إلهي ظهير، ص66، وينظر في كل ذلك كتاب رسائل الشيخ الحمد في العقيدة، لمحمد بن إبراهيم الحمد.

[2] انظر عقيدة الدروز، عرض ونقض د. محمد بن أحمد الخطيب، ص117 وانظر الحركات الباطنية، ص233 – 237.

[3] انظر ريالة تحكيم القوانين لسماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، وينظر: في كل ذلك كتاب رسائل الشيخ الحمد في العقيدة لمحمد بن إبراهيم الحمد 11/3.

الخلاصة:

فتوحيد الربوبية معناه الاعتقاد الجازم بأن الله تعالى وحده رب كل شيء ومليكه، لا شريك له، وهو الخالق وحده وهو مدبر العالم والمتصرف فيه، وأنه خالق العباد ورازقهم ومحييهم ومميتهم، والإيمان بقضاء الله وقدره، وبوحدانيته في ذاته، وخلاصته هو: توحيد الله تعالى بأفعاله.

وقد قامت الأدلة الشرعية على وجوب الإيمان بربوبيته سبحانه وتعالى، كما في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 1].

وقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: 54].

وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة: 29].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: 58].

وهذا النوع من التوحيد لم يخالف فيه كفار قريش، وأكثر أصحاب الملل والديانات؛ فكلهم يعتقدون أن خالق العالم هو الله تعالى وحده، قال الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25].

وقال: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [المؤمنون: 84 – 90].

وذلك لأن قلوب العباد مفطورة على الإقرار بربوبيته سبحانه وتعالى، ولذا فلا يصبح معتقده موحداً؛ حتى يلتزم بالنوع الثاني من أنواع التوحيد، وهو توحيد الألوهية[1].

---

[1] الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري – ص55.

﴿المسألة الثالثة﴾

﴿توحيد الأسماء والصفات﴾

توحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى الواردة في القرآن والسنة، والإيمان بمعانيها وأحكامها[1].

والمعنى هو: إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه، أو أثبته له رسوله ﷺ من أسماء حسنى، ومن صفات عُلى من ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[طه: 8]، **وقوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[الأعراف: 80]، **وهي على أقسام تأتي في بابها، بلا تكييف، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا زيادة، ولا نقصان، ولا تعطيل، بل نثبتها كما هي، وما فُهم معناه فهو كذلك، وما لم نفهمه فنرده إلى الله تعالى، هذا لأن أسماء الله تعالى وصفاته العلى كلها توقيفية، ولا يجوز استعمال العقل فيها، كاستباط اسم له لم يرد به دليل صريح، أو اشتقاقه من صفة من صفاته سبحانه، كصفة الاستواء، فلا يجوز تسمية الله تعالى بالمستوي، وذلك لقوله تعالى:** ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: 80]، **قال الطبري: وكان إلحادهم في أسماء الله، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها (اللات) اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو (الله)، وسموا بعضها (العُزَّى) اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو (العزيز)[2].**

والإلحاد هو الميل عن الحق، فالذين يلحدون في اسماء الله، إما يزيدون أو ينقصون أو يستنبطون اسما جديدا لله تعالى وكل هذا ممنوع.

---

[1] معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات لمحمد بن خليفة التميمي– ص: **29**.

[2] ينظر: تفسير الطبري.

﴿ الفرع الأول ﴾

﴿ معنى الاسم والصفة، والفرق بينهما ﴾

أولا: الاسم: هو ما دل على معنى في نفسه[1]، وأسماء الأشياء هي الألفاظ الدالة عليها[2].

وقيل: الاسم: ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل[3].

وقيل: الاسم: ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمن.

والفعل: ما دل على معنى في نفسه مع اقترانه بزمن.

والحرف: لا يدل على معنى بنفسه حتى ينضم إلى غيره.

والاسم والفعل والحرف، هي أقسام الكلام.

ثانيا: الصفة: هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات، وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذي يُعرف بها[4]، وهي ما وقع الوصف مشتقاً منها، وهو دالٌ عليها، وذلك مثل العلم والقدرة ونحوه[5].

وقال ابن فارس: الصفة: الأمارة اللازمة للشيء[6]، وقال: النعت: وصفك الشيء بما فيه من حسن[7].

---

[1] التعريفات للجرجاني (ص24).

[2] مجموع الفتاوى 6/ 195.

[3] الكليات لأبي البقاء الكفوي ص 83.

[4] التعريفات 133.

[5] الكليات ص546 ويعني بالوصف هنا الاسم؛ فالعلم صفة، والعالم وصف دال عليها، والقدرة صفة، والقادر وصف دال عليها.

[6] معجم مقاييس اللغة 5/ 448.

[7] معجم مقاييس اللغة 6/ 115.

﴿الفرع الثاني﴾

﴿الفرق بين الاسم والصفة﴾

الفرق بين الاسم والصفة:

جاء في فتاوى اللجنة الدائمة سؤال عن الفرق بين الاسم والصفة؟

فأجابت:

أسماء الله: كل ما دل على ذات الله تعالى مع صفات الكمال القائمة به؛ مثل: القادر، العليم، الحكيم، السميع، البصير؛ فإن هذه الأسماء دلَّت على ذات الله تعالى، وعلى ما قام بها من العلم والحكمة والسمع والبصر.

أما الصفات: فهي نعوت الكمال القائمة بالذات؛ كالعلم، والحكمة، والسمع، والبصر؛ فالاسم دل على أمرين، والصفة دلت على أمر واحد، ويقال: الاسم متضمن للصفة، والصفة مستلزمة للاسم[1].

وقال الشيخ علوي بن عبد القادر السقاف: ولمعرفة ما يُميِّز الاسم عن الصفة، والصفة عن الاسم أمور، منها:

أولاً: أن الأسماء يشتق منها صفات، أما الصفات؛ فلا يشتق منها أسماء، فنشتق من أسماء الله الرحيم والقادر والعظيم، صفات الرحمة، والقدرة، والعظمة، لكن لا نشتق من صفات الإرادة، والمجيء، والمكر، اسم المريد، والجائي، والماكر.

فأسماؤه سبحانه وتعالى أوصاف؛ كما قال ابن القيم في النونية:

أسماؤُهُ أوْصافُ مَدْحٍ كُلُّها * مُشْتَقَّةٌ قَدْ حُمِّلَتْ لِمَعانِ

ثانياً: أن الاسم: لا يُشتق من أفعال الله تعالى؛ فلا نشتق من كونه يحب ويكره ويغضب اسم المحب، والكاره، والغاضب.

أما صفاته: فتشتق من أفعاله، فنثبت له صفة المحبة والكره والغضب ونحوها... من تلك الأفعال، لذلك قيل: باب الصفات أوسع من باب الأسماء[2].

---

[1] فتاوى اللجنة الدائمة (16/3).

[2] مدارج السالكين 415/3.

ثالثاً: أن أسماء الله عَزَّ وجَلَّ وصفاته تشترك في الاستعاذة بها والحلف بها، لكن تختلف في التعبد والدعاء، فيتعبد الله بأسمائه، فنقول: عبد الكريم، وعبد الرحمن، وعبد العزيز، لكن لا يُتعبد بصفاته؛ فلا نقول: عبد الكرم، وعبد الرحمة، وعبد العزة؛ كما أنه يُدعى اللهُ بأسمائه، فنقول: يا رحيم ارحمنا، ويا كريم أكرمنا، ويا لطيف الطف بنا، لكن لا ندعو صفاته فنقول: يا رحمة الله ارحمينا، أو: يا كرم الله، أو يا لطف الله، ذلك أن الصفة ليست هي الموصوف؛ فالرحمة ليست هي الله تعالى، بل هي صفةٌ لله، وكذلك العزة، وغيرها؛ فهذه صفات لله تعالى، وليست هي الله تعالى، ولا يجوز التعبد إلا لله، ولا يجوز دعاء إلا الله؛ لقوله تعالى :

﴿يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[النور: 55]، **وقوله تعالى:** ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: 60]، **وغيرها من الآيات**[1]. **اهـ**

والسقاف يريد بقوله: أنَّ الصفات لا يدعى بها، يريد دعاء الصفة، لا الدعاء بالصفة، فالدعاء بالصفة يجوز دعاء الله تعالى وسؤاله بها، وقد عجَّت السنة بمثل هذا، فقد أخرج أبو داود، والترمذي، وابن ماجه، عن أنس، أنه كان مع رسول الله ﷺ جالساً، ورجل يصلي، ثم دعا: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام ياحيُّ يا قيوم، فقال النبي ﷺ: {لقد دعا الله باسمه العظيم، الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى}[2]**. فالبديع صفة لله تعالى، وذو الجلال صفة.**

كذا قوله: ... أعوذُ بكلماتِ الله التاماتِ من شرِّ ما خلقَ ...[3]**.**

وغيرها من الأدعية والاستعاذات...



[1] صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة ص 17.

[2] أبو داود 1495، الترمذي 3475، ابن ماجه 3857، وصححه الألباني

[3] أخرجه الترمذي (3604)، وأحمد (7898) باختلاف يسير، وأخرجه مسلم (2709) مختصراً بلفظ مقارب.

﴿الفرع الثالث﴾

﴿الفرق بين باب الأسماء والصفات وباب الإخبار﴾

الفرق بين الأسماء والصفات و بين الإخبار من وجهين:

الأول: أن الأسماء والصفات توقيفية، فلا يوصف الله تعالى إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ.

وفي الإخبار يجوز أن يُخبرَ عن الله تعالى بما لم يرد في الكتب والسنة مما يصح معناه، كقولهم: أزليٌّ الإحسان، واسع الجود، كثير الكرم، سرمديٌّ[1]...

والثاني: أن أسماءه سبحانه كلها حسنى، وصفاته كلها علا، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: 180]، **وقال سبحانه:** ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[النحل: 60].

والحسنى: تأنيث الأحسن، أي أسماؤه بالغة في الحسن غايته.

والمثل الأعلى: الوصف الأعلى، قال الخليل: المثل الصفة: أي وله الوصف الأعلى في السموات والأرض[2].

أما الأخبار: فيجوز أن يُخبر عن الله تعالى بما لا نقص فيه، وإن لم يتضمن أعلى الكمال، كالإخبار عن الله تعالى بأنه؛ وموجود، وشيء، كقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[النور: 39]، **وقال تعالى:** ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾[الأنعام: 19]، **ولكن لا يسمى بها، حتى وإن كان بها موصوفا.**

قال ابن القيم رحمه الله: ويجب أن تعلم هنا أموراً:

---

[1] السرمدي: لا بَدْءَ له ولا نِهاية، لا يَحُدّه زَمان.

[2] ينظر: تفسير القرطبي.

أحدها: أن ما يدخل في باب الإخبار عنه تعالى أوسع مما يدخل في باب أسمائه وصفاته، كالشيء والموجود والقائم بنفسه؛ فإنه يخبر به عنه ولا يدخل في أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

الثاني: أن الصفة إذا كانت منقسمة إلى كمال ونقص لم تدخل بمطلقها في أسمائه، بل يطلق عليه منها كمالها، وهذا كالمريد والفاعل والصانع، فإن هذه الألفاظ لا تدخل في أسمائه، ولهذا غلط من سماه بالصانع عند الإطلاق، بل هو الفعال لما يريد؛ فإن الإرادة والفعل والصنع منقسمة، ولهذا إنما أطلق على نفسه من ذلك أكمله فعلا وخبرا.

الثالث: أنه لا يلزم من الإخبار عنه بالفعل مقيدا أن يشتق له منه اسم مطلق، كما غلط فيه بعض المتأخرين، فجعل من أسمائه الحسنى المضل الفاتن الماكر، تعالى الله عن قوله؛ فإن هذه الأسماء لم يطلق عليه سبحانه منها إلا أفعال مخصوصة معينة فلا يجوز أن يسمى بأسمائها...

حتَّى قال: **السابع**: أن ما يطلق عليه في باب الأسماء والصفات توقيفي، وما يطلق عليه من الأخبار لا يجب أن يكون توقيفيا، كالقديم والشيء والموجود والقائم بنفسه، فهذا فصل الخطاب في مسألة أسمائه هل هي توقيفية أو يجوز أن يطلق عليه منها بعض ما لم يرد به السمع.

الثامن: أن الاسم إذا أطلق عليه جاز أن يشتق منه المصدر والفعل، فيخبر به عنه فعلا ومصدرا، نحو: السميع، البصير، القدير، يطلق عليه منه السمع، والبصر، والقدرة، ويخبر عنه بالأفعال من ذلك نحو: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ} {فَقَدَّرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ} هذا إن كان الفعل متعديا، فإن كان لازما لم يخبر عنه به، نحو: الحي، بل يطلق عليه الاسم والمصدر دون الفعل ...[1].



---

[1] بدائع الفوائد لابن القيم 170/1.

﴿ الفرع الرابع ﴾

﴿ صفات الله تعالى وأقسامها ﴾

صفات الله عز وجل تنقسم إلى أقسام باعتبارات مختلفة:

القسم الأول: باعتبار الثبوت وعدمه، وهي نوعان:

أ – صفات ثبوتيه: وهي التي أثبتها الله تعالى لنفسه، أو أثبتها له رسوله ﷺ، كالحياة، والعلم، والوجه، والنزول، والاستواء، وغيرها من الصفات...، وكلها صفات مدح وكمال، وهي أغلب الصفات المنصوص عليها في الكتاب والسنة، وهذا النوع يجب إثباتها له سبحانه.

ب – صفات سلبية: وهي التي نفاها الله تعالى عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، كالموت، والنوم، والظلم، وكلها صفات نقص، والواجب في هذا النوع نفي النقص مع إثبات كمال الضد، فقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: 49]**، فيجب الإيمان بانتفاء الظلم عن الله تعالى، وثبوت ضده وهو العدل الذي لا ظلم فيه.**

القسم الثاني: باعتبار أدلة ثبوتها، وهي نوعان:

أ – صفات خبرية: وهي الصفات التي لا سبيل إلى إثباتها إلا السمع والخبر عن الله أو عن رسوله ﷺ، وتسمى صفات سمعية أو نقلية، وقد تكون ذاتية، كالوجه، واليدين، وقد تكون فعلية، كالفرح، والضحك.

ب – صفات سمعية عقلية: وهي الصفات التي يشترك في إثباتها الدليل السمعي، أي: النقلي والدليل العقلي، فيستعمل العقل فيها في البحث عن أدلَّة ثبوتها من النقل، لا استقلال العقل بثبوتها، وهذه الصفات قد تكون ذاتية، كالحياة، والعلم، والقدرة، وقد تكون فعلية، كالخلق، والإعطاء.

القسم الثالث: باعتبار تعلقها بذات الله تعالى وأفعاله، وهي ثلاثة أنواع:

أ – صفات ذاتية: وهي التي لم يزل ولا يزال الله تعالى متصفاً بها، فهي لا تنفك عنه سبحانه وتعالى، كالعلم، والقدرة، والحياة، والسمع، والبصر، والوجه، واليدين ونحو ذلك، ويسمى هذا النوع بالصفات اللازمة؛ لأنها ملازمة للذات لا تنفك عنها.

ب – صفات فعلية: وهي التي تتعلق بمشيئة الله تعالى، إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، وتتجدد حسب المشيئة، كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والغضب، والفرح، والضحك، وتسمى بالصفات الاختيارية.

قال الشيخ عبد العزيز الراجحي: وضابطها (أي : الصفات الفعلية) أنها تقيد بالمشيئة، تقول: يرحم إذا شاء، ويغضب إذا شاء، ويكتب إذا شاء، بخلاف الصفات الذاتية، فلا تقول: يقدر إذا شاء، ويعلم إذا شاء، بل هو سبحانه عليم وقدير في جميع الأحوال[1].انتهى

ج – صفات ذاتية فعلية باعتبارين:

1 – باعتبار أصل الصفة ذاتي.

2 – وباعتبار آحاد الفعل فعلي.

فالكلام مثلاً صفة ذاتية باعتبار أصله؛ لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلماً.

أما باعتبار آحاد الكلام ، فهو صفة فعلية؛ لأن الكلام يتعلق بمشيئته سبحانه[2]، إن شاء تكلم وإن شاء لم يتكلم.

القسم الرابع: باعتبار الجلال والجمال، وهي نوعان:

أ – صفات الجمال: وهي الصفات التي تبعث في القلب محبة الخالق والرغبة فيما عنده سبحانه وتعالى، ومن ذلك صفة الرحمة، والمغفرة، والرأفة...

ب – صفات الجلال: وهي الصفات التي تبعث في القلب مخافة الله جل وعلا وتعظيمه، ومن ذلك صفة القوة، والقدرة، والقهر...

قال الشيخ صالح آل الشيخ: صفات العَظَمَة هذه يقال لها صفات جلال، وصفات ونعوت الرحمة والمحبة يقال له صفات جمال، هذا اصطلاح لبعض علماء السنة وهو اصطلاح صحيح.

---

[1] شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للراجحي.

[2] ينظر: مجموع فتاوى الشيخ ابن عثيمين 1 / 124، بتصرف.

ولهذا في الختمة التي تُنسبُ لشيخ الإسلام ابن تيمية، رجَّحَ طائفة من أهل العلم أن تكون لشيخ الإسلام لورود هذا التقسيم فيها، وهو قوله في أولها: صدق الله العظيم المُتَوحّدُ بالجلال لكمال الجمال تعظيما وتكبيرا.

ولا أعلم من أَشْهَرَ هذا التقسيم قبل شيخ الإسلام ابن تيمية، يعني: تقسيم الصفات إلى صفات جلال وجمال[1]. انتهى



[1] ينظر: موقع إسلام سؤال وجواب، فتوى رقم: 182737، بتاريخ 2012/9/7.

وللاستزادة أكثر في باب صفات الله ننصح بالقراءة في كتاب شرح الطحاوية للشيخ صالح آل الشيخ و(القواعد المثلى) للشيخ ابن عثيمين رحمه الله ، وكتاب (صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة) للشيخ علوي السقاف حفظه الله ، وكتاب "الأسماء والصفات" لفضيلة الشيخ عمر سليمان الأشقر ، حفظه الله.

فائدة:

مما يجب أن يعلم أنَّ الصفات العليا؛ هي صفات ملازمة لذات الله تعالى غير منفكة عنه، وليست هي الله تعالى نفسه.

قال ابن بطة رحمه الله تعالى: ولا يقال: إن عِزَّة الله هي الله، ولو جاز ذلك؛ لكانت رغبة الراغبين ومسألة السائلين أن يقولوا: يا عزة الله! عافينا، ويا عزة الله! أغنينا، ولا يقال: عزة الله غير الله، ولكن يقال: عزة الله صفة الله، لم يزل ولا يزال الله بصفاته واحدا.

وكذلك علم الله، وحكمة الله، وقدرة الله وجميع صفات الله تعالى، وكذلك كلام الله عز وجل. وحكم الله؛ فإن الله لم يزل بصفاته العليا وأسمائه الحسنى عزيزا، قديرا، عليما، حكيما، ملكا، متكلما، قويا، جبارا ....[1]

فإذا كانت صفات الله تعالى بهذا المقام؛ فإنّ ذكرها في الدعاء؛ يكون من وجهين:

الوجه الأول: دعاء الصفة:

أن يذكر الداعي هذه الصفة على أنها هي المتوجه إليها بالدعاء والنداء، أي: أن يجعلها ذاتا دون الله تعالى قائمة بنفسها، كأن يقول يا لطف الله! الطف بي، أو يا رحمة الله! ارحميني، ونحو هذا؛ وهذا يسمى: دعاء الصفة.

فهذا من الشرك؛ لأن الداعي في هذه الحالة قد جعل الصفة ذاتا قائمة بنفسها، تفعل بمشيئتها وإرادتها من دون الله تعالى.

فهو مثل قولك: محمد أنجدني، لغير الحاضر القادر، أو يا جبريل أغثني؛ لأنَّ محمد أو جبريل ﷺ أو غيره ذات قائمة بنفسها، فقولك يا لطف الله أو يا رحمة الله، كأنك ناديت على ذات قائمة بنفسها.

وهل هذه الذات المصطنعة، أقوى في الشرك من دعائك ذات قائمة على الحقيقة كالاستغاثة بالأنبياء والملائكة وغيرهم؟

---

[1] الإبانة الكبرى لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (304 هـ – 387 هـ)، – الرد على الجهمية (2 / 181 – 182).

فيه كلام: الأوَّل: المتفق عليه؛ أنَّ كل مستغيث بغير الله تعالى فهو مشرك، يبقى استغاثة المشرك بالملائكة أهون من الاستغاثة بأصحاب القبور؛ لأنَّ الملائكة أحياء مؤخرون إلى يوم البعث؛ لأنَّ لكل واحد منهم مهامه الخاصَّة في هذه الدنيا، فالمعلوم أنَّ الملائكة يموتون، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[القصص: 88]، جاء في تفسير القرطبي

وقال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية – يعني قوله تعالى (كلٌّ منْ عليهَا فانٍ) – قالت الملائكة: هلك أهل الأرض، فنزلت: (كلُّ شيءٍ هالكٌ إلَّا وجههُ)، فأيقنت الملائكة بالهلاك وقاله مقاتل[1].

وخرجنا بهذا أنَّ الملائكة يموتون؛ ولكن بعد موت كل الإنس والجن، فالمستغيث بهم على الأقل هو مستغيث بحيٍّ مع أنه مشرك شركا أكبر، وهو دون من يستغيث بالأموات، فالشرك الأكبر درجات، كما اليقين والإيمان درجات، تزيد وتنقص، والله أعلم.

ونفهم من هذا أنَّ الشرك الأكبر مع أنه شرك أكبر إلا إنه على درجات متفاوتة، حاله حال اليقين، والإيمان، فهو دراجات متفاوتة.

وعودا ببدئ؛ فالداع بدعاء الصفة، اصطنع ذاتا قائمة بنفسها ودعاها، وهو شرك.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:

وأما دعاء صفاته وكلماته فكفر باتفاق المسلمين[2].

الوجه الثاني: الدعاء بالصفة:

أن يذكر الداعي هذه الصفات العليا، على سبيل التوسل بها؛ فهذا أمر مشروع، وقد جاءت به النصوص الشرعية؛ وهذا يسمى "الدعاء بالصفة"؛ لأن المدعو والمنادى هو الله تعالى وحده، أما الصفة فذكرت من باب التوسل بها لا غير.

فالأوَّل: دعاء الصفَّة بذاتها.

والثاني: دعاء الله تعالى بصفاته.

---

[1] تفسير القرطبي (165/17).

[2] الاستغاثة لابن تيمية (1 / 157).

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى: مسألة الله بأسمائه وصفاته وكلماته جائز مشروع كما جاءت به الأحاديث[1].

كحديث عَائِشَةَ، قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ، فَالْتَمَسْتُهُ، فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ، وَهُوَ يَقُولُ: {اللهُمَّ! أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ}[2].

وعَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي الْعَاصِ الثَّقَفِيِّ، أَنَّهُ شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ فِي جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: {ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ}[3]. انتهى من الفائدة.

ونعود إلى الآية الكريمة: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[الأعراف: 180]، فشرطه سبحانه فيها أن أسماؤه كلها حسنى، يخرج منه ما يستنبطه بعض المنتسبين للعلم، كما سموه المنتقم، فهذا ليس اسما، لخلوّه من الحسنِ، ولعدم الدليل عليه.

- كذلك أنَّ أسماء الله تعالى ليست أسرارا مكنونة؛ إلا ما أخفاه الله عنَّا، وذلك لما رُوي عن النبي ﷺ قال: {... أسألُك بكلِّ اسمٍ هو لك سميتَ به نفسَك، أو علَّمتَه أحدًا من خلقِك، أو أنزلتَه في كتابِك، أو استأثرتَ به في علمِ الغيبِ عندَك...}[4].

وأما غير ما أخفاه الله عنَّا فهو موجود في الكتاب والسنَّة، يبقى أن يكون الباحث له شيء من العلم وحسب، لقوله ﷺ: {أو علَّمتَه أحدًا من خلقِك}، فاشترط العلم في الأسماء التي لا يعلمها عامَّة الناس، فمن الأسماء ما هو ظاهرة لعموم المسلمين، كالرحمن والرحيم وغيرها،

---

[1] الاستغاثة لابن تيمية (1 / 157).

[2] رواه مسلم (486).

[3] رواه مسلم (2202).

[4] أخرجه أحمد (3712) واللفظ له، وابن حبان (972)، والطبراني (210/10) (10352) باختلاف يسير. صححه الألباني في السلسلة 199، وأحمد شاكر في تخريج المسند 267/5.

ومنها أسماء اطَّلع عليها أهل العلم لا يعلمها عامَّة المسلمين، كالستير، والحيي، والدهر، لمن أثبته.

كذلك إنَّ أهل العلم في إثباتها يتفاوتون على حسب علمهم واختصاصاتهم.

– وأما قوله سبحانه: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}.

الإلحاد لغة: أصل الإلحاد في لغة العرب: هو الميل عن الشيء، قال ابن فارس: اللام والحاء والدال أصل يدل على ميل عن استقامة، يقال: ألحد الرجل إذا مال عن طريق الحق والإيمان[1].

كلمة الإلحاد في القرآن:

وردت كلمة الإلحاد باشتقاقات مختلفة في القرآن الكريم ودلت على معاني متوازية غير متنافرة، فقال الله تعالى: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: 103]، قال البغوي: أي يميلون ويشيرون إليه (أعجمي)[2].

فالإلحاد بمعنى الميل عن القصد وقد سمي الملحد بهذا الاسم لأنه مال بنفسه وانحرف عن الأديان كلها.

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الحج: 335]، قال الطبري: {وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ}، وهو أن يميل في البيت الحرام بظلم[3].

وقال أيضا: يعني أن تستحلّ من الحرام ما حرّم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، وتقتل من لا يقتلك، فإذا فعل ذلك فقد وجب له عذاب أليم[4].

وهو نفس المعنى، فالمستحل لما حرَّم الله في بيته الحرام، فالسيئة في البيت والحرام أو البلد الحرام أكبر من غيرها، ويمنع القتال فيه، ولا يُعضد شجرها، أو يُنّفر صيدها، فمن فعل هذا فقد مال عن مراد الله تعالى إليه غيره.

---

[1] معجم مقاييس اللغة لابن فارس (190/5).

[2] ينظر: تفسير البغوي.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

[4] السابق.

كذلك قال عز وجل: ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: 22]، قال البغوي: ملجأ أميل إليه ومعنى الملتحد، أي : المائل[1].

فخرجنا بهذا أن الإلحاد هو: الميل عن الحق.

والإلحاد لغة يمكن تقسيمه إلى أقسام:

إلحاد إملائي:

وهو بتغيير شيء من كتاب الله تعالى كتابة، أو من السنَّة، أو غيرهما، وهو بمعنى التحريف الإملائي؛ هذا لأنه مال عن الحق في الكتابة، أمَّا كتاب الله تعالى فلا يقدر أحد على تحريفه، ولا الميل عن قصده إملائيا ولا السنَّة كذلك، فأما القرآن فدليل حفظه هو قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، والذكر هنا هو القرآن، قال الطبري: يقول تعالى ذكره: (إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ) وهو القرآن (وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه، والهاء في قوله: (لَهُ) من ذكر الذكر[2].

وأما حفظ السنَّة وهو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: 3 – 4]، والنطق هنا عام يشمل كل النطق بأنه وحي من الله تعالى.

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص قال: كنتُ أَكْتبُ كلَّ شيءٍ أسمعُهُ مِن رسولِ اللَّهِ ﷺ أريدُ حفظَهُ فنَهَتني قُرَيْشٌ عن ذلِكَ وقالوا: تَكْتُبُ ورسولُ اللَّهِ ﷺ يقولُ في الغضَبِ والرِّضا فأمسَكْتُ حتَّى ذَكَرتُ ذلِكَ لرَسولِ اللَّهِ ﷺ فقالَ: {اكتُب فو الَّذي نَفسي بيدِهِ ما خرجَ منهُ إلَّا حقٌّ}[3].

والشاهد قوله: {ما خرجَ منهُ إلَّا حقٌّ}، والحقُّ آكد وأشمل من الصدق، فالصادق يمكن له أن يقول غير الحق بلا قصد، أو يظن أن ما يقوله هو الحق، وأمَّا الحقُّ فهو حقٌّ ولو خرج من فيه

---

[1] ينظر: تفسير البغوي.

[2] ينظر: تفسير الطبري.

[3] أخرجه أبو داود (3646)، وأحمد (6802) واللفظ له.

كاذب، فقوله: {اكتُب فو الَّذي نَفسي بيدِهِ ما خرجَ منهُ إلَّا حقٌّ}، بيان؛ بأنَّ كل نطق النبي ﷺ حق، وهذا الحق هو الوحي، بدلالة الآية السابقة: {وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ}.

فخرجنا بهذا أنَّ كل كلام النبي ﷺ وحي وأنَّ الوحي محفوظ.

سيقول القائل: الوحي أنواع: كتاب وسنة، والذي دلَّ عليه الدليل من آية حفظ القرآن؛ أنَّ القرآن وحده محفوظ.

نجيب: بقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: 44].

فيتبيَّن من هذا أنَّ السنَّة هي المبينة للقرآن، فإن كان القرآن محفوظا فالسنَّة من باب أولى بالحفظ؛ لأنَّها بيان للمحفوظ، والمبيِّن للمحفوظ وجب أن يكون محفواظا، كذلك لأنها وحي من عند الله تعالى، ولا يتبينُ القرآن المحفوظ إلا ببيان محفوظ، وإلا ضاع القرآن، وهذا يستحيل فحفظ القرآن من التحريف هو المعجزة الخالدة، ويُرفع القرآن من صدور الناس آخر الزمان دون تحريف فيه.

زد على ذلك قول النبي ﷺ: {ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلُه معه، ألا يُوشِكُ رجلٌ شبعانٌ على أريكتِه يقول: عليكم بهذا القرآنِ، فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحِلُّوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموهُ، وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ اللهِ كما حرَّمَ اللهُ، ألا لا يحلُّ لكم الحمارُ الأهليُّ، ولا كلُّ ذي نابٍ من السباعِ، ولا لُقَطَةُ معاهدٍ إلا أن يستغنيَ عنها صاحبُها، ومن نزل بقومٍ فعليهم أن يَقْرُوهُ، فإن لم يَقْرُوهُ، فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِرَاهُ[1].

فقوله: {ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثلُه معه} ومثله معه، أي: السنَّة، وركَّز حفظك الله تعالى في قوله (ومثله)، فالمثل: هو الشبيه، والنظير، والموازي، فإنَّ كان القرآن بهذا محفوظا بحفظ الله تعالى فالكتاب الثاني الذي هو مثيل ونظير وشبيه القرآن، هو محفوظ أيضا بحفظ الله تعالى.

ويزيد النبي ﷺ الأمر تأكيدا بقوله: {ألا لا يحلُّ لكم الحمارُ الأهليُّ، ولا كلُّ ذي نابٍ من السباعِ، ولا لُقَطَةُ معاهدٍ إلا أن يستغنيَ عنها صاحبُها}، وهذه التحريمات ليست موجودة في

[1] أخرجه أبو داود (4604) واللفظ له، والترمذي (2664) مختصراً باختلاف يسير، وأحمد (17174) باختلاف يسير.

القرآن، ولا يحل للنبي ﷺ أن يحرم ما أحلَّ الله تعالى من تلقاء نفسه، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾[التحريم: 1]، فقد نهى الله تعالى نبيه ﷺ أن يحرم ما أحل الله له ولغيره من تلقاء نفسه، فيعلم بذلك، أنَّ النبي ﷺ إن حكم بشيء فهو في احدى أربع:

الأولى: أن يكون وحيا مباشرا:

سواء نزل في الكتاب، أو نزل على النبي ﷺ في ما دون الكتاب، كتحريم لحوم الحمير وكل ذي ناب السابق ذكره، أو غيرها، فهو وحي على النبي ﷺ نزل في ما دون الكتاب، كذلك قول الله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ﴾[آل عمران: 124]، وفي هذه الآية دلالة واضحة أنَّ ما أخبر به رسول الله ﷺ أصحابه من قبيل الوحي، وأيده الله تعالى بعد ذلك بنزول هذه الآية مصدِّقة له، فهذا من الغيبيَّات الذي لا يُتوصَّلُ إليه إلَّا عن طريق الوحي.

قال ابن عاشور التونسي: والمعنى: إذ تعد المؤمنين بإمداد الله تعالى بالملائكة، فما كان قول النبي ﷺ لهم تلك المقالة إلَّا بوعد أوحاه الله تعالى إليه أن يقوله[1].انتهى

وهذا الوحي خارج عن نطاق القرآن[2].

الثانية: اجتهاد النبي ﷺ وهو على ثلاثة حالات:

الحالة الأولى: أن يجتهد النبي ﷺ، فيُقرُّ الله تعالى اجتهاده إما بالسكوت عليه أو أن ينزل ما يؤكد حكم النبي ﷺ في الكتاب أو في السنة:

من ذلك قوله ﷺ: {لَوْلَا أنْ أشُقَّ علَى أُمَّتي أوْ علَى النَّاسِ لَأَمَرْتُهُمْ بالسِّوَاكِ مع كُلِّ صَلَاةٍ}، فأصبح بذلك وحيا[3].

يعني لو كان ممنوعا لنزل القرآن بتحريمه، ولكن الشارع سكت عليه بما يدل على الندب.

الحالة الثانية: أن يحكم النبي ﷺ الحكم، فينهاه الله تعالى عنه، ثمَّ يصححه له:

---

[1] التحرير والتنوير لابن عاشور التونسي.

[2] للمزيد، ينظر: المنة في بيان مفهوم السنة للدكتور عصام الدين إبراهيم من الصفحة 57.

[3] أخرجه البخاري 887، ومسلم 252.

كحكمه في أسارى بدر، حيث قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[الأنفال: 67]، قال ابنُ عبَّاسٍ: فلمَّا أسَرُوا الأُسارى، قال رسولُ الله ﷺ لأبي بكرٍ وعُمَرَ: ما تَرَونَ في هؤلاءِ الأُسارى؟ فقال أبو بكرٍ: يا نبيَّ الله، هم بنو العَمِّ والعشيرةِ، أرى أن تأخُذَ منهم فِديةً، فتكونَ لنا قُوَّةً على الكُفَّارِ، فعسى اللهُ أن يَهدِيَهم للإسلامِ، فقال رسولُ اللهِ ﷺ: ما ترى يا ابنَ الخطَّابِ؟ قلتُ: لا واللهِ يا رسولَ اللهِ، ما أرى الذي رأى أبو بكرٍ، ولكنِّي أرى أن تُمكِّنَّا فنضرِبَ أعناقَهم، فتُمَكِّنَ عليًّا مِن عَقيلٍ، فيضرِبَ عُنُقَه، وتمكِّنِّي من فلانٍ- نَسيبًا لِعُمَرَ- فأضرِبَ عُنقَه؛ فإنَّ هؤلاءِ أئمَّةُ الكُفرِ وصناديدُها، فهَوِيَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبو بكرٍ، ولم يَهْوَ ما قُلتُ، فلمَّا كان من الغَدِ جِئتُ (أي عمر)، فإذا رسولُ الله ﷺ وأبو بكرٍ قاعِدَينِ يَبكيانِ، قُلتُ: يا رسولَ اللهِ، أخبِرْني من أيِّ شَيءٍ تبكي أنت وصاحِبُك؟! فإن وَجَدْتُ بكاءً بكيتُ، وإن لم أجِدْ بُكاءً تباكَيتُ لِبُكائِكما، فقال رسولُ الله ﷺ: أبكي للَّذي عَرَضَ عليَّ أصحابُك مِن أخْذِهم الفِداءَ، لقد عُرِضَ علي عذابُهم أدنى مِن هذه الشَّجرةِ – شَجرةٍ قريبةٍ مِن نبيِّ اللهِ ﷺ – وأنزل اللهُ عزَّ وجلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ إلى قَوله: فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا}[1].

أي: تُريدونَ – أيُّها المؤمنونَ – نَيلَ مَتاعِ الدُّنيا الزَّائلةِ بأسْرِ الكُفَّارِ المُنهَزِمينَ يَومَ بَدرٍ؛ لأخْذِ الفِديةِ منهم، واللهُ يُريدُ لكم ثوابَ الآخرةِ بإثخانِهم؛ إعزازًا لِدينِه، ونُصرةً لِعبادِه، وإعلاءً لكَلِمتِه سُبحانَه وتعالى[2]، وهذا نهي واضح عمَّا فعله رسول الله ﷺ، ثم صحَّحه له بعد ذلك بقوله سبحانه: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً﴾[محمد: 4]، قال السعدي: فأنتم بالخيار بين المن عليهم وإطلاقهم بلا مال ولا

---

[1] رواه مسلم 1763.

[2] يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (271/11)، ((تفسير ابن عطية)) (552/2، 553)، ((تفسير الرازي)) (510/15)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (74/10)، ((تفسير السعدي)) (ص: 326)، ((تفسير ابن عاشور)) (75/10)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (181/5). قال الرازي: (أجمَعَ المُفَسِّرونَ على أنَّ المرادَ مِن عَرَض الدُّنيا هاهنا، هو أخْذُ الفِداءِ). ((تفسير الرازي)) (509/15).

فداء، وإمَّا أن تفدوهم بأن لا تطلقوهم حتى يشتروا أنفسهم، أو يشتريهم أصحابهم بمال، أو بأسير مسلم عندهم[1].

قال الطنطاوي: وقوله سبحانه: (فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً) إرشاد؛ لما يفعلونه بعد ذلك والمن: الإِطلاق بغير عوض، يقال: منَّ فلان على فلان إذا أنعم عليه بدون مقابل.

والفداء: ما يقدمه الأسير من أموال أو غيرها لكي يفتدي بها نفسه من الأسر[2].

والمعنى أنَّ الرسول ﷺ اجتهد في أخذ الفدية عن أُسارى بدر فنهاه الله تعالى عن ذلك، ثمَّ صحح له ذلك بالآية الثانية، قال ابن عباس: لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله عز وجل في الأسارى: {فَإِمَّا مَنًّا بَعْد وَإِمَّا فِدَاءً}[3]، وعلى هذا فإنَّ اجتهاده ﷺ بعد التَّصحيح يُصبح تشريعا من الله تعالى.

الحالة الثالثة: ما نهاه الله تعالى عن فعله:

من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة: 84].

وسبب نزول هذه الآية؛ ما رواه ابن عمر قال: لما توفي عبد الله بن أُبَيٍّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله – رضي الله عنه – إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه، ثم سأله أن يصلي عليه فقام رسول الله ﷺ ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله ﷺ: إنما خيرني الله فقال: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾[التوبة: 80]، وسأزيده على السبعين قال: إنه منافق، قال فصلى عليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل هذه الآية:

---

[1] تفسير السعدي.

[2] الوسيط لطنطاوي.

[3] تفسير البغوي.

﴿وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّاتَ أَبَداً وَّلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾[التوبة: 84][1].

وهنا اجتهد رسول الله ﷺ إرضاءً للصحابي الجليل عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، حيث مات أبوه وهو رأس المنافقين، فصلَّى عليه رسول الله ﷺ، فنهاه الله تعالى عن ذلك، فإنَّ الله تعالى ورسوله ﷺ لا يقرّان على باطل، والنَّهي عن الصَّلاة على ابنِ أبيٍّ بن سلول صار تشريعا، فيَحرمُ به الصلاة والدُّعاء على أموات الكفَّار والمنافقين.

وبهذا تكون كل اجتهادات رسول الله ﷺ وحي من الله تعالى، فإمَّا أن يقرّها الله تعالى لتكون شرعا، أو يصحّحها له لتصير شرعا أيضا، أو ينهى عنها ليكون النهي شرعا أيضا.

ونخرج بهذا أنه لا يقدر أحد على تحريف الكتاب ولا السنَّة، وأنَّ الكتاب والسنَّة هما المعجزتان الخالدتان، وأمَّا ضعيف السنة فهي غير معمول بها، كما أنَّ في القرآن روايات شاذَّة غير معمول بها، وهي أربع قراءات:

قراءة الحسن البصري المتوفى سنة مائة وعشرين هجرية.

ومحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن محيصن توفي سنة مائة وثلاثة وعشرين.

ويحيى بن المبارك اليزيدي المتوفى سنة ماءتان واثنان.

وسليمان بن مهران الأعمش المتوفى سنة مائة وثمان وأربعين.

ويتبين لنا من هذا أنَّ السنة موازية للقرآن وهي محفوظة بحفظ الله تعالى من كل ميل وتحريف، إلا التحريف المعنوي الذي سيأتي ذكره فقد لحق الكتاب والسنة، وقد تصدى لأصحاب هذا النوع من التحريف علماء أهل السنَّة وأوقفوهم عند حدهم وبينوا تحريفهم للناس.

وعودا لأنواع الإلحاد ونستأنف النوع الثاني وهو:

إلحاد لفظي:

وهو بتغيير إعراب الكلمة لفظا، مع بقاء صورتها، كقولهم في قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾[النساء: 164]، **فقرأها بعض المعتزلة، وكلَّم اللهَ، بجعل لفظ الجلالة مفعولا منصوبا**

---

[1] رواه البخاري **4670**.

عوضا على فاعل مرفوع، وذلك كي ينكروا صفة الكلام عن الله تعالى، فقال له عالم من أهل السنة، فكيف تقول في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف: 143]، فبهت الملحد، المحرف، وهذا بمعنى التحريف الإعرابي.

إلحاد معنوي:

وهو بتغيير معنى الكلمة مع بقاء صورتها، ولفظها، كقولهم في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[طه :5] قال بعض المعتزلة معناه استولى، وهذا يسمى تحريفا معنويا.

أصل التحريف المعنوي:

إنَّ أصل كل التحريفات التي ذكرناها هو الإلحاد، وشرهم هو التحريف المعنوي؛ لأنه يلبس على الناس، وهو ليس كالتحريف الكتابي، فأي مسلم حامل لكتاب الله تعالى ينتبه إليه، أو التحريف اللفظي كذلك، لكنَّ التحريف المعنوي لا ينتبه إليه إلا من كان شغله العلم، وعليه فكان هذا النوع شرُّ ما في الباب، وأصل هذا التحريف المعنوي، هو التأويل الفاسد.

التأويل:

يطلقُ التَّأْويلُ فِي اللُّغةِ علَى عدَّةِ معانٍ: منهَا تأويلُ الكلامِ تفسيرهُ وبيانُ معناهُ[1].

والمرجعُ، تقولُ: أَوَّلَ اللَّهُ عَلَيْكَ ضَالَّتَكَ أي أرْجَعَهَا، وأعَادَهَا إلَيْكَ[2].

والمصيرُ والعاقبةُ، وتلكَ المعانِي موجودةٌ فِي القرآنِ والسنَّةِ، قالَ اللَّهُ تعالَى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾[الأعراف: 53]، أيْ: عاقبته[3]، وقالَ الرَّسولُ ﷺ فِي دعائِهِ لابنِ عبَّاسَ: {اللَّهمَّ فقِّههُ في الدِّينِ وعلِّمهُ التأويلَ}[4]، أي: علمهُ التَّفسيرَ.

---

[1] ينظر: معجم المعاني.

[2] السابق.

[3] ينظر: تفسير الطبري.

[4] أخرجه البخاري (143)، ومسلم (2645) مختصراً، وأحمد (2397) واللفظ له.

أنواعِ التَّأويلِ وتعريفهُ فِي اصطلاحِ السَّلفِ:

التَّأويلُ: لهُ معنيانِ ممدوحانِ:

1 – أمَّا المعنَيانِ الممدوحانِ: فيُطلقُ التَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرِ والبيانِ وإيضاحِ المعانِي المقصودةُ منَ الكلامِ، فيقالُ: تأويلُ الآيةِ كذَا؛ أيْ معناهَا.

2 – ويطلقُ بمعنَى المآلِ والمرجعِ والعاقبةِ وتحقُّقِ الأمرِ، فيقالُ هذهِ الآيةُ مضَى تأويلهَا، كقولهِ تعالَى: ﴿وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾[يوسف: 100].

التَّأويلِ في اصطلاحِ أهلِ الكلامِ ولهُ معنى واحد مذمومٌ:

3 – عندَ الخلفِ من علماء الأصولِ والفقهِ الذِينَ ينتسبونَ لعلمِ الكلامِ: هوَ صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ لدليل يقترن به.

فإن كان بدليل صار هو الراجح، وهذا لا إشكال فيه، ولكنَّ الإشكال في حمل اللفظ على غير ظاهره والتوَّجه للَّفظ المرجوح، إما بلا دليل، أو بدليل تأويلٍ فاسد جديد، فيستدلُّ بآية مؤوَّلة تأويلا فاسد، على تأويله الأوَّل، كتأويلهم قوله تعالى: ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: 10]، فقالوا ليس لله تعالى يد، فقلنا لنا دليل في الآية أنَّ لله تعالى له يد، فاثبتوا لنا عكس ذلك، فأوَّلوا آية أخرى تأويلا فاسدا، ليستدلوا بها على التأويل الفاسد الأول وهي: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[المائدة: 64]، فقالوا، اليد تعني القدرة والعطاء ودليلنا هو: {يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}، فأولوا اليدين في الآية الثانية بالقدرة بذيل الآية نفسها، ليستدلوا بها على تأويلهم على الآية الأولى وهي: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ}، فكان تأويلهم الأوَّل فاسدا، واستدلوا على تأويلهم الأول بتأويل آخر فاسد، والصحيح أنَّ لله يد بمجموع الآيات، ولا نعرف كيفيتها، وقوله تعالى: { يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ}، يتحدث فيها عن الإنفاق، وهو كقولك: لمحمد يدان، وهو يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، فنثبت اليد، ونثبت العطاء، وهذا النوع من الناس لا يُناظرون، فإنَّ الدليل النقلي لا يعني لهم شيئا.

وهذَا التَّأويلُ مرفوضٌ عندَ السَّلفِ واعتبروهُ تحريفًا باطلاً فِي بابِ الصفاتِ الإلهيةِ، وقدْ ظهرَ هذَا المعنَى للتَّأويلِ متأخّرًا عنْ عصرِ الرَّسولِ ﷺ والصَّحابةِ، بل ظهرَ معَ ظهورِ الفرقِ ودخلُوا

منهُ إلَى تحريفِ النُّصوصِ تحريفًا معنويًّا، وكانتْ لهُ نتائجُ خطيرةٌ؛ إذْ كلَّمَا توغَّلُوا فِي تأويلِ المعانِي وتحريفهَا بعدُوا عنِ المعنَى الحقِّ الذِي تهدفُ إليهِ النُّصوصُ، وكان السبب في كل هذا هو القول بالمجاز في نصوص الوحيين، مما فتح بابا شاسعا لأهل الكلام والأهواء كي يقولوا بقيلهم في آي القرآن وصحيح السنة ما يشاؤون، ولنا في الرد عليهم، ورد المجاز عن نصوص الوحيين كتابات منها: الإيجاز في الحقيقة والمجاز، أو: فتح الرب السميع في علم المعاني والبيان والبديع، فقد تحدثنا عن هذا المبحث وفصَّلناه ثمَّ فصلناه.

وخلاصةً أنواعُ التَّأويلِ ثلاثةٌ:

اثنانِ منهَا تأويلاتٌ صحيحةٌ ممدوحةٌ وهيَ:

1 – تأويلُ الأمرِ وقوعهُ.

2 – والتَّأويلُ بمعنَى التَّفسيرُ.

والنَّوعُ الثَّالثُ منَ التَّأويلِ هوَ التَّأويلُ الباطلُ الفاسدُ وهوَ:

3 – صرفُ اللَّفظِ عنِ المعنَى الرَّاجحِ إلَى المعنَى المرجوحِ.

وهوَ مَا يُعبَّرُ عنهُ بالتَّحريفِ المعنوِيِّ.

والإلحاد؛ يجمع كل ما ذكرناه.

والملحد ضد الحنيف:

فالملحد هو: المائل عن الحق.

والحنيف هو: المائل إلى الحق.

والحنيف لغة:

الحنيف هو: المائل، والحنْف هو: الميْل، والحنف: ميل في صدر القدم، ورجل أحنف، ورجل حنفاء، ويقال:

سمي الأحنف بن قيس به لحنف كان في رجله، وقالت حاضنة الأحنف:

والله لولا حنف برجله * ما كان في فتيانكم كمثله[1].

---

[1] العين للفراهيد 248/3.

الحنيف اصطلاحا:

يجتمع كل من الإلحاد والحنيفية على الميل، ويفترقان في؛ أنَّ الإلحاد ميل عن الحق، والحنيفية ميل إلى الحق.

– وعودا ببدئ؛ فإنَّ قوله سبحانه: {وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ}، أي: الذين يميلون في إثبات أسمائه، أو في معاني أسمائه، أو اشتقاق أسماء من أسمائه، قال الطبري: وكان إلحادهم في أسماء الله تعالى، أنهم عدَلوا بها عمّا هي عليه، فسموا بها آلهتهم وأوثانهم، وزادوا فيها ونقصوا منها، فسموا بعضها (اللات) اشتقاقًا منهم لها من اسم الله الذي هو (الله)، وسموا بعضها (العُزَّى) اشتقاقًا لها من اسم الله الذي هو (العزيز)[1].

ويشمل هذا كل من يستنبط اسما من عنده، كما استنبط الصوفية الضمر (هو) على أساس أنه اسم لله تعالى، أو (أه) أو (هِيْ)، فقالوا هي أسماء، وغيرهم قال في الحروف المقطَّعة في القرآن مثل: كهعص، وحمعسق، وألم، وغيرها، أسماء لله تعالى بلا دليل وسلطان مبين.

فخرجنا بهذا أنَّ أسماء الله تعالى توقيفية لا تُعلم بالعقل، بل بالنَّقل، ويستعمل عقل العالم فيها في البحث عنها بدلالاتها، وهذه الدلالات والشروط؛ فإنَّ كل عالم وضع لإثباتها شروطا، وكل عالم اجتهد في جمع أسماء الله تعالى على شروطه، ومنهم من أصاب ومنهم من أخطأ، فمن أصاب منهم فله أجران، ومنم أخطأ دون قصد فله أجر واحد، يقول النبي ﷺ: {إذا حَكَمَ الحاكِمُ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أصابَ فَلَهُ أجْرانِ، وإذا حَكَمَ فاجْتَهَدَ ثُمَّ أخْطَأَ فَلَهُ أجْرٌ}[2].

وعليه؛ فإنَّ أسماء الله تعالى توقيفية، ولا اجتهاد فيها، بل الاجتهاد يكون في البحث عنها في نصوص الكتب والسنة لا في استنباطها بالعقل المجرَّد عن الدليل، كما أنه لا ينال أجر الاجتهاد فيها إلا من كان له آلة الاجتهاد، وهو أن يكون له من علوم الدين ما يكفيه للبحث.



[1] ينظر: تفسير الطبري.

[2] أخرجه البخاري 7352، ومسلم 1716.



﴿أسماء الله تعالى تدل على صفاته﴾

كل اسم من أسمائه سبحانه يدل على الذات المسماة وعلى الصفة التي تضمنها الاسم، كالعليم يدل على الذات والعلم، والقدير يدل على الذات والقدرة، والرحيم يدل على الذات والرحمة، ومن أنكر دلالة أسمائه على صفاته ممن يدعي الظاهر، فقوله من جنس قول غلاة الباطنية القرامطة الذين يقولون: لا يقال: هو حي ولا ليس بحي، بل ينفون عنه النقيضين؛ فإن أولئك القرامطة الباطنية لا ينكرون اسما هو علم محض كالمضمرات[1]؛ وإنما ينكرون ما في أسمائه الحسنى من صفات الإثبات، فمن وافقهم على مقصودهم كان مع دعواه الغلو في الظاهر موافقا لغلاة الباطنية في ذلك، وليس هذا موضع بسط ذلك؛ وإنما المقصود أن كل اسم من أسمائه يدل على ذاته وعلى ما في الاسم من صفاته، ويدل أيضا على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم، وكذلك أسماء النبي ﷺ مثل محمد وأحمد والماحي والحاشر والعاقب، وكذلك أسماء القرآن مثل: القرآن والفرقان والهدى والشفاء والبيان والكتاب وأمثال ذلك...[2].



[1] مضمرات، جمع مضمر، عبارة عن اسم يتضمن إشارة إلى المتكلم أو المخاطب أو غيرهما إما تحقيقا أو تقديرا، وابن تيمية يريد بذلك الذات، فهم لا ينكرون الذات، بل ينكرون الصفات، فاسم الرحمن مثلا: يدل على ذات الله تعالى عندهم، ولا يدل على الرحمة، فلا يقال له رحمن ولا ليس برحمن...

[2] مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية – 13/ 333. [2]

﴿ ثانيا ﴾

﴿ موقف أهل السنة في الأسماء والصفات ﴾

إنَّ أسماء الله تعالى وصفاته توقيفية، فهي تؤخذ من الكتاب والسنة بقسميها فقط، وقد جاء في الموسوعة العقدية بما فيه: وأهل السنة والجماعة: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، **وقوله تعالى:** ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180] **وأهل السنة والجماعة: لا يحددون كيفية صفات الله جل وعلا؛ لأنه تبارك وتعالى لم يخبر عن الكيفية، ولأنه لا أحد أعلم من الله سبحانه بنفسه، قال تعالى:** ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة 140] **وقال تعالى:** ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 74] **ولا أحد أعلم بالله من رسوله ﷺ الذي قال الله تبارك وتعالى في حقه:** ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 4]، **وأهل السنة والجماعة: يؤمنون أن الله سبحانه وتعالى هو الأول ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، كما قال سبحانه:** ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: 3] **وكما أن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كفء له ولا ند له، ولا يقاس بخلقه؛ فيثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل؛ فحين يثبتون لله تعالى ما أثبته لنفسه لا يمثلون، وإذا نزهوه لا يعطلون الصفات التي وصف نفسه بها، وأنه تعالى محيط بكل شيء، وخالق كل شيء، ورازق كل حي، قال الله تعالى:** ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: 14] **وقال:** ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْمَتِينُ﴾[الذاريات: 58]، **ويؤمنون بأن الله تعالى استوى على العرش فوق سبع سموات بائن من خلقه، أحاط بكل شيء علماً، كما أخبر عن نفسه في كتابه العزيز في سبع آيات كريمات بلا تكييف قال تعالى:** ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:5] **وقال:** ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾[الأعراف: 45] **وقال:** ﴿أَأَمِنتُم مَّنْ فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾[الملك: 16 - 17] **وقال:** ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[فاطر: 10] **وقال:** ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾[النحل: 50] ، **وقوله تعالى:** ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى﴾[الأعلى: 1]، **وقال النبي ﷺ: {ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟}[1]، وغير ذلك من الأدلة الكثيرة الدالة على علو الله تعالى، وفوقيته، واستوائه على عرشه سبحانه...**



[1] **رواه البخاري 4351 ومسلم 1064 من حديث أبو سعيد الخدري رضي الله عنه.**

﴿ ثالثا ﴾

﴿ الإيمان بأسماء الله الحسنى ﴾

الإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بالله تعالى، وهو سبب لمعرفة الله تعالى، والعلم به، بل إن العلم بالله ومعرفة الله جل وعلا تكون بمعرفة أسمائه وصفاته، وبمعرفة آثار الأسماء والصفات في ملكوت الله جل وعلا[1].

إن الإيمان بأسماء الله الحسنى ومعرفتها يتضمن أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذه الأنواع هي روح الإيمان ورَوحه (الروح: هو الفرح، والاستراحة من غم القلب)، وأصله وغايته، فكلما زاد العبد معرفة بأسماء الله وصفاته ازداد إيمانه وقوي يقينه[2].

واتفق السلف على أنه يجب الإيمان بجميع الأسماء الحسنى، وما دلت عليه من الصفات، وما ينشأ عنها من الأفعال[3].

كما يجب أن يعلم أنَّ الواجب على العبد الإيمان بالله وأسمائه وصفاته والتسليم لأقداره، واليقين بعدله وحكمته، والفرح بفضله ورحمته، ونحن لا نعلم من حكمة الله تعالى وسائر أسمائه وصفاته إلا ما علمناه، ولا يحيط بكنه شيء منها ونهايته إلا الذي اتصف بها وهو الله الذي لا إله إلا هو[4].



[1] التمهيد لشرح كتاب التوحيد لصالح بن عبد العزيز آل الشيخ – ص 437.

[2] التوضيح والبيان لشجرة الإيمان لعبد الرحمن بن ناصر السعدي – ص41.

[3] شرح العقيدة الواسطية لمحمد خليل هراس – ص157.

[4] معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول لحافظ بن أحمد الحكمي– ص297.

﴿ رابعا ﴾

﴿ أدلة إثبات الأسماء والصفات ﴾

وهي: كتاب الله تعالى، وسنة رسوله ﷺ، فلا تثبت أسماء الله تعالى وصفاته بغيرهما، وعلى هذا فما ورد إثباته لله تعالى من ذلك في الكتاب أو السنة وجب إثباته، وما ورد نفيه فيهما وجب نفيه، مع إثبات كمال ضده، وما لم يرد إثباته ولا نفيه فيهما وجب التوقف في لفظه فلا يثبت ولا ينفى لعدم ورود الإثبات والنفي فيه، وأما معناه فيفصل فيه، فإن أريد به حق يليق بالله تعالى فهو مقبول، وإن أريد به معنى لا يليق بالله عز وجل وجب رده[1].

فمما ورد إثباته لله تعالى: كل صفة دل عليها اسم من أسماء الله تعالى، دلالة مطابقة، أو تضمن، أو التزام، ومعنى دلالة المطابقة، والتضمن، والالتزام على ما يلي:

دلالة المطابقة هي: دلالة اللفظ على تمام ما وضع له.

ودلالة التضمن هي: دلالة اللفظ على جزء ما وضع له.

ودلالة الالتزام: دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه، لازم له لزوماً ذهنياً.

مثال ذلك: لفظ البيت؛ يدل بدلالة المطابقة على الأرض والجدران والأعمدة والسقف، فدل لفظ البيت على جميع أجزائه بدلالة المطابقة.

ودل على السقف أو الجدران بدلالة التضمن؛ لأن السقف أو الجدران بعض البيت لا كله.

ودل على الشخص الذي بنى البيت بدلالة الالتزام؛ لأن الشخص ليس من البيت ولكن البيت لا يوجد إلا بوجوده، فيلزم من بناء البيت من شخص بناه.

ومثال ذلك في الأسماء والصفات: اسم الله "الخالق"، يدل على ذات الله تعالى، وعلى صفة الخلق بالمطابقة.

ويدل على الذات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن.

ويدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام، لأنه لابد للخالق من قدرة وعلم.

وكذلك كل صفة دل عليها فعل من أفعاله كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والمجيء للفصل بين عباده يوم القيامة، ونحو ذلك من أفعاله التي لا تحصى أنواعها فضلاً

---

[1] ينظر: الموسوعة العقدية تأليف جماعة من المؤلفين 410/1.

عن أفرادها، ومنه: الوجه، والعينان، واليدان ونحوها ومنه الكلام، والمشيئة، والإرادة بقسميها: الكوني، والشرعي، فالأفعال الكونية، هي الأفعال النافذة، أي المشيئة النافذة التي لا تتغير، كالإماتة والإحياء ليوم البعث وغيرها، والأفعال الشرعية هي التي تتغير على حسب أحوال العبد، كالمحبة والرضا، والغضب، والكراهة ونحوها... ومما ورد نفيه عن الله سبحانه لانتفائه وثبوت كمال ضده: الموت، والنوم، والسنة، والعجز، والإعياء، والظلم، والغفلة، وأن يكون له مثيل أو كفؤ ونحو ذلك... ومما لم يرد إثباته ولا نفيه لفظ (الجهة) فلو سأل سائل هل نثبت لله تعالى جهة؟ قلنا له: لفظ الجهة لم يرد في الكتاب والسنة إثباتاً ولا نفياً، ويغني عنه ما ثبت فيهما من أن الله تعالى في السماء وأما معناه فإما أن يراد به جهة سفل أو جهة علو تحيط بالله أو جهة علو لا تحيط به، فالأول باطل لمنافاته لعلو الله تعالى الثابت بالكتاب والسنة، والعقل والفطرة، والإجماع، والثاني باطل أيضاً؛ لأن الله تعالى أعظم من أن يحيط به شيء من مخلوقاته، والثالث حق؛ لأن الله تعالى العلي فوق خلقه ولا يحيط به شيء من مخلوقاته ودليل هذه القاعدة السمع والعقل، فأما السمع فمنه قوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الأنعام: 155]، وقوله: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[الحشر: 7] وقوله: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً [النساء: 80]... إلى غير ذلك من النصوص الدالة على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن والسنة، وكل نص يدل على وجوب الإيمان بما جاء في القرآن فهو دال على وجوب الإيمان بما جاء في السنة؛ لأن مما جاء في القرآن الأمر باتباع النبي ﷺ والرد إليه عند التنازع والرد إليه يكون إليه نفسه في حياته وإلى سنته بعد وفاته، فأين الإيمان بالقرآن لمن استكبر عن اتباع الرسول ﷺ المأمور به في القرآن؟ وأين الإيمان بالقرآن لمن لم يرد النزاع إلى النبي ﷺ وقد أمر الله به في القرآن؟ وأين الإيمان بالرسول ﷺ الذي أمر به القرآن لمن لم يقبل ما جاء في سنته؟

ولقد قال الله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل: 89] ومن المعلوم أن كثيراً من أمور الشريعة العلمية والعملية جاء بيانها بالسنة، فيكون بيانها بالسنة من تبيان القرآن وأما

العقل فنقول: إن تفصيل القول فيما يجب أو يمتنع أو يجوز في حق الله تعالى من أمور الغيب التي لا يمكن إدراكها بالعقل، فوجب الرجوع فيه إلى ما جاء في الكتاب والسنة[1].



[1] **القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى لمحمد بن صالح بن عثيمين – ص39 بتصرف.**

وللمزيد في بيان مقام السنة في إثبات مقام السنة في العبادات العلمية والعملية ينظر كتابنا: المنة في بيان مفهوم السنة.

﴿ خامسا ﴾

﴿ فهم معاني أسماء الله الحسنى ﴾

إنَّ أسماء الله الحسنى لم ترد في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه ﷺ عبثا، أو مجرد أسماء سمى الله تعالى بها نفسه، بل أوردها الله تعالى في الكتاب والسنة، لحكمة بالغة، ولا يمكن بلوغ هذه الحكمة إلا بفهم معاني أسمائه سبحانه وتعالى، فبفهم الاسم يزداد المؤمن رسوخا، ويكون أقرب لاستجابة الدعاء حال الدعاء باسم مفهوم عند الداعي، فمثلا: اسم الله الرحمن، واسمه الرحيم، فإن علمت أنه سبحانه رحمن في ذاته على قول، وعلى قول آخر واسع الرحمة، ورحيم بغيره، علمت أنَّ الله تعالى أثبت لنفسه الرحمة، وأثبت أنه رحيم بغيره، فتدعو طالبا الرحمة منه متيقنا باستجابة دعائك، لعلمك أنَّه سبحانه أثبت الرحمة في نفسه، وأنه أثبت أنه رحيم بغيره.

كما أنَّ فهم معاني أسماء الله الحسنى، تورث معرفة الله تعالى، فما أورد سبحانه أسمائه إلا ليعرف بها فيعبد.

وفهم أسماء الله تعالى نوعان:

الأول: فهم اشترك فيه عامة المسلمين:

كاسمه سبحانه الرزاق، والرحيم والكريم وغيرها...فمعناها واضح.

الثاني: وفهم اقتصر على أهل العلم:

كاسمه الله، ومعناه المعبود، وقد سبق الكلام فيه، واسمه القدوس، ومعناه: المبارك وهو الطاهر الذي تعالى عن كل دنس، وقيل: تقدسه الملائكة الكرام وهو سبحانه الممدوح بالفضائل والمحاسن.

والله القدوس: هو المنزه عن الأضداد والأنداد والصاحبة والولد، الموصوف بالكمال.

فبعض أسماء الله تعالى نحتاج فيها لأهل العلم بها لفهم معانيها.

كذلك من فَهِمَ معاني أسماء الله تعالى وحده فيها بالضرورة، فأصل التوحيد بالعلم، لقوله تعالى: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: 19].

قال ابن القيم عليه رحمة الله: وليست حاجة الأرواح قط إلى شيء أعظم منها إلى معرفة باريها وفاطرها، ولا سبيل إلى هذا إلا بمعرفة أوصافه وأسمائه، فكلما كان العبد بها أعلَمَ، كان بالله أعرف، وله أطلب، وإليه أقرب، وكلما كان لها أنكر، كان بالله أجهل، وإليه أكره، ومنه أبعد، والله يُنزل العبدَ من نفسه حيث يُنزله العبدُ من نفسه، فالسير إلى الله من طريق الأسماء والصفات شأنُه عَجب، وفتحه عجب، صاحبُه قد سِيقَتْ له السعادةُ وهو مستلقٍ على فراشه غَيرَ تَعِب، ولا مكدود، ولا مشتت عن وطنه، ولا مشرد عن سكنه[1].

فلا يستطيع العباد إدراك حقيقة العبودية وتحقيقَها قولًا وفعلًا إذا لم يعرفوا صفات الباري جل جلاله، فلو أراد أحد أن يتزوج ابنةَ رجل أو أن يزوِّجه أو يعامله، طلب أن يعرف اسمه وكنيته، واسم أبيه وجده، وسأل عن صغيرِ أمره وكبيره، فالله الذي خلَقَنا ورزقنا، ونحن نرجو رحمته ونخاف من سخطه أَولى أن نعرف أسماءه وصفاته، ونعرف تفسيرها[2].

عن أُبيِّ بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد، انسُبْ لنا ربَّك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[الإخلاص][3].



[1] طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: 215).

[2] ينظر: الحجة في بيان المحجة؛ الأصفهاني.

[3] أخرجه الترمذي 3364، وصححه الألباني.

﴿ سادسا ﴾

﴿ الدعاء بأسماء الله الحسنى ﴾

من جملة لوازم معرفة أسماء الله الحسنى، الدعاء بها، وأراه على وجه الوجوب، لدلالة الآيات على ذلك، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]، **فقوله تعالى: {فَادْعُوهُ بِهَا} فهذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب حتى تأتي قرينة تخرجه من وجوبه إلى غير ذلك.**

كذلك في قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 110].

وتحلُّ الصفة محل الاسم في الدعاء ولا حرج في ذلك؛ لأنَّ النبي ﷺ دعا بأسماء الله تعالى، وبصفاته، كالاستعاذات، من ذلك قوله، {أعوذ بكلمات الله التامَّات من شر ما خلق}[1]، وكلام الله تعالى صفة صفاته.

فنفهم من هذا أنَّ الدعاء يجب أن يكون متضمنا لاسم من أسماء الله الحسنى أو صفة من صفاته، على وجه الوجوب، وهذا أمره هين لأنك في قولك يا رب، قد دعوت الله باسم الرب، أو بصفة الخلق والملك والتدبير الدالة على معنى الرب، وكذا قولك اللهم، فهو أسلوب نداء للدعاء، ومعناه يا اللَّهُ، وهو المعبود، والله اسم جامع لكل معاني أسمائه سبحانه على الراجح.



[1] أخرجه مسلم (**2709**).

﴿سابعا﴾

﴿إحصاء أسماء الله الحسنى﴾

قال النبي ﷺ: {للهِ تبارَك وتعالى تِسعةٌ وتسعونَ اسمًا مَن أحصاها دخَل الجنَّةَ}[1].

وفي رواية: {لِلَّهِ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إلَّا واحِدًا، لا يَحْفَظُها أحَدٌ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وهو وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ}[2].

أولا إنَّ إحصاء أسماء الله تعالى باب شاسع، وهو يسير وصعب في آن واحد، فهو يسير من حيث أنَّ أسماء الله تعالى لا تعدُّ، ممَّا يفتح الباب لكل باحث أن يكتشف من أسماء الله تعالى ما شاء الله تعالى له أن يكتشف؛ فإنه ليس مقيَّدا بتسع وتسعين اسما كما سيأتي بيانه، وهو صعب من حيث البحث، حيث أنَّ الأسماء مقيَّدة في البحث بالكتاب والسنة وحسب، ولا مجال للعقل فيها، إلا عقل العالم يستعمله كي يكتشف به الأسماء بأدلتها، لا أن يستنبطها، أو يشتقها.

والسؤال هو: هل المراد من قول النبي ﷺ: {لِلَّهِ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْمًا} هل المراد به حصر الأسماء الحسنى في هذا العدد؟ أو أنها أكثر من ذلك، ولكن اختصت هذه بأن من أحصاها دخل الجنة؟

ذهب جمهور العلماء إلى الثاني، ونقل النووي اتفاق العلماء عليه، وقال: ليس في الحديث حصر أسماء الله تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين، وإنما مقصود الحديث؛ أن هذه الأسماء من أحصاها دخل الجنة، فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها، لا الإخبار بحصر الأسماء.

وقال أبو سليمان حمد الخطابي: إنما هو بمنزلة قولك إن لزيد ألف درهم أعدها للصدقة، وكقولك: إن لعمرو مائة ثوب من زاره خلعها عليه، وهذا لا يدل على أنه ليس عنده من الدراهم أكثر من ألف درهم، ولا من الثياب أكثر من مائة ثوب، وإنما دلالته أن الذي أعده زيد من الدراهم للصدقة ألف درهم؛ وأن الذي أرصده عمرو من الثياب للخلع مائة، والذي

---

[1] أخرجه البخاري (2736)، ومسلم (2677) باختلاف يسير.

[2] أخرجه البخاري 6410.

يدل على صحة هذا التأويل حديث عبد الله بن مسعود وقد ذكره محمد بن إسحاق بن خزيمة في المأثور:

أن النبي ﷺ كان يدعو: {اللهمَّ إنِّي عبدكَ، ابن عبدكَ، ابن أمتكَ، ناصيتِي بيدكَ، ماضٍ فيَّ حكمكَ، عدلٌ فيّ قضاؤكَ، أسألكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ، سمَّيتَ بهِ نفسكَ، أو أنزلتهُ في كتابكَ، أو علَّمتهُ أحداً من خلقكَ، أو استأثرتَ بهِ فِي علمِ الغيبِ عندكَ...}[1]. فهذا يدلك على أن لله أسماء لم ينزلها في كتابه، حجبها عن خلقه، ولم يظهرها لهم[2]. اهـ

وقال ابن تيمية بعد نقله كلام الخطابي: وأيضاً فقوله: ((إن لله تسعة وتسعون)) تقيده بهذا العدد، بمنزلة قوله تعالى: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر: 30]، **فلما استقلُّوهم قال:** ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلا هُوَ وَمَا هِيَ إِلا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: 31]؛ **فأن لا يعلم أسماءه إلا هو أولى[3]. اهـ**

وقال أيضا: والصواب الذي عليه الجمهور أن قول النبي ﷺ:{إنَّ للهِ تسعةٌ وتسعينَ اسماً من أحصاهَا دخلَ الجنَّةَ}[4]، معناه: أن من أحصى التسعة والتسعين من أسمائه دخل الجنة، ليس مراده أنه ليس له إلا تسعة وتسعون اسماً، ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود السابق[5].

وقال: وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يقول في سجوده: {اللهمَّ إنِّي أعوذُ برضاكَ من سخطك، وبمعافاتكَ من عقوبتكَ، وبكَ منكَ لَا أحصِي ثناءً عليكَ أنتَ كمَا أثنيتَ علَى نفسكَ}[6].

---

[1] رواه أحمد 391/1 – 3712، والطبراني 169/10، وابن حبان 253/3، والحاكم 690/1، من حديث ابن مسعود رضي الله عنه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد 198/10: رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان، وصححه ابن القيم في شفاء العليل 739/2، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة 199.

[2] ((شأن الدعاء)) للخطابي ص: 24.

[3] (مجموع الفتاوى) لابن تيمية 381/6

[4] (درء تعارض العقل والنقل) لابن تيمية 3/ 332.

[5] رواه أحمد 391/1 – 3712، والطبراني 169/10، وابن حبان (253/3، والحاكم 690/1، قال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) 198/10: رجاله رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان، وصححه ابن القيم في ((شفاء العليل)) 739/2، وصححه الألباني في ((السلسلة الصحيحة)) 199.

[6] رواه مسلم 486 من حديث عائشة رضي الله عنها.

فأخبر أنه ﷺ لا يحصى ثناء عليه، ولو أحصى جميع أسمائه لأحصى صفاته كلها، فكان يحصى الثناء عليه لأن صفاته إنما يعبر عنها بأسمائه[1].

وخالف ابن حزم ههنا، فذهب إلى الحصر في العدد المذكور، ورد عليه الحافظ ابن حجر في الفتح فقال: وابن حزم ممن ذهب إلى الحصر في العدد المذكور، وهو لا يقول بالمفهوم أصلاً، ولكنه احتج بالتأكيد في قوله ﷺ: {مائة إلا واحداً}، قال: لأنه لو جاز أن يكون له اسم زائد على العدد المذكور، لزم أن يكون له مائة، فيبطل قوله: {مائة إلا واحداً}.

قال الحافظ: وهذا الذي قاله ليس بحجة على ما تقدم، لأن الحصر المذكور عندهم باعتبار الوعد الحاصل لمن أحصاها، فمن ادعى أن الوعد وقع لمن أحصى زائداً على ذلك أخطأ، ولا يلزم من ذلك أن لا يكون هناك اسم زائد[2]. اهـ

وأقول: صراحة؛ إنَّ الأمر فيه التباس؛ بين التوكيد في قوله ﷺ: {مائة إلا واحداً}، وبين حديث: { أسألكَ بكلِّ اسمٍ هوَ لكَ، سمَّيتَ بهِ نفسكَ، أو أنزلتهُ في كتابكَ، أو علَّمتهُ أحداً من خلقكَ، أو استأثرتَ بهِ فِي علمِ الغيبِ عندكَ} السابق تخريجه؛ فلعلَّنا نخرج بكلا الحديثين، أنَّ التسع وتسعين اسما المطلوب إحصاؤهم تمَّ حصرهم في الكتاب والسنَّة، وبقية أسمائه التي لا تعد، قد علّم بعضها لبعض خلقه، واستئأر بالباقي لنفسه، وهذا رأي حسن، فالله سبحانه لن ولم يطلب منَّا احصاء أسماءً استأثر بها في علم الغيب عنده، أو علَّمها أحدا من خلقه استئثارا له بها، فيكون بذلك لزوم الإحصاء من طريق الكتاب والسنة فقط، ويصح به التوكيد سابقا، ويصح به عدم معرفة عدد أسماء الله تعالى في ما استأثر به أو علمه لعبد دون الآخرين.

وكذلك يمكن أن يكون الإحصاء بعدم الحصر في الكتاب والسنَّة، رحمة من الله تعالى لأهل العلم، كي يتنافسوا فيما بينهم، فيجمع كل واحد منهم تسعا وتسعين اسما غير الذي جمعها غيره، والله أعلم بالصواب، ولكنِّي أنصح كل من له آلة البحث عن أسماء الله تعالى، أن يجمعها، فلعلَّ الله يقبل من الكل فهو كريم يعطي بلا حساب.



[1] للمزيد ينظر: الموسوعة العقدية لمجموعة من المؤلفين ج1 ص384.

[2] فتح الباري 221/11.

﴿ ثامنا ﴾

﴿ معنى إحصاء أسماء الله الحسنى ﴾

قال النبي ﷺ: للهِ تبارَك وتعالى تِسعةٌ وتسعونَ اسمًا مَن أحصاها دخَل الجنَّةَ[1].

وفي رواية: لِلَّهِ تِسْعَةٌ وتِسْعُونَ اسْمًا، مِائَةٌ إلَّا واحِدًا، لا يَحْفَظُها أحَدٌ إلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ، وهو وَتْرٌ يُحِبُّ الوَتْرَ[2].

أوَّلا: **قيل في معنى (أحصاها) كلام كثير وأراء متضاربة، ونحن نسرد شيئا منها ثمَّ نرجح ونزيد عليها: فمنهم من قال: أن يعدها حتى يستوفيها حفظاً، ويدعو ربه بها، ويثني عليه بجميعها، كقوله تعالى:** ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: 28]**، واستدل له الخطابي بقوله صلى الله عليه وسلم كما في الرواية الأخرى:** ﴿من حفظها دخل الجنة﴾[3]،[4].

وقال النووي: قال البخاري وغيره من المحققين: معناه حفظها، وهذا هو الأظهر لثبوته نصاً في الخبر.

وقال في الأذكار: وهو قول الأكثرين[5].

وقال ابن الجوزي: لما ثبت في بعض طرق الحديث (من حفظها) بدل (من أحصاها)، اخترنا أن المراد (العد) أي: من عدها ليستوفيها حفظاً.

ورد هذا القول الحافظ فقال: وفيه نظر، لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ (حفظها) تعيين السرد عن ظهر قلب، بل يحتمل الحفظ المعنوي.

---

[1] أخرجه البخاري (2736)، ومسلم (2677) باختلاف يسير.

[2] أخرجه البخاري 6410.

[3] رواه البخاري 6410 ومسلم 2677 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

[4] شأن الدعاء للخطابي 26.

[5] الأذكار للنووي 64.

وقال الأصيلي: ليس المراد بالإحصاء عدها فقط، لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العلم بها.

وكذا قال أبو نعيم الأصبهاني وابن عطية[1].

ثانيا: أن يكون المراد بالإحصاء (الإطاقة)، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ [المزمل: 20]، **أي لن تطيقوه، وكقول النبي ﷺ: {استَقيموا ولَن تُحصوا واعلَموا أنَّ خيرَ أعمالِكُمُ الصَّلاةَ ولا يحافظُ علَى الوضوءِ إلَّا مؤمنٌ}[2].**

أي: لن تبلغوا كل الاستقامة.

فيكون المعنى: أن يطيق الأسماء الحسنى ويحسن المراعاة لها، وأن يعمل بمقتضاها، وأن يعتبرها فيلزم نفسه بواجبها.

فإذا قال: يا رحمن يا رحيم، تذكر صفة الرحمة، واعتقد أنها من صفات الله سبحانه، فيرجو رحمته ولا ييأس من مغفرته.

وإذا قال: يا سميع يا بصير، علم أنه يراه ويسمعه، وأنه لا تخفى عليه خافية، فيخافه في سره، وعلنه، ويراقبه في كافة أحواله.

وإذا قال: يا رزاق، اعتقد أنه المتكفل برزقه يسوقه إليه في وقته، فيثق بوعده، ويعلم أنه لا رازق له سواه ...[3].

وقال أبو عمر الطلمنكي: من تمام المعرفة بأسماء الله تعالى وصفاته التي يستحق بها الداعي والحافظ ما قال رسول الله ﷺ (أي: من حفظها أو أحصاها دخل الجنة)، المعرفة بالأسماء

---

[1] الفتح11/ 226.

[2] رواه ابن ماجه 226 وأحمد 5/ 276 .22432 والدارمي 1/ 174 655 وابن حبان 3/ 311 (1037)، والطبراني 2/ 101– 1444 والحاكم 447 والبيهقي 1/ 82– 389 من حديث ثوبان رضي الله عنه. قال البوصيري في ((زوائد ابن ماجه)) 1/ 47: هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة، وقال المنذري في ((الترغيب والترهيب)) 1/ 130: إسناده صحيح، وجوّد إسناده النووي في ((المجموع)) 2/ 4، وحسنه ابن حجر في ((تخريج مشكاة المصابيح)) 1/ 181 كما قال في المقدمة.

[3] شأن الدعاء للخطابي ص 27 – 28 الفتح11/ 225 – 226.

والصفات، وما تتضمن من الفوائد، وتدل عليه من الحقائق، ومن لم يعلم ذلك لم يكن عالماً لمعاني الأسماء، ولا مستفيداً بذكرها ما تدل عليه من المعاني[1]. اهـ

ثالثا: أن يكون الإحصاء بمعنى العقل والمعرفة، فيكون معناه أن من عرفها، وعقل معانيها، وآمن بها دخل الجنة، وهو مأخوذ من الحصاة وهي العقل، والعرب تقول: فلان ذو حصاة، أي: ذو عقل، ومعرفة بالأمور[2].

قال القرطبي: المرجو من كرم الله تعالى أن من حصل له إحصاء هذه الأسماء على إحدى هذه المراتب مع صحة النية أن يدخله الله تعالى الجنة.

وهذه المراتب الثلاثة للسابقين، والصديقين، وأصحاب اليمين[3]. اهـ

وأقول: الإحصاء لغة: يأتي بمعنى العدِّ، وبمعنى المعرفة اليقينية[4].

ويكون إحصاء أسماء الله تعالى بهذا المعنى هو؛ أن يعدها، ولا يتمُّ العد إلا بالبحث عنها.

ثمَّ حفظها، لدلالة الرواية الثانية عليها وفيها: {مَنْ حفظهَا دخلَ الجنَّة}.

ثمَّ فهمها ومعرفتها والعمل بها، والعمل بها على نوعين:

الأول: عمل اللسان: وهو الدعاء بها، لدلالة قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: 180].

الثاني: عمل القلب: وهو استحضارها في سائر الأوقات، فيستحضر اسم الله الرزَّاق من كان به فقر وفاقة، ويستحضر اسم الله القوي من كان ضعيفا، والنصير إن كان مظلوما، وهكذا...



---

[1] الفتح11/ 226.

[2] شأن الدعاء ص 28 – 29، الفتح 11/ 225.

[3] الفتح 11/225.

[4] ينظر: معجم المعاني الجامع مادة: أحصى.

الخلاصة:

توحيد الأسماء والصفات معناه الاعتقاد الجازم بأن الله عز وجل له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وهو متصف بجميع صفات الكمال، ومنزه عن جميع صفات النقص، متفرد بذلك عن جميع الكائنات.

وأهل السنة والجماعة: يعرفون ربهم بصفاته الواردة في القرآن والسنة، ويصفون ربهم بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يلحدون في أسمائه وآياته، ويثبتون لله ما أثبته لنفسه من غير تمثيل، ولا تكييف ولا تعطيل، ولا تحريف، وقاعدتهم في كل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11].

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180].

وأهل السنة والجماعة: لا يحددون كيفية صفات الله جل وعلا لأنه تبارك وتعالى لم يخبر عن الكيفية، ولأنه لا أحد أعلم من الله سبحانه بنفسه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: 140].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 74].

ولا أحد أعلم بالله من رسوله ﷺ الذي قال الله تبارك وتعالى في حقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: 3 - 4][1].



[1] **الوجيز في عقيدة السلف الصالح لعبد الحميد الأثري – ص60.**

﴿المطلب الثاني﴾

﴿أدلة تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام﴾

سبق وذكرنا أنَّ؛

التوحيد لغة هو: الإفراد.

واصطلاحا هو: هو إفراد الله تعالى بالخلق، والملك، والتدبير، والعبادة، وبأسمائه وصفاته.

وبيَّنا أنَّ للتوحيد ثلاثة أركان وهي:

الركن الأول: توحيد الربوبية.

الركن الثاني: توحيد الألوهية.

الركن الثالث: توحيد الأسماء والصفات.

وهذه الأركان لا يصح إيمان العبد إلا بها[1]، فإن اختل ركن اختلت سائر الأركان.

والدليل على هذا التقسيم هو التتبع والاستقراء لنصوص الكتاب والسنة.

قال الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان: وقد دل استقراء القرآن العظيم على أن توحيد الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته.

الثاني: توحيده جل وعلا في عبوديته.

النوع الثالث: توحيده جل وعلا في أسمائه وصفاته[2].

وقال الشيخ بكر أبو زيد: هذا التقسيم الاستقرائي لدى متقدمي علماء السلف أشار إليه ابن منده وابن جرير الطبري وغيرهما وقرره شيخا الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وقرره الزبيدي في تاج العروس، وشيخنا الشنقيطي في (أضواء البيان) وآخرين رحم الله الجميع، وهو استقراء تام لنصوص الشرع، وهو مطرد لدى أهل كل فن، كما في استقراء النحاة كلام العرب إلى اسم

---

[1] ينظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي 125/1.

[2] أضواء البيان للعلامة محمد الأمين الشنقيطي 410/3.

وفعل وحرف، والعرب لم تفه بهذا، ولم يعتب على النحاة في ذلك عاتب، وهكذا من أنواع الاستقراء[1].

وهذا التقسيم موجود مع بداية التصنيف والتدوين لمسائل العقيدة، ومن الأدلة على ذلك بعض النصوص الواردة عن السلف في بيان ذلك:

النص الأول: للإمام أبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري حيث قال في كتابه الإبانة، ما نصه: ... وذلك أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته ليكون بذلك مباينا لمذاهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته ليكون مباينا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفا بها من العلم والقدرة والحكمة وسائر ما وصف به نفسه في كتابه ...[2].

وكلامه هذا صريح في أن أصل الإيمان بالله وتوحيده مبني على هذه الأمور الثلاثة: فسمى الأول اعتقاد الربانية، والثاني اعتقاد الوحدانية، والثالث اعتقاد اتصافه بالصفات العلى اللازمة لكمال الله سبحانه وتعالى.

والنص الثاني: للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده رحمه الله حيث فصل وبوب في كتابه القيم: كتاب التوحيد في الأقسام الثلاثة للتوحيد فمن تبويباته:

1 – ذكر ما وصف الله عز وجل به نفسه ودل على وحدانيته عز وجل؛ وأنه أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.

2 – ذكر معرفة بدأ الخلق.

3 – ذكر معرفة أسماء الله عز وجل الحسنة التي تسمى بها وأظهرها لعباده للمعرفة والدعاء والذكر، وأبواب أخرى كثيرة فمن أراد الوقوف عليها فليرجع إلى الكتاب المذكور.

---

[1] التحذير من مختصرات الصابوني في التفسير للعلامة بكر أبو زيد 133 حاشية رقم 2 ضمن الردود ط 1.

[2] الإبانة لابن بطة العكبري 2/ 172 – 173.

ولذلك وصف الكتاب ومباحثه محققه الدكتور علي الفقيهي بقوله:

قسم المؤلف التوحيد إلى أربعة أقسام، حيث جعل أسماء الله الحسنى قسما مستقلا، ثم أتبعها بالصفات، وأقسام التوحيد الذي ذكرها هي:

الوحدانية في الربوبية.

توحيد الألوهية وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله.

توحيد أسماء الله الحسنى.

الصفات[1].

وقد سبق هذين الإمامين إمام الأئمة أبو بكر بن خزيمة رحمه الله في تصنيف كتاب مستقل في توحيد المعرفة والإثبات وسماه كتاب (**التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل**).

فمن تأمل القرآن الكريم وجده مملوءً بتقدير أقسام التوحيد السابق ذكرها.

مثال: الفاتحة:

قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [الفاتحة: 1]، **فيها توحيد الألوهية، لتشمل الربوبية بأقسامها وهي الخلق والملك والتدبير، واللام من قوله تعالى {لله} هي لام والملك والاختصاص.**

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: 1]، **فيها توحيد للربوبية.**

كذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ﴾ [الناس: 1 – 2 – 3].

فيها توحيد للربوية، والأسماء والصفات، والألوهية.

وقوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21]، **فيها توحيد للربوبية والعبادة.**

وقوله جل وتعالى: ﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ [البقرة: 163]. **فيها توحيد للألوهية لتتضمن توحيد الربوبية، وفيها توحد الأسماء والصفات.**

---

[1] **التوحيد ابن مندة 1/ 33 تحقيق علي بن ناصر الفقيهي ط الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية.**

وانظر: في ذلك: القول السديد في الرد على من أنكر تقسيم التوحيد، عبد الرزاق البدر.

وقال سبحانه: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، **فيها أقسام التوحيد الثلاثة.**

ونلخص فصل الإيمان بالله على ما يلي:

الإقرار الجازم بوجود الله تعالى، وتوحيده في ألوهيته، أي: توحيده في العبادة فلا يصرف شيء من العبادة لغيره، وتوحيده في ربوبيته، أي: الاعتقاد الجازم أنَّ الله هو الخالق والمالك والمدبر لشؤون خلقه، وتوحيده في أسمائه وصفاته، وهو الاعتقاد الجازم أنَّ لله أسماء وصفات، ونثبت له منها ما أثبتها هو لنفسه أو أثبت له رسوله ﷺ بلا تكييف ولا تمثيل ولا تغيير من زيادة أو نقصان، ولا اشتقاق.

وبهذا نكون قد أتممنا فصل الإيمان بالله تعالى، وبه نكون قد أتممنا الجزء الأوَّل من هذا الكتاب، ونستفتح الجزء الثاني بالإيمان بالملائة، ثمَّ الكتب، ثمَّ الرسل، ثم اليوم الآخر، ثمَّ القدر، ثمَّ فروع العقيدة.

ونرجئ المصادر والمراجع إلى الجزء الأخير.



تمَّ الجزء الأوَّل من الكتاب والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

وصل اللهم على نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله ربِّ العالمين.

{الفهرس}